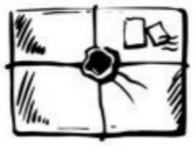
رف 404
الكتاب غير موجود...



ساعية البريد

404
الكتاب غير موجود...

ساعية البريد

تأليف: فرانشيسكا چانُّونيه
ترجمة عن الإيطالية: علا محمود

تحرير: عنان عبد العظيم
مُراجعةٌ لُغوية: كارم أحمد

الطبعة الأولى: يناير 2025
رقم الإيداع: 2024/21016
الترقيم الدولي: 9789778910209

© جميع الحقوق محفوظة للناشر

60 شارع القصر العيني – 11451– القاهرة – مصر
ت: 20227921943 +20227954529+
www.alarabipublishing.com.eg
alarabipublishing@gmail.com

تصميم الغلاف: سهيلة نبيل

© 2023 Casa Editrice Nord s.u.r.l.
Gruppo editoriale Mauri Spagnol
Originally published as *LA PORTALETTERE* by Francesca Giannone

رف 404
الكتاب غير موجود..

فرانشيسكا چانُّونيه

ساعية البريد

روايةٌ مِنْ إيطاليا

ترجمة عن الإيطالية: علا محمود

العربي للنشر والتوزيع

رُوعيت المعايير البيئية في أثناء إعداد هذا الكتاب
We took into consideration the environment while doing this book

تُرجم هذا العمل بمساهمة من مركز الكتب والقراءة التابع لوزارة الثقافة الإيطالية

CENTRO
PER IL LIBRO
E LA LETTURA

بطاقة فهرسة
چانُّونيه، فرانشيسكا
ساعية البريد/ تأليف: فرانشيسكا چانُّونيه؛ ترجمة: علا محمود.
- القاهرة: العربي للنشر والتوزيع، 2024
ص؛ سم.
تدمك: 9789778910209
1- القصص الإيطالية
أ- محمود، علا (مترجم)
ب- العنوان 853.

إلى أختي "إليزابيتَّا".
أينما ستكونين أنتِ، فسأكون أنا.

"ديبوراه" – هل انتظرت طويلًا؟
"نودلز" – العمر كله.

من فيلم "حدث ذات مرة في أمريكا" (1984)
للمخرج "سرجيو ليوني".

404
الكتاب غير موجود...

تمهيد

13 أغسطس 1961

ساعية البريد
"ليتسانيلُّو" (ليتشي) –بوليا- جنوب إيطاليا



"تُوفِّيت ساعية البريد!".

انتشر الخبرُ بسُرعةِ البَرقِ في كُلِّ شوارع البلدة وأزقَّتها.

علَّقت السيدة "كارميلا" التي أطلَّت برأسها من باب منزلها، فيما كان صوتها وهيئتها لا يزالان يحتفظان بآثار النُّعاس. قالت: "تخيلوا! أنا لا أصدق أن تلك المرأة ماتت فعلًا".

تجمَّع الأثر الأسود الباهت الذي خلَّفته الماسكارا التي وضعتها في اليوم السابق بالكامل في أثناء التجاعيد أسفل عينيها. ردَّت جارتها التي تسكن البيتَ المقابلَ، وهي مازالت بملابس النوم وهي ترسم إشارة الصليب – لروحها السلام. فيما أطلت أخرى من شُرفة منزلها وتدخلت في حديثهما قائلة: "قالوا إنها كانت مريضة، لم يرَها أحد في الجوار منذ مدة"، وأشارتْ سيدة أخرى بدينة كانت تتابع حديثهن وهي تكنس مدخل بيتها: "سمعتُ أنها أُصيبت بنزلة شُعبية".

أوضحت تلك السيدة التي كانت تقف في الشُّرفة قائلة: "أُصيبت إذن بمرض سُعاة البريد. أتتذكَّران "فيرُّوتشو"؟ هو أيضًا توفي في ريعان شبابه".

لوتِ السيدة "كارميلا" قسمات وجهها، وقالت: "سأذهب لكيِّ الفستان الذي سأرتديه في الجنازة".

ثم دلفتْ إلى منزلها. وفي أحد المنازل الواقعة قريبًا من مِنْطَقة وسط البلدة التي يشغلها السكان، حيث الساحة الفسيحة التي تكسوها أشجار الزيتون، كانت "چوفانَّا" جالسةً إلى طاولة المطبخ وقد أغرقتْ بدموعها بطاقةً بريدية مؤرَّخة بتاريخ 22 مايو 1936. طوتها ودسَّتها بين نهديها ثم خرجت من المطبخ.

وَفْقَ الترتيبات التي أوصتْ بها "أنَّا" قبل وفاتها فقد أُعِدَّ لعشية الجنازة في الجزء الخلفي للمنزل حيث الحديقة المليئة بالريحان وأشجار الرمان. وضعوا داخلَ نعشها إلى جانب الجثمان الهاون والمدقَّة اللَّذين كانتْ قد حملتهما معها من "ليجوريا" في الشمال قبل ثلاثين عامًا تقريبًا، ودفنوا معها كذلك زوجين من جوارب الأطفال حديثي الولادة، واحدًا باللون الوردي وآخر باللون الأزرق، وخاتم الزواج الخاص بـ"كارلو"، الذي أصرَّت "أنَّا" على أن تحمله معها في مثواها الأخير. ألبسوها إياه في الأصبع نفسها التي ترتدي فيها خاتم زواجها. وهكذا، وبعدما قررتْ ما تريده إلى جانبها في النعش قالت قبل أن تلفظ أنفاسها الأخيرة بساعات قليلة إن تلك الأشياء هو كل ما تحتاج إليه لتوديع الحياة والرحيل عن هذا العالم.

كان "روبرتو" يتجوَّل بالقرب من النعش وهو يدخن دون توقُّف سجائرَ دون فلتر من ماركة "ناتسيونالي". أما زوجته "ماريا" فجلست على واحدٍ من الكراسي المصنوعة من القش المصطفَّة حول النعش كما لو كانت أذرعًا واقيةً لحمايته، ولكنَّها كانت كثيرة التململ.. أصبحتْ في الشهر التاسع من حملها وكبر بطنها وانتفخ، وهذا البطن الذي يحمل جنينها كان يجعلها على الدوام تتصبب عرقًا غزيرًا بشكل لا يوصف. قطعتْ على نفسها وعدًا أنه في حالة كان المولود أنثى فستسمِّيها "أنَّا".

بدأ طابور من الرجال والنساء الذين جاءوا لتقديم التعازي يتوافد على المنزل منذ أول شعاع من ضوء نهار يوم الجنازة. فكرتْ "ماريا" وهي تبدل مكانها لمرةٍ

لا يُحصيها العد، "من حسن الحظ أنني جهزتُ أعدادًا وفيرة من أباريق القهوة". في تلك اللحظة دخلتْ زُمرة من النساء تقودها السيدة "كارميلا" وقد ارتدتْ ثوبًا ضيقًا أزرقَ ورفعتْ شعرها بطريقة الكعكة وكحَّلت جفنيها بخطٍّ سميكٍ من الكحل الأسود. سارتْ خلال الحديقة مرفوعةَ الرأس ومنتفخةَ الصدر كما لو كانت البطلة الأولى لمسرحية ما وتقدمتْ حتى وصلتْ إلى النعش وهي تدرك أن نظرات الحضور تتابعها بفضول وتلتصق بها كالذباب الصغير، وهو ما أثار لديها شعورًا بالفخر والاعتزاز بنفسها. كانت تعرف سابقًا ماذا ستفعل بالضبط، أما القبلة فمن أجل السيدة المتوفاة، وأما مصافحة اليد فكانت لـ"ماريا"، في حين كان العناق من نصيب "روبرتو"، لقد أدَّت الدور الذي رسمته لنفسها ببراعة.

ظلَّت "كارميلا" محطَّ أنظار جميع الحضور واهتمامهم حتَّى كان وصول "چوفانَّا" الذي سرق منها المشهد وصرف عنها الأعين، إذ دخلت "چوفانَّا" مندفعة إلى حديقة المنزل وارتمت على جثة "أنَّا"، ضمَّتها بين ذراعيها وأخذت تُقبِّل وجهها طويلًا، وهذا ما أشعر جميع الحضور بالإحراج وعدم الارتياح.

تمتم أحدهم قائلًا: "لطالما كانت تلك المرأة غريبة بحق".

ثمَّ نهضت "چوفانَّا" على قدميها وأخرجتْ من بين نهديها تلك البطاقة البريدية، فتحتها وسلَّمتها لـ"روبرتو" الذي كان قد أشعل لتوِّه سيجارة أخرى.

سألها "روبرتو" فيما يقلب البطاقة بين كفيه: "ما هذه؟".

أجابت "چوفانَّا" وهي تمسح عينيها من الدموع: "اقرأها".

قرأ "روبرتو": "مع وافر التحيات الطَّيبة". ثم حدَّق حائرًا إلى "چوفانَّا".

أشارت "چوفانَّا" بإصبعها إلى زاوية في يمين البطاقة من الأعلى وقالت: "لا، ليس هناك. اقرأ هنا، أترى المكتوب؟".

انتبه "روبرتو" إلى أن طوابع البريد قد انتُزِعَتْ كاشفةً عن مجموعة من الكلمات المكتوبة بأحرف صغيرة. فسَّرت "چوفانَّا" الأمر بصوتٍ متقطِّع لفرط البكاء: "إنها فكرة أمك، هي فقط من كان يمكنها أن تبتكر فكرةً كهذه".

قرَّب "روبرتو" البطاقة من عينيه باذلًا أقصى جُهْده لتبيُّن الكلمات المكتوبة ثم تطَلَّع إلى "چوفانَّا" بنظرات تائهة. شرحتْ له "چوفانَّا": "كانت تساعدني على كتابة رسائل سرية بهذه الطريقة إلى حبيبي، أكتب ما أريد ثم ألصق عليه طوابع البريد، هكذا كنا نتبادل الرسائل لسنوات".

ابتسم روبرتو ابتسامةً باهتةً وتأهَّب لإعادة البطاقة إلى صاحبتها، ولكنَّ "چوفانَّا" أوقفتْه، أراحتْ يدها على يده وقالت في إصرار: "لا، عليك أن تحتفظ بهذه، كذكرى".

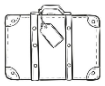
ردَّ عليها: "حسنًا".

وافق "روبرتو" على الاحتفاظ بالبطاقة، وبينما يحدق إلى "چوفانَّا" وهي تبتعد بخطوات متثاقلة أعاد طيَّ البطاقة، ودسها في الجيب الجانبي لمعطفه. في تلك اللحظة، اقتربتْ عجوزٌ ذات وجه ممتلئ وشعر رمادي كثيف رفعته من مفرق رأسها على شكل ذيل حصان، ووضعتْ مزهريةً تحوي بعض الزهور البيضاء عند قدم النعش. فكَّر "روبرتو"، وهو يلقي بعقب سيجارته على الأرض، وهو لا يدري أكان العم "أنطونيو" سيأتي لحضور الجنازة. وتساءل بينه وبين نفسه أكان قد قرأ الرسالة التي طلبتْ منه والدته أن يسلمه إياها؛ إذ سلمته وهي تُحتَضَر ظرفًا أبيضَ مختومًا وقالت له: "أعطِه لعمك فورَ رحيلي".

لم يعدْ "أنطونيو" و"أنَّا" يتحدثان مع بعضهما منذ تلك الليلة التي مضى عليها تسع سنوات. كيف يصبح الحب عنيدًا بالقدر الذي يجعله يفسح طريقًا أمام الكراهية؟

الجزء الأول

من يونيو 1934 إلى ديسمبر 1938



1

"ليتسانيلُّو"(ليتشي)، يونيو 1934

في وقت مبكر من بعد الظهر توقفت الحافلة الزرقاء، المتهالكة والمغطاة بالصدأ محدثةً صريرًا عند احتكاكها بالأسفلت الملتهب. كانت الرياح، شديدة الحرارة والرطوبة، تُحرِّك أوراق النخلة الكبيرة في وسط الميدان الخالي من المارة. نزل الركابُ الثلاثة الذين لم يكن على متن الحافلة سواهم: كان "كارلو" هو أول من نزل من الحافلة وهو يضغط بأسنانه سيجارًا مطفأً، بدا شديد الأناقة في صدريَّة وحذاء جلدي بُني ماركة "أوكسفورد" يلمع كالمرآة؛ فقد احتفظ بنظافته ولمعانه ولم تشُبْه شائبة بعد رحلة دامت يومين، كانت بدايتها بالقطار ثم استكملها بالحافلة. مشَّط شاربه بيده وأخذ يتشمم منتشيًا وعيناه مغلقتان تلك الرائحة المميزة التي طالما احتفظت بها بلدته؛ مزيجًا من رائحة عجين طازج متبل ببهار "الأوريجانو" ورائحة تراب رطب ونبيذ أحمر. كم اشتاق إلى هذه الروائح في سنوات إقامته في الشمال، أولًا في "بيمُنتي" ثم في "ليجوريا". وفي الآونة الأخيرة صار ذلك الحنين الذي طالما لازمه تجاه بلدته مستمرًّا، ثابتًا ومؤلمًا كثقل يجثم على

صدره. نزع "كارلو" قبعة "بورسالينو" التي كان يعتمرها فوق رأسه واستخدمها كمروحة ليخفف من حرارة الجو، ولكنها لم تنجحْ إلا في أن تنقل له مزيدًا من الهواء الساخن. ففي فصل الصيف –وطبقًا لما يتذكره عندما كان يعيش في البلدة- تهبُّ رياح "شهيلي" عنيفةً وقوية قادمة من إفريقيا على بلدته.

اكتشفتْ "أنَّا" ذلك الحر الخانق حالما وطأتْ قدماها أرض البلدة. ارتدتْ "أنَّا" فستانًا طويلًا أسودَ،، وكانت بالكاد تتمكن من حمل "روبرتو"، وهو طفل يبلغ من العمر عامًا واحدًا ويتمتع بنظرة مفعمة بالحيوية والنشاط.

مدَّ "كارلو" يده إلى "أنَّا" لمساعدتها على النزول من الحافلة، ولكنها هزتْ رأسها. قالت دون أن تنجح في إخفاء انزعاجها: "سأنزل بنفسي".

إن فرحة "كارلو" وحماسه بالعودة أخيرًا إلى بلدته كأنه طفل أعادوا إليه لعبته المفضلة بعد مدة طويلة من العقاب، كان بالنسبة لـ"أنَّا" أمرًا غير مفهومٍ. وإضافة إلى ذلك كانت تريد فقط أن تحصل على قسطٍ من النوم، فقد كانت رحلتهم شاقة. تطلعتْ إلى الساحة من حولها، وانتبهتْ إلى اللون الأصفر الشاحب الغريب الذي يكسو المباني وإلى لافتاتِ المحال التِّجارية الباهتة وبرج القلعة الضخمة رمادي اللون. كان هذا تصويرًا لمشاهد حياتها الجديدة في هذه البلدة، حيث كل شيء مختلف عما عرفته واعتادته في حياتها، وانتبهتْ في تلك اللحظة –بينما شعرت بوخزٍ في صدرها- كم صارت بعيدة الآن عن إقليمها العزيز "ليجوريا"، وبلدية "بينيا" المستلقية أعلى التلة، التي تمتلئ بغابات الكستناء.

تمتم "كارلو" وهو ينظر حوله: "كان لا بُدَّ أن يكون "أنطونيو" هنا فعلًا. هو يعرف سابقًا أن الحافلة تصل في الساعة الثالثة".

رفع نظره إلى الساعة الكبيرة الخاصة بمبنى البلدية وقال: "والساعة الآن الثالثة والربع".

أجابته "أنَّا" وهي تجفف جبين "روبرتو" المتعرق بطرف كم فستانها: "لن أُدهَش كذلك إن كانت الساعات في هذه المِنْطَقة تتقدم ببطء شديد".

نظر إليها "كارلو" بنظرة مرحة ثم هز رأسه وهو يضحك ضحكةً مكتومة. كان يحب كل شيء في زوجته حتى سخريتها اللاذعة.

وصل "أنطونيو" بعد ذلك بدقائق قليلة لاهثًا والعرق يتصبب من جبهته، وقد أفلتت خُصْلَة من شعره من دهان تلميع الشعر الذي كان يضعه. صاح "كارلو" وهو يركض نحوه، وقد انفرجتْ أساريره: "ها هو!".

لفَّ ذراعيه حول رقبة أخيه وضمه إليه بقوة، ثم قفز فوقه لدرجة أن "أنطونيو" فقد توازنه وكاد يسقط.

نظرتْ "أنَّا" إلى الرجلين وهما يضحكان كالأطفال ولم تبرح مكانها، فلحظة حميمية كهذه لا بُدَّ أنها تخصهما فقط. فخلال سنوات حياتهما في "ليجوريا" لم يمرَّ يوم دون أن يذكر فيه "كارلو" شقيقه: "كان "أنطونيو" ليعتقد هذا"، "كان "أنطونيو" ليفعل ذلك"، "هل حكيتُ لكِ من قبل عن تلك المرة التي قمنا فيها أنا و"أنطونيو" بـــ...".

رغم سنوات البعد التي لم تنقطع فيها طرود المواد الغذائية وزيت الزيتون التي كانت تُرسَل بانتظام وفي مواعيد محددة من الجنوب، عوضًا عن البطاقات البريدية والرسائل والبرقيات، فإن علاقتهما لم تتأثر سلبًا، بل على العكس توطدت أكثر.

أمسك "كارلو" بـــ"أنطونيو" من مرفقه وسحبه ليقف في مواجهة "أنَّا". وحالما أصبح على بعد شبرٍ واحدٍ منها أدهشها قدر الشبه بينه وبين زوجها؛ كانا يتقاسمان الوجه الرفيع نفسه وحدقتي العين شديدتي السواد وطرف الأنف المستدير والشفة السفلية الأكثر انتفاخًا بقليل من تلك العلوية. ولم يكنْ يميز "أنطونيو" عن أخيه سوى أن وجهه يحوي تجاعيدَ أكثر، وأنه لم يكن لديه شارب. كان "أنطونيو" بالنسبة إلى "كارلو" أشبه بلوحة نُسِخَتْ بدقة عالية عن الأصل.

قال "كارلو" وهو في غاية السرور: "هذه هي "أنَّا" زوجتي، وهذا الطفل الوسيم هو ابن أخيك. هأنت قد رأيتَه أخيرًا وتعرَّفته".

ابتسم "أنطونيو" في خجل ثم مدَّ يده لمصافحة "أنَّا" التي لم تمسك بكفه بقوة وإحكام. لكنْ حالما التقتْ نظراتهما، انتبهتْ "أنَّا" أنهما رغم تشابههما في كل شيء تقريبًا فإن نظرتهما ليست واحدة على الإطلاق، فلـ"كارلو" نظرة ماكرة ومغوية، أما "أنطونيو" فلديه نظرة حادة وحزينة بدت لـ"أنَّا" كأنها تخترقها وتنبش في أعماقها، وهذا ما أشعرها بخجل وإحراج شديدين، لذا أشاحتْ بنظرها عنه. قالت لنفسها: "حسنًا، لقد احمرَّت وجنتاي خجلًا، يا للعنة!".

أبعد "أنطونيو" كذلك نظره عنها ثم ابتسم وقال موجهًا حديثه إلى "روبيرتو" وهو يُربِّت بلطف على رأسه الصغير: "أنا عمك".

أعطتْه "أنَّا" صغيرَها وقد أبقتْ عينيها منخفضتين فيما كان ضوء الشمس ينعكس على خاتم زواجها المصنوع من الذهب، فبدا براقًا لامعًا.

أضاء وجه "أنطونيو" وهو يحمل الطفلَ من تحت إبطيه وقال بلهجة منطقة "سالينتو" متأملًا وجهه: "كم أنت جميل".

تدخل "كارلو" مُعلِّقًا: "جميل مثل أمه".

وبظهر يده داعب بلطف وجنة "أنَّا".

لم تتحاشَ "أنَّا" مداعبته كما أنها لم تعلق على مديحه لها، لكنْ كان من الواضح أنها ليست في مزاج مناسب لتقبل المجاملات والتفاعل معها.

أنهى سائق الحافلة -الذي ابتلَّ قميصه عرقًا حتى التصق بجسده- إنزال الحقائب وصندوقٍ ضخمٍ من الكرتون، ثم ودَّع هذه الرفقة الصغيرة رافعًا حافة قبعته ومشى لاهثًا بوهنٍ تجاه البار الوحيد في الميدان، والذي يُدعى بار "كاستيلُّو".

أمسك "كارلو" بالحقيبتين وأمر "أنطونيو": "اهتمَّ أنت بهذا الصندوق".

وانطلق في طريقه.

انتزعتْ "أنَّا" صغيرها "روبرتو" من بين ذراعيْ عمه ثم أوعزت إلى "أنطونيو": "انتبهْ جيدًا! فهذا الصندوق يحوي أثمنَ وأغلى ما أملك في حياتي".

أدركتْ "أنَّا" وقد انتابها شعور طفيف بالإحراج، أن هذه هي الكلمات الأولى التي تُوجِّهها إليه منذ وصوله. أجاب "أنطونيو": "سأكون حذرًا. أعدكِ بذلك".

رفع الصندوق برفق وأسند قاعدته بثبات بكلتا يديه وتبع شقيقه.

سارت "أنَّا" إلى جانبه وبدا أن صوت طقطقة كعب حذائها على الأرض المرصوفة بالحصى الأملس الزلق يتوافق مع وتيرة أنفاسها اللاهثة قليلًا.

طمأنها "أنطونيو": "لقد وصلنا تقريبًا". وابتسم لها ابتسامة خفيفة.

يقع المنزل الذي سيعيش فيه "كارلو" و"أنَّا" في شارع "بالادِيني" على بعد خطوات قليلة من الميدان. وهو المنزل الذي سكنه في وقت من الأوقات "لويجي" خال "كارلو" الملقب بـ"المالك" لكثرة الأفدنة التي كان يمتلكها. جمع الأموال، ولكنه لم ينجبْ أبناءً، لذا ترك كل شيء لـ"كارلو" و"أنطونيو"؛ الأراضي والبيوت ومبلغًا ماليًّا كبيرًا يُمكِّنهما من العيش ميسوري الحال بعضَ الوقت.

اعتقدتْ "أنَّا" أن الذنب في اضطُرَّارها إلى ترك حياتها وتلاميذها في "بينيا" وانتقالها للعيش في الجنوب يقع كله على عاتق ذلك الخال اللعين، ولهذا كرهته "أنَّا" رغم أنه لم يعد على قيد الحياة.

وضع "أنطونيو" الصندوقَ أمام مدخل البيت وبحث في جيب بنطاله عن المفتاح. أدخله في مزلاج الباب الخشبي الكبير وفتحه على مصراعيه؛ كشف شعاعُ الضوء الذي تسلل من الخارج عن فناء أنيق بقبو ذي شكل نجمي وجدران حجرية عسلية اللون، وتوسطتِ الفناء طاولةٌ صغيرةٌ مستديرة من الرخام وكرسيان من الحديد المطاوع، وفي إحدى الزوايا انتصبتْ مزهرية من الفخار تحوي نبتةً جفتْ منذ شهور ربما لا يعرف أحد عددها.

ترك "كارلو" الحقائبَ في فناء المنزل وأخذ يتجول في أرجاء البيت، صعودًا وهبوطًا من خلال الدرج يفتش في كل ركن من أركانه، ويرفع الملاءات عن أثاث غرفة المعيشة الكبيرة التي تحوي مدفئة. كانت نظرات "أنطونيو" الذي وقف مستندًا إلى إطار باب البيت تلاحق "كارلو" في تأثر واضح، وقد شعر بفيض من الأحاسيس والعواطف يغمره. كم اشتاق إلى "كارليتُّو" المرح، شقيقِه الصغير الحنون، ذي القلب الطيب الذي كثيرًا ما غمره بأحضانه الدافئة. لم يشعرْ "أنطونيو" بحاجة قطُّ إلى الآخرين ما دام "كارلو" إلى جانبه، كان أخاه طبعًا، ولكنه كان قبل كل شيء أقرب أصدقائه وأعزهم، رفيقه المفضل في نزهاته ومغامراته، الوحيد الذي كان يعرفه حق المعرفة. حالما غادر "كارلو" البلدة، أطبق عليه شعور بأنه وحده في هذا العالم. ولم ينجحْ أحد من بعده في أن ينتزعه من وحدته هذه، ولم يتمكنْ أحد غيره من أن يضفي لونًا على عالمه الباهت. بل أدرك في ما بعد -وهو ما أشعره بقليل من الأسف وتأنيب الضمير- أن حتى زوجته "أجاتا" وابنته "لورينسا" لم تنجحا في فعل ذلك.

نظرت "أنَّا" حولها وهي تضم طفلها إلى صدرها، وفكرت في أن هذا البيت أكبر من أن يسكنه فقط ثلاثة أشخاص، وأن أسقفه عالية بشكل مبالغ فيه بما لا يتناسب مع ذوقها. كانت لديها قناعة بأن الحب لا يحتاج إلى حجرات كثيرة ولا إلى غرف نوم مُقفَلة بالمفاتيح، فقد قضيا سنواتِ زواجهما الأولى في بيت من ثلاث حجرات له أسقف منخفضة، ومع ذلك كانا سعيدين، آه، كم كانا سعيدين! اعتقدت "أنَّا" أن المساحات الواسعة في المكان نفسه من شأنها أن تزيد الفجوة بين قلوب ساكنيه، فمنذ متى عاشتِ الأميراتُ سعيداتٍ في القصور؟! صاح "كارلو": "أنَّا" تعالي لأريكِ شيئًا".

ذهب إليها وجذبها من يدها ونادى شقيقَه: "تعالَ أنت أيضًا يا "أنطونيو".

قادها خلال حجرة المعيشة ثم غرفة الطعام وأخيرًا خلال المطبخ المفضي إلى حديقة صغيرة غاصَّة بأشجار الرمان.

ابتسمت "أنَّا"، وهو ما لم يحدث منذ اللحظة التي ركبتْ فيها القطار المتجه إلى الجنوب، ولكنَّ هذا المنظر كان أول علامة حقيقية تبعث بالأمل في هذه الرحلة. أعجبها كل شيء في الحديقة: الأزهار الحمراء على شكل كؤوس وبتلاتها الصفراء والأوراق الخضراء بأطرافها الدقيقة، كما أُعجبت بالتباين القوي الواضح بين الألوان وكذلك الجذوع الملتوية، وستزرع في ما بعد كميةً كبيرة من الريحان لكي يعبق المكان برائحته العطرة. كان ذلك كثيرًا بما يكفي كي يُشعرها أنها في بيتها. ولو بقدر قليل على الأقل.

صاحت "أنَّا" بالفرنسية: "Quel délice! Mon jardin secret!" (يا للسعادة! ها هي حديقتي السرية!). وقبَّلت وجنة طفلها الحلوة، وزكية الرائحة.

نظر "أنطونيو" في دهشة وذهول إلى شقيقه كأنه يُوجِّه إليه سؤالًا بعينيه. فقال له "كارلو": "نعم، من حين إلى آخر تقول عزيزتي "أنَّا" بعض العبارات باللغة الفرنسية. تعلم...".

استدارت "أنَّا" نحو "أنطونيو" وقالت مقاطعة زوجها: "هذا شيء طبيعي للغاية في مدينتي، فقد كبرتُ في مِنْطَقة تقع على الحدود الإيطالية مع فرنسا".

نظرتْ إلى "أنطونيو" بعينيها الواسعتين، بلونهما الذي يشبه لون أوراق شجر الزيتون والذي يُبرزه ويزيد من جمالهسوادَ شعرها المصفَّف على هيئة ضفيرة تنسدل ناعمةً بلطف على ظهرها.

احمرَّت وجنتا "أنَّا" خجلًا، وهو ما كان يظهر جليًّا على بشرتها الناعمة الرقيقة التي تكشف بسهولة عن شخصٍ لا ينتمي إلى هذه المِنْطَقة. لم يتمكن "أنطونيو" من أن يحدد أكانت حرارة الجو هي سبب احمرار وجنتيها أم إنه هو نفسه من أشعرها بالخجل مرة أخرى. ثم أدارت "أنَّا" ظهرها للرجلين وأخذت تتحسس بلطف جذع إحدى أشجار الرمان.

فكر "أنطونيو" بينه وبين نفسه أكان هناك كتاب لقواعد اللغة الفرنسية في المكتبة المحلية. سيذهب غدًا ليسأل عنه بنفسه.



تلك الليلة انهالت "أجاتا" زوجة "أنطونيو" عليه بالأسئلة. "لتخبرني إذن، ما شكلها؟ هل هي طويلة؟ هل كانت ترتدي ملابس أنيقة؟ هل راقها البيت؟ ماذا قالت؟ هل كانت تبدو سعيدة؟".

نهض "أنطونيو" عن كرسيه وقال متنهدًا: "لا أعرف. أعتقد أنها كانت سعيدة".

كانت "أجاتا" تعرف كيف تصبح مزعجةً وصعبةَ المراس في بعض الأحيان. وقفتْ زوجته خلفَه وواصلتْ أسئلتها: "هل هي جميلة؟".

"هل كانت جميلة؟"، لم يقابلْ "أنطونيو" طَوال حياته أنثى كهذه. كان جمالها بالنسبة إليه بمنزلة لطمة أردته مشدوهًا. هاتان العينان الخضراوان؛ لم يتمكنْ من التوقف عن التفكير فيهما: عينان حادتان، براقتان، تشعان نورًا، فيهما حوَل طفيف جميل للغاية بالكاد يمكن ملاحظته، وخطَّان رفيعان رقيقان من التجاعيد يؤطران هاتين العينين، ثم أنفها المستقيم المنتصب وسط وجهها في فخر واعتزاز والذي يجعلها أشبه بتمثالٍ يوناني، ومشيتها الثابتة الواثقة رغم هذين الكعبيْن النحيليْن اللذيْن يبدوان كما لو كانا ينتميان إلى طفلة.

أجاب "أنطونيو" عن سؤالها هذا: "عادية، لم أنتبهْ أكانت جميلة أم لا".

ردَّت زوجته بنبرة لائمة ومحبطة: "مستحيل ألا تنتبه!".

أرادت تقريرًا مفصلًا عن تلك المرأة ولكنها اضطُرَّت إلى الاكتفاء ببضع كلمات لم تشبع فضولها. تأففتْ "أجاتا" وقالت لزوجها: "اجلس! هيا".

ثم صرختْ موجهةً نظرها نحو الأعلى حيث غرفة ابنتها في الطابق العلوي: "لورينسا"! الطعام جاهز، تعالي لتأكلي".

بينما خرجت "أجاتا" من المطبخ حاملةً قدرًا كبيرة يتصاعد منها الدخان حيث رفعتها لتوِّها من على النار، سمعتْ وقع خطوات طفلتهما الرشيقة والسريعة وهي تنزل من على الدرج. حيَّت "لورينسا" والدها: "مرحبًا يا أبي".

وقبَّلت خده قبلة رنانة.

ربَّت "أنطونيو" رأسها وحالما جلست الطفلة إلى منضدة الطعام، سألها "أنطونيو" عما درسته في المدرسة ذلك اليوم. كان يتطلع إلى تغيير الموضوع بفارغ الصبر وتمنى أن يُسكِت حضور الطفلة زوجته "أجاتا" نهائيًّا ويمنعها من مواصلة حديثها عن زوجة أخيه.

غرفتْ زوجته شُوربة الخُضار في طبق ابنتهما "لورينسا" ثم أخذتْ طبق زوجها وغرفتْ له هو أيضًا. تأمل "أنطونيو" في تلك اللحظة يدَ زوجته وفكر: "هاتان اليدان اللتان يجدهما على الدوام في حالة يُرثى لها؛ بمفاصل أصابعهما المخدوشة وأظفارهما المتآكلة من فرط ما تقرضها".

مرَّت عشر سنوات على لقائه الأول بزوجته، ولا يزال يشيح بنظره عن يديها كلما وقعت عيناه عليهما. وفي المرة الوحيدة التي نصحها فيها بخجل وعلى استحياء أن تعتني بيديها أنهتِ الموضوع بفظاظة وقالت في غضب وانزعاج: "كيف تريدهما أن تكونا؟ هاتان يدان لا تعرفان سوى الشقاء".

أما يدا "أنَّا" فعلى العكس من ذلك تمامًا. لقد لاحظهما طبعًا. فهما تبدوان عند النظر إليهما ناعمتين ويبدو جليًّا أنها تعتني بهما جيدًا.

قالت "لورينسا" بنبرة غنائية: "إيطاليا شبه جزيرة، وهذا يعني أن البحر يحدها من ثلاث جهات".

بترتْ أمها وهي تجلس إلى الطاولة عبارتها الغنائية موجهة حديثها إلى "أنطونيو": "متى سنلتقيها؟".

أجابها زوجها وهو ينفخ في الملعقة كي تبرد الشوربة: "دعينا نترك لهما وقتًا كي يرتبا أمورهما".

صاحت "أجاتا" متظاهرة بأنها لم تسمعْه: "لنعدَّ غداءً ترحيبيًّا. هذا حقًّا ما نحتاج إليه. وليكن هذا الغداء يوم الأحد المقبل!".



استيقظت "أجاتا" يوم الأحد التالي مع أول ضوء للنهار. خرجتْ من غرفة نومها وأغلقتِ الباب وراءها بهدوء حتى لا توقظ "أنطونيو" وتوجهت إلى الحمام. خلعت قميص النوم الأبيض الذي يضيق على ردفيها الممتلئين وارتدت فستانًا قصيرًا من القطن بنيًّا، مريحًا وبكمَّين قصيرين كانت قد خلعته في الليلة السابقة وعلقته بجانب منشفة اليد. نظرت إلى نفسها في المرآة ثم مررتِ الفرشاةَ بسرعة على شعرها نُحاسي اللون عدة مرات، ثم ربطته بإحكام إلى الأسفل على هيئة ذيل حصان، وغسلت وجهها.

نزلت "أجاتا" الدرجَ بخطوات هادئة حريصة على ألا تحدث ضجة من حولها وتوجهت إلى المطبخ. أعدت إبريق الموكَّا ووضعته على النار، وفي أثناء ذلك بدأتْ في تقطيع بصلة وجزرة وعود من الكرفس. ملأت مقلاة عميقة بالزيت وألقت فيها قطع الخضراوات. سرعان ما عجَّ المطبخ كله برائحة الشوي التي اختلطتْ برائحة القهوة. أفرغتْ في المِقلاة ذاتها زجاجتين من معجون الطماطم، وأضافت الملح إلى الخليط ثم غطتْه بالكامل.

جلستْ دقيقةً كي تشرب قهوتها فيما تراجع ما يتعين عليها فعله؛ يجب أن تعدَّ العجين من أجل المكرونة "الأوريكيتَّة" التي تشتهر بها جنوب إيطاليا، وتقطعها وتشكلها بيدها واحدة واحدة. سألت نفسها: "هل أُعِدُّ كيلوجرامًا واحدًا منها؟ نعم، يمكن لهذه الكمية أن تكفي"، ويتعين عليها أن تشكل كرات الخبز والجبن وتحمرها ثم تطهوها مرة أخرى في الصلصة الخاصة بها. تخيلت الغداء وتخيلت نفسها وهي تضع الأطباق على المائدة واحدًا تلو الآخر، بل تخيلت كذلك ردود أفعال "كارلو" و"أنَّا" وتعليقاتهما على طبخها، كأن يقول "كارلو" وهو يدير يده في الهواء علامة على إعجابه الشديد بالأكل: "يا إلهي! يا للمذاق الطيب! آه، كم كنت أشتاق إلى أكلات بدلتنا هذه"، و"هذه الكرات لذيذة للغاية، يبدو كأننا نأكل لحمًا حقيقيًّا لا مجرد خبز وجبن!"، في حين يمسح الجميع أطباقهم

بقطع من الخبز ويأكلونها كي يستمتعوا بالمذاق الطيب للصلصة حتى آخر قطرة منها، فيما ينظر إليها "أنطونيو" بنظرة مليئة بالفخر وهو يفكر في كم هو محظوظ كونه اختار زوجة تتمتع بهذه المهارة في الطبخ.

تضيف "أنَّا" في تلك اللحظة وهي تنظر إليها بإعجاب: "عليكِ أن تعلميني كيف أصنع هذا"، لترد عليها "أجاتا" بابتسامة بأنها ستعلمها إياه بكل سرور. هي على يقين بأنهما ستصيران صديقتين مقربتين.

شربتِ الرشفة الأخيرة من قهوتها ونهضتْ ووضعتِ الفنجان المتسخ في الحوض، أخذتْ رغيفًا من خبز "البوتشا" من الخزانة وبدأتْ تحفر فيه بأصابعها كي تُخرِج منه لُبابته.

أما عن الحلوى فقد قررت أن يتولى "أنطونيو" أمرها. فحالما يستيقظ، سترسله إلى بار "كاستيلُّو" لشراء صينية من الكعك الصغير باللوز.

طرقتْ "أنَّا" و"كارلو" البابَ في موعدهما المحدد، في الثانية عشرة والنصف. قالت "أجاتا" وقد التمع في عينيها وميض فرح: "ها هما قد وصلا!".

فكتْ عقدة مئزرها وألقت به على كرسي في المطبخ، وركضت لتفتح لهما الباب. أما "أنطونيو" الذي كان جالسًا على كرسي يقرأ جريدة "كورِّيريه ديلَّا سيرا"، فطوى الجريدة ونهض ووضع يديه في جيبي بنطاله. فتحت "أجاتا" البابَ وصاحتْ بصوتٍ رنان ووجنتين محمرَّتين، وقالت: "أهلًا وسهلًا!".

ابتسم لها "كارلو" واندفع لمعانقتها. لم يلتقيا خلال سنوات زواجها العشر بـ"أنطونيو" سوى ثلاث مرات فقط، ولم يبقَ معهما سوى بضعة أيام، كان أولها عندما جاء "كارلو" إلى "بوليا" كي يكون شاهدًا على عرسهما، والمرة الثانية كانت للاحتفال بميلاد صغيرتهما "لورينسا"، أما الثالثة فكانت لحضور جنازة والده.

وقفتْ "أنَّا" على الباب حاملةً "روبرتو" على كتفها وقد كان غارقًا في نومه. قالت "أجاتا" وهي تطبع قبلتيْن بللتا وجنتي ضيفتها بالعرق: "عزيزتي "أنَّا".

ثم أكملت بصوت متهدج: "وأخيرًا! كنت أتوق إلى رؤيتكِ وتعرُّفكِ".

فَرَدَتْ ذراعها ودعتْهما للدخول، قائلة: "تفضلا، ادخلا واجلسا أينما تريدان"، وجففتْ بأصابعها العرق الذي كان يسيل على وجهها ما بين أنفها وشفتيها.

تقدم "أنطونيو" نحوهما، وعانق شقيقه، ثم رفع ذقنه وسلَّم على "أنَّا". سألها وهو يبتسم لها ابتسامة خافتة: "كيف حالك؟".

أجابت "أنَّا" وهي تنظر حولها مرتبكة قليلًا: "بخير. بخير بقدر ما يمكن للمرء أن يشعر بالراحة في...".

قاطعها "كارلو": "وماذا عن ابنة أخي؟ أين هي؟ لا بُدَّ أنها أصبحت الآن آنسةً".

صرخت "أجاتا" ناحية الدرج: "لورينسا"!

تجهَّم وجه "أنَّا" وغطتْ بعفوية أذن طفلها بيدها لكنه واصل نومه. صاحت "أجاتا": "انزلي! لقد وصلوا".

ثم خفضتْ صوتها وقالت لـ"أنَّا": "ابنتي هذه يجب أن أناديها مائة مرة، لا تستعدُّ أبدًا في الموعد المحدد، ولا تأتي فور أن أناديها".

وضحكتْ ضحكةً مكتومة.

أخذ "كارلو" يتجول على الفور خلال غرفة المعيشة وهو ينظر حوله ويداه متشابكتان وراء ظهره.

دعتها "أجاتا"، مشيرة إلى الأريكة المخملية الخضراء في وسط الحجرة قائلة: "أنَّا" عزيزتي، لا تقفي هكذا، اجلسي هنا".

شكرتها "أنَّا" وتأهبت للجلوس على الأريكة عندما اقترحتْ عليها "أجاتا": "دعينا أولًا نأخذِ الطفل إلى الغرفة وإلا سيوقظه صوتنا".

وافقتْ "أنَّا" على اقتراح "أجاتا"، وقالت: "حسنًا، ربما هذا أفضل، شكرًا".

ردَّت عليها: "لا داعي إلى الشكر! تعالي تعالي!".

حثَّتها على التحرك بحرية في البيت ورافقتها واضعةً يدها وراء ظهرها. قالت: "ونستعجل كذلك ابنتي كي تستعد سريعًا". وصعدا الدرج معًا.

أبدى "كارلو" حالما صار هو وشقيقه وحدهما ملاحظةً قالها بنبرة تكاد تكون متفاجئة: "لقد تركتَ كلَّ شيء على وضعه".

لا يزال "أنطونيو" يعيش في البيت ذاته الذي كبرا وترعرعا فيه وهو يبعد نحو مائة متر فقط عن بيت خالهما "لويچي" الذي تسكنه الآن أسرة "كارلو".

حينما كان والدهما لا يزال حيًّا كان "أنطونيو" وزوجته يعيشان معه في البيت نفسه، وكانت غرفة نومها هي الغرفة الصغيرة التي أصبحت الآن لصغيرتهما "لورينسا".

وكان الأثاث الثقيل نوعًا ما والذي يفتقد أي مظهر من مظاهر الرقي، هو نفسه الذي ابتاعه والده ووالدته قبل زواجهما؛ فتلك الأريكة المخملية الخضراء التي اهترأ مسنداها هي نفسها التي كان "كارلو" و"أنطونيو" في أيام طفولتهما يتكوران بين ذراعي أبيهما عليها في الأمسية الشَّتْوِية الباردة أمام نار المدفئة، واللوحات التي رسمت فيها أمهما مزارع الزيتون عندما كانت لا تزال في شبابها وتتمتع بصحة جيدة، لا تزال معلَّقة في مكانها ذاته إلى جانب المدفئة. والحِليات الصغيرة التي كان أبوهما يحب اقتناءها، خاصة المنمنمة المصنوعة من الحديد المطاوع التي لم تُنقل من مكانها. حتى بطانية أمهما الصوف ما زالت في موضعها ذاته؛ على كرسيها المجاور للنافذة الذي يحب "أنطونيو" دومًا الجلوس عليه.

ردَّ "أنطونيو" وهو يهز كتفيه: "يعجبني البيت هكذا".

في الطابق العلوي، وبعدما تمدد "روبرتو" على السرير المزدوج ووُضعت له وسادتين على جانبي السرير حتى لا يقع على الأرض ويتأذى، شقَّت "أجاتا" طريقها خلال الممر وقادت "أنَّا" إلى حجرة "لورينسا"، فتحت الباب، الذي كان

مغلقًا جزئيًّا، على مصراعيه فوجدت الطفلة مفترشةً الأرض ومنهمكةً بالكامل في اللعب بدمية مصنوعة من القماش.

وبَّختها "أجاتا": "هل يصح ألا تجيبيني مطلقًا هكذا عندما أناديكِ؟".

تقدمت "أنَّا" خلال الغرفة متجاوزة "أجاتا" وجلستِ القرفصاء إلى جانب الطفلة. فتحت "لورينسا" عينيها على وسعهما وحدقت إلى "أنَّا". قالت "أنَّا" بابتسامة وهي تمدُّ لها يدها: "مرحبًا. أنا العمة "أنَّا".

بادلتها الطفلة الابتسامة وصافحتْ يدَ "أنَّا" قائلة: "أنا اسمي "لورينسا".

ردَّت عليها: "نعم، أعرف ذلك".

سألتها "لورينسا": "كم عمركِ؟".

أجابت "أنَّا": "سبعة وعشرون".

أخذتْ "لورينسا" تعدُّ بصوت منخفض وهي تفتح أصابعها ثم قالت: "أصغر من أمي بثمانِ سنوات. أنا لديَّ تسعة".

ثم أشارت لها بكلتا يديها رافعةً تسعَ أصابع: "هكذا".

ابتسمتْ "أنَّا"، وقالت: "أعرف هذا أيضًا".

سألتها: "هل صحيح أنكم جئتم من مكان بعيد جدًّا؟".

فأجابتها: "أوه، نعم، من مكان بعيد جدًّا جدًّا".

عادت لتسألها: "بعيدٌ كأمريكا؟".

ضحكت "أنَّا" ثم ربَّتت وجنتها وقالت: "تقريبًا".

كانت عينا "لورينسا" تشبهان عيني "أنطونيو" و"كارلو"؛ داكنتان ولهما نظرة ثاقبة وبهما بريق يجعلهما تبدوان لامعتين ومتلألئتين من الداخل.

تركتْ "أنَّا" أصابعَها تنساب بين خصلات شعر ابنة شقيق زوجها، ذلك الشعر نُحاسي اللون كلون شعر أمها "أجاتا" وقالت: "أنتِ جميلة حقًّا، هل تعلمين ذلك؟".

قالت: "أنتِ أيضًا جميلة جدًّا".

أجابتها: "أوه! شكرًا".

قرَّبت "أنَّا" الطفلة منها وعانقتها.

هكذا بالضبط كانت تتخيل "أنَّا" ابنتها المتوفاة "كلاوديا" لو بقيت حيَّة وحظيت بالوقت كي تكبر وتصبح في مثل عمر "لورينسا".

نادتها "أجاتا" مجددًا وهي تقف عند باب الغرفة بنبرة غاضبة ومنزعجة: "وماذا الآن يا "لورينسا"؟ انتعلي حذاءك وانزلي، هيا! العم "كارلو" ينتظرك في الأسفل كي يسلم عليكِ".

نهض "كارلو" و"أنطونيو" عن الأريكة حالما سمعا صوت وقع خطوات على الدرج. انتبه "أنطونيو" لـ"أجاتا" وقد تبدَّلت تعبيرات وجهها وصارت متجهمة كأنَّ السعادة الطاغية التي كانت تتجلى على ملامحها منذ قليل قد تلاشت فجأة. فيما بدت "لورينسا" سعيدة بحق كونها ممسكةً بيد "أنَّا" التي ابتسمتْ أخيرًا. اعتقدتْ "أنَّا" أن عليها أن تعتاد الابتسامَ أكثر من ذلك. كانت الابتسامة تجعلها تبدو كذلك أكثر جمالًا.

صرخت "لورينسا" وهي تركض نحو "كارلو": "عمي!".

ضحك "كارلو" وفرد ذراعيه، أمسك بها ورفعها وأخذ يدور بها في الغرفة مثل لعبة النحلة الدوارة فيما كانت الطفلة تضحك بصوتٍ عالٍ.

حذرتْه "أنَّا": "على رسلك! هكذا ستصاب الطفلة بالدُّوار".

قالت "أجاتا": "هيا! ليجلس الجميع إلى الطاولة. سأذهب لسلق المكرونة، فالمكرونة الطازجة لا تحتاج إلى وقت كي تنضج، حالما أضعها في الماء أرفعها عن النار".

توجهتْ إلى المطبخ في حين توقعت أن تلحق بها "أنَّا" كي تساعدها، لكنها وجدتها تسحب كرسيها وتجلس إلى الطاولة. هزَّت "أجاتا" حينئذٍ رأسها وقالت بينها وبين نفسها: "يا له من تصرف غير لائق! فمن المعروف أنه إذا كانت هناك امرأة أخرى بين المدعوين وجب عليها مساعدة صاحبة البيت في تجهيز المائدة

وتقديم الطعام إلى بقية الضيوف. هكذا تسير الأمور في العادة. فهناك بعض الأشياء التي يجب أبدًا على المرء ألا يطلبها بنفسه".

صاحت "لورينسا" وهي تجلس على الكرسي المجاور لـ"أنَّا": "سأجلس بجانب العمة!".

نادتْ "أجاتا" ابنتَها بطريقة فظة: "لورينسا"، تعالي لتساعديني".

قال "أنطونيو" لطفلته وهو يدعوها لكي تبقى جالسة: "سيهتمُّ أبوك بالأمر، لا تقلقي"، ولحق بزوجته إلى المطبخ.

عندما أصبحتِ الأطباق كلها جاهزةً على المائدة، جلس الجميع. رسمتْ "أجاتا" علامة الصليب، وشبكتْ يديها وخفضتْ عينيها وبدأتْ في تلاوة الصلاة الربيَّة، حينئذٍ وضع "كارلو" و"أنطونيو" على الفور ملعقتيهما اللتين كانا قد أمسكا بهما ليبدآ تناول طعامهما وحذيا حذوها.

سألت "لورينسا" فجأة: "وأنتِ يا عمة "أنَّا"، ألن تتلي معنا الصلاة؟".

رفعت "أجاتا" حينئذٍ نظرها.

أجابت "أنَّا" باقتضاب: "أنا لا أومن".

سعل "كارلو" ونظر حوله.

ألحتْ عليها الطفلة وواصلتْ أسئلتها وقد بدتْ على وجهها علامات الدهشة. سألتها: "ماذا يعني أنكِ لا تؤمنين؟".

قاطعتها "أجاتا": "دعونا نأكلْ أولًا وإلا سيبرد الطعام".

أبقى "أنطونيو" عينيه مثبتتين على "أنَّا" كما لو كان شيء ما قد عاق الرؤية لديه ولم يشحْ بنظره عنها إلا عندما انتبه إلى أن زوجته كانت بدورها تحدق إليه مقطبةَ الحاجبين. حينما التقتْ نظراتهما ابتسم لها ابتسامة خرقاء، ثم أمسك ملعقته وخفض رأسه وشرع يأكل.

بعد بضع ساعات من رحيل "أنَّا" و"كارلو"، وفي ظل الهدوء اللطيف العذب الذي أعقب غداء يوم الأحد جلس "أنطونيو" على كرسيه المفضل واضعًا ساقًا فوق الأخرى ومُشبِّكًا أصابع يديه فوق حجره، يحدق إلى أرضية الغرفة مستغرقًا في التفكير في أمرٍ ما فيما يغمره ضوء ما بعد الظهيرة الذي تسلل خلال الستائر المغلقة. في حين كان ينبعث من المطبخ صوت قعقعة الصحون التي تغسلها "أجاتا" ممتزجًا بصوت قرقرة الماء الذي تستخدمه كي تجلو الأطباق بعد أن غسلتها بالصابون. كانت صامتة على غير العادة رغم أنها كانت تتأفف باستمرار، أما عن ابنتهما "لورينسا" فقد كانت مستلقية في غرفتها. ظهرت "أجاتا" فجأة في غرفة المعيشة معلنة بنبرة منهكة: "انتهيتُ أخيرًا. سأذهب أنا أيضًا لأستلقي قليلًا".

جفل حينئذٍ "أنطونيو" ورفع عينيه ونظر إلى زوجته قائلًا: "اذهبي إذن، لا بدَّ أنك متعبة".

أجابت "أجاتا" منزعجة: "حسنًا. لقد بذلتُ جُهْدًا كبيرًا بلا طائل".

قال: "لماذا تقولين بلا طائل؟ أعتقد أن الغداء سار على ما يرام، كل الأطباق التي أعددتِها كانت كالعادة طيبة للغاية".

أجابته: "آه، يسعدني سماع هذا منك، على الأقل انتبه أحدهم للمجهود الذي بذلته".

فكَّ "أنطونيو" تشابك يديه وانحنى إلى الأمام قليلًا مسندًا مرفقيه إلى ركبتيه وسألها وقد بدا عليه بعض نفاد الصبر: "ماذا حدث يا "أجاتا"؟".

لم تقلْ زوجته شيئًا، لكنْ تجهَّم وجهها قليلًا وأشاحت بيدها كما لو أرادت أن تقول له أن ينسى الأمر ولا يهتم.

تأهبتْ لصعود الدرج ثم توقفت لحظةً وقد أسندت إحدى قدميها إلى الدرجة الأولى، وقالت فقط جملة واحدة قبل أن تختفي خلف الجدار الفاصل: "يبدو على أيِّ حال أن الناس على حق في ما يرددونه عن سكان الشمال".

2
يوليو - أغسطس 1934

في اليوم التالي لوصولهم، لم تهتم "أنَّا" بإفراغ الحقائب أولًا، بل حرصت أن تفتح صندوقها الكبير في الحال كي تُخرِج منه أشياءها الثمينة: البذور السوداء لنبات الريحان التي أحضرتْها معها من "ليجوريا"، وقد وضعتها قبل سفرها في حقيبة صغيرة من الخوص، والهاون والمدقة المصنوعين من المرمر المجزَّع بعروق رمادية اللون، وهما يخصان إحدى جداتها السابقات وتوارثتهما من بعدها كل سيدات أسرتها حتى وصلا إليها في النهاية، وعلبة جواهر مطعَّمة من خشب الكرز الذي تحتفظ فيها بالجوارب الصوفية الأولى وردِيَّة اللون لـ"كلاوديا"، والجوارب الصوفية الأولى الزرقاء لـ"روبرتو"، وعُقد والدتها المصنوع من اللؤلؤ الذي أهدتها إياه بمناسبة عيدِ ميلادها العشرين، وأغطية وسادات حريرية أرجوانية خاطتْها جدتها بيديها لأنها دائمًا ما كانت تقول: "الحرير يحتفظ ببَشَرَة الوجه ناعمة ونضرة". بالإضافة إلى الكتب التي قررتْ أن تحملها معها؛ بعضها بالفرنسية مثل: "مدام بوفاري" و"التربية العاطفية" وكتب من لغات أخرى مثل: "أنَّا كارنينا" و"جين أير"، و"مرتفعات ويذرنج"، و"كبرياء وتحامل".

حملتْ حقيبةَ البذور الصغيرة، ثم ذهبتْ إلى الحديقة وبدأتْ بالعمل، حفرت نحو عشرين حفرة صغيرة مبقية على مسافة تقدر بثلاثين سنتيمترًا بين كل حفرة والأخرى وفي كل واحدة منها زرعت بذرتين. وكانت متأكدةً من أنه ليس عليها الانتظار طويلًا لرؤية النبْتات الأولى تظهر وذلك بسبب ما تتمتع به هذه المناطق من حر شديد.

في صباح ذلك السبت من شهر يوليو، كانت "أنَّا" تسقي على نحو دقيق وبمقدار منضبط أولى حزمات أعشاب الريحان الصغيرة عندما سمعت طرقًا على باب البيت. أطلقتْ تنهيدةً وهي تتحرك من الحديقة متجهةً نحو الباب وقد حلت من أسفل ذقنها عقدة الشريط الذي كانت قد ربطت به قبعة القش. فكرت وهي تضع القبعة على المنضدة: "ألن أعتاد أبدًا حر الجنوب هذا؟".

ثم صرخت متجهة نحو الباب: "هأنا آتية!".

حالما فتحت الباب وجدت نفسها أمام "أجاتا" التي كانت ممسكةً بحقيبة بين يديها وكان وجهها لامعًا، محمرًّا بفعل حرارة الشمس. ارتدتْ تنورة طويلة ضيقة وردية ذات قصة مستقيمة ومنسدلة إلى ما أسفل ركبتيها، وقميصًا أبيض بياقة كبيرة من الدانتيل، أبرز ثدييها الممتلئين.

استقبلتها "أنَّا" قائلة: "صباح الخير. لقد أتيتِ مبكرًا عن موعدك".

اعتذرتْ "أجاتا" وهي تدخل البيت وقالت: "نعم، لم أستطع الانتظار في الحقيقة".

أغلقت "أنَّا" الباب خلفها وقالت: "يجب أن أبدل ملابسي، كنت في الحديقة".

أجابتِ الأخرى وهي تُلوِّح بيدها: "نعم، نعم، على رسلك، لا تهتمي لأمري. وفي تلك الأثناء سأدلل ابن أخي قليلًا".

قالت "أنَّا": "لم أوقظه بعد".

وأشارت بحركة من رأسها إلى عربة الأطفال التي تتوسط غرفة المعيشة. قالت "أجاتا": "سأهتم أنا بالأمر، اذهبي أنتِ لترتدي ملابسك".

رفعت "أنَّا" أحد حاجبيها وبخطوات بطيئة متكاسلة صعدت إلى الطابق العلوي وهي تستند إلى الدرابزين المصنوع من الحديد المطاوع. سألت "أنَّا" نفسها وهي تخلع ثوب نومها الحريري الأزرق وتخرج من خزانتها واحدًا من فساتينها السوداء الكثيرة: "كيف أقنعت نفسي بهذه الفكرة؟".

أصرتْ "أجاتا" على أن تجرجرها إلى سوق يوم السبت الصباحي، وقبلتْ هي أخيرًا بعدما أنهكها طلب "أجاتا" المتواصل وإصرارها على الأمر منذ وصولها إلى البلدة. ولكنْ لم يكن هذا هو السبب الوحيد الذي جعلها توافق، فقد قبلت بالذهاب معها بسبب ذلك الشعور الذي تولَّد لديها أن حياة "أجاتا" قبل وصولها كانت غارقة في محيط من الوَحْدَة، وأنها صارت تمثل لها الجزيرة الوحيدة التي برزت في الأفق، وأملها الوحيد في الخلاص. في الحقيقة لم تكن سلفتها تمنحها هدنة من حضورها المتواصل في كل تفاصيل حياتها، كانت تذهب لزيارتها كل يوم دون موعد سابق، وفي أكثر ساعات اليوم غرابة وأقلها توقعًا بالنسبة إلى "أنَّا"، كانت دومًا ما تقترح عليها أن تفعلا شيئًا ما معًا كالتسوق، أو الذَّهَاب في نزهة، أو تلاوة صلاة المسبحة الوردية في ما بعد ظهيرة أيام السبت، أو أن تتناولا ببساطة فنجانًا من القهوة وهما تثرثران بلا توقف، بل كثيرًا ما كانت تُعِدُّ لها الطعام وتذهب به إلى بيتها، وتقول وهي في غاية السعادة: "لقد طبختُ من أجلك أيضًا".

رغم أن ما من أحد قد طلب منها ذلك.

انتهتْ "أنَّا" من تضفير شعرها كما اعتادت ثم نزلت من جديد. خرجت السيدتان واتجهتا نحو الميدان؛ "أنَّا" تدفع عربة الطفل و"أجاتا" تسير بالقرب منها ممسكة بذراعها بقوة.

كان ميدان "كاستيلُّو" بالكامل وكذلك الشوارع المؤدية إليه تعج بأكشاك ذات مظلَّات بيضاء كبيرة. كان صوت الضجيج المصاحب لهذا المشهد المزدحم والذي تناهى إلى مسامع "أنَّا" من بعيد قد أصبح فجأة أكثر حدة. أربكها هذا الصوت كثيرًا حتى دار رأسها. كان صخبًا امتزجت فيه هتافات التجار التي تهدف إلى جذب انتباه الزبائن، بالصرخات والضحكات العالية والمشاحنات بين أناس يشيرون بأيديهم أكثر مما يتكلمون.

كانت تفوح من الجزء الأول من السوق رائحة كريهة هي مزيج من رائحة جبن "الكاتشوريكوتَّا" وجبن الغنم والزيتون المخلل الحار. رائحة مقززة لدرجة تثير الغثيان، خاصة في ذلك الوقت من الصباح. أسرعتْ "أنَّا" الخطى وغطتْ أنفها بكفها.

صاحت "أجاتا" حينئذٍ: "من هنا. تعالي لتري هذا!".

كانتا قد وصلتا إلى الجزء المفضل لـ"أجاتا" من السوق؛ ذلك القسم الخاص بالأدوات المنزلية ولوازم البيت من مفروشات وحِليات وتحف حقيقية من صناعة يدوية محلية. قالت "أجاتا": "لا بُدَّ أنكِ ستجدين هنا أشياء تعجبك".

كان البائع الذي يقف في أول كشك مرَّتا به صبيًّا ضخمَ الجثة ذا شارب خفيف وشعر مجعد داكن. أخذ يشيد بمبالغة أمام السيدتين بالبضائع التي وصلت إليه للتو. قال: "هذا مميز للغاية، لن تجدا مثله في أي مكان آخر!".

أراهما مزهرية مصنوعة من الأحجار الخاصة بمدينة "ليتشي" ومزينة بأزهار صفراء مرسومة باليد، ووعاء "بينياتا" المصنوع من الفخار لطهو البقوليات وبعض المغارف الخشبية ذات المقابض الخزفية المطلية بالمينا.

ثم سألت "أنَّا" مشيرة إلى قطعة فريدة من الفخار تشبه مخروطَ الصنوبر أو برعمًا جاهزًا للتفتح محاطًا بورقتين مطويتين من الجانبين: "وما هذا؟".

شرحت لها "أجاتا": "إنها تميمة "بومو".

ثم سألتها وقد لاحت في عينيها نظرة أمل: "هل أعجبتكِ؟".

أضاف الصبي قائلًا: "إنها تميمة حظ، ولكنها تعمل فقط إن أهديتِها إلى شخص ما".

التوتْ قسمات وجه "أنَّا" كأنها أرادت أن تقول إنها لا تصدق مطلقًا في تمائم الحظ. ألحَّ عليها الصبي وهو يغمز بإحدى عينيه: "ثقي بكلامي!".

وقبل أن تتمكن "أنَّا" من الرد عليه أخذت "أجاتا" التميمة ودفعتْ ثمنها ودسَّتها في حقيبة "أنَّا"، قالت: "سأهديكِ أنا هذه!".

شكرتها "أنَّا" دون أن تبتسم. وفكرت حينئذٍ: "لكنْ ماذا سأفعل بها؟ هي ليست فقط معدومة الفائدة، وإنما قبيحة المنظر أيضًا!".

واصلتا طريقهما نحو كشك التماثيل المصنوعة من عجين الورق. ومن بين تماثيل "يسوع" والعذراء والعديد من القديسين الذين اصطفوا منتصبين إلى جانب بعضهم كما لو كانوا جنودًا قصيري الحجم، وقعت عينا "أنَّا" على تمثال صغير بدا مهجورًا في ركن من الكشك؛ كان تمثالًا لسيدة قروية ترتدي فستانًا أبيضَ واسعًا متطايرَ الأطراف، يحرك الهواء شعرها وتمسك بسلة من التفاح الأحمر بين ذراعيها. كان في وجه التمثال تشقق صغير، وهو الوحيد من بين كل الدمى المعروضة الذي كان مُشوَّهًا بهذا الشكل.

قالت "أنَّا" دون تردد وهي تشير إلى هذا التمثال: "سآخذ هذا".

نظرت إليها "أجاتا" في حيرة وقالت: "أليس من الأفضل أن تأخذي تمثالَ القديس "لورينسو"، قديسنا الشفيع؟".

أمسكتْ به "أجاتا" وأخذتْ تقلبه بين يديها وتقول: "انظري كم هو جميل".

ولكنَّ "أنَّا" تجاهلتها.

انحنى الرجل الجالس على الناحية الأخرى من الكشك وانتزع ورقة جرائد قديمة من وسط كومة من أوراق جرائد ترقد عند قدميه، وبدأ يلف التمثال بعناية وحرص شديدين، وقال وهو يقدم لها اللفافة: "انتبهي كيلا يتحطم في الحقيبة، فالورق المعجون رقيق".

تقدمتا قليلًا حتى توقفتا أمام كومة من السلال المصنوعة من "البامبو" وأخرى مصنوعة من الخوص. قابلتا عجوزًا على شفتيها زغب أسود وانتفختْ يداها بالثفنات، افترشتِ الأرض حافيةً وكانت منهمكةً للغاية في نسج إحدى السلال. لقد أنجزتْ لتوها حافة السلة وكانت تتأهب لنسج يدها. سلمت عليها "أجاتا" بحرارة وأخذتا على الفور تثرثران، وبينما المرأتان تكرران بين كل جملة والأخرى العبارة ذاتها "كل شيء يسير

على ما يرام، فلنشكر الرب"، لم تستطعْ "أنَّا" أن تمنع نفسها من التحديق إلى قدمي العجوز المسودَّتين من فرط التراب الذي تراكم عليهما، وفي عقبيها المتشققين وأظفارها المصفرَّة. للحظة تذكرتْ جدتها التي كانت معتادة كل ليلة قبل ذَهَابها للنوم تدليكَ قدميها باللبن وتضعهما وهما لا تزالان مبتلتين في زوج من الجوارب يغطي ركبتيها. وكانت تكرر على الدوام: "يجب ألا تُهمَل اليدين والقدمين أبدًا. تذكري أن الناس ينظرون -أولًا وقبل كل شيء- إلى التفاصيل".

ثم قالت "أجاتا" وهي تمسك بـ"أنَّا" من ذراعها: "لنذهب من هذه الناحية".

دلفتا إلى شارع جانبي ووصلتا إلى عربة القماش حيث كانت هناك سيدة ضئيلة الحجم، ترفع شعرها على هيئة كعكة وتتدثر بشال أخضر من الكروشيه غطى كتفيها، تعرض لفةً من الحرير الأزرق على سيدة أخرى ترتدي فستانًا يُطوِّق جسدها كأنه مفصل عليها. كان شعرها الغزير داكنًا ينسدل على ظهرها في تموجات ناعمة. لكنَّ ما أذهل "أنَّا" حقًّا أكثر من أي شيء آخر في هيئة تلك المرأة كانت يديها، ليس فقط لأنها كانت تلمس الحرير بالحرص والرقة نفسيهما اللتين يمكن أن تداعب بهما رأس طفل حديث الولادة، وإنما أيضًا لأن أظفارها كانت لامعة للغاية ومطلية باللون الأحمر. فهي لم تقابل امرأة في "ليتسانيلُّو" لديها يدان أنيقتان وجميلتان كيديها.

صاحت السيدة بائعة القماش وقد ارتسمتْ على محياها ابتسامة عريضة: "أوه! ها قد وصلت عزيزتنا "أجاتا"، صباح الخير".

قدمت "أجاتا" "أنَّا" للبائعة: "هذه "أنَّا" سلفتي".

التفتتْ حينها فجأة السيدة ذات الأظفار المطلية بالأحمر فانزلق الحرير الأزرق من بين أصابعها.

صافحتْ "أنَّا" السيدة بائعة الأقمشة التي مدتْ لها يدها وانتبهت بطرف عينيها أن السيدة الأخرى تفحصها من رأسها إلى أخمص قدميها.

سألت: "ما الذي يلزمكما يا عزيزتيَّ؟".

أجابت "أجاتا": "عليَّ أن أصنع بعض الستائر الصغيرة لنافذة غرفة النوم، أعطيني بضعة أمتار من القطن الأبيض وبضعة من القطن الرفيع الذي يصلح للكروشيه من أجل حواف الستائر".

قاطعتهنَّ المرأة ذات الأظفار الحمراء وهي تشيح بنظرها عن "أنَّا": "سأترككن الآن".

ثم قالت للبائعة بلهجة أهل البلدة: "الحرير جيد، ضعيه جانبًا لي وسأرسل زوجي في وقت متأخر ليأخذه منكِ".

ثم استدارتْ في النهاية بحذائها ذي الكعب العالي دون أن تحييهنَّ وانصرفت مبتعدة.

همست "أنَّا" في أذن "أجاتا" متسائلة: "من تكون تلك المرأة؟".

أجابتها "أجاتا" محرجةً قليلًا: "إنها "كارميلا".

عاودت السؤال: "ومن تكون "كارميلا"؟".

نظرت إليها "أجاتا" بارتباك: "الخياطة".

قاطعتهما بائعة الأقمشة وهي تقدم لهما كيسًا ورقيًّا صغيرًا: "إليكِ ما طلبتِه".

دفعت "أجاتا" ثمن الأقمشة وشكرتها ووعدتها بأنها ستعود لزيارتها قريبًا.

ولجتا إلى الميدان الرئيسي مرة أخرى. قالت "أنَّا": "هل لنا أن نتوقف لحظةً عند بائع الفاكهة؟".

مشيرة إلى متجرٍ على الجانب المقابل يحمل لافتةً كُتب عليها "فاكهة وخضراوات".

قالت: "أريد أن أشتري حُزْمة من الريحان. سأصنع صلصة "البيستو" غدًا".

حالما دقَّق فيهما وتعرَّفهما فيما تقتربان من المتجر استقبلهما عند المدخل رافعًا قبعته رجلٌ هزيلٌ بعض الشيء، له ابتسامة مبهجة، ويعتمر قبعة مسطحة. ثم سألهما: "ماذا تريدان؟".

أجابت "أنَّا": "بعض الريحان من فضلك. لا تنسَ أن تختار لي حُزْمة أوراقها كاملة كتلك التي اشتريتُها منك الأسبوع الماضي".

أضافت "أجاتا": "ميكيليه"، أعطنا أكثر حُزْمة طازجة لديك".

قال: "تحت أمرك".

ثم استدار ودلف إلى داخل المتجر وصرخ بلهجة أهل البلدة: "جاكوموينو"! أحضرْ حُزْمة من الريحان للسيدة الأجنبية!".

رفعتْ "أنَّا" حاجبها مدهوشةً ومتضايقةً بعض الشيء. أهكذا إذن يدعونها الناس في البلدة؟ السيدة الأجنبية؟

بعد لحظات قليلة ذهب إليهما طفل في عمر "لورينسا" تقريبًا امتلأ وجهه بالنمش حاملًا باقةً من الريحان بين يديه.

أمره "ميكيليه" وهو يشير إلى "أنَّا": "أعطِه للسيدة".

قال الطفل فيما يمد يده بحُزْمة الريحان: "تفضلي".

حالما غادرتا المتجر، سألتها "أجاتا" أكانت تريد أن تذهبا معًا إلى البار لتشربا عصير الليمون قبل أن تعودا إلى البيت. فسَّرتْ لها وهي تحرك يدها في الهواء نحو وجهها: "هكذا نقضي وقتًا إضافيًّا معًا وننتعش ونهدِّئ من حرارة جسدينا".

تجاوزتا حشدًا صغيرًا من نساء يتقدمن في طريقهنَّ حاملاتٍ سلالَ تسوقٍ ثقيلةً معبأة بما اغتنمنه من السوق وأخريات وضعنَ حقائبهنَّ على الأرض وأخذن يتسلين بالثرثرة مع بعضهنَّ، ودخلتا إلى بار "كاستيلُّو، دافعتيْن حبال ستارة مدخل البار جانبًا. كان الرجل الجالس خلف منضدة البار بدينًا له شارب أسود كثيف وبَشَرَة زيتونية اللون، وكان ينشف كوبًا بطرف مئزرته البيضاء. كانت جدران البار مغطاةً حتى منتصفها بالخشب وقد عُرِضَ في الجزء العلوي منها بعض الصور الفوتوغرافية للبلدة وملصقًا لمشروب "فيرنيت برانكا" وقائمة صغيرة بأسعار البار كُتبت بخط اليد. غطت الطاولاتِ كلَّها مفارشُ حمراءُ ثقيلة أما الكراسي فكانت مصنوعة من الخشب والقش. وعلى أحد الكراسي كانت هناك نسخة مجعدة من جريدة "لاجادزيتَّا ديل ميدزوجورنو".

طلبتْ "أجاتا": "ناندو"، كوبين من عصير الليمون من فضلك".
صححتْ "أنَّا" على الفور: "واحدة فقط، أنا سآخذ قهوة "كورِّيتُّو" بـ"الجرابَّا".
التفتت إليها "أجاتا" متعجبةً. سألتها: "الجرابَّا"؟".
أجابت: "نعم، بـ"الجرابَّا"، لطالما شربتُها هكذا في البارات".
غمز لها "ناندو" وقال بنبرة مدوية: "أنا أيضًا أشربها كذلك!".

في اليوم التالي جهزَّت "أنَّا" كل المقادير اللازمة في أطباق تقديم خزفية ووضعتها على طاولة المطبخ: الريحان وحبوب الصنوبر والملح الخشن والثوم وجبن "البيكورينو" وجبن "البارميچانو". لم يكنْ ينقصها سوى زيت الزيتون، ولكنَّ "أنطونيو" وعدها أن يحضره لها في الصباح. ربطتِ المئزر خلف ظهرها وأنزلتِ الهاون من على الرف. سمعت صوتًا يسأل: "هل يمكنني الدخول؟".

كان صوت "أنطونيو" قادمًا من مدخل البيت.

صاحت "أنَّا": "تفضل!".

صرختْ "لورينسا" وهي تركض نحوها: "عمة! عمة!".

انفرجتْ أساريرها في ابتسامة حالما رأت الطفلة، جلستِ القرفصاء وفتحتْ ذراعيها على آخرهما، وقالت: "تعالي هنا وعانقيني أيتها الطفلة الشقية".

دخل "أنطونيو" وقد اعتلتْ وجهه ابتسامة خجول، رفع قبعته وتساءل: "أليس "كارلو" هنا؟".

أجابت "أنَّا" وقد رفعتْ حاجبها: "أخذ "روبرتو" إلى القداس".

ابتسم "أنطونيو" ابتسامةً خافتةً وقال: "ها هو زيت الزيتون، أحضرتُ لكِ لترين هذه المرة".

ووضع على طاولة المطبخ جركنًا صغيرًا عليه شعارُ معصرة الزيتون الخاصة به التي تحمل اسم "معصرة الزيتون اليونانية" مرسومٌ عليه حاملةَ زيت من

الصفيح تقطر منها نقطة زيت على شكل ورقة زيتون. قالت "لورينسا": "أبي، أرجوك دعْنا نبقَ ونشاهدِ العمة وهي تُعِدُّ "البيستو".

أجابها وهو يبحث عن الجواب في عيني "أنَّا": "سنفعل إذا لم تمانعِ العمة".

قالت وهي تعبث بشعر الفتاة الصغيرة التي سحبت كرسيًّا على الفور وجلست منتصبةً على ركبتيها: "طبعًا لا أمانع".

جلس "أنطونيو" على الكرسي المصنوع من القش والمنزوي في أحد أركان الغرفة بجوار خزانة المطبخ، والذي لم يجلس عليه أحد من قبل؛ فلطالما استُخدم كحامل للملابس التي تحتاج إلى الكي.

صاحت "أنَّا": "لنبدأ عملنا إذن!".

أخذتْ أوراق الريحان ووضعتها داخل قطعة من القماش. ثم أخذت تشرح لـ"لورينسا": "يجب ألا تغمري الأوراق في الماء، تذكري هذا جيدًا. عليكِ أن تغسليها بهذه الطريقة، تمسحي الأوراق بلطف بقطعة قماش مبللة. وإلا ستنقطع الأوراق. أرأيتِ؟ يجب أن تبقى هكذا، سليمة".

وضعتِ الأوراق النظيفة جانبًا ثم أخذت تملأ الهاون بفصوص الثوم وذرات من الملح الخشن. قالت "أنَّا": "كانت أمي تقول إن "البيستو" يحتاج إلى رشة ملح، رشة بالضبط لا أكثر من ذلك. كانت توصيني دائمًا باتباع هذه التعليمات".

وبدأت تسحق المكونات داخل الهاون في حركة دائرية.

أما "أنطونيو" الذي جلس واضعًا يده على خده المحلوق لتوِّه، يراقب "أنَّا" في صمت وهي تُعِدُّ "البيستو"؛ تأمل يديها الناعمتين اللامعتين تتحركان بخفة وثقة، يدين خبيرتين لشخص مارس طقوس "البيستو" منذ نعومة أظفاره. لم يسبق أن رآها في مثل هذا المزاج الجيد منذ وصولها هي وزوجها إلى البلدة. وفكر أن عليها أن تصنع "البيستو" باستمرار إذا كان هو وحده ما ينجح في أن يجعلها تبتسم بهذه الطريقة.

قالت "أنَّا" موجهةً حديثها إلى الطفلة: "عليكِ مواصلة السحق حتى يصل الثوم إلى هذا القوام، هل ترين؟ ليكنْ قوامه كقوام الكريمة".

انحنتِ الطفلة إلى الأمام لترى بشكل أفضل. في حين واصلت "أنَّا" الشرح وهي تأخذ بعض أوراق الريحان: "فقط في هذه المرحلة يمكنكِ إضافة الريحان مع رشةٍ أخرى من الملح".

سألت "لورينسا": "هل يمكنني أن أضيف أنا الملح؟".

أجابتها: "نعم، لكنْ خذي القليل جدًّا كما أوضحتُ لكِ من قبل".

مدَّت "لورينسا" أصابعها الصغيرة في طبق الملح وتناولت بضع ذرات وأمسكت بها بين سبابتها وإبهامها.

ابتسمتْ لها "أنَّا": "هكذا بالضبط، أحسنتِ. والآن ها قد وصلنا إلى الجزء الأكثر إمتاعًا وتسليةً في هذه الوصفة".

وبدأتْ تسحق الأوراق بقوة حتى هرستها بالكامل. قالت "أنَّا": "حان الآن وقت إضافة حبوب الصنوبر و"البيكورينو" و"البارميجانو" لكنْ بكميات صغيرة وتدريجيًّا".

أفرغتْ محتويات الأطباق واحدًا تلو الآخر في الهاون. قالت: "لا بُدَّ أن ذراعيكِ ستؤلمانكِ طبعًا. انظري إلى كم العضلات التي أصبحت لي من فرط ما سحقتُ!".

ضحكتْ "لورينسا" وأدارت رأسها إلى الوراء ونظرت إلى والدها الذي ابتسم وغمز لها بإحدى عينيه.

صاحت "أنَّا" في رضا وسعادة باللغة الفرنسية:

– "Et voilà!" (ها نحن ذا!).

اقتربتِ الطفلة ونظرتْ إلى "البيستو" بنظرات مليئة بالدهشة والإعجاب كما لو كانت تشاهد عرضًا سحريًّا، وفكرت كم تتوق إلى وصف "البيستو" الذي حضَّرته العمة "أنَّا" لرفيقاتها في المدرسة. منذ وصلتْ تلك "العمة القادمة من بعيد" كما

كانت تسميها، وهي تحكي لصديقاتها الصغيرات عن مغامراتها، الحقيقي منها والزائف الذي ابتكرته هي بنفسها. مغامرات البطلة التي تتباهى هي وحدها بمعرفتها؛ في إحدى المرات رأتِ العمةُ جبالًا عالية تلامس قممها عنانَ السماء، وذات مرة رقصتْ مع الملك نفسه، ويومًا ما لمست شجرةً مريضةً فشُفيت.

قالت "أنَّا": "يتبقى الزيت ونكون قد انتهينا. هل تريدين أن تضعيه أنتِ Ma petite؟".

همس "أنطونيو" لطفلته: "تقصد صغيرتي".

سألته "أنَّا": "ماذا قلت للتو؟".

أجابها وقد احمرَّ وجهه: "صغيرتي" أليس كذلك؟ في اللغة الفرنسية تعني "Ma petite".

نظرت إليه "أنَّا" رافعةً حاجبها، وسألته: "هل بدأتَ تتعلم اللغة الفرنسية؟".

خفض "أنطونيو" عينيه وقال: "قليلًا".

ابتسمتْ له "أنَّا" وقالت: "ولماذا؟ هل أثارتْ فرنسيتي الرغبة فيك في دراستها؟".

هزَّ "أنطونيو" كتفيه وقال: "أريد فقط أن أفهم الكلمات التي لا أعرفها، هذا كل ما في الأمر".

كان يريد أن يضيف: "أريد أن أفهمكِ أنتِ".

ما لم تتمكن "أنَّا" من معرفته هو أن "أنطونيو" كل ليلة وعندما تخلد "أجاتا" و"لورينسا" إلى النوم وعندما يغمر الصمتُ البيتَ بأكمله يدخل إلى غرفة مكتبه ويغلق الباب بالمفتاح ويُخرِج من درج مكتبه كتابًا متخصصًا في قواعد اللغة الفرنسية كان قد أخذه من المكتبة. ويبقى حتى وقت متأخر من الليل يقرأ ويُعلم ويضع خطوطًا في الكتاب ولا يتوقف إلا عندما يغلبه النعاس وتُغمض عيناه من تلقاء أنفسهما.

كان "كارلو" جالسًا إلى واحدة من طاولات بار "كاستيلّو" الصغيرة التي اصطفَّت في الهواء الطلق خارج البار ممسكًا بسيجار بين يديه ويحتسي أسوأ نبيذ أحمر منزلي الصنع على الإطلاق وقد أجلس "روبرتو" على ركبتيه. يا للمتعة التي كان يشعر بها وهو يراقب الناس التي تقطع الطريق من أمامه جيئة وذَهَابًا صباح يوم الأحد؛ كان منهم من مرَّ من أمام البار بعدما غادر الكنيسة، ومنهم من توقَّف لدى بائع الخبز ليشتري صينية من الكعك الصغير، ومنهم من مدَّ يده بعملات معدنية للصبي بائع الجرائد ثم ابتعد واضعًا نسخة مطوية من جريدة "لاجادزيتَّا ديل ميدزوجورنو" تحت ذراعه. كان "كارلو" يرفع قبعته "البورساليو" ويحيي كل مَن يمر من أمامه بابتسامة، كان يعرف الجميع ويبدو أن الجميع أيضًا يعرفونه بدورهم كأنَّه خلال السنوات العشر الماضية لم يتحرك من هذه الطاولة الصغيرة.

سمع صوتًا قادمًا من خلف كتفيه يقول: "مرحبًا أيها الأجنبي".

لمن ذلك الصوت؟ إنه صوت "كارميلا". كان يتوقع أن يراها عاجلًا أو آجلًا. بل من الغريب أنهما حتى هذه اللحظة لم يتقابلا بعد، حتى مصادفة.

كان مشغولًا للغاية منذ وصوله إلى البلدة: كان عليه تفريغ الحقائب وإعادة فتح بيت خاله الذي كان مغلقًا ولم يسكنه أحد منذ وفاته، وتوقيع كمية كبيرة من الأوراق لدى كاتب العدل. وإجراء معاينات للأراضي التي تسلمها ضمن ميراثه من خاله، ولكنَّ سكان البلدة بالكاد يبلغ عددهم ستة آلاف شخص لهذا يكون من السهل الانتباه للحاضرين والغائبين من سكانها.

سحب "كارلو" الكرسي المجاور لكرسيه وأشار لها بابتسامة خافتة كي تجلس. قالت وهي لا تزال واقفةً على قدميها وقد أنزلت الشال الأسود الذي غطَّى شعرها إلى الأسفل ليستقر على رقبتها: "سمعتُ أنك عدتَ، لقد رأيتكَ في الكنيسة من قبل".

لقد أصبحتْ "كارميلا" الآن امرأةً في كامل أنوثتها. تألقتْ "كارميلا" بحق في صيف ذلك العام الذي بلغتْ فيه السادسة عشرة من عمرها إذ انطلقت بين

الصبية مسابقة حول من سيكون أول من يداعب نهديها. بدأوا جميعًا يغازلونها كجيش يتقدم لحصار إحدى المدن؛ يمدون إليها أذرعهم كي تستند إليها وهي تتمشى أو تقطع الطريق، ويدفعون بعضَهم بمرافقهم كي يجلسوا إلى جانبها في الكنيسة في أثناء القداس، فيما يبتاع لها البعض حلوى محشوة بالمربى وآخرون يرافقونها في الطريق حتى بيتها مترجِّلين.

كان "كارلو" يعرفها منذ كانا طفلين إذ نشآ معًا في الشارع ذاته؛ حيث كان بيتها يقع على بعد بضعة أمتار من بيت "كارلو". رآها وهي تبكي وتصرخ فيما تنهال عليها أمها بالضربات ورآها وهي تسقط وتخدش ركبتيها عندما كانا يلعبان معًا لعبة المطاردة، رآها وهي تمسح المخاط الذي يتساقط من أنفها بظهر يدها. لذا عندما عاد ذلك العام من المعسكر الصيفي في "سانتا ماريا دي ليوكا" ووجدها قد كبرتْ والتفَّ عودها هكذا فجأةً، وأصبحتْ واثقة من نفسها، وصار جمالها طاغيًا يحبس الأنفاس، شعر "كارلو" وقتئذٍ بالخجل وبقدر طفيف من الغضب لذا توقف فجأة عن الحديث معها. اكتفى بالنظر إليها من بعيد ومراقبتها وفحصها كما لو كانت مخلوقًا جديدًا يصعب عليه فهمه والتعامل معه. كان يحرص على ألا تلتقي نظراتهما، وحالما يحدث هذا يشيح بنظره عنها. وفي النهاية نجح في إيقاعها في حبه بفضل تجاهله المستمر والمتواصل لها. تبادلا لمدة عامين قبلاتٍ حارةً في الخفاء وظلَّ "كارلو" خلالهما يتلمَّس بيده نهدها كيفما يشاء حتى جاء اليوم الذي وجب عليه الرحيل عن البلدة إذ أرسلوه ليعمل خبيرًا ماليًّا في "بيمُنتي" في مدينة "أليسَّاندريا". "ولكنه سيعود قريبًا ويتزوجها"؛ هذا ما قاله لــ"كارميلا" عند رحيله.

قالت: "لا بُدَّ أنك أنت "روبرتو".

صاح "كارلو": "نعم!".

وقبَّل جبهة طفله.

قالت: "يا لهاتين العينين الواسعتين!".

علَّق قائلًا: "هاتان العينان أخذهما من حسن الحظ من أمه".

وجهتْ "كارميلا" نظرها صوب الميدان الذي كان يفرغ من المارة رويدًا رويدًا. انتبهتْ إلى أن "ماريو" وهو صبي ضخم الجسم حاد الملامح، يُسرِّح شعره على جانب واحد ويعمل ملمعَ أحذيةٍ، يجلس مكتوفَ الذراعين على الدكة الصغيرة الواقعة بين النخلة والنافورة التي تتخذ شكلَ عمود، كان يتطلع إليها ويحدق. حيَّته "كارميلا" بإشارة من ذقنها ثم خفضت عينيها وغطت شعرها من جديد بالشال ذاته. فكر "كارلو" وهو يتطلع إلى يديها وينتبه إلى أصابعها الطويلة مستدقة الأطراف وأظفارها المطلية باللون الأحمر، أن يديها جميلتان وأنيقتان بالضبط كما كانتا في السابق.

سألها "كارلو" بعدئذٍ: "وماذا عنكِ؟ هل عندكِ أبناء؟".

ترددتْ "كارميلا" قبل أن تجيب ثم قالت: "نعم، عندي ابن واحد يُدعى "دانييليه" سيكمل عامه العاشر في ديسمبر المقبل".

غمغم "كارلو": "أتدرين؟ أراكِ في حال جيدة للغاية، لا تزالين جميلة، بل أصبحتِ أكثر جمالًا من ذي قبل".

ثبتتْ عينيها الواثقتين الثاقبتين عليه وأجابته: "لم أكنْ جميلة بما يكفي كي أجعلكَ تعود كما وعدتني".

أخذ رشفة من النبيذ ولم يتمكنْ من منع تقطيبة من الظهور على وجهه من فرط ما كان طعمه سيئًا، فكر وهو يتذوق هذا النبيذ: "يا إلهي! لو كان لاذعًا بعضَ الشيء لكان مناسبًا تمامًا لتتبيل السلطة".

ثم قال وهو يضع الكوب على الطاولة: "لقد كتبتُ لكِ خطابًا، أتتذكرين؟".

أجابت وهي تُلوِّح بيدها كما لو كانت تبعد حشرة ما من أمام وجهها: "نعم، نعم، أتذكر ذلك".

قال: "لكنْ من الواضح أن هناك شخصًا آخر هو من وضع لكِ خاتم الزواج هذا في إصبعك".

لمستْ "كارميلا" الخاتم وقالت: "حسنًا، لو كنتُ انتظرتكُ لِتُّ عانسًا".

قال: "ما كنتِ أبدًا لتموتي عانسًا، لستِ تلك المرأة التي تموت دون زواج".

سألته: "وماذا عن السيدة زوجتك إذن؟ بالكاد نراها تتجول في الجوار. ماذا بها؟ أليستِ البلدة على مستوى تطلعاتها؟ يبدو أن بلدتنا لم ترقْها".

أجاب: "ماذا تقولين؟ هذا غير معقول! لنمنحها فقط بعض الوقت، إنها تحاول حاليًّا التكيف مع المكان. أنتِ تعرفين أن الأمر لم يكنْ سهلًا بالنسبة إليها، في البداية فقدتْ "كلاوديا"، ثم أمر الانتقال من الشمال؛ سترينها رويدًا رويدًا".

قاطعته "كارميلا": "نعم، وصلني خبر وفاة الطفلة. يا لها من فاجعة حقيقية".

مطَّ "كارلو" شفتيه وقال: "فعلًا!".

ارتشف رشفة أخرى من النبيذ. ثم أفشى أخيرًا ومن غير تفكير ما يجول في خاطره قائلًا: "يا إلهي! هذا النبيذ له مذاق مقزز بحق".

أرادت "كارميلا" أن تضحك ثم قالت: "لا يقارن على الإطلاق بالنبيذ الذي كان يصنعه أبي في المنزل، كان نبيذ أبي يعجبك بشدة".

قال: "ومن يمكن أن ينسى نبيذ السيد "تشيتشو"! أما زال يصنعه؟".

أجابت: "لا لقد توقف يا للأسف، صارت صناعة النبيذ أمرًا شاقًّا للغاية بالنسبة إليه. تأثر ظهره ولم يعد الآن قادرًا على فعل ما كان يفعله من قبل".

قال: "يا للأسف! كان سيسعدني للغاية لو تذوقتُ منه كوبًا واحدًا بعد كل تلك السنوات".

قالت: "ما زلتُ أحتفظ منه ببعض الزجاجات في البيت".

أطلقتْ نظرة إلى الساعة الخاصة بمبنى البلدية ثم إلى "ماريو" الذي لم يتوقفْ عن التحديق إليها، وقالت في النهاية: "يجب أن أذهب الآن".

صاح "كارلو": "ربما آتي لزيارتكم يومًا ما".

ثم أضاف في إحراج: "أقصد من أجل النبيذ".

ابتسمتْ "كارميلا" ابتسامةً مصطنعةً وحيَّته وغادرت البار. وبينما كانت تبتعد موليةً له ظهرها كانت متيقنةً أنه لا يزال يتابعها بنظراته.



فتحت "لورينسا" الباب على مصراعيه ودخلت تصرخ: "أمي، انظري! أنا والعمة "أنَّا" أعددنا "البيستو"!".

وركضتْ نحو المطبخ لتريها برطمانًا من الزجاج كانت تمسك به بقوة بيديها.

صرفتها "أجاتا" بصرامة قائلة: "لقد طبختُ فعلًا".

تبددتِ الابتسامة عن وجه "لورينسا" فجأة فاقترب منها والدها مطلقًا تنهيدة طويلة وحاول أن يخفف من خيبة الأمل التي أصابتها بها أمها.

ربَّت رأسها وقال لها: "سنحتفظ به للغد".

علَّقت "أجاتا" متذمرة فيما تستكمل إفراغ قدور الطعام: "أنا لا أحب ذلك الشيء، هو ليس من طعامنا".

كان "أنطونيو" يعرف فعلًا أن "البيستو" سيُترك حتى يفسد دون أن يأكلوه، ثم ستنتهي به الحال بأن تتخلص منه خاصة أن "أنَّا" كانت قد أوصت بأن يتناولوه في اليوم نفسه. أخذ "أنطونيو" حينئذٍ البرطمان من يد "أجاتا" ووضعه على الطاولة وقال لها بلطف: "هيا يا "لورينسا". تعالي لتساعديني في إعداد الطاولة".

علَّقت "أجاتا" وهي تجفف يديها في مئزرها: "بالضبط، أحسنتما صنعًا، اذهبا من هنا!".



قال "كارلو" الذي ظهر فجأة في المطبخ ومعه "روبرتو" الذي غلبه النعاس في طريقهما إلى البيت: "ها نحن ذا!".

انتزعت "أنَّا" الطفل برقَّة من بين ذراعي أبيه وقالت ساخرة: "أهذا تأثير القداس؟".

انفجر "كارلو" ضاحكًا واقترب منها كي يعانقها من ظهرها ويقتنص منها قبلة.

طلبت منه "أنَّا" بمرح أن يتوقف لئلا يوقظ الطفل. لكنْ بعد أن وضعت الطفل في سريره كانت هي من عانقت "كارلو" بقوة وقبلته قبلة طويلة من تلك القبلات، وحدها في حياته من تعرف كيف تمنحه إياها.

كانت "أنَّا" قد أعدت مكرونة "التروفيا" بـ"البيستو" وقت وصول "كارلو"، ووضعتْه ساخنًا على مائدة الطعام في طبق كبيرة كان يتصاعد منه البخار. سيتناولان طعامهما ذلك الأحد مطهوًا جيدًا!

في يوم "فيرَّاجوستو"[1]، كان الجو شديد الحرارة منذ ساعات النهار الأولى. استيقظتْ "أنَّا" وهي تتصبب عرقًا ورفعتِ القناع الحريري الأسود الصغير الذي كانت تغطي به عينيها في أثناء نومها ليستقر على جبهتها. كان مكان "كارلو" في السرير خاويًا فعلًا، وبعد لحظة واحدة سمعته يدندن من خلف باب الحمام المغلق كما يفعل دومًا عندما يحلق ذقنه. جلست لحظةً أمام التسريحة وأخذتْ فرشاة الشعر من الرف الرخامي ومررتها بين شعرها وهي تحدق إلى صورتها المنعكسة على المرآة الكبيرة بيضاوية الشكل المصنوعة من خشب الماهوجني. داعبت وجنة ابنها الذي كان ينام سعيدًا في سريره الصغير ونزلت إلى المطبخ. سخَّنت اللبن قليلًا

(1) Ferragosto فيرَّاجوستو أو "عيد ارتقاء العذراء": وهو ما يوافق يوم ١٥ أغسطس من كل عام، هو يوم عطلة رسمية، كان في البداية عيدًا دينيًّا لكنه أصبح في السنوات الأخيرة أهم عطلة عامة في إيطاليا في موسم الصيف. يأخذ معظم الناس إجازات من أشغالهم أيامًا إضافية ويتركون المدينة قاصدين البحر.

في قدر صغيرة، تركته على النار دقيقة واحدة بالضبط. كانت تحبه هكذا، دافئًا فحسب. صبته في الفنجان وخرجت لتشربه في الحديقة، جلست على مقعد صغير تحت ظلال شجرة الرمان. رفعت قميص نومها القطني الأبيض ولفت ساقيها الورديتين النحيلتين حول بعضهما ثم جمعتْ شعرها الطويل المنحل في ناحية واحدة من رأسها. أمسكتِ الفنجان بقوة بين يديها وأخذتْ منه رشفة أولى صغيرة. وأخذتْ تتذكر أين كانت العام الماضي في يوم "فيرَّاجوستو"، كان "روبرتو" لديه فقط بضعة أشهر وقد اصطحبهم "كارلو" في رحلة بالقرب من بلدية "بينيا". تناولا غداءهما وهما جالسان على ملاءة وسط الشجيرات الرطبة النامية أسفل الأشجار التي تحبها "أنَّا" للغاية حيث لم يكنْ يُسمَع سوى نقيق صراصير الليل وزقزقة العصافير. أخرجت "أنَّا" من كيسٍ ورقي "بيشاديلا" وهو نوع خبز "الفوكاتشا" المفضل لديها، وقسَّماها إلى نصفين وتشاركاها.

مررتْ "أنَّا" يدها خلف مؤخرة عنقها التي ابتلتْ بالعرق. قالت لنفسها: "لا يعقل! ما زلتُ أتصبب عرقًا رغم أنني أجلس في الظل!"، أسندتْ ظهرها إلى ظهر المقعد وأطلقت تنهيدةً وهي تأخذ رشفةً أخرى من اللبن. فكرت "أنَّا" حينئذٍ أنها لم ترَ "أجاتا" منذ عدة أيام. بالتأكيد هي ليست مستاءة من ذلك، بل على العكس شعرت إلى حد ما بالارتياح، لتخفيف سِلفتها من ارتباطها بها المبالغ فيه أخيرًا، ولكنَّ اختفاءها التام بهذا الشكل بين ليلة وضحاها.. أيمكن أن تكون قد غضبتْ من تلك الجملة التي قالتها لها ذلك اليوم؟ لكنْ لم يبدُ على تعبيرات وجهها أن جملتها تلك كانت فظة بالنسبة إليها. فقبل نحو أسبوع، زارتها "أجاتا" في موعد الغداء حاملةً معها عجة البيض و"فتات الخبز" ونبات الفُوذَنْج الجَبَلِيِّ. فقالت لها "أنَّا" حينها: "أجاتا"، أشكركِ حقًّا. أنتِ لطيفة للغاية، لكنْ كل ما في الأمر أنني أريد أن أطبخ بنفسي لأسرتي".

ما الخطأ في ما قالت؟ لم تهنْها على الإطلاق!

صرف "كارلو" انتباهها عندما وصل إلى الحديقة وقد عبق المكان برائحة عطر ما بعد الحلاقة بالمِنتول الذي كان يضعه وسألها: "صباح الخير يا حبيبتي! هل أنتِ جاهزة للذَّهَاب إلى البحر؟"، وانحنى ليمنحها قبلة وداعب شعرها.

اعترضت "أنَّا": "نذهب إلى البحر؟ ولكني ليس لديَّ حتى ملابس للسباحة".

أجاب هو: "لا يهم! دعينا نجدْ شيئًا مناسبًا سريعًا. طبعًا لن نبقى هنا ونموت من الحر".

قالت: "لكنْ عذرًا دعني أسألك أولًا، كيف سنذهب؟".

شرح لها "كارلو": "سنذهب بالحافلة، ستتحرك بالضبط خلال خمسين دقيقة".

وأضاف: "أنطونيو" و"أجاتا" و"لورينسا" ينتظروننا في الميدان".

تعنتت "أنَّا": "لقد رتبتَ فعلًا كل شيء، كيف لي ألَّا أعرف شيئًا عن هذا الأمر سوى الآن فقط؟".

أجابها: "لأنني كنت أودُّ أن أفاجئك! سترين كيف سنستمتع معًا جميعًا، ستتناولين فطورك بهدوء على البحر، وسأهتم أنا في أثناء ذلك بأمر "روبرتو".

تحركت الحافلة من ميدان "كاستيلُّو" متأخرةً نصف ساعة عن موعد تحركها المحدد. تزاحم الركاب ودفعوا بعضهم بمرافقهم كي يحجزوا لأنفسهم مكانًا في الحافلة. وبعد الكثير من الاحتجاجات واللعنات التي أطلقها من بقي جالسًا على الأرض ولم يجد مكانًا في الحافلة، وعدهم السائق بأن يعود على الفور ليصطحبهم في رحلة ثانية.

أعلن "كارلو" للمجموعة التي سيتعين عليها الانتظار حتى تعود الحافلة مرة أخرى: "لدى كل واحد منكم عصير ليمون مدفوع الثمن في بار "كاستيلُّو". هكذا تنتعشون قليلًا خلال مدة انتظاركم".

صعد بعدها "كارلو" إلى الحافلة محاطًا بصيحات حماسية تحييه وتشكره.

قالت سيدة شابة تفترش الأرض لطفلها الذي كانت تحمله بين ذراعيها والذي كان يبكي من شدة الحر: "هل سمعتَ؟ هذا السيد الواقف هناك سيقدم لنا عصير ليمون".

سألته "أنَّا": "هل دفعتَ للجميع؟ لم أفهم".

أجاب "كارلو" وهو يجلس إلى جانبها: "بالضبط".

فيما لوح بيده باتجاه الطفل من نافذة الحافلة مبتسمًا له.

نظرت إليه زوجته في حيرة، وسألته: "ولكن لماذا فعلت ذلك؟".

أجاب: "كيف لكِ أن تسألي عن السبب؟ إنها مجرد لفتة لطيفة مني لا أكثر. هم مساكين، عليهم الانتظار في هذه الشمس الحارقة".

فالت: "فهمتُ، لكنْ ما دخلك أنت إن كانوا سينتظرون؟ أقصد: ألم يكن بإمكانهم أن يشتروا العصير بأنفسهم؟".

هزَّ "كارلو" كتفيه قائلًا: "هكذا نتعامل معًا هنا. لطالما فعلنا الشيء ذاته مع بعضنا".

قالت: "قد تكون على حق فيما تفعله، ولكنني لست مقتنعةً ألبتَّة، يبدو لي الأمر على أي حال مجرد طريقة غبية لإهدار المال".

طمأنها "كارلو" وهو يتحسس ركبتها: "لا تقلقي بشأن المال يا حبيبتي. لم يعدْ ينقصنا المال الآن، صرنا نملك الكثير منه".

أصرت "أنَّا" على رأيها: "لكنْ ليس هناك سبب منطقي لبعثرته بهذا الشكل".

تدخلتْ "لورينسا" التي كانت تجلس في المقعد الخلفي، مقاطعة حديثهما وقد أطلَّت بوجهها بين مقعدي عمها وزوجته وقالت: "يا عمة أريد أن أجلس بجانبك".

ربَّت "كارلو" وجنتها وقال لها وهو يترك لها مقعده: "حسنًا، لكنْ هذه المرة فقط، اتفقنا؟"، وغمز لها بعينه وذهب ليجلس في المقعد الذي كانت تشغله الطفلة إلى جانب "أجاتا" التي كانت تهوِّي لنفسها بمروحة من التُّل الحريري الأسود.

في الصف المقابل من الحافلة جلس "أنطونيو" منهمكًا في القراءة، وقد كان مرفقه يلامس مرفق الصبي الذي جلس إلى جواره والذي ألصق أنفه بنافذة الحافلة.

يعد شاطئ "سان فوكا" هو الشاطئ الأقرب إلى البلدة؛ إذ يبعد عنها بضعة كيلومترات. كان يومئذٍ مزدحمًا وصاخبًا للغاية لدرجة أنه تولَّد لدى "أنَّا" شعورٌ قويٌّ يدفعها للصعود مرة أخرى إلى الحافلة كي تعود إلى الهدوء والصمت اللذين تتمتع بهما حديقة الرمان خاصتها. ثم قالت لزوجها وهي تمرر له طفلهما "روبرتو": "خذ أنت الطفل من فضلك".

شعر "كارلو" بالقلق فسألها: "هل كل شيء على ما يرام يا حبيبتي؟".

لم تجبْه "أنَّا". أمالت قبعة القش التي حملتها معها من البيت على جبهتها وأمسكتْ بيد "لورينسا" ومشيا معًا على الرمال الساخنة بحثًا عن مكانٍ خالٍ. بدا الأمر كأنه مهمة مستحيلة وسط هؤلاء الناس الذين استلقوْا ليحصلوا على حمام شمس، والأطفال الذين يحملون الدلاء والمجارف ويبنون القلاع الرملية والكبار الذين يتقاذفون الكرات الصغيرة بمضارب "التامبوريلُّو" الجلدية منها والخشبية، ومع ذلك عثرتا في النهاية على رقعة صغيرة خاوية على الشاطئ حيث جلس "كارلو" و"أنطونيو" ظهرًا لظهر، فيما جلست "أنَّا" و"أجاتا" بالقرب من بعضهما وسيقانهما ممددة إلى جانبيهما، أما الطفلان فجلسا في المنتصف. شعرت "أنَّا" بأنها حبيسة تلك الحرارة الخانقة وذلك التجمع البشري الذي لا يتوقف عن الحركة، بل ضاقت ذرعًا كذلك بتلك الجعجعة التي يصدرها المصطفون بثرثرتهم المتواصلة بلهجتهم الخاصة التي لطالما بدتْ لها مُحيِّرة ومُربِكة بكل هذا الكم الكبير من حرف الـ"u" الذي يأتي في نهاية الكلمات وكذلك حرف الـ"z" الذي يظهر فجأة في أقل مواقع الكلمة توقعًا. لكنْ لم يبدُ أن أحدًا من أفراد أسرتها يلقي بالًا لكل هذه الأشياء التي تزعجها. كان الجميع عداها يبدون سعداءَ بوجودهم في ذلك المكان المزدحم.

وقف "كارلو" فجأة على قدميه وخلع بنطاله وقميصه كاشفًا عن ملابس السباحة؛ سروال قصير غطى منتصف فخذيه، مخطط باللونين الأبيض والأزرق وأعلن: "سأنزل البحر، هل سيرافقني أحد؟".

تذمرت "أجاتا" وهي لا تزال تهوِّي بمروحتها: "لا يمكنني التحمل أكثر من ذلك، يجب أن أغمر جسدي بالماء وإلا سأحترق من الحرارة". ثم أضافت وهي تنهض على قدميها: "لنذهب يا "لورينسا"، يجب أن تبللي رأسك بالماء وإلا ستمرضين".

خلعتْ "أجاتا" عن ابنتها فستانها قصير الكمين وبقيت بملابس السباحة؛ سروال قصير أصفر.

ترجَّت "لورينسا" زوجة عمها: "وأنتِ أيضًا يا عمة "أنَّا".

ربَّتت "أنَّا" الطفلة وقالت لها إنها تفضل البقاء حيث هي في الوقت الحالي.

سأل "كارلو" شقيقه: "وأنت يا "أنطونيو" ألن تأتي معنا؟".

أجاب مشيرًا إلى الصفحة التي يقرأها من الكتاب: "سأنهي أولًا هذا الفصل".

انحنى "كارلو" أولًا ليطبع قبلة خفيفة على جبهة زوجته ثم على جبهة "روبرتو" وقال لها: "أراكِ لاحقًا، لا تجعلي الشمس تحرقكِ!".

ثم ابتسم لها وهي تعدل من وضع قبعتها التي كانت تميل في اتجاه واحد. ظلتْ "أنَّا" تحدق إليه وهو يتجه نحو حافة الشاطئ فيما كان يمزح مع "أجاتا" و"لورينسا" اللتين كانتا تسيران إلى جانبه. وعندما رأتهم يغمرون أقدامهم في الماء رفعت نظرها وثبتته على "أنطونيو" الذي كان يواصل قراءته وهو في كامل تركيزه كأن لا وجود لشيء آخر حوله، وربما شعر "أنطونيو" بأنه مراقب لذلك رفع عينيه عن الرواية التي يقرأها ونظر إليها.

سألته "أنَّا" على حين غرة: "عمَّ يتحدث؟".

بدا الارتباك على ملامح "أنطونيو" الذي تساءل بدوره مستفسرًا: "مَن تقصدين؟".

أجابت "أنَّا" بنبرة مرحة: "الكتاب الذي تقرأه".

صاح "أنطونيو" وقد احمر وجهه خجلًا: "آه، تقصدين الكتاب".

ثم أغلق الكتاب مبقيًا إبهامه داخل الصفحة التي كان يقرأها كما لو كان علامة لتمييز المكان الذي توقف فيه عن القراءة ثم تابع: "حسنًا، الكتاب يحكي عن رجل موصوم بخطيئة الكسل والخمول، يفضل اللجوء إلى مكان تحت الأرض رغم أنه يشعر بالحسد تجاه كل من لديه همة ونشاط وقادر على العمل والحركة، في الواقع عنوان الرواية نفسها هو "رسائل من تحت الأرض".

قالت: "هذه رواية لـ"دوستويفسكي" نعم، أعرف الرواية وكذلك الكاتب، ولكني لم أقرأ أيًّا من كتاباته".

سألها: "ما الذي تفضلين قراءته إذن؟".

تراجعتْ "أنَّا" إلى الخلف واستندت على مرفقيها وقالت: "أحب أن أقرأ لـ"الأخوات برونتي" و"جين أوستن".

قال: "باختصار، تفضلين الأقلام النسائية".

ردت: "لا ليس فقط النسائية، لقد قرأتُ أيضًا لـ"تولستوي" و"فلوبير"، ثم، عذرًا لماذا تتحدث هكذا؟".

سألها: "هكذا كيف؟".

أجابت: "بهذه الطريقة المتعالية، كأن الروايات التي تكتبها النساء أقل براعة وتأتي في مرتبة متدنية".

قال: "لا، لا لقد أسأتِ فهمي، لم أقصدِ التقليل من شأن الروايات التي تكتبها النساء. صدقيني! لقد سبق وقرأت روايات لأقلام نسائية مثل رواية "كبرياء وتحامل".

سألته: "وهل أعجبتك الرواية؟".

هز "أنطونيو" كتفيه وقال: "أفضِّل كُتابًا آخرين في الحقيقة، هذا كل ما في الأمر".

في تلك اللحظة، مرَّ بجانبهم صبي يدفع عربة صغيرة وهو يصيح: "اشتروا اللوز الطازج!".

كشَّرت "أنَّا" وقالت موجهة حديثها إلى "أنطونيو": "لماذا تصرخون كثيرًا هكذا؟".

سألها "أنطونيو": "تصرخون! مَن تقصدين؟".

أجابت: "أنتم، سكان الجنوب".

مطَّ الآخر شفتيه بابتسامة حزينة: "حسنًا، ليس الجميع". ونظر إلى عينيها مباشرة.

قالت "أنَّا" وقد أصبحتْ أكثر لطفًا: "فعلًا، فأنت لست مثلهم، أنا أعرف هذا. ولا حتى "كارلو".

قال: "أتدرين أنني وضعتُ خطًّا أسفل فقرة من الرواية ذكرتني بكِ؟".

سألته: "بي أنا، ولماذا إذن؟".

قال: "أتريدين أن أقرأها لك؟".

أجابت: "طبعًا".

تصفح "أنطونيو" الرواية حتى عثر على الصفحة التي كان يبحث عنها وقال: "ها هي". وأخذ يقرأ بصوت هادئ: "كان هناك وضع آخر يعذبني بقوة حينئذٍ؛ حقيقة أن لا أحد يشبهني وأنني لا أشبه أحدًا. أنا وحيد وهم جميعًا معًا". ثم أغلق الكتاب وحدق إلى "أنَّا".

سألته الأخيرة بوجه متقطب: "أتراني هكذا إذن؟".

أجابها: "هذا ما تشعرين به".

لم تجد "أنَّا" الوقت الكافي لتجيب، إذ اندفعتْ نحوهما "لورينسا" في تلك اللحظة مبتلة بالكامل وصرخت قائلة: "عمتي! أبي! انضما إلينا فالمياه رائعة".

3
أكتوبر – نوفمبر 1934

مضى "كارلو" في البلدة، مدخنًا سيجارًا، خلال أزقتها الضيقة الصامتة التي عبقت برائحة صلصة طماطم كان أحدهم يطبخها خلف النوافذ المفتوحة على مصراعيها، حتى وصل إلى باب محل الخياطة وطرق الباب وهو يُصفِّر لحنًا ما.

فتحتْ له "كارميلا" الباب وكانت ترتدي فستانًا مزينًا بالزهور وحول عنقها التفَّ شريط القياس كما لو كان عقدًا تتزين به.

سألته متفاجئة: "أهذا أنت؟".

سألها "كارلو" مبتسمًا: "أما زالت لديكِ زجاجة من النبيذ الذي كان يصنعه والدكِ؟".

قطبت "كارميلا" جبهتها وأجابته: "أما زلت تذكره حتى الآن؟".

ثم قالت متنهدةً بلهجة أهل البلدة: "ادخل!".

استجاب "كارلو" لدعوتها ودخل وأغلق الباب خلفه.

كان كل شيء يجب توافره في أي محل خياطة موجودًا في تلك الغرفة الصغيرة. كانت الغرفة أنيقة ومرتبة حيث كل شيء في موضعه: ماكينة الخياطة، وطاولة العمل الخشبية، وتمثال عارٍ لعرض الملابس منزوٍ في إحدى زوايا الغرفة، ورف رُصَّت فوقه لفافات القماش، وكذلك كميات كبيرة من المجلات وأدوات مختلفة مما تُستخدَم في الحياكة وُزِّعَتْ طبقًا لطبيعتها واستخداماتها في عُلب منفصلة صغيرة الحجم. وبجانب الحائط المقابل لطاولة العمل وُضِعَتْ منضدة زجاجية صغيرة ملمعة حديثًا تعلوها مزهرية حوت مجموعةً من الزهور واستقر بجانبها كرسيان ذوا ذراعين

مغطاتين بالمخمل الأحمر. قالت "كارميلا" وهي تشير إلى واحد من الكرسيين: "استرحْ هنا، سأذهب لأحضر لك النبيذ. انتظرني هنا".

وفتحت الباب الذي يفصل متجر الخياطة عن شقتها.

عادت وفي يدها زجاجة النبيذ وفي اليد الأخرى كأس من الكريستال. سكبت قدْرًا من نبيذ أبيها في الكأس وقدمتها له.

أبقى "كارلو" عينيه مغلقتين وهو يرتشف رشفة من النبيذ ثم لعق شفتيه.

قال: "هذا هو النبيذ الذي يبتهج الفم لتذوقه". ثم وضع الكوب على المنضدة وسأل "كارميلا": "كيف حالكِ؟".

هزَّت "كارميلا" كتفيها وأجابت: "كما تراني. أعمل طَوال الوقت".

سألها: "وكيف حال زوجكِ؟ أتدرين أنني تعرَّفتُه؟ تبادلنا بضع كلمات فقط في بار "ناندو". بدا لي رجلًا لطيفًا ومحترمًا".

قالت "كارميلا": "هو كذلك فعلًا".

أمسك "كارلو" بالكأس مرة أخرى وأخذ رشفة. "أظنه أكبر منكِ سنًّا بعض الشيء، أليس كذلك؟ كم عمره؟ خمسون؟".

انزعجتْ "كارميلا" من حديث "كارلو" وأسئلته التي لم تفهم جدواها، فأجابت: "تقريبًا. لكنْ ماذا تريد؟".

رفع "كارلو" يده وقال: "لا شيء، لا شيء. في الحقيقة لم آتِ فقط من أجل النبيذ. عليَّ أن أتحدث مع السيد "تشيتشو".

قالت: "مع أبي؟ ولماذا؟".

سألها: "هل تعلمين بشأن الأرض التي ورثتُها عن خالي "لويجي"؟".

أجابت: "أعرف ذلك طبعًا. الكل يعرف بالأمر. لكنْ ما عَلاقة الأرض بأبي؟".

قال: "يجب أن أفعل شيئًا ما في هذه الأرض. فكرتُ في إنتاج النبيذ ويمكن لوالدك أن يقدم لي بعض النصائح".

عبست "كارميلا" وقالت: "إذن عليكَ أن تطلب هذا منه شخصيًّا، ما دخلي أنا بهذا الأمر؟".

نظر "كارلو" إلى الكأس وأمسك بها وأخذ يدير النبيذ داخلها ثم قال: "كنت أريد أن أعرف منكِ قبل أن أذهب للتحدث معه أكان لا يزال غاضبًا مني؛ فهو عندما يقابلني في الجوار بالكاد يلقي عليَّ التحية، ربما أكون مخطئًا. لا أعرف".

حدقت إليه "كارميلا" بصرامة وأجابت: "لقد رحلتَ عن البلدة منذ سنوات عديدة ومضينا نحن قدمًا في حياتنا، ويجب أن تعلم أنك لست محور حياتنا".

في تلك اللحظة سمعت "كارميلا" طرقًا على الباب فذهبت لتفتح، ظهرتْ من وراء الباب عجوزٌ لها عينان غائرتان وشامة بارزة على ذقنها وكانت تحمل على ذراعها أربعة معاطف رجالية مطوية. أشارت لها "كارميلا" بالدخول، ووجهتْ لها حديثها: "آه، السيدة "مارتا"، تفضلي بالدخول، تفضلي".

وضع "كارلو" كأسه ونهض وقال للمرأة: "صباح الخير يا سيدة "مارتا"، كيف حالكِ؟".

أجابت المرأة: "تسير الأمور على ما يرام، نشكر الرب. وماذا عنكم؟ لقد رأيتُ زوجتكَ وكانت معها الصغيرة، يا لها من طفلة جميلة حقًا...".

ابتسم "كارلو" ثم ألقى نظرةً محرجة إلى "كارميلا" التي سارعت قائلة: "جاء "كارلو" ليطلب مني أن أحوك له ثوبًا، ولكنه كان مغادرًا فعلًا وقت مجيئكِ".

أومأ "كارلو" برأسه وقال: "نعم، فعلًا".

ثم وجَّه حديثه إلى "كارميلا": "حسنًا، سأعود عندما يكون الثوب جاهزًا". رافقته الخياطة إلى الباب.

ودَّع "كارلو" السيدتين: "إلى اللقاء يا سيدة "مارتا". ثم أضاف وهو ينظر إلى عيني "كارميلا": "أراكِ لاحقًا يا "كارميلا".

قالت له "كارميلا" قبل أن تغلق الباب خلفه: "تحياتي للأسرة".

خرج "كارلو" من محل الخياطة وانطلق سيرًا على الأقدام وكي يختصر الطريقَ دلف خلال زقاق مرصوف بالحصى سيفضي به مباشرة إلى بيت السيد "تشيتشو" بعد أكثر من كيلومتر واحد. كان يسير بمحاذاة جدارٍ مشيد بأحجار "التوف" الجيرية حيث يمكن للمار أن يلمح أوراق شجر البلوط التي تمتد على الجانب الآخر من هذا الجدار ثم مرَّ خلال باب مُقنطَر الشكل يفضي إلى فضاء مفتوح تتوسطه بئر حجرية تحيط به مبانٍ صغيرة الحجم ذات واجهات متكسرة قليلًا. طرق "كارلو" بابًا ذا مصراعين باللون الأخضر وانتظر وهو يتأرجح على كعبيه إلى الأمام وإلى الخلف. عندما فتح له "تشيتشو" الباب، ذُهِلَ لحظةً وثبَّت عينيه حالكتي السواد اللتين تشبهان عيني "كارميلا" ابنته. زاد وزنه في تلك السنوات بالنظر إلى بطنه المترهل الذي يبرز من قميصه. ورغم ذلك كانت ذراعاه لا تزالان كما يذكرهما "كارلو" قويتين ذواتا عضلات مفتولة. كان أنفه المسطح قليلًا، مغطى ببقع صغيرة بنية اللون، أما شعره الذي كان كثيفًا ومموجًا صار الآن قصيرًا وخفيفًا من عند الصدغين.

قال "كارلو" بنبرة مبتهجة: "صباح الخير يا سيد "تشيتشو".

غمغم السيد "تشيتشو" بملامح جادة: "ماذا هناك؟".

كان من الواضح أنه يريد الدخول مباشرة في صلب الموضوع.

فرك "كارلو" مؤخرة عنقه وهو يشعر بالحرج وقال: "كنت أتساءل أكان بإمكاننا أن نتحدث قليلًا معًا".

فتح السيد "تشيتشو" الباب ودعاه إلى الدخول بإشارة فظة وصارمة ثم أولى له ظهره وسار خلال الممر المظلم.

سأله "كارلو": "كيف حال زوجتك؟".

أجابه سيد "تشيتشو": "لتسألها أنت الآن بنفسك".

انحرفَ إلى اليسار حيث أول باب قابله ودخل إلى المطبخ الذي بالكاد كان مضاءً بالنور المنبعث من النافذة. عبق البيت برائحة قوية للثوم واللفت حيث كان هناك فعلًا

بعض فصوص الثوم ورؤوس اللفت تُشوَّح في مقلاة. وتدلت حزمتان كبيرتان من الطماطم من خطافٍ معلقٍ على الحائط. جلست زوجته "جينا" منهمكة في الحياكة بجوار المدفأة الصغيرة المطفأة. وقد أسند على الرف أعلاها إطار يحوي صورة لـ"بينيتو موسُّوليني" الذي ظهر في الصورة مرتديًا بِذْلَة عسكرية ويعتمر قبعة.

قال السيد "تشيتشو" لزوجته بنبرة بدت لـ"كارلو" ساخرةً ومتهكمةً بعض الشيء: "انظري من أتى لزيارتنا!".

فتحت "جينا" عينيها على وسعيهما ثم نهضتْ وتركتْ إبر الحياكة على الكرسي وقالت بصوت رقيق: "كارلو"، لقد مرَّ وقت طويل".

سلَّم "كارلو" عليها وأخذ يديها بين يديه وقال: "تسرني رؤيتك من جديد يا سيدة "جينا"، أتمنى أن تكوني بخير".

أجابته المرأة: "في أحسن حال، نشكر الرب".

قال "كارلو" لنفسه -وهو يتأمل الغمازات على جانبي فمها- إنها ما زالت تحتفظ بابتسامتها العذبة. رفعت شعرها على شكل كعكة كما كانت تفعل دومًا رغم أن الشعر الأبيض غزا رأسها بالكامل. ورغم تقدمها في العمر فإن بَشَرَة وجهها ظلَّت محتفظةً حتى الآن بحالتها؛ مشدودة وخالية من التجاعيد. انتبه "كارلو" حينئذٍ أن "كارميلا" ورثتْ تلك البَشَرَة النضرة عن أمها "جينا".

حرك السيد "تشيتشو" كرسيًّا بعيدًا عن الطاولة وجلس ثم دعا ضيفه إلى الجلوس كذلك وأمر زوجته: "أعدي فنجانًا من القهوة لضيفنا".

شبك "كارلو" أصابعه على الطاولة ثم أدخل يده في جيب معطفه وأخرج سيجارًا. قال: "هل تمانع إذا دخنتُ يا سيد "تشيتشو"؟".

أشار له الآخر بأنه لا يمانع. أشعل حينئذٍ "كارلو" سيجاره وأطلق في الهواء سحابة من الدخان. عبقتِ الغرفةُ برائحة احتراق أوراق التبغ الصادرة من سيجار "كارلو" التي اختلطتْ برائحة اللفت. أعقب ذلك مدة صمت قطعتها "جينا" التي

حملتِ القهوة في طقم الفناجين الثمين الخاص بالضيوف على صينية من الفضة، ثم عادت لتجلس مكانها وأكملت ما كانت تحيكه. حالما شرب السيد "تشيتشو" آخر رشفة من قهوته أعاد سؤاله لـ"كارلو": "ماذا هناك؟".

تنحنح "كارلو" وقال: "حسنًا، لقد ورثتُ كما تعرف عشرة أفدنة من خالي "لويجي"؛ تلك الأفدنة التي اشتراها قبل مرضه. ولم يتوفرْ له الوقت الكافي ليستغلهم بأي شكل، لذلك قررت زراعتها، وأريد أن أحيلها إلى كرم عنب".

وضع "تشيتشو" الفنجانَ على الصينية ورمق زوجته التي رفعت عينيها والتقت نظراتهما. ثم حدَّق إلى "كارلو" عابسًا وقال: "أجئت لزيارتي من أجل هذا الأمر؟".

أجاب "كارلو": "ومن أفضل منكَ خبرةً يمكنه أن ينصحني بشأن ذلك؟ أنا لم أتذوقْ في حياتي نبيذًا مثل الذي كنت تصنعه، ولا حتى عندما كنت في شمال إيطاليا. أحتاج منك يا سيد "تشيتشو" إلى أن تعلمني كل شيء تعرفه عن صناعة النبيذ، تنقل لي كل خبرتك كما لو كنت تعلِّم ابنك".

ظل السيد "تشيتشو" ينظر إليه طويلًا ثم نهض ببطء وأخذ غليونه من فوق الرف الذي يعلو المدفئة، والذي كان موضوعًا إلى جانب صورة "موسُّوليني"، أشعل عودَ ثقاب ليسخن التبغ الموجود داخل وعاء الغليون وسحب في النهاية نفسه الأول منه.

كرر السيد "تشيتشو" كلام "كارلو" وهو ينفث دخان غليونه: "قلت لي أن أعلمك كابني أليس كذلك؟".

رفعتْ "جينا" رأسها من جديد ونظرتْ باهتمام إلى زوجها بعينيها الصغيرتين بلونهما السماوي.

تابع السيد "تشيتشو": "لا، أنا لن أعلمك كما لو كنت ابني. سأعلمك لأنك ابن الفقيد "بنتاليو". في أحد الأوقات كان بإمكانك أن تصبح بمنزلة ابنٍ لي، ولكنَّ ذلك الوقت قد ولَّى".

تمتم "كارلو": "أعتذر إن كنت أسأتُ إليكَ بكلامي".

حنت "جينا" رأسها واستأنفت الحياكة بشكل أسرع من ذي قبل. دار السيد "تشيتشو" حول الطاولة ثم عاود الجلوس. فرد ذراعيه وقال: "سأسدي إليك طبعًا هذه الخدمة. لكنْ ليكن في علمك أنني أفعل ذلك فقط من أجل صداقتي القديمة مع أبيك".

نهض "كارلو" وصافحه وهو في قمة سعادته وصاح قائلًا: "لا تتخيل كم أنا شاكر لك".

رافق السيد "تشيتشو" ضيفه إلى باب المنزل وودَّعه ثم عاد إلى المطبخ بخطوات بطيئة وجلس من جديد على كرسيه. واصلت زوجته الحياكة، ولكنها بدتْ مضطربةً.

وبَّخها زوجها: "لم يكنْ هناك حاجة لتخرجي طقم الفناجين الفاخر الذي نقدمه للضيوف. لم ينقصنا سوى أن نبسط له السجادة الحمراء وكأنه ملك جاء لزيارتنا!".



قال "كارلو" أمام جميع أفراد أسرته الذين اجتمعوا على العشاء في بيت "أنطونيو" و"أجاتا": "أفكر في زراعة أراضي خالي، تراودني هذه الفكرة في الحقيقة منذ بعض الوقت".

صاحت "أنَّا": "أهكذا تخبرني بقرار كهذا؟".

تحسَّس "كارلو" يد زوجته وقال لها مبتسمًا: "أردت أولًا أن أتأكد من رغبتي في ذلك قبل أن أتحدث معكِ بشأنه".

خفضت "أنَّا" عينيها وأخذت تأكل فطيرة اللحم.

تدخل "أنطونيو" الذي بدا متفاجئًا من قرار أخيه: "وماذا تريد أن تزرع؟".

أوضح "كارلو" وهو يضرب بيده على صدره: "أريد أن أزرع الكرمة. أحلم بأن تكون لي علامة تِجارية من النبيذ، علامة خاصة بي أنا وحدي كما فعلتَ أنت بزيت الزيتون. أريد أن أنتجه هنا وأصدره إلى كل مكان في إيطاليا وإلى الخارج أيضًا، أودُّ أن أصنع نبيذًا يحمل اسمي". وأضاف: "إنهم يصنعون النبيذَ هنا ويرسلونه إلى الشمال حيث يُمزَج مع نبيذ الشمال لتحسين طعمه وجودته. لطالما صار الأمر على هذا النحو.

رغم أننا يمكننا أن نبيعه معبئًا فعلًا في زجاجات والنبيذ الذي يُصنع هنا لا تقل جودته وطيب مذاقه عن النبيذ الذي يُنتج في "فِنيتو" و"بيمُنتي" وأنا أعلم جيدًا ما الذي أتحدث عنه، فلقد شربتُ فعلًا نبيذ الشمال، بل دعوني أخبركم أيضًا أن نبيذنا أفضل من أي نبيذ آخر. ومع ذلك لم يجرؤْ أحد هنا أن يُقدِم على فعلٍ كهذا. على أي حال ها قد حانت اللحظة التي يجب فيها أن نكون طموحين وواثقين من أنفسنا".

فكَّر "أنطونيو" بضع لحظات ثم ابتسم قائلًا: "نعم، تبدو لي فكرة ممتازة حقًّا يا "كارليتُّو".

علَّقت "أجاتا" وفمها ممتلئ بالطعام: "أحسنت، اختيار موفق".

تدخَّلت "أنَّا" وهي ترفع أحد حاجبيها: "أراك مصممًا بشدة على قرارك".

أجاب "كارلو": "هو كذلك".

صاح محركًا يده في الهواء: "هل لكم أن تتخيلوا معي؟ معمل تقطير "جريكو"، للاسم وقع جميل على الأذن، أليس كذلك؟".

سألته "أنَّا": "لكنْ ما الذي تعرفه عن زراعة الكرمة؟".

أجابها "كارلو": سيساعدني أحدهم. لقد طلبتُ فعلًا من السيد "تشيتشو" أن يقدم لي المساعدة".

علَّقت "أجاتا" في دهشة: "آه! حقًّا؟".

سألت "أنَّا" مستفسرة: "ومن يكون السيد "تشيتشو" هذا؟".

ردَّ "كارلو" في اقتضاب: "شخص ما يعرف الكثير عن النبيذ وصناعته". ثم أخذ بشوكته قطعة من فطير اللحم.

قال "أنطونيو": "أنا في خدمتك إن احتجتَ إلى أي شيء".

أجاب "كارلو" وهو يغمز له بعينيه: "أعرف ذلك، شكرًا لك يا أخي الكبير".

وبعد لحظات قالت "أنَّا": "أنا أيضًا سأكون بجانبك. صحيح أنني لا أعرف أيَّ شيء يتعلق بكروم العنب، ولكنَّ الشيء ذاته يسري عليك. دعنا نقول إننا سنتعلم معًا".

عم الصمت في تلك اللحظة على طاولة الطعام. تناول "كارلو" قضمةً أخرى من فطير اللحم وتنحنح ثم قال: "لا تشغلي بالكِ يا حبيبتي، لستِ بحاجة إلى القيام بأي شيء".

اغتاظت حينها "أنَّا" قائلة: "يبدو تقريبًا أنك ترفض مساعدتي".

نظر "أنطونيو" و"أجاتا" إلى بعضهما لحظةً.

قال "كارلو" في الحال: "لا، ليس كذلك. كل ما في الأمر أنني لا أريدك أن تفعلي شيئًا فقط من أجلي. ربما يمكنك العام القادم أن تعودي إلى التدريس. قد يُحال أحد المدرسين إلى المعاش وتُعيَّنين أنتِ مكانه. أليس كذلك؟ وربما أيضًا تجدين وظيفة في بلدة قريبة. تقولين دومًا إنك تشتاقين إلى المدرسة".

أجابت "أنَّا" منزعجة: "الأمر مختلف عمَّا تظن، أنا أفتقد العمل بوجه عام، وعلى أي حال أنت تعرف أنه ليس هناك في البلدة وظيفة شاغرة لمدرس في الوقت الراهن".

تنهَّد "كارلو" ووضع الشوكة وأخذ يد "أنَّا" بين يديه وقال: "عليكِ أن تأخذي الوقت الكافي لتفهمي وتقرري ما العمل الذي تودين ممارسته بدلًا من التدريس. ولكنَّ هذا العمل الجديد يجب أن يشبهك. شيء ما يثير شغفك. لا داعي إلى العجلة". ثم قبل ظهر يدها.

فتح "أنطونيو" فمه كأنه يتأهب لقول شيء ما، ولكنه تراجع في الحال.



كانت السيارة "فيات 508 باليلَّا"، بهيكلها الساخن والساطع بفعل أشعة الشمس وبفرشها الداخلي المخملي، تنطلق بسرعة ثمانين كيلومترًا في الساعة على الطريق الريفي الضيق الممتد من "ليتسانيلُّو" إلى شجرة البلوط الكبيرة التي تُسمى "الجراندیه ليتشو" حيث بوابات بلدة "بيزينيانو" القريبة. كانت قدم "كارلو" تضغط دواسة البنزين فيما يمسك بسيجار مطفأ بين أصابعه ويُصفِّر لحنًا ابتكره لتوه.

على المقعد المجاور له جلس "أنطونيو" وهو يكاد يبول على نفسه من الخوف. كان يقول باستمرار وهو يمسك بيديه مقبض باب السيارة الداخلي: "هدئ السرعة!".

لكنْ لم يكن "كارلو" يوليه انتباهًا أو يستمع له؛ لقد ظل يرغب لوقت طويل في أن تكون له سيارة لدرجة أنه استيقظ في صباح يوم 29 من نوفمبر، يوم عيد ميلاده الحادي والثلاثين، وانطلق كالمدفع من فراشه وهو يفكر في شيء واحد فقط ألا وهو أن يقتني سيارته "الفيات 508"، أراد أن يقدم لنفسه هدية مهمة كهذه خاصة أنه لم يعد الآن مُضطرًّا إلى أن يحرص كثيرًا على نفقاته كالسابق؛ سحب 10,800 ليرة من دفتر التوفير البريدي الخاص به، ودون أن يتردد اشترى سيارة أحلامه؛ السيارة التي كان الجميع يتحدث عنها وسيطرت إعلاناتها على الصحف شهورًا.

كان الإعلان يقول: "لا مزيد من السير على الأقدام". قرر أن يبتاع سيارة موديل "سيدان" تلك التي لها بابان وأربعة مقاعد. اختارها خضراء اللون لأنه اللون الذي يذكره بـ"أنَّا"؛ فالأخضر هو لون عينيها ولون الريحان الذي تحبه مع أنَّ "أنَّا" لم تكن تعلم بعد أيَّ شيء عن نيته لشراء سيارة بهذا المبلغ، وهو الشيء الذي ستعتبره بلا شك ضربًا من الجنون.

بدأ "كارلو" يهدئ من سرعته، عندما لمح غصون شجرة خلف الجدار الصغير الذي ظهر أمامه بعد المنعطف "جراندیه ليتشو" المهيبة التي تلتف حول بعضها. إنها الشجرة الأكثر قدمًا وقوة بين كل الأشجار الموجودة في تلك الأنحاء. عندما كانا لا يزالان طفلين كان والدهما يأخذهما صبيحة كل أحد إلى ذلك المكان حيث يفترش ثلاثتهم الأرض مسندين ظهورهم إلى جذع الشجرة الضخم. كان "بنتاليو" يخرج من جيبه إما برتقالتين عندما يكونون في فصل الشتاء وإما خوختين عندما يكونون في فصل الصيف، ويعطي كلًّا منهما ثمرةً تكون بمنزلة وجبة الإفطار بالنسبة إليهما. وبينما يقضم الطفلان الفاكهة ويبللان شفاههما وأصابعهما، كان والدهما

يبدأ في حكاية واحدة من قصصه: كانت قصته المفضلة بعنوان "أسطورة عن شجرة "الليتشو" وقد كررها على مسامع الطفلين عددًا لا يُحصى من المرات.

نزل "كارلو" و"أنطونيو" من السيارة وكما كانا يفعلان وهما صغيران جلسا على الأرض المبللة مسندين ظهريهما إلى الشجرة. رفع "كارلو" عينيه وبقي صامتًا وهو يسحب أنفاسًا طويلة من سيجاره. ارتفع الدخان نحو السماء وبقي محبوسًا بين الأوراق الكثيفة للشجرة التي بدت كأنها تمتصه.

ثم سأل أخاه: "أتتذكر قصة "الليتشو" التي كان يقصها علينا أبي؟".

أجاب "أنطونيو": "طبعًا أتذكرها".

وبعد لحظة شرع يرويها مقلدًا صوت أبيه المقعقع الأجش ومستخدمًا أيضًا الكلمات نفسها التي كان يستخدمها: "لقد ظل الناس وقتًا طويلًا ينظرون إلى شجرة "الليتشو" على أنها شجرة مشؤومة كونها الوحيدة، من بين كل شجر المملكة التي قدمت خشبها كي يُصنَع منه الصليب الذي صُلِبَ عليه المسيح".

ضحك "كارلو" وقال: "أوه، أنت ترويها مثله بالضبط".

ابتسم "أنطونيو" بدوره وتابع القصة وهو يؤدي بعض الحركات بيده. كان القديس "فرانشسكو" هو وحده من استطاع أن يعيد إلى هذه الشجرة سمعتها الطيبة، إذ نفى تمامًا فكرة أن تكون تلك الشجرة خائنة كما يعتقد الجميع، بل على العكس فقد كانت هي الشجرة الوحيدة التي أدركت حينئذٍ أن عليها التضحية بنفسها من أجل الفداء بالضبط كما كان يسوع نفسه على وشك أن يفعل.

هزَّ "كارلو" رأسه مستمتعًا وتلا نهاية القصة في صوت واحد بتوافُق مع شقيقه: "ومنذ ذلك الحين أصبحتْ تلك الشجرة مقدسةً إلى درجة أن كل المدن الإيطالية بدأتْ تتجادل في ما بينها حول الاسم الذي تريد إطلاقه عليها.

كانت مدينة "ليتشي" هي من فازت. كانت تلك المدينة تُسمى قديمًا "لوبياي"[2]، لذا نجد أن شعارها عبارة عن ذئب يجلس أسفل شجرة بلوط". انفجر الرجلان ضاحكين كونهما قد تفاجآ أنهما لا يزالا يتذكران جيدًا كل كلمة من قصة والديهما.

أغمض "كارلو" بعد ذلك عينيه وسحب نفسًا آخر من سيجارته. ولم يفتحهما سوى عندما شعر بأن شيئًا توقف أمام وجهه: كانت هناك برتقالة تتأرجح في الهواء، كان "أنطونيو" يمسك بثمرة البرتقالة بين سبابته وإبهامه.

قال "أنطونيو": "لن تكون طيبة المذاق كالبرتقال الذي كان يحضره لنا أبي، لكنْ على أي حال عيد ميلاد سعيد يا "كارليتُّو".

انفرجتْ أسارير "كارلو" كأنه حصل لتوه على الهدية الأثمن في العالم. عندما لم يكنْ "بنتاليو" مشغولًا في عمله في أمانة البلدية، كان يزرع الحديقة التي أقامها على قطعة الأرض الصغيرة الواقعة في الجزء الخلفي من المنزل، لقد زرع أشجار برتقال وليمون وخوخ ورمان ومشمش وتين ولوز؛ كان بستانًا كثيفًا امتزجت فيه ألوانُ الثمار المختلفة، وهذا ما جعله واحدًا من أكثر البساتين التي حظيتْ بإعجاب شديد من سكان البلدة. كان "كارلو" و"أنطونيو" يستمتعان في طفولتهما بالركض كالمجانين بين جذوع تلك الأشجار وممارسة لعبة المطاردة؛ عندما كان أحدهما يتسلق أغصان الأشجار كان الثاني ينتظر في الأسفل ليؤدي دور السلم. كان "بنتاليو" يشعر بمتعة وسعادة وهو يشاهد لعب الأطفال ونمو الأشجار: فيمكننا القول إنه لطالما أحب الأطفال والأشجار بالقدر نفسه واعتنى بهما بالطريقة ذاتها. من ناحية أخرى، كان كل الحب الذي أحبه لـ"أدا" زوجته وأم ولديْه "أنطونيو" و"كارلو"، إذ أحبها بكِيانه كله. قد انهار كل هذا الحب نهائيًّا حالما تركته. لا، هي في الواقع لم تغادرِ البيت ولم تتركْ زوجها، بل

(2) Lupiae: من المحتمل أن يكون الاسم القديم لهذه المدينة مشتقًّا من الكلمة اللاتينية Lupus والتي تعني "ذئب".

كانت هناك دومًا بجسدها؛ مستلقيةً على السرير ليلًا ومتكومة على نفسها على كرسي بمسندين نهارًا، لكنْ هناك شيئًا ما انطفأ داخل رأسها بعد أن وضعت "كارلو" وإلى الأبد. كانت ولادة صعبة؛ فلم يكن الجنين يريد أن يعدل من وضعه في رحم أمه، أخذ الأطباء يضغطون عليها، يدفعونها، يمزقون بطنها ثم يخيطونه. تعذبتِ الأم. لقد انتزع الأطباء يومئذٍ من جسدها، طفلها وكذلك ابتسامتها التي لم تعدْ إليها ثانية قطُّ.

وفي ذلك الوقت من السنة الذي تهب فيه الرياح الشمالية، كان "أنطونيو" يطوي البطانيات ويغطي بها جسد أمه ويدفئ الكُمِّيَّة الصوفيِّة قرب النار وعندما تصبح ساخنة بعض الشيء، كان يلفها بعناية حول يديها المتجمدتين من البرد. كان "كارلو" في أثناء ذلك يظل واقفًا ليراقب من خلف عضادة الباب الرعاية الحنون والاهتمام الرقيق الذي يشمل به "أنطونيو" أمهما فيما يشعر هو بشعورين متناقضين في الوقت ذاته: الارتياح والحسد؛ إذ كان يحسد شقيقه على ما يفعله ويعجز هو عن فعله. لم ينجحْ قطُّ من قبل في تحمل نظرة أمه الخاوية والمستسلمة. لم يستطعْ إلا أن يلومها على ما هي فيه وعن تخليها عنه. لطالما أراد أن يهزها بعنف ويلقيها من فوق ذلك الكرسي اللعين. ودَّ لو يحرق جميع الكراسي الموجودة في المنزل. لم يسامحها قطُّ ولا حتى عندما قررتْ أن ترحل إلى الأبد بعدما أتعبتها الحياة وأصبحت متعبةً بقدر لم يعد باستطاعتها تحمله. كانت الحياة تسحقها يومًا بعد يوم حتى تحولت إلى ما يشبه صَدَفة ليس لها شكل محدد بشعرها الأبيض المتموج وساقيها المتورمتيْن اللتين تقطعهما عروق ملتوية الشكل كخيوط صوفية متشابكة.

كان أبوهما "بنتاليو" يُعوِّض طبعًا "كارلو" افتقاره إلى الحب وحنان الأم لكنْ كان "أنطونيو" أكثر من أي شخص آخر في الأسرة، هو من ملأ هذا الفراغ الذي شعر به أخوه. غمره بحب واهتمام لم يفتقد معهما وجود أمه. كان هو من

يحميه ويدلله ويعانقه يوميًّا، لم يمر يومٌ في حياته دون أن يحتضنه رغم أنه لم يكن يكبره إلا بأربع سنوات فقط. كان مجردَ طفلٍ، رجلٍ صغيرٍ، له عينان حنونتان ورقيقتان، وعندما يبكي، يبكي ليلًا في صمت ورأسه مخبَّأ أسفل وسادته، مع أنَّ ذلك على أي حال، لم يمنع "كارلو" من أن يسمعه، ولكنه لم يخبره يومًا قطُّ بأنه يعرف ببكائه الليلي ولم يتحدث معه مطلقًا عن هذا الأمر. نظَّف "كارلو" البرتقالة وقشرها بيديه وألقى القشرة أمامه على الأرض. قسمها إلى نصفين؛ أخذ نصفًا وأعطى "أنطونيو" النصف الآخر. قضم "كارلو" أحد فصوص البرتقالة وبعد لحظة بدأ يضحك ضحكات مكتومة بفم ممتلئ. سأله "أنطونيو": "لماذا تضحك؟".

قال: "أتتذكر الابن الذي كان يصنع النبيذ فيما أبوه لم يكن يقرب المشروبات الكحولية؟".

ابتسم "أنطونيو" ابتسامةً خافتةً وقال: "آه، حسنًا ربما يكون هو السبب الذي جعلك تتخذ قرارك بشأن صناعة النبيذ".

أجابه "كارلو" مازحًا: "هل تقصد أنني قررت ذلك كي أنتقم من كل المرات التي منعني فيها أبي من شرب الكحوليات؟".

قال "كارلو" وهو ينهض على قدميه: "لا، سأفعل ذلك فقط كي أثبت لأبي خطأه. ولذلك سأصنع أطيب نبيذ في العالم. نبيذًا لم يكن حتى هو ليقاوم مذاقه".

مدَّ "كارلو" يده لـ"أنطونيو" كي يساعده على النهوض. ثم سأله وهو يتجه نحو السيارة: "هل تريد تَجْرِبة القيادة في طريق العودة؟".

صاح "أنطونيو" رافعًا يده: "لا لا، أرجوك لا. لا تروقني قيادة السيارات".



بدأت "أنَّا" تعد قالب حلوى من أجل عيد ميلاد "كارلو" رغم أنها كانت تفعل ذلك على مضض قليلًا. فالمرة الأخيرة التي صنعت فيها حلوى كانت في ذلك اليوم

الذي أتمتْ فيه ابنتها "كلاوديا" شهرها الثالث. صنعت يومئذٍ الحلوى المحببة إليها، كعكة الكستناء والتي اتبعتْ فيها وصفة جدتها.

كانت "لورينسا" في الواقع هي التي انتزعت منها وعدًا بصناعة تلك الحلوى، إذ كانت متحمسة لفكرة أن يحتفلوا جميعًا للمرة الأولى بعيد ميلاد عمها. لقد أصرتِ الطفلة كثيرًا حتى خضعت "أنَّا" لرغبتها أخيرًا. فكرت "أنَّا" حينئذٍ أن "لورينسا" صورة طبق الأصل من أمها "أجاتا" في ما يخص الإصرار على الأشياء التي تريدان الحصول عليها؛ هي أيضًا تظل تلح حتى تنجح في جعلها توافق على ما ترغب فيه.

حصلت "أنَّا" بصعوبة على كيلوجرام من دقيق الكستناء، وزبيب وصنوبر وحالما قفز "كارلو" من سريره ذلك الصباح، دون أن يدري أحد أيَّ مكان لعين هذا الذي غادر من أجله المنزل على عجلٍ هكذا، دون حتى أن ينتظرها لتستيقظ ويشربا معًا القهوة. نظفت طاولة المطبخ ولبست مئزرها، لملمتْ شعرها في منديل حريري وشمَّرت كُمَّيْ فستانها الأسود.

كانت تعجن عندما سمعت أحدهم يضغط بشكل متكرر أداةَ تنبيه السيارة. ومع أنَّ يديها كانتا مليئتين بالعجين اللزج ذهبتْ إلى الباب وفتحته على مصراعيه وهي تصيح متسائلة: "من هذا الذي يتسبب في كل هذه الجلبة؟".

كان "كارلو" متكئًا على السيارة مربعًا ذراعيه وقد أشرق وجهه من السعادة.

دارت "أنَّا" حول السيارة تعاينها في صمت. ثم علقت أخيرًا: "حسنًا، يعجبني لونها، أما في ما يخص كم دفعت لتبتاعها فلا أريد أن أعرف". ولكنها ابتسمت بعد ذلك.

كان "أنطونيو" لا يزال جالسًا في سيارة شقيقه، نظر إلى "أنَّا" التي كان الدقيق قد ترك أثرًا على شفتها السفلى وذقنها وشعر برغبة في أن يأخذ وجهها بين يديه وينظفه بالكثير من القبلات الصغيرة الرطبة. وفجأة رأى "أنطونيو" المشهد الذي يجول في خياله يتجسد حقيقةً أمام عينيه، إذ قرب "كارلو" وجهه

من وجه "أنَّا" وبقبلات بطيئة وقصيرة لعق الدقيق من على شفتيها وهمس في أذنها: "أتوق إلى تذوق الكعكة".

قاطعهما "أنطونيو" وقد ترجل فجأة من السيارة: "سأذهب أنا".

قال "كارلو" الذي بدا كأنه تفاجأ قليلًا بوجود "أنطونيو": "انتظر، سأصطحبكَ".

أجاب "أنطونيو": "ماذا تقول؟ إنهما مجرد خطوتين سأخطوهما إلى المنزل".



لم يحتفل "كارلو" بعيد ميلاده في البلدة منذ عشر سنوات، ولذلك أراد تلك الأمسية أن يفعل كل شيء ببذخ ودون أن يهتم بالتكاليف. دعا عددًا كبيرًا من الناس الذين التقاهم مصادفةً في الأيام السابقة: أصدقاءً قدامى، وأشخاصًا تربطه بهم معرفة سطحية، بل حتى إنه دعا بعض الغرباء. طلب من متجر الخمر الخاص بالبلدة خمسة عشر لترًا من النبيذ الأحمر كما طلب مرطبات ووجبات خفيفة من المطعم وقال للطباخ: "افعل ما يحلو لك، واطبخ ما تشاء، بشرط أن تكون كميات الطعام وفيرة".

كان أول من وصل إلى الحفل هما "أنطونيو" و"أجاتا" التي اختالت من أجل هذه المناسبة في طاقم نبيذي اللون بأزرار مطلية باللون الذهبي. رفعت شعرها النُّحاسي على هيئة كعكة صغير ووضعت أحمر شفاه من درجة الطقم نفسها أبرز كل جَعْدَة من تجاعيد شفتيها. وبدا أن شحمتي أذنيها قد استطالتا هذه الليلة، ربما بسبب القرطين الذهبيين الثقيلين اللذين كانت تبرزهما وتتباهى بهما في فخر. سبقت "لورينسا" والديها واندفعتْ نحو "أنَّا" التي كانت ترتدي أيضًا في تلك الليلة ثوبًا أسودَ.

قال "كارلو" لابنة أخيه وهو يدغدغ جانبيها: "ألن تعانقيني أنا أيضًا. مرحبًا انظري إليَّ، هأنا صاحب هذا الحفل. إنه عيد ميلادي أنا".

تلوَّت الطفلة من الدغدغة وحاولتِ التملص وهي تضحك من بين يدي عمها ووقفت على أطراف أصابعها وقبَّلت وجنة "كارلو" الناعمة الذي فاحت منه رائحة النعناع.

وبعد وصول صهريها بمدةٍ وجيزةٍ تفاجأتْ "أنَّا" بالبلدة كلها وقد حطتْ في بيتها؛ كان الأمر بالنسبة إليها بمنزلة لقاء سعتْ بكل شكل لتأجليه، ولكنه في النهاية أصبح حتميًّا لا مفر منه: انهال عليها عشرات من الأشخاص بقبلات وأحضان ومصافحات باليد وتربيتات على الكتف تدفقتْ عليها بلا انقطاع. كان الرجال يرفعون قبعاتهم ويلثمون يدها، أما النساء فكن يلمسن خدها بقبلات لطيفة. ولكي تتخلص "أنَّا" من ذلك التلامس والاحتكاك المباشر مع الضيوف توجهت نحو الفونوجراف ووضعت أسطوانة تروق لها كثيرًا؛ أغنية "حدثني عن الحب يا ماريوُ" لـ"آكِيلِّيه توليانى". وظلَّت أمام الفونوجراف بضع لحظات دون حَراك، موليةً ظهرها للغرفة التي يتجمع فيها الناس ولهذا الزحام الصاخب، فهي لم تكن معتادةً حقًّا كلَّ تلك الأجواء المبهجة الحماسية، ولكنه يوم عيد ميلاد "كارلو" ولم يكن بإمكانها أن تفسده عليه بالعبوس والتكشير، أطلقتْ نفسًا طويلًا وتشجعتْ ثم استدارتْ من جديد وقد ارتسمت على وجهها بعض علامات الابتهاج واتجهتْ نحو الجمعِ الغفير من الضيوف.

عجتِ الطاولة التي تتوسط الغرفة والمصنوعة من شجر الزيتون بألوان الطعام وأباريق النبيذ، وكانت "أجاتا"، بمساعدة ابنتها "لورينسا"، تذهب باستمرار إلى المطبخ كي تتأكد من أنه ليس هناك ما ينقصهم. في حين كان "كارلو" حالما يصل إليه ضيف جديد، يشير إلى طاولة الطعام والشراب ويقول وهو ممسك بكوب من النبيذ وسيجار بين أصابعه: "تفضل، كُل واشرب ما تريد".

ظلت "أنَّا" تراقبه للحظات: كان متألقًا، ومفعمًا بالحيوية والنشاط كزجاجة نبيذ انتُزِعَ غطاؤها للتوِّ، ولم يكنْ هذا بالشيء الجديد على "كارلو"، وإنما كان هذا هو أكثر شيء ظلت تحبه في زوجها منذ تعرَّفا بعضَهما. في تلك الأوقات التي كان "كارلو" يتودد إليها فيها محاولًا إيقاعها في حبه لم يكن بمقدورها السير خلال طرق "بينيا" الفرعية المنحدرة والضيقة دون أن يقفز "كارلو" أمامها، إذ

كان يظهر فجأة من كل ناحية كما لو كان ساحرًا ويقول: "أظن أنكِ تتبعينني يا آنسة أليس كذلك؟ أتدرين أنكِ مزعجة بعض الشيء؟".

كان يسخر منها، فقد كان واضحًا أنه هو من يلاحقها أينما ذهبت. كانت "أنَّا" في تلك اللحظة تهزُّ رأسها، في مرح وتواصل طريقها وهي تعلم أنه سيظهر أمامها من جديد في الطريق التالي. لقد أحبتْ شخصيته المرحة تلك، أحبتْ عفويته، رشاقته وخفته في مواجهة الحياة، هي التي نشأتْ في أسرة صارمة، محاطةً بأشخاص حذرين وعقلانيين يتبعون القواعد الخاصة بالآداب الجيدة ويطبقونها بحذافيرها، لكنهم لم يكونوا يعرفون كيف يقولون "أحبك". بل إن أبويها في الحقيقة قد تُوفِّيا قبل أن يقولاها لها ولو مرة واحدة.

بينما كانت الأغنية تنتهي، اقتربت "أنَّا" من طاولة الطعام وسكبت لنفسها بعض النبيذ، ثم توجهت صوب الحديقة لتنعم ببعض الراحة والسلام. جلست على مقعدها الخاص، وتنهدتْ حيث يطغى الصمت على الحديقة، وأخذت تستنشق رائحة الريحان بعينين مغمضتين.

كان "أنطونيو" هو الوحيد الذي انتبه إلى ابتعادها. لذا سرعان ما اعتذر لوالد أحد زملاء ابنته "لورينسا" في المدرسة، الذي كان يثرثر معه، وانضم إليها. سألها وهو يقف خلف ظهرها: "كيف حالكِ؟"، استدارتْ "أنَّا" فجأة واقترب منها "أنطونيو" بخطوات بطيئة، لكنه ظلَّ واقفًا ويداه مندستين في جيبي بنطاله.

هزَّت هي كتفيها وقالت: "أشعر كأنني سمكة خرجت من الماء".

وضع "أنطونيو" يده على المقعد وأمسك بظهره.

تابعت "أنَّا": "في البداية، كنت أعرف جيدًا من أنا. كان لديَّ عملي وتلاميذي وأماكني المحببة. باختصار كانت لديَّ حياتي الخاصة، أما الآن فعلى النقيض تمامًا لا يسعني استيعاب حتى الكلام الذي يقوله الناس".

ابتسم "أنطونيو": "هذا ليس شيئًا سيئًا كما تعتقدين، الناس تقول الكثير من التفاهات والأشياء الغبية".

ابتسمت "أنَّا" في خفوت.

أضاف "أنطونيو": "لكنْ على أي حال، يؤسفني حقًّا ما تشعرين به".

بقيا صامتين ثوانيَ معدودةً، ثم كانت "أنَّا" هي من كسرت الصمت: "ليس لديَّ أي شيء جديد لأقرأه".

أجابها "أنطونيو": "حسنًا، يمكننا أن نحل هذه المشكلة بكل سهولة. فمكتبة البلدية تحوي عددًا وفيرًا من الكتب. سأصطحبك إذا أردتِ".

ردت "أنَّا": "نعم، بكل سرور".

ثم نهضتْ ولاحظتْ أن ياقة "أنطونيو" نصف مرفوعة فمدتْ "أنَّا" يدها – وكأنه أكثر تصرف طبيعي في العالم– وعدلتها. وعلَّقت راضية: "هكذا أفضل. هيا انهض! دعنا نعُد إلى الداخل". بقي "أنطونيو" مذهولًا وتلعثم وهو يقول لها: "شكرًا". فأصابع "أنَّا" الرفيعة التي لامست جلد رقبته جعلتْ رجفةً مفاجئة تسري في جسده وشيئًا من القلق يقبض على أمعائه.

تجنب أن تلتقي نظراتُه نظراتِ "أنَّا" بقيةَ الأمسية، وبقي بعيدًا حتى عندما كان "كارلو" يقطع كعكة الكستناء ويأخذ قضمه منها بسعادة وحماسة وسط تصفيق الحضور ونخب الأمنيات الطيبة. وبينما كان أخوه يطوق خصر "أنَّا" بذراعه ويقبلها ليشكرها على الكعك، تسلل "أنطونيو" في صمت إلى الحديقة وجلس على المقعد المفضل لـ"أنَّا" ورفع عينيه نحو النجوم.

انتهى الحفل في وقت متأخر من الليل، حتى إن "لورينسا" غفتْ في وقتٍ ما على الأريكة ولم يبدُ لهم أنه من الضروري إيقاظها، لذا انطلق "أنطونيو" و"أجاتا" بمفردهما نحو المنزل، وبينما بقي "أنطونيو" صامتًا طَوال الوقت كانت زوجته –التي تلاشى أحمر شفاهها– تشتكي وتتذمر من أنها قضت الحفلَ

كله وهي تتردد على المطبخ فيما كانت "أنَّا" صاحبة البيت وزوجة صاحب عيد الميلاد منهمكة في الاستمتاع بالحفل.

حالما ولج الاثنان إلى بيتهما، قال "أنطونيو" لزوجته: "سألحق بكِ بعد قليل".

جلس في غرفة الصالون شبه المظلمة ونزع الغطاء الفليني عن زجاجة "الجرابًّا" ذات العنق الطويل وألصق شفتيه على فوهة الزجاجة وشرب بجرعات كبيرة. ظلَّ يشرب حتى اجتاح صدره شعورٌ بالحرقة من فرط ما تجرع من الكحول واهتز جسده بسبب نوبات السعال التي سيطرت عليه. وضع الزجاجة مكانها من جديد ثم صعد إلى الطابق العلوي. فتح بهدوء باب غرفة النوم، ونزع عنه ملابسه وتركها على الأرض وتسلل إلى سريره عاريًا حيث كانت "أجاتا" قد نامت فعلًا مستلقيةً على جنبها. أنزل "أنطونيو" سروالها الداخلي في حين تأوهت "أجاتا" وهي تستيقظ من نومها وسألته: "ماذا تفعل؟".

أمرها "أنطونيو": "استديري!".

أطاعتْه دون أن تنبسَ ببنت شفة. مارس معها الجنس بعينين مغمضتين، دون أن ينظر إليها مطلقًا، واضعًا يده على فمها.

4
يناير – فبراير 1935

أعلنتْ "أجاتا" الخبرَ الهامَ الذي كانت تخفيه في عشاء ليلة عيد الميلاد عندما كان الجميع جالسين إلى المائدة المُعدَّة بكل ألوان الطعام، متأهبين لرفع كؤوسهم من أجل النخب الأول في السنة الجديدة.

قالت "أجاتا" إن الرب أهداها مرةً أخرى أعظم نعمة تسعد بها أي امرأة، إذ اكتشفت أنها حامل.

كشف الذهول الذي بدا على ملامح "أنطونيو" والذي بقي فجأةً جامدًا دون حَراك حالما أعلنت "أجاتا" خبر حملها، أنه لم يكن يعرف شيئًا عن الأمر وأنها مفاجأة بالنسبة إليه هو أيضًا.

نجح بالكاد في أن يسألها بصوت خافت: "لكنْ هل أنتِ متأكدة من ذلك؟".

أجابت "أجاتا" وقد اغرورقتْ عيناها بالدموع: "لقد أكد لي الطبيب هذا".

دار "كارلو" حول المائدة كي يصل إلى "أجاتا" واقترب منها لتهنئتها وقال: "أنا سعيد حقًّا من أجلكما". ثم قبَّل وجنتها.

انحنت "أنَّا" إلى الأمام ومدت يدها من الجهة المقابل من المائدة وقالت: "يا له من خبر جميل!".

فضغطتْ "أجاتا" يدها ثم التفتتْ إلى ابنتها "لورينسا" التي كانت تتطلع إليها في حيرة بعض الشيء وسألتها: "هل فهمتِ ما قالتْه أمكِ؟"، وشرحتْ لها وهي تلمس بطنها: "سيكون لديكِ أخ صغير".

فتحتْ "لورينسا" عينيها على اتساعهما واندفعتْ نحوها كي تعانقها، أخبرتها كم هي سعيدة، بل سعيدة للغاية، ثم ثبتتْ عينيها على والدها الذي لم يكنْ قد تحرك بعد من محله سنتيمترًا واحدًا، كأنَّ تعويذةَ إحدى الساحرات حوَّلته إلى تمثال. كان ما شلَّ حركة "أنطونيو" هي الذكرى التي استيقظت فجأة بقوة في ذهنه بشأن الحمل الأول لـ"أجاتا". تلك الأشهر التسعة الأبدية الخانقة المملة التي قضتها "أجاتا" في بكاء متواصل، خائفةً من كل شيء؛ من البقاء في البيت بمفردها، من الخروج للتسوق في حالة لم يكن هناك شخص مستعد لمرافقتها.

كانت الليالي بالنسبة إليهما بمنزلة جحيم، إذ كانت تكافح دومًا كي تنام، أما أوقات النهار فكانت شكوى مستمرةً بسبب ما تعانيه من قلة الراحة. إضافة إلى ذلك كان على "أنطونيو" أن يكون حذرًا ويقيس كلماته بعناية لأن أقل شيء كان كافيًا لإثارة غضبها. كيف له أن يفكر أنه سيعيش هذا الجنون مرة أخرى من البداية خاصة الآن، إذ لم تعد "أجاتا" صغيرة في السن كالسابق؟ كان الحمل صعبًا بالنسبة إليها قبل تسع سنوات ناهيك بما سيكون عليه الوضع الآن وقد بلغت زوجته عامها الخامس والثلاثين. سألت "أجاتا" زوجها بنبرة متشككة: "وماذا عنك يا "أنطونيو"؟"، ثم أضافت وهي تنظر إلى صهريها في إحراج: "تبدو كالشبح".

ألقى "كارلو" و"أنَّا" نظرةً على "أنطونيو". حثته "لورينسا" بوجهها الصغير الذي بدت عليه ملامح القلق: "أبي، ألست سعيدًا؟ قل شيئًا!".

تلعثم "أنطونيو": "بلى، بلى، من المؤكد أنني سعيد".

جرَّب "كارلو" أن يخفف من حدة التوتر الذي سيطر على الزوجين فقال: "إنه سعيدٌ للغاية لدرجة أبقته صامتًا".

ابتهجتْ "أجاتا" فجأة وقد أصبحتْ نظرتها أكثر لطفًا. وسألته: "هل هذا صحيح؟".

نهض "أنطونيو" أخيرًا، وعندما وصل إلى مقعد "أجاتا" جلس القرفصاء بجانبها وقبَّل بطن زوجته المترهِّل قبلة صغيرة، ويبدو أن ما من أحد قد لاحظ أنه كان يتصرف بآلية كأنه يمثل سيناريو مكتوبًا. داعبتْ هي شعره وقالت: "أتمنى أن يكون ذكرًا هذه المرة".

رفعت "أنَّا" أحد حاجبيها كما لو كانت تريد أن تقول شيئًا ما، ولكنها ظلت صامتة.



فقدت "أجاتا" جنينها حالما بلغتْ شهرها الثالث، في نهاية شهر يناير. عندما عثر عليها "أنطونيو" راكعةً على الدَّرَج وقميص نومها مبللًا بالكامل بالدماء، عرف أن رحمها أصبحت خاويةً من جديد، وهذا ما جعله يتنفس الصُّعداء من أعمق أعماق قلبه.

حالما عادا يومئذٍ من المستشفى، تسللتْ "أجاتا" إلى سريرها وقبضتْ بقوة على مسبحتها الفضية ولم تنهضْ منه لمدة ثلاثة أسابيع. كانت كل حين تُهمهِم بإحدى الصلوات، ولكنها كانت على يقين من أنها فقدت فرصتها الأخيرة لتكون أمًّا للمرة الثانية. ولم يكن بمقدورها أن تستسلم لهذه الفكرة.

كانت "لورينسا" تعود يوميًّا من المدرسة، وتتجاوز غرفَ البيت المظلمة والصامتة وتدخل غرفةَ النوم وتتمدد إلى جانب أمها التي يظل وجهها الشاحب ملتفتًا نحو الجهة الأخرى، وعندما كان "أنطونيو" يعود من معصرة الزيتون في وقت الغداء والعشاء، يطل بوجهه من باب الغرفة ويسألها أكانت بحاجة إلى شيء ما. كانت "أجاتا" تشير له برأسها نافيةً ثم تشد البطانية وتغطي بها جسدها بالكامل حتى شعرها. فيكتفي "أنطونيو" بأن يضع لها شيئًا لتأكله على الطاولة المجاورة للسرير وإبريق مياه، وبالكاد كانت زوجته تلمسه.

ترجَّت "لورينسا" زوجة عمها: "عمة "أنَّا" حاولي أنتِ معها من فضلك".

في أحد الأيام في وقت ما بعد الظهيرة قطعتْ "لورينسا" بمفردها الأمتار القليلة التي تفصل بيتها عن بيت عمها وطرقت الباب لتتحدث مع "أنَّا". أجلستها "أنَّا" على ركبتها وعانقتها طويلًا ووعدتها بأنها ستساعد أمها. لقد سبق أن ذهبت "أنَّا" لزيارة "أجاتا" عددًا من المرات بعد ذلك الحادث، ولكنَّ "أجاتا" تجاهلتها بكل بساطة. توقَّفت "أنَّا" بعد ذلك عن زيارة سلفتها خاصة أنها لم تكن تريد رؤيتها في هذه الحالة التي تذكرها بنفسها حينما تُوفِّيت ابنتها "كلاوديا"؛ كانت منغلقةً على نفسها تعيش ألمها الخاص وتتعامل مع العالم من حولها بلامبالاة. لذا كانت "أنَّا" تتفهم الحالة التي كانت "أجاتا" عليها، ولكنَّ رؤيتها هكذا تثير لديها الضيقَ والحزنَ وتذكرها بنفسها وبفقيدتها.

في اليوم التالي لزيارة "لورينسا" توجهتْ "أنَّا" إلى منزل سِلفتها وطرقتْ مقرعةَ الباب. حملتْ "روبرتو" بإحدى ذراعيها وفي اليد الثانية أمسكتْ بنسخة من رواية "مرتفعات ويذرنج".

فتح لها "أنطونيو" الباب مرتديًا منامةً وأشعثَ الشعر بالكامل.

سألته "أنَّا": "كيف حالها؟".

هزَّ كتفيه وزمَّ شفتيه.

ردتْ "أنَّا" باقتضاب: "فهمتُ. اذهب أنتَ إلى العمل. سأبقى هنا معها".

صعدتْ إلى الطابق العلوي وفتحتْ بابَ غرفة النوم بلطفٍ فنَفِذ ضوء النهار الذي بالكاد أنار الغرفة.

ثم وضعتِ الكتاب على التسريحة وهي لا تزال ممسكةً بطفلها بين ذراعيها، وفتحتْ قليلًا الستائرَ الثقيلةَ لنوافذ الغرفة. فتحتْ "أجاتا" عينيها ثم أغمضتْهما على الفور عندما أزعجها ضوء الشمس الذي تسلل من النوافذ. وضعتْ "أنَّا" "روبرتو" على الكرسي ذي المسندين في وضعية تُجنِّبه السقوط، ثم أخذتِ الكتاب من جديد وسحبتْ كرسيًّا ووضعته بجوار سرير "أجاتا" وقالت: "أنا أعرف أنكِ مستيقظة".

لم تجبْها "أجاتا".

وضعتْ "أنَّا" حينئذٍ الكتابَ على ساقيها، فتحتْ صفحته الأولى وشرعتْ تقرأ بصوتٍ عالٍ: "لقد عُدتُ الساعةَ من زيارة مالك البيت الذي أسكُنه، وهو جاري الوحيد الذي سأتعامل معه في ما بعد. إن هذه البلاد جميلة حقًّا، ولا أعتقد أن باستطاعتي أن أجد مكانًا في إنجلترا بأكملها يشبه هذا المكان بخلوِّه كليًّا من ضجيج الحياة الاجتماعية".

وأخذت تقرأ لها دون توقف حتى حان موعد الغداء، ثم أغلقت الكتاب.

سألتها "أجاتا" بصوت خافت بعدما فتحت عينيها أخيرًا: "هل انتهتِ القصة هكذا؟".

ابتسمت "أنَّا": "انتهتْ فقط لليوم، سنكمل غدًا".

عادتْ في صباح اليوم التالي، ثم كل يوم لمدة أسبوعين متتاليين.

كانت تُعِدُّ الطعامَ لها ولـ"لورينسا" وتُطعِمها في فمها بصبر، وتأخذ قدْرًا من كريم "نيڤيا" من العلبة المعدنية الزرقاء وتدهنه على بَشَرَة يدها الجافة، خاصة على جُلَيدات أظفارها. بل إنها أجبرتها على النهوض على قدميها مرتين لأنها كان عليها أن تغسل لها شعرها. كان ما يطمئنها ويقنعها بالنهوض هو ما تقوله "أنَّا" في كل مرة: "ستعودين بعدها إلى السرير".

وعندما كانت "أجاتا" تغفو فيما تستمع للرواية، كانت "أنَّا" تضع الكتاب على الطاولة المجاورة للسرير وتخرج من الغرفة حريصةً على ألا تُحدِث أيَّ ضجيج، ثم تُغلِق البابَ خلفها جزئيًّا ببطء. تمطُّ ظهرها الذي تقوَّس قليلًا من كثرة الجلوس وتنزل إلى الطابق السفلي لتصنع لنفسها فنجانًا من القهوة. ترتشفه على مهلٍ وهي تتجول في أرجاء البيت. كانت تحاول أن تتخيل "كارلو" عندما كان طفلًا وهو يغفو على الأريكة الخضراء، وهو يلعب على السجادة أو يركض من المطبخ إلى غرفة المعيشة مبتهجًا. فكَّرت "أنَّا" بمرح أن لا بُدَّ أنه كان طفلًا شقيًّا بحق. حدقتْ إلى الكرسي ذي

المسندين المجاور للنافذة، ذلك الذي يجلس عليه دومًا "أنطونيو" والذي كانت تجلس عليه أمهما من قبل، أمهما التي لا يتحدث عنها "كارلو" أبدًا تقريبًا، فكل مرة حاولت "أنَّا" أن تتطرق إلى هذا الموضوع كان زوجها يتمتم ببضع كلمات، ثم سرعان ما يغير الموضوع. كل ما عرفته عنها هي أنها كانت شخصيةً غائبةً رغم حضورها، ومُرهِقة في الوقت ذاته، وأنها عندما تُوفِّيت لم يعانِ "كارلو" كثيرًا، أو هذا على الأقل ما رواه هو لها. كانت "أنَّا" تواصل جولتها في البيت حتى الباب المغلق لمكتب "أنطونيو"، ولكنها منعت نفسها كل مرة من الدخول. كان الفضول الذي يدفعها إلى دخول الغرفة قويًّا للغاية، ولكنها كانت تكبحه. فكرت "أنَّا" "كانت أمي لتقول في تلك اللحظة: إنه تصرف غير لائق أن تدخلي إلى الغرفة دون إذن".

لكنْ ذات صباح وجدتْ "أنَّا" باب المكتب مفتوحًا فعلًا، ربما شرد "أنطونيو" ونسي أن يغلقه قبل مغادرته البيت، لذا دخلتْ هذه المرة بخطوات بطيئة وبقيت تنظر حولها؛ كانت هناك مكتبة من الخشب تشغل حائطًا بأكمله وتعج بالكتب. تساءلت "أنَّا" بينها وبين نفسها غير مصدقة كل هذا الكم من الكتب: "أيمكن أن يكون "أنطونيو" قد قرأ فعلًا كل هذه الكتب؟"، وعلى الجهة المقابلة للمكتبة كانت هناك أريكة مخملية زرقاء ومنضدة منخفضة من الزجاج تعلوها كأسٌ وزجاجة مياه؛ فيما يتوسط الغرفةَ مكتبٌ أنيقٌ من خشب الماهوجني وله كرسي وُضعت فوقَه وسادةٌ حمراءُ.

جلستْ "أنَّا" على طرف الكرسي وبدأت –وقد خالجها شعور قد يكون خوفًا– في لمس الأشياء الموجودة على المكتب: قلم حبر مطلي باللون الذهبي ورواية لم تسمعْ بها من قبل؛ قرأت عنوانها المكتوبَ على غلافها الخارجي "آباء وأبناء" لـ"إيفان سيرجيفيتش تورجينيف". فكرت بإعجاب: "كاتب روسي آخر". وبجانب تلك الرواية كان هناك دفتر ملاحظات مفتوح ودوَّن فيه "أنطونيو" بعض الملاحظات والمذكرات بخط يد راقٍ وأنيق.

مالت إلى الأمام لتقرأ الجمل التي كتبها "أنطونيو" في دفتره، والتي نقلها على الأرجح من هذه الرواية: "العدمي هو شخص لا ينحني أمام سلطة أي شخص مهما كان، ولا يقبل أن يتصرف طبقًا لأيِّ مبادئ حتى إن كان الأمر يتعلق بواحد من المبادئ التي يخضع لها الجميع في تعاملاتهم". ثم نزلتْ قليلًا بعينيها وقرأتْ جملة أخرى: "كانا كلاهما صامتين، ولكنَّ الطريقة التي اتبعاها في صمتهما وفي جلوسهما بالقرب من بعضهما كانت تشي بتواطؤ سري بينهما". ثم مدَّت يدها وقربتْ إليها إطارًا فضيًّا يحوي صورة بالأبيض والأسود لـ"كارلو" و"أنطونيو" وهما طفلان حيث كانا يرتديان ملابس تجعلهما يبدوان كرَجُلين متأنقين. ارتسمتْ على شفتيها ابتسامة ووضعتْ يدها على قلبها، بدا "أنطونيو" في الصورة جادًّا ومتزنًا، فيما كان "كارلو" يقف بجانبه وعلى شفتيه ارتسمت ابتسامة ساخرة. ابتسمتْ "أنَّا" وهي تفكر "بقيا الاثنان على حالهما منذ كانا طفلين وحتى الآن".

ذات صباح وبينما كانت "أنَّا" تواصل قراءتها بصوت عالٍ لـ"أجاتا" من رواية "مرتفعات وذرينج" قاطعتها "أجاتا" وسألتها: "ماذا حدث لـ"كلاوديا"؟".

شعرتْ "أنَّا" بغصةٍ في حلقها. رفعتْ عينيها عن الصفحة التي كانت تقرأ منها وحدَّقتْ إلى سلفتها لحظاتٍ ثم أغلقتِ الكتاب وأجابتها بصوت باهتٍ: "تُوفِّيت في أثناء نومها. قال الطبيب إنها ميتة لا تفسير لها".

نهضت "أجاتا" جالسةً وشبكتْ يديها. تابعتْ "أنَّا": "كانت بصحة جيدة وكل شيء على ما يرام حتى الليلة السابقة لوفاتها؛ حمَّمتُها في تلك الليلة ولعبنا معًا بفقاعات الصابون. غنيتُ لها تهويدة ونامتْ في هدوء في سريرها وغطيتها ببطانية وردية اللون من الصوف. في صباح اليوم التالي لم تكن موجودة بيننا". رفعتْ "أنَّا" عينيها نحو الأعلى كي تمنع دموعها من الانهمار.

لم تقلْ لها "أنَّا" أنها ظلتْ فترةً طويلةً تلقي باللوم على نفسها، مقتنعةً أن إهمالها هو ما تسبب في وفاتها. استرجعتْ وقتها كلَّ لحظة من تلك الليلة السابقة لوفاتها، واختلطَ في ذهنها الواقع بالافتراضات، وهذا ما شكَّل في عقلها حالةً من الضبابية لا يمكن اختراقها. هل كان الاستحمام؟ هل كان الماء ساخنًا للغاية أم باردًا للغاية؟ لكنْ لا، كانت متأكدة من أنها اختبرتْ حرارة المياه بمرفقها قبل أن تُحمِّمها؛ ربما لم تتجشأ "كلاوديا" بعد رضاعتها الأخيرة؟ بدا لها أنها لم تتجشأ فعلًا. هل ربما اصطدم رأسُها الصغير في إحدى الأماكن ولم تنتبهْ هي للأمر؟ ولكنَّ الطفلةَ ذلك اليوم لم تبكِ قطُّ ولم يبدُ أنها منزعجةٌ من أي شيء ألبتَّة.

علقتْ "أجاتا" وهي تُمرِّر يدها على يد "أنَّا": "يا لها من طفلة مسكينة. أنا وأنتِ الآن يجمعنا الألم نفسه".

فتحت "أنَّا" فمها كي تتكلم، ولكنها لم تقلْ شيئًا.

✉✉

في مطلع شهر يناير، وصلت الأربعون ألف شتلة كروم التي طلبها "كارلو"؛ خمسة وثلاثون ألف شتلة من المجموعة التي تضم أصناف العنب المستخدم في صناعة نبيذ "نيورو مارو"، وخمسة آلاف من مجموعة عنب مافزي الأسود الذي يُزرع في مِنْطَقة "بريندِيزي" الإيطالية. أصبح نظام الصفوف والأعمدة اللازم للزراعة جاهزًا الآن، وقد أُعد كل شيء وَفْقَ تعليمات السيد "تشيتشو"، إذ في أول مرة اصطحب فيها "كارلو" السيد "تشيتشو" لرؤية أراضيه. كان ذلك في اليوم التالي لزيارته له في بيته، وقف السيد "تشيتشو" واضعًا يديه في وسطه وألقى نظرة في ما حوله، حيث مدَّ نظره حتى نهاية الأفق. ثم بدأ يشرح له مؤكدًا أن أهم شيء يجب اتباعه هو أن يكون هناك نظام إن طُبِّقَ كما يجب، يُمكِّنه من أن يضم ما يصل إلى أربعة آلاف عمود خشبي في الفدان الواحد. أخبره أن المسافة بين صفوف الأعمدة الخشبية يجب أن تكون مترين ونصفَ مترٍ على الأقل وثلاثة على

الأكثر، وحدَّد له الأمر عمليًّا، إذ خطا بقدمه ثلاث خطوات طويلة. ولكنه عندما رأى "كارلو" يُدوِّن كل شيء يقوله كطالب مدرسي مجتهد في كراسة لها غِلاف أسود، ضحك السيد "تشيتشو" ضحكةً خافتةً ساخرةً ثم قال: "لكنْ ماذا تكتب؟ سأرسل إليكَ عمالًا خبراءَ في الأمر يعرفون فعلًا ما يجب فعله".

هكذا وظَّف "كارلو" قرابة عشرين مزارعًا، سبق أن عمل معظمهم لدى السيد "تشيتشو" في الماضي. وكان من الواضح أنهم معتادون العملَ الجادَّ الشاقَّ. في غضون شهرين فقط كانوا قد رسموا الصفوف ونصبوا الأعمدة الخشبية وربطوا الأسلاك. وفي تلك الأثناء أصبح لدى "كارلو" لافتة مكتوب عليها عبارة "كرم عنب "جريكو"، طلبها من رسام لافتات لديه متجر صغيرة في قلب "ليتشي". كتب العبارة بخط مائل أنيق باللون الأبيض على لوح من خشب الزيتون، وعندما عرضها "كارلو" بفخر على السيد "تشيتشو" أعرب عن استيائه وقال: "هذه مجرد بهرجة لا داعي إليها". شعر "كارلو" للوهلة الأولى بالغضب، ولكنه لم يجبْه.

بعدما تسلم "كارلو" حزمَ شتلات الكروم التي حُمِّلت على عربات كبيرة بدأتْ أعمال الزراعة أخيرًا، وشرع العمال في غرسها. كان السيد "تشيتشو" واضحًا في هذا الشأن من البداية إذ قال: "أفضل وقت لغرس الشتلات هو ما بين الخريف ونهاية الشتاء خلال فترة سكون البذور".

وخلال تلك الأيام، كان يذهب السيد "تشيتشو" إلى كرم العنب كل صباح ليتفقَّد مجريات العمل، فذلك الوقت هو الأكثر حساسية. كان يسير بين الصفوف واضعًا يديه خلف ظهره ويلقي نظرات يقظة على كل شيء حوله وبين الحين والآخر يتوقف لتوبيخ أحدهم: "لا، هذه الحفرة ليست جيدة. يجب أن يكون عرضُها نصفَ مترٍ على الأقل". فيجيبه العمال: "ولكنها نصف متر فعلًا". فيرد: "قيسوها إذن، يمكنني بالعين فقط أن أحدد أن مساحتها لا تتجاوز حتى الخمسةَ وثلاثين سنتيمترًا". وفي كل مرة كان على المزارعين أن يوافقوه الرأي.

كان "كارلو" يلازمه طَوال الوقت كي يتعلم منه أكبر قدر ممكن من الأمور الخاصة بالزراعة، ولكنه لم يعدْ يمسك دفترَ ملاحظاته ويُدوِّن وراءه.

والآن بعدما زُرِعَتْ كل الشتلات حدَّق السيد "تشيتشو" إلى كرم العنب بنظرة راضية وقال: "إذا سارتِ الأمور كما ينبغي فسترى عناقيد العنب الأولى خلال عامين، لنقلْ ثلاثة على الأكثر".

دُهِشَ "كارلو": "ثلاثُ سنوات؟ كيف هذا؟ هل يحتاج العنب إلى وقت طويل هكذا؟ كنت أعتقد أنني سأجني أول حصاد في العام المقبل".

انفجر الآخر ضاحكًا وقال في تهكم: "طبعًا. العام المقبل!"، وصاح وهو يشيح بيده: "مستحيل، يجب أن تتحلى بالصبر، فتلك الشتلات يجب أن تتبع دورتها الطبيعية كي تصير العنب الذي تتخيله. لطالما أردتَ كل شيء وفي الحال، أنت...".

رمقه "كارلو" بنظرة حادة، لكنْ كان مُضطَرًّا إلى أن يبتلع خيبة أمله، فهو يحتاج إلى السيد "تشيتشو" وعليه في الوقت الحالي أن يصمت وألا يرد على انتقاداته له، مع أنَّ طريقته تلك بدأت تثقل عليه وتضايقه حقًّا.

واصل السيد "تشيتشو": "الآن، عليك أن تتركها تنمو بحرية وعلى مهل دون أن تتدخل. وسيكون لنا حديث حول التقليم الأول في الشتاء المقبل، وفكر في هذه الأثناء في بناء القبو".



أيقظت برودة الجو "كارميلا"، فاستلقتْ على جانبها ونفختْ في يديها لتدفئتهما، بينما إلى جوارها غطَّ "نيكولا" زوجُها في نوم عميق، وهو ما كان من السهل معرفته من صوت أنفاسه الثقيلة اللاهثة. مدَّت يدها إلى الطاولة المجاورة للسرير وأدارت ساعة الطاولة الصغيرة في اتجاهها: كانت الساعة السابعةَ صباحًا ولن يرنَّ المنبه قبل الثامنة. قررتْ أن تنهض من الفراش إذ تيقنتْ أنها لن تنجح في النوم من جديد. فكرتْ أنها من الأفضل أن تتقدم في عملها، فلديها قَدْر كبير لا يحصى من المعاطف التي يتعيَّن

عليها رتقها أو تضييقها، إذ سيتركها الآباء لأبنائهم، وأن تثني أطراف السراويل المصنوعة من نسيج الفانيلا، وأن تفصل بدلات وفساتينَ من الصوف، وأن ترفي الخرقات الموجودة في الألحِفة. لقد عملتْ دون توقف في الأسابيع السابقة.

ثم إنها سيتعيَّن عليها في الصباح تسليم الفساتين بنفسها إلى السيدة "تامبوريني"، وهو أمر مزعج سيستغرق منها أكثر من ساعة في الذَّهَاب وتَجْرِبة الفساتين والإياب. ولكنَّ السيدة "تامبوريني" هي أهم زبائنها، ولم يكن بمقدورها أن ترفض طلب السيدة أن تحضر لها الفساتين إلى بيتها. قالت لها إنها تفضل تَجْرِبة تلك الفساتين في غرفة نومها التي تُدفِّئها بالمدفأة بدلًا من أن تلبس وتخلع وسط الجدران الرطبة لمتجر الخياطة.

بعد أن تحمَّمت وارتدتْ ملابسها ورشَّت خلف شحمتيْ أذنيها عطرَ الياسمين الذي تصنعه بنفسها. حيث تنقع البتلات في محلول من الكحول والماء المصفى، ذهبت لإيقاظ ابنها "دانييليه" بقبلة على جبهته، ونصحته ألا يعود إلى النوم وإلا سيتأخر عن المدرسة.

فتح "نيكولا" باب غرفة النوم وانضم إلى زوجته في غرفة المعيشة، كان يرتدي ملابسَ نوم زرقاء اللون من الصوف المخطط، وكانت أزرار سترته ممتدةً فوق بطنه البارز. فكرتْ أنه إذا حدث وزاد وزنه على ذلك فسيتعين عليها أن تخيط له ملابس نوم جديدة. كان "نيكولا" يكبرها بعشرين عامًا -فهو سيبلغ عامه الخمسين خلال ستة أشهر– وفارق السن بينهما كان واضحًا بشدة في كل شيء. إذ يتراجع خط شعره الأمامي أكثر يومًا بعد يوم، مع أنَّها عندما تزوجته كان الشعر ما زال يغمر رأسه. أو هكذا على الأقل ما بدا أنها تتذكره.

سألها زوجها: "هل ستخرجين الآن فعلًا؟".

ارتدتْ "كارميلا" معطفَها وأخرجتِ الشعرات التي بقيت عالقة في ياقة المعطف. كانت تعاني صداعًا من قلة النوم، وإذا سحبت شعرها إلى الخلف بدبابيس الشعر فإن الصداع سيزداد سوءًا، لذا قررت ألا تهتم وتركته منسدلًا على ظهرها.

أجابته على عجل: "سآخذ الفساتين للسيدة "تامبوريني". قالت له قبل لحظة من مغادرتها: "اذهب وتفقد أكان "دانييليه" قد نام مرة أخرى كالعادة بعدما أيقظتُه". انطلقتْ "كارميلا" بخطى سريعة وهي تحمل في أصابعها خمس شمَّاعات علقتْ عليهم العدد ذاته من الفساتين التي غلفتها في ورق حريري مغلق.

كانت أسرة "تامبوريني" تعيش في ڤيلا تقع بعيدًا قليلًا عن وسط المدينة، وللوصول إليها كان يتعين عليها أن تمرَّ خلال شارع "بالديني"، وهو الشارع نفسه الذي كانت تعيش فيه في طفولتها، مرَّت على وجه الدقة من أمام المنزل الذي أصبح الآن لـ"أنطونيو" وبهذا وجدتْ "كارميلا" نفسها مضطرة إلى المرور كذلك ببيت "كارلو" و"أنَّا" قبل أن تنعطف إلى اليمين.

أبطأتْ "كارميلا" سيرها. كانت سيارة "كارلو" "الفيات 508" متوقفةً أمام بوابة المنزل، فيما لا تزال النوافذ كلها مغلقة والستائر البيضاء مُسدَلة. توقفتْ لحظةً ورفعت نظرها حيث نوافذ غرفة النوم. كانت تتذكر المنزل جيدًا كما لو كانت هناك في اليوم السابق. ففي طفولتها كانت تذهب إليه برفقة صديقيها وجاريها "أنطونيو" و"كارلو" في أوقات ما بعد الظهيرة ليتناولوا معًا وجبة خفيفة. كان الخال "لويچي" يستقبلهم ويرحب بهم كل مرة بمائدة غنية بالأطعمة الشهية التي يُوصِي الخادمة بإعدادها للأطفال.

كانت تُجهِّز كعكَ السفرجل وبسكويتَ اللوز والخبزَ الطازجَ ومربى البرتقال ومربى اليوسفي. وبينما يأكل الأطفال بشراهة كان الخال يبقى جالسًا ممسكًا بعصاه ينظر إليهم في رضا.

كانت "كارميلا" تعتقد دومًا أنها ستذهب للعيش في هذا البيت ذات يوم هي و"كارلو"، وأنها ستعيش حياةً مترفةً بدلًا من أن تُرهِق عينيها في الخياطة بالإبرة والخيط. تخيلتْ ما يحدث في ما وراء نافذة الطابق الأول، تصورتْ "كارلو" و"أنَّا" لا يزالان نائمين متعانقين. فكرت "كارميلا" أنه لولا تلك المرأة لكانت هي

هناك الآن، مستلقيةً بجوار "كارلو". أما في الغرفة الواقعة في نهاية الممر؛ تلك الغرفة التي كان "كارلو" و"أنطونيو" من حين إلى آخر يقضيان الليل في طفولتهما. كانت لتكون غرفة "دانييليه". كان يمكنهما أن يكونا معًا، أن يُكوِّنا أسرةً فقط لو أن تلك المرأة المدعوة "أنَّا" لم تعترضْ طريقه.

لا تزال ذكرى ذلك الخطاب الملعون تُلهبها. لم يتكلفْ "كارلو" سوى ثلاث صفحات مليئة بالكلام ليعترف لها بأنه التقى فتاةً أخرى تُدعى "أنَّا" وأنها ملكتْ عليه قلبه. كتب لها أن الأمر كان مفاجئًا بالنسبة إليه، وأن ذلك الحب نزل عليه كالصاعقة، وطلب منها ألا تنتظره بعد الآن لأن ذلك لن يكون تصرفًا صائبًا. إذا كان هناك شيء واحد لا تفتقر إليه "كارميلا" فسيكون "الكرامة"، لذا انتهى الأمر برسالة "كارلو" –لم ترَدْ عليها قطُّ– في المدفأة. حيث أحرقتها بعد أن انتهتْ من قرأتها. ولم تفعلْ ذلك فقط لأن هذا الخطاب يجب ألا يقع في أيدي أي شخص، لكنْ لأنها في الأساس كانت تفضل الموت على أن تؤدي دور المرأة المتروكة التي تخلى عنها حبيبها، خاصة أنها لم تكن وحدها، بل كانت تحمل جنينًا في أحشائها. كانت هذه هي المرة الوحيدة التي مارستْ فيها الجنس مع "كارلو" واكتشفتْ بعدها بشهرين أنها حامل. كان ذلك عندما جاء إلى البلدة ليكون إشبينًا، شاهدًا على زواج شقيقه بـ"أجاتا".

كان الأمر برمَّته مجرد خطأ ارتكبته "كارميلا"، لكنْ على أيِّ حال كيف كان لها أن تعرف في تلك السن الصغيرة الطبيعة الحقيقية للرجال؟ كانت مقتنعةً أن "كارلو" سيعود وسيصطحبها إلى المذبح ويتزوجها، لقد وعدها بذلك وهو ينظر إلى عينيها، قبل لحظة واحدة من صعوده إلى الحافلة التي أقلَّته إلى الشمال من جديد. بينما كانت تنظر إلى الخطاب وهو يحترق بدموع مالحة غاضبة، أقسمتْ "كارميلا" على نفسها أن "كارلو" لن يعرف أبدًا ومطلقًا بأمر حملها. لا يستحق أن يكون أبًا لهذا الطفل.

لقد تولى السيد "تشيتشو" أمرَ "هذه المسألة" –كما أطلق عليها والداها– ورتَّب على عجل شديد زواجها بـ"نيكولا كارلا" واحد من المعجبين العديدين الذين تقدموا

لطلب يد ابنته. اختار "نيكولا" لأنه كبير في السن بما يكفي وبدا أكثرهم غباءً. كان هو الوحيد الذي يمكن أن تنطوي عليه هذه الخَدْعَة وأن تمر دون حساب أو عقاب. كان على "كارميلا" أن تقبل بهذا الزواج المصحِّح دون أن تنبسَ ببنت شفة، إذ هددها أبوها: "هذا ما يجب أن يحدث، إذا كنتِ لا ترغبين في أن تتدمر حياتك". وعندما ذرفتْ دمعةً من عينيها عندما فكرتْ في أنها ستتزوج رجلًا أكبر سنًّا منها بكثير، اقتربتْ منها والدتها "جينا" وطمأنتها، وضعتْ يدها على كتفها وقالت: "لا فرقَ بين هذا أو غيره، كل الذكور في النهاية يا ابنتي متشابهون".

انفتحتْ حينئذٍ فجأةً ستارة نافذة غرفة النوم ولمحت "كارميلا" صورةَ "كارلو" من خلف الزجاج. اتسعتْ عيناها ثم سرعان ما ابتعدتْ عن المكان بكعبيها اللذين كانا يحدثان صوتًا وهما ينقران على الأرض المرصوفة بالحصى.

5
أبريل – مايو 1935

كان أمينُ مكتبة البلدية رجلًا لطيفًا، ذا شعر خفيف ونظرة رقيقة. شكرته "أنَّا" وتوجهتْ نحو باب الخروج وهي تحتضن المجلد الضخم لرواية "البؤساء" لـ"فيكتور هوجو" والمجلد الصغير لرواية "الأرواح الميتة" لـ"نيكولاي جوجول". كانت الرواية الأولى من اختيارها مع أنَّها اعتبرتْ أن عدم توفر الرواية باللغة الفرنسية، لغة الرواية الأصلية في المكتبة أمرًا مخزيًا للغاية. هكذا فكرتْ في الأمر وهي تطلق تنهيدةً. أما الرواية الثانية فكان من الواضح أنها من ترشيح "أنطونيو". نصحها بقراءتها قائلًا: "هي رواية قاسية وممتعة في الوقت ذاته، أود حقًّا أن أعرف رأيك فيها". لا تعرف ماذا تقول عنه وعن شغفه بالكتاب

الروس. ذات مرة سألته "أنَّا" عن سبب إعجابه الشديد بهم، فأجاب "أنطونيو" أنه يرى من وجهة نظره أنهم الأفضل والأمهر ليس فقط في وصف البؤس والشقاء البشري، لكنْ أيضًا في إظهار الشفقة تجاههما. وأضاف قائلًا: "يُشعرونَكِ أنكِ لستِ مخطئةً، وإنما مجرد إنسان عادي".

بينما كانت "أنَّا" تشق طريقها عائدة إلى المنزل، تتطلع بشوق إلى الساعات التي ستقضيها في القراءة جالسة على مقعدها في حديقتها السرية، خاصة أن الصباحات الآن صارت دافئةً من جديد ومعطرةً، جذب انتباهها ضجيجٌ صادر عن حشد صغير تجمَّع أمام بار "كاستيلُّو". تحرَّكت "أنَّا" خلف شاب طويل القامة، قوي البنية يلوِّح بيديه الملطختين باللون الأسود في الهواء وسألته: "ماذا يحدث هنا؟".

استدار الشاب فجأةً وحدَّق إليها بعينين فتحهما على اتساعهما مقطبًا ما بين حاجبيه المتصلين. كان ذلك الشاب هو "ماريو" ملمع الأحذية. أو بالأحرى "ماريو" الثرثار كما يلقبه الجميع. أجابها: "تُوفِّي "فيرُّوتشو".

سألته "أنَّا": "ومن "فيرُّوتشو"؟".

دُهِشَ الشاب: "كيف تسألين؟ إنه ساعي البريد".

أوضح لها شخص آخر: "نزلة شُعبية شديدة أودتْ بحياته".

"فيرُّوتشو". نعم، تذكرتْه "أنَّا" حينها. رأتْه يتجول في الأرجاء عدة مرات بزي سعاة البريد وبحقيبته المُعلَّقة في رقبته. هزَّت "أنَّا" كتفيها ودون أن تقول "وداعًا" ابتعدتْ، وأكملتْ طريقها.

لم تفكِّر "أنَّا" في "فيرُّوتشو" إلا بعد يومين من معرفتها بأمر وفاته. كانت قد بذلتْ مجهودًا كبيرًا لإقناع "أجاتا" التي تحسنتْ حالتها قليلًا بأن ترافقها للتسوق؛ خرجتا لتوِّهما من متجر الفاكهة عندما لاحظتْ "أنَّا" إشعارًا مثبتًا على لوحة الإعلانات الخشبية الموجودة بالقرب من النخلة الكبيرة الكائنة في ميدان "كاستيلُّو". كُتِبَ في منتصف الورقة البيضاء بالحروف الكبيرة "وظيفة شاغرة". طلبتْ "أنَّا" من "أجاتا"

قائلةً: "انتظري لحظةً". واقتربتْ من لوحة الإعلانات. وافقت "أجاتا" ثم لحقتْ بها على مضض بعد لحظة وبدأتْ تقرأ الإعلان بصوت عالٍ.

بسبب الوفاة المبكرة والمؤلمة

لابن بلدتنا المحبب "فيرُّوتشو بيزانيلُّو"

تعلن هيئات البريد الملكية اعتزامها اختيارَ شخص آخر لتعيينه في وظيفة ساعي بريد. للمزيد من المعلومات نرجو التوجه إلى مكتب البريد.

20 أبريل 1935

علَّقت "أنَّا": "إنهم يبحثون فعلًا عن ساعي بريد جديد". أومأت سلفتها برأسها في شرود وقالت وهي تجذبها من ذراعها: "نعم، لكنْ دعينا نذهب الآن. فلا يزال يتعيَّن علينا الذَّهَاب إلى بائع الحليب".



لم يكنْ فصل الشتاء ممطرًا كما كان يأمل "كارلو"، ولذلك اضطُرَّ إلى استدعاء العمال باليومية بشكل متكرر لريِّ شتلات الكروم، ورغم ذلك عندما بدأت شتلات الكروم تمتلئ بالبراعم الخضراء في فصل الربيع، كانت سعادته لا توصف تقريبًا.

قال السيد "تشيتشو" لـ"كارلو" وهو ينظر حوله واضعًا يده كالعادة في وسطه: "أنت محظوظ، لقد مدَّت الشتلاتُ جذورَها في الأرض". ردَّ "كارلو": "لقد اتبعتُ كل نصائحك".

ضحكَ الآخرُ ضحكةً خافتةً ساخرةً وقال: "أصبحت الآن ماهرًا فعلًا".

ثم أكمل السيد "تشيتشو": "أنصحكَ الآن ألَّا تمسَّ النبْتات أكثر من ذلك. تذكر ما قلتُه لك من قبل؛ من الأفضل تجنب عملية التقليم في السنة الأولى". حذَّره بشدة من أن يفعل ذلك، خاصة أن هناك فعلًا من يُقلِّم في العام الأول. في مرحلة نمو الخضراوات، يستخدم الكثيرُ من الناس مقصاتِ تقليم الأشجار لكنَّ السيد "تشيتشو" لم يكنْ يتفق تمامًا مع هذه الطريقة؛ إذْ يظنُّ أنه يجب ألا يقترب

كثيرًا هكذا من شتلات الكروم. ثم قال فجأة لــ"كارلو" وهو يتجه نحو سيارته: "اصطحبْني الآن إلى البيت فأنا متعب وظهري يؤلمني".

ركبا سيارة الــ"فيات 508" وقطعا الطريق المفضي إلى بيت السيد "تشيتشو" في صمت. قال "كارلو" بعدما توقف في الفضاء المفتوح المجاور للبئر الحجرية حيث بيت السيد "تشيتشو": "انتظر، سأساعدكَ كي تترجل من السيارة".

وبينما كان السيد "تشيتشو" يترجل من السيارة مستندًا إلى ذراع "كارلو" خرجتِ ابنته "كارميلا" من باب منزل والديها. بدتْ كعادتها أنيقةً ومعتنيةً بنفسها، انفلتَتْ من شعرها الذي صفَّفته ككعكة خصلة انسابتْ بنعومة على خدها فيما تلوَّنت أظفارها بطلاء أحمر. حيَّته "كارميلا": "مرحبًا".

بادلها "كارلو" الابتسامةَ واصطحب والدها حتى مدخل البيت. طبعتْ "كارميلا" قبلةً على خد والدها ثم نصحتْه بأن يستلقي قليلًا، إذ كان متعبًا بعد ذلك اليوم. علَّق "كارلو" قائلًا عندما بقي هو و"كارميلا" بمفردهما: "أعتذر إليكِ، لقد أرهقته".

تطلَّعت إليه "كارميلا" بنظرة لوم وعتاب زائفة.

سألها: "كيف حالكِ؟".

أجابته: "لديَّ الكثير من العمل، فهذا هو موسم حفلات الزفاف".

قال: "أتمنى إذن ألا يشعر زوجكِ بالإهمال في تلك الأثناء".

سألته: "ولماذا قد يشعر بهذا؟ عملي يوفر أموالًا إضافية للأسرة".

سألها: "وكيف حال ابنكِ؟ رأيتُه في الجوار بصحبة والده. أتدرين أنه يشبهكِ كثيرًا في طفولتكِ؟".

خفضتْ "كارميلا" نظرتها وزمَّت شفتيها وهمهمت قائلة وهي تضع خصلة الشعر المتمردة وراء أذنها: "فعلًا. على أيِّ حال هو أيضًا على ما يرام".

أعقب هذا الحوار بينهما مدةُ صمت تفاجأ فيها "كارلو" بنفسه وهو يحدق كالمفتون إلى تلك الخصلة. لم يفسد الزمن فعلًا جمال "كارميلا"، بل على العكس. فحقيقة أنها أصبحت الآن مدركةً لتأثيرها في الرجال يجعلها أكثر سحرًا وجاذبية.

جفل "كارلو" وتنحنح ثم مرَّر يده على معطفه ليفرد الأجزاء المثنيَّة بسبب جلوسه في السيارة وقال: "من الأفضل أن أذهب". وعاد إلى سيارته.

تبعته "كارميلا" ببرود ولا مبالاة وهو يجلس في مقعد القيادة، ويشغل المحرك وينطلق بسيارته مبتعدًا بسرعة. قالت "كارميلا" لنفسها: "كما لو كان يحاول أن يهرب من عاصفة وشيكة". ولم تقدرْ على منع نفسها من الابتسام.



عادت "أنَّا" إلى منزلها حاملةً حقيبتين من الخوص مليئتين بالطعام. هذا ما يحدث على الدوام عندما تذهب للتسوق برفقة "أجاتا" التي تكرر عليها بإصرار: "تذوقي هذا"، أو: "جربي ذلك" لتنتهي بها الحال بأن تشتري أشياءَ أكثر بكثير مما تحتاج إليه. تنهَّدت ووضعت الأكياس على طاولة المطبخ وفتحتْ باب حديقتها السرية؛ تقدمتْ حتى وصلت إلى المقعد وجلستْ دقيقةً كانت كافية لتلتقط فيها أنفاسها. أوشكت البراعم الأولى الخجول على أغصان شجر الرمان أن تتفتح، وقريبًا ستمتلئ الحديقة بالألوان من جديد مثل أول مرة رأتها فيها.

صاح "كارلو" الذي لحق بها في الحديقة في تلك اللحظة: "ها قد عادت أمك!". وضع "كارلو" الطفل بين ذراعيها ثم انحنى وقبَّل شفتيها وقال لها: "يجب أن أذهب إلى مصنع النبيذ، لا يزال العمال يحفرون الأحواض بالأسفل، ولكنهم بطيئون قليلًا في الحقيقة. لا تنتظريني على الغداء، تناولي طعامكِ إذا شعرتِ بالجوع".

بقيتْ "أنَّا" وحدها، ضمَّت "روبرتو" إليها وأطلقت تنهيدةً أخرى. منذ شرع "كارلو" في مشروع كرم العنب لم تكن "أنَّا" تراه إلا قليلًا وبصورة عابرة كل مرة تقريبًا. وعمله في المصنع والمخزن الخاص بالنبيذ زاد الطين بِلة، ليس فقط لأن تلك

الخرابة التي ابتاعها بحَفنة من الليرات تتطلب جُهْدًا ضخمًا لإعادة بنائها وترميمها، وإنما تحديدًا لأن "كارلو" أقصاها عن هذا الأمر برمَّته. فهي لم تزرْ مصنع النبيذ هذا ولا حتى مرة واحدة منذ ابتاعه. كان يقول لها: "سآخذكِ لرؤيته عندما ينتهي العمل فيه". كثيرًا ما تناولت غداءها من دونه وبقيتْ وحيدة ساعاتٍ كانت تبدو لها أبدية. صحيح أن لديها فعلًا طفلها الذي تهتم به وتُشغَل بأمره ولديها كتبها التي ترافقها وتؤنسها، ولكنَّ كل هذا لم يكنْ كافيًا. لم يكفها كل ذلك قطُّ.

كان يؤسفها، بل يغضبها أيضًا بعض الشيء أن "كارلو" لم يردْ أن يشركها بأي شكل في مشروعه كما لو كان يشعر بالغيرة عليه. مع أنَّه كان يعرف منذ زواجهما أنها ليست تلك المرأة التي يمكنها أن تكتفى بكونها زوجةً وأمًّا. وأنها بحاجة إلى العمل، بحاجة إلى أن تشعر بدورها في أعمال أخرى. كان سيكفيها أن تقدم له المساعدة بشكل أو بآخر، فيما تنتظر أن تظهر أمامها فرصة عمل أخرى؛ كأنْ تعثرَ ربما على مكانٍ خاوٍ للعمل كمدرسة في أي مدرسة. لكنْ على العكس بدا لها أن "كارلو" يتظاهر بأنه لا يعرف أي شيء عنها.

طبعتْ قبلةً صغيرةً على وجنة ابنها ونهضتْ من مقعدها. وضعتْ "روبرتو" في عربة الأطفال ثم ألقتْ نظرة على الحقيبتين الموضوعتين على الطاولة اللتين لم تفرغهما بعد. قالتْ لنفسها إنها ستهتم بالأمر لاحقًا، أما الآن فعليها الاهتمام بأمرها هي شخصيًّا. دفعتْ عربةَ الطفل وغادرت المنزل.

تمشَّت حتى الساحة حيث مكتبُ البريد على بعد خطوات قليلة من بار "كاستيلُّو". توقفتْ أمام البوابة نصف المفتوحة حيث عُلِّقَتْ على المصراع المغلق لافتةٌ بمواعيد عمل المكتب

من الساعة 8 إلى الساعة 14

ومن الساعة 15 إلى الساعة 19

دخلتْ "أنَّا" دافعةً عربة "روبرتو" أمامها وقالت: "صباح الخير". بدا مكتب البريد منحصرًا بالكامل في غرفة واحدة فقط تتوسطها طاولة ومكتبان، وُضِعَ على أحدهما آلة كاتبة، وبعض الأدراج، وخزانة لحفظ الملفات، ولوحة كبيرة للإعلانات والإشعارات، وخزانة صغيرة، وفي نهاية الغرفة كان هناك باب مغلق. استقبلها رجلٌ جالسٌ على أحد المكتبين ذو جسد ممتلئ وبَشَرَة زيتية اللون وملامح بارزة ولحية كثيفة وقال لها: "صباح الخير، تفضَّلي، ماذا تريدين؟".

أجابت: "قرأتُ الإعلان المثبَّت في لوحة الإعلانات، أنتم تبحثون عن ساعي بريد أليس كذلك؟".

ردَّ الموظف: "نعم أيتها السيدة، هل أنتِ مهتمة بالأمر من أجل زوجكِ؟".

رفعت "أنَّا" حاجبها وقالت: "لا، في الحقيقة أسأل من أجلي أنا".

رمقها الرجل بنظرة مضحكة.

واصلتْ "أنَّا" بنبرة جدِّية للغاية: "ما الذي يتعيَّن عليَّ فعله كي أشارك في عملية الاختيار؟".

ضحك الرجل ضحكةً خافتةً ساخرةً.

عبستْ "أنَّا" متسائلةً: "هل تجد الأمر مضحكًا لهذه الدرجة؟".

أجابها الرجل: "نعم، كثيرًا". نهض على قدميه وفتح أحد الأدراج وأخرج منه ورقة، اقترب منها وسلَّمها إياها. ثم أكمل بنبرة مرحة: "هذه الورقة تحوي قائمةً بكل ما هو مطلوب، إنها مسابقة تعتمد على ما سيقدمه المتقدم من أوراق وشهادات معتمدة، أتفهمين ما أقصد؟".

حدقت إليه "أنَّا" بغضب وأمسكت بالورقة وأجابت: "طبعًا أفهم".

تأفَّف الرجل وعاد ليجلس خلف مكتبه.

ألقتْ "أنَّا" نظرة سريعة على قائمة الأوراق التي عليها إحضارها؛ شهادة ميلاد، وصحيفة أحوال جنائية، وشهادة حسن سير وسلوك، وشهادة مدرسية.

صرفها عن تركيزها صوتُ رجلٍ ظهرَ من خلف الباب في نهاية الغرفة إذ سألها بابتسامة لطيفة: "صباح الخير، هل أنتِ بحاجة إلى المساعدة؟".

كان شابًّا في الثلاثينيات من عمره، له شعر مجعَّد للغاية، وعينان بلون البحر الصافي، ممتلئ وحسن الوجه. أجابت: "لقد طلبتُ المساعدة فعلًا، شكرًا لك".

تدخَّل الرجل الجالس إلى المكتب دون أن يخفي سخريته: "السيدة تريد المشاركة في مسابقة سعاة البريد".

علَّق الرجل حسن الوجه مدهوشًا قليلًا: "آه، حسنًا". ثم أضاف وهو يمدُّ لها يده: "أنا "تومَّازو ديه سانتيس"، مدير المكتب".

صافحته "أنَّا" وعرفته بنفسها: "أنا "أنَّا أَلاڤينا".

سألها:" هل شرح لكِ "كارمينيه" كل شيء؟".

أجابت "أنَّا" وهي تشير إلى الورقة التي تمسكها بين يديها: "أعطاني هذه".

أومأ "تومَّازو" وقال: "عندما تُجهِّزين كل الأوراق اللازمة عودي إلى هنا".

ابتسم لها وأضاف: "لديكِ فرصة حتى يوم 14 مايو لتقدمي الطلب".

قالت "أنَّا": "شكرًا". ولكنها لم تتحرك من مكانها. نظرتْ مرة أخرى إلى قائمة الأوراق المطلوبة، ثم رفعتْ عينيها ونظرت إلى المدير وقالت: "هل يمكن أن تعطيني قلمًا وورقة من فضلك؟ على ما يبدو سيتعيَّن عليَّ أن أرسلَ في طلب بعض الأوراق. من الأفضل فعل ذلك على الفور، يجب أن تصل من "بينيا" إحدى بلديات إقليم "ليجوريا" هل تعرفها؟"، ورمقتْ "كارمينيه" بنظرة متحدِّية.

تفاجأ "تومَّازو" من السؤال فتلعثم قائلًا: "نعم، ورقة وقلم. طبعًا". وذهب ليأخذهما من على مكتبه. ثم أعطاهما لـ"أنَّا" التي ابتسمت أخيرًا.



عندما فتحتْ "أنَّا" عينيها لم تتذكر في الحال أن ذلك اليوم هو 13 مايو. تبادر ذلك إلى ذهنها فقط في وقت لاحق بعدما سقتْ نبْتات الريحان، وفيما كانت تشرب اللبنَ الدافئَ كعادتها وهي جالسة على المقعد الكائن في حديقتها السرية، ولم يثر هذا التاريخ فيها سوى غضب شديد. لم تحبَّ عيد ميلادها ولا الاحتفال به قطُّ. فهذه هي الطريقة التي طالما تعاملت بها مع عيد ميلادها منذ طفولتها. كان والداها ينظمان حفلةً صغيرةً يحضرها أجدادها وأعمامها وأبناء عمها، ولكنها تظل مختبئة طَوال الوقت في خزانة الملابس المصنوعة من خشب الكرز في غرفتها الصغيرة، وكانت تخرج فقط عندما يغادر الضيوف، وهو ما كان يقود أمها إلى الجنون في كل مرة.

ظهر "كارلو" -وهو لا يزال يرتدي منامته حاملًا "روبرتو" بين ذراعيه- في الحديقة وهو يتغنَّى بأغنية عيد الميلاد: "عيد ميلاد سعيد".

التفتت "أنَّا" نحوه وابتسمتْ لكليهما. في ذلك الوقت لامس "كارلو" شفتيها بقبلة سريعة وداعبَ شعرها ثم همس في أذنيها قائلًا: "كل عام وأنتِ بخير يا حبيبتي".

أشار الطفل إلى الثمار المتدلية من الأشجار وقال: "الريمان". صححتْ له أمه: "يسمى رمان".

كان هذا أول عيد ميلاد لها في الجنوب، لذا أراد "كارلو" أن يجعله مميزًا. كان يعلم أن "أنَّا" لا تهتم على الإطلاق بهذا اليوم، لكنه كان مقتنعًا بأن وجود أسرتها إلى جانبها في تلك المناسبة سيسعدها ويرضيها. لكنه أراد أن يكون الأمر مفاجأةً لها، وهو ما أوصى به الجميع بشدة وخاصة "لورينسا". قال لها قبل أيام قليلة من موعد عيد الميلاد: "سأعهد إليكِ بمهمة شديدة الأهمية، عليكِ أن تبقي عمتكِ "أنَّا" مشغولةً في وقت ما بعد الظهر. اذهبا معًا في نزهة طويلة جدًّا، حتى يتاح لي أنا وأبوكِ الوقتَ الكافي لتزيين الحديقة للحفل". أما في ما يخص طعام عيد الميلاد فستكون تلك مهمة "أجاتا" التي ستعدُّ فطيرتها المعتادة من اللحم بمذاقها الذي لا مثيل له مع طبق جانبي من البطاطس.

وهكذا أمضتْ "أنَّا" وقتَ ما بعد الظهيرة وهي تتجول في الريف برفقة "لورينسا" التي أجبرتْها على التوقف في كل حقل لكي تجمع زهور الأقحوان. وعندما عادت "أنَّا" بصحبة الطفلة التي كانت تضم باقةً ضخمةً من الأزهار، وجدت "كارلو" و"أنطونيو" و"أجاتا" واقفين على أقدامهم أمام طاولة معدَّة بالطعام تتوسطها باقة من الزهور الحمراء لتزيينها، وأدوات مائدة فضية وكؤوس من الكريستال وشموع مضاءة. فتحت "لورينسا" عينيها على اتساعهما وتركتْ باقة الزهور تسقط من بين يديها وصفقتْ. صاحتْ قائلة: "يا لكم من بارعين حقًّا!".

سألت "أنَّا" "لورينسا": "أيتها الشقية الصغيرة، هل كنتِ تعلمين؟"، فكرتْ "أنَّا" فيما تحاول رسمَ ابتسامة على وجهها: "كان عليَّ أن أخمِّن شيئًا كهذا". فقد تزوجتُ رجلًا يحب الحفلات أكثر من أي شيء آخر. وعلى الرغم مما تبديه كل مرة من ممانعة، فإن "كارلو" كان ينجح على الدوام في وضعها أمام الأمر الواقع. ففي عامهما الأول كزوجين اصطحبها إلى شاطئ "بورديجيرا" لمشاهدة النجوم حيث ذهبا بكأسين وزجاجة من النبيذ الفوار. وفي كل عيد ميلاد لها من وقتها كان يُدهِشها بحيلة ما. حتى إنه في إحدى المرات اصطحبها ليرقصا معًا رقصة "شارلستون".

فتح "كارلو" زجاجة من النبيذ وملأ الكؤوس. قال وهو يرفع كأسه: "نخب "أنَّا"!".

هتف "أنطونيو" و"أجاتا" في صوت واحد: "نخب "أنَّا".

جلسوا جميعًا إلى الطاولة حيث قطعت "أجاتا" الفطيرة إلى شرائح مثلثة ووزعت الشرائح على الحضور، ثم رسمتْ علامة الصليب وشبكتْ يديها وتمتمت بعينين مغمضتين بصلاة شكر سريعة.

بدأ "كارلو" و"أنطونيو" كعادتهما يتحدثان بين كل قضمة والأخرى عن النبيذ والزيت. وانطلقتْ "أجاتا" في واحد من أحاديثها الفردية حيث مزجت بين نمائم من كل نوع؛ كانت "أنَّا" تستمع إليها وتومئ لها، رغم أنها كثيرًا ما كانت لا تعرف حتى عمن تتكلم سلفتها بالضبط.

ثم انتهزتْ "أنَّا" لحظةَ الصمت التي سادت طاولة الطعام ودون أن توجه حديثًا إلى شخص بعينه سألت فجأة: "أتعرفون "فيرُّوتشو" ساعي البريد؟".

أجاب "كارلو": "طبعًا أعرفه منذ كنت طفلًا".

غمغمت "أجاتا": "لروحه السلام! لم يكنْ كبيرًا في السن".

أوضح "أنطونيو": "كان مريضًا فعلًا منذ فترة قصيرة".

أضاف "كارلو": "فعلًا. مسكين "فيرُّوتشو".

تابعت "أنَّا": "يبحثون عن بديل له، سيغلق باب استقبال الطلبات في الغد".

تمتم "كارلو" وفمه ممتلئ بالطعام: "امممم".

بدأ "أنطونيو" يحدق إلى "أنَّا" شاعرًا بالفضول تجاه سبب التحول الذي أخذته فجأة المحادثة.

وفعلًا بعد مدة قصيرة أعلنت "أنَّا": "سأتقدم أنا أيضًا بطلب للتعيين غدًا". قالتها ثم أخذت رشفة من النبيذ.

حدَّق إليها "كارلو" و"أجاتا" في ذهول فيما ارتسمت على وجه "أنطونيو" ابتسامة خفيفة.

علَّق "كارلو" قائلًا بنبرة مضحكة وقلقة في الوقت ذاته: "ماذا تقولين يا حبيبتي؟ هل تمزحين؟".

أجابت "أنَّا" في حزم: "لا مطلقًا".

اندفعت "أجاتا" قائلة: "ولكنكِ امرأة!".

أجابت "أنَّا": "وماذا في ذلك؟".

تدخَّل "كارلو" ضاحكًا في سخرية وخفوت: "بربكِ يا "أنَّا"! وظيفة ساعي البريد هذه ليست للنساء".

عارضته "أنَّا": "ومن الذي قرر هذا؟".

قال "كارلو": "أنَّا"، فكري جيدًا! ربما تعودين إلى التدريس في العام القادم. قد يتقاعد أحد المعلمين فتشغلين مكانه وإذا كنتِ تريدين حقًّا أن تبقي مشغولة في شيء ما، فيمكنك دائمًا أن تساعديني في مصنع النبيذ".

قالت "أنَّا" مندفعة: "آه، حقًّا! الآن تريد مني أن أساعدك؟ الآن فقط؟".

حدَّق إليها "كارلو" منزعجًا قليلًا من ذلك الاتهام الذي توجهه إليه زوجته ثم احتجَّ بشكل طفيف قائلًا: "وظيفة ساعي البريد هذه لا تليق بكِ وليست مناسبة لكِ".

أوضحتْ "أجاتا" بحزم: "إذا كنتَ تتحدث عما يناسب، فهذه الوظيفة ليستْ مناسبة لأي سيدة".

سألت "أنَّا" في انزعاج: "وما الذي يجعلها غير مناسبة؟".

أجاب "كارلو" وهو يضع الشوكة: "بل هي وظيفة متعبة أيضًا، سيتعيَّن عليكِ التجول على قدميكِ طَوال الوقت سواء أكان الجو ممطرًا أم مشمسًا. انظري كيف كانت نهاية "فيرُّوتشو"، تدهورتْ صحته بسبب هذا العمل. نحن جادون في قولنا، ليس هناك سعاة بريد من النساء".

قالت "أنَّا": "ليس هناك، حتى الآن".

صمت الجميع. أعاد "كارلو" ملء كوبه بوجه متوتر وعابس، أما "أجاتا" فخفضت عينيها وكانت تتبع الحافة المطرزة لمفرش المائدة بأصابعها. أرادت "لورينسا" بقوة أن تقول إنها تبدو فكرة جيدة جدًّا، لكنها أدركتْ أنها ليست اللحظة المناسبة لقول هذا. أنهى "كارلو" الحديث في هذا الأمر قائلًا بوجه متجهم: "حسنًا، سنتحدث في الأمر في ما بعد، دعونا الآن نغير الموضوع".

سألت "أنَّا" "أنطونيو": "وماذا عنك يا "أنطونيو" ألن تقول شيئًا؟".

تنحنح "أنطونيو" ونظر أولًا إلى "أجاتا" ثم إلى "كارلو" وأجابها رافعًا كتفيه: "حسنًا، إذا أردتِ أن تجربِّي، فلمَ لا؟".

غضب "كارلو": "أنت أيضًا تقول هذا! لا تشجِّعها!".

قاطعته "أنَّا": "لستُ بحاجة إلى التشجيع، اتخذتُ قراري فعلًا وجهَّزت كل الأوراق اللازمة".

دُهِشَ "كارلو": "ومتى فعلتِ كل هذا؟".

أجابت بسخرية: "في أثناء غيابك".

قال "كارلو": "لن يختاروكِ أبدًا".

حملقتْ إليه "أنَّا" بنظرات غاضبة. وألقت منديلَ المائدة على الطاولة ونهضتْ مبتعدةً. حاولتْ "لورينسا" إيقافَها: "يا عمة!"، لكنْ بلا جدوى.



في تلك الليلة، تشاجرت "أجاتا" بقوة مع "أنطونيو" لأنه انحاز إلى "أنَّا" في دفاعها عن تلك الفكرة الغبية، بل بالأحرى المجنونة. كيف خطر على باله أن يعارض "كارلو"؟ ألم يسمعْ ما قاله؟ هو لا يريد لزوجته أن تشغل هذه الوظيفة! هو زوجها! لماذا يتدخل بينهما في أمر كهذا؟ هل من الطبيعي أنه في كل مرة لعينة ينحاز إلى صف "أنَّا"؟

سدَّت "لورينسا" أذنيها وركضت إلى غرفتها. ولج "أنطونيو" إلى غرفة مكتبه دون أن ينبسَ ببنت شفة وأغلق خلفه الباب بالمفتاح تاركًا "أجاتا" تصرخ بالخارج.

أما في منزل "كارلو" و"أنَّا" فقد تطاير طبقان وكوب. اتهمتْه "أنَّا" بأنه تصرف كزوج مسيطر وهو أمر غير مقبول بالنسبة إليها! فهي لم تتزوجْ رجلًا ضيقَ الأفق هكذا. عوْدته إلى الجنوب جعلته شخصًا معتوهًا، يصعب فهمه وتعرُّفه! لم يتأخرْ رد فعل "كارلو" طويلًا إذ صرخ في وجهها متسائلًا عن الشيء الذي تريد أن تثبته بأدائها عملًا لا يمارسه سوى الرجال فقط. ألم تنتبه لفكرة أن البلدة بأكملها ستضحك منها وتهزأ بها؟ هل هذا حقًّا هو ما تريده لابنها؟

أمسكتْ "أنَّا" بطبق ما زالت عليه بعض بقع الزيت وقذفتْ به نحو إحدى الأشجار وقالت: "لا تُقحِم "روبرتو" في الأمر!".

صرخ "كارلو" متسائلًا: "هل تريدين أن تلعبي لعبةَ الأطباق الطائرة، حسنًا، لنلعب!"، وأخذ طبقًا آخر وألقى به على حائط الحديقة.

انفجرتْ "أنَّا" غاضبة وقالتْ ملوحةً بقبضة يدها في الهواء: "Et je hais de tout mon être ce village et ses habitants!" (أنا أكره هذه القرية وأكره سكانها من أعماق قلبي).

ردَّ "كارلو": "تكلمي بالإيطالية! نحن في إيطاليا!".

أمسكتْ "أنَّا" حينها بكوب من الكريستال وقذفته مباشرة نحو "كارلو" فلامس وجهه. تحسَّس "كارلو" خده ونظر إليها غير مصدق أن الكوب كاد يصطدم فعلًا بوجهه.

وفي وقت متأخر من الليل، نام "أنطونيو" على ظهره فوق أريكة مكتبه وعلى صدره كتاب مفتوح. فيما كانت "أجاتا" تتقلب في سريرها وعيناها مفتوحتان على اتساعهما. أما "لورينسا" فقد عانقت دميتها القماشية في الغرفة المجاورة ونامت.

على الجانب الآخر كان "كارلو" و"أنَّا" يمارسان الحب بطريقة غاضبة وعنيفة حتى بزوغ الفجر.



في صباح اليوم التالي، قلَّبت "أنَّا" الخزانةَ وصار عاليها سافلها. في أي مكان لعين اختفى فيه فستانها الأصفر ذو الأكمام المنتفخة؟ كانت مقتنعة أنها أحضرتْه معها فعلًا وهي قادمة من بيتها في "بينيا". بحثت كالمجنونة حتى عثرتْ عليه أخيرًا مجعدًا بالكامل في أقصى أحد الأدراج. شعرت بالرضا لإيجادها إياه، فأخذتْه ووضعتْه على جسدها فوق ثوب نومها الحريري الأزرق وتطلعتْ إلى صورتها في المرآة. كانت تعرف أن عليها كسر حدادها الطويل آجلًا أو عاجلًا. فهي لم تكنْ ترغب في أن يكبر "روبرتو" ويظل محتفظًا بذكرى كئيبة وحزينة لأم تعِسة تتَّشح بالسواد طَوال الوقت. كانت مقتنعة تمامًا أن تلك اللحظة التي سيعود فيها العالم إلى ما كان

عليه؛ عالمًا ملوَّنًا حيث ستلقي بكل ملابسها السوداء وحينها سيمكنها تعرُّفها حالما تحين كما لو كانت صاعقة ستحل بها. وها قد جاءت الآن أخيرًا تلك اللحظة.

نزلت إلى الطابق السفلي رافعة شعرها على هيئة كعكة منخفضة واعتمرت قبعةً دائريةً من الأعلى بنفس لون الفستان. بدتْ جميلة كالممثلات. حالما رآها "كارلو" الذي كان يقطع غرفة الصالون جيئة وذَهَابًا بعصبية ويداه في جيبي بنطاله، توقف فجأة ونظر إليها مبهورًا. سألته "أنَّا" وهي تدور حول نفسها: "كيف أبدو؟".

تنهَّد "كارلو" وقال متفاجئًا: "الفستان الأصفر، أتدرين أنكِ تبدين جميلة للغاية؟".

قالت "أنَّا": "هذا ما كنتُ أودُّ سماعه منك".

أردف "كارلو": "هذا لا يعني أنني موافق على ما تفعلينه".

أجابت زوجته: "أعرف هذا، ولكنَّ هذه مشكلتكَ". وأخذتْ من أحد أدراج خزانة الأطباق حافظةَ الأوراق الصغيرة التي تحوي كل المستندات المطلوبة واستمارة الطلب التي ملأتها بالبيانات.

ردَّ "كارلو": "كنتُ أعتقد أنه لا يوجد ما يسمى بمشكلاتي ومشكلاتك وأنه يوجد فقط "مشكلاتنا". فهل كنت مخطئًا؟".

ردَّت "أنَّا": "على ما يبدو".

غمغم زوجها وهو يمسك بيدها: "أنَّا" هل تودين حقًّا أن تفعلي شيئًا كهذا؟".

أفلتتْ "أنَّا" من قبضة زوجها وأمسكت بالحقيبة المعلقة على حمَّالة الملابس وفتحت باب المنزل وقالت: "لا داعي إلى أن أنتظر منكَ جملة "حظًّا موفَّقًا" أليس كذلك؟". لم يجبها "كارلو". فأضافت "أنَّا": "عظيم". وضعت حافظة الأوراق تحت ذراعها وأغلقت الباب وراءها.

تجاوزت الطريق المفضي إلى الميدان ووصلت أمام مكتب البريد، لكنْ قبل أن تدخل بلحظة سمعتْ أحدهم يناديها. التفتت فإذا بـ"أنطونيو" يتقدم نحوها بخطى سريعة ممسكًا بجريدة "كورِّيريه ديلَّا سيرا" في يده. سألته "أنَّا": "ماذا تفعل هنا؟".

أجاب وهو يلهث قليلًا: "كنت جالسًا في البار ورأيتكِ". تابع "أنطونيو" وبدتْ عليه المفاجأةُ من رؤيتها أول مرة بلون آخر غير الأسود: "تبدين.. تبدين جميلة في هذا الفستان".

ابتسمتْ "أنَّا" قائلة: "شكرًا"، ثم أضافت مشيرة إلى المكتب: "كنت على وشك الدخول".

غمغم هو: "طبعًا، طبعًا، تفضلي إذن". وبينما كانت تلج إلى المكتب أضاف "أنطونيو": "حظًّا مُوفَّقًا!".

استدارتْ "أنَّا" لحظةً وابتسمتْ له ثم عَبَرَت مدخلَ مكتب البريد. تذكرتْ كلمات "كارلو": "لن يقبلوكِ أبدًا". ستُبيِّن له أنه كان مخطئًا، ومخطئًا تمامًا.

في تلك اللحظة تحديدًا، كان "كارلو" يطرق دون صبر بابَ متجر الخياطة، فتحتْ له "كارميلا" الباب مدهوشةً من حضوره. سألها: "هل أُسبِّب لكِ أي إزعاج؟".

أجابت هي: "أنت لا تزعجني أبدًا". ودعتْه إلى الدخول.

6
نوفمبر 1935

غادرتْ "أنَّا" منزلَها في الصباح الباكر. ارتدتْ زيَّ سعاة البريد أزرقَ اللون بياقته الحمراء الذي يصل إلى كعبيها، واعتمرتْ قبعةً مرصعةً بشعار النبالة الخاص بهيئات البريد الملكية، وانتعلتْ حذاءً أسودَ دون كعب وبرقبة منخفضة، ووضعتْ حقيبةً من الجلد على كتفها وانطلقتْ.

حيَّتها جارتها التي كانتْ تكنس بسرعة ونشاط الرصيف أمام بيتها، والمكون من ست بلاطات أو نحو ذلك. مرتديةً ثوبَ نومها وقد تدثرتْ بمعطف صوفي فوق كتفيها، قالت: "صباح الخير أيتها السيدة ساعية البريد".

بادلتها "أنَّا" التحيةَ رافعةً قبعتَها قليلًا وقالت: "صباح الخير".

وصلتْ إلى الميدان حيث كان "ميكيليه" يحمل صناديق البرتقال ويضعها على الرصيف فيما يجلس "ماريو" على كرسي في إحدى زوايا الشارع يلمِّع حذاءَ رجلٍ أنيقٍ يعتمر قبعة؛ أما عن الحلاق فكان واقفًا عند مدخل محله مرتديًا مئزره الأبيض ويُدخِّن سيجارةً منتظرًا أول زبون في ذلك اليوم. توجهتْ "أنَّا" إلى بار "كاستيلُّو" ودلفت إليه. سألها "ناندو" مبتسمًا: "المشروب المعتاد؟".

أومأت له "أنَّا" وقد لمحتْ رجلين مسنَّيْن صغيري الحجم ونحيلي الجسد جالسين إلى إحدى الطاولات ويلعبان لعبة "الورقة الرابحة"، ولكن حالما رأيا "أنَّا" توقفا عن اللعب وحدَّقا إليها وهما يتهامسان وينكزان بعضهما بمرفقيهما.

قال "ناندو": "ها هي قهوتكِ؛ كورِّيتُّو بـ"الجرابَّا".

أخذت "أنَّا" الفنجانَ وشربتْ منه رشفةً وثبتتْ عينيها على هذين اللذين لم يشيحا بنظرهما عنها، ولكنهما توقفا عن الكلام وقد بقي فماهما مفتوحيْن من الدهشة. تلمَّظت ولعقتْ شفتيها وهي تتذوق طعم الكحول المتبقي على لسانها وقالت: "شكرًا يا "ناندو". وتركت له بعض العملات المعدنية على المنضدة. كم كانت تستمتع بمعرفة أنها حالما تغادر المكان وتختفي ستبدأ التعليقات المعتادة. بدا لها كأنها تسمع هذين الاثنين يتحدثان بسوء عن تلك المرأة التي تشرب الكحولَ في تلك الساعة من الصباح. لقد سمعتْ آخرين ذات مرة يعلقون: "يا للعجب! هذا لا يُصدَّق".

دلفت إلى مكتب البريد وحيَّت أولًا "تومَّازو" الذي بادلها التحية بابتسامة ثم رمقها "كارمينيه" الذي كان يداعب لحيته بالنظرة المرتابة نفسها.

ثم فتحتْ بابَ الغرفةِ الصغيرةِ الواقعةِ في نهاية المكتب وألقتْ تحيةَ الصباح على عاملتيِ التلغراف، "إيلينا" و"كيارا". هاتان الاثنتان الملقبتان بـ"الآنستين" كونهما لم تتزوجا قطُّ. كانت إحداهما سيدةً لطيفةً، ضخمةَ الجسم ذات وجهٍ عريضٍ ولبقةً، أحاديثها حاضرةً، وقادرةً دومًا على التعبير، تعيش مع أختها الكبرى التي لم تتزوجْ هي أيضًا. أما "كيارا"، وهي الأصغر سنًّا، فكانت امرأة قصيرةَ القامة وضئيلةَ الحجم ترتدي نظارةً سميكة ولها ابتسامة حلوة، وتعتني بأمها المسنَّة. كانت دومًا ما تقول: "لزامًا عليَّ أن أتولى مسؤولية أمي، فأنا الابنة!". موضِّحة أن أخويها لديهما زوجتان وأبناء عليهما الاهتمام بأمرهم.

قالت "إيلينا" لـ"أنَّا": "أحضرتُ كعكة، هيا. تعالي وخذي قطعة. إنها كعكة باللوز".

سألتها "أنَّا" أكان بإمكانها تغليفها لها؛ ستحملها معها في حقيبتها وستأكلها بكل سرور في ما بعد.

ثم انتقلتْ إلى الطاولة الكبيرة التي تتوسط المكتب وبدأت عملها اليومي، فرز المراسلات حسب مناطق البلدة المختلفة.

ومن بين الرسائل والطرود والبرقيات، كان هناك ظرفٌ أبيض. كان العنوان المكتوب على الظرف: "چوفانَّا كالوچيوري"، "كونترادا لا بيترا"، "ليتسانيلُّو" (ليتشي). لم تكن هناك أي إشارة إلى المرسل، إذ لم يكن مطبوعًا بجانب طابع البريد الذي يُصوِّر الملك "ڤيتُّوريو إيمانويليه الثالث" سوى يوم الإرسال وموقعه. أُرسِل هذا الخطاب من بلدية "كازاليكّيو دي رينو" في مقاطعة "بولونيا". قلَّبت "أنَّا" الظرفَ بين يديها متسائلةً: "أين عساها تكون مِنْطَقة "كونترادا لا بيترا"؟".

دُهِشَ "كارمينيه": "من هذا الذي يرسل بريدًا إلى "كونترادا لا بيترا"؟".

أجابت "أنَّا": "لا أعرف، اسم المرسِل ليس مكتوبًا هنا".

اقترب منها "تومَّازو" وقرأ: "چوفانَّا كالوچيوري".

قاطعتْه "إيلينا" التي أطلَّت من باب الغرفة: "من؟ "چوفانًّا" المجنونة؟".

سألت "أنًّا": "ومن يمكن أن تكون "چوفانًّا" المجنونة هذه؟".

أجاب "كارمينيه": "امرأة خرقاء".

تدخَّل "تومَّازو" قائلًا: "لا، إنها فقط غريبة قليلًا. أراها تأتي إلى البلدة بين الحين والآخر للتسوق".

قالت "إيلينا": "غريبة ماذا! إنها بلهاء حقًّا؛ كانت التلميذة الوحيدة في المدرسة التي لم تتعلم القراءة بعد ثلاث سنوات. كان المدرس يضع صندوقًا خشبيًّا مليئًا بالحِمَّص خلف السَّبُّورة ويجعلها تجلس بركبتيها على الحِمَّص كنوع من العقاب، كما كان يضربها بالمسطرة على يديها".

استكمل "كارمينيه": "ثم في مرحلة بعينها أصيبتْ بالجنون، إذ كانت تُصاب بنوباتٍ تجعلها تتصرف كالمسوسة فتلقي بكل شيء في الهواء؛ الكتب والدفاتر والكراسي. ثم اضطُرُّوا في النهاية إلى طردها من المدرسة وكان قرارًا صائبًا".

غمغم "تومَّازو": "حسنًا، ولكنها مسكينة حقًّا خاصة بسبب ما حلَّ بها بعد حكايتها مع ذلك الرجل الذي صار كاهنًا".

قالت "إيلينا": "آه فعلًا، تلك العَلاقة كانت بمنزلة رصاصة الرحمة بالنسبة إليها، فمنذ ذلك الوقت لم نسمعْ أيَّ شيء عنها، دفنتْ نفسها في تلك المِنْطَقة النائية حيث تعيش الآن برفقة كلبها في "كونترادا لا بيترا". وأنا أراهن أن أمها، تلك المرأة الصالحة، السلام لروحها، ماتتْ بعدما انفطر قلبها من كل تلك المآسي التي أذاقتها إياها ابنتها. لكنْ بعد وفاة أمها سارت أمور هذه المجنونة على ما يرام؛ ورثت عنها كل الأموال التي كانت تدَّخرها كونها الابنة الوحيدة لها. كان لدى السيدة "روزالينا" بعض المدَّخرات. عملت طباخةً لدى أسرة "تامبوريني". أردفتْ "إيلينا" وهي تسدُّ أنفها: "أعتقد أن تلك المرأة لا تغتسل، فحالما تأتي إلى البلدة يمكنكَ أن تشتمَّ رائحة نتنة من بعيد".

رفعت "أنَّا" حاجبها وبدا عليها الذهول قليلًا من كل تلك الثرثارات والنمائم، ثم طلبت منهم إن أمكن أن يتفضلوا بوصف الطريق الذي عليها أن تسلكه كي تصل إلى عنوان تلك المرأة التي كانت محور حديثهم، كونها كانت متأخرة فعلًا. هكذا اكتشفت "أنَّا" أن بيت "چوفانَّا" يقع خارج البلدة حيث تمتد بساتين الزيتون؛ كانت تعرف سابقًا أن الوصول إلى "كونترادا" سيكون أمرًا شاقًّا للغاية على قدميها المسكينتين. وفي مساء ذلك اليوم سيكون عليها أن تنقع قدميها في حوض من الماء الساخن مدةً أطولَ من المعتاد، لم تتمكن من تحديد عدد الكيلومترات التي قطعتها في تلك الأشهر الستة الأولى حتى إن باطنيْ قدميها امتلآ بعدد كبير من الثفنات التي كانت تؤلمها على الدوام.

وضعتِ الخطابَ الخاصَّ بـ"چوفانَّا" في نهاية صف الخطابات التي عليها تسليمها؛ فسيكون ذلك الخطاب هو محطتها الأخيرة لهذا الصباح. أخذت حقيبتها وخرجت من المكتب. وحالما خرجتْ من مكتب البريد وجدتْ "كارلو" واقفًا عند باب بار "كاستيلُّو" يضغط بأسنانه سيجارًا ومنهمكًا بشدة في قراءة الجريدة. لم يلتقيا ذلك الصباح: فعندما غادرتِ المنزل سمعتْه يدخل الحمام ويغلق الباب بالمفتاح.

ألقتْ "أنَّا" نظرةً خاطفةً إلى الساعة التي وضعتها حول معصمها الأيسر. أهداها "أنطونيو" إياها عندما عُيِّنت ساعيةً للبريد في شهر مايو. كانت تعشق تلك الساعة بقرصها المستطيل وأرقامها العربية وحزامها الأسود المصنوع من الجلد، تتناسب تلك الساعة مع الطبيعة التي تفضل "أنَّا" أن تكون عليها الأشياء، استثنائية، ولكنها في الوقت ذاته بسيطة.

فكَّرت "أنَّا" في تلك اللحظة: "ليس لديَّ حقًّا وقت للتوقف وإلقاء التحية على "كارلو". ثم إنها في الحقيقة لم تشعر بأي رغبة في فعل ذلك. فهي على أي حال ستقابله في البيت في وقت لاحق. ما الذي تغير في علاقتهما؟ فمنذ يوم عيد ميلادها وهما يتشاجران باستمرار ولأتفه الأسباب. لا تزال كلمات "كارلو" تتردد في أذنيها وتؤرق

ذهنها: "لن يقبلوكِ أبدًا" مع أنَّها أثبتتْ له كذب اعتقاده بشكل مهين وبلا خجل. كان تعليمها ومؤهلاتها هما ما صنعا الفارق؛ فلم يحصل المرشحان الآخران إلا على شهادة الصف الخامس الابتدائي. يا للعجب! كان عليه أن يكون فخورًا بها، فعلتْها وأصبحتْ ساعيةَ بريد. لكنْ على العكس، بدا "كارلو" غير مهتمٍّ بإنجازها، كان كل ما يشغل تفكيره أنها لم تستمع لكلامه وتصرفتْ من تلقاء نفسها وفعلتْ ما تراءى لها وحدها، ولم يسامحْها بعد على فعلتها هذه. بل انتهت به الحال بأن يؤيد كلَّ من وقف ضدها فيما فعلته وينحاز إليه. كان يبدو لها أن الجميع، تلك الجوقة التي كررتْ على مسامعها عباراتٍ من قبيل: "لن تنجحي"، و"ولكنكِ امرأة"، و"هذا ليس عملًا للنساء"، ينتظرون فقط أن يرونها تُخفِق كي يعيدوا وضع الأمور في نصابها الصحيح.

شعرتْ "أنَّا" بإحساس مفاجئ بالإرهاق والتعب، ولكنها أكملتْ طريقها في الحال حيث واصلتِ السيرَ في الشارع المقابل لشارع البار.

رفع "كارلو" نظره عن الصحيفة التي كان يقرأها ليشعل سيجارًا فلمح زوجته تبتعد. لم تكنْ قد ابتعدتْ كثيرًا، إذ كان يكفي أن يناديها كي تستدير. ولكنه لم يفعل، كانت "كارميلا" تنتظره وقد تأخر عليها فعلًا. وهكذا طوى جريدته ووضعها على واحدة من الطاولات الخارجية الصغيرة للبار وتوجه صوب سيارته.

قاد سيارته حتى ناصية الشارع حيث يقع منزل "كارميلا" وتوقف هناك للحظة، وعندما تأكد من أن سيارة "نيكولا" زوجها ليست هناك، دلف إلى الشارع، أكدتْ له "كارميلا" أن زوجها يخرج في وقت مبكر للغاية من الصباح ليقلَّ ابنهما إلى المدرسة ثم يذهب إلى عمله، إلا أن "كارلو" كان يحرص كل مرة على أن يلقي نظرة على البيت من بعيد قبل أن يقترب. أوقف "كارلو" سيارته في شارع جانبي مسدود لا يمر فيه أحد، كان فقط موطنًا لمستعمرة من القطط الضالة. ترجَّل من سيارته وأكمل الطريق إلى بيت "كارميلا" سيرًا على الأقدام، وجد الباب مواربًا مثل كل صباح. دفعه ودخل ثم أغلقه ببطء خلفه. وحالما دخل قال: "هذا أنا".

أقبلت عليه "كارميلا" خلال الممر الطويل للبيت مرتديةً ثوبَ نومها الحريري الأبيض واندفعتْ نحوه لتقبله وعاتبته قائلةً: "لقد تأخرتَ". أجابها: "أعتذر منكِ، كان "روبرتو" هذا الصباح سيئَ السلوك، احتجتُ إلى وقت طويل كي أحممه وألبسه. مررتُ سريعًا على "أجاتا" وتركته لديها وجئت إليكِ مباشرة". كذب "كارلو" عليها بينما كان يعانقها من ردفيها.



بدأتْ "أنَّا" جولتها الصباحية من عند "چوزيبِّينا"، وهي سيدة ذات شعر أبيض تجمعه دائمًا على شكل ذيل حصان ولها صوت حاد. كانت تتلقَّى أخبارًا مرة واحدة في الشهر من ابنها "ماورو" الذي سافر إلى ألمانيا لجمع الأموال. ويبدو أنه نجح فعلًا في ذلك نظرًا إلى الأموال التي يرسلها إلى أمه بانتظام. كانت "چوزيبِّينا" أرملةً ولم تكن تعرف القراءة أو الكتابة لذا كان يتعيَّن على "أنَّا" أن تدخل إلى بيتها كلَّ مرة وتجلس لتحتسي القهوة المحروقة بعض الشيء التي تعدُّها لها، والتي كانت لتستغني عنها بكل سرور، ثم تبدأ في قراءة الخطابات عليها ببطء وتلفظ الكلمات بشكل واضح ومفصَّل، ثم تكرر القراءة من البداية مرتين أو ثلاثًا. كانت "چوزيبِّينا" تبذل قُصَارى جُهْدها كي تعبر عن شكرها الصادق لها ولما تفعله من أجلها فتختتم حديثها دومًا قائلة: "أنتِ حقًّا إنسانة طيبة القلب وبارعة في عملك يا سيدة "أنَّا"، من يدري لماذا يتحدثون عنك بهذا السوء". ثم تهزُّ رأسها.

ثم يجيء دور "أنچيلا"، فتاة في التاسعة عشرة من عمرها، نحيلة الجسد ذات نظرة صادقة وبريئة، تتلقَّى أسبوعيًّا هدية من حبيبها. في كل مرة تصل إليها هديته كانت تصفق في سعادة كالأطفال، تفتح الطرد على الفور فيما تبقى "أنَّا" واقفةً منتصبةَ القامة عند الباب. كانت الهدايا أعمالًا خشبيةً صغيرةً لطيفةً يدويةَ الصنع كعربة قطار، أو صندوق جواهر، أو قلادة على شكل قلب، أو

مفتاح. وكانت تشرح لـ"أنَّا" بمنتهى الفخر قائلة: "إنه يعمل نجارًا، هل تعلمين هذا؟ يملك ورشة في "ليتشي".

أما المحطة التالية فستكون عند السيد "لورينسو"، وهو رجل فظ ذو عينين حزينتان ولحية بيضاء معقودة. حالما يرى "أنَّا" تصل إلى بيته، يستقبلها بالتحية الفاشية التي لطالما رفضت ساعية البريد، وبشكل قاطع، أن تتبادلها معه. كان "لورينسو" في كل مرة يعيد البريد إلى المرسل الذي يحمل لقبه نفسه؛ "كولاتشي". كان المشهد يتكرر دومًا على النحو التالي: يأخذ "لورينسو" البطاقة البريدية بين يديه –كانت كل بطاقة من تلك البطاقات التي يرسلها إليه شهريًّا تصور منظرًالمكان سياحي مختلف كل مرة من روما– يلقي عليها نظرةً سريعةً مصحوبةً بابتسامة ساخرة ثم يقول: "لا أريدها، خذيها بعيدًا!".

بينما كانت "أنَّا" تبتعد عن منزل السيد "لورينسو"، كان "كارلو" مستلقيًا على سرير "كارميلا" وهو ينفث دخان سيجاره بإيقاع بطيء ومدروس. نهضت "كارميلا" وهي لا تزال عاريةً وفتحت النافذة كي تُهوِّي الغرفة. ستختفي رائحة دخان السيجار بالكامل قبل عودة "نيكولا". عادتْ بعد ذلك إلى السرير وتمددت إلى جانب "كارلو" على جانبها مسندة رأسها بيدها. قالت "كارميلا": "أنت جميل". نفث "كارلو" دخان سيجاره من جانب واحد من فمه وداعب ذراعها بفتور ودون اهتمام وأجابها قائلًا: "أنتِ أيضًا". عندما مدَّت "كارميلا" يدها بخبث أسفل الملاءة. قال "كارلو" بنبرة لا تحمل الكثير من الاقتناع: "يجب أن أذهب، أليس لديك عمل لإنجازه؟".

سحبت "كارميلا" يدها شاعرة بالاستياء وأجابته: "طبعًا لديَّ عمل لأنجزه. أنا أعمل دائمًا". اعتدلتْ وجلستْ في سريرها ثم أخذتْ منامتها من فوق الطاولة المجاورة للسرير وارتدتها مُولِية ظهرها لـ"كارلو".

سألها "كارلو": "أين بنطالي؟".

أجابت: "وكيف لي أن أعرف مكانه؟ ابحث عنه أسفل السرير".

انحنى "كارلو" ليفتِّش عنه ووجده فعلًا أسفل السرير. خلعه بالمقلوب لذا تساقطت بطاقاتُ العمل التي كان يحملها في جيبه وتناثرت على الأرض. نهض من فراشه وبدأ يلتقطها من على الأرض واحدةً تلو الأخرى.

سألته "كارميلا" بفضول: "ما هذه البطاقات؟".

أجابها: "لا شيء".

أردفت هي: "كيف لا شيء؟ دعني أرَ". وانتزعتْ من يده واحدةً وقرأتْ بوضوح وبصوتٍ عالٍ المكتوب فيها: "أنَّا ألَاقينا" ساعية بريد". علَّقت "كارميلا" هي تبذل جُهْدًا كي تبدو متهكمةً، ولكنَّ صوتها الأجش خانها: "هذه المرأة أصبح لديها الآن أيضًا بطاقات عمل؟ كلنا نعرف من هي، هل تخشى أن ننساها؟".

أمرها "كارلو" بصرامة: "أعطني إياها!"، وأخذ البطاقة ووضعها في جيبه مع البطاقات الأخرى. وأضاف في جدية: "هذا شيء لا يخصكِ".

لوَّحت بيدها وهي تلبس حذاءها وقالت: "طبعًا لكل شخص بلاياه".

أجابها "كارلو": "عن أي بلايا تتحدثين؟ إنها مجرد بطاقات عمل. ليس هناك أي شيء سيئ".

ردتْ هي: "طبعًا. وهل هناك شيء سيئ في أن يكون لديكَ زوجة تفعل كل ما يحلو لها وتتصرف كما لو كانت رجلًا".

قال: "أنَّا" لا تتصرف كرجل، ما الذي ترمين إليه؟".

أجابت "كارميلا": "آه، حقًّا؟! بل إنني أعلم أيضًا أنها من تؤدي دور الرجل في المنزل ولستُ أنت، أتدري كذلك أن هذا هو ما يعتقده الجميع؟ أخبروني أيضًا أن الزوجة لديها عادة شرب الكحول. اذهب واسأل "ناندو" بنفسك عن جُرْعة "الجرابَّا" التي يُعِدُّها لها كل صباح. الناس تقول إنك غير قادر على السيطرة عليها".

لم يجبْ "كارلو" كلامَها هذا. ارتدى ملابسه في عجلة من أمره ووضع القبعةَ على رأسِه وغادر الغرفةَ دون أن يودِّعها.

فتح البابَ قليلًا وألقى نظرة يمينًا ويسارًا وعندما تأكَّد من خلو الشارع من المارة خرج وأسرع الخطى وتوجَّه نحو سيارته. قاد السيارة وهو يستشيط غضبًا وبدلًا من أن ينعطفَ في الاتجاه المفضي إلى كرم العنب ولج إلى الشارع الذي يقوده إلى معصرة الزيت.

أوقف سيارته أمام مدخل المعصرة بالضبط أمام اللافتة المصنوعة من صفيحة رقيقة من القصدير بلونها الفيروزي، والتي كُتِبَ عليها بأحرف كبيرة "معصرة جريكو". دخل ورفع قبعته في كياسة وهو يحيي "أنيزيه" سكرتيرة أخيه. هي تعمل مع "أنطونيو" منذ ست سنوات على الأقل ولطالما كانت منحنية فوق كومة من الأوراق وممسكة بقلم بين أصابعها، تضع نظارتها التي تنزلق على طرف أنفها والمثبتة بسلسلة ذهبية.

سأل "كارلو": "هل أخي مشغول؟ أيمكنني الدخول؟"، ودون أن ينتظر منها جوابًا فتح بابَ مكتب "أنطونيو" ودخل. حيَّاه وهو يضغط بأسنانه سيجارًا في فمه: "صباح الخير يا أخي الكبير".

رفع شقيقُه رأسَه عن دفتر الحسابات الذي كان يراجعه وانفرجتْ أساريره، حالما رأى "كارلو" نهض ثم أجابه وهو يشير برأسه: "تعالَ، تعالَ!".

سار "كارلو" نحوه وعانقه، ثم أخذ وجهه بين يديه وقبَّل جبينه وضحك قائلًا: "أراك هادئًا اليوم!". بدا أخوه مسترخيًا بشكل خاص في ذلك الصباح. ربما كان ذلك بسبب وجهه المحلوق حديثًا أو شعره الممشَّط إلى الخلف بعناية الذي كان يلمع بفضل الدهان الذي استخدمه لتلميع شعره.

سأله "أنطونيو": "هل ذهبت إلى "فيرناندو" الحلاق اليوم؟".

أجاب "كارلو" وهو يلمس شعره المتصلب قليلًا: "نعم، ذهبتُ في وقت مبكر من هذا الصباح. لكنْ يبدو أنه بالغ هذه المرة في الدهان الذي وضعه على شعري".

سحب "كارلو" الكرسي المواجه لكرسي "أنطونيو" وجلس. كان هناك على المكتب نسخة من جريدة "كورِّيريه ديلَّا سيرا" مفتوحة على صفحة بها صورة التُقِطَتْ لشاهد قبر. كان النقش على الشاهد يقول:

"18 نوفمبر 1935 –XIV.

تخليدًا لذكرى الحصار وتوثيقًا –على مر القرون– للظلم الشديد الذي ارتُكِبَ ضد إيطاليا التي تدين لها كثيرًا الحضارة الإنسانية في كل قارات العالم".

ظهرتْ على قسمات وجه "كارلو" علامات خيبة الأمل، وعلَّق وهو يشير برأسه إلى الجريدة قائلًا: "يا له من مهرج!".

أضاف "أنطونيو": "ولكنه مهرجٌ خطِرٌ، تخيَّل لو واصل القائد "الدوتشي" "موسُّوليني" الحرب وغزا فعلًا إثيوبيا، خاصة أن تلك العقوبات المجحفة التي فُرضت على البلاد ستزيد من إصراره على مواصلة الحرب ورغبته في تحقيق النصر". أكمل "أنطونيو" وهو يعاود الجلوس: "على أي حال، لماذا أنت هنا؟".

رفع "كارلو" كتفيه وسحب نفسًا من سيجاره وقال: "أتعرف ماذا يقولون في البلدة؟ هل سمعتَ الشائعات؟".

أسند "أنطونيو" ظهره إلى الكرسي وتنهَّد ثم أجابه: "لا، ماذا يقولون؟".

أجاب "كارلو": "يقولون إنني أصبحتُ أضحوكةَ الجميع".

علَّق "أنطونيو" وهو يضحك ساخرًا في خفوت: "ما هذا العبث الذي تقوله؟".

أجاب "كارلو": "ما سمعتَ. يقولون إن "أنَّا" هي رجل البيت وهي المتحكم والمسيطر ولستُ أنا".

قال "أنطونيو": "آه، حقًّا! ومن قال لك هذا؟".

بدا "كارلو" متفكِّرًا ثم قال: "كارميلا".

قال "أنطونيو" متهكمًا: "آه، حسنًا، لو كانت "كارميلا" هي من قالت ذلك، فهي مصدر جدير بالثقة للغاية".

قال "كارلو": "أنا أعرف أن ما تقوله "كارميلا" صحيح. أسمعهم يتحدثون، أرى نظراتهم تلاحقني".

قال "أنطونيو": "لا أحد ينظر إليك، دعك من هذا الهراء".

قال "كارلو": "بلى، أنا أؤكد لك هذا. أنا أعرف كيف يروننني ويرون "أنَّا".

قال "أنطونيو" كلماتٍ ساخرةً متهكمةً، لكنْ بنبرة جادة: "وكيف من الممكن أن يروك؟ أنك تكسب قوتكَ بطريقة شريفة؟ يجب أن أعترف أن اعتقادهم هذا جريمة لا تغتفر حقًّا!".

هزَّ "كارلو" رأسه قائلًا: "أنت تتعامل مع الأمر بمنتهى السهولة".

أجاب "أنطونيو": "لأنه كذلك فعلًا يا "كارليتُّو".

قال "كارلو": "طبعًا، كم هو سهل أن يكون المرء منفتحًا وهادئًا عندما يتعلق الأمر بزوجات الآخرين. أريد أن أعرف كيف كنت لتتصرف إن كنت مكاني".

شبك "أنطونيو" يديه ووضعهما على المكتب. لو كان يستطيع لقال له إنه على استعداد لأن يدفع كل ما يملك ليكون في مكانه ولو يومًا واحدًا فقط. فكم من المرات التي تخيَّل فيها نفسه جالسًا على السرير في صمت وهو ينظر إلى "أنَّا" وهي نائمة، تخيَّل أنه يداعب شعرها المنسدل على الوسادة، ويمرَّر إصبعه على جانب وجهها، وأنه يقول لها: "سيهتم "أنطونيو" بكِ".

انفجر "كارلو" قائلًا: "هذه هي الحقيقة يا "أنطونيو"، إن أفعالها وتصرفاتها تجعلني مدعاةً للسخرية". انحنى "كارلو" إلى الأمام وأكمل: "هل تعرف أنها تأخذ جُرْعة من "الجرابًّا" في البار كل صباح؟ من الطبيعي بعد ذلك أن يتحدث الناس عنَّا".

قال "أنطونيو": "دعهم إذن يتحدثون، لماذا تهتم هكذا؟".

أجابه "كارلو": "لا يا "أنطونيو"، إنهم يتحدثون عن أهلي، عن بيتي. وأنا لديَّ مشروعي الخاص هنا. طبعًا لا بُدَّ أن أهتم".

نهض "أنطونيو" حينها من مقعده ودسَّ يده في جيبي بنطاله وظل يتمشى حتى وصل إلى النافذة وسأل شقيقه وهو ينظر إلى خارج النافذة: "وماذا عنها؟ هل تهتم بأمرها؟".

أجابه "كارلو" في حزم: "طبعًا أهتم لأمرها، هل كنت سأبقى هنا وأتحدث معك عنها لو لم أكن مهتمًّا بأمرها، ما هذا السؤال الذي تطرحه عليَّ، إنها زوجتي".

حدَّق إليه "أنطونيو" مرة أخرى، وقد لاحتْ في عينيه هذه المرة نظرة فيها شيء من الحزن وقال: "إذا كنت مهتمًّا حقًّا، فيجب أن تكون أول من يتوقف عن تأجيج تلك الثرثرات وتغذيتها".

أشاح "كارلو" بنظره بعيدًا.

قال "أنطونيو" وهو ينظر من جديد إلى ما وراء النافذة: "أنت لا تفعل الشيء الوحيد الذي عليك فعله".

قال "كارلو" عاقدًا ذراعيه: " إذن، ماذا عليَّ فعله؟".

أجاب أنطونيو بصوت خافت: "أن تحميها".

سلكت "أنَّا" الطريق المؤدي إلى "كونترادا لا بيترا" بعدما انقضى وقت الظهيرة بمدة طويلة. كان المنزل الريفي ذو السقف الأحمر محاطًا بالأراضي والحقول الريفية وكانت مصاريعه مغلقة، كأنَّ ما من أحد يعيش هناك منذ مدة. عندما فتحتِ البوابة الخشبية، ركض نحوها كلب الراعي الألماني وهو ينبح، ولكنها حالما رأته جلست القرفصاء ومدتْ إليه يدها. توقف الكلب وتشمم باطن يدها ثم خفض أذنيه وجلس قبالتها. في تلك اللحظة صاحتِ امرأة أطلَّت من مدخل الباب: "تشيزاريه"، عد إلى البيت!"، ثم رأتْ "أنَّا" فسألتها: "من أنتِ؟".

أجابتْ "أنَّا" فيما تقترب منها: "معي خطاب بريدي إلى "چوفانَّا كالوچوري".
قالت المرأة: "هذه أنا".

عندما وقفت أمامها "أنَّا" قالت لنفسها: "إنها لا تبدو مجنونة على الإطلاق". صحيح أن شعرها أشعث، وربما كانت ترتدي ذلك الفستان البني من الصوف المُلبَّد منذ أيام لا يعرف أحد عددها إلا أن وجهها كان به شيء من الجمال واللطف، إذ كانت لها عينان واسعتان بلون البندق، ورموش طويلة وشفاه منتفخة وشاحبة كما كانت عظام وجنتيها عالية، ثم إنه ليس صحيحًا تمامًا ما سمعتْه أن لها رائحة نتنة.

مدَّت لها "أنَّا" يدها بالظرف وقالت: "هذا لكِ".

ظلت "چوفانَّا" بلا حَراك.

كرَّرت "أنَّا" في إصرار: "إنه خطابك".

أجابتها المرأة: "قد تكونين مخطئةً".

قالت "أنَّا": "أخبرتِني فعلًا أنكِ "چوفانَّا"، أليس كذلك؟".

أجابت: "بلى".

قالت "أنَّا": "إذن ليس هناك أي خطأ يذكر، تفضلي!".

قالت: "وماذا سأفعل به؟ أنا لا أعرف القراءة".

قالت "أنَّا" بعد بضع لحظات: "حسنًا، يمكنني أن أقرأه عليكِ إذا أردتِ. لن تكون تلك أول مرة أفعل فيها هذا".

عضَّت "چوفانَّا" على شفتيها غير متيقنة مما تريد فعله، ثم قالت في النهاية: "تفضلي بالدخول".

كان بيتها مرتَّبًا ومهيبًا تعجُّ منه رائحة النفتالين. لم يكنْ به إلا بعض قطع الأثاث، ولكنه كان بلا شك في حالة مزرية بعض الشيء؛ فالعديد من بلاطات المطبخ كانت متشققة والستائر القطنية وردية اللون مهترئة على طول حوافها السفلية

كما كان هناك صدْعٌ في أحد حوائط البيت يمتد من السقف حتى إزار الحائط. إلا أنه بدا على الفور لـ"أنَّا" مريحًا، مكانًا يمكنها أن تشعر فيه بالأمان.

قالت "چوفانَّا": "سأعد لكِ قهوة".

جلستْ "أنَّا" ووضعتْ حقيبتها على طاولة المطبخ. أخرجتْ قطعة الكعك التي لفَّتها لها "إيلينا" في منديل من القماش.

قالت "چوفانَّا" وقد انتقلتْ في حديثها من الطريقة الرسمية إلى طريقة غير رسمية، ربما دون أن تنتبه حتى إلى الأمر: "أنتِ إذن تلك المرأة الأجنبية التي يتحدثون عنها". أدارت رأسها نحو "أنَّا" وابتسمتْ لها فيما تمسك بآلة صنع القهوة في يدها.

أجابتها "أنَّا": "نعم، أنا هي شخصيًّا".

احمرَّت وجنتا "چوفانَّا" خجلًا وقالت: "أعتذر منكِ".

ردَّت "أنَّا": لا لا، لا داعي إلى الاعتذار. أنا أعرف أنهم يُلقبونني بهذا الاسم".

بدتْ على ملامح "چوفانَّا" علاماتُ الإحراج وقالت وهي تُشعِل الموقد: "يليق بكِ زيَّ ساعي البريد".

ردَّتْ "أنَّا" وهي في غاية السعادة: "أوه، شكرًا. أتدرين أنني أيضًا أعتقد ذلك".

شربتا القهوة في صمت وتقاسمتا قطعةَ كعك اللوز في حين كان "تشيزاريه" نائمًا عند أقدامهما يُشخِّر محدثًا ضجيجًا عاليًا.

نظرت "أنَّا" إلى ساعتها وسألتها: "هل يمكنني أن أفتح الظرف الآن؟".

أومأت "چوفانَّا" برأسها وعضَّت من جديد على شفتيها.

كان الظرف يحتوي على ورقة مطوية إلى نصفين كما كانت هناك بعض الرسوم سماوية اللون في الزوايا. أمسكت "أنَّا" الخطاب بيديها وشرعت تقرأ:

عزيزتي "چوفانَّا"،

أتمنى أن يصل إليك خطابي هذا وأنتِ في أحسن حال. في البداية وقبل كل شيء أريد أن أعتذر منكِ لأنني لم أكتبْ إليكِ من قبل، لكنْ لم يكن من السهل

ها هنا أن أرسل إليك خطابًا. لا تعتقدي أنني لم أفكر فيكِ. ولكنكِ تعلمين وتحدثنا عن هذا فعلًا من قبل، كان من الضروري أن يمر بعض الوقت وأن تكون هناك مسافة مناسبة بيننا. لا أنجح في أن أنتزع من ذهني الصورة الأخيرة التي رأيتكِ عليها والتي ما زلت أحتفظ بها لكِ، دموعكِ، يأسك.. لا تعلمين كم أعاني في كل مرة تطرئين على بالي. أتمنَّى أن تكوني قد وجدتِ لقلبكِ السلام الذي كنتِ تبحثين عنه.

لتعلمي أنني أحبكِ وسأظل أحبكِ دومًا.

أتمنى لكِ كل الراحة والسعادة وسأصلي من أجل أن تحصلي عليهما.

السيد "چوليو"

رفعتْ "أنَّا" نظرها وانتبهتْ أن الدموع انهمرتْ من عينيْ "چوفانَّا" وسالت على وجهها. سألتها في تلك اللحظة واضعةً يدها على ذراعها: "هل أنتِ بخير؟".

نهضتْ "چوفانَّا" على قدميها وأخذتْ من المطبخ قطعةً من القماش ملطخةً بصلصلة طماطم ومسحتْ بها وجهها.

تردَّدت "أنَّا" وهي تسألها: "لكنْ، لماذا يرسل إليكِ خطابًا؟ ألا يعلم أنكِ لا تستطيعين القراءة؟".

مسحتِ الأخرى أنفها وأجابت: "لا. شعرتُ بالحرج من أن أخبره بذلك".

علقتْ "أنَّا": "أوه، لكنْ ليس هناك ما يجعلكِ تشعرين بالحرج. دائمًا ما يكون هناك وقت لتعلم القراءة".

قالت "چوفانَّا": "الأمر لا ينطبق عليَّ".

عارضتها "أنَّا": "بل ينطبق على الجميع، ثقي بي".

كررتْ "چوفانَّا": "لم تُخلَق القراءة لي، أنا لا أرى الكلمات".

بدتْ علامات الحيرة على ملامح "أنَّا" وقالت: "يمكنني أن أساعدكِ. أقصد، أساعدكِ على رؤية الكلمات. أتعلمين؟ كنت أعمل مدرسةً للمرحلة الابتدائية؟".

صاحت "چوفانَّا" بشكل قاطع وهي تفرك يديها: "لا".

قالت "أنَّا": "حسنًا، إذا أردتِ على أي حال أن تردِّي على رسالته يمكنكِ أن تملي عليَّ الخطاب الذي تودين إرساله".

عضَّتْ "چوفانَّا" على شفتيها وشاحت بنظرها بعيدًا.

قالت "أنَّا" في تلك اللحظة مبتسمةً: "إذا غيرتِ رأيكِ، تعرفين أين تجدينني". نهضتْ ووضعتْ حقيبتها حول رقبتها وداعبت "تشيزاريه" ثم فتحتِ الباب وغادرت. ولم تكن تعرف أنها ستسلك ذلك الطريق مراتٍ كثيرةً لدرجة أنها ستتلف زوجين من الأحذية.



7
فبراير – مارس 1936

في وقت متأخر من صباح أحد أيام شهر فبراير حيث السماءُ رماديةٌ ومحمَّلة بالغيوم، حضرتْ "چوفانَّا" إلى مكتب البريد. أطلَّتْ بخجل من مدخل المكتب وظلَّتْ واقفةً هناك جامدة وهي تفرك يديها.

ألقى "تومَّازو" و"كارمينيه" نظرةً عليها. كانتْ "أنَّا" جالسة إلى الطاولة تُفرِغ محتويات حقيبتها من مراسلات الصباح التي تعذَّر الوصول إلى مرسَليها ومن بينها البطاقة البريدية -التي لا يعرف أحد رقمها- المرسَلة إلى السيد "لورينسو" والتي تُصوِّر هذه المرة نافورةَ "تريڤي" في روما. آجلًا أو عاجلًا ستسأله عن السبب الذي من أجله يصر على أن يعيد كل تلك البطاقات إلى مرسِلها الذي اكتشفتْ أنه أخوه.

توجه "تومَّازو" نحو "چوفانَّا" وقال: "صباح الخير أيتها السيدة، هل تحتاجين إلى شيء؟".

رفعت "أنَّا" عينيها وصاحت في دهشة: "چوفانَّا؟".

أطلتْ "إيلينا" على الفور من الجزء الخلفي للمكتب ووقفتْ تسترق السمع لما يقال من خلف الباب المُوارب.

أعلنت "چوفانَّا" وهي ترفع يدها لترتب شعرها الذي جمعته بأفضل ما تستطيع: "أنا جاهزة".

سألتها "أنَّا": "جاهزة لأي شيء؟".

مرَّ فعلًا نحو ثلاثة أشهر منذ التقتا وفي الحقيقة لم تفكر "أنَّا" ثانية في ذلك اليوم الذي ذهبتْ فيه إلى "كونترادا".

خفضتْ "چوفانَّا" رأسَها. كان من الواضح أنها شعرتْ بخيبة أمل. ثم قالت هامسة: "جاهزة لأرد".

بدتْ هي على العكس كأنها قضتْ أسابيعَ كاملةً تكابد صباحًا ومساءً قبل أن تصل إلى قرار في هذا الشأن. قالت "أنَّا" بينما تسحب الكرسي: "نعم، طبعًا. سامحيني لقد تذكرتُ للتو. تذكرتُ طبعًا".

سأل "تومَّازو": "ماذا يحدث؟".

ردَّتْ "أنَّا" وقد نقلتْ نظرها إليه: "أوه، لا شيء. "چوفانَّا" تريد أن تملي عليَّ خطابًا، أليس كذلك يا "چوفانَّا"؟".

أومأت "چوفانَّا" وعضتْ على شفتيها.

همستْ "إيلينا" لزميلتها التي كانت منحنية تكتب شيء ما قائلة: "تريد أن تملي عليها خطابًا، أفهمتِ؟".

تأفَّفت "كيارا" وأجابت دون أن تنظر إليها: "نعم، فهمت". ورفعت النظارةَ التي كانت تنزلق إلى أنفها.

قالت "إيلينا" بنبرة صوتها العالية: "آه، من يدري إلى من سترسل الخطابَ، لكنْ لا بُدَّ أن تخبرني ساعية البريد بكل شيء لاحقًا، فليس لديها مفرٌّ من أن تخبرني".

قالت "أنَّا": "تعالي! دعينا نذهب إلى البار لنبقى على راحتنا أكثر". فتحتْ أحد أدراج الخزانة الخشبية وأخرجت منها ورقةً بُنية.

سألت "أنَّا": "لن يزعجكَ يا "تومَّازو" إذا غبتُ عن المكتب نصف ساعة، أليس كذلك؟".

أشار لها المدير بألا تقلق وأن تذهب حيث تشاء.

عبرتا الشارع وتوجهتا صوب بار "كاستيلُّو"، أشارت "أنَّا" إلى إحدى طاولات البار الخارجية لتجلسا إليها.

جلست "چوفانَّا" ونظرت حولها في خوف. سألتها "أنَّا": "هل كل شيء على ما يرام؟".

غمغمت "چوفانَّا ": "نعم، نعم".

وضعتْ "أنَّا" الورقةَ على الطاولة وأمسكتْ بالقلم وقالت إنها جاهزة متى أرادت.. ترددت "چوفانَّا" لحظةً ثم قالت: "لكنْ عليكِ أولًا أن تعديني أنكِ لن تخبري أحدًا عما سأذكره في الخطاب".

وضعتْ "أنَّا" يدها على ذراع "چوفانَّا" وقالت: "أعدكِ. سيبقى كل ما تمليه عليَّ سرًّا بيننا".

أومأتِ الأخرى وابتسمتْ أخيرًا وأضاءت عيناها الواسعتان بندقيتا اللون. قالت "أنَّا" حينها لنفسها "نعم، إنها حقًّا جميلة".

بدأتْ "چوفانَّا" تملي على "أنَّا" الخطاب بصوت مرتجف. اشتعلتْ وجنتاها في ذلك الجزء من الخطاب الذي كانت تصرح فيه لحبيبها "چوليو" بمدى اشتياقها إلى قبلاته وإلى تلك المداعبات المميزة التي كانا يتشاركانها أسفل الملاءات، والتي كانت تشعرها بأنها خفيفة بلا وزن وعيناها غائمتان.

كانت "أنَّا" تكتب بجدية وتركيز دون أن يرفَّ لها جَفْن عندما قاطعتها "چوفانَّا " فجأة: "هل تظنين أنني سيئة الخُلُق؟".

رفعت "أنَّا" نظرها عن الورقة وسألتها: "شخص سيئ الخلق؟ ولمَ؟".

عضتْ "چوفانَّا" على شفتيها وأجابت: "بسبب الكلام الذي أمليه عليكِ".

تأففتْ "أنَّا" وقالت: "أوه، اسمعي! إذا كان من يجلس أمامي الآن ويخبرني بهذا الكلام رجلًا وليس امرأة هل كنا لنواجه أيَّ مشكلة؟".



كانت "أجاتا" تسير برفقة جارتها على الجانب المقابل من الميدان وهي تحمل حقيبة من القماش ممتلئةً بالدقيق. أشارتْ جارتها إلى "أنَّا" بإيماءة من رأسها وقالت: "أليستْ تلك المرأة الجالسة هناك سلفتك؟".

استدارتْ "أجاتا" فإذ بها ترى "أنَّا" و"چوفانَّا" جالستيْن تضحكان من قلبيهما بحميمية وبهجة. شعرتْ "أجاتا" على الفور بشيء من الغيرة؛ فـ"أنَّا" لم تضحكْ معها قطُّ بهذا الشكل في كل ذلك الوقت الذي عرفتها فيه. ومنذ أصبحت ساعية بريد وهي تعتقد أنها أصبحت شخصًا مهمًّا للغاية. ولم يعدْ لديها أي وقت لتقضيه معها ولا حتى لتذهب معها للتسوق. فمنذ بدأتْ عملها الجديد لم ترافقها ولا حتى مرةً واحدةً.

زادت جارتها الأمر سوءًا عندما قالت: "الأجنبية والمجنونة، يا لها من صحبة لطيفة!".

امتلأ حينئذٍ قلب "أجاتا" بالاستياء وتذكرت ما حدث قبل بضعة أيام عندما تعيَّن عليها –خلال صلاة المسبحة الوردية في عصر يوم السبت– أن تأخذ صف سِلفتها كي تدافع عن شرف الأسرة وسُمعتها. من الناحية الأخرى، بدتْ زيارات "كارلو" الصباحية للسيدة "كارميلا" سرًّا مكشوفًا يعرفه الجميع. وقد علقتِ النساء اللاتي تجمَّعن في دائرة يثرثرن ما بين "الصلاة الربية" و"صلاة السلام الملائكي": "أوه، عندما تغترُّ المرأة بنفسها كثيرًا تستحق أن يحدث لها الكثير من الأشياء".

ردَّت "أجاتا" عليهنَّ بحسم وقالت إنه من الأفضل أن تهتم كل منهنَّ بشؤونها الخاصة بدلًا من أن تتدخل في شؤون الآخرين، ووضعتْ حدًّا لهذه النقاشات والثرثرات. أصبحتْ نظرتها أكثر قسوة وردتْ على جارتها: "الطيور على أشكالها تقع". ثم تأبطتْ ذراعها وواصلتا طريقهما.



طوتْ "أنَّا" الورقةَ قسمين ووعدتْ "چوفانَّا" بأنها سترسل الخطاب في اليوم التالي. صحيح أن السيد "چوليو" لم يترك أيَّ عنوان لكنها أخبرتها أنها تعرف أين سترسلها، وكونه كاهنًا سيجعل الأمر بالنسبة إليها أكثر سهولة. ففي النهاية كم عدد الأبرشيات التي يمكن أن تكون موجودةً في "كازاليكيو دي رينو"؟

حالما عادت "أنَّا" إلى مكتب البريد انهال عليها زملاؤها بالعديد من الأسئلة. لحقتْ بها "إيلينا" وسارتْ خلفها وحثَّتها على إخبارها بما تريد أن تعرف وقالت: "حسنًا؟".

سألتها "أنَّا": "ماذا؟".

قالت "إيلينا": "احكي لنا، لمن تكتب المجنونة خطابًا؟".

أجابت "أنَّا": "بالمناسبة، هلا توقفتِ عن نعتِها بـ"المجنونة"؟ لديها فعلًا لقب لتدعيها به".

حدَّقت إليها "إيلينا" في حيرة ثم قالت: "ولكننا ندعوها بهذا الاسم على الدوام". ثم استدارت ونظرت إلى "كارمينيه" كي يدعم كلامها. فقال في اقتضاب وهو يداعب لحيته: "هي لا تزال وستبقى دومًا بالنسبة إلينا المجنونة".

هزَّت "أنَّا" رأسها وبدأت تجمع أشياءها. ألحَّت عليها "إيلينا": "بربك، قولي شيئًا! سيبقى ما تقولينه سرًّا بينك وبين رفاق عملكِ".

قالت "أنَّا": "لن أخبركم بأي شيء".

ألحَّت "إيلينا" عابسة: "ما الأمر؟ ألا تثقين بنا؟".

رفعت "أنَّا" رأسها نحو السماء وأمسكت بحقيبتها. تدخَّل "تومَّازو" من خلف مكتبه وقال: "كفاكم أسئلة، هي على حق، هذه أمور خاصة يجب ألا تطلعكم عليها".

قالت "أنَّا": "شكرًا لكَ يا "تومَّازو". وخرجت من المكتب مودعةً زملاءها بتلويحة من يدها.

تذمرتْ "إيلينا": "انظروا إلى هذه".

أيَّد "كارمينيه" كلامَها رافعًا كتفيه وقال: "سبق وقلت لكم إنها لن تخبرنا بشيء".

ظلَّت "إيلينا" تحدق إلى الباب بعد مغادرة "أنَّا" وعلا وجهها تعبيرٌ يشي بشعورها بالاستياء. ثم غمغمتْ أخيرًا وهي تعود إلى مكانها: "وأنا التي كنتُ أمنحها قطعًا من الكعك".

وصل رد السيد "چوليو" بعد ثلاثة أسابيع. أسرعتْ "أنَّا" إلى منزل "چوفانَّا" رغم أن حقيبتها البريدية كانت ممتلئة بالمراسلات وتوقفها لدى "چوفانَّا" وقراءة الخطاب لها من شأنه أن يكلفها ساعة عمل إضافية على الأقل. ولكنها لم تهتم. أصبحتْ تشارك تلك المرأة انتظارها وكانت تتوق إلى وصول تلك الرسالة ومعرفة ما كتبه لها حبيبها.

فتحتْ "چوفانَّا" الباب منكمشة في شال من الصوف وبدت على وجهها علامات النعاس، فيما اقترب "تشيزاريه" وهو يهز ذيله.

سألتها "أنَّا" وهي تتجاوز مدخل الباب وتحيي الكلب مداعبة رأسه: "هل كنتِ نائمة؟".

أجابتها "چوفانَّا": "نعم، لكنْ لا تقلقي. تعالي سأعدُّ القهوة".

صاحتْ "أنَّا" وهي تُلوِّح بالظرف أسفل أنفها: "ها قد وصل".

اعتلتْ وجهها علاماتُ خوفٍ وقلقٍ ثم أخذتْ برطمان القهوة من فوق الرف.

سألتها "أنَّا": "ما هذا التعبير على وجهك، ألست سعيدة بوصول الخطاب؟".

أجابتها "چوفانَّا": "يتوقف هذا على ما جاء فيه".

قالت "أنَّا": "لكننا لم نعرف بعد ما كتبه. اسمعي، سأفتحه الآن".

تركتْ "چوفانَّا" أمرَ القهوة وأعادتِ البرطمان إلى مكانه وجلست وأخذتْ تقضم ظفرَ إبهامها، فيما جلس "تشيزاريه" القرفصاء بالقرب من قدميهما.

مزَّقت "أنَّا" الظرفَ من أحد الجوانب وانتزعت الخطاب. فردتِ الورقة وتنحنحت وبدأت تقرأ.

عزيزتي "چوفانَّا"،

لقد تفاجأتُ بتلقي رسالة منكِ، خاصة أنني تعمدتُ ألا أترك أي عنوان. على أيِّ حال لقد قرأتُ الخطاب باهتمام وتركيز أكثر من مرة. وأريد أن أخبركِ أنني لم أنسَ أيضًا أي شيء. كيف يمكنني أن أنسى؟ إنها ذكريات غالية جدًّا أحملها داخلي وأتذكرها كل يوم فتملأ قلبي دفْئًا.

السيد "چوليو"

ملحوظة: قد يكون من الأفضل ألا ترسلي إليَّ بعد ذلك خطاباتٍ –كيف لي أن أقولها– خطاباتٍ غرامية، فأعين المتطفلين ها هنا كثيرة ومترقبة على الدوام.

علَّقت "چوفانَّا" على الخطاب وبدا عليها ارتباك واضح: "لا أعرف أكنتُ قد فهمتُ ما قاله بشكل صحيح". ثم نزعتْ بأسنانها جُليدة ظفرها.

بدتْ "أنَّا" متفكرةً وهي تنقر الطاولة بأصابعها ثم صاحتْ وقد أشرق وجهَها: "ها قد وجدتُ الطريقة التي سنفعل بها ذلك".

أجابتها "چوفانَّا": "عمَّ تتحدثين؟".

قالت "أنَّا" مبتسمةً قبل أن تغادر: "طرأتْ على بالي فكرة، لكنْ غدًا سأخبركِ بها فليس لديَّ الآن الوقت الكافي لأشرحها لكِ".

هكذا ذهبت "أنَّا" إلى "چوفانَّا" في عصر اليوم التالي ومعها بطاقة بريدية بالأبيض والأسود تصوِّر ميدان "كاستيلُّو" وكمية كبيرة من طوابع البريد من فئة العشر سنتات.

ستكتب ما تودُّ أن تمليه عليها من كلمات حب -تلك "الكلمات الغرامية" على حد تعبير حبيبها "چوليو"- بحروف صغيرة ثم تلصق فوقها طوابع البريد كي تخفيها. وكل ما سيكون عليه فعله حينئذٍ هو أن يبلل طوابع البريد قليلًا كي ينزعها برفق وحالما يزيلها ستظهر له الكلمات.

سألتْ "چوفانَّا" في حيرة: "لكنْ كيف سيفهم هذه الحيلة؛ أقصد كيف سيعرف أن عليه نزع الطوابع البريدية وأن هناك كلامًا مكتوبًا أسفلها؟".

كانت "أنَّا" قد فكرت فعلًا في كل شيء. فشرحتْ لها: "سترسلين إليه خطابًا جانبيًّا بكل التعليمات التي عليه اتباعها، ثم نرسل البطاقة البريدية بعدها بأيام قليلة. سنكتب له فقط التالي: "طوابع البريد تخفي كلمات أكثر مما نعتقد، فقط إذا عرف المرء كيف يجدها". وإن لم يكنْ أبلهَ بالكامل سيفهم ما عليه فعله عندما يتسلم بطاقة البريد. وإذا كنت على حق –كما أظن– سيرد على رسالتكِ مستعينًا بالطريقة ذاتها. هل نتراهن؟".



ها قد حلَّ الربيع. عرف "كارلو" ذلك عندما تشمَّم رائحة الهواء ذلك الأحد الموافق عيد الفصح. كان يومًا مشمسًا والسماء صافيةً. سيصطحب صباح ذلك اليوم ابنه "روبرتو" إلى القداس، فمنذ مدة قصيرة لم يتمكنْ هو وولده من قضاء بعض الوقت بمفردهما. ففي الأسابيع الأخيرة لم يره سوى قليلًا جدًّا خاصة منذ شُغِل كليًّا في عملية التقليم الأول للكروم التي جاء دورها بعد مرور عام على زراعتها. امتلأ "كرم عنب "جريكو" من جديد بالعمال الذين يبدأون عملهم منذ الفجر ويظلُّون منحنين على الشتلات بمقصات التقليم وقتًا طويلًا. لم يذهبِ السيد "تشيتشو" إلى الكرم سوى مرة واحدة فقط وتحديدًا في اليوم الأول للتقليم، وبقي هناك ما لا يزيد على الساعة. اكتفى يومها بشرح الطريقة التي يجب أن يتم بها الأمر لـ"كارلو" في تلك المرحلة الدقيقة والحساسة للغاية التي ستحدد كمية العنب المستقبلي وجودته. وأضاف بفظاظته المعهودة قائلًا: "تولى أنت أمر التقليم وَفْقَ

تعليماتي". هكذا تعلَّم "كارلو" أن كل شيء يعتمد على عدد البراعم التي سيُقرِّر أن يُخضعها لعملية التقليم؛ كلما ترك براعم أكثر على قمة الشتلة كانت كمية الثمار أكثر وفرة، لكنْ في الوقت ذاته ستكون نسبة السكر في العنب أقل كما سيكون تركيز المركَّبات العطرية ضئيلًا. لذا فالحل الأمثل هو أن يترك ما لا يزيد على برعمَيْن في كل نبْتة، وأن يحرص على الإبقاء على أكثر برعمَيْن قويَيْن لأنهما هما ما سيمنحان الساقَ الحياةَ. عندما لاحظ "كارلو" في أثناء إشرافه على العمل، أن بعض العمال -عادةً الأصغر سنًّا والأقل خبرة- يقطعون البراعم الجيدة، تلك التي كان من الواضح أنه يتدفق خلالها كميةٌ أكبر من النسغ ويتركون البراعم الأضعف، وبَّخهم على الفور فكان ردهم: "نعتذر يا سيد "جريكو".

ألبس ابنه "روبرتو" بدلةَ الأعياد والاحتفالات المكونة من سترة خفيفة وقصيرة وبنطال، كليهما باللون الأزرق، وقميص أبيض، ورابطة عنق صغيرة فضية اللون. قال له وهو يأخذ وجنتيه الصغيرتين بين يديه: "أنت جميل مثل أبيك". ردَّ عليه "روبرتو" مبتهجًا بضحكةٍ مكتومةٍ فوضع "كارلو" إصبعه على فمه وهمس له: "أمك نائمة".

وقف أمام باب غرفة النوم وفتحه قليلًا بهدوء ونظر إلى "أنَّا" التي كانت نائمةً مضطجعةً على جانبها الأيمن وشعرها مفرود على الوسادة وتغطي عينيها بقناع حريري أسود. بقي في مكانه محدقًا إلى "أنَّا" بضعَ ثوانٍ كاتمًا أنفاسه حتى لا يوقظها. فكَّر "كارلو" وقتئذٍ أنها تتمتع بجمال ساحر. وشعر فجأة بكل تعب العالم يجثم فوق كتفيه، آله ثقل الفجوة التي تشكلتْ بينهما على مدار تلك الأشهر والمسافة التي أصبحتْ تفصلهما عن بعضهما رغم أنهما يعيشان في البيت نفسه، الجدار الذي بُني بينهما والذي كان يعلو شيئًا فشيئًا وتزيد الشجارات من ارتفاعه، واحدةً تلو الأخرى، وآخرها ما وقع بينهما بالتحديد في مساء اليوم السابق حين تشاجرا وصار تجمُّع العشاء على نحو سيئ للغاية. كان هو في الواقع

من استفزَّها، فعل هذا فقط من أجل أن يثير حفيظتها. فعلى الرغم من معرفته بمدى حرصها على أن يتكلما مع بعضهما داخل البيت باللغة الإيطالية فقط؛ وبأنها منعت بشكل قاطع استخدام لهجة أهل البلدة، وحينما كانت تفلت من "كارلو" كلمة من حين إلى آخر كانت توبِّخه على الفور وتقول: "ليس أمام الطفل من فضلك"، فإنه أصرَّ طَوال وقت العشاء على تعليم ابنه الجالس على كرسي الأطفال الخشبي العالي كيف يقول هذا وذاك بلهجة "بوليا" ويشجعه على تَكْرار كل كلمة. طلبتْ منه "أنَّا" أن يتوقف، ولكنه كان يصعِّد الأمر ويزيد الطين بِلة، إذ كان يصفق في كل مرة يصيب فيها الطفل في نطق الكلمة بشكلٍ صحيح.

عندما يتذكر الأمر الآن ينتابه شعور بالحرج الشديد مما فعله: شعر وأنه تصرَّف بغباء وصبيانية. ربما كانت على حق عندما أخبرته ذات يوم أن عودته إلى الجنوب جعلته شخصًا معتوهًا ورجعيًّا.

وللمرة الأولى، وبينما هو واقفٌ هناك متكئًا على إطار الباب يراقبها وهي نائمة، خشي أن يكون قد فقد احترامه لديها. وفقط مجرد تخيُّل هذا الاحتمال بدا له غير محتملًا.

أغلق الباب جزئيًّا وعاد إلى غرفة نوم ابنه الصغيرة، حمله بين ذراعيْه ونزل الدرجَ ببطء شديد.

وصل أمام كنيسة "سان لورينسو" مبكرًا لحضور قداس الساعة العاشرة والنصف. دخل الكنيسة وغمس إصبعه في الماء المقدس ورسم علامة الصليب. في الخلف وعلى أحد جوانب المذبح الرئيسي الكبير الغني بالزخارف الباروكية كان عازف الأرغن يجلس في مقعده. مشى "كارلو" على طول الأرضية المايوليقية للصحن المركزي والمحاطة بصحنين جانبيين يضمان المذابح الأصغر حجمًا، واختار أحدَ المقاعد في منتصف الصف الواقع على اليسار، وهو صف المقاعد المخصص للرجال والكائن أمام النصب التذكاري لـ"چورچو أنطونيو بالادیني" سيد "ليتسانيلُّو" القديم. وفي غضون دقائق قليلة امتلأت الكنيسة. لاحظ كارلو أن أسرة السيد "تشيتشو" تتقدم

نحو مقاعد الصف الأول؛ كانت "چينا" ممسكةً بذراع زوجها، فيما كانت "كارميلا" وزوجها "نيكولا" يسيران بجانب بعضهما يتبعهما "دانييليه" ابنهما متأخرًا عنهما بخطوة. توقفوا وجلسوا؛ السيد "تشيتشو" و"نيكولا" و"دانييليه" في مقاعد الصف الأيسر و"كارميلا" وأمها في مقاعد الصف الأيمن المخصص للسيدات.

عندما حانتْ لحظة المناولة وبدأ الأرغن بالعزف، نهض "كارلو" وحمل "روبرتو" بين ذراعيه، وتوجه نحو المذبح ووقف في الطابور. هكذا وجد "كارلو" نفسه إلى جانب "دانييليه" الذي خرج في تلك اللحظة من صف المقاعد يلحق به أبوه والسيد "تشيتشو".

تمتم "كارلو" مبتسمًا: "صباح الخير يا سيد "تشيتشو". رفع "تشيتشو" ذقنه وبادله التحية. ثم سأله بصوت منخفض: "هل انتهى التقليم؟".

أجاب "كارلو": "نعم، نعم انتهى. نأمل أن تسير الأمور على نحو جيد". صافح "نيكولا" يد "كارلو" قائلًا: "مرحبًا يا "كارلو". ثم أمر ابنه: "سلِّم على السيد "كارلو" يا "دانييليه".

التفتَ نحوه الطفل ورفع قبعة "الكوبولا" وقال في فتور ولا مبالاة: "صباح الخير". ربَّت "كارلو" كتفه وقال مبتسمًا بنبرة مرحة: "كيف حالك أيها الشاب الصغير؟".

اضطرب السيد "تشيتشو" فجأة وأشاح بنظره بعيدًا. قاطع حديثهم رجل يقف خلفهم في الطابور حيث قال بصوت أجش: "هل ستتحركون؟".

وهكذا قطع "كارلو" و"روبرتو" و"دانييليه" في المقدمة والسيد "تشيتشو" و"نيكولا" من خلفهم، أمتارًا قليلة تفصلهم عن الكاهن وهم يسيرون بخطوات بطيئة.

ظلَّتْ "كارميلا" جالسةً إلى جوار والدتها تنتظر انتهاء دور الذكور وبداية دور الإناث. كانت طَوال الوقت تتابع بنظراتها "كارلو" و"دانييليه" اللذين كانا يسيران جنبًا إلى جنب، فيما كان قلبها يدق بقوة كما لو كان مطرقة، واهتزَّ صدرها بشدة إثر هذه الدقات العنيفة. لو توقف الأرغن عن العزف فجأة لسمع كل مَن في الكنيسة صوت نبضات قلبها.



في يوم الإثنين الأخير من شهر مارس كانت هناك أجواء احتفالية في مكتب البريد. سيتزوج "تومَّازو" أخيرًا من "چوليا" بعد خطبة دامتْ ثماني سنوات. "چوليا" فتاة هزيلة، وضعيفة، وخجول للغاية تنتمي إلى أسرة طيبة، وهي الابنة الوحيدة لأحد مُلَّاك الأراضي. أحضر المدير صينيةَ من حلوى المرصبان وفتح زجاجة من النبيذ الفوار، ومع أنَّ الساعة كانت فقط الثامنة صباحًا شرب كل منهم بسرور كوبًا من النبيذ. عندما دخلت "أنَّا" إلى المكتب كان الجميعُ واقفين على أقدامهم حول الطاولة وفي أيديهم أكواب الشراب وأمامهم صينية الحلوى التي كانت شبه نظيفة! في ذلك اليوم كانت "لورينسا" برفقتها. ذهبتْ معها بزيِّها المدرسي الذي يتألف من تنورة سوداء قصيرة وسترة بيضاء بياقة داكنة. ظلَّت الطفلة تصرُّ على العمة "أنَّا" عدةَ أشهر كي تريها المكان الذي تعمل فيه، لذا قررتْ "أنَّا" أخيرًا ذلك الصباح أنا تصحبها معها، لكنْ بشرط أن تأخذها بعدها على الفور إلى المدرسة دون مماطلة ودون إثارة ضجة.

سلَّم "تومَّازو" على الطفلة وقال: "يا لكِ من طفلة جميلة، كم عمركِ؟".

صاحت "لورينسا": "إحدى عشرة".

قالت "إيلينا": "ألم تتعرَّفها؟ إنها ابنة "أنطونيو!"، حسنًا معك حق، هي لا تشبه أباها كثيرًا بل هي صورة طبق الأصل من أمها"، ثم استدارت نحو "لورينسا" وقالت: "كان عليكِ أن تري أمكِ وهي في مثل سنكِ، أنتما كفلقتي فولة".

سألتها "لورينسا": "أتعرفين أمي؟".

أجابت "إيلينا": "طبعًا أعرفها، كنا زميلتين في المدرسة ذاتها عندما كنا طفلتين".

قالت "أنَّا" في استياء: "أين هذا الشبه الذي ترينه بينها وبين "أجاتا" بخلاف لون شعرها؟ ألا ترين أنها تحمل نفس عيني والدها "أنطونيو" وابتسامته نفسها؟".

تفحصتْ "إيلينا" عاقدةً ذراعيْها الطفلةَ بعينيها ثم قالت: "حسنًا، ربما تكونين على حق، ولكنها في رأيي تشبه "أجاتا" كليًّا، ما رأيكَ يا "كارمينيه"؟".

أجاب "كارمينيه": "لا أعرف، فمع كل تلك الأشياء التي عليَّ إنجازها لا أستطيع حتى أن أتذكر مطلقًا كيف هما عينا "أنطونيو".

تنهدت "إيلينا" وهي تُبعده عن المكان بإشارة من يدها: "أوه، يا لك من مسن متذمر، لا أعرف كيف تتحملك زوجتك".

ضحك "كارمينيه" ساخرًا وقال: "عليكِ أن تعرفي كم أتحمَّلها أنا".

كرَّر "تومَّازو": "إذن لديكِ إحدى عشرة. هل قررتِ ماذا ستفعلين بعدما تُنهين المدرسة الابتدائية؟".

أجابت "أنَّا": "لقد قررتْ بالتأكيد، إنها تتحضر لخوض امتحان القبول للمدرسة الإعدادية" ثم أضافت بكل فخر: "ستلتحق بالمدرسة الثانوية التقليدية ومنها بالجامعة".

دار نقاش طويل بين أفراد الأسرة حول هذا الأمر. كانت "أجاتا" تفضل أن تلتحق ابنتها بمدرسة التدريب المهني التي تستغرق مدة الدراسة فيها ثلاث سنوات، وعلقتْ مفسرةً سبب اختيارها: "على الأقل ستعلمك المدرسة حرفةً". أما "أنطونيو" فقد كان بلا شك يريدها أن تلتحق بالجامعة، ستكون أول فتاة في أسرة "جريكو" تحصل على شهادة جامعية، هذا ما حلم به وتمناه لها منذ يوم ولادتها، ولن يستطيع أحد في العالم منعه من تحقيق هذا الحلم. انتهى الأمر حينها بـ"أجاتا" -التي نادرًا ما رأت مثل هذا التصميم القوي في زوجها- بالموافقة، لكنْ بكثير من التذمر والتأفف. من جانب آخر، نشأتْ "أجاتا" معتمدةً على الفهم والإدراك الفطري لشؤون الحياة المختلفة، فما إذن فائدة الدراسة سنواتٍ طويلةً إذا كان الهدف في جميع الأحوال هو العمل؟ غير أن ما تتمناه

"أجاتا" في الحقيقة لابنتها "لورينسا" هو زواج جيد. وحده الزواج هو ما سيوفر لها كل ما تحتاج إليه؛ سيوفر لها الطعام والاحترام والأمان.

هنَّأها "تومَّازو" وأثنى على اختيارها وهو يداعب وجنتَها: "المدرسة الثانوية التقليدية، يا لكِ من فتاة مجتهدة". احمرَّ وجه الفتاة خجلًا فور تلك المداعبة المفاجئة وغير المتوقعة من جانب "تومَّازو" وخفضت رأسها.

أمسكتْ "أنَّا" بيد الطفلة وأخذتها في جولة خلال المكتب، وشرحت لها على عجل دور كل واحد من زملائها وعمله في المكان. أخذت "لورينسا" كعادتها تنهال عليها بالأسئلة: "وهذا الميزان ما فائدته؟"، "وماذا يوجد في خزانة الأدراج تلك؟"، "من يجلس إلى هذا المكتب؟"، "لماذا لديكم خزانة هنا؟".

أجابت "أنَّا" عن كل أسئلتها، ثم قالت لها: "لكنْ عليكِ الآن أن تنتظريني هنا وأن تبقي هادئة، فعلى العمة أن تملأ حقيبتها البريدية".

مدَّت لها "كيارا" يدها ودعتها إلى الذَّهَاب معها: "تعالي وانضمي إلينا هناك". صافحتها الطفلةُ ثم لحقت بها هي و"إيلينا" إلى المكتب الخاص بالتلغراف، فيما جلس "تومَّازو" إلى مكتبه وفتح "كارمينيه" نصف باب المكتب على مصراعيه في إشارة إلى أن مكتب البريد يعتبر مفتوحًا منذ تلك اللحظة.

حالما امتلأت الحقيبة أغلقت "أنَّا" إبزيمَ الحقيبة ووضعتها على كتفها، وتوجهت نحو الغرفة الخلفية للمكتب وقالت للطفلة: "حسنًا، أنا جاهزة. دعينا نذهب". كانت "لورينسا" تجلس فوق المكتب وساقاها الصغيرتان متدليتان، فيما كانت "كيارا" تشرح لها كيفية عمل التلغراف؛ أخبرتْها أنه مع كل نبضة كهربائية تنشأ سلسلة من الخطوط والنقاط التي تسمى بـ"أبجدية مورس" ووظيفتها هي أن تُشفِّر تلك الأبجدية وتترجمها إلى رسائل مقروءة.

صاحت "لورينسا" وهي تفتح عينيها على اتساعهما: "كالسحر!".

ابتسمت لها "كيارا" برقة وأجابتها: "نعم، نوع من السحر".

تنهَّدت "إيلينا" من المكتب المجاور وتمتمت بأن عملها على العكس ليس به أي شيء ساحر على الإطلاق.

قالت "أنَّا" وهي تساعد الطفلة على النزول من فوق المكتب "هيا يا صغيرتي وإلا ستتأخرين على مدرستكِ وأتأخر أنا على عملي. هناك بريد أيضًا لأبيكِ اليوم".



قبل أن تذهب "أنَّا" إلى معصرة الزيتون –والتي ستكون محطتها الأخيرة لذلك الصباح– مرَّت على بيت "أنچيلا" وطرقتْ بابها، إذ كان معها صندوق صغير عليها أن تسلمه لها. أخرجته من حقيبتها ووزنته بيدها فوجدته خفيفًا للغاية. حاولتْ في تلك اللحظة أن تهزه برفق لعلَّها تتمكن من تخمين محتواه. من يدري ما الذي ابتكره هذه المرة هذا المحب العنيد. استقبلتها "أنچيلا" وعلى وجهها التعبير المشرق المعتاد نفسه، أخذت الصندوق من يد "أنَّا" كما تفعل كل مرة وفتحته على الفور. ثم فتحتْ عينيها على وسعهما وأخرجت ببطء خاتمًا خشبيًّا مرصعًا ووضعته في إصبعها في الحال.

أظهرتْ يدها لـ"أنَّا" وقالت مبتسمة: "إنه على مقاسي". علقت "أنَّا" وهي تنظر إلى الخاتم: "إنه جميل جدًّا". ثم رفعت نظرها نحو "أنچيلا" وقالت: "أعتقد أنه قريبًا سيقدم لكِ خاتمًا حقيقيًّا". هزتِ الفتاة كتفيها في دلال وقالت: "أمي أيضًا تقول هذا".

وصلت "أنَّا" إلى معصرة الزيتون عندما اقترب وقت الغداء. استقبلتها "أنييزيه" سكرتيرة "أنطونيو" بابتسامة ومدَّت إليها يدها وقالت: "أعطيني إياه". لكنْ "أنَّا" ردت عليها قائلة بأنها تفضِّل أن تسلم البريد بنفسها لصاحبه. هكذا طرقتْ "أنَّا" باب مكتب "أنطونيو" وانتظرتْ أن يقول: "تفضل!"، لتدخل.

حيَّته بابتسامة حالما دخلت، ولوَّحت بالظرف وقالت: "لديك بريد!".

نهض "أنطونيو" على قدميه فجأة فسقط على الأرض الملف الذي كان مفتوحًا على المكتب. انفلتت حينها من "أنَّا" ضحكة. قال لها وهو يتقدم نحوها: "يا لها من مفاجأة جميلة!".

أجابت هي وقد مدت له يدها بالظرف: "هذا لك".

أخذه "أنطونيو" ووضعه على المكتب من خلفه دون أن يكترث لأمره أو يلقي عليه نظرة واحدة. دعا "أنَّا" إلى الجلوس وعاد هو أيضًا للجلوس من جديد في الكرسي المقابل لها وسألها: "كيف حالكِ؟".

استرق النظر إلى معصم يدها كي يتأكد من أنها لا تزال ترتدي الساعة التي أهداها إياها عند قبولها في وظيفة ساعي البريد. وعندما تأكد من ارتدائها لها شعر بالارتياح.

رفعت "أنَّا" كتفيها ثم تنهدتْ وقالت: "أنا بخير مع أنَّ أخاك جعل حياتي صعبة. أصبحت علاقتنا صدامًا متواصلًا. أشعر كأنَّه يجبرني يوميًّا على دفع ثمن اختياري لهذه الوظيفة".

خفض "أنطونيو" نظره فيما واصلت "أنَّا" بملامح مضطربة: "لا أفهم ماذا دهاه، يبدو لي كأنه شخص آخر غير "كارلو" زوجي وحبيبي الذي أعرفه. أصبح مُهوَّسًا بما يفكر فيه هؤلاء الناس. لكنْ لماذا كل هذا؟".

ردَّ "أنطونيو": "سيتخطى الأمر، لطالما كان "كارلو" هكذا. عندما يصر على شيء ما لا يرى سواه. يصبح الأمر بالنسبة إليه بمنزلة تحدٍّ، وقد يستغرق الأمر وقتًا طويلًا قبل أن يستسلم".

أومأت هي برأسها وقالت: "نعم، أعرف ذلك جيدًا". سكتت قليلًا ثم تابعت قائلة: "منذ عرفتُ أخاك فهمتُ على الفور أنه شخص عنيد. لقد ظلَّ يغازلني ويتودد إليَّ ما يزيد على العام، مع أنَّني في البداية لم أكن أوليه أي اهتمام، ولم أكن انتبه لوجوده ومغازلاته، كنت معجبةً بشخص آخر".

دُهِشَ "أنطونيو" وقد شعر بشيء من الغيرة وقال: "آه، حقًّا؟".

أجابت "أنَّا": "نعم، كان يروقني شاب آخر يُدعى "أميديو"، كان صبيًّا لطيفًا وأراد أن يكون رسامًا".

سألها "أنطونيو": "وماذا حدث بعد ذلك؟".

تنهدتْ "أنَّا" وقالت: "ثم جاء أخوك وأصرَّ على إقصائه وإبعاده عني. ليس هو فقط، وإنما كل الشباب الذين كانوا يتقربون مني ويتوددون إليَّ".

ابتسم "أنطونيو" وسألها: "وهل كان لديكِ الكثير من المعجبين؟".

رفعت هي كتفيها وقالت: "نعم، كان لديَّ بعض المعجبين".

غيَّر "أنطونيو" حينها وضعية جلوسه على الكرسي، فيما واصلت "أنَّا" قائلة بفخر: "آه، ولكنني تركته ينتظر طويلًا قبل أن أمنحه قُبلةً، كانت بنات عمومتي يقولن لي باستمرار: "لا تبالغي كثيرًا في التمنع!"، و"لا تفلتي رجلًا مثل "كارلو" من يدكِ!"، وهل تعرف بماذا كنت أجيبهنَّ أنا؟".

هز "أنطونيو" رأسه نافيًا، فأردفتْ "أنَّا": "إنه هو من عليه أن يحرص على ألا يفلتني من يده!".

علَّق "أنطونيو" بصوت أجشَّ: "هذا صحيح".

أضافتْ "أنَّا" وقد عادتْ إلى الحديث بنبرة جدية: "أريده أن يفهم كم هو مهم بالنسبة إليَّ هذا العمل، لقد فهمتَ ذلك على الفور، لماذا لم يتمكنْ هو حتى الآن من فهم الأمر؟".

نهض "أنطونيو" ووضع يده في جيب بنطاله وسألها فجأة: "أتودين رؤية مكاني المفضل؟".

حدَّقت إليه "أنَّا" في فضول وسألته مستفسرة: "أي مكان تقصد؟".

أجاب وهو يشير إلى السقف: "ليس بعيدًا، هو موجود فوق رؤوسنا بالضبط".

خرجا من الباب الخلفي للمكتب والمفضي إلى ساحة مفتوحة محاطة بجدران عالية ومتشققة. سألتْ "أنَّا" وهي تنظر حولها: "أين نحن؟".

أجابها "أنطونيو" وهو يقودها إلى الطريق الصحيح: "من هنا، تعالي". عبرا ممرًّا ضيِّقًا يمتد بمحاذاة أحد الجدران، كان ضيقًا لدرجة أنه لا يتَّسع لمرور شخصين معًا في وقت واحد، ومن هناك صعدا درجًا حجريًّا طويلًا يؤدي إلى شرفة المعصرة. صاح "أنطونيو" عندما صارا يقفان في قمة المبني: "انظري!".

تقدمتْ "أنَّا" ببضع خطوات. بدا لها الأمر من الأعلى كأنَّها تستطيع الإمساك بالبلدة بأكملها بين راحتيْ يدها؛ فمن تلك النقطة تمكنتْ من رؤية الكنيسة والميدان والقلعة والسكان الذين كانوا يتحركون هنا وهناك وقد بدوا صغيري الحجم كالنمل. أشارت نحو نقطة ما وقالت: "مكتب البريد أيضًا يتراءى من هنا!".

اقترب منها "أنطونيو" ووضع يده على ذراعيها وجعلها تلتفت رويدًا رويدًا وقال لها: "أمامنا البلدة وخلفنا البحر".

مدتْ "أنَّا" نظرها ولمحتْ بعيدًا شريطًا من المياه يقطع الأفق إلى شقين، فعلقتْ قائلة: "المنظر جميل من هنا، يشعرك بسلام وراحة".

ردَّ "أنطونيو": "فعلًا، ولهذا آتي إلى هنا كل يوم".

ابتسمتْ له "أنَّا" ثم عادتْ لتنظر إلى البحر. في تلك اللحظة هبَّتْ نسمة ريح بعثرتْ شعرها المربوط في جديلة وأسقطتْ خُصلة منه انسدلت على جانب وجهها. أغمضتْ عينيها وتركتِ النسيم يداعب وجهها.

حدَّق إليها "أنطونيو" ورأسه مائل بعض الشيء وتخيَّل أنه يتتبع بإصبعه جانبَ وجهها الذي كان بارزًا في مواجهة صفحة السماء. استمع لصمت ذلك المكان الذي على الرغم من كونه مكشوفًا كان حميميًّا للغاية، وفكر أنهما لم تتح لهما الفرصة من قبل ليبقيا وحدهما تمامًا هكذا في مكان مسقوف ومستتر. فاقترب منها وأخذ وجهها بين يديه ووضع شفتيه برقة على شفتيها في قبلة طويلة ولطيفة للغاية.

عندما فتحت "أنَّا" عينيها من جديد ابتعدتْ عنه فجأة ووضعت يدها على فمها.

ظلَّ "أنطونيو" الذي بدا مذهولًا يتراجع إلى الخلف حتى لمس حاجز الشرفة بيد واحدة واستند إليه وقال لها بصوت مخنوق: "آسف يا "أنَّا"!".

نظرت إليه "أنَّا" نظرةً مرعبةً، ودون أن تتفوه بكلمة واحدة توجهت بخطوات سريعة نحو الدرج واختفتْ عن أنظاره.



8
مايو – يونيو 1936

منذ ما حدث ذلك الصباح في الشرفة بينه وبين "أنَّا" لم ينجحْ "أنطونيو" في النوم في سلام. كان يتقلَّب في سريره كل ليلة وهو يتصبب عرقًا وكان يعاني دومًا صعوبةً في التنفس لم يكنْ يعرف تفسيرًا لها. بدا له أن النَّفَس عالق في صدره ولا ينجح في إخراجه. أول مرة حدث فيها ذلك ظنَّ "أنطونيو" أنه على وشك الموت، لذا اعتدل وجلس في السرير والخوف يملأ عينيه، هزَّ "أجاتا" بيده وأيقظها. جعلته زوجته يتمدد على ظهره –وكما لو كانت تعرف بالضبط ما عليها فعله– ضغطت على يده وأمرته بأن يخرج الهواء من فمه، فبدأ يفعل ذلك، وظلَّت هي تعد حتى رقم عشرة. قالت: "تظاهر بأن أنفاسك تمر من جانب إلى آخر خلال السقف". وهكذا وبفضل الزفير الطويل الذي أصبح أعمق تدريجيًّا هدأ "أنطونيو" أخيرًا.

كانت الأسابيع الأخيرة هي الأسوأ في حياته. حاول والألم يعتصر قلبه أن يتجنب الاجتماع بأخيه، في أي وقت وأي مناسبة. لكنْ حينما كانا يلتقيان وينظر إلى "كارلو" في عينيه كان يُضْطَرُّ كلَّ مرة إلى إخفاء انزعاجه وعدم ارتياحه، وراء ابتسامة متصنعة. وهو ما كان يجعله يشعر بنفسه أنه كالدودة، شخص خائن، أحقر الحقراء. في الصباح، توقَّف عن تناول القهوة في بار "كاستيلُّو" حتى لا

يجازف بلقاء "أنَّا" في موعد ذَهَابها إلى مكتب البريد. اختلق التزامات غير حقيقية ومواعيد عمل وهمية، لتكون بمنزلة حجج وأعذار تُسوِّغ وصوله متأخرًا على غداء يوم الأحد، الذي تجتمع فيه الأسرة بأكملها. وحرص أن يبقى في هذا التجمع أقل وقت ممكن. لكنْ لم يكن هذا مجديًا على الإطلاق. كان يشعر أنه حيوان محبوس داخل قفص، مطارد ومجبر على الدوران حول نفسه دون توقف. وتلك المرات القليلة التي التقت فيها عيناه عيني "أنَّا" لم يجد فيهما أي شرارة غضب أو ارتجافة كأنَّ شيئًا لم يحدث. بدا له أنها فرضتْ على نفسها وعلى عقلها نظامًا تدريبيًّا حديديًّا شبه عسكري لتمحو بموجبه كل لحظة من لحظات ذلك الصباح الملعون. لم تبدِ أي رد فعل لدرجة أنه وصلت به الحال أن سأل نفسه أكان هذا كله مجرد حلم، أكانت تلك القبلة تسكن رأسه هو وحده ولم تقع في الحقيقة. ظلَّ ذهنه يسترجع يوميًّا كل أحداث ذلك الصباح؛ كل كلمة قيلت، وكل نظرة، وكل حركة كي يضفي على هذا الحدث شيئًا من المعقولية، كي يمنحه معنى، وعلى الرغم من هذا ظلتْ كل أجزاء ذلك الحدث متجسدةً أمام عينيه كما لو كانت مجموعة شظايا ولم يكن هناك سبيل لإعادة تجميعها. تولَّدت لديه رغبة في الهرب، كي يستردَّ أنفاسه بعيدًا عن الجميع، كيلا يبقى مضطرًّا في كل لحظة أن يواجه الذنب الذي ارتكبه.

اقترح عليه أحد معارفه يُدعى "إنريكو" الفكرة التي سيستعين بها للتخلص من كل هذا الألم. قابله مصادفة في "ليتشي" في الغرفة التِّجارية. حدث هذا في 10 مايو 1936 أي اليوم التالي لإعلان "موسُّوليني" إمبراطوريةَ شرق إفريقيا الإيطالية: فبعد إريتريا والصومال، سقطتْ إثيوبيا أيضًا تحت ضربات الفاشيين.

كان "إنريكو" يملك شركة إنشاءات، وأخبره، وهو في غاية السعادة، أنه حصل لتوه على تصريح استعماري من مقر قيادة الشرطة، وسينطلق من "بريندیزي" في بداية شهر يونيو، على متن باخرة متجهةً إلى أسمرة، عاصمة

إريتريا. حذا أيضًا آخرون من رواد الأعمال المحليين حذوه وقرروا توسيع أعمالهم في المستعمرات الإيطالية، وكانوا ينتقلون إلى هناك واحدًا تلو الآخر.

وفجأة بدت تلك الفكرة لـ"أنطونيو" أنها الحل الأنسب لكل شيء.

تسلَّلت فكرة الرحيل إلى إفريقيا –أبعد مكان يمكن تخيُّله– وشقتْ طريقها بقوة إلى رأس "أنطونيو" حتى صارت خِيارًا ممكنًا، بل إنه الخِيار الوحيد الذي تمكَّن من منحه بعض الراحة. قرَّر بينه وبين نفسه أنه سيصدِّر الزيت الذي ينتجه إلى المستعمرات الإيطالية، وسيبدأ تجارته الخاصة هناك. سيغيب عن إيطاليا وعن البلدة مدة من الوقت تكون كافية لتتحسن حالته وليعاود التنفس بشكل طبيعي مرة أخرى. وهكذا، ودون أن يخبر أحدًا بأي شيء، تقدَّم بطلب هجرة إلى المبنى الإداري للمِنْطَقة وخضع للإجراءات البيروقراطية اللازمة للحصول على تصريح بالرحيل. حال التأكد من مهنيته ونزاهته الأخلاقية، وموقفه الجنائي والسياسي، وحالته الصحية الجيدة، وما إلى ذلك، منحوه هو أيضًا تصريحًا استعماريًّا وإذنًا بمزاولة نشاطه التِّجاري في إفريقيا الإيطالية. سيغادر بحمولة صغيرة من الزيت، وإن سارت التجارة في أسمرة على ما يرام أو كما يتمنى، سيرسل في طلب جراكن زيت إضافية. لم يخبر أحدًا سوى "أنييزيه" بأمر رحلته، إذ سيتعين عليها تجهيز البضائع التي يجب إرسالها وكذلك الاهتمام بمعصرة الزيتون خلال مدة غيابه. لم يكنْ لدى "أنطونيو" أدنى شك في إخلاصها واجتهادها وكتمانها لأسراره.

قرَّر "أنطونيو" أنه سيخبر أسرته بأمر سفره قبل أيام قليلة فقط من رحيله، وحينها لن يكون بإمكان أحد إيقافه.

في صباح أحد أيام الأحد سأل "كارلو" فجأة زوجته: "انتهى العمل بمصنع النبيذ، هل تريدين أن تذهبي لرؤيته؟".

كانت "أنَّا" جالسة على مقعدها الخاص في الحديقة تشرب حليبها الدافئ وعيناها مثبتتان إلى أغصان شجر الرمان المزهرة. كانت "أنَّا" تعرف زوجها جيدًا، ولذلك أدركت أن طلبه المفاجئ وغير المتوقع هذا يعني شيئًا واحدًا فقط ألا وهو أن "كارلو" قد استسلم أخيرًا. لم يكن زوجها بارعًا تمامًا في طلب الاعتذار ولم يكن سهلًا بالنسبة إليه أن ينطق بكلمة "آسف"، فلطالما كان يقول لها إنه حين يشعر بالأسف بسبب كلمة أو تصرف أقدم عليه يفضل إظهار أسفه هذا بالأفعال لا الكلمات.

أجابت "أنَّا" دون أن تشيح بنظرها عن أشجار الرمان: "نعم، سآتي لرؤيته".

ابتسم لها "كارلو" وللمرة الأولى بعد شهور داعب خدها بظهر يده وقال لها: "استعدي على مهل، سأذهب لأُلبس "روبرتو".

سألته "أنَّا": "ألن تحضر القداس اليوم؟".

أجابها: "نعم ولمَ لا، لن يغضب أحد إن لم أذهب".

في الواقع لم يكنْ "كارلو" يرغب في أن يصادف "كارميلا" ويتحمل نظراتها البغيضة القذرة التي كانت بمنزلة طلب صامت لتفسير ما. ففي المدة الأخيرة قلَّص "كارلو" زياراته الصباحية لها وقبل أكثر من أسبوع توقف عن الذَّهَاب إليها تمامًا.

في الواقع تنفَّس "كارلو" الصُّعداء وشعر بالارتياح عندما امتنع عن مقابلتها فقد بدأت "كارميلا" مؤخرًا تمطره بالطلبات وتتجهم عندما لا يمنحها ما توقعته من إجابات عن أسئلتها، أو إذا ذكر "أنَّا" أكثر مما ينبغي، أو حتى إذا هرب من سريرها على عجل، وهو ما كان يتكرر على نحو متزايد. في الحقيقة لم يعدْ بإمكان "كارلو" تحمل ذلك النهج الجديد الذي صارت عليه حياته أكثر من ذلك؛ فإذا كان يبدو له في البداية أن خيانته تلك التي لم تعرف عنها "أنَّا" أي شيء بمنزلة عقوبة عادلة لها على ما اقترفته إلا أنها أصبحت فيما بعد سببًا في شعوره بأنه مذنب.

شعر بالخجل لأنه جعل زوجته لقمةً سائغةً في أفواه البلدة المتعطشة إلى الشائعات والثرثارات، وكذلك سمح للناس بالحديث عنها بشكل سيئ وتسبب ذلك في التقليل من حجم الحب الذي يجمعهما في أعين الآخرين.

وهكذا ركب ثلاثتهم السيارة "الفيات 508" وقبل أن ينطلق "كارلو" في الطريق المؤدي إلى مصنع النبيذ والمخزن الخاص به سأل زوجته أكانت تريد أن يحتسيا معًا فنجانين من قهوة "كوريتُّو" بـ"الجرابًّا" في بار "كاستيلُّو".

نظرت إليه "أنَّا" عابسة وأجابت: "أهذا واحد من استفزازاتك التي لا تنتهي؟".

أوقف "كارلو" السيارة واستدار نحوها وطمأنها آخذًا يدها بين يديه: "لا، أريد حقًّا أن يصبح هذا طقسنا الخاص من الآن فصاعدًا".

تفرستْ "أنَّا" وجهه للحظة ثم استسلمت لابتسامة أرادت أن تنفلت من شفتيها. أمالت "أنَّا" رأسها لتنظر إلى ابنها الذي كان جالسًا على ساقيها وقالت: "أسمِعْت يا "روبرتو"! أبوك يريد أن يأخذ جُرْعة من الكحول".

أوقف "كارلو" السيارة في الميدان الذي كان يعجُّ بالناس، وبينما يترجل هو و"أنَّا" من السيارة بدا له أنه انتبه لنظرات ولكزات وهمهمات تدور كلها عنهما. تقدما نحو البار يتوسطهما "روبرتو" الذي كان يمشي الهُوَيْنَى بخطواته القصيرة ممسكًا بيدي أبيه وأمه.

حياهما "ناندو" مرتديًا مئزرته البيضاء التي ربطها حول خصره، وسألهما بلطف كعادته مبتسمًا: "إلامَ تحتاجان؟".

أجابت "أنَّا" مسندة ذراعها إلى المنضدة: "مشروبي المعتاد". وأضافت وهي تنظر إلى "كارلو": "لكنْ لشخصين".

كان الرجلان المسنان ضئيلَا الجسد يجلسان كعادتهما إلى الطاولة نفسها كما لو كانا نموذجين مصنوعين من الكرتون يضعهما "ناندو" في المخزن في نهاية اليوم ليخرجهما كل صباح قبل أن يفتح البار.

طرقت "أنَّا" فنجانها بفنجان "كارلو" وقالت بالفرنسية: "نخبك!"، ثم أخذت رشفة من القهوة.

ألقى المسنان نظرة سريعة عليهما ثم انحنيا وعادا يلعبان لعبة "الورقة الرابحة".

لم يلاحظ "كارلو" وجودها إلا عندما عادوا إلى السيارة، وكان على وشك أن يفتح الباب. كانت "كارميلا" واقفة هناك، منتصبةً في باحة الكنيسة ورأسها يتشح بحجاب أسود. أمسكتْ بذراع زوجها الذي كان منهمكًا في محادثة مع مجموعة صغيرة من الرجال. حالما رأته "كارميلا" نظرت إليه بعينين تتقدان نارًا. أشاح "كارلو" بنظره عنها ودخل السيارة.

حالما خرجوا من البلدة وانطلقوا في الطريق المؤدي إلى مصنع النبيذ، فتحت "أنَّا" نافذة السيارة وسمحت للرياح بمداعبة وجهها. شعرت "أنَّا" وقتها براحة مفاجئة كما لو كانت قد هربت من خطر يلاحقها. فكرتْ فيما تنظر إلى حقول الزيتون التي بدتْ لها من السيارة كأنها في سباق تتابع "لا بُدَّ أن يعود كل شيء إلى نصابه الصحيح". وكررتْ لنفسها "لم يحدثْ شيء لا يمكن إصلاحه".

إن ما حدث مع "أنطونيو" لم يكنْ سوى لحظة ضعف وجنون وأن الحل الأمثل والأكثر عقلانية للتعامل مع الأمر هو التقليل من حجمه حتى يصير مجرد قصاصات قابلة للتطاير. كانت "أنَّا" تعتقد أن "أنطونيو" لا بُدَّ أنه يفكر في الأمر بالطريقة ذاتها ويشعر بالشيء نفسه وأنه لا داعي إلى أن يقولا هذا لبعضهما؛ فكلاهما سيمضيان قدمًا في حياتهما وسينسيان سريعًا ما حدث. ليس هناك بديل آخر.

صاح "كارلو" وهو ينعطف يمينًا: "ها نحن أولاء!". أوقف السيارة في الفضاء المفتوح الواقع أمام مصنع النبيذ، وسحب مكابح اليد ثم قال لطفله وهو مبتهج بالكامل فيما يساعده على الترجل من السيارة: "تعالَ لترى مملكة أبيك". ثم مدَّ

يده نحو "أنَّا" فأمسكتْ بها ومشى ثلاثتهم يتوسطهم "روبرتو" نحو المصنع في حين كانت الشمس في ذلك الوقت المتأخر من الصباح تدفئ الهواء.

فتح "كارلو" بوابة المصنع الخشبية ودخلوا. أعجبتْ "أنَّا" على الفور بالأسقف المقنطرة، ولكنَّ أول ما راق لها بشدة هو رائحة التوفو التي كان المكان مشبعًا بها. شرح لها "كارلو" وهو يرسم بذراعيه بعض الدوائر في الهواء: "هنا سنعبئ النبيذ في زجاجات، وهنا ستلزمنا آلة لإحكام غلق زجاجات النبيذ بالفلين". ثم تابع مشيرًا إلى مكان آخر في الغرفة: "وهنا سنحتفظ بالزجاجات الفارغة". جذبها من يدها حتى الغرفة المجاورة وواصل: "ثم هنا سنضع الملصقات على الزجاجات". ثم فتح بابًا وقال: "وهذا مكتبي". كان المكتب غرفةً صغيرةً بها مكتب وكرسي ومكتبة فارغة. أضاف قائلًا: "ما زالت تنقصه بعض الأشياء القليلة". واصلت "أنَّا" النظر حولها وقد بدت على ملامحها المفاجأة. قال "كارلو": "تعالي، دعينا ننزل إلى الطابق السفلي". هبطوا حيث الخزانات الخرسانية. شرح لها "كارلو" وهو يجلس مقرفصًا بالقرب من أحد الخزانات: "النبيذ سيتخمر هنا بالداخل".

جابت "أنَّا" المكان بنظرها ثم تمتمت قائلة: "ماذا يمكنني أن أقول يا "كارلو"؟ هذا المكان، ملكَ أنت. أنت بارع وعملتَ عملًا جيدًا حقًّا".

تهلَّل وجه "كارلو" وسألها: "هل أعجبكِ المصنع حقًّا؟".

أجابت هي: "نعم أعجبني جدًّا حقًّا".

استأنف "كارلو" تعريفها بالمكان وقال: "وهناك شيء لم أخبرك به بعد، ولا يعرفه أحد. أردتُ أن أفاجئك بالأمر حالما تتم عملية التعبئة لكنْ في الحقيقة ليس هناك سبب للانتظار".

سألته "أنَّا" في فضول: "عن أي شيء تتكلم؟".

أجابها: "عن "السيدة "أنَّا". هكذا سيكون اسم أول ماركة نبيذ أنتجها. أول نبيذ يخرج من "مصنع ومخزن جريكو".

دمعتْ عينا "أنَّا" من التأثر وسألته مبتسمة: "هل أنت جاد في ما تقول؟".

أعلن "كارلو" مفتونًا بسعادة زوجته: "بل جاد جدًّا".

وضعت "أنَّا" يدها على وجنته ثم منحته قبلة. كرر "روبرتو" بصوته الصغير: "السيدة "أنَّا".



وصل رد السيد "چوليو" مع موسم إزهار الورود. حالما رأت "چوفانَّا" البطاقة البريدية التي تحمل صورة لميدان "مادچوريه" في "بولونيا" انفجرت ضاحكة في سعادة وأضاءت عيناها الواسعتان عسليتا اللون. قفز عليها كلبها "تشيزاريه" وهو يهز ذيله كأن عدوى تلك السعادة انتقلت إليه. وبسبب جزع "چوفانَّا" الذي ظهر في نظرتها، أخذت "أنَّا" إسفنجة مبللة وعصرتها جيدًا ومسحت بها الطوابع، ثم استعانت بنصل سكين وبدأت تزيل الطوابع من حوافها واحدًا تلو الآخر. وكما توقعتْ، ظهرتْ بعض الكلمات. ألحت "چوفانَّا" على "أنَّا" لتقرأ لها: "إذن؟ ما المكتوب؟".

ترددت "أنَّا" ثم قالت: "سأقرأ لكِ لكنْ بشرط، أن تتركيني أعلمك القراءة والكتابة".

اكفهرَّ وجهها واهتاجتْ قائلة: "تعرفين أنني لا أستطيع فعل هذا".

ردَّت "أنَّا": "هذا ليس صحيحًا. دعيني أحاول على الأقل".

قالت "چوفانَّا": "ولكنني أخبرتكِ أنني لا أنجح في رؤية الكلمات. تتداخل الكلمات والحروف في عيني كأنها بقعة سوداء كبيرة".

قاطعتها "أنَّا" قائلة: "أنا أعرف كيف يمكنني فعل ذلك، عليكِ فقط أن تثقي بي".

عضت "چوفانَّا" على شفتيها ونظرت إليها بنظرة استسلام.

ابتهجتْ "أنَّا" وقالت: "أوه، جيد جدًّا". ثم أضافت بشكل قاطع وحاسم: "إذن، دعينا نبدأ غدًا".

سألتها "چوفانَّا": "هل يمكنكِ الآن إذن أن تقرأي الخطاب؟".

غمزت لها بعينيها وقالت: "نعم، الآن سأقرأه".

كشفتِ الكلمات التي أخفاها السيد "چوليو" أسفل طوابع البريد عن رجل عاطفي للغاية، ذلك الرجل الذي أحبته "چوفانَّا" والذي تعرَّفته من جديد أخيرًا. أطلق الرجل العنان لقدر كبير من الأفكار "غير اللائقة" في تلك المساحة التي أصبح بإمكانه التحدث فيها بحرية وهو مستتر عن أعين الآخرين. تلك الكلمات التي حتى "أنَّا" احمرَّت منها خجلًا، هي التي لم تظهر قطُّ من قبل أي علامات حياء. كتب يقول: "أشعر أنني منقسم إلى نصفين، أفكاري آثمة، تسيطر على لياليَّ كالوحش الذي لا أعرف كيف أروِّضه؛ حالما يهبط الليل أترك نفسي فريسة لتلك الأفكار، وعندما استيقظ كل صباح أطلب العفو والمغفرة من الله. اكتبي لي مرة أخري، احكي لي أيضًا عن أفكاركِ الآثمة".

غادرت "أنَّا" "كونترادا" ذلك اليوم فيما كانت الشمس تتأهب للمغيب، أطالت التفكير في أثناء رحلة عودتها في أن ذلك الأمر المتعلق بالعفة هو محض هراء حقيقي. ففي عالمها المثالي يمكن للكهنة أن يتزوجوا ويُكوِّنوا أسرة، وأن يعترفوا بحبهم مثل أي إنسان آخر. أليست الكهانة ما هي إلا وظيفة مثل الكثير من الوظائف الأخرى؟

وظلَّت تفكر وقتًا طويلًا في الطريقة التي يمكن أن تستعين بها لمساعدة صديقتها "چوفانَّا". فهي لا تعرف مطلقًا السبب الذي يجعلها تُخفق في "رؤية الكلمات" على حد قولها. فخلال السنوات التي عملت فيها بالتدريس لم تقابل حالةً كهذه قطُّ، لذلك أصرَّت على أن تبحث عن إجابة في الأدِلَّة الطبية المتوفرة في مكتبة البلدية. وعلى الرغم من ذلك لم تعثرْ على الإجابة المنشودة، إذ يبدو أن ما تعانيه "چوفانَّا" هو اضطراب لم يسمعْ به أحدٌ من قبل. إذن لم يعد أمامها سوى أن تثق بغريزتها وتعتمد عليها

في حل المشكلة. قالت لنفسها إنه إذا كان هناك خلل ما في رأس صديقتها يجعلها ترى الكلمات تتزاحم في الصفحة كما لو كانت سربًا من الطيور فإن كل ما عليها فعله هو إبقاء تلك الكلمات ثابتة. لذلك أحضرت "أنَّا" ورقة كرتونية بيضاء مستطيلة الشكل وصنعت فيها نافذة يبلغ عرضها سنتيمترين، وطولها مقدار سطر واحد من كتاب، وذلك باستخدام المقص. وفي اليوم التالي طرقت باب صديقتها ومعها نسختان من رواية "كبرياء وتحامل"؛ كانت إحداهما هي نسختها الشخصية لذا كانت مهترئة من فرط ما أعادتْ قراءتها، أما الأخرى فقد استعارتها من المكتبة.

جلست "أنَّا" في مواجهة "چوفانَّا" وشرحت لها كيف ستجري دروس ما بعد الظهيرة التي ستمنحها إياها والتي شددتْ عليها أنها ستكون من الآن فصاعدًا دروسًا يومية. قالت لها: "أنا سأقرأ بصوت عالٍ وببطء وأنتِ ستتابعين من نسختك ما أقرأه عليكِ، ستعزلين الكلمات عن بعضها، واحدة تلو الأخرى بهذه القطعة الكرتونية. هل ترين تلك النافذة الصغيرة؟ لقد صنعتها خصوصًا لهذا الغرض".

سألتها "چوفانَّا" بدورها وهي تقلب الرواية بين يديها وقد بدا عليها الفزع من حجمها: "لكنْ هل سنقرأها كلها؟".

مد "تشيزاريه" أنفه وأخذ يتشمم الكتاب في فضول.

أجابت "أنَّا": "سوف نرى!".

نظرت "كارميلا" إلى صورتها في المرآة مرة أخيرة. ارتدتْ ثوبًا خاطته خصوصًا من أجل هذه المناسبة، إذ قلدت نموذجًا كانت قد قطعته من مجلة " Eco del Cinema" (صدى السينما). ارتدتْ فستانًا لازورديَّ اللون مزينًا بزهور سماوية، وكان الجزء السفلي من الفستان متعدد الطيات وينسدل حتى ركبتيها، أما كماه فكانا يغطيان ثلاثة أرباع ذراعيها، كما ارتدت حزامًا أبيض يبرز خصرها. اعتمرتْ قبعة الجرس المصنوعة من الصوف والتي كانت من لون الفستان نفسه. وضعتْ

أحمر شفاه ومررت على وجهها طبقة خفيفة من البودرة، وأخيرًا وضعتْ ظرفًا أصفرَ في حقيبتها وغادرت المنزل كأنها في طريقها لتسجيل هدف إثر ضربة حاسمة.

سارت بخطى سريعة قاصدة بيت "كارلو" حيث سلكتِ الشوارع الجانبية كي تتجنب المرور بميدان البلدة الرئيسي، تقدمتْ خلال الفناء المفضي إلى البيت، وحالما أصبحت أمام الباب طرقته وانتظرت.

فتح "كارلو" الباب وهو لا يزال يرتدي منامته. وحالما رأى "كارميلا" أمامه شحب وجهه وسألها: "ما الذي أتى بكِ إلى هنا؟".

أجابته: "انتظرتكَ أن تأتي ولم يحدثْ فأتيتُ أنا لأطمئن عليك، أنا أعرف أن زوجتكَ ليست بالبيت في هذا الوقت. هل يمكنني أن أدخل؟".

أجاب فيما يلقي نظرة من خلف كتفيها إلى الطريق: "طبعًا لا، هل جننتِ؟".

تشنجتْ ملامحُ وجهه من الغضب والتوتر كاشفة عن تجاعيد بجبهته لم تلاحظها قطُّ قبل هذه اللحظة.

استرقت "كارميلا" النظر إلى البيت من وراء الباب فرأت "روبرتو" جالسًا على سجادة ويلعب بحصان خشبي صغير.

أعاد "كارلو" سؤاله في إصرار: "ماذا تريدين؟".

حدقتْ إليه "كارميلا" بنظرة ساخرة ثم قالت: "أنت أكثر الناس براعة في الاختفاء. اختفيتَ قبل اثني عشر عامًا واختفيتَ الآن أيضًا. ما الذي تعتقده أنت، أن على الناس أن يتقبلوا دومًا أمر اختفائك وأن يبقوا لطفاء وصامتين؟ لا، هذه المرة سأتكلم".

أسند "كارلو" يده على إطار الباب وغمغم قائلًا وهو يلقي نظرة أخرى على الشارع: "كارميلا"، كان لهذه العَلاقة أن تنتهي آجلًا أو عاجلًا".

ردَّت عليه "كارميلا": "وكالعادة قررتَ هذا بمفردك بين ليلة وضحاها".

رد "كارلو": "لم يكنْ هناك شيء لنتناقش حوله، بماذا كان سيفيدنا الكلام والنقاش؟".

قالت "كارميلا": "طبعًا، هذا ما اعتدتَ فعله، تأتي وتأخذ ما تريد ثم تقول وداعًا للجميع. لقد فعلت الشيء ذاته مع أبي؛ طلبتَ منه المساعدة ثم لم تفكرْ فيه بعد كل هذا الإزعاج الذي تسببت له فيه".

ردَّ "كارلو": "دعي أمر السيد "تشيتشو" وشأنه، سأهتم أنا بتعويضه عما حدث له بسببي، لا تقلقي".

في تلك اللحظة سمعا خطوات حوافر تطقطق على الأرض المرصوفة بالحصى؛ كانت لبغل يجر عربة على متنها رجل. مرت العربة في الشارع المتعامد مع الشارع الذي يسكنه "كارلو".

قال "كارلو": "لا يمكنكِ البقاء هنا يا "كارميلا".

قالت "كارميلا" باندفاع وبحركة تشي بنفاد صبرها: "سأغادر، سأغادر، لكنْ يجب أن أعطيك هذا قبل أن أرحل". وأخرجتْ ظرفًا أصفر من حقيبتها.

سألها "كارلو": "وماذا يحوي هذا الظرف؟".

أعطتْه إياه ثم قالت: "افتحه".

أخذه "كارلو" ورفع طرف الظرف وأخرج منه ورقة باللون البني الداكن مطوية إلى نصفين. كانت شهادة ميلاد. قرأ "كارلو": "دانييليه كارلا". وفي الأسفل كُتب تاريخ الميلاد: "16 ديسمبر 1924".

سأل "كارلو": "ماذا تعني هذه؟ لماذا أحضرتِ لي شهادة ميلاد ابنك؟".

قالت "كارميلا": "كيف لك أن تكون رجل أعمال وأنت لا تجيد حتى العمليات الحسابية؟"، وفتحتْ أصابعها وأخذت تعد: "أبريل، مايو، يونيو، يوليو، أغسطس.. هل يمكنك أن تكمل العد حتى شهر ديسمبر؟".

تلعثم "كارلو" متسائلًا: "لا أفهم".

قالت "كارميلا": "الأمر ليس صعبًا يا "كارلو" يمكنك فهم ما أودُّ قوله".

سألها "كارلو" بصوتٍ عالٍ: "كارميلا"! ما الذي تقصدينه؟".

توقف "روبرتو" عن اللعب ورفع عينيه نحو أبيه وقال متذمرًا: "أبي، عطشان". استدار "كارلو" لينظر إليه وعلى وجهه علامات ذهول مما قالته "كارميلا" والذي لم يستوعبه في الحال.

قالت "كارميلا" وهي عابسة: "هيا، اذهب واسقِ ابنك". أخذتْ شهادة الميلاد من يده واستدارت في ازدراء متَّكئة على كعب حذائها وابتعدت عن البيت.

فكَّرت "كارميلا" أنه ليس من المهم كم سيغضب "كارلو" من ذلك السر الذي كشفته له ولا حتى كم من الوقت سيبقى غاضبًا، الشيء الوحيد الذي شعرت بأهميته بفعلتها هذه أنها أصبحت على يقين أن "كارلو" من ذلك اليوم فصاعدًا سينظر إليها في كل مرة يقابلها فيها، حتى إن لمحها فقط من بعيد، على أنها أم ابنه، أم ابنه الأول. لن يعود بإمكانه منذ تلك اللحظة أن يتجاهلها، وكان هذا بالضبط كافيًا لها. على الأقل في الوقت الحالي.



قضى "كارلو" الأيام التالية لزيارة "كارميلا" يسيطر على جسده وروحه وهنٌ وضعفٌ غير معهودين.

كابد كي يتذكَّر المناسبات القليلة التي التقى فيها مصادفة "دانييليه"؛ المرة الأولى التي رآه يتجول في البلدة برفقة "نيكولا"، وذلك الصباح عندما مرَّ ببيت السيد "تشيتشو" فوجده يؤدي واجباته المدرسية في بيت جديه، وكذلك عندما رآه يشعل سيجارة سرًّا في الجزء الخلفي من بار "كاستيلُّو" برفقة صديق له، وأيضًا في أحد الفصح حينما التقاه في الكنيسة وسارا جنبًا إلى جنب نحو المذبح. في كل تلك المرات رآه "كارلو" ونظر إليه بشرود كما لو كان يتطلع إلى جماد لا أهمية له.

الآن فقط نجح في أن يفسر لنفسه نظرات محددة كان يرمقه بها السيد "تشيتشو"، كذلك نكاته القصيرة التي اتخذت طابعًا عدائيًّا، وتلك العبارات التي تتركها "كارميلا" مبتورة دون تكملة كما لو كانت مجبرة على ابتلاع بقيتها. شعر

"كارلو" حينما أدرك كل شيء بموجة غضب مفاجئة تسري في صدره. إذن فالسيد "تشيتشو" و"چينا" و"كارميلا" خططوا كل شيء ونفذوه، حرَّكوا خيوط هذه اللعبة طَوال تلك السنوات، ولم يكن هو سوى دمية متحركة. كيف تمكنوا من إخفاء الأمر عليه كل هذا الوقت؟ وماذا عن "نيكولا" هل كان هو أيضًا جزءًا من هذا العرض المسرحي؟ ومن آخر في البلدة على علم بهذا الأمر؟

في أحد الصباحات وقبل أن يذهب "كارلو" إلى كرم العنب، انعطف فجأة في الطريق المؤدي إلى معصرة الزيتون، وغضب شديد يسيطر عليه، وحالما وصل أمام بوابة المعصرة، ضغط أداة تنبيه سيارته بسرعة ودون توقف.

فتح "أنطونيو" البوابة على مصراعيها وقال مازحًا: "لديك طريقة مهذبة ومتحفظة بحق في إعلان قدومك!" ولكنه انتبه إلى الكآبة التي تطغى على ملامح أخيه فصار جادًا على الفور.

قال "كارلو" متعجلًا: "اصعد إلى السيارة، يجب أن نذهب إلى مكان ما معًا".

سأل "أنطونيو": "إلى أين؟".

أجاب "كارلو": سأشرح لك في ما بعد".

تردد "أنطونيو": "لكنْ، هل حدث شيء ما؟ هل عليَّ أن أقلق؟".

أجاب "كارلو": "لا، لكنْ دعنا نذهب الآن".

قال "أنطونيو": "دعني أخبرْ "أنييزيه" أولًا. "دخل "أنطونيو" ثم خرج بعد بضع لحظات وهذه المرة بمعطف مطوي على مرفقه.

حالما ركب "أنطونيو" السيارة ضغط "كارلو" دواسة البنزين وانطلق مسرعًا فأصدرت السيارة صريرًا عاليًا.

سأله "أنطونيو" وهو يتشبث بمقبض باب السيارة: "هل نحن في عجلة من أمرنا؟".

أجاب "كارلو" وقد أبقى يديه جامدتين على عجلة القيادة ونظرته مثبتة على الطريق أمامه: "لا".

فقال له "أنطونيو": "إذن أبطئ سرعتك قليلًا، دعنا على الأقل نصل أحياء".

قاد "كارلو" سيارته حتى إحدى المدارس، ثم أوقف السيارة بجانب الرصيف وأطفأ المحرك. سأل "أنطونيو" في تلك اللحظة: "ماذا سنفعل هنا الآن؟".

فتح "كارلو" "تابلوه" السيارة وأخرج منه سيجارًا، وضعه في فمه وأشعله ثم قال: "الآن سننتظر".

بعد بضع دقائق، وصل "دانييليه" وانضم إلى مجموعة صغيرة من زملائه أمام بوابة المدرسة. صاح "كارلو": "ها هو".

سأل "أنطونيو": "من؟".

أجاب "كارلو" مشيرًا إلى الصبي: "ذلك الصبي هناك، "دانييليه".

سأله "أنطونيو" بتردد: "ابن "كارميلا"؟".

نفث "كارلو" بقوة دخان سيجاره وأجاب: "فعلًا، ابن "كارميلا".

قال "أنطونيو": "لا أفهم ما الذي تنوي فعله يا "كارلو"، هلا شرحت لي لماذا نحن هنا؟"

سأله "كارلو": "هل تراه يشبهني؟".

حدَّق إليه "أنطونيو" مصدومًا من سؤاله وسأله بدوره: "يشبهك؟ ولماذا عليه أن يشبهك".

قاطعه "كارلو" وقال بفظاظة: "انظر إليه جيدًا، هل تجد فيه أي شيء مني؟ أو أي شيء من أسرة "جريكو"؟".

انحنى "أنطونيو" إلى الأمام قليلًا وتفحَّص الصبي خلال الزجاج الأمامي للسيارة وعلَّق أخيرًا: "لا يا "كارليتُّو" حقًّا ليس هناك أي شبه على الإطلاق".

غمغم "كارلو" وعيناه مثبتتان على "دانييليه" الذي كان يضحك مع زميله ويداه مدفونتان في جيبي بنطاله. أعتقد أنه كان من السهل بالنسبة إليها أن تفعل

فعلتها وتخدع الجميع دون أن ينتبه لها أحد خاصة أن الصبي من حسن حظها صورة طبق الأصل من "كارميلا".

استدار "أنطونيو" وحدَّق إليه وقد ارتسمتْ على ملامحه علامات الذهول وسأله: "هل ما فهمته صحيح؟".

نقر "كارلو" بإصبعه السيجار فسقط منه رماد على هيئة أسطوانة صغيرة على الأرض. حرَّك "كارلو" سيارته "الـ508" وتوجه نحو اليمين. همس "كارلو": "العاهرة، أرادت أن تُدفِّعني الثمن".

سأله "أنطونيو": "لكنْ هل أنت متأكد أن هذا صحيح؟".

رد "كارلو": "نعم، التواريخ تتزامن. حدث هذا بيننا عندما أتيت إلى البلدة من أجل حفل زفافك. فيما وضعت "كارميلا" "دانييليه" في ديسمبر".

سأل "أنطونيو": "ومن يعرف بهذا الأمر؟".

رفع الآخر كتفيه وردَّ قائلًا: "على حد علمي، من المؤكد أن والدي "كارميلا" على علم بالأمر. أما عن "نيكولا" فلا أعرف".

سأل "أنطونيو": "هل ستخبر "أنَّا" بالموضوع؟".

أجاب "كارلو": "ماذا تقول؟ هل أنت أحمق؟ طبعًا لا".

تردد "أنطونيو" ثم قال: "ماذا ستفعل إذن؟"

أجاب "كارلو" في الحال: "لا شيء، ماذا يجب أن أفعل؟".

سأل "أنطونيو": "ألستَ خائفًا من أن تخبر هي "أنَّا" بالأمر؟".

سحب "كارلو" نفسًا من سيجاره وأجابه: "لن تفعلها، لقد بنت حياتها كلها على كذبة كبيرة كي تنقذ شرفها وشرف أسرتها، ولن تستطيع الآن أن تدمر كل شيء، هي ليست غبية لهذه الدرجة ثم إن السيد "تشيتشو" لن يسمح لها أبدًا بذلك".

واصل "أنطونيو" أسئلته: "عذرًا، لكنْ لماذا كانت لتخبرك بالأمر؟ ستنتظر منك أن تفعل شيئًا ما، أليس كذلك؟".

أجاب "كارلو": "لا، أرادت فقط أن تعذبني، أنا أعرفها، لكنْ لن يجدي الأمر نفعًا معي؛ فالأطفال أبناء من ربوهم. لذا فهذا الصبي بالنسبة إليَّ هو ابن "نيكولا".

اكتفى "أنطونيو" بأن أومأ له وخفض رأسه. كان "أنطونيو" يعرف أتمَّ المعرفة ما يحدث لأخيه؛ إنه يحاول أن ينأى بنفسه عن المشكلة. أن يشيِّد جدارًا طوبيًّا قوامه اللامبالاة الزائفة ليستتر خلفه وليفصله عن الأمر برمته. دومًا ما كانت هذه هي الطريقة الوحيدة التي يعرفها لحماية نفسه حتى لا تصعقه تقلبات الحياة وصدماتها. فعل ذلك أيضًا مع أمه، إذ ظل يمد الخيط الذي يربطه بها بشكل مفرط حتى إنه لم يعدْ قادرًا تمامًا على رؤيتها.

عندما عادا إلى معصرة الزيتون، أطلق "أنطونيو" تنهيدةً عميقةً وقال لـ"كارلو" بوجه مضطرب إنه هو أيضًا في الحقيقة لديه شيء ليخبره به. قال له: "لقد قررتُ الرحيل يا "كارليتُّو". سأذهب إلى أسمرة مع رجال أعمال آخرين. سأحاول أن أبدأ تجارة زيت الزيتون في المستعمرات، ولكي أفعل ذلك يجب أن أبقى هناك مدةً. أنت أول شخص أخبره بالأمر. سأرحل بحرًا خلال عشرة أيام". أطلعه "أنطونيو" على الأمر برمَّته في نَفَس واحد وبسرعة كما لو كان يلتهم الكلمات، ودون أن ينظر إلى وجه أخيه.

بقي "كارلو" مشدوهًا وعلَّق متسائلًا: "لكنْ هكذا؟ فجأة؟".

أجاب "أنطونيو": "لا، لا، كنت أفكر في الأمر منذ مدة قصيرة".

سأله "كارلو": "ولماذا لم تقلْ لي أي شيء عن رحلتك هذه؟".

قال "أنطونيو": "كانت مجرد فكرة".

ردَّ "كارلو" غاضبًا: "اللعنة على الفكرة! عن أي فكرة تتحدث؟ لقد رتبتَ فعلًا كل شيء، لكنْ أخبرني كم من الوقت ستبقى هناك؟".

رفع "أنطونيو" كتفيه وقال: "لا أعرف، الوقت الكافي للترويج لزيتي هناك. ربما يُخفق الأمر فأعود حينها على الفور، من يعرف".

قال "كارلو" مقطبًا ما بين حاجبيه: "يبدو أنك كنت خائفًا من أن تخبرني بالأمر، وهذا هو السبب الذي كان يجعلك تبدو غريبًا هكذا في الآونة الأخيرة".

شعر "أنطونيو" بنبضات قلبه تتسارع ثم قال: "لا. الأمر أنه لم أكن أعرف كيف ستستقبل الخبر".

قال "كارلو": "حسنًا، لن أخفي عنك سرًّا، أدهشني الأمر حقًّا. لكنْ ماذا عليَّ أن أقول؟ إذا كنتَ تريد أن تفعل هذا وسيجعلك سعيدًا، فأنا أيضًا سأكون سعيدًا من أجلك يا أخي الكبير".

ظهرت على ملامح "أنطونيو" الراحة والهدوء فجأة وسأله: "حقًّا؟".

أكَّد "كارلو": "طبعًا! بل إنه من الجيد أنك تريد أن توسِّع أعمالك".

قال "أنطونيو" مفتعلًا ابتسامة: "فعلًا، ربما أخشى أكثر من رد فعل "أجاتا" و"لورينسا". أظن أنهما لن تستقبلا الخبر جيدًا، ثم إنه، لا أعرف، لكنْ يؤسفني حقًّا أنني سأتركك بمفردك وخاصة الآن بعد ما عرفته عن "دانييليه".

وضع أخوه يده على كتفه وربَّته قائلًا: "لا تُشغَل بأمري، أنا حقًّا على ما يرام. وفي ما يخص "أجاتا" و"لورينسا"، حسنًا، ستتفهمان الأمر". طمأنه "كارلو" وأردف: "وفي حال أنه لم يحدث سأساعدك على جعلهما تتفهمان. إنها مجرد رحلة عمل، لن تبقى هناك إلى الأبد، أليس كذلك؟".

غمر "أنطونيو" إحساس قوي اضطربتْ على إثره ضربات قلبه، لم تكن هناك أسرار بينهما من قبل.

فكَّر حينها "أنطونيو": "إن لم أكن أحبك بهذا القدر حقًّا. إن لم أكن حقًّا كذلك".



في ذلك المساء، عاد "أنطونيو" إلى المنزل عندما كانت الطاولة جاهزة فعلًا. كانت "أجاتا" في المطبخ، ومئزرها الأبيض مربوطٌ حول أردافها الضخمة، وتحرك بملعقة خشبية شيئًا ما داخل وعاءٍ نُحاسي. اقترب منها وسلم عليها

واضعًا يده على ظهرها. طبعتْ زوجته قبلةً سريعةً ورطبةً على خده وطلبتْ منه إحضار "لورينسا" من الأعلى لأن الحَساء كان جاهزًا تقريبًا.

وهكذا صعد "أنطونيو" إلى الطابق العلوي وفتح باب غرفة ابنته برفق. كانت الطفلة تجلس إلى المكتب وترسم بقلم رصاص مبري في إحدى دفاترها. حيَّاها "أنطونيو" قائلًا: "Ma petite".

ضحكت "لورينسا" ضحكةً خافتةً وقالت: "دعوتني كما تفعل العمة "أنَّا". ثم قفزت من فوق الكرسي وركضت نحوه وضمته بقوة.

سألها وهو يداعب شعرها: "هل أنتِ جائعة؟".

رفعت "لورينسا" رأسها وأومأت له فقال لها: " لنذهب إذن، العشاء جاهز. دعينا لا نترك أمك تنتظر".

عادا إلى الطابق السفلي فيما كانت "أجاتا" تُحضِر الحَساء إلى الطاولة. جلسوا؛ ورسمت "أجاتا" علامة الصليب، ورَفَعَتْ كفيها ورددت صلاة شكر للرب، بورعٍ لكنْ على عجلة من أمرها، فلو تركت الحَساء يبرد فسيكون هذا إثمًا حقيقيًّا. نظر "أنطونيو" أولًا إلى زوجته ثم نقل نظره إلى ابنته. في ذلك المساء كان وجهاهما يشعان بهجة. نهضتْ "أجاتا" لتصب الحَساء في طبق "لورينسا" وهي تبتسم. يعتقد "أنطونيو" أن زوجته تبدو مختلفةً عندما تبتسم. وبينما كان "أنطونيو" يراقب "أجاتا" انتابه شعور شديد الوضوح أن هذه المرأة جزء منه، جزء من قصته. هو يكنُّ لها في الواقع حبًّا شديدًا، فهي أم ابنته. إلا أن هناك "لكن". ظهرت تلك الـ"لكن" منذ بداية علاقتهما، ولطالما كانت شاقة ومزعجة بالقدر الذي جعلهما منذ وقت معين فصاعدًا يتظاهران بأنهما لا يرانها.

كانت "أجاتا" هي أول امرأة تقول له: "أحبك". كانت هي من أحبته وأرادته لنفسها وبكثير من العناد نجحتْ في الحصول عليه زوجًا. أما "أنطونيو" فمن جانبه اكتفى بأن يُختَار؛ ففي الوقت الذي تعرَّف فيه "أجاتا" كان أخوه حينها قد

رحل عن البلدة منذ مدة قصيرة، وهو ما أشعره بوَحْدَة رهيبة. بدت له "أجاتا" في تلك الأثناء بديلًا للوَحْدَة. قالت له "أجاتا": "الحب يأتي بالتعلم وأنت ستتعلم أن تحبني، وإلى أن يحدث ذلك سيكون حبي لك كافيًا". ولكنه لم يكفِ، ولم يتعلم هو قطُّ أن يحبها. كان هناك نوع من الاتفاق الضمني بينهما، والذي إذا حدث وأُلغي، كان سيحوِّل حياتهما إلى حطام ستدفن أسفله أيضًا الأشياء الجيدة التي تمكنا، على الرغم من كل شيء، من بنائها معًا.

كان "أنطونيو" يدرك أن الكلمات التي أوشك أن يتفوه بها ستحطم زجاج اللوحة التي بدت، في تلك اللحظة بالذات، في غاية التوافُق، مثل لوحات أمه الريفية المعلقة على كل جدار في المنزل. ثوانٍ قليلة وسيطفئ تلك البسمة التي ارتسمتْ على وجهيْ زوجته وابنته، ستنقبض ملامح وجهيهما، وستتصلب عضلاتهما إثر ما سيسمعانه. وعلى الرغم من ذلك لم يستطع أن يشعر حقًّا بالذنب. أو على الأقل ليس بالقدر الذي كان يتصور أن يكون عليه.

وهكذا ذرف "أنطونيو" الكلمات دفعة واحدة على الطاولة. تخشبتْ "أجاتا" في مكانها ثم وضعتِ الملعقة على منديل المائدة المجاور لطبقها وأخفت يدها أسفل الطاولة، وسألته بصوت منهار بعد مدة صمت طويلة: "وكم من الوقت ستبقى هناك؟".

أجاب زوجها: "ما سيحتاج إليه الأمر من وقت".

قالت "لورينسا": "لكنْ يا أبي إفريقيا بعيدة جدًّا".

غمغمت "أجاتا": "إنها عالمٌ آخر حقًّا".

سألته "لورينسا": "ألا يمكنكَ أن تصطحبني أنا وأمي معك؟".

أمسك "أنطونيو" بيد ابنته محاولًا طمأنتها مستعينًا بكلمات "كارلو" كأنها كلماته هو الخاصة؛ وأخبرها أنها في النهاية مجرد رحلة عمل وأنه لن يبقى هناك إلى الأبد.

اعترضتْ "لورينسا": "ولكنك لديك فعلًا عمل هنا. لماذا تحتاج إلى عمل آخر؟".

تذمرتْ "أجاتا" قائلة: "كيف سنتصرف من دونك؟ ماذا سأفعل أنا إذا حدث للطفلة أي شيء؟".

أجاب "أنطونيو": ولماذا يجب أن يحدث شيء ما".

سألت "أجاتا": "لكنْ هكذا فجأة ستغادر بعد عشرة أيام دون أن أعرف أي شيء عن الأمر". ثم أضافت: "وهل "كارلو" و"أنَّا" يعرفان عن هذه السفرة؟".

أجاب "أنطونيو" قائلًا: "لقد أخبرتْ "كارلو" بالأمر وأعتقد أن "أنَّا" قد تكون على علم الآن هي أيضًا".

تحركت "لورينسا" في كرسيها قلقةً ومضطربةً وقالت: "أبي، لا تذهب!".

غمغمت "أجاتا": "استمع على الأقل لما تطلبه منك ابنتك، ألا تريد أن تولي اهتمامًا لما تقوله هي حتى".

صاح "أنطونيو" وهو يحاول طمأنتها: "سأعود قريبًا"، ثم داعب "لورينسا" وأضاف قائلًا: "وأعدكِ أن أكتب إليكِ كل أسبوع".

سألته هي بدورها بنظرة حزينة للغاية: "هل تقسم على ذلك؟".

أجاب "أنطونيو": "نعم أقسم".

قالت "أجاتا" ببرود: "لا تقسم". ثم نهضتْ وأخذتْ طبقها الذي كان لا يزال يتصاعد منه البخار إلى المطبخ.

✉✉

أخذ "أنطونيو" حقيبته الجلدية البُنية في صباح يوم 22 يونيو ووضعها بجانب باب البيت. أطلَّ من باب المطبخ حيث كانت "أجاتا" بعينيها المنتفختين من أثر البكاء تصفِّي الرماد من وعاء الماء الضخم حيث غلته، وها هي تضع الماء المصفَّى في وعاءٍ لتستخدمه لاحقًا في غسل شعرها وشعر ابنتها. أحسَّ "أنطونيو" إحساسًا غامضًا امتزج فيه الحنين بالحنان، وعلى الرغم من ذلك لم يستطعْ قول أي شيء. عاد إلى الصالون، ورفع الحقيبة، وأغلق الباب من خلفه.

سار حتى بيت "كارلو" إذ إنه هو من سيقله بسيارته "الـ508" إلى ميناء "بريندييزي".

كانت "أنَّا" هي من فتحت لـ"أنطونيو" الباب. ألقت عليه أولًا نظرة ثم على الحقيبة في يده وقالت: "صار "كارلو" جاهزًا تقريبًا".

قال "أنطونيو": "لا داعي إلى العجلة، أنا من وصلتُ باكرًا".

عَقَدت "أنَّا" ذراعيها وأطلقتْ تنهيدة ثم سألته: "هل سنلتقي قريبًا؟".

رفع "أنطونيو" عينيه وحدَّق إليها بشدة في صمت. احمرتْ وجنتا "أنَّا" وأشاحت بنظرها عنه. وصل "كارلو" في هذه اللحظة لاهثًا تفوح منه كالعادة رائحة عطر ما بعد الحلاقة المحتوي على "مِنتول"، صاح مبتسمًا: "هأنا ذا يا أخي الكبير".

توجها نحو السيارة، ووضع "أنطونيو" حقيبة سفره في صندوق السيارة فيما كانت "أنَّا" واقفة عند الباب تراقب كليهما بنظرة يصعب تفسيرها. ثم اكتفت في النهاية بقول: "رحلة سعيدة" لـ"أنطونيو" ثم دخلتْ إلى منزلها دون أن تمنح "أنطونيو" الوقت الكافي ليرد عليها.



9
يوليو – أكتوبر 1936

أُقيم حفل زفاف "تومَّازو" في أحد أيام الآحاد من شهر يوليو في كنيسة "سان لورينسو". كان الحفل بسيطًا وحميميًّا. أوضح المدير أنه يفضل أن يكون الزفاف بهذا الشكل مقتصرًا على مجموعة صغيرة من الحضور. كان من الضروري الحذر وعدم إرهاق القلب الضعيف لمحبوبته "چوليا" بشكل كبير. لكنْ لم يكن من السهل كبح ذلك الفضول الذي سيطر على سكان البلدة لإلقاء نظرة خاطفة على فستان

العروس، وهو السبب الذي جعل مجموعة من النساء الفضوليات النمامات، خاصة العجائز منهنَّ، يصطففن منتبهات عند مخرج الكنيسة، منتظرات ظهور عريسي البلدة الجديدين. تعرفت "أنَّا" من بين الحضور "چوزيبِّينا" التي حالما انتبهت إليها حيَّتها ملوحة لها بيدها بابتسامة كبيرة. قالت "أنَّا" بحنان محدثة نفسها "تلك المرأة تبدو دومًا سعيدة برؤيتي". لاحظت "أنَّا" بعد لحظة وجود اثنين من الميليشيا التطوعية للأمن القومي، "القمصان السوداء"، يتقدمان لتقديم التهاني لصهري "تومَّازو". وبدا وجود شيء من الألفة والحميمية بينهم. أصبحت نظرتها قاسية حالما رأتهما، حدَّقت إليهما بغضب وتساءلت بينها وبين نفسها: "هل من الضروري أن يرتديا أيضًا تلك القمصان السوداء اللعينة في حفل زفاف؟".

كان فستان "چوليا" الذي صممته وخاطته "كارميلا" ناعمًا ذا طابع رومانسي بأكمام طويلة وفتحةٍ عنق فضفاضة تنسدل في ثنيات ومحاطة بلآلئ صغيرة، وهي اللآلئ نفسها التي زينت التاج الذي ارتدته على شعرها الأشقر الطويل. وكانت تمسك بباقة من أزهار "الكالا" بين يديها. بدأت الهمسات الخاصة بحفل الزفاف تتلاحق خلال ميدان البلدة الرئيسي بأكمله: "يا للأناقة، تبدو حقًّا كالأميرات!"، و"لطالما كان لتلك الفتاة سحر وجاذبية"، "وا أسفاه على صحتها، تلك المخلوقة المسكينة".

كانت عينا "تومَّازو" مضيئتين ومتلألئتين كمياه البحر على الشاطئ في صباح يوم صيفي. شكَّلت خصلات شعره الموجة، والتي تصلَّبت وتجمدت من فرط ما دهنها بدهان تلميع الشعر، ما يشبه التاج. لم يمتلكْ أحد الشجاعة ليلمح إلى أن العروسين لم يكونا حقًّا عاشقين سعيدين، مع أنَّ هناك في قلب الميدان من كان يراهن على أن عمر تلك السعادة سيكون قصيرًا.

غادر "تومَّازو" و"چوليا" في اليوم التالي لقضاء شهر العسل على ساحل "أمالفي". سيبقون هناك أسبوعًا واحدًا فقط. سيحل "كارمينيه" محله مديرًا

لمكتب البريد خلال سفره، واختير "كارمينيه" ليس فقط بسبب الأقدمية، لكنْ أيضًا لأنه كان الرجل الوحيد في المكتب.

مع حرارة الصيف، تخلت "أنَّا" عن زيها الشَّتْوِي وارتدت زيًّا آخر خفيفًا من القطن الأزرق ذا أكمام قصيرة، وتوقفت عن ارتداء الجوارب السوداء السميكة، وهو ما منحها ارتياحًا كبيرًا. وهذا ما انتبه له "كارمينيه" على الفور ووبَّخها بشأنه قائلًا: "أنتِ تمثلين هيئات البريد الملكية لذا لا يمكنكِ التجول عارية الساقين هكذا كما ولدتك أمكِ".

أجابته "أنَّا" وهي تملأ حقيبة بريدها بالمراسلات: "أقسم لك إنني سأعاود ارتداءها شرط أن تأتي غدًا أنت أيضًا مرتديًا تلك الجوارب".

انفجرت "كيارا" ضاحكةً وغطَّت فمها بيدها، فيما قطبت "إيلينا" ما بين حاجبيها، ووضعتْ يدها على ساقيها، إذ منَّت نفسها بأن تصرفًا بسيطًا كهذا كان يستحق تحذيرًا من المدير المؤقت. ولكنَّ "أنَّا" لم تنظر إليها حتى.

في ذلك الصباح اكتشفت "أنَّا" أنه سيقام حفل زفاف آخر قريبًا؛ سيكون حفل زفاف "أنچيلا" ونجارها المخلص. عندما طرقتْ باب الفتاة لتسلمها هذه المرة ظرفًا أبيض، لم يُذكر اسم مرسله، وذلك بدلًا من الطرد المعتاد. لم تستطعْ "أنَّا" أن تغفل وجود خاتم ذهبي ذي ماسة صغيرة في إصبعها. قالت لها "أنچيلا" فجأة بعينين لامعتين: "أنتِ تعلمين أنكِ كنتِ جزءًا من هذه القصة، وعندما سأحكيها لأبنائي في المستقبل لن يمكنني ألا أذكر ساعية البريد الجميلة التي كانت تحمل لي هدايا أبيهم كل يوم اثنين". ثم أضافت أنها في اليوم التالي لحفل زفافها ستنتقل إلى "ليتشي" حيث البيت الذي ابتاعه لهما زوجها المستقبلي، والذي يقع على بعد خطوات قليلة من متجر عمله، وأنها تشعر حقًّا بأسف شديد كونها لن تراها مرة أخرى. اكتفتْ "أنَّا" بالابتسام لها وهي تشعر بقليل من الإحراج. ثم أخرجت من جيب سترتها الصغير بطاقات العمل التي تحمل اسمها وأعطتْ واحدةً منها إلى الفتاة وقالت لها: "لتريها لأبنائك في المستقبل".



استمرَّت دروس "چوفانَّا"، إذ كانت "أنَّا" باستثناء يوم الأحد تذهب إلى "كونترادا" كل يوم تقريبًا من الساعة الرابعة إلى الساعة السادسة بعد الظهر. وكما كانت "أنَّا" تأمل، انعكست على الفور طبيعة "چوفانَّا" الرومانسية على قراءتها للرواية؛ وفي كل صفحة كانت "چوفانَّا" ترى فيها اسميْ "إليزابيث" والسيد "دارسي" الساحر مجتمعين معًا كانت تقفز من مكانها. لقد حفَّزها الفضول لمواصلة القراءة. إذ كانت تودُّ أن تعرف أكانا سيتزوجان أم لا. فكان يحدث دومًا في الآونة الأخيرة وبشكل متكرر أن تواصل "چوفانَّا" القراءة بمفردها بعد انتهاء الدرس. في البداية كانت تتقدم في القراءة بمقدار عدد قليل من السطور وبعد شهرين صارت قادرةً على قراءة صفحة بأكملها بمفردها. أما عن تعلم الكتابة فكان أكثر مشقة بكثير من تعلم القراءة بالنسبة إليها. بدأت "أنَّا" تجعلها تكتب البطاقات البريدية للسيد "چوليو"، إذ كانت تجلس إلى جوارها وتنطق لها كل كلمة. وعندما تكون الرسالة التي تريد أن تكتبها طويلة كان الأمر يستغرق منهما أيامًا.

أخبرها السيد "جيوليو" في البطاقة البريدية الأخيرة التي أرسلها أنه سيأتي إلى الجنوب في النصف الثاني من شهر أغسطس لزيارة أقاربه، وسيسعده كثيرًا أن يلقاها من جديد. وأوضح أنه يفترض أنها هي أيضًا ترغب في رؤيته.

أما عن الخطاب الأول لـ"أنطونيو" فقد وصل مع اقتراب ليلة عيد القديس "لورينسو" بالتزامن مع "ليلة الشهاب". في ذلك الصباح وحالما قرأت "أنَّا" اسم المرسَل إليه وعنوانه "لورينسا جريكو"، 43 شارع "بالاديني"، "ليتسانيلُّو" (ليتشي)، إيطاليا، شعرت في تلك اللحظة بأنفاسها وقد حُبِسَتْ داخل صدرها. قلبتِ الظرف ورأت اسم المرسل. نعم، إنه "أنطونيو"، ها قد كتب أخيرًا بعد صمت دام أسابيعَ منذ رحيله.

فكَّرت "أنَّا" أن تفتح الظرف وتقرأ الخطاب قبل الجميع؛ فهي تعرف كيف ترفع غطاء الظرف ثم تعيد إغلاقه مرة أخرى ليبدو سليمًا كأنه لم يمس. بقيت

"أنَّا" واقفة بضع دقائق أمام الطاولة الكبيرة لمكتب البريد تحدق في حيرة وتردُّد إلى الظرف وإلى خط "أنطونيو" الدقيق والأنيق.

كانت دقات ساعة مبنى البلدية التي أحدثتْ صوتًا معلنة الساعة التاسعة كافيةً لتنتزعها من تفكيرها إذ شعرت كأنها تلقت لطمةً فهزَّتْ رأسها وقالت لنفسها: "كيف حتى تخيُّل أن أفعل ذلك؟"، ثم سرعان ما أعادت وضع الظرف في حقيبتها البريدية.

فتحت "أجاتا" الظرف ممزقةً إياه من أحد جوانبه وأخرجت رسالتين؛ واحدةً قصيرةً لها وأخرى أكثر طولًا بكثير لابنتها "لورينسا". مررتْ بسرعة عينيها اللتين بدتا ظمئتين على كلام زوجها ثم ألقتْ بنفسها على الكرسي كأنَّ قراءة الخطاب أنهكتها وعلَّقت قائلة: "على الأقل لا يزال هذا البائس حيًّا يرزق".

لقد توترت أعصاب "أجاتا" كثيرًا من عدم وصول أي أخبار عن زوجها حتى وصلت بها الحال إلى مرحلة الانهيار. إذ عندما كانت تخرج من بيتها كانت تخبر الجميع أنها تعتقد أن زوجها قد مات أو غرق في البحر الأحمر. لذا أخذتْ تتصرف كامرأة مكلومة كونها أصبحتْ أرملة حديثًا. أما في البيت فكانت تستشيط غضبًا لأتفه الأسباب وكان هدفها المفضل هو "لورينسا" إذ أخذت تصب عليها جام غضبها في كل شيء تفعله أو لا تفعله، كألا ترتب سريرها، أو أن تتأخر بضعَ دقائق بعدما تناديها، أو أن تنسى فنجان اللبن على الطاولة بعد أن تُنهي فطورها. كان كل هذا يثير في "أجاتا" غضبًا أعمى، أقل شيء تفعله الطفلة كان كافيًا لجعلها تنفجر غاضبة. أما عن "لورينسا" فكل مرة وبَّختها فيها أمها كانت تخفض رأسها وعيناها تدمعان ثم تطبق شفتيها بقوة كي تحبس دموعها. سألتها "أنَّا" باذلةً أقصى جُهْدها كي تستخدم نبرة صوت هادئة: "ماذا كتب؟ هل هو على ما يرام؟".

طوتْ "أجاتا" الرسالتين ودستهما في جيب فستانها وأجابت في استياء: "إنه بخير. أما أنا وابنته فنعاني هنا الأمرَّين بسببه". ثم اختتمتْ حديثها فيما تنهض من الكرسي متنهدةً: "لكنْ لا أحد يهتم لأمرنا أو يفكر فينا".

لاحت على وجه "أنَّا" تعابير تشي بخيبة الأمل وقالت محاولة أن ترد على حديث "أجاتا": "حسنًا، نحن هنا دومًا، لستما بمفردكما إطلاقًا يا "أجاتا".

علَّقت "أجاتا" فيما تدير لها ظهرها: "مواساة لطيفة".

هزَّت "أنَّا" رأسها واتجهت نحو الباب.

أضافت "أجاتا" دون أن تلتفت إليها: "آه، هو يبلغكما أنتِ و"كارلو" تحيته".

في ذلك اليوم وعقب الغداء مباشرة وصلت "لورينسا" لاهثة إلى بيت عمها وزوجته ممسكة بخطاب أبيها في يدها. صرختْ "لورينسا" قائلةً وهي تركض نحوهما: "لقد وصل يا عمة!".

جفل "روبرتو" الذي كان نائمًا على الأريكة من صراخ "لورينسا" واستيقظ من نومه. ابتسمتْ لها "أنَّا" وقالت: "أعلم ذلك، كنتُ أنا من سلَّمه إلى أمكِ".

جلس "كارلو" إلى الأريكة مسترخيًا بجانب ابنه الذي استدار إلى الناحية الأخرى وعاد إلى نومه في الحال، ودعا الطفلة لقراءة الخطاب: "هيا، اقرئيه!".

جلست "لورينسا" إلى جانب عمِّها فيما ظلت "أنَّا" واقفة على قدميها عاقدةً ذراعيها. فتحتِ الطفلة الخطابَ ممسكةً به بأطراف أصابعها كما لو كان ورقة من الكريستال وشرعت تقرأه بصوتها الصغير بنبرة قوية.

حبيبتي وعزيزتي "لورينسا"،

هأنا ذا أخيرًا. أعلم أنني تأخرتُ وأن تأخيري لا يُغتفر، ولكني أؤكد لكِ وجود أسباب أكثر من وجيهة منعتني عن الكتابة لكِ قبل ذلك. لكم يؤسفني أن حدث وفكرتِ أنني لم تكن لديَّ رغبة في الكتابة لكِ ويؤلمني تخيُّل أنكِ شعرتِ بأنكِ صرتِ في طي النسيان بالنسبة إليَّ. ولكنَّ أكثر ما يشعرني بالخجل حقًّا هو أنني لم أفِ بقسمي الذي أقسمته قبل سفري بالكتابة لكِ أسبوعيًّا. أعترف أنني قطعتُ هذا الوعد باستهانة وبلا اكتراث

دون أن تكون لديَّ أدنى فكرة عن الحال التي سأجدها هنا عند وصولي. لذلك فأنا أعتذر لكِ يا ابنتي من أعماق قلبي، هل لكِ أن تسامحيني؟

إن أباكِ بخير وعلى ما يرام. لقد أقمتُ في فندقٍ صغير لطيف ومريح يُدعى "بيت الإيطاليين" ويمكنني أن أرى من نافذة غرفتي دار الأوبرا التي تعد في ذاتها تحفةً معماريةً! أتدرين؟ أظن أنها كانت لتعجبك كثيرًا. فعند مدخل دار الأوبرا توجد نافورة على شكل صَدَفة محاطة بدرجين مهيبين يؤديان إلى الرواق الداخلي للمبنى. حضرتُ بالمناسبة عرضًا الأسبوع الماضي لمسرحية بعنوان "لا أحد يعرف كيف حدث ذلك" لـ"بيراندللُّو". لقد أحببتُ ذلك العرض كثيرًا وظللتُ أفكر فيه أيامًا. عندما أعود سأصحبكِ إلى المسرح فلقد صرتِ الآن كبيرة بما يكفي لتشاهدي عروضًا مسرحية.

إن مدينة أسمرة في تطوُّر وتوسُّع مستمرَّين. لقد تواصلتُ فعلًا هاتفيًا مع العديد من أصحاب المطاعم والفنادق المحلِّية الصغيرة التي أزورها يوميًّا لأعرض على المسؤولين فيها منتجي من الزيت وأذيقهم إياه. وهناك مطعمان في شارع "إيطاليا" وهو الشارع الرئيسي للمدينة طلبا مني أن أرسل إليهما كمياتٍ إضافية من الزيت في الأشهر المقبلة. أليس هذا خبرًا جميلًا؟ أتمنى أن تكوني سعيدة بهذا الخبر مثلما أنا سعيد به. لا أعرف متى سأعود؛ فلا يزال هناك الكثير من العمل الذي عليَّ إنجازه هنا في هذه المدينة.

سأحاول أن أكتب لكِ بشكل متواصل، لكنْ عليكِ في الوقت نفسه أن تحكي لي كيف تقضين صيفكِ، هل ذهبتِ إلى البحر؟ ما الكتب التي تقرئينها هذه الأيام؟

حاولي أن تكوني فتاةً مطيعة وألا تغضبي أمكِ.

أحبكِ،

أبوكِ

علَّق "كارلو" عند انتهاء "لورينسا" من القراءة وهو يفرد ذراعيه وينهض من مكانه: "حسنًا، يبدو لي أنه على ما يرام".

بقيت "لورينسا" جالسة ورأسها منحنٍ على الخطاب الذي لا تزال تمسكه بقوة بين يديها. سألتها "أنَّا" فيما تقترب منها: "هل ضايقكِ شيء ما يا صغيرتي؟".

نفخت الطفلة متسائلة: "ماذا يقصد بقوله إنه لا يعرف متي سيعود؟".

أجابها عمُّها مواسيًا إياها: "يعني أن أعماله تسير في مسارها الصحيح. لا تقلقي، سيعود مع بداية الدراسة حاملًا إليكِ هدية كبيرة وجميلة، سترين!".

جلست "أنَّا" إلى جوارها وضمَّتها إليها. همست لها قائلة: "سيكون كل شيء على ما يرام، دعينا نفعل شيئًا ما بدلًا من القلق، لتبقي معنا وتتناولي العشاء برفقتنا هذا المساء، ونعدُّ "البيستو" معًا". ثم أنهت حديثها قائلة بابتسامة: "أنا أحتاج إلى مساعدتي المفضلة".

رفعت الطفلة عينيها فجأة ونظرت إليها في سعادة. ولكنَّ تلك السعادة سرعان ما انطفأت وسألت بطريقة خائفة تقريبًا: "سندعو أمي أيضًا إلى ذلك العشاء، أليس كذلك؟".

تدخل "كارلو" قائلًا: "طبعًا!"، ثم أضاف في سرور: "دعونا نحتفل معًا الليلة بأول عملية بيع أجراها أبوكِ".



في صباح اليوم التالي، غادرت "أنَّا" المنزل مبكرًا عن المعتاد؛ في تلك الساعة لم تكن حتى جارتها التي تكنس الرصيف باكرًا موجودة. وتوجهت بسرعة إلى مكتبة البلدية. مرَّت خلال الميدان الذي كان لا يزال خاويًا من الناس، باستثناء "ميكيليه" الذي كان يُنزِل بِطيخًا كبيرًا من إحدى العربات. أسرعتْ "أنَّا" الخُطى وتسللتْ إلى المكتبة خلال بابها المفتوح. سألت "أنَّا" أمين المكتبة اللطيف الذي يجلس وراء المنضدة أكانت هناك بالمصادفة نسخة من مسرحية "لا أحد يعرف

كيف حدث ذلك". بدا الرجل مترددًا وسألها عن مؤلف تلك المسرحية. فأجابت: "لويچي بيراندِيلُّو".

نهض الرجل حينها من كرسيه وتوجه إلى القسم المخصص للمسرح. انتظرت "أنَّا" عشر دقائق بدوا طوالًا للغاية قبل أن يظهر أمين المكتبة مرة أخرى والمجلد بين يديه. طَوال الصباح، وبينما كانت "أنَّا" تنتقل من منزل إلى منزل، وتفرغ تدريجيًّا حقيبتها البريدية موزعةً الخطابات على أهالي البلدة، لم يكنْ بإمكانها التفكير في أي شيء سوى الكتاب الذي أعطاها إياه أمين المكتبة وتتساءل عن السبب الذي جعل "أنطونيو" يكتب في خطابه لابنته أنه أحب تلك المسرحية كثيرًا، سيطر الفضول على عقلها لدرجة أنها لم تعدْ قادرة على التوقف عن التفكير في الأمر. كانت تتوق إلى الجلوس على مقعدها الخاص في حديقتها السرية لتقرأ المسرحية.

ظلَّت "أنَّا" تقرأ بنهم وبلا توقف من بعد ظهر ذلك اليوم وحتى ساعة العشاء في حديقتها التي اختلطت ألوان أشجارها وثمارها في ذلك الوقت بلون الشفق. تروي مسرحية "بيراندِيلُّو" قصة رجل كان يضاجع زوجة أقرب أصدقائه، بعدما سيطرت عليه عاطفة لم ينجحْ في التحكم فيها. إلا أنه بدأ يعاني أزمةَ ضمير رهيبةً. إذ تزايد شعوره بالندم على هذا الفعل الحقير، الذي أقدم عليه متبعًا ومستسلمًا لغريزته، لدرجة أن الرجل أراد أن يخضع لعقاب على فعلته هذه بأي ثمن.

فقط عندما وصلت "أنَّا" إلى الصفحة الأخيرة من المسرحية وأغلقت الكتاب، أدركتِ السببَ الحقيقيَّ والخفيَّ وراء مغادرة "أنطونيو". فهو مثله كمثل بطل تلك القصة؛ هو أيضًا بحث لنفسه عن عقاب ووجده في هروبه منها ومن "كارلو" في أبعد مكان ممكن.



بدأتِ الدراسةُ من جديد في نهاية شهر سبتمبر إلا أن "أنطونيو" وعلى الرغم من توقعات "كارلو" المتفائلة لم يعد إلى إيطاليا. أرسل إلى "لورينسا" بضعة أسطر يتمنى لها فيها بداية جيِّدة ويحثها على الاجتهاد في دراستها وعلى أن

تصبح أكثر تفوقًا. أما عن عودته فلم يكن هناك ولا حتى وعد زائف باقترابها. كانت "لورينسا" على وشك أن تبدأ دراستها في المدرسة الثانوية التأهيلية التي ستستمر خمسَ سنوات والتي ستسمح لها بالالتحاق بالثانوية الكلاسيكية التي ستستمر بدورها ثلاث سنوات ومنها إلى الجامعة؛ الحلم الذي تمناه "أنطونيو" لابنته منذ ولادتها. بينما كان "كارلو" يقل "لورينسا" إلى مدرستها في "ليتشي" بسيارته "الـ508" في يومها الدراسي الأول، كانت الطفلة تنظر إلى خارج النافذة بحزن، وهي تفكر في أن عدم عودة أبوها ليرافقها في مناسبة مهمة كهذه يعني أن ذلك الحلم لم يعدْ يمثل له أي شيء على الإطلاق.

بدأتْ "لورينسا" تقضي وقتَ ما بعد الظهيرة كل يوم في بيت عمها وزوجته. كان الوضع في بيتها غير محتمل، إذ بدا كأن الهواء الذي يحيط بـ"أجاتا" صار مسممًا وأنها تتنفسه بملء رئتيها فقط كي تصبَّه على ابنتها. لقد أصبحتْ حتى الطريقة التي تمضغ بها "لورينسا" الطعام وقت الغداء والعشاء تثير غضبَ أمها واستياءها. كانتْ تُكرر عليها بنبرة غاضبة: "ألا تريدين أن تتوقفي ولو مرة واحدة عن إثارة كل ذلك الضجيج في أثناء الأكل؟ تناولي طعامك كفتاة مسيحية وليس كحيوان!". في تلك اللحظة كانت تتسارع دقات قلب الطفلة فيما تكابد كي تمضغَ طعامها بهدوء مغلقةً فمها بقوة.

ثم كانت مسألة الواجبات المدرسية خاصةً بعد ما تبيَّن أن واجبات المدرسة الثانوية التأهيلية مرهقة بشكل مبالغ فيه وتحتاج إلى وقتٍ ومجهود. لم تكن "أجاتا" فقط لا تعرف كيف تساعد ابنتها، ولكنها أيضًا لم يكن لديها حتى أدنى اهتمام بمحاولة مساعدتها. كانت تقول لها مُتأففة: "لو كان القرار لي لكنتُ وجدت لكِ عملًا". ثم تضيف: "إن فكرة الذَّهَاب إلى المدرسة الثانوية التأهيلية هي فكرة أبيكِ والآن أبوكِ ليس هنا، ولا أحد يدري متى سيعود، فتدبري أمركِ!".

تعيَّن على "أنَّا" طبعًا مساعدة "لورينسا" في دراستها، ومن حسن الحظ لم يكنْ لديها ما يشغلها في وقت ما بعد الظهيرة يوميًّا تقريبًا، خاصة أن "چوفانَّا" الآن أصبحتْ تتدبر أمرها بمفردها بصورة جيدة للغاية في القراءة. وكم تأثرتْ عندما قبلت "إليزابيث" أخيرًا عرض الزواج الذي قدَّمه لها "دارسي" في الرواية التي كانتا تقرآنها معًا.

كانت أوقات ما بعد الظهيرة التي يقضيانها معًا تغمر كلتيهما بالبهجة والسعادة. تساعدها "أنَّا" في واجباتها ثم تراجعها وتصححها لها، وتُعِدُّ لها وجبةً خفيفةً من الخبز والمربى مع عصير الرمان، وفي بعض الأمسيات كانت تجعلها تتحمَّم في مياه أضافت إليها بتلاتٍ من "صابون مارسيليا" وتظل تفرد لها شعرها مدةً طويلةً.

لم يكنْ هناك سوى شيء واحد فقط هو ما يفسد مزاج "أنَّا" ويجعلها تستشيط غضبًا في أثناء مساعدتها لـ"لورينسا" في دراستها، وهو ما تجده في كتبها المدرسية من إعلاء من شأن الفاشية وتمجيدها؛ كلمات وعبارات تخرج أمامها فجأة خصوصًا في واجبات مادة اللغة الإيطالية.

في ظهيرة أحد الأيام قالتْ مندفعةً وهي تلقي نظرة على عناوين المواضيع التي على "لورينسا" أن تختار من بينها لكتابة مقال عنها: "هذا أمر لا يمكن قبوله!"، ثم قرأت بنبرة غنائية بطيئة: "كوني أحد أعضاء منظمة "الفتيات الإيطاليات الصغيرات" دعيني أسألكِ عن أكثر ما يثير إعجابكِ من بين الإنجازات الفاشية، انطلاقًا من معركة "ڤيتُّوريو ڤينيتو" وحتى مظاهرة "الزحف إلى روما" دون أن نغفل كذلك معركة "شهيد وبطل" التي جرتْ أحداثها في الحرب الإيطالية الإثيوبية الأخيرة؟"، ثم سألتِ الفتاةَ: "أنتِ تعرفين أن الفاشية نظام خاطئ، أليس كذلك؟".

خفضتْ "لورينسا" رأسَها وتمتمت بنبرة متشككة بعض الشيء: "مممم، مممم".

قالت "أنَّا": "كان أبوكِ ليقول لكِ الشيءَ ذاته إن كان هنا".

حاولت الطفلة أن تردَّ معترضة: "ولكنَّ "الدوتشي موسُّوليني" يروق لمعلمتي".
أجابتها "أنَّا" على الفور: "معلمتكِ هذه معتوهة حقيقية".
نظرتْ إليها الطفلة نظرةً مرتبكةً وقالت: "ولكنَّ الجميع في المدرسة يحبون "الدوتشي".
قالت "أنَّا": "إذا أحب الجميع شيئًا ما فهذا لا يعني أنه صحيح أو يستحق الإعجاب".
تنهَّدت "أنَّا" وقالت وكابدت كي تبقى أكثر عقلانية: "هذه الأحاديث التي تدور بيننا يجب ألا تخبري بها طبعًا معلمتكِ أو أي شخص آخر، هل فهمتِ؟".
سألت "لورينسا" متذمِّرة: "اسمعي يا عمة، هل أبي لا يزال هناك لأنه لم يعدْ يرغب في البقاء مع أمي؟".
ازدردتْ "أنَّا" ريقَها وترددت مدةً طويلةً قبل أن تصيح وهي تداعب وجنةَ الطفلة: "ما هذا الذي تفكرين فيه؟ أنتِ تعرفين أن أباكِ هناك من أجل العمل، وهو يفعل ذلك من أجلك أنتِ أيضًا، بل إنه يفعل ذلك لكِ أنتِ خصوصًا قبل أي شخص آخر".
قالت "لورينسا": "ولكنني لم أطلبْ منه هذا".
ردتْ "أنَّا": "سيعود قريبًا يا صغيرتي، لا تقلقي".
سألتِ الطفلةُ: "وكيف لكِ أن تعرفي هذا؟".
فأجابتها العمة: "أنا أعرف أباكِ". وبينما كانت "أنَّا" تتفوه بهذه الجملة سألتْ نفسها أكان ما قالته للطفلة حقيقيًّا فعلًا.



في صباح أحد الأيام الأخيرة من شهر أكتوبر خرجت "چوفانَّا" من الباب الخشبي لمكتبة البلدية حاملةً تحت ذراعها نسخة من رواية "التربية العاطفية" لـ"فلوبير". فكَّرت في كم القصص التي فاتتها خلال تلك السنوات التي قضتها مقتنعةً أنها ليست قادرةً على القراءة، لكنْ ها قد تبدَّل الوضع تمامًا بفضل عناد "أنَّا" الذي كان كافيًا

ليبرهن لها خطأ اعتقادها الذي لازمها لسنوات. لذا أرادتِ الآن أن تعوِّض الوقتَ الذي أضاعته، وأن تلتهم القصص واحدة بعد الأخرى إلى أن تصاب بعسر هضم! لا تزال طبعًا ترتكب أخطاءً كثيرةً خاصةً عندما يتعين عليها الكتابة، لكنْ أصبحت الآن النافذة المصنوعة في الورقة الكرتونية التي أعطتها لها "أنَّا" مجرد ذكرى بعيدة.

مرت "چوفانَّا" من أمام الصبي الصغير الذي يبيع الجرائد ووقعتْ عينيها على عنوانٍ مكتوب في جريدة: "لاجادزيتَّا ديل ميدزوچورنو" فقرأتْ بصوت مسموع: "وقَّع أمس "تشانو" و"فون ريبتروب" تحالفًا بين إيطاليا وألمانيا". لم تكنْ "چوفانَّا" تفهم كثيرًا في السياسية إذ لطالما وجدتها شيئًا مملًا للغاية، وعلى الرغم من ذلك بدا لها أن إعلان التحالف هذا لم يكن ينذر بأي شيء طيب على الإطلاق. في تلك اللحظة ظهرت "أنَّا" من خلف كتفيها، وبدت رائعة في زيها الشَّتْوِي الأزرق وقالت: "مرحبًا يا صديقتي! ماذا أخذتِ من المكتبة، دعيني أرى!".

عضَّت "چوفانَّا" على شفتيها وأعطتها الكتاب.

قالت "أنَّا" صارخة تقريبًا: "آه، لقد استمعتِ لنصيحتي! تعدُّ هذه الرواية تحفةً أدبيةً، سترين هذا بنفسك! لم يتمكن أحد من الحديث عما يصاحب الحب من توقعات وكيف تتحطم تلك التوقعات أفضل من "فلوبير". ثم نظرتْ إليها "أنَّا" وفي عينيها لمحة مرارة وأسف.

خفضتِ الأخرى نظرتها واستعادتِ الكتاب منها وغمغمت: "سيأتي في الصيف المقبل، أشعر أنه سيفعلها هذه المرة، أعلم أنكِ لم تعودي تصدقين وعوده، ولكنكِ سترين أنه سيأتي".

أومأت لها "أنَّا" في عدم ارتياح.

قالت "چوفانَّا": "سأذهب أنا الآن، هل أنتظر أن تأتي إليَّ في ما بعد؟ هل ستحضرين رمانًا من حديقتكِ كي نصنع عصيرًا؟".

أجابت "أنَّا": "طبعًا!".

وبينما كانت صديقتها تبتعد، لم تستطعْ "أنَّا" أن تتجاهل الصوتين الأنثويين اللذين كانا يتمتمان في المقعد الواقع خلفها. سألتْ إحداهما الأخرى: "ألم تكنْ تلك المرأة حمقاء جاهلةً؟ كيف بدأتْ تقرأ الآن؟ "ردتِ الأخرى: "لا تصدقي هذا. إنها تتظاهر فحسب. عندما تضل إحداهنَّ طريقها لا يعد بالإمكان تقويمها".

أخذتْ "أنَّا" نفسًا عميقًا، واستدارتْ وسارتْ مسرعةً باتجاه المرأتين وحالما أصبحتْ أمامهما مباشرة حتى حيَّتها إحداهما قائلةً: "أوه، صباح الخير أيتها السيدة ساعية البريد".

قالت "أنَّا" حينها: "أنا لا أرى أيَّ حمقاوات هنا سواكما". ثم استدارت في ازدراء متكئةً على كعب حذائها وابتعدت عنهما غير مبالية بما بدا على وجهيهما من تعابير غير مصدقتين لما سمعاه، فيما علقتِ المرأة الثانية وهي تهز رأسها: "ما هذه الشخصية السيئة التي تتحلى بها تلك الأجنبية!".



ظلتِ الأشهرُ تنقضي بسرعة واحدًا تلو الآخر، وكان محتملًا جدًّا أن يمر المزيد دون أن يفكر "أنطونيو" في العودة لو لم ترسل إليه "أجاتا" تلك البرقية في اليوم الأخير من شهر أكتوبر.

"لورينسا" مريضة. يجب أن تعود عاجلًا إلى البيت.

لذلك حزم "أنطونيو" حقيبته بسرعة وردَّ على زوجته ببرقية أعلن فيها عودته إلى إيطاليا، ثم غادر البلاد بين ليلة وضحاها. عندما رُفِعَتْ مِرساة الباخرة استعدادًا للإبحار من ميناء أسمرة بقي "أنطونيو" واقفًا على سطح الباخرة يحدق إلى المدينة التي أخذ حجمها يصغر ويتضاءل تدريجيًّا كلما ابتعدتِ الباخرة. بدا لـ"أنطونيو" فجأةً في تلك اللحظة أن كل ما حدث له خلال تلك الأشهر كأنه حدث لشخص آخر، لرجل عاش هناك وحاكَ أكاذيب بدلًا منه. ثم بينما كانتِ الباخرة تشقُّ طريقها خلال مياه البحر الأحمر أدرك "أنطونيو" أن قدمَه لن تطأ إفريقيا

مرة أخرى أبدًا، وأن ألمه لم يقل على الإطلاق، بل على العكس، وهو ما أدركه فعلًا قبل مدة من مغادرته أسمرة. وعند عودته سيكتشف أن ألمه لا يزال كما هو، قويًّا لا يرحم ويأبى أن يتوقف عن نخر روحه.

لدى عودته اكتشف أن "لورينسا" لم يكنْ بها أي شيء سوى ارتفاع طفيف في درجة الحرارة، وأنها قد تعافتْ فعلًا قبل أن يصل حتى إلى إيطاليا بوقت طويل. قالت "أجاتا" لنفسها: "لقد كذبتُ، حسنًا، ما المشكلة؟ كانت نواياي طيبةً على أيِّ حال. على الأقل نجحتْ كذبتي في إعادته إلى البيت".



10
صيف 1937

في ذلك العام بدا أن فتيات البلدة العازبات قد اتفقن على الاحتفال بزفافهنَّ معًا، إذ تحولت باحة كنيسة "سان لورينسو" بين بداية الربيع ونهاية الصيف إلى سجادة قوامها حبوب الأرز التي تناثرت على العرائس الجدد، فمع توالي حفلات الزفاف لم يكن أحد يهتم بالتنظيف بين حفل وآخر.

ازداد عمل "كارميلا" ثلاثة أضعاف. فالفستان الذي خاطتْه العام الماضي من أجل "چوليا" والذي حظي بإعجاب الكثيرين أدى إلى زيادة دخل محل الخياطة الذي صارت العرائس المستقبليات تقطعه جيئة وذَهَابًا يتطلعن إلى فستان أحلامهنَّ مرددين: "ليكن مثل فستان ابنة مالك الأراضي". عاشت "كارميلا" أسابيعَ محمومةً، إذ كانت تستيقظ في الرابعة فجرًا وتُعِدُّ أكبر إبريق قهوة لديها يحوي ما يعادل ستة فناجين، تشرب منه شيئًا فشيئًا كي يكفيها إلى أن يحين وقت الغداء. وعلى الجانب الآخر من الباب الذي يفصل البيت عن محل الخياطة كان "دانييليه" و"نيكولا" يغُطان في ذلك الوقت في نوم

عميق كما لو كانا قالبيْ طوب، فيما كانت هي تخَطُّ مرتديةً ثوب نومها باتروناتٍ تصاميم بشكل متواصل ودون توقف حتى يحين موعد فتح محلها. كانت تحتفظ طَوال الوقت بنسخة من مجلة "موضة مصورة" مفتوحةً أمامها على الطاولة وهي المجلة التي تستلهم منها تصميماتها الخاصة.

في بعض الأحيان، ومع أول ضوء للفجر كانت "كارميلا" تسمع وقع أقدام ابنها على الدرج، حيث يمر بالمطبخ ثم يتوقف أمام باب محل الخياطة. يطل من الباب بشعره الأشعث مرتديًا سرواله الداخلي وقميصًا داخليًّا أبيضَ دون أكمام. يقترب منها ويجلس بجوارها بهدوء مسندًا رأسه على ذراعيْه المتشابكتيْن على الطاولة ويظل يراقبها بانتباه وفضول، فيما قلم "كارميلا" الرصاص يرقص على الورقة راسمًا صدرياتٍ مطرزةً، وأذيالَ فساتين ناعمةً، وأكمامًا شفافة. ذات صباح قال "دانييليه" لأمه فجأة: "أمي، لا أريد الذَّهَاب إلى المدرسة بعد الآن، أريد أن أعمل مثلكِ".

توقَّفت "كارميلا" عما تفعله وظلَّ قلمها معلقًا في منتصف الهواء لحظاتٍ ثم وضعتْه ببطء على الطاولة وسألته: "ماذا تعني بأنك لا تريد أن تذهب إلى المدرسة بعد الآن؟".

خفض "دانييليه" رأسه وأجاب بصوت خافت: "أفضل العمل معكِ".

أجابت "كارميلا": "هذا لا يمكن أن يحدث".

تردَّد الابن لحظةً ثم قال: "ولمَ لا؟".

قالت أمه: "هل تسألني حقًّا؟ أنت ذكر وإذا أردت حقًّا أن تترك المدرسة وتبدأ بالعمل لن أمانع، لكنْ عليك أن تعمل كرجل".

نظر إليها "دانييليه" في خيبة أمل وقال: "دعيني أجرب على الأقل، أنا أيضًا أرسم فساتين في دفتري، هل تريدين رؤيتها؟".

صاحتْ "كارميلا" بقسوة: "لا، لا أريد أن أرى أي شيء. الخياطة ليست للذكور، إذا كنت تريد أن تعمل الآن، فسأجد لك عملًا ولا أريد أن أسمع مزيدًا من هذا الهراء. أما الآن فلتذهب من هنا، لدي ما أفعله".

اضطربتْ "كارميلا" لهذا الطلب غير المتوقع من ابنها، أزعجها وشتت ذهنها بقيةَ النهار. "يا إلهي، ما الذي خطر على باله، رجل خلف ماكينة الخياطة؟ وبدأ أيضًا يرسم فساتين!"، اتَّصف ابنها بأنه شخص حساس ورقيق للغاية. فمع أنَّه ليس ابن "نيكولا" الشرعي، فإنه كبر وورث الشخصية الناعمة المرهفة نفسها التي تتمتع بها أسرة "نيكولا". كان عليها أن تتصرف بسرعة وتفعل شيئًا ما لتجعله يتخلى عن تلك الأفكار الغريبة، لذا ذهبت لتتحدث عن الأمر مع والدها وطلبت منه أن يجد لحفيده عملًا، إذ قالت بنبرة مأساوية حزينة: "تلزمه وظيفة من تلك الوظائف التي تتطلب مجهودًا بدنيًّا وإلا فسوف ينتهي به الأمر مرتديًا تنورة!".

رد السيد "تشيتشو" بهدوء: "اطلبي من والده أن يجد له عملًا".

ابتسمت "كارميلا" ابتسامةً صغيرةً ساخرة وقالت: "نيكولا" بالكاد يعمل".

ردَّ أبوها: "ولكني أقصد أباه الحقيقي".

نظرت إليه "كارميلا" مصدومة وسألته: "مع كامل احترامي لك يا أبي، لكنْ هل جننتَ أنت أيضًا؟".

رفع السيد "تشيتشو" كتفيه وقال: "ولمَ لا، هل تعرفين كم شخصًا يريد العمل في كرم عنب "جريكو"؟".

سألته ابنته بغرور: "أخبرني إذن! ما العمل الذي عليه عمله هناك؟، هل سيعمل عبدًا لدى هؤلاء؟ على جثتي أن أرسله لتتسخ يده بالعمل في أرض "جريكو".

أوضح السيد "تشيتشو" فاتحًا ذراعيه: "الأيادي تتسخ ثم تُغسل، ستُدار هناك أموال كثيرة، فهو يصرف على أرضه هذه ببذخ، ألا تريدين أن يأخذ ابنكِ على الأقل جزءًا من هذه الأموال".

سألت "كارميلا" وقد انتابها فضول مفاجئ: "وكيف سيأخذ ابني هذا الجزء؟ فذلك الرجل لا يدين لنا بأي شيء".

نهض السيد "تشيتشو" من كرسيه وأخذ غليونه من فوق الرف الذي يعلو المدفئة، وأشعل غليونه بهدوء، وسحب منه نفسه الأول. بقي صامتًا ثوانيَ قليلة ثم قال بهدوء: "أنتِ يا ابنتي تقللين من قوة رابطة الدم وقدرتها".

قاطعته "كارميلا" وقالت بغضب عارم: "عن أي رابطة دم تتحدث؟ لا يهتم ذلك الرجل على الإطلاق بأمر "دانييليه"، تظاهر بأنه لم يفعلْ أيَّ شيء. اختفى ونسي الأمر. هذا هو أسلوب "كارلو جريكو" هل هذه أول مرة نعرفه فيها؟".

وبَّخها السيد "تشيتشو" قائلًا: "لقد أخطأتِ في إخباره بالأمر، كنتِ متهورةً وحمقاء ككل الإناث، لكنْ لما كنتِ قد أخبرتِه بكل شيء فعليكِ أن تستغلي الموقف، ضعي ابنه أمام عينيه، يجب أن يراه كل يوم، يجب أن يتغير الوضع عما هو عليه الآن، فهو بالكاد يعرفه. يمكنه أن يبدأ عاملًا بسيطًا، فهو لا يزال صغيرًا، لم تنبتْ له حتى شعرتان في ذقنه. وبعد ذلك سترين، دعي الوقت يفعل كل شيء".

حدَّقت إليه "كارميلا" وسألته في تشكك: "سأرى ماذا؟ هل تعتقد أنه سيترك له كرم العنب؟"، وانفجرت في ضحكة بها قدرًا من المرارة.

أجابها السيد "تشيتشو" بجدية فيما ينفث سحابة من الدخان: "نحن نعرف جيدًا أنه لا يمكن بالتأكيد أن يترك له كرم العنب، لكنْ سيترك له في النهاية شيئًا ما ولن يكون هذا جزءًا صغيرًا أبدًا، ثقي في ما أقوله لكِ، أنا أعرف كيف تجري هذه الأمور. الدم يفوز دائمًا".

نظرتْ إليه "كارميلا" نظرةً ثاقبةً، وقالت: "لتطلب أنت منه أن يوفر له عملًا". ثم أضافتْ بحزم: "لن أذهب لأتوسل إليه".

كان "كارلو" موجودًا في كرم العنب خاصته يتجول محنيَ الظهر بسيجار في فمه كي يراقب المزارعين المشغولين بعملية "التقليم الأخضر" التي تجري في فصل الصيف. في شهر سبتمبر سيجني "كارلو" الحصادَ أخيرًا. لم يعدْ "كارلو" يطيق صبرًا؛ كونه ظل ينتظر هذه اللحظة ثلاث سنوات. كان الملصق الذي سيحمل اسم ماركة النبيذ وشعارها التي سيطلقها "كارلو" قد صُمِّم فعلًا، ومن بين الاقتراحات العدَّة التي عرضها عليه الرسام اختار الملصق الذي يحمل صورةَ وردةٍ متفتحةٍ ذات لون أحمر ناصع.

استقام "كارلو" وكان يتَمَطَّى حينما انتبه لوصول السيد "تشيتشو". حيَّاه "كارلو" ملوِّحًا له بيده وكان مدهوشًا قليلًا من تلك الزيارة المفاجئة. قال له: "السيد "تشيتشو" يا لها من مفاجأة! هل جئتَ إلى هنا مشيًا على الأقدام في هذا الجو المشمس؟ لم تكنْ بحاجة إلى أن ترهق نفسك هكذا". قالها بنبرة لطيفة لم تكنْ تخلو من الحيرة والارتباك.

أجابه "تشيتشو" قائلًا إنه لم يصبحْ بعد شيخًا هالكًا، ثم دعاه إلى التجول بين صفوف العنب. أخبره أنه انتابه فضول لإلقاء نظرة على الكرم والتأكُّد من أن العمل يسير على ما يرام.

لذلك توغَّلا داخل الكرم معًا. كان السيد "تشيتشو" ينظر حوله بتركيز وانتباه ويتوقف بين الحين والآخر ليعطي نصائحَ لبعض العمال، فتراه يقول لأحدهم: "لا تقترب بمقصك كثيرًا من برعم التاج، ولا تقطع أوراقًا بالقرب منها، واتركْ مسافةَ سنتيمترين على الأقل". ثم قال لآخر: "انزعْ هذه الأوراق فهي تلقي بظلالها على عنقود العنب وتحجب عنه أشعةَ الشمس".

قرَّر السيد "تشيتشو" الحديثَ عمَّا جاء من أجله فقط عندما صارا بعيدين بما فيه الكفاية عن العمال. عندما أصبحا وسطَ صفوف النباتات الواقعة في نهاية الكرْم

التي لم يقربها العمال بعد، أشعل "كارلو" سيجاره واستمع للسيد "تشيتشو" فيما يغلب عليه شعور امتزج فيه التوجس بالاستياء، وأخذ ينقل ثقل جسده بين قدميه.

أشار السيد "تشيتشو" موضِّحًا: "يحتاج هذا الصبي فقط إلى اكتساب الخبرة ومعرفة معنى العمل الشاق كي تكون له بنية جسدية وشخصية قويتين، ولكي يكون رجلًا بحق، خاصة أنك تعرف طبيعة أبيه "نيكولا"، وأكد: "نيكولا" لا يستطيع أن يعلمه هذه الأشياء كما يجب".

شعر "كارلو" فجأةً بساقيْه تتجمدان وحاول أن يرد معربًا عن اعتراضه فقال: "لكنْ لماذا هنا تحديدًا، فهناك الكثير من كروم العنب الأخرى".

تقدَّم السيد "تشيتشو" بضع خطوات، ووضع يديْه في جيبي بنطاله، ثم استدار مولِّيًا له ظهره وأكَّد قائلًا: "كان أبي، رحمه الله، يقول دائمًا إن لا شيء أسوأ من الجحود في هذا العالم".

عاجله "كارلو" مؤكدًا: "لكنكَ تعرف أنني شاكر لك لما قدمته لي من مساعدة يا سيد "تشيتشو".

استدار السيد "تشيتشو" وثبَّت نظره على "كارلو"، ثم قال وهو يمد ذراعيه مشيرًا إلى الكرم: "إذن فإن ما أطلبه منك الآن هو نظير الخدمة التي أسديتها إليك. فهل تريد أن ترفض طلبي؟".

مرَّر "كارلو" يده بين خصلات شعره المبللة بالعرق، ثم وضع يديه حول وسطه ووجَّه نظره نحو الأفق بوجه متوتر ومقطب، ثم غمغم معلنًا هزيمته أمام إصرار السيد "تشيتشو": "إذا كان هذا ما تريده".

قال السيد "تشيتشو" بابتسامة صغيرة: "جيد، سأرسله إليك صباح الغد". وتأهب كي يعود أدراجه عندما تحرَّك "كارلو" فجأةً وبسرعة، ووقف أمامه وقال بنبرة واثقة هذه المرة: "اسمحْ لي بكلمة أخيرة، أتمنى ألا تقلل من شأني بالقدر

الذي يجعلك تعتبرني غبيًّا. حفيدك سيكون بالنسبة إليَّ مثله كباقي العمال الآخرين، مجرد عامل يحمل لقب "كارلا".

نظر إليه السيد "تشيتشو" وقال متهكِّمًا: "إنه طبعًا يحمل لقبَ أبيه. هل من المفترض أن يحمل لقبَ شخصٍ آخر غيره؟".



كان ذلك هو الصيف الذي لم تعدْ فيه "لورينسا" طفلةً. حالما رأت سيلَ الدماء يتساقط على ساقيها بدأتْ بالصراخ في ذعر، قالت لها "أجاتا" بعدما لحقت بها في الحمام: "لماذا تصرخين؟ إنها الدورة الشهرية. لقد أصبحتِ آنسة الآن. مبارك عليكِ". ووضعتْ بين يديها كومةً من قطع قطنية انتزعتها من ملاءة بيضاء قديمة، وأوضحتْ لها كيف ترتديها داخل سروالها الداخلي وأوصتها باستبدالها كل ساعتين على الأقل وشرحتْ قائلةً: "وإلا ستصبح رائحتك كريهة، وستتسبب في ابتعاد الناس عنكِ". ثم بدأتْ تسرد لها كل تلك التصرفات والسلوكيات التي عليها تجنبها بأقصى ما يمكنها في "أيام الدماء" كألا تجازف بلمس النباتات والزهور، وإلا فإنها ستجف وألا تقرب عجينة الخبز وإلا فلن يخُمر، وألا تلمس الخمر وإلا سيصبح خلًّا".

عندما أخبرتْ "لورينسا" "أنَّا" بكل هذه الأشياء انفجرتْ "أنَّا" ضاحكة حتى البكاء. اكفهرَّ وجه الطفلة من رد فعل زوجة عمها فسألتها: "لماذا تسخرين مني؟".

أجابتْ "أنَّا": "أنا لا أسخر منكِ أنتِ مطلقًا! هل أنتِ واثقة أن أمكِ قالت لكِ حقًّا هذه السخافات؟".

أجابت "لورينسا" وهي تخفض نظرها: "واثقة".

قالت "أنَّا": هذه مجرد تُرَّهات، لا تلقي لها بالًا ولا تصدقيها".

قالت "لورينسا": "لماذا كانت لتخبرني بها أمي إن كانت هكذا حقًّا؟".

ردتْ "أنَّا": "هذه مجرد معتقدات عتيقة ليس لها أي أساس من الصحة. تعالي معي، سأثبتُ لكِ صدقَ كلامي". أخذتْها من يدها وسحبتْها نحو الحديقة وأمرتها: "المسي ريحاني هذا".

تراجعت "لورينسا" تلقائيًّا خطوة وقالت: "يا عمة، لا أريد".

فردتِ العمة: "لا تجادلي والمسيه! هيا! اقتربي!".

اقتربتْ "لورينسا" بخطواتٍ مترددةٍ من شجيرة الريحان. كرَّرتْ "أنَّا" بإصرار: "هيا، المسيها كي تري بنفسكِ أن لا شيءَ على الإطلاق سيذبل". ثم أضافتْ بنبرةٍ مرحةٍ قائلةً: "بل إننا أيضًا بعدما سننهي تجربتنا هذه هنا سننزل إلى الأسفل حيث خزانة التخزين. تعرفين عن أي خزانة أتحدث أليس كذلك؟ تلك حيث يحتفظ عمك بزجاجات النبيذ. سنذهب إلى هناك وسنلمس كل الزجاجات".

✉✉

وفي فترة حيض شهرية أخرى اكتشفت "لورينسا" مع نهاية عامها الأول في المدرسة الثانوية التأهيلية أنها لم تحصل على نتائج كافية في مادتي اللغة اللاتينية واليونانية وعليها أن تخضع لاختبار آخر في شهر سبتمبر.

علَّقتْ "أجاتا" على هذا الخبر وهي تلوِّح بالتقرير المدرسي الخاص بابنتها أمام عينيْ "أنطونيو" قائلة: "أرأيتَ؟ حصلتْ أيضًا بالكاد على علامات مقبولة في المواد الأخرى. لقد أخبرتكَ من قبل أنه من الأفضل أن نرسلها إلى مدرسة التدريب المهني. لكنْ متى استمع أحد لما أقول؟".

كانت الطفلة جالسةً في يأس وحزن على الأريكة الخضراء تستمع لحديث أمها مطأطئة الرأس ومشبكةً ما بين يديها. ردَّ "أنطونيو" بهدوء قائلًا: "سأجد لها مدرسًا خاصًّا يساعدها في الدراسة". ثم أضاف: "ستنجح، يمكنها فعل ذلك". وجَّه "أنطونيو" ابتسامةً لابنته، لكنْ كان الفراغ هو مصير تلك الابتسامة.

انتاب "أنطونيو" منذ اليوم الأول لعودته من إفريقيا شعور بأنه ضيف غير مرغوب فيه في بيته الخاص.

لم يجد "أنطونيو" أذرعًا ممدودة تستقبله وترحب به سوى ذراعيْ أخيه "كارلو" الذي بدا سعيدًا حقًّا برؤيته من جديد. أما "أجاتا" فقد نفتْه في الحال إلى غرفة مكتبه وحكمتْ عليه بالنوم على الأريكة هناك معلِّلة قرارها: "لقد تركتَني شهورًا أنام وحدي في هذا الفراش، والآن أريد أن أواصل نومي فيه بمفردي". أملتْ "أجاتا" عليه قرارها هذا دون أن تنظر حتى إلى وجهه وحينها –ودون أن ينبسَ هو ببنت شفة– اكتفى بإخراج ملاءاتٍ نظيفةٍ من الخزانة ووسادة مهترئة لا يزال ينام عليها إلى الآن. لم يمرَّ يوم منذ عودته دون أن توجِّه له زوجته نكاتٍ مسمومةً وكلماتٍ لاذعةً تُذكِّره بما فعل من هجره إياها وابنته. فكانتْ تقول له فيما تحضِّر أطباق الطعام إلى الطاولة: "عليك أن تشعر بالرضا عن الطعام الذي نصنعه ها هنا". وإذا حدث وتأخَّر "أنطونيو" في معصرة الزيتون ووصل متأخرًا على العشاء كانت تستقبله زوجته وهي تقول بنبرة ساخرة: "يعتقد هذا أنه لا يزال هناك ويعيش في فندق". وعندما أخبر "لورينسا" بأنه سيصحبها لمشاهدة أحد العروض في مسرح "بوليتياما" في "ليتشي" عَّلقت "أجاتا" في انزعاج: "كأنَّك أُصِبْتَ هناك بجنون المسرح". في كل مرة تتحدث فيها عن إفريقيا كانت تكتفي دومًا بالإشارة إليها بـ"هناك" وهي عابسة، كان "أنطونيو" يسعى في كل مرة ليردَّ عليها بهدوء ولطف، ولكنَّ هذا التصرف بدلًا من أن يهدئ "أجاتا"، كان يجعلها تستشيط غضبًا أكثر.

لكنَّ أكثر ما آلمه هو التغيُّر الشديد الذي طرأ على ابنته "لورينسا". فكلما تلاقتْ نظرَتاهما كانت الطفلة تخفض عينيها فجأة؛ لم تعدْ تركض نحوه حين يعود من عمله؛ بدت كأنها تقيس كل كلمة قبل أن تتفوَّه بها، كما لو كانت تعيش في خوف دائم من أن ترتكب خطأ ما. كان أكثر ما شعر بالألم من أجله قبل كل

شيء هو توقُّف "لورينسا" عن التعليق بـ"جميلٌ جدًّا للغاية" عندما ترى شيئًا جميلًا يثير إعجابها، بل إنها توقَّفتْ عن الحماس تجاه أي شيء.

انتبه "أنطونيو" –وهو ما بعث في نفسه شيئًا من الندم– إلى مدى تأثير غيابه في حياة زوجته وابنته، إذ تشكلتْ بينهما هوة لم تنجح محاولاته في سدِّها. استمرتْ تجارة الزيت مع أسمرة بضعة أشهر فقط؛ إذ ظلَّت متواصلةً حتى اليوم الذي أُعيدت فيه شِحنات الزيت التي كان قد أرسلها، وهو ما حدث في نهاية فصل الشتاء، وأُلحِقَتْ تلك الشِّحنة المُعادة برسالة طويلة حملتها "أنَّا" إلى مكتبه.

بقيت "أنَّا" واقفةً على قدميها تحدِّق إليه بنظرة مستفهمة في انتظار أن يفتح الظرف. أدرك "أنطونيو" في تلك اللحظة أن هذه أول مرة يبقيان فيها وحدهما منذ عودته من إفريقيا، فكل المرات السابقة التي التقيا فيها كان هناك أحد أفراد الأسرة حاضرًا، باستثناء بعض المزاحات الودودة لم يدُرْ بينهما أي حديث حقيقي. وعلى الرغم من ذلك كان كافيًا أن ينظر من جديد إلى عينيها الخضراوين ليدرك أنه لا يوجد مفر منها، حتى لو كان أي مكان بعيد. دخلت "أنَّا" في صلب الموضوع مباشرةً وقالت: "لقد قرأتَ طبعًا اسم المرسل. من هي "ليديا"؟".

أشاح "أنطونيو" بنظره وغمغم قائلًا بأنها صاحبة أحد المطاعم التي كانت تجمعه بها تجارة الزيت. قالت "أنَّا": "أنت كاذب".

سألها في ارتباك: "لماذا تتحدثين معي بهذه الطريقة البغيضة؟".

ضغطت "أنَّا" عليه: "هل هذه هي المرأة التي لم تكنْ تريد العودة من أجلها؟ أهذه هي السبب الذي جعلكَ تهجر ابنتكَ؟ هل لديك فكرة عن حجم المعاناة التي عاشتها "لورينسا"؟".

صاح "أنطونيو" في استياء: "أنا لم أهجرْ أحدًا!".

ردَّت "أنَّا" قائلة: "كن صادقًا يا "أنطونيو".

تنهَّد "أنطونيو" الذي جلس على الكرسي القريب من النافذة وأخذ ينظر إلى الخارج مغمضًا عينيه جزئيًّا، ذهبت "أنَّا" لتجلس على الكرسي المقابل له وعقدتْ ذراعيها وقالت: "تكلَّم، أنا أسمعك".

أجاب "أنطونيو" بصوت منخفض: "ليس هناك شيء".

اعترف هو أنه تعرَّف سيدةً تدعى "ليديا" في اليوم الذي وصل فيه إلى أسمرة. كان يتضور جوعًا لدى وصوله إلى المدينة لذا اتجه إلى أول مطعم وجده في شارع "إيطاليا" وهناك قابل "ليديا" للمرة الأولى. هي ابنة شابة لمستوطنين إيطاليين من مدينة "البندقية" الإيطالية كانا قد انتقلا إلى العاصمة الإريترية في عام 1930 وافتتحا مكانًا ضمَّ مسرحًا ومطعمًا في الوقت ذاته، وأطلقا عليه اسم "البندقية الصغيرة" يرتاده على الأغلب مهاجرون إيطاليون. كانت "ليديا" تعمل نادلةً في مطعم والديها، أتمَّت حينئذٍ لتوِّها عامَها الثاني والعشرين، وكانت تتمتع بجمال نادر وشعر أشقر طويل ومجعد ووجه يكسوه النمش وابتسامة عريضة وصادقة.

قاطعته "أنَّا" وقد بدا عليها الاهتياج بعض الشيء: "هل أحببتها؟".

حدَّق إليها "أنطونيو" في حيرة وأجاب وهو ينهض من كرسيه: "أحببتها؟ ماذا تقولين، لم يكنْ هناك حب، على الأقل من جانبي، لقد أخبرتكِ فعلًا أنه ليس هناك شيء يجمعني بها".

طبعًا لم يقصَّ عليها "أنطونيو" بقية الحكاية ولن يرويها لأحدٍ أبدًا ولا حتى لأخيه. لقد تصرف مع هذه الفتاة بشكل سيئ للغاية، والآن يشعر بالخجل من نفسه ومما فعله معها. استطاع إغواءها مساءً تلو الآخر بما كان يلقيه عليها من قصائد لشعراء لم تسمع بهم من قبل. أوقعها في حبه بفضل أبيات الشعر التي كان يلقيها على مسامعها، وانتهت به الحال –كحيوان جائع– إلى انتزاع كل ما منحته إياه "ليديا" بتلقائية ودون تفكير؛ بدءًا من جسدها الطفولي وملمس بشرتها الناعم التي لم يمسها رجل من قبل، وإلى ما أعقب ذلك من حب غير

مشروط. إن العشق الذي منحته إياه تلك الفتاة -التي لم يشعر "أنطونيو" تجاهها إلا بشعور مُشوَّش وغامض بالحنان- انتهى به الأمر إلى أن أصبح بمنزلة بلسمًا للجرح العميق الذي سببته له تلك القبلة الوحيدة التي شاركها مع "أنَّا". عندما أصبح "أنطونيو" بعيدًا عن وطنه بآلاف الكيلومترات أدرك أن بإمكانه أن يكون الشخص الذي يودُّه دون أن يشعر بأي ألم أو يعاني أيَّ جرح. لذا لم يلزمْه سوى وقت قصير للغاية حتى يحصل لنفسه على هُويَّة جديدة ويصير في أعين الجميع الخطيبَ الرسميَّ لـ"ليديا". في تلك الرقعة من العالم لم يكنْ "أنطونيو" متزوجًا ولم تكنْ لديه طفلة، ولم يكن يحب بلا أمل زوجة أخيه. كان فقط رجلًا بلا أسرة أتى إلى أسمرة لجني الأموال. ولم يكنْ أحدٌ ليتمكن من تكذيبه. لذلك عقد وعودًا كثيرة لخطيبته لن يتمكن أبدًا من الوفاء بها والتزم اتفاقاتٍ مع والديها كان يعرف فعلًا أنه لن ينفذها. لقد فعل كل ذلك وبنى قلعة الأكاذيب تلك فقط كي يحافظ على شعور الارتياح الذي بدأ يختبره في تلك الأثناء، وكي يبقي على مدة الراحة التي تمكَّن من اقتطاعها من ذلك الألم المتواصل الذي كان يستنفذ روحه. كان يعرف أنه سيحطم قلبها بسفره المفاجئ هذا.

علَّقت "أنَّا" منزعجة: "أرجو فقط على الأقل أن تكون تلك المرأة تستحق تلك التضحية".

رد "أنطونيو": "إن افترضتُ صدق ظنك هذا، فما الذي يهمك في الأمر؟".

لم تجبْه "أنَّا".

سألها "أنطونيو" بعد لحظات قليلة من الصمت مباغتًا إياها: "لماذا توقفتِ عن تصفيف شعركِ على هيئة جديلة؟".

كان شعرها الطويل شديد السواد ينسدل بنعومة وبحرية على كتفيها. في البداية صوَّبت له "أنَّا" نظرة مدهوشةً ثم أجابته قائلة: "يعجبني هكذا أكثر".

قال "أنطونيو" مبتسمًا: "أنا أيضًا يعجبني هكذا، لا تعقديه بعد الآن".

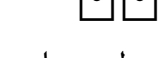


كلما قابل "دانييليه" "كارلو" لدى وصوله أو مغادرته كرم العنب كان يحييه قائلًا: "صباح الخير يا سيد "كارلو"، و"وداعًا يا سيد "كارلو". كان "كارلو" يردُّ على تحيته بالمثل رافعًا ذقنه فيما ينتابه شعور طفيف بالإحراج، ثم يدير له ظهره على الفور، ويبدأ بالحديث مع شخص آخر.

في الحقيقة وخلال الأيام الأولى لعمل "دانييليه"، كان "كارلو" يأمل أن يعطيه الصبيُّ أيَّ سبب لطرده من العمل؛ ولم يكنْ حتى السيد "تشيتشو" ليعترض لو تبيَّن أن حفيده لا يصلح لشيء، وكان ذلك سيزيح العبءَ عن كتفيه. رؤيته كل يوم، بهذا الوجه الطيِّب النظيف وهاتين العينين ذاتيِ الرموش الطويلة اللتين تنضحان رقةً وحنانًا، جعلتْ من الصعب عليه للغاية مواصلة الاستماع لعناده ومقاومته.

على الجانب الآخر، أثبت "دانييليه" للجميع أنه عامل لا يكلُّ ولا يتعبُ، بل إنه نال كذلك محبةَ جميع زملائه في العمل – فخلال استراحة منتصف النهار كان هناك دومًا عمال آخرون يقولون: "تعالَ هنا أيها الشاب!"، ويعرضون عليه نصفَ شطيرتهم، كان الصبيُّ يتعلم بسرعة ويؤدي ما يُوكل إليه من مهام باجتهاد غير عادي لصبي في مثل عمره.

تبين لــ"كارلو" مع الوقت أن الصبي، وعلى الرغم مما قاله السيد "تشيتشو" عنه، يعرف فعلًا كيف يتدبر أموره كرجل، وهو ما جعله يشعر في الوقت نفسه بإحساس غامض بالفخر.



حضر إلى مكتب البريد في 9 أغسطس ساعي البريد الصيفي البديل الذي سيحلُّ محلَّ "أنَّا" أسبوعين. ودَّعت "إيلينا" زميلتها "أنَّا" وقد علتِ ابتسامةٌ مصطنعةٌ وجهَها الذي احمرَّ لونه من الغضب والغيظ وقالت: "هل سمعتَ يا

"كارمينيه"؟ ستذهب ساعية البريد خاصتنا إلى "جالِّيبولي". آه، محظوظ حقًّا من تسنح له الفرصة بالذَّهَاب إلى هناك".

قبل أن تعود "أنَّا" إلى بيتها توقفتْ قليلًا عند المكتبة كي تختار الرواية التي سترافقها في إجازتها. بعدما تجوَّلت "أنَّا" طويلًا خلال رفوف المكتبة فيما تلقي نظراتٍ سريعةً على أغلفة الكتب الخارجية، أثار عنوان رواية "جوته" "التجاذب الاختياري" فضولها بموضوعها الحساس "ماذا سيحدث إذا أُضيف عنصرٌ ثالث إلى عنصرين؟".

في اليوم التالي، رحلت أسرة "جريكو" بأكملها إلى البحر. حشروا حقائب السفر بجانب بعضها فوق السطح الصغير لسيارة "كارلو". كان "كارلو" قد استأجر فيلا صغيرةً ومريحةً على بعد خطوات قليلة من الشاطئ، لها رواق أنيق وبها ثلاث غرف نوم؛ غرفة لـ"كارلو" و"أنَّا" وغرفة لـ"أنطونيو" و"أجاتا" وغرفة للطفلين. احتاج الأمر إلى مجهود جبار لإقناع "أجاتا"؛ فهي لم تكنْ تريد أن تبدو هذه الإجازة كأنها مكافأة لـ"لورينسا". عليها أن تخضع لاختبار آخر في مادتي اللغة اللاتينية واليونانية وترى أنها تستحق عقابًا يدوم طَوال الصيف.

حاول "أنطونيو" كالعادة وبكل صبر أن يتوصَّل معها إلى حل وسط وتواصلت محاولاته إلى ما قبل السفر بساعات قليلة. نجح "أنطونيو" في النهاية في انتزاع موافقة زوجته، بشرط أن تأخذ "لورينسا" معها كتبها الدراسية، وأن يقتصر وجودها في الشاطئ على ساعتين في الصباح، وساعتين بعد الظهر تقضيها برفقة بقية الأسرة؛ أما عن بقية اليوم فستبقى في البيت لمذاكرة المادتين. قالت "أجاتا" وقد أصرت أن تكون لها الكلمة الأخيرة في هذا الأمر: "أنا أحذركَ يا "أنطونيو"، فإذا حدث ورسبتِ ابنتك في اختبار شهر سبتمبر، لن أرسلَها إلى المدرسة مرة أخرى".

أما عن محاولات "أنَّا" مع صديقتها "چوفانَّا" فلم تكنْ مجدية ألبتَّة. حاولتْ "أنَّا" باستماتة إقناعَها بأن ترافقها في هذه الإجازة واصفةً لها روعة السباحة في البحر وقت الغروب عندما تغرق الشمس في مياه بحر "الأيوني"، والنزهات التي

يتنزهونها فوق الرمال المنعشة في الصباح الباكر، والثرثرات في الشرفة حتى وقت متأخر من الليل، لكنْ لم تكن كل تلك الأشياء كافية لإغرائها وإقناعها بالسفر. فلم تمنحها "چوفانَّا" سوى رفض لطيف، لكنْ في الوقت نفسه قاطع، إذ كانت متيقِّنة هذه المرة من أن "چوليو" سيأتي لزيارتها.

كانت الأيام التي قضتها أسرة "جريكو" في "جالِّيبولي" هادئةً ولطيفةً. كانوا يسبحون أوقاتًا طويلة ويحظون بقيلولات هادئة فوق الرمال الدافئة تحت أشعة الشمس، ويتناولون غداءهم على الشاطئ والذي كان بِطيخًا وخوخًا، ويتنزهون عند الغروب بين الأزقة الضيقة لوسط المدينة، ويستمتعون بأمسيات حميمية في الشرفة حيث يداعب النسيم الخفيف وجوههم، فيما يشاهدون منظر القوارب العائدة إلى الميناء مسترشدة بضوء القمر.

بدا أن أعصاب "أجاتا" تسترخي تدريجيًّا في ذلك المكان حتى إنها بدأتْ تخاطب زوجها دون ضغينة واستياء، ولكنَّ أهم ما تسببتْ فيه هذه الإجازة لـ"أجاتا"، هو أنها لم تعدْ تذكر كلمة "هناك" –مشيرة إلى إفريقيا– التي كانت مُهوَّسة بها، والتي استحوذت على أحاديثها كثيرًا في الأشهر السابقة. خفَّت كذلك حدة الموقف المتشدد الذي كانت تتبناه في معاملتها لابنتها، فبدأت تظهر في الغرفة حيث تفترش "لورينسا" طَوال الوقت السريرَ واضعة أمامها كتابًا مفتوحًا وتقول لها: "لقد ذاكرتِ اليوم بما يكفي، اذهبي الآن واستعيدي نشاطكِ، هيا!".

في أغلب الأحيان، كانت "أجاتا" تعرض إعدادَ العشاء للجميع. فتراها تقول: "اذهبوا أنتم إلى هناك! وأنا سأهتم بالأمر هنا"، وتطردهم من المطبخ بإشارة حاسمة وملزمة.

كانت "أنَّا" في تلك الإجازة تحب أن تستيقظ قبل الجميع وتحديدًا عندما تكون الشمس قد بدأت لتوها تنير السماء، ويكون البيت خاويًا من الأصوات والضحكات. تدفئ اللبن أقلَّ من دقيقة واحدة ثم تحمل الفنجان وتذهب به إلى

الشرفة، تجلس على كرسي الاسترخاء وتستغرق في قراءة رواية "التجاذب الاختياري". كل صباح يلحق بها "أنطونيو" وكتابه بين يديه.

اختار هذا الصيف أن يقرأ مجموعة "تشيخوف" القصصية. كان الأمر يبدو كأنه يبقى مترقِّبًا مُصغيًا وحالما يسمع وقع خطواتها في الخارج يقرر أن يتبعها. يجلس في صمت على الكرسي المقابل لها ويبتسم لها ثم يشرع في القراءة من تلك الصفحة التي وضع فيها فاصل كتاب. وهكذا يظل يقرأ برفقتها مشاركًا إياها الصمتَ والسلامَ اللذين تتمتع بهما الساعات الأولى للصباح.

تبدأ الحياةُ تدب في البيت فقط بعد ساعة من استيقاظ "أنَّا" و"أنطونيو" عندما تتردَّد أصداء ضحكات "كارلو" المبتهجة من داخل المطبخ ممتزجة بضجيج الفناجين التي تنزلها "أجاتا" من فوق الرف.

ظهر "كارلو" في الشرفة وقال مبتسمًا: "صباح الخير!"، وانحنى ليلثم شفتيْ "أنَّا" بقبلةٍ سريعةٍ وخاطفةٍ ثم استدار لدغدغة جانبي أخيه. حيَّاه "أنطونيو" ضاحكًا: "صباح الخير يا "كارليتُّو". أغلق "أنطونيو" الكتابَ بعدها بدقيقة ودخل من الشرفة. ترك كرسيه ليجلس عليه "كارلو" وقال: "سأذهب لأرى أكانت القهوة جاهزة".

قبل يومين من عيد ارتقاء العذراء "فيرَّاجوستو" سمعتْ "چوفانَّا" طرقًا على الباب. شرع "تشيزاريه" ينبح وتوقَّف فجأة عندما فتحت سيِّدته الباب.

كان السيد "چوليو" واقفًا عند الباب يضع رداءَ الكاهنِ الأسودَ بياقة بيضاء ويبتسم ابتسامةً خافتةً. كان له وجه حليق بارز بعض الشيء وخدان غائران، ومع ذلك لا يزال وسيمًا كما تتذكره "چوفانَّا" بملامحه الرفيعة الرقيقة وعينيه الواسعتين الداكنتين وأنفه المعقوف قليلًا. وضعت يدها على وجهها وبدأتْ تقفز في سعادة. قال "چوليو": "مرحبًا يا چوفانَّا".

ألقتْ بذراعيها حول رقبته وضمتْه إليها بقوة وقالت بصوت مرتجف: "كنت أعرف أنك ستأتي". ثم نظرتْ إليه وتأهبتْ لتقبيله، ولكنه أوقفها واضعًا يده على فمها. قال وقد ارتسمتْ على وجه ملامح الجدية: "اتركيني أنزع عني أولًا رداءَ الكاهن".

حدَّقت إليه "چوفانَّا" لحظةً بنظرة تائهة ثم قالت متلعثمة: "طبعًا، طبعًا ادخل". ظلَّا يمارسان الحب لما تبقى من وقت ما بعد الظهيرة فيما كان رداء الكاهن وياقته البيضاء مطويين بعناية فوق الكرسي. فيما كان "تشيزاريه" جالسًا القرفصاء في إحدى زوايا غرفة النوم يحدق إليهما طَوال الوقت بنظرة حزينة.

11
ديسمبر 1938

اشترى "كارلو" شجرةَ "تنوب" يبلغ طولها مترين. وفي صباح يوم 8 ديسمبر استيقظ "كارلو" مبكرًا وأخذ يغني ببهجة أغنية "أنت تهبط من النجوم"، وذهب ليوقظ ابنه "روبرتو". سحب الطفلُ الغطاءَ على عينيه كونه كان يوم إجازة وغمغم مطالبًا أباه أن يتركه ينام أكثر قليلًا.

فردَّ "كارلو" مازحًا بينما يعبث بشعر ابنه: "عشر دقائق لا أكثر". ثم نزل إلى الأسفل وشُغِلَ بإشعال النار في المدفأة.

بعد نصف ساعة لحق "روبرتو" بأبيه الذي كان جالسًا عند قدم شجرة "التنوب" الكبيرةِ يُخرِج زينة عيد الميلاد من الصناديق. أخرج دمى كرتونية من أجل مغارة الميلاد، وأكاليل الزهور وكرات صغيرة ملونة، وقلادات خشبية على شكل ندفة الثلج، ورأسًا ذهبيَّ اللون للشجرة. ابتسم له "كارلو" وقال: "هأنت ذا أخيرًا، كنت أنتظركَ كي أبدأ".

هكذا بدأ الأب وابنه يزيِّنان الشجرة، فيما كانت النار تطقطق في المدفأة. تسلق "كارلو" سلمًا خشبيًّا صغيرًا وأخذ "روبرتو" يناوله أدوات الزينة التي كان "كارلو" يضعها بعناية شديدة على الشجرة. كان ينزل من السلم من حين إلى آخر ويخطو بضعَ خطوات إلى الخلف كي يرى الشجرة من بعيد ثم يعود ويعلِّق: "لا، هذه الكرة الحمراء يجب أن ننقلها إلى الأعلى، وعلينا أن ننقل بعض نُدَف الثلج إلى الأسفل. أترى مثلي أن كل الزينة متركزة في الجزء العلوي، ولا يوجد أي شيء في الجزء السفلي؟".

عندما عادت "أنَّا" إلى البيت في وقت الغداء، وجدتهما وكانا لا يزالان منهمكيْن في ترتيب الشجرة وإعدادها. تأفَّف "روبرتو" قائلًا: "يكفي هذا يا أبي، إنها جيدة هكذا، هذه هي المرة الخامسة التي تغيِّر فيها مكان هذا الشيء".

ابتسمتْ "أنَّا" عند رؤيتهما على ذلك النحو.

كان "كارلو" يمسك في يده دميةً خشبيةً على شكل ملاك صغير؛ كانت هذه هي فعلًا آخر قطعة تزيينية، ولم يكن "كارلو" قد استقرَّ بعد على المكان النهائي الذي سيثبتها فيه.

قالت "أنَّا" بمرح: "أعطني إياها". أخذتِ الملاكَ الصغيرَ ووضعته في موقعٍ مرأيٍ من الشجرة؛ بين كرة بيضاء وأخرى حمراء. ثم قالت معلنةً: "مكانها هنا مثالي للغاية".

لاحظ "كارلو" موضعَها ثم أومأ وبدا أنه لم يكنْ مقتنعًا بالكامل بالمكان الذي اختارتْه زوجتُه. ارتمى "روبرتو" على الأريكة وقال: "لقد انتهينا أخيرًا، أنا متعب للغاية".

قالتْ "أنَّا" وقد علتْ وجهها ابتسامةٌ صغيرةٌ: "يؤسفني أنك متعب، كنتُ أريد أن أصحبك أنت و"لورينسا" إلى السينما لمشاهدة فيلم كرتوني. حسنًا، هذا يعني أنني سأذهب أنا وهي فقط وأنت ستبقى هنا لتستريح".

رفع "روبرتو" رأسَه في الحال وصاح: "حسنًا، ولكنني متعب قليلًا فقط".

نظر "كارلو" و"أنَّا" إلى بعضهما وابتسما.



عندما وصلوا أمام سينما "أوليمبيا" توقَّفت "أنَّا" أمام ملصق الفيلم وأشارت إليه بإصبعها وسألت ابنها: "اقرأ ما المكتوب هنا؟".

اقترب "روبرتو" وقرأ بطلاقة: "بياض الثلج".

ردَّت أمه بفخر: "ممتاز!".

بدأ "روبرتو" دراسته في المدرسة الابتدائية في شهر سبتمبر، مع أنَّ "أنَّا" كانت قد علمتْه الأبجدية فعلًا منذ مدة. كانت تكرِّر على مسامعه كلما أُتيحت لها الفرصة: "A كما في "Anna"، وB كما في كلمة "Basilico" (ريحان)، وC كما في "Carlo".

كان "كارلو" في كل مرة يقاطعها منزعجًا ويقول: "دعيه يتعلم مع الأطفال الآخرين حينما يحين وقت التعلم".

كانت "أنَّا" تجيبه: "ولماذا؟ أليس من الجيد أن يبدأ دراسته ولديه فعلًا ما يميِّزه عن الآخرين؟"، ثم تكمل: "D كما في كلمة "Domenica" (يوم الأحد)، وG كما في اسم "Greco" (جريكو)".

ولذلك عندما بدأ "روبرتو" المدرسةَ كان يعرف فعلًا كيف يكتب اسمه بأحرف كبيرة ودون أن ينحرف عن السطر أبدًا.

أُعجِب ثلاثتهم بفيلم "بياض الثلج"؛ إذ خرج "روبرتو" من صالة العرض متحمسًا ويدندن قائلًا: "إيهي-هوو"، فيما يقلِّد مشيةَ الأقزام السبعة وهم ذاهبون إلى عملهم، وهكذا أكمل طريقه حتى المنزل فيما كانت "لورينسا" تضحك بصوت عالٍ، أما "أنَّا" فأخذت تهزُّ رأسها في مرح مع دندنة ابنها. قالت له "أنَّا" ساخرة: "يجب إذن أن تقدم عروضًا مسرحيةً متنوعةً".

تنهدتْ بعدها "لورينسا" وقالت: " أنا أيضًا أريد أن **يأتِ** أميرٌ ليوقظني".

صحَّحت لها "أنَّا": "أن **يأتي** أميرٌ ليوقظني". وبعدما قطعوا بضع خطوات أضافت "أنَّا": "ولماذا؟ هل أنتِ نائمة كبياض الثلج؟".

غمغمتْ "لورينسا" في حرج: "لا، كنتُ أقصد أن الأمر وما فيه باختصار أنني أنا أيضًا أحلم بأمير...". ترددتْ قليلًا ثم تابعت: "يأتي لإنقاذي".

توقَّفتْ "أنَّا" وعبستْ، ثم سحبتْ ذراع ابنة أخي زوجها وأدارتها نحوها برفق. انتبه "روبرتو" أنهما تخلَّفا عنه لذا توقف مكانه. قالت "أنَّا" للطفلة بلهجة صارمة: "هناك فقط شخصٌ واحدٌ يمكنه إنقاذكِ، أتعرفين من هو؟".

نظرت إليها الطفلة شبه خائفة ثم هزَّت رأسها نافية فأكملت "أنَّا" موجهة إصبعها نحوها: "هذا الشخص هو أنتِ، أنتِ فقط من يمكنكِ إنقاذ نفسكِ. ليس هناك أي أمير يمكنه فعل ذلك لكِ. صدقيني!".

تعجبتْ "لورينسا" ثم واصلت سيرها مطأطئة الرأس. لقد أزعجتها تلك الكلمات وشوَّشت تفكيرها فلم تكن أمها تفعل شيئًا سوى أن تعيد على مسامعها عبارات من قبيل أن الأنثى تكتمل فقط عندما تعثر على زوج وتستقر في حياتها معه، وأن الذكر ينقذ ويحمي، وأن من تُولَد سيدة لن يمكنها أبدًا أن تصل إلى أي شيء بمفردها. كانت زميلاتها في المدرسة يفكرن بدورهن في الأمر بالطريقة ذاتها؛ كنَّ يؤكدن في دلال أنهنَّ يدرسن ويذهبن إلى المدرسة فقط من أجل أن يحصلن على أفضل فرصة زواج ممكنة. "المستقبل" بالنسبة إلى كل واحدة منهنَّ أي "ما يُرِدن أن يصبحن عليه عندما يكبرن" هو أن يسكنَّ بيتًا جميلًا وأن وظيفتهنَّ تكمن في الاحتفاظ بذلك البيت مرتبًا ونظيفًا، وأن يجدن زوجًا ثريًّا يعولهنَّ وأن ينجبن أبناءً أصحاءً يعتنين بهم. لم تسمعهنَّ "لورينسا" يومًا يذكرن أي شيء آخر حينما يتحدثن عن المستقبل. أما هي فكانت تشعر دومًا أنها متأخرةً بخطوة عن قريناتها؛ فهي وللعام الثاني على التوالي تجتاز بالكاد عامها الدراسي وتعيَّن عليها الخضوع مرة أخرى لاختباري مادة اللغة اللاتينية واليونانية في شهر سبتمبر. لذا كان عليها ذلك الصيف أيضًا أن تدرس بدلًا من الاستمتاع خاليةَ البال بالصباحات المشمسة الطويلة وممارسة الألعاب. كانت تشعر دومًا بنظرات أبيها التي تخفي

خيبة أمل قوية تجاهها، مع أنَّه كان يحاول دومًا ألا يظهرها وألا يجعلها تراها. كما أصرَّ على أن يدفع بسخاء للمدرس الخاص المحال على المعاش "جايتاني" الذي أحضره لها كي يثبِّت في رأسها هاتين اللغتين القديمتين اللتين بدتا لها غير مجديتين، وفي كثير من الأحيان غير قابلتين للفهم. كانت "لورينسا" ترى نفسها قبيحةً عكس زميلاتها؛ ففي كل مرة كانت تنظر إلى صورتها المنعكسة في المرآة خاصة لوجهها المليء بالبثور تنتابها رغبة في تحطيم المرآة. تعمَّدت تجنب المرآة قدر الإمكان، فكانت تسرع الخطى كلما مرَّت من أمامها، بل إن العمة "أنَّا" حتى لم تعدْ تخبرها بأنها جميلة للغاية كما كانت تفعل في السابق.



تَزيَّن مكتب البريد، كما هي الحال في كل عام لاستقبال عيد الميلاد قبل أسابيع من بدء الاحتفالات. لم تعدْ تُحصى أعداد بطاقات التهنئة والخطابات والهدايا المغلفة والسلال التي تحمل أشهى الأطعمة منزلية الصنع، التي تهيأتْ للإرسال إلى الأعزاء والأحباء الذين يعيشون بعيدًا. كانت "أنَّا" تعرف سابقًا أن الطاولة الضخمة التي تتوسط المكتب ستعجُّ طَوال الشهر بصوانٍ من حلوى "الموستاتسولي" وبعجين اللوز المصنوع على شكل أسماك، وتلك الحَلْوَيَات الغريبة صغيرة الحجم الخاصة بعيد الميلاد التي تشبه "النوكي" والمغطاة بالعسل واللوز المحمص والتي سيصعب عليها نطق اسمها بشكل صحيح "أهي بورتشيدُّوتزي أم بورتشيدُّروتزي؟"، هذا بالإضافة إلى فناجين القهوة وزجاجات من مشروب "الليمونتشيلُّو" الذي أعدتْه "إيلينا" بنفسها في المنزل. وكانت "إيلينا" هي أيضًا من تؤدي دورَ "صاحبة البيت"، إذ كانت تعرض على أي شخص يدخل إلى مكتب البريد أن يتناول من الحلوى، فتقول مشيرة إلى الطاولة التي تحولت إلى طاولة طعام: "ادخل، تفضَّل وخذ قطعة حلوى صغيرة". زاد وزن "كارمينيه" منذ بعض الوقت، وعلى الرغم من ذلك كان ينهض باستمرار ليسكب لنفسه قليًلا من

عصير "الليمونتشيلُّو" ويتناول قطعة حلوى. وحينما كان يعود ليجلس خلف مكتبه بفم ممتلئ، كان "تومَّازو" يرمقه بنظرات استنكار. أما عن "كيارا" فالشيء الوحيد الذي كان يزيد لديها هو سُمْك عدسات نظارتها الطبية. لم تكنْ تغريها قطُّ ولو قطعة صغيرة حتى من معجون اللوز. كانت تبقى في الحجرة الخاصة بالتلغراف وتعمل برأس منحنٍ، تدعوها "إيلينا" إلى الطاولة وتقول: "اتركي ما في يدكِ وانضمي إلينا ها هنا". ثم تعلِّق في حزن قائلة: "أنا لا أفهم حقًّا هذه الفتاة. إنها حزينة على الدوام". فتردُّ "كيارا" معترضة من الغرفة الخلفية التي تعمل بها: "أنا لستُ حزينةً على الإطلاق".

كانت أيامًا مرهقةً ومحمومةً بالعمل تلك التي كانت تتجول فيها "أنَّا" في أنحاء البلدة كالنحلة، تركض دومًا من مكان إلى آخر لتسلِّم وتتسلَّم كل شيء في موعده المحدد. اعتادت أن تُضطَر إلى مواصلة العمل في وقت ما بعد الظهيرة أيضًا.

في ذلك العام تلقَّت "چوزيبِّينا" أجملَ هدية كان يمكن أن تتمناها، إذ ترك ابنها "ماورو" ألمانيا أخيرًا حيث "أصبح الهواء مسمومًا مع وجود "هتلر" هناك" على حد تعبيره، وعاد إلى إيطاليا بأموال كثيرة كانت كافية لتجديد البيت كليًّا.

كانت "چوزيبِّينا" واقفةً منتصبةً عند الباب تنتظر قدومها، وحالما وجدتها تمرُّ من أمام بيتها استدعتها بصوتٍ عالٍ. قالت "چوزيبِّينا": "تفضَّلي أيتها السيدة ساعية البريد، دعيني أقدمْ لكِ ابني".

روت لابنها قائلة: "كانت "أنَّا" طيبة ولطيفة للغاية معي، إذ كانت تقرأ لي ما تكتبه من خطابات طَوال الوقت كما كان يفعل "فيرُّوتشو" في السابق".

مدَّ "ماورو" يده كي يصافح "أنَّا" وشكرها من صميم قلبه على مساعدتها لأمه خلال غيابه، وأضاف قائلًا إنها إذا احتاجت إلى أي شيء يمكنها أن تطرق بابهما على الفور.

ابتسمت "أنَّا" في حرج وأجابته بأن ليس هناك أي داعٍ إلى الشكر، فهي أدتْ عملها ليس أكثر. وعلى الرغم من ذلك أصرَّ "ماورو" على إهدائها علبةً من بسكويت "ليبكوخين"، وهو البسكويت الذي تتميز به مدينة "نورنبيرج" وقال لها: "ستتذوقينه وتعرفين كم هو لذيذ!".

أما عن السيد "لورينسو" فكان لا يزال يحيِّي "أنَّا" رافعًا ذراعه على الطريقة الفاشية، مع أنَّ "أنَّا" أصرَّت طَوال الوقت على ألا ترد على تلك التحية بالطريقة ذاتها. ولكنه ذلك العام وبعد أن تسلَّم البطاقة البريدية– وهي واحدة من البطاقات الكثيرة التي يصعب حصر عددها– لم يُعِدْها إليها كما اعتاد أن يفعل. كتب له أخوه أنه لم يعد يرغب في سماع أي حجج أو أعذار، وأنه قد حان الوقت ليحتفلا معًا من جديد بعيد الميلاد كأسرة واحدة، سواء أراد ذلك أم لا. وأخبره كذلك بأنه سيصل هو و"ريناتا" في الوقت المحدد ليتناولا معًا عشاءَ ليلة عيد الميلاد. كان الرجل منزعجًا للغاية لدرجة أنه قرأ الرسالة بصوتٍ عالٍ. سألت "أنَّا" حينها، وبداخلها أمل خفي أن يتضح أخيرًا ذلك الغموض المتعلِّق بالبطاقات البريدية المرفوضة، سألته: "هل "ريناتا" هذه هي ابنة أخيك؟".

أجاب الرجل مندفعًا: "لا". فقالت: "أوه، أعتذر. كنت أعتقد أن...".

قال السيد "لورينسو" بنبرة لاذعة: "كانت "ريناتا" خطيبتي، هرب الاثنان كاللصوص في إحدى الليالي منذ سنوات".

تسمَّرت "أنَّا" في مكانها مشدوهةً وغمغمتْ في خجل: "يؤسفني سماع هذا". ثم حيته وتمنتْ له أن يقضي عيدَ ميلاد سعيد على الرغم من اعتقادها أنه لن يكون طيبًا ألبتَّة. وبينما كانت تتهيَّأ لإكمال طريقها انتابها شعور غريب غير محدد امتزج فيه الارتياح بالذنب؛ ارتياح لأنها عرفت أخيرًا السر الذي يخفيه السيد "لورينسو"، وذنب لأنها سألته وذكَّرته بالأمر.



نما لدى "دانييليه" أول شارب صغير بشعرات رفيعة متفرقة، لذا كان العمال الأكبر سنًّا في كرم العنب يسخرون منه بتَوَادٍّ ويقولون وهم يضحكون ضحكاتٍ مكتومةً ساخرةً: "لم تعدْ صغيرًا الآن، ها قد صرتَ رجلًا أخيرًا"، فيما يربتون خدَّه أو على كتفيه. كان "دانييليه" يبتسم على الرغم من كرهه العميق لتلك الشعرات التي تعلو شفتيه، ليس لمنظرها البشع فقط، بل لأنها تسبِّب له كذلك حِكَّة مستمرة. اعتاد "دانييليه" عند عودته براتبه اليومي في جيب بنطاله، أن يسرع إلى غرفته ويضع نصف الراتب في صندوق معدني صغير يحتفظ به داخل خزانته. في غضون سنة ونصف من العمل في كرم العنب نجح الصبي في ادخار قدرٍ كبيرٍ من المال مع أنَّه لم يكن كافيًا بعد للغرض الذي يجمعه من أجله، إذ كان "دانييليه" يتطلع إلى شراء ماكينة خياطة ماركة "سينجر" كتلك التي تعمل عليها أمه في متجرها الخاص. وبالإضافة إلى النقود التي كان "دانييليه" يخبئها في الصندوق المعدني كان هناك كذلك دفتر التصميمات التي يرسمها. اعتاد "دانييليه" كل ليلة أن ينسحب سريعًا بعد تناوله العشاء عائدًا إلى غرفته بعدما يتمنَّى لوالديه ليلةً سعيدةً ثم يقضي ساعاتٍ كاملةً يصمِّم ملابسَ نسائيةٍ أنيقةً. عند التأكد من أن والدته قد خرجتْ لعمل ما، كان يتسلل إلى محل الخياطة ويبدأ في تصفُّح العدد الأخير من مجلة "موضة مصوَّرة"، أو يستغل غياب أمه ليجمع من صندوق القُمامة بقايا القماش التي تخلصتْ منه.

كانت "كارميلا" من حين إلى آخر تفتح البابَ الفاصلَ بين بيتها ومتجر الخياطة مساءً، وتستند إلى إطار الباب عاقدةً ذراعيها وتسأل ابنها: "كيف كان يومك؟"، فيرد هو بعجالة وفي اقتضاب مُسنِدًا قدمه إلى الدرجة الأخيرة من السلم المؤدي إلى غرفة نومه متأهبًا للعودة إلى غرفته: "جيد". فتسأله: "هل كان السيد "كارلو" هناك اليوم؟"، فيرد: "نعم، طبعًا. هو دومًا هناك". ثم تتابع أسئلتها: "هل لا يزال يعاملك جيدًا؟".

في كل مرة تسأله "كارميلا" هذا السؤال يومئ لها "دانييليه" إيجابًا، وتلك الإجابة الصامتة كانت كافية لإرضاء "كارميلا" وإسعادها. لم يخبرها قطُّ من قبل أن السيد "كارلو" يتعامل معه هو على وجه التحديد دون غيره بكرم وطيبة، ففي بعض الأحيان يمنحه بضع ليرات إضافية على أجره اليومي، وبينما يسلِّمه النقودَ يغمزُ له كما لو يريد إخباره بألا يخبر أحدًا بأمر هذه الأموال الإضافية، وعلى الجانب الآخر وخلال الحصادين اللذين عمل بهما "دانييليه" في كرم العنب أوكل إليه "كارلو" واحدةً من أهم المهامَّ الخاصةِ بتلك المرحلة، فقبل أن تُسكب العناقيد في الأحواض كي تتعرض للضغط كان يتأكد من أن كل الثمار سليمة وصالحة، وإذا حدث ووجد ثمرة فاسدة فعليه التخلص منها.

عندما عُبِّئَتْ أخيرًا أولى زجاجات نبيذ "دونَّا أنَّا" أهداه السيد "كارلو" وبفخر شديد يملأ قلبه زجاجةً وطلب منه: "دعِ السيد "تشيتشو" يتذوقه". لم يكنْ "دانييليه" قد رأى نبيذًا بهذا اللون من قبل، إذ كان لونه ورديًّا شفافًا له مظهر نقي ورفيع. حالما تذوقه جده أعلن قائلًا: "إنه طيب". ثم أخذ يشمه بتركيز حتى استطاع أن يشم فيه رائحة الفواكه من كرز وفراولة برية.

تجمَّعت أسرة "جريكو" من أجل عشاء ليلة عيد الميلاد في بيت "أنَّا" و"كارلو". وتلك المرة اقتنعتْ "چوفانَّا" أخيرًا بالانضمام إليهم. قالت لها "أنَّا": "لن أدعكِ تقضين عيدَ الميلاد بمفردكِ هذا العام أيضًا، ستبقين معنا ولا أريد أن أستمع لأي أعذار. تستطيعين إحضار "تشيزاريه" أيضًا معكِ إذا أردتِ".

قضى "كارلو" و"أنَّا" وقت ما بعد الظهيرة وهما يطبخان. أعدَّ "كارلو" المرقَ فيما كانت "أنَّا" منهمكةً في تحضير الحشو الذي ستستخدمه من أجل مكرونة "التورتيلِّيني". وكطبقٍ ثانٍ أصرت "أجاتا" على إعداد شطيرة اللحم التي تشتهر بها. قبل وصول الضيوف بمدةٍ قصيرةٍ وضع "كارلو" إبرة الجرامافون على

أسطوانة لأغنية "أريدك لساعة واحدة فقط" للمغنية الإيطالية "نوتشا ناتالي" ثم طوَّق بذراعه خِصر زوجته التي تألَّقت في فستان طويل من الستان الأزرق وبدأ يرقص متحرِّكًا ببطء فيما يمسك بسيجار مشتعل في يده الأخرى.

عندما وصل الجميع، فتح "كارلو" زجاجةَ "دونَّا أنَّا" وملأ كؤوس ضيوفه. كان هناك من يجلس على الأريكة، وآخر اتخذ لنفسه موقعًا بالقرب من المدفأة، وهناك من بقي واقفًا، رفع الجميع كؤوسهم نخب عيد الميلاد؛ عام 1938.

أحضرتْ "لورينسا" معها روايةَ "ترنيمة عيد الميلاد" لـ"تشارلز ديكنز"، واستلقتْ على الأريكة وبدأتْ في القراءة بصوتٍ عالٍ، فيما كان "روبرتو" يستمع لها مسندًا رأسه إلى كتفها. أما عن "تشيزاريه" فكان يهز ذيله باستمرار، متحمِّسًا لوجود كل هؤلاء الناس في مكانٍ واحد، ويتجول في جميع أنحاء المنزل، ثم يتوقف ليشتمَّ واحدًا تلو الآخر، بحثًا عن المداعبات.

أمسكتْ "أنَّا" بيد "چوفانَّا"، وسرعان ما أخذتها إلى الطابق العلوي وأمرتها بالجلوس إلى تسريحتها الخاصة. هتفت قائلة: "تحتاجين الليلة إلى أحمر شفاه وقليل من العطر. اليوم عيد". مرَّرتْ أحمرَ شفاه بلون الكرز على شفتيها، وأمسكتْ بمضخة العطر ورشتْ منها خلف أذنيها وعلى معصميها.

أهداها "كارلو" هذا العطر بمناسبة عيد ميلادها. لقد جعل أحد صانعي العطور في "ليتشي" يبتكره خصوصًا من أجلها، ومن بين جميع العطور التي اشتمَّها، اختار "كارلو" ذلك العطر الذي يحتوي على قاعدة طيف من المسك وخشب الصندل. قالت "أنَّا": "ها نحن ذا! انظري إلى نفسكِ كم أصبحتِ جميلة للغاية".

انحنت "چوفانَّا" إلى الأمام وحدَّقت إلى صورتها المنعكسة في المرآة وبدتْ عيناها أكثر تألقًا وبروزًا وعزَّز من بريقهما حمرة شفتيها والبروش الفضي الذي ارتدتْه على صدرها. لو كان فقط بإمكان "چوليو" أن يراها هكذا في تلك اللحظة. فقبل أيام قليلة من عشية عيد الميلاد أرسل إليها بطاقة بريدية رُسِمَتْ عليها طفلة واقفة أمام

النافذة تنظر مفتونة إلى نُدَف الثلج، بالإضافة إلى عُلبة حوَت بروشًا على هيئة زهرة فضِّية أرفق معها بطاقة صغيرة كتب فيها: "ارتديه وفكري فيَّ".

عندما عادت "أنَّا" و"چوفانَّا" إلى الأسفل كان بقية الضيوف قد جلسوا فعلًا إلى الطاولة البيضاوية لغرفة المعيشة. جلس "كارلو" على رأس الطاولة وعلى يساره جلس "أنطونيو" وإلى جانبه "أجاتا" وفي الجهة المقابلة له جلست "لورينسا" و"روبرتو"، أما "أنَّا" فجلست إلى يمين "كارلو" ودعتْ "چوفانَّا" إلى الجلوس في الكرسي المجاور لها.

شبكتْ "أجاتا" كفَّيها وأخذتْ تتلو الصلاة الربيَّة، حذا الجميعُ حذوَها ما عدا "أنَّا" التي ظلتْ في مكانها وأخذتْ تُدلِّك مؤخرة عنقها في شرود. بعدما أنهى الجميع صلاتهم بـ"آمين" ورسموا علامة الصليب، نهض "كارلو" وملأ الأطباق لضيوفه؛ حيث وضع مغرفتين مليئتين بالتورتيلِّيني المغمور في المرق لكل فرد. قال "أنطونيو": "يليق بكِ أحمر الشفاه يا "چوفانَّا".

احمرَّ وجه "چوفانَّا" خجلًا وعضَّت على شفتيها وأجابت بصوت أجشَّ: "شكرًا". تأمَّلتْ "چوفانَّا" المشهدَ من حولها وشعرتْ بسعادة كبيرة كونها تقضي تلك الليلة معهم؛ وسط أسرة حقيقية، وبيت به شجرة ملوَّنة ومزيَّنة، ومدفأة مشتعلة، وهدايا عليهم فتحها وتفريغها، وضحكات، وطاولة أُعِدَّ عليها كل ما تشتهيه الأنفس من طعام. استدارتْ حينها نحو "أنَّا" وحدَّقت إليها بعينين دامعتين. سألتْها "أنَّا" بنبرة فيها شيء من المرح والبهجة: "ماذا هناك؟". كان رد "چوفانَّا" أن ألقت بنفسها عليها وعانقتها. أدارت "أجاتا" حينئذٍ عينيها في ملل واستهزاء لكنْ لم يلاحظها أحد.

وعندما دقَّت الساعة الثانية عشرة تجمَّع كل مَن في البيت حول الشجرة ليتبادلوا التهاني والهدايا. فتح "كارلو" زجاجةً أخرى من "دونَّا أنَّا" وبينما كان الجميع منهمكًا في فتح علب الهدايا الصغيرة منها والكبيرة وسط مناخ فوضوي

امتلأ صخبًا وبهجةً، انتهز "أنطونيو" الفرصة وانحنى أسفلَ الشجرة وأخرجَ علبة صغيرة مستطيلةً مغلَّفةً بغِلاف ذهبي اللون. قدَّمها إلى "أنَّا" وقال لها بالفرنسية: "هذه من أجلك". ردَّت عليه "أنَّا" بالفرنسية أيضًا "شكرًا" وابتسمتِ ابتسامةً صادقةً وفتحتِ الهدية.

كانت "لورينسا" جالسةً على السجادة تتأمَّل فرشاةَ الشعر ذات اليد الفضية التي أهداها إليها عمها وزوجته، وفي الوقت ذاته تراقب المشهد الذي يجمع أباها وزوجة عمها خُلْسَة.

قرأت "أنَّا" العنوانَ المكتوبَ على غِلاف الكتاب الذي أهداه إليها "أنطونيو": "ذهب مع الريح". أوضح لها "أنطونيو": "لقد قرأتُ هذه الرواية وأعجبتني كثيرًا". سألته "أنَّا": "وما الذي أعجبك فيها؟". فكَّر "أنطونيو" لحظةً ثم جاوب أخيرًا: "روسيلَّا"، بطلة الرواية فيها شيء ما يشبهك". خفضتْ "أنَّا" رأسَها ونظرتْ إلى الكتاب وانفرجتْ شفتيها عن ابتسامة.

واصل "أنطونيو" حديثه: "أعجبني أن تلك المرأة تجدْ دومًا القوةَ اللازمةَ لتبدأ من جديد بعد كل أزمة تحدث لها، لقد استطاعتْ فعل ذلك حتى بعد أن عاصرت إحدى الحروب".

لم يكنْ "أنطونيو" يعرف حينئذٍ أن تلك العبارة كانت تنبؤية بشكل درامي؛ فعيد الميلاد عام 1938 سيظل لسنواتٍ طويلةٍ هو عيد الميلاد الأخير الذي تنعم فيه أسرة "جريكو" والعالم أجمع بالسلام.

الجزء الثاني
من أبريل 1945 – إلى يونيو 1949



12
أبريل 1945

"قطعنا البثَّ كي ننقل إليكم خبرًا عاجلًا...".

أسقطت "أنَّا" المنشفة الممسكة بها على طاولة المطبخ بين بقايا العشاء واتَّجهت نحو غرفة المعيشة بخطوات طويلة ثم جثمتْ أمام الراديو الموضوع على خزانة في إحدى زوايا الغرفة ورفعت مستوى الصوت.

سمعتِ المذيعَ يقول بصوت متقطِّع من شدة الفرحة: "استسلمت القواتُ المسلَّحة الألمانية أمام القوات الإنجليزية الأمريكية. لقد انتهتِ الحرب. أكرر: انتهتِ الحرب". التفتتْ "أنَّا" نحو الدرج وصرخت: "كارلو"!

ظهر "كارلو" أعلى السلم وفي يده فرشاة أسنان وخيط من المعجون يتدلى من أحد جانبيْ فمه. لا تزال رؤيته دون شارب تثير فيها شيئًا من الغرابة، فقد تخلص منه تمامًا فجأة ودون سابق إنذار. قال لها ذات يوم: "لم أعدْ أريد هذا الشارب فهو يذكرني بـ"هتلر". سألها "كارلو" في قلق: "ماذا جرى؟".

نهضتْ "أنَّا" على قدميها وابتسمتْ له مشيرةً إلى الراديو وقالت: "استسلم الألمان". ترك "كارلو" فرشاة أسنانه تسقط على الأرض ونزل درجات السلم بسرعة، واندفع نحو زوجته وأمسكها من خصرها ورفعها في الهواء. احتجَّت "أنَّا" وقالت ضاحكة: "أنزلني!" إلا أنه ظلَّ يحملها وأدار رأسه إلى الوراء وصاح قائلًا: "أتدرين أنكِ تبدين أيضًا أكثر جمالًا بالنظر إليكِ من هنا؟".

ضحكتْ "أنَّا" وأجابته: "أما عنكَ فلست جميلًا بمعجون الأسنان هذا الذي يلطخ وجهك، هيا اذهب ونظِّفه".

أنزلها "كارلو" فمسحتْ له بقايا المعجون بطرف إبهامها وقالت: "ها نحن ذا، نظفنا وجهك"، وداعبتْ وجنته.

قال "كارلو": "دعينا نذهبْ ونخبرْ "روبرتو" بهذا النبأ!" فقالت له: "دعنا نخبرْه في الغد، قد يكون نائمًا الآن فعلًا".

قال: "ربما لا يزال مستيقظًا يقرأ كتابًا ما".

أمسك "كارلو" بيد زوجته وصعدا معًا إلى الطابق العلوي. فتح ببطء باب غرفة نوم طفلهما المضاءة بنور المصباح الموجود على الطاولة المجاورة للسرير الذي يُصمِّم "روبرتو" أن يبقيه مضيئًا طَوال الليل.

كان الطفل نائمًا على ظهره مديرًا وجهه جانبًا، وعدد من مجلة "ميكي ماوس" مفتوحًا ومسندًا على صدره.

كان "روبرتو" في ذلك الوقت في الثانية عشرة من عمره، لكنَّ وجهه لا يزال كوجه طفل؛ ورديًّا وخاليًا من الشعر. عندما كبر ابنهما أصبح صورةً مصغَّرةً من أمه؛ الشعر الأسود الكثيف نفسه، والعينان الخضراوان، وكذلك الأنف المستقيم ذاته، أما عن الابتسامة والنظرة الماكرة، فقد ورثهما بالضبط عن أبيه.

همستْ "أنَّا" قائلة: "هيا، دعنا نتركْه وشأنه فهو ينام هادئًا وفي سلام".

أجاب "كارلو" بنبرة حملتِ القليل من خيبة الأمل: "كما تشائين"، وخرجا وأغلق الباب مرة أخرى.

في طريقهما إلى الأسفل، سمعا صخبًا فوضويًّا صادرًا من خارج البيت. أسرعا الخطى وأطلَّا من نافذة غرفة المعيشة؛ كان الناس يتدفقون في الشوارع للاحتفال. كان هناك من يصرخ قائلًا: "لقد انتهتْ، انتهتْ!" ضحك بعض وبكى بعض آخر، تبادلوا العناق وطرقوا أبواب البيوت النائمة صارخين: "اخرجوا!".

نظر "كارلو" و"أنَّا" إلى بعضهما. أمسك "كارلو" بمعطفه المعلَّق على المشجب وارتداه فوق منامته، وأمسك بيد "أنَّا" وخرجا.

ركضا على الفور نحو بيت "أنطونيو" و"أجاتا". طرق "كارلو" بإلحاح بابَ المنزل فأضاء مصباحًا في غرفة المكتب في الطابق الأرضي، ثم فتح "أنطونيو" البابَ بعد لحظات وهو لا يزال يرتدي منامته وعلى وجهه علامات النعاس، وحدَّق بقلق واضطراب إلى أخيه وزوجة أخيه اللذين كانا يبتسمان وهما ممسكان بيدي بعضهما.

ألقى نظرةً نحو الخارج حيث ذلك الصخب المبهج الذي يسيطر على الطريق وسأل أخيرًا: "ما الذي يحدث بحق السماء؟".

أجاب "كارلو" في حين تتسع ابتسامته أكثر: "بينما أنت تنام هادئًا هنيئًا رفع الألمانُ الرايةَ البيضاء".

رد "أنطونيو": "لكنْ كيف هذا؟".

تدخلتْ "أنَّا": "لا يزال الأمر يبدو لي أنا أيضًا غير واقعي".

بلغهم صوت "أجاتا" التي سألتْ بنبرة مذعورة: "من هنا في هذا الوقت المتأخر؟".

نزلت "أجاتا" الدَّرَجَ وانضمتْ إلى زوجها عند الباب. كانتْ لا تزال ترتدي قميصَ نوم ورديًّا وغطاءَ رأس من اللون نفسه أفلتت منه بضع خصلات بيضاء شعثاء. منذ بعض الوقت تحوَّل لون شعرها النُّحاسي إلى اللون الرمادي وعلى جانبي فمها، شقَّت تجعيدتان عميقتان طريقهما إلى ذقنها، وهو ما أضفى على

وجهها لمحةً دائمةً من الحزن والتعاسة. أضافتْ "أجاتا" وقد انتبهتْ لكل هذا الصخب في الشارع: "ماذا هناك؟ هل خرج الجميع كالمجانين إلى الشارع؟".

غمغم "أنطونيو" وعيناه تدمعان: "لقد انتهتِ الحرب يا "أجاتا".

أمسكتْ "أجاتا" ذراعَ زوجها بإحدى يديها وبيدها الثانية رسمتْ علامةَ الصليب وتمتمتْ قائلة: "نشكر الرب".

صرخ رجل في سعادة وقال: "مرحبًا، تعالوا معنا ودعونا نوقظ "ناندو" ليفتحَ البار! إنه وقت الشرب والاحتفال"، فأعقبه في الحال حشد من الناس.

اتخذتْ "أجاتا" تلقائيًّا خطوةً إلى الخلف ودخلتِ البيت من جديد كما لو كانتْ تذكَّرت لتوِّها أنها لا تزال في رداء نومها أمام كل هؤلاء الناس.



لم تفكر "أنَّا" في الأمر إلَّا في أثناء طريق عودتها هي و"كارلو" إلى المنزل؛ استعادتْ ما حدث حيث مصباح غرفة المكتب الذي أُضيء و"أنطونيو" الذي فتح لهما بعدها مباشرةً بثوب نومه، وكان يبدو عليه كمن استيقظ لتوِّه من نوم عميق.

سألتْ "أنَّا" زوجها فجأة: "ألمْ يعودا ينامان معًا في فراشٍ واحد؟".

سألها "كارلو" وهو يغلق المعطف جيدًا على جسده: "عمَّن تتحدثين يا حبيبتي؟".

قالت "أنَّا": "عن أخيك و"أجاتا".

رفع "كارلو" كتفيه وقال: "لا دخل لنا بالأمر".

أجابت "أنَّا" متظاهرة بأن الأمر لا يهمها حقًّا: "طبعًا ليس من شأننا، إنه مجرد سؤال فضولي".



حالما خرجتْ "أنَّا" من البيت أخذتْ نفسًا عميقًا، فقد أصبح الجو مفعمًا برائحة الربيع وأشجار الوستارية، خاصة في تلك الساعة من الصباح. أغلقتْ "أنَّا" الباب وأمسكتْ بمقود الدراجة التي كانت متَّكئة على جدار الفناء وسحبتها إلى الخارج.

جاءتها في موعدها المعتاد تحيةُ جارتها التي تصر كل صباح على كنس ذلك الجزء الصغير الخاص بها من الرصيف الواقع أمام بيتها: "صباح الخير أيتها السيدة ساعية البريد".

بادلتْها "أنَّا" التحية ورفعت قبعتها قليلًا، ثم ركبت دراجتها ماركة "بيانكي سوبريما"، تلك الماركة التي اشترتْ منها "أنَّا" النموذج الخاص بالسيدات بـ900 ليرة في عام 1940، وهو ذلك العام الذي فاز فيه "فاوستو كوبِّي" بالمركز الأول في مسابقة دراجات "جولة إيطاليا". فمنذ ذلك الوقت بدأتْ "أنَّا" تستخدم تلك الدراجة وبارتياح كبير. إذ أخيرًا سترحم قدميها المسكينتين اللتين تصلبتا سنواتٍ وهما تقطعان يوميًّا الطرقَ المرصوفةَ بالحصى جيئة وذَهَابًا في تحركاتها، خاصةً تلك المتعلقة بالعمل. وبتلك الدراجة تسلمتْ كل التلغرافات من وزارة الدفاع التي تدعو فيها الشباب إلى حمل السلاح والمشاركة في القتال. رأتْ "أنَّا" الكثيرَ من الشباب يحزمون أمتعتهم ويرحلون، فيما كانت أسرتهم في حالة حزن ويأس. لم يعدْ بعضهم مرةً أخرى، ولم يكن من السهل معرفة تفاصيل موت الجميع، فهناك شباب قُتلوا دون أن يعلم أحد كيف وأين حدث هذا. وآخرون عادوا من الحرب حاملين في أرواحهم وأجسادهم علامات لن تُمحى أبدًا. علمت "أنَّا" أن البعض ممن حصلوا على أذون عادوا بموجبها إلى البلدة ليبقوا فيها عدة أيام قبل أن يعودوا مجددًا لمواصلة القتال، وألقوا بأوعية من الماء المغلي على أجسادهم وتسببوا لأنفسهم في حروق خطِرة فقط كيلا يشاركوا في الحرب مرة أخرى. في كل مرة تصل تلغرافات الاستدعاء من الوزارة كانت "أنَّا" تلقي عليها نظرة سريعة وقلبها ينبض بقوة، وكانت تضع يدها على صدرها وتتنفس الصُّعداء فقط عندما تتأكد أنه ليست هناك برقيات باسم

"كارلو" أو "أنطونيو". كانت تفكر كي تطمئن قلبها: "لم يكنْ قد استُدعِي بعد أي من أقران "كارلو". ثم تتابع على الفور محدثة نفسها: "ومن المستحيل أن يستدعوا "أنطونيو" وهو في الـ41 من العمر". فتشعر حينئذٍ بخفة في قلبها.

هذا بالإضافة إلى عدد الرسائل القادمة من الجبهة التي كان عليها أن تقرأها على والدي المقاتلين وأخواتهم وزوجاتهم أو خطيباتهم بعينين مرهقتين وحالة نفسية مدمَّرة. لم تكنْ "أنَّا" قد تعرَّفت كثيرًا من هؤلاء الشباب المقاتلين الذين تقرأ خطاباتهم. ربما تلاقت نظراتها ونظرات بعضهم يومًا ما في إحدى طرق البلدة، ولكنها لم تكنْ متيقنةً من هذا الأمر. ولكنها لا تزال تتذكر جيدًا كلماتهم وخطاباتهم.

أُرسِل "چوزيبيه" العاملُ في كرم "جريكو" ليقاتل في روسيا. لم يكتبْ لزوجته "دوناتا" عن الحرب، وإنما فقط عن أحلامه الخاصة. فحالما يهبط الليل على المخيم البارد كريه الرائحة الذي يتعيَّن عليه النوم فيه كان يحلم بأنه معها في بيتهما يعيشان حياتهما التي كانت سلسلةً من الأفعال الروتينية الصغيرة التي لم يشعرْ بقيمتها إلا في ذلك الوقت، والتي يشتاق إليها الآن كما يتوق الظمآن إلى قطرة ماء. أما عن "فرانشيسكو"، الابن الأصغر للزوجين اللذين يديران متجر التبغ حيث يشتري "كارلو" نوع سيجاره الخاص، فدائمًا ما كان يشكر والديه على التبغ الذي يرسلونه إليه ويتوسل إليهما كي يرسلا إليه المزيد والمزيد، إذ كانت هذه هي الطريقة الوحيدة للحصول على القليل من الحصص الغذائية الإضافية، وشرح لهما أنه يقايض التبغ بخبز رفاقه. كانت لرسائله خاتمة ثابتة ودائمة لا تتغير: "أنا دائمًا أشعر بالجوع يا أمي، أنا دائمًا جوعان". أما "بيترو" الذي كان يشتغل عاملَ بناء قبل الحرب روى لأخته "ماريا" في خطاباته التي كان يرسلها إليها من "أوكرانيا"، أنه سار هو ورفاقه ذات يوم على ضفة نهر "دونتس" مسافةً تُقدَّر بمائتي كيلومتر وحكى لها أيضًا عن السجناء الذي رآهم في أحد الأودية التي احتلتها القوات الألمانية. رأى حشودًا من الجنود الألمان مسلحين برشاشات مصوبةً

نحو كل مَن يقترب منهم. لم يبرحْ هؤلاء الجنود أماكنهم وبدوْا خائري القوى كونهم لم يتناولوا أي طعام منذ وقتٍ طويلٍ، وأدرك أنهم يتغوَّطون في ملابسهم لذا كانت رائحتهم نتنة كالحيوانات. كتب لها قائلًا: "لو كنت مكانهم لفضَّلت الموت في الحال". هناك أيضًا "أندريا" الذي كان يساعد والده في متجر الأجبان الصغير الخاص به في سوق السبت، صار يتضرَّع دومًا لـ"مريم العذراء" لئلَّا يتغلب عليه الحزن والكآبة ولكي تنتهي الحرب يومًا ما بأيِّ طريقة كانت، وقطع لها وعدًا بأنه في حالة عاد من الحرب سالمًا فسيحتفل يوميًّا.

توجهت "أنَّا" بدراجتها نحو الميدان الرئيسي الذي كان لا يزال خاويًا من المارة في تلك الساعة المبكرة من النهار إذ يغمره صمت وفراغ لطيفان. شقَّت طريقها إلى بار "كاستيلُّو" وحالما وصلت ترجَّلت عن دراجتها ونظرت إلى ساعة يدها ذات الإطار المستطيل التي أهداها إياها "أنطونيو" في مايو 1935 ولم تنزعها "أنَّا" منذ ذلك اليوم قطُّ. إنها واحدة من المرَّات النادرة التي وصلت فيها مبكرًا وتمكنت من أن تمنح نفسها رفاهية شرب قهوتها وهي جالسة، فلطالما رشفتها على عجل وهي واقفة على قدميها كي تلحق بعملها. أسندت عجلتْها "البيانكي" إلى الحائط وجلست إلى إحدى الطاولات الخارجية للبار. كان "فيرناندو" واقفًا يدخن سيجارته الصباحية متكئًا على باب صالون حلاقته. فيما كانت "ميكيليه" زوجته، وهي سيدة نحيلة ذات ذراعين قويتين، تُنزِل صندوقًا صغيرًا من البرتقال بدا ثقيلًا جدًّا، وتضعه على الرصيف. أما عن تلك الزاوية التي كان يجلس فيها "ماريو" ماسح الأحذية بيديه اللتين لطالما كانتا متسختين بالكامل بالشحم، فبقيتْ خاويةً وستظل هكذا إلى الأبد. حذَّر "ماريو" الجميع قبل مغادرته للمشاركة في الحرب: "الويل لمن يأخذ مكاني، فأنا سأعود على أيِّ حال".

حمل لها "ناندو" وابتسامة تعلو شفتيه قهوة "الكوريتُّو" خاصتها فتشممتْ "أنَّا" بسعادة وبهجة "الجرابَّا" المضاف إلى القهوة برائحته النفاذة. أراح "ناندو"

كفه على كتفها بطريقة أبوية ثم عاد إلى داخل البار. فقد "ناندو" الكثير من وزنه في تلك السنوات، ويحتاج مئزره الأبيض القديم الآن إلى أن يلفَّه مرتين حول خصره.

كانت "أنَّا" تتلذَّذ بآخر رشفة من قهوتها عندما لمحتْ "إيلينا" آتيةً بخطواتٍ متعبةٍ ومتثاقلةٍ خلال إحدى الطرق الضيقة المفضية إلى الميدان الرئيسي، وهو الشارع ذاته الذي تعرض فيه السيدة بائعة القماش بضاعتها في أيام السبت من كل أسبوع. تقدَّمت "إيلينا" ببطء بوجه متجهم نحو مكتب البريد الذي كان لا يزال مغلقًا. منذ مدة و"إيلينا" لا تفعل شيئًا سوى الشكوى من ألم كعبيها، إذ تُردِّد دومًا أنهما تضخما وصارا في حجم شمامتين ويحيلان كل خطوة تخطوها إلى معاناة كبيرة وحقيقية. تنهَّدت المرأة وتناولت مفتاح المكتب من حقيبتها وفتحتِ البوابة.

سحبت "أنَّا" دراجتها ولحقت بـ"إيلينا".

حالما رأتها "إيلينا" وقد وصلت إلى المكتب باكرًا، صاحتْ في دهشة وسألتها: "هل أيقظوكِ من النوم مبكرًا هذا الصباح؟".

أجابت "أنَّا": "لم أتمكنْ من النوم كثيرًا الليلة على أيِّ حال ولا أعرف السبب". ثم وضعتْ حقيبتها على المنضدة.

علَّقت "إيلينا" وهي تنزع عنها معطفها القماشي: "إيه، أنا أعلمُ منكِ بذلك؛ فأنا أعاني الشيء ذاته. منذ وقتٍ قصير وأنا لا أنام جيدًا. إلى الآن ما زلتُ أسمع في بعض الأحيان صوتَ صفارات الإنذار في أذني".

وصلت "كيارا" إلى المكتب بعد ذلك بلحظات قليلة. كانت لا تزال كما هي فتاةً نحيلةً بنظارتها ذات العدستين السميكتين، ولكنها صارتِ الآن تبتسم أكثر من السابق. يتحدث الناس في البلدة عن أنها أوقعت في حبها طبيبًا ما؛ ذلك الطبيب الجديد الذي وصل إلى البلدة خلال مدة الحرب وظل يعالج والدتها حتى آخر لحظات حياتها. كانت "إيلينا" تطلق باستمرار نِكاتًا خبيثة حول "كيارا" محاولةً

معرفةَ أي شيء إضافي عن قصة حبها هي والطبيب، لكنْ ذهبت كل محاولاتها أدراج الرياح؛ إذ لم تنجحْ في انتزاع كلمة واحدة من فم زميلتها.

وصل "كارمينيه" أيضًا إلى المكتب وكان محنيَّ الرأس ويسير بعرج طفيف. كان عليه أن يحلق لحيته عندما استُدعِي إلى الحرب، ولكنها نبتت مجددًا الآن وصارت شعثاء وممتلئة بشعرات بيض. لم يرغب "كارمينيه" قطُّ يومًا في الحديث عن تلك الأيام القليلة التي قضاها في الجبهة؛ فلم يعلم أحدٌ في البلدة سوى أنه سافر برفقة "ماريو" ماسح الأحذية، في الثلاثين من أغسطس عام 1942 وأنه نجا من الموت في حين لقي "ماريو" مصرعه في أثناء الحرب. كان الاثنان على متن ناقلة نِفْط تدعى "سانت أندريا" التي حالما أبحرتْ من ميناء "تارانتو" متجهةً إلى اليونان قصفتها عشرون طائرة إنجليزية فاشتعلت فيها النيران ثم غرقت. عاد "كارمينيه" إلى المنزل مصابًا بحروقٍ في قدمه، بالرغم من ذلك ظل محتفظًا بشخصيته السيئة دون أي تبديل أو تغيير. تمتم "كارمينيه" حينئذ بـ"مرحبًا" مقتضبة وتوجَّه في الحال وجلس في مكانه. وعندما سألته "إيلينا" عن حاله، تحسَّس لحيته وأجاب: "مثل العادة، وكيف يجب لحالي أن تكون؟". وجوابه ذلك يعني أنه لم يحتسِ بعد قهوته الثانية لذلك الصباح.

كان "تومَّازو" هو آخر من وصل إلى المكتب. ألقى على الجميع تحيةَ الصباح بابتسامته اللطيفة المعتادة محتضنًا حقيبته الجلدية، ثم توجَّه نحو مكتبه. كثيرًا ما اعتقدتْ "أنَّا" بالنظر إلى مديرها أن حجم عينيه يتضاءل أكثر يومًا بعد الآخر. فنظرته الرقراقة الحانية والمفعمة بالحماسة اختفتْ بكل تأكيد منذ بعض الوقت وتحديدًا في تلك الليلة التي نزعته الحرب فيها أغلى ما يملك في هذا العالم. حرمته الحرب من حبيبته وزوجته "چوليا"؛ فالقلب الضعيف لتلك الفتاة التي أحبها كثيرًا لم يحتملْ ذلك العدد اللانهائي من صفَّارات الإنذار التي كانت تقض مضجعها وتوقظها فزعةً. توفيت "چوليا" في الطريق الفاصل بين بيتها ومعصرة الزيتون

الخاصة بـ"أنطونيو"، تلك المعصرة التي كانت صباحًا هي المكان الذي يقصده أهل البلدة ببطاقات تموينهم لحجز حصتهم من الزيت، أما في الليل فيصبح الملجأ الأكثر أمانًا في البلدة والذي يحتمي فيه السكان من الغارات الجوية.

عندما كان يبدأ ذلك الصفير المدوي الرهيب الذي يدوم في العادة خمس عشرة ثانية -تتخللها خمس عشرة ثانية أخرى من الصمت- يندفع السكان بأعداد كبيرة إلى هناك، لاهثين، ملتحفين بمعاطف أخفتْ بالكاد ما أسفلها من منامات الرجال وقمصان نوم النساء. كثيرة هي الليالي التي قضاها أهل البلدة هناك، متجمعين معًا بجانب بعضهم، يتدثَّرون ببطانيات صوفية ثقيلة. لم ينجح في مواصلة النوم سوى الأطفال الذين يجلسون في أحضان أمهاتهم، فيما كان الكبار ينظرون إلى بعضهم بنظرات مذعورة وآذان مُصغية، ينتظرون الأسوأ.

وها قد انتهى الآن الأسوأ.

انتهت "أنَّا" من ملء حقيبتها، وخرجتْ، وامتطتْ دراجاتها، وانطلقتْ. قطعت فقط بضعة أمتار عندما سمعتْ صوت آلة تنبيه سيارة وراءها، فأنزلت قدمها على الأرض والتفتتْ فإذ بـ"أنطونيو" يقترب منها بسيارته ويخفض زجاج النافذة. قال مازحًا: "هل تحتاجين إلى أن أقلكِ معي إلى مكان ما؟".

ابتسمت "أنَّا" وأجابته: "لا شكرًا، لا أثق بالطريقة التي تقود بها السيارة".

انفجر "أنطونيو" ضاحكًا وقال: "لديكِ حق في هذا!".

كان على "أنطونيو" أن يحصل قبل عامٍ واحدٍ على رخصة قيادة وذلك عندما أهداه "كارلو" سيارته "الـ508". لم يعدْ حينها "كارلو" بحاجة إليها بعدما اشترى سيارة أخرى ماركة "فيات 1100" ذات لون أسود لامع. قال "أنطونيو" حينها محاولًا رفض الهدية: "من الأفضل أن تبيعها على أن تعطيني إياها. ماذا سأفعل بها؟ هل يبدو لك أنه من السهل عليَّ أن أتعلم شيئًا جديدًا وأنا في الخامسة والأربعين من عمري؟".

لكنَّ "كارلو" لم يكن يرغب في الاستماع لأي أعذار وأصرَّ قائلًا: "خذها من فضلك؛ فلم يعدْ بإمكاني رؤيتكَ تتجول في البلدة على قدميك".

أجاب "أنطونيو": "ولكنَّ المشي على القدمين يروقني حقًّا".

على الرغم من محاولته رفض الهدية فإنه استسلم في النهاية وأعلن قائلًا: "ولكني سأستخدمها فقط عند الضرورة".

هكذا صارت الأمور فعلًا. ففي أغلب الأوقات كانت سيارة "الـ فيات 508" تبقى متوقفة أمام باب منزل "أنطونيو" الذي لا يستخدمها سوى عندما يتعيَّن عليه الذَّهَاب إلى مكان ما خارج حدود البلدة. سألته "أنَّا": "إلى أين أنت ذاهب الآن؟".

أجابها: "سأجري زيارةً قصيرةً لمصنع النبيذ".

قالت "أنَّا": "أخبرني إن حدث ووصلت إلى هناك حيًّا ترزق". ثم مدتْ إليه يدها وودعته مصافحة إياه، وأمسكت من جديد بمقود الدراجة وأكملت طريقها.

ضحك "أنطونيو" ضحكةً خافتةً وانعطف يمينًا. كان قد قطع منتصف الطريق الريفي المؤدي إلى مصنع النبيذ عندما بدأت السيارة تهدر، ثم انطفأ المحرك فجأة. انتاب "أنطونيو" شعورٌ بالحيرة ثم خفض نظره وانتبه أنه منذ اللحظة الأولى التي توقف فيها بسيارته للتحدث مع "أنَّا" وحتى تلك اللحظة التي انطفأ فيها المحرك كان واضعًا السيارة على الغيار الأول، وهكذا قطع تقريبًا الطريق بأكمله، ولم يفكر حتى في أن ينقلها إلى الغيار الثاني. نجح "أنطونيو" على أيِّ حال بعد محاولتين في إعادة تشغيل السيارة، وعندما وصل إلى مصنع النبيذ أوقف السيارة في الفضاء المفتوح الواقع أمام المصنع حيث تركن العربات المستخدمة في نقل العنب من الكرم.

دفع "أنطونيو" مصراعَ البوابة الخشبية الموارَب ونظر حوله باحثًا عن أخيه ونادى: "كارلو".

رد "كارلو" قائلًا: "أنا هنا بالأسفل".

نزل "أنطونيو" درجات السلم المؤدي إلى الطابق السفلي حيث غرفة تخزين النبيذ وأحواض النبيذ الخرسانية. أدرك "أنطونيو" وهو يرتجف بردًا أن هذا الطابق السفلي باردٌ جدًّا طَوال الوقت.

كان "كارلو" يتحدث مع رجلٍ مسن ذي قامة أقصر منه. له وجنتان غائرتان ومليئتان بالتجاعيد، كان يرتدي حمالة بنطال ويعتمر قبعةً مسطحةً. حثَّ "كارلو" أخاه على التقدم ملوحًا له بيده وقال: "تعالَ يا "أنطونيو"، تعال! إنه "فرانكو"، تحدثتُ معكَ عنه من قبل، أليس كذلك؟".

أجاب "أنطونيو" وهو يصافح الرجل: "بلى، طبعًا".

أوضح "كارلو" في رضا وحبور: "ها قد وصلنا أخيرًا إلى اتفاق".

وضع يده على كتف الرجل الذي علق قائلًا: "يبدو أننا وصلنا حقًّا إلى اتفاق".

كان هذا الاتفاق يتعلق ببيع أرض تبلغ مساحتها عشرين ألف مترٍ مربعٍ، وتقع على مقربة من كرم "جريكو" وهي الأرض التي تطلع "كارلو" إليها فعلًا منذ مدة. أراد "كارلو" توسيع رقعة كرمه، أو بالأحرى كان عليه أن يزيد من إنتاجه من النبيذ، خاصة أن الأمور المتعلقة بالعمل والتجارة بدأت تسير أخيرًا في نصابها الصحيح. لم يكن من اليسير قطُّ مواصلة إنتاج النبيذ خلال الحرب، إذ إن عددًا كبيرًا من الفلاحين وعمال الأراضي قد استُدعوا إلى الجبهة، ومع أنَّ بعض زوجاتهم قد حللنَ محلهم في الحقول، فإن القوى العاملة ظلت غير كافية، ومن ناحية أخرى أجبرت صعوبة إيجاد زجاجات للتعبئة "كارلو" على الإبطاء من عملية الإنتاج.

وظلَّ الوضع على ما هو عليه حتى وصل الأمريكيون. ففي الحادي عشر من سبتمبر عام 1943 وبينما كان شمال إيطاليا لا يزال في أيدي الألمان وتحت سيطرتهم، ومع هروب ملك إيطاليا "ڤيتُوريو إيمانويليه الثالث" نحو "بريندیزي"، ودخول البلاد بأكملها في حالة من الفوضى رست سفن الأمريكيين في "تارانتو" و"بريندیزي". حينئذٍ أدرك "كارلو" أنها الفرصة المناسبة التي كان ينتظرها منذ

فترة طويلة كي يُحقِّق ما أسماه بـ"القفزة". فكَّر "كارلو" أنه لا بُدَّ أن يستغل أحدهم الفرصة المتاحة لضخِّ الكحول للجنود الأمريكيين. ولمَ لا يكون هو على وجه التحديد من يفعل ذلك؟ فهو يمكنه أن يراهن بأي شيء على أن هؤلاء الجنود الأجانب لم يذوقوا يومًا نبيذًا طيبًا كالنبيذ الذي يصنعه هو. هكذا أصدر "كارلو" أوامره بإعداد صندوقٍ من زجاجات "دونَّا أنَّا" وتحميله على سيارة "الفيات 508".

سأله "دانييليه" الذي رقَّاه "كارلو" إلى مدير مصنع ومخزن النبيذ بعدما أُرسِل المدير السابق للقتال في الشمال، فأجابه "كارلو" وهو جالس إلى مكتبه يكتب برقية ليرفقها بالصندوق: "إلى "بريندیزي" يا ابني". وأضاف مبتسمًا وهو يدير إبهامه في الهواء: "سنرسله إلى الملك شخصيًّا! وإن كنتُ على حق فرشفة واحدة من نبيذي ستكون كافية ليعجبهم مذاقه وحينها سيرسلون في طلب الكثير من الصناديق الأخرى".

نظر إليه "دانييليه" بنظرة مرتبكة، ولكنه لم يطرح عليه أي سؤال آخر.

بعدما أرسل "كارلو" هذا الصندوق وبعد مرور مدة توقفتْ ذات يوم أمام مصنع النبيذ سيارةٌ ماركة "چيب" على متنها ثلاثة جنود. صافح أحد الضباط "كارلو" وقدَّم نفسه على أنه مفوَّض الإمدادات بالجيش الأمريكي. شكره بإيطالية ركيكة على هذه الهدية اللطيفة التي أرسلها إليهم والتي استمتعوا إلى أقصى حد ممكن بشربها، كما أخبره أنه قد أتى خصوصًا قاطعًا كل هذه المسافة ليتعرف الرجلَّ الذي أنتج ذلك النبيذَ الاستثنائيَّ اللامعَّ ورديَّ اللون الذي تفوح منه رائحة الكرز والتوت الأزرق. ابتسم "كارلو" في المقابل ورافق الجنودَ الثلاثة في جولة داخل قبوه، فيما كان "دانييليه" يسير بجانبه متدخلًا في الحديث بين الحين والآخر أو مكتفيًا في أغلب الوقت ببعض حركات من يديه، ليشرح للضيوف بعض مراحل صناعة النبيذ. في نهاية الجولة أومأ له الضابط بنظرة راضية وطلب من "كارلو" قبل أن يغادر كميةً ضخمةً من نبيذ "دونَّا أنَّا" من أجل

القوات الأمريكية. حالما ابتعدت العربة "الچيب" صاح "كارلو" قائلًا: "كنت أعلم أن هذا سيحدث!" سيطرتْ عليه لحظة من الحماسة دفعته إلى أن يأخذ برأس "دانييليه" بين يديه ويقبِّل شعره. احمرَّ وجه الصبي خجلًا في البداية لكنه أسلم نفسه في ما بعد إلى نشوة السعادة وضحك هو أيضًا.

ألقى "فرانكو" التحية ورفع قبعته وهمَّ بمغادرة الغرفة. قال له "كارلو" قبل أن يتجه نحو الدرج كي يصعد: "سأخبرك عندما يصل إليَّ خبر عن الموعد الذي سيتمكن فيه كاتب العدل من استقبالنا". ثم أضاف وهو يضع ذراعه حول رقبة "أنطونيو": "أخبرني إذن يا أخي الأكبر ما الذي أتى بك إلى هنا؟ كم مرة توقفت بك السيارة في الطريق؟".

رد أخوه: "مرة واحدة فقط".

علَّق "كارلو": "أوه، ها نحن نحرز تقدمًا!".

قال "أنطونيو": "مرَّت ثلاثة أيام دون أن أراك، لقد اشتقتُ إليك".

قال "كارلو" ساخرًا وهو يضغط بأصابعه خديْ أخيه: "أخي العاطفي جدًّا".

في تلك اللحظة ظهر "دانييليه" في غرفة تخزين النبيذ وقال: "سيد كارلو".

أجابه الأخير: "أخبرني يا بني".

قال "دانييليه": "سأذهب إلى الكرم، لقد أصبحتْ آلة غطاء الفلين للنبيذ جاهزة".

قال "كارلو": "جيد جدًّا نعم، طبعًا، اذهب على الفور". إلا إن "دانييليه" تردد قائلًا بخجل واضح: "هل يمكنني يا سيد "أنطونيو" أن أسأل عن حال "لورينسا"؛ فأنا لم أرَها في البلدة منذ مدةٍ قصيرةٍ".

أجابه "أنطونيو" وهو يدسُّ يديه في جيبي بنطاله: "حالها متقلب ما بين جيد وسيئ".

رد "دانييليه" بحزن: "أفهم ذلك، ربما يمكنني خلال هذه الأيام أن أصحبها إلى السينما لتشاهد فيلمًا ما برفقة صديقاتها كي أنسيها قليلًا. هذا طبعًا إن أذنت لي".

غمغم "أنطونيو" قائلًا: "إنه للطف منكَ أن تقلق بشأنها". أما بخصوص الطلب الذي طلبه منه الصبي فمرَّ مرور الكرام ولم يلقَ آذانًا مُصغية. تدخل "كارلو" معلقًا: "اطمئن، ستعود كما كانت، أنتم لا تزالون صِبية وفي مثل عمركم هذا كل شيء يمر وينتهي".

أومأ "دانييليه" غير مقتنع ثم ودَّع كليهما وانطلق نحو الدرج.

صرخ "كارلو" والصبي يبتعد وقال له: "أوصل إلى جدك سلامي، لا تنسَ! وأخبره أنني سأذهب لزيارته حالما أستطيع".

صار "دانييليه" و"لورينسا" صديقين في مارس عام 1943. وبالتحديد عندما وقع "چاكومو" الصديق المقرب لـ"دانييليه" وابن بائع الفاكهة، في الحب. كان "چاكومو" يلكزه عندما يرى "لورينسا" تمرُّ من أمامهما عند متجر أبيه ويقول: "انظر كيف أصبحتِ ابنة "أنطونيو جريكو" جميلة".

في بعض الأحيان كان "چاكومو" يدعوها بصفارة من فمه ويشير إليها كي تقترب منهما. في حين كان "دانييليه" يوبخه بهدوء ولطف وهو يمسك بذراعه ويخفضه كيلا يشير إليها ويقول له: "ششش، ماذا تفعل؟ أهكذا تدعو الفتيات؟".

إلا أن "چاكومو" لم يكنْ يلقي له بالًا، بل يأخذ كذلك أي ثمرة من أقرب صندوق فاكهة يجده أمامه ويقدمها لـ"لورينسا" ممسكًا بها في راحته ويقول لها: "أطيب فاكهة في البلدة لأجمل فتاة".

كانت تبتسم في خجل وتأخذ الثمرة بين يديها وتشكره. تلك الثمرة كانت في بعض الأحيان برتقالةً كثيرةَ العصارة وأوقات أخرى كانت كمثرى أو يوسفي. وعندما تغادر يظل "چاكومو" واقفًا يحدق إليها مبهورًا بجمالها؛ كان يبدو كأن عينيه ليستا فقط ما كانتا تبتسمان، وإنما أيضًا كل النمش الذي يغطي وجهه.

لاحظ "دانييليه" طبعًا أن ابنة أخ السيد "كارلو" كبرت وصارتْ جميلة. هو يتذكرها عندما كانت لا تزال طفلةً؛ فكثيرًا طبعًا ما تقابلا، لكنْ لم تتحيَّن لهما قطُّ الفرصة ليتحدثا معًا بشكلٍ حقيقي مدةً طويلةً مع أنَّهما في العمر نفسه تقريبًا. عندما كبرتْ "لورينسا" طالت قامتها، واستدارتْ، وازداد طول شعرها النُّحاسي اللامع وصار ينسدل على ظهرها، أما عن البثور التي كانت تغطي وجهها من قبل فقد اختفتْ تاركة مكانها بعضَ الآثار البسيطة جدًّا التي لا يمكن رؤيتها إلا عن قرب. لطالما اعتقد "دانييليه" أن عينيها تشبهان عيني السيد "كارلو" حين يبتسم؛ فهما تبعثان البريق ذاته الذي يجعلهما تبدوان كأنهما تضيئان من الداخل.

بدأ "چاكومو" يغازلها بوقاحة وبلا خجل، إذ كان ينتظر مرورها في صباح أيام الأحد في ميدان البلدة الرئيسي جالسًا على أحد المقاعد المنزوية؛ وفي حال كانت بمفردها دون أمها أو زوجة عمها ينتهز الفرصة ويظهر فجأة من خلف ظهرها ويقول لها رافعًا قبعته: "صباح الخير يا أجمل فتاة". ثم يضيف وهو يشير إلى "دانييليه": "هل يمكنني أن أصحبكِ أنا وصديقي إلى بيتك؟".

أجابت "لورينسا" بنبرة يطغى عليها المرح: "إنهما مجرد خطوتين".

قال "چاكومو" مبتسمًا: "وماذا في ذلك؟ خطوتان اليوم وخطوتان في الغد وهكذا...".

هكذا كان ينطلق ثلاثتهم في الطريق نحو بيت "لورينسا"، فيما يُفضِّل "دانييليه" أن يبقى متأخرًا دومًا عنهما ببضع خطوات، ولكنه على الرغم من ذلك كان يستمع لصوت "لورينسا" وهي تحكي عن أحداث يومها وعن زميلاتها في المدرسة وعن متى ستنتهي الحرب، ولكنَّ أكثر ما كانت تحكي عنه هو ما كانت تتعلمه في المدرسة الثانوية كقصة حب "باريس" و"هيلين"، والتنافس ما بين "أخيل" و"هيكتور"، ورحلة "أوليس" الطويلة كي يعود إلى بيته. كان "چاكومو"

يسير بجانبها وهو ينظر إليها بإعجاب وانبهار دون أن يتفوَّه بكلمة واحدة. وحالما تصل "لورينسا" إلى بيتها وتدخل، يسأل "چاكومو" "دانييليه": "أنا لا أملُّ أبدًا من الاستماع لحديثها. فهل هذا يعني أنني أحبها؟".

في ظهيرة أحد الأيام من شهر مايو عام 1943 دعتْ "لورينسا" الصبيين إلى السينما ورافقتها زميلتان من المدرسة لهما مظهر محترم ولطيف جاءتا من "ليتشي" في ذلك اليوم، حسب ما قالت "لورينسا"، كي تقوم ثلاثتهنَّ بالواجبات المدرسية معًا. وعلى الرغم من ذلك فهم "دانييليه" على الفور من النظرات الملمِّحة التي كنَّ يتبادلنها في ما بينهنَّ أن ذلك الأمر المتعلق بالواجبات ما هو إلا حجة، وأنهن فكَّرن في تلك النزهة ونسقنها معًا، آخذات في الاعتبار أدق تفاصيلها.

ذهبوا لمشاهدة فيلم "عودة طيار" لـ"روبرتو روسِّيلِّيني" حفلة ما بعد الظهيرة. اختارتْ "لورينسا" مقاعدَ للجميع في الصفِّ الأخير من قاعة السينما، جلستْ هي أولًا ثم نظرت إلى "چاكومو" بنظرة فهم منها أنها تريده أن يجلس في المقعد المجاور لها. أما "دانييليه" فوجد نفسه جالسًا وسط الفتاتين الأخريين اللتين لم يتذكر حتى اسميهما. وفي ما بعد أدرك "دانييليه" أنه لم يتذكَّر أي شيءٍ تقريبًا حتى عن الفيلم نفسه. كان شارد الذهن طَوال الوقت محاولًا فهم ما يحدث في الكرسيين اللذين يفصلهما عنه مسافة تقدر بحجم أريكة حيث جلست "لورينسا" و"چاكومو". كان يسمعهما يضحكان ويتحدثان بصوتٍ خافتٍ، فيما كانت الفتاتان تبحثان عن أعين بعضهما في الظلام وتغمزان لبعضهما كما لو كانتا تريدان أن تقولا: "هل رأيتِ؟"، وفي تلك اللحظة من الفيلم حينما قال "ماسِّيمو چيروتِّي" لـ"ميكيليه بيلمونتيه": "أنتِ كل شيء بالنسبة إليَّ"، وهي الجملة السابقة للمشهد الذي يُسمع فيه ضجيج القصف الليلي، انتبه "دانييليه" أن صديقه "چاكومو" قد أخذ بوجه "لورينسا" بين يديه ووضع شفتيه على شفتيها.

مضتْ قصةُ حبهما قُدمًا تدعمها وتزيد من تأججها قبلات مسروقة في الطرق الضيقة والأزقة، حيث كان "دانييليه" يؤدي دور الحارس ليتأكد من عدم مرور أي شخص في الأثناء. وكذلك نظرات تآمُرية يتبادلانها في ميدان البلدة الرئيسي أو في متجر الفاكهة الخاص بأبيه، ولقاءات نظَّماها ببعض الحيل والأكاذيب كتلك المرة حينما خدعت "لورينسا" والديها وأخبرتهما أنها ذاهبة لتذاكر مع صديقاتها، وركَبت الحافلة المتجهة إلى "ليتشي" وهي الحافلة ذاتها التي سافر على متنها "چاكومو"، مع أنَّهما تركا مسافة مناسبة حتى لا يثيرا الشكوك حولهما، وجلسا على مبعدة من بعضهما. في ظهيرة ذلك اليوم، ووَفْقَ السر الذي أفضاه "چاكومو" في اليوم التالي لــ"دانييليه"، مارس هو و"لورينسا" الحبَّ في كوخ من القش موجودٍ في أرضٍ ريفية عند أبواب مدينة "ليتشي". كانت هذه بالنسبة إلى "لورينسا" أول مرة تمارس فيها الحب، لذا بكتْ، ليس حزنًا وإنما من فرط السعادة. أما عن "چاكومو" فقرر بينه وبين نفسه فيما يعانقها وهي عارية وترتجف: "سأتزوجها". وأفصح لها عن نيته هذه بجدية بعد لحظة واحدة من التفكير إذ قال لها: "سآتي للتحدث مع أبيكِ يوم الأحد".

ضمتْه "لورينسا" إليها، وقالت: "لا أرغب في أي شيء آخر".

المرة الأخيرة التي التقى فيها "لورينسا" و"دانييليه" "چاكومو" كانت في صباح يوم الجمعة 2 يوليو من العام نفسه. وكان على "چاكومو" أن يذهب إلى بيت "لورينسا" لطلب يدها بعدها بيومين. سألهما "چاكومو" فيما ينقل أقفاص الفاكهة إلى داخل المحل: "هل سمعتما من قبل بــ"عيد زيارة العذراء" الذي يُقام في بلدية "ساليتشيه سالينتينو"؟ كان "دانييليه" جالسًا على الرصيف فيما بقيت "لورينسا" واقفةً على قدميها ممسكةً بكيس الكرز الذي اشترتْه لتوها؛ إنه الكيس الثاني الذي تشتريه خلال يومين! شرح لهما "چاكومو": "أذهب لحضور الاحتفال بهذا العيد منذ كنت صغيرًا، لقد وُلِدَتْ أمي في ذلك المكان ولا يزال

أجدادي يعيشون هناك أيضًا، وفيها سيقام معرض كبير يتوافر فيه كل شيء، في العام القادم سننسق معًا كي تأتيا أنتما الاثنان أيضًا".

في يوم الحادث وبينما كان الحفل قائمًا فعلًا أسقطتْ قاذفةُ قنابل أمريكية طراز B-24 قنبلةً بالقرب من منزل أجداد "چاكومو" وهو مزرعةٌ واسعةٌ تمتد خلال الريف الفسيح، وفي هذا البيت كانت الأسرة بأكملها تتناول غداءها عندما وقعت الكارثة. وحدها أم "چاكومو" زوجة "ميكيليه" بائع الفاكهة، هي من نجت من هذا الهجوم ولم ترِ أيَّ شيء عما حدث ذلك الصباح سوى أنها وصفتْ ذلك الضجيج المدمِّر المصاحب لسقوط القنبلة، وتحدثتْ عن الحيوانات التي كانت موجودة في المعرض والتي خرجت عن السيطرة وهربتْ في حالة من الذعر الشديد، لذا أخذت تدوس وتسحق كل ما يقابلها من أشياء وأشخاص.

شاركتِ البلدة بأكملها في الجنازة وعجَّت الكنيسة بالمعزِّين وكافح "دانييليه" كي يتحكم في البكاء والنشيج اللذين غرق فيهما. ظلت "كارميلا" التي جلست بجواره تهمس له في غضب بأنه لا بُدَّ أن يتحكم في نفسه، ويسيطر على شعوره، ويتوقف عما يفعله، فبكاء الرجل في مكانٍ عامٍ وأمام الناس ليس بالشيء الجيد الذي يستحق المشاهدة.

عندما حُمِلَ نعشا "چاكومو" و"ميكيليه" إلى خارج الكنيسة وبينما تحرك خلفهما موكب الجنازة ببطء متجهًا نحو المقبرة، أفلتت "لورينسا" ذراعها من أسفل ذراع أمها وتقدمت في طريقها حتى اقتربت من "دانييليه" وعانقتْه فجأة. عندما رأت "كارميلا" هذا المشهد لم تعرفْ كيف عليها تفسيره. أما عن "دانييليه" فوضع يده على ظهر "لورينسا" واخترقت الرائحة الخفيفة لشعرها المغسول حديثًا أنفه.

بدأت "لورينسا" تبكي منتحبة وهي لا تزال في أحضان "دانييليه"، ثم أطلقتْ فجأةً صرخةً قويةً أحس بها "دانييليه" كأنها تجسدت أمام عينيه ورآها تكبر وتتضخم وتشغل حيزًا أكبر بالتدريج حتى ملأت الشوارع وميادين البلدة.



ذلك المساء عاد "دانييليه" في أعقاب جنازة صديقه إلى بيته الصغير الذي انتقل إليه منذ مدة قريبة. لقد عاشتْ جدته لأبيه في هذا البيت طَوال حياتها وحتى وافتها المنية في بداية صيف عام 1940. كانت جدته امرأة خجولًا ولطيفة. تولَّد داخل نفس "دانييليه" اقتناع بأن جدته استسلمت للموت خصوصًا كيلا تشهد حربًا أخرى. إن بيته الجديد هذا صغيرٌ بحق؛ فهو مكوَّن من غرفتيْن فقط. يغطي العفنُ حوائطَ البيت باستمرار، وفي الشتاء يصبح من المستحيل تدفِئة البيت، وعلى الرغم من ذلك فـ"دانييليه" يرفض استبدال بيتٍ آخر بهذا البيت. إنه أول بيت حقيقي يخصُّه وحدَه هذا بالإضافة إلى أنه المكان الذي يُمكِنه أن يمارسَ فيه هوايته المفضلة وهي تصميم الفساتين، وذلك بعد أن يفرغ من عمله في مصنع النبيذ. فهناك يمكنه أن يصمِّم الفساتين ويحيكها في هدوء وسلام بعيدًا عن أنظار أمه. اشترى "دانييليه" بالأموال التي نجح في ادخارها ماكينةَ خياطةٍ ماركةَ "سينجر" والتي شغلت منتصف مساحة غرفة الطعام والمطبخ في الآن ذاته. وفي إحدى زوايا تلك الغرفة تكدَّست لفافات القماش بمختلف ألوانها وأنماطها. عندما توقَّف "دانييليه" للمرة الثالثة أمام كشك القماش في سوق يوم السبت ليعاين القماش المعروض كانت عيناه تلمعان من السعادة، ولكنه لم يقتربْ ولم يجرؤْ على شراء أي شيء. انحنتْ بائعة القماش التي صفَّفت شعرها إلى أعلى قليلًا، وابتسمتْ له ابتسامةً مطَّلعة ذات مغزى بدا منها كأنها فهمتْ فعلًا ما يفكر فيه "دانييليه" وما يرغب فيه، لذا همست له قائلة: "تعالَ لزيارتي في البيت أيها الصبي، هكذا يمكنك أن تختار ما تريد بهدوءٍ".

أما في خزانة الملابس الكائنة في الغرفة المجاورة لغرفة الطعام والمطبخ يوجد أيضًا السرير الذي علق عليه "دانييليه" ثلاثة فساتين لم ترتدِها بعد أي امرأة.

حالما عاد "دانييليه" من الجنازة جلس إلى طاولة الخياطة، وفتح دفتر التصميمات الخاص به على صفحة بيضاء فارغة. لم يكنْ ينجح في انتزاع الجنازة وما كانت تشعر به "لورينسا" وهي تحتضنه من يأس وحزن لا يواسيه شيء في ذهنه. لذا أمسك حينها بقلمه الرصاص وبدأ يخط رسمًا أوَّليًّا لفستان جديد سيصممه خصوصًا لها.



13
يونيو 1946

في المساء الذي سبق يوم 2 يونيو 1946، قرَّرت "أنَّا" قصَّ شعرها. تحركت ببطء كيلا توقظ "كارلو"، وجلستْ إلى تسريحتها ونظرتْ إلى انعكاسها في المرآة من خلال ضوء المصباح الخافت. داعبتْ شعرها الأسود الطويل الذي تتخلَّله بعض خصلات فضية اللون ثم قسمت شعرها إلى نصفين؛ وجعلت كلا الجزءين ينسدلان على صدرها. أخذت بعد ذلك المقص من فوق الرف الرخامي للتسريحة ودون أن تتوقف عن التحديق إلى صورتها في المرآة قصَّت شعرها بحركة واحدة حاسمة من المقص لكل جزء؛ بدأتْ بالجزء الأيسر ثم الأيمن. قصَّت شعرها ليصل إلى نهاية عنقها. بلَّلتْ يديْها بالمياه ومرَّرتها خلال شعرها ثم أخرجت بكرات الشعر أخيرًا من أحد الأدراج ولفَّتْ كل جزء من شعرها في بكرة ثم ذهبت للنوم.

كان الزيُّ الذي اختارتْه معلقًا على باب خزانة ملابسها. ستذهب "أنَّا" للتصويت للمرة الأولى في حياتها مرتديةً طقمًا أخضر بلون الريحان؛ تضيق

سترته من الخصر فيما تضيق التنورة من الركبتين لتتسع من الطرف ويكتمل الطقمُ بقميصٍ رقيقٍ وردي اللون من الحرير الصناعي.

أسهمت "أنَّا" أيضًا بدورٍ خاص كي يأتي أخيرًا ذلك اليوم الذي جنت فيه هي وغيرها ثمار محاولتهنَّ وجُهْدهنَّ. ففي أكتوبر من عام 1944، قرأت "أنَّا" في الجريدة نداءً أطلقه الاتحاد النسائي الإيطالي، إذ أوضحتْ مسؤولاتُ الاتحاد أنهنَّ أسسن لجنة تدعو إلى الموافقة على السماح للسيدات بالتصويت في الانتخابات المحلية التي ستقام في 1946. شعرتْ "أنَّا" حالَ قراءتها هذا الإعلان بنشوة وابتهاج وانتابتها رغبة بالمشاركة في هذا الحدث بطريقة ما، فأخذت حُزْمة من الأوراق البيض، ونسخت على إحداها، بخط يدها الدائري الرشيق، نصَّ العريضة التي دعا فيها الاتحاد النسائي الإيطالي جميع النساء في كل بلديات إيطاليا إلى التوقيع عليها. وجاء في نص العريضة: "**نحن نساء "ليتسانيلُّو" نطالب حكومة التحرير الوطني بمنحنا حقَّ التصويت والاعتراف بأهليتنا للاقتراع وأحقيتنا في المشاركة في الانتخابات المحلية القادمة. ونعتقد أن حرماننا هذا الحق من شأنه أن يترك المرأةَ في تلك الحالة نفسها من الدونية المجحفة التي أرادت الفاشية إبقاءها فيها؛ دونية ليست فقط مقارنة بالرجال داخل الدولة ذاتها، وإنما أيضًا مقارنة بالنساء الأخريات في جميع البلدان المتحضِّرة. لقد دمرتِ الفاشية، بسياستها الحربية المجنونة، منازلنا، وشتَّتْ أُسَرنا، وأثقلتْ كهولنا بمسؤوليات أكثرَ جدية وخطورة في العمل، وفي تعليم أطفالنا، وفي ما يخص النضالَ اليوميَّ من أجل البقاء. لقد ناضلنا جنبًا إلى جنب مع رجالنا ضد الفاشية وضد الطغيان والقمع الألماني، بإصرار وشجاعة خلال أشهر الاحتلال العصيبة. ونعتقد أننا اكتسبنا بذلك حقَّ المشاركة الكاملة في أعمال إعادة بناء بلدنا وإعمارها.**

ولذلك نطالب أن يدرس رجال الحكومة تطلعاتنا وآمالنا المشروعة ويفحصونها، وأن تُمنَح السيدات الإيطاليات أخيرًا ما يستحققن من عدالة ومساواة في الحقوق مع الرجال وهما ما يشكلان أساسَ كل نظام ديمقراطي حقيقي".

في صباح اليوم التالي لقراءتها تلك العريضة وكان يوم أحد، وبينما "كارلو" و"روبرتو" لا يزالان نائمين نزلت "أنَّا" إلى الطابق السفلي حيث غرفة المعيشة، وأخذت الطاولة الخشبية الصغيرة الكائنة بجانب مدخل المنزل وخرجت. سألها حفيد جارتها، وهو صبي شديد النحافة، حالما رآها تسير بالأوراق أسفل ذراعها فيما تحمل الطاولة الصغيرة في اليد الأخرى: "هل تحتاجين إلى مساعدة أيتها السيدة ساعية البريد؟".

أجابت هي مبتسمة: "لا شكرًا، سأتولى الأمر بنفسي".

حالما وصلت إلى ميدان "كاستيلُّو" وضعتْ طاولتها الصغيرة بجانب مقاعد الميدان، ووضعت فوقها الأوراق التي حملتْها معها من البيت؛ في أحد جانبي الطاولة كانت هناك ورقة تحمل نَصَّ العريضة التي أصدرها الاتحاد النسائي، وفي الجانب الآخر وُضِعَتْ مجموعة الأوراق البيضاء الفارغة التي ستجمع فيها إمضاءات سيدات البلدة.

مع أنَّ الوقت كان لا يزال مبكرًا، فإنها جذبتْ بلا شك الأنظار الفضولية لأهل البلدة ممن كانوا يتسكعون أمام البار، وأولئك الذين أوشكوا أن يدخلوا الكنيسة، وكل مَن كان يمر أمامها. تناقلت الألسن السؤالَ ذاته: "ماذا تفعل المرأة الأجنبية؟". كان أولُ من اقترب ليسترق النظر رجلًا مسنًّا يسير بعصا ويرتدي قميصًا أبيضَ وبنطالًا باللون نفسه يعبق برائحة الصوف الرطب.

سألها الرجل بصوته الأجش وهو يشير بعصاه إلى الطاولة: "ما هذا؟".

أجابته "أنَّا" بابتسامة: "نجمع توقيعات لنقدم طلبًا إلى الحكومة كي تمنح السيدات أيضًا حق التصويت، هل تعلم أنها مبادرة وطنية؟".

عبس الرجل ثم واصلت "أنَّا" وهي تأخذ بورقة العريضة بين يديها: "هل يمكنني أن أقرأها عليك؟"، ثم أشارت إلى المقعد وقالت: "اجلس ها هنا، استرِح".

جلس الرجل على المقعد مترددًا قليلًا وواضعًا يديه على مقبض عصاه. في تلك اللحظة اقترب "ناندو" أيضًا ولحق به بعض الزبائن من البار، ثم وصلتِ امرأتان تتأبطان ذراعيْ بعضهما، وقد ربطتا على رأسيهما منديلًا أسود وكانتا تتوجهان صوب كنيسة "سان لورينسو". احتجَّ المسنُّ حالما فرغت "أنَّا" من قراءة الطلب وقال: "حسنًا أنتنَّ تُردن قلب موازين العالم". ثم استند إلى عصاه ونهض من المقعد.

ردتْ "أنَّا" معترضة في استياء: "ولمَ لا؟ هل لا تزال تعتقد حتى الآن أننا نعيش في عالمٍ مستقيمٍ؟".

لم يجبِ الرجل عن سؤالها وأدار ظهره لها وسار تجاه البار، ولحق به رجلان وهما يهزان رأسيهما رفضًا لما سمعاه. تدخَّل في تلك اللحظة "ناندو" وقد بدأت قسمات وجهه غاضبة وقال: "لا تبالي بما يقوله هذا الرجل، فهو لا يجعل زوجته تخرج من البيت حتى دون إذنه"، وقالت واحدة من السيدتين ذاتيِ المنديل الأسود في خجل: "أنا أريد أن أوقِّع".

أشرق وجه "أنَّا" وأعطتها القلمَ وقالت وهي تشير إلى الورقة البيضاء: "تفضلي، وقِّعي هنا".

ظلت "أنَّا" تفعل الشيء ذاته، إذ تذهب للجلوس في الميدان بطاولتها وأوراقها يوميًّا في وقت ما بعد الظهيرة بعد أن تنهي عملَها، واستمرَّ ذلك عدةَ أسابيع. كانت تُوقِف السيداتِ أو تنتظر أن ينتابهنَّ الفضولُ فيقتربن من تلقاء أنفسهنَّ، فتقرأ عليهنَّ العريضة، وكثيرًا ما كانت تشرح كذلك المقصود بكلماتٍ أبسط. ثم تقدِّم لهنَّ في النهاية القلمَ كي يوقعنَ وعلى وجهها ابتسامة.

سمعتْ "أنَّا" خلالَ ذلك الوقت أغربَ الأسئلة، فهناك من سألتها: "هل هذا التوقيع يُعَدُّ شيئًا شرعيًّا؟ ألن يأتي أحد في ما بعد من الشرطة للبحث عني إن وقعتُ؟"، وسألت

أخرى: "وهل هذا التصويت سيكون مساويًا لتصويت الذكور؟"، فيما استفسرت أخرى: "حسنًا، مع أنَّني لا أصدق جدوى هذا الأمر فإنني سأوقع على أيِّ حال، اتفقنا؟"، أو تقول أخرى: "أنا سأوقع، ولكنني لن أخبرَ زوجي أبدًا بهذا، وأنتِ أيضًا أيتها السيدة ساعية البريد لن تخبريه، أليس كذلك؟".

أكَّد لها "كارلو" منذ أول وهلة دعمَه "غير المشروط" لما تفعله، مع أنَّه ظل بعيدًا عن الصورة ولم يشاركْ في أي شيء، بل لم يذهب إلى طاولة جمع التوقيعات خاصتها، وسوَّغ ذلك قائلًا: "نحن على وشك أن نبدأ مرحلة التعبئة. لذا فأنا حقًّا لا أستطيع البقاء بعيدًا عن القبو".

أما عن "أنطونيو" فقد انضمَّ إليها في الميدان بعد بضعة أيام، حاملًا لافتة من الورق المقوى مكتوبًا عليها بأحرف كبيرة: "وقِّع هنا كي تُمنَح النساء حق التصويت". وعلق قائلًا: "اعتقدتُ أن هذه قد تكون مفيدةً لكِ". واستطرد وهو ينظر إلى الورقة: "إنها فكرة بدائية بعض الشيء، أعلم ذلك".

قاطعته "أنَّا" بابتسامة واسعة قائلة: "إنها فكرة مثالية، ضعِ الورقة ها هنا في المقدمة".

وضعها "أنطونيو" على الأرض، مسندًا إياها إلى ساق الطاولة الصغيرة. سألته "أنَّا": "لماذا لا تبقى معي وتساعدني؟".

قال: "إن شئتِ فسأفعل بكل سرور".

أجابت: " نعم، أريد ذلك".

ومنذ ظهر ذلك اليوم، وبقدر ما استطاع، شاركها "أنطونيو" عملها هذا، وجلس بجوارها إلى طاولة جمْع التوقيعات وبدأ يقلد بشكل كامل وبطريقة ممتازة كل شيء تفعله "أنَّا" بالضبط. بين الحين والآخر، كانت "أنَّا" تتوقف عن فعل كل شيء وتحدِّق إليه باهتمام وتركيز، وحالما يلاحظ "أنطونيو" تحديقها إليه يسألها: "ما الأمر؟"، فتحمر هي خجلًا وتجيبه: "لا شيء".

في غضون بضعة أسابيع تمكنَّا معًا من جمع عدد كبير من التوقيعات تُقدَّر بالمئات كان من بينها توقيعات جميع النساء اللاتي تعرفهنَّ "أنَّا" معرفةً شخصيةً كـ"چوفانَّا"، و"أجاتا"، وصديقات "أجاتا" اللاتي يؤدين معها صلاة المسبحة الوردية، و"لورينسا"، و"إيلينا"، و"كيارا"، وجارات "أنَّا"، وسكرتيرة "أنطونيو"، حتى "كارميلا"؛ اقتربتْ ذات يوم من طاولة التوقيعات بفستانٍ ضيق وقد وضعتْ أحمر شفاه من لون طلاء أظفارها نفسه وسألتها: "أين يجب أنْ أوقِّع؟".

وفي بداية شهر يناير لعام 1945 وضعت "أنَّا" الأوراق الموقعة في ظرف أصفر وكتبتْ عليه عنوانَ المرسَل إليه، وقد سيطر عليها شعورٌ تام بالرضا: "**لجنة مبادرة الاتحاد النسائي الإيطالي، شارع 4 نوفمبر، رقم 144، روما**".



استيقظتْ "أنَّا" فجر يوم 2 يونيو وجلستْ من جديد أمام تسريحتها وفكَّت بكرات شعرها واحدةً تلو الأخرى. انسدل شعرها على جانبي وجهها في تموجاتٍ ناعمة، استيقظ "كارلو" أيضًا فيما تمرِّر زوجته الفرشاة بين خصلات شعرها. لمح "كارلو" زوجته مستعينًا بالضوء الخافت الذي يتسلَّل إلى الغرفة خلال الستارة ففرك عينيه ونهض مُسنِدًا ثقلَ جسده بالكامل على إحدى مرفقيه. صرخَ "كارلو" في تلك اللحظة تجاه باب الغرفة قائلًا: "أنَّا"! هناك امرأة لا أعرفها في غرفة النوم ويبدو أن لها نوايا سيئة، بل سيئة جدًّا".

استدارت "أنَّا" وهي تضحك وقالت: "أنت أحمق حقًّا".

قال "كارلو" وهو لا ينجح في إبعاد عينيه عنها: "أتعلمين؟ تبدين جميلة بحق هكذا".

أجابته "أنَّا" بالفرنسية وهي لا تزال تصفِّف شعرها: "شكرًا!".

ثم قال "كارلو" وهو يُربِّت السرير: "تعالي إلى هنا! مقاعد الانتخاب يمكن أن تنتظر أكثر قليلًا، أما أنا فلا".



كنَّ قد قرَّرن سابقًا أنهنَّ سيذهبن معًا للانتخاب. لذا خرجتْ "أنَّا" ووصلتْ إلى بيت "أجاتا" وطرقتِ الباب. فتحتْ "أجاتا" البابَ وهي تلتقط أنفاسها ووجنتاها محمرتان جدًّا. سألتها "أنَّا" وهي تدخل إلى المنزل: "هل أنتِ بخير؟".

أغلقت "أجاتا" الباب وقالت وهي تهوِّي لنفسها بيدها، إذ كانت تتصبَّب عرقًا: "طبعًا لستُ بخير، أنا أحترق". ثم أردفتْ وهي تتجه نحو المطبخ وتلحق بها "أنَّا": "إيه؛ كانت أمي على حق، فالدورة الشهرية عقاب في وجودها وعقاب كذلك بعد انقطاعها".

صاحتْ "أنَّا" حالما رأتْ "لورينسا" وهي لا تزال في ثوب نومها وجالسةً إلى طاولة المطبخ تغمس البسكويت في اللبن قائلة: "ألم ترتدي ملابسكِ بعد؟".

قالت "أجاتا" شاكيةً: "منذ ساعة وأنا أحاول أن أجعل هذه الكسلانة تنهض من السرير، فيما أنا جاهزة فعلًا منذ بعض الوقت". ثم أضافتْ متسائلةً: "ماذا فعلتِ بشعركِ؟".

أجابتْ "أنَّا" وهي تُمرِّر جديلةً من شعرها بين أصابعها: "قصصتُه، هل أعجبكِ؟".

قطَّبت "أجاتا" جبينها وقالت: "لا أعرف، تبدين غريبة، أحتاج إلى أن أعتاد شكلكِ بهذه القصَّة الجديدة".

سألتها "أنَّا": "هل غادر "أنطونيو"؟".

أجابت "أجاتا": "نعم، منذ عشر دقائق".

أومأت "أنَّا"، ثم توجهتْ من جديد نحو "لورينسا" وقالت: "هيا يا "لورينسا"، أسرعي، ستكون "چوفانَّا" في انتظارنا الآن فعلًا".

أجابت "لورينسا" بنبرة ضجرة: "لن آتيَ".

سألتها "أنَّا": "ماذا يعني هذا؟".

أجابت: "لا يهمني التصويت في شيء".

تنهدت "أجاتا" وقالت: "لم تعدْ تريد أن تدرس، ولا تريد التصويت، ولا تريد بذل أي مجهود".

قالت "أنَّا" موبخةً: "لورينسا" كفى هراء، إن هذا اليوم مهمٌ لكِ أنتِ أيضًا".

عارضتها "لورينسا": "ربما لكما أنتما، أما لي فلا".

صاحت "أنَّا": "لا أسمح لكِ بقول أشياء من هذا القبيل، أنتِ تهينين نفسكِ قبل أي أحد إن لم تأتِ للإدلاء بصوتكِ". ثم مدت ذراعها وأمرتها: "اذهبي وارتدي ملابسكِ".

نهضت "لورينسا" عن الطاولة وهي تتأفف فصرخت "أجاتا" خلفها قائلة: "لقد أعددتُ لكِ ذلك الزي الأنيق ووضعته على السرير".

منذ وفاة "چاكوما" و"لورينسا" غارقة في ثبات يبدو أنه لا نهاية له. كان أول قراراتها أنها لم تعدْ تريد الالتحاق بالجامعة، وأصرتْ على قرارها قائلة: "أنا كبيرة الآن بما يكفي كي أقرر بنفسي".

حاول "أنطونيو" إقناعها بأن تعدل عن قرارها وتغيِّر رأيها. ولكنَّ الحديث معها وتشجيعها، بل شرح ما ستفقده بترك الدراسة كان ذلك كله بلا طائل.

حاول "أنطونيو" أن يضغط عليها: "وماذا عن أحلامكِ؟ ها؟ أي مصير ينتظر هذه الأحلام؟".

أجابته هي بقسوة: "لم يكنْ ذلك حلمي، كان حلمكَ أنت، إذا كان هناك شيء واحد فهمته في حياتي فهو أن السعادة لا يمكن العثور عليها في الكتب".

رد عليها "أنطونيو": "أنتِ مخطئة".

فقالت "لورينسا": "آه حقًّا، أخبرني إذن يا من تقرأ كثيرًا، هل أنت سعيد؟ لا تبدو لي سعيدًا تمامًا".

قال "أنطونيو" بلطف: "أنتِ غاضبة وتعانين خلال هذه الفترة وأنا حقًّا أفهم ذلك، لكنْ من فضلك فكري قليلًا في الأمر مرة أخرى. يحزنني كثيرًا رؤيتك تتخلين عن حلمك.. عن حلمنا".

واصلت "لورينسا" رفضها في عناد وقالت: "ربما كنتَ مشغولًا جدًّا لتدرك هذا، لذا دعني أخبرْك أنني كنتُ قد عثرتُ فعلًا على حلم يخصني أنا وحدي وكنت سأحققه مع "چاكومو" ولكنَّ هذه الحرب الملعونة انتزعته مني".

حدَّقت "لورينسا" إلى الملابس الملقاة على سريرها التي كانت تنورةً سوداء ذات ثنيات وقميصًا حريريًّا لونه أصفر شاحب وبه "فيونكة" صغيرة عند خط العنق. أطلقتْ "لورينسا" تنهيدةً وجلستْ على حافة السرير. كان هذا واحدًا من أزياء الأعياد، وهو الزي ذاته الذي كانت سترتديه ذلك الأحد عندما كانت تتهيأ لأن تكون زوجة "چاكومو" المستقبلية، وحينها كان يمكن لحياة جديدة تملأها السعادة أن تبدأ. لكنْ ماذا عنها الآن؟ مَنْ هي، أو ماذا تكون دون رجلٍ يحبها؟ نهضتْ "لورينسا" فجأةً باندفاع وفتحتِ الخزانة وأخرجتْ أول فستان وقعتْ عليه يداها؛ فأي فستان عادي سيفي بالغرض.

انتظرتْ "چوفانَّا" أمام بوابة المدرسة الابتدائية التي هُيِّئتْ لتستخدم كمركز اقتراع، وظلَّتْ تنظر حولها بنظرة قلقة وهي ممسكة بحقيبتها السوداء.

كان الوضع بالنسبة إليها في أثناء الحرب أفضل حالًا من سكان البلدة، فالحرب حملتْ لها الشيءَ الوحيدَ الذي لطالما تمنته، إذ في عام 1943 هرب السيد "چوليو" من "إيميليا" ولجأ إلى الجنوب مع أنَّه لم يتبقَّ هناك أي أحد من أسرته الأصلية. أصبح الجو العام في المِنْطَقة التي كان يعيش فيها خانقًا، إذ بدأ المناهضون للفاشية في استهداف الكهنة، خاصة في تلك النقطة الواقعة بين "بولونيا" و"مودينا" و"ريچو أيميليا"، وقد قُتِلَ فعلًا عددٌ كبير من الكهنة. لذا ذات يوم ظهر السيد "چوليو" أمام بابي بيت "چوفانَّا" بوجهٍ منهك وعينين مذعورتين ولحية شعثاء مرتديًا ملابسَ عاديةً وعلى كتفه حقيبة بالية وترجاها قائلًا: "ساعديني! اسمحي لي بالاختباء لديكِ".

فتحتْ له "چوفانَّا" بابَ منزلها على مصراعيه وظل "چوليو" متحصنًا هناك بضعةَ أسابيع وبقي لديها حتى وجد منصبًا شاغرًا مساعدَ كاهنٍ في بلدية "فرنولي"

وهي البلدة التي نشأ فيها والداه والتي تقع على بعد خمسة عشر كيلومترًا تقريبًا من "ليتسانيلُّو". واستقر في بيت صغير خُصِّصَ له بجوار الكنيسة. ورغم ذلك كان كل يوم بعد الظهر، في أعقاب القداس الأخير، يركب الدراجة ويقطع الطرق السرية للحقول الريفية التي تمتد كيلومتراتٍ حتى يصل إلى "كونترادا لا بيترا".

في بعض الليالي كان يركب دراجته ويعود إلى "فرنولي" بعدما يقضي وقتًا مع حبيبته "چوفانَّا" وفي ليالٍ أخرى وعندما يكون متعبًا وغير قادرٍ على العودة، ينام في بيت "چوفانَّا" ويغادر قبل الفجر. ومع أنَّ ما من أحد قد رآهما قطُّ معًا، فإن الشائعات بدأت تنتشر عن العَلاقة التي تربطهما.

أدركت "چوفانَّا" ذلك من بعض النظرات التي يرمقها بها أهل البلدة عندما تذهب لزيارة "أنَّا" أو تذهب للتسوق، بل إنها سمعتْ أحدهم يغمغم قائلًا: "إنها حقًّا بلا حياء". ولكنها لم تولِ كل هذا أيَّ أهمية على الإطلاق.

ركضتْ "أنَّا" تجاه صديقتها فيما توقَّفت "أجاتا" بعيدًا قليلًا ممسكة بذراع "لورينسا". وبَّخت "أجاتا" ابنتها للمرة التي لا يُعرف عددها منذ غادرن المنزل قائلة: "مهْ! أنا حقًّا لا أفهمكِ يا ابنتي، كنتُ قد أعددتُ لكِ ذلك الزيَّ شديدَ الأناقة. ماذا سيقول الناس عنا الآن؟ هل سيقولون إننا ليس لدينا ملابس جيدة لترتديها؟".

سألت "أنَّا" صديقتها "چوفانَّا" فيما تندفع نحوها لمعانقتها: "هل أنتِ سعيدة؟ فهذا اليوم هو يومٌ مميزٌ".

أجابتْ هي بوداعتها ولطفها المعتادين: "إذا كنتِ سعيدةً فأنا أيضًا سعيدة".

صاحت "أنَّا" بإشارة واسعة من ذراعها: "هيا، دعونا ندخل".

دخلت "أنَّا" كابينة التصويت وقلبها يدقُّ بقوة، تحسستْ بطاقةَ الاقتراع بأطراف أصابعها ثم -ولرغبة منها في إطالة هذه اللحظة لأطول مدة ممكنة- رسمتْ علامة الصليب على رمز الجمهورية الإيطالية؛ رأس امرأة تعتمر تاجًا على هيئة برج ومزخرف بأوراق الغار والبلوط.

ثم حالما خرجتْ رفعت عينيها تجاه السماء، وأرختْ شفتيها اللتين كشفتا عن ابتسامة، ثم أطلقتْ تنهيدةً. يا له من نهار لا يُنسى، يوم سيظل في الذاكرة إلى الأبد. ثم قالت بسعادة: "والآن لنذهب جميعًا إلى البار، سأدفع أنا لكنَّ".

استقبلتْ "چوفانَّا" دعوتها بحماس وتأبَّطت ذراع صديقتها وصاحت قائلة: "أريد كعكةَ اللوز". وهكذا انطلقتا نحو البار تتبعهما "أجاتا" وابنتها.

في المساحة الفسيحة المفتوحة أمام بار "كاستيلُّو" كانت هناك مجموعات صغيرة مختلفة من الناس؛ كان البعض غاضبًا من أولئك الذين أرادوا التصويت لمصلحة النظام الملكي، والبعض الآخر يضحك، وآخرون يدخنون، وهناك من كانوا يمسكون بأكواب النبيذ ويشربون نخب شيءٍ ما. وفي ما حولهم كان الأطفال يلعبون ويركضون خلف كرة وهم يصرخون. وعلى مسافة غير بعيدة وحول المقعد الكائن في ميدان البلدة الرئيسي كان هناك بعض الصبية من بينهم "روبرتو" الذي صفَّف شعره إلى الخلف وارتدى صدريةً مزررةً فوق قميصه الأبيض. وإلى جانبه كانت هناك فتاة شابة ضئيلة الحجم، ذات ملامح رقيقة تحدِّق إليه بعينين تنضحان عشقًا وكان "روبرتو" من حين إلى آخر يبادلها النظرات ويبتسم لها في خجل.

سألت "أنَّا": "من تكون تلك الفتاة؟".

أجابتها "أجاتا": "تلك من؟".

أوضحتْ "أنَّا": "تلك التي تجلس بالقرب من "روبرتو".

أجابت "لورينسا": "هذه ابنة "فيرناندو"؛ الأصغر بين ثلاث فتيات".

قالت "أنَّا": "وماذا تريد من ابني؟".

صاحت "أجاتا": "اتركيه وشأنه، فهو أيضًا كغيره من الصبية؛ عندما يبلغ الثالثةَ عشرة من عمره يبدأ في الشعور برغبات الحب وشهواته. هذا شيء عادي".

غضبت "أنَّا" وقالت: "عن أي شهوات حب تتحدثين؟ إنه لا يزال طفلًا، والشيء الوحيد الذي عليه التفكير فيه هو دراسته وحسب". ثم قالت لنفسها فيما تستكمل طريقها: "عندما ألتقيه في البيت سأوبخه بشدة بلا شك".

وبينما كنَّ يسرن جميعًا سمعنَ فجأة صوتًا من خلف ظهورهنَّ يصرخ مناديًا: "لورينسا"! استدار الجميع في اللحظة ذاتها ورأين "دانييليه" وهو يركض نحوهنَّ ملوحًا بيده.

تركت "لورينسا" ذراع أمها وذهبتْ نحوه. سألها وهو يلهث قليلًا: "يا لها من سعادة أن أراكِ اليوم، كيف حالكِ؟".

رفعتْ "لورينسا" كتفيها وقالت: "أقضي أيامًا جيدة وأخرى ليست جيدة، وهكذا تسير الحال".

قال "دانييليه": "أسال دومًا عن أخبارك".

فقالت "لورينسا": "أعلم ذلك، يخبرني العم "كارلو" بسؤالكَ عني، شكرًا لك".

قال "دانييليه": "تبدين أكثر نحافة منذ آخر مرة رأيتكِ فيها".

خفضت "لورينسا" عينيها وقالت: "أتظن ذلك؟ لا أعتقد هذا".

تمتم "دانييليه" بنبرة خافتة كأنه يهمس لنفسه: "يبدو أنني أخطأتُ في حساب مقاساتكِ نوعًا ما".

سألت "لورينسا" في حيرة: "مقاسات؟ عن أي مقاسات تتحدث؟".

احمرَّ وجهه خجلًا وقال: "مقاسات فستانكِ".

سألت "لورينسا" من جديد: "أي فستان؟".

فردَّ "دانييليه": "إنه... إنه هدية".

سألت "لورينسا" متعجبةً: "فستان لي؟ هل اشتريتَ لي فستانًا؟".

أجاب "دانييليه": "ليس بالضبط. لقد صنعتُه بنفسي، مع أنَّني لا أزال بطيئًا جدًّا، ووقتي محدود كما تعلمين".

سألته "لورينسا" وهي تعقد ذراعيها أمام صدرها: "انتظر، انتظر! ومنذ متى وأنت تمارس الحياكة؟".

ردَّ: "في الواقع يروقني تصميم الفساتين أكثر من حياكتها؛ لقد أنشأتُ محلًّا صغيرًا للغاية للخياطة في منزلي لكنْ لا أحد يعرف ذلك". ثم وضع أحد أصابعه أمام شفتيه كما لو أراد إخبارها بأن تحتفظ بهذا السر ولا تخبر به أحدًا.

علَّقت "لورينسا": "حسنًا، لكنِ انتابني الفضول لرؤيته".

نادتها "أجاتا": "هيا يا "لورينسا"، نحن ننتظركِ".

استدارت نحو أمها وأجابت: "قادمة!".

استأنف "دانييليه" حديثه: "اسمعي، إذا دعوتكِ من جديد إلى السينما فهل ستوافقين هذه المرة؟".

ابتسمت وردَّت: "سأوافق، لكنْ بشرط أن تجعلني أزور محل الخياطة الصغير خاصتك، وأن أرى فستاني على وجه التحديد!".

نادت "أجاتا" ابنتها مرة أخرى بإصرار: "لورينسا"!

فقالت "لورينسا" وقد بدا عليها الضيق: "عليَّ أن أذهب".

سألها "دانييليه" بنظرة يملأها الأمل: "لنتقابل الأحد المقبل ما رأيكِ؟".

أجابت "لورينسا": "اتفقنا، الأحد القادم. دعْنا نلتقِ أمام سينما "أوليمبيا". ثم أسرعت الخطى ولحقت بالأخريات.

صاحت "لورينسا" مشيرة إلى أبيها وعمها وقد تغيَّر مزاجها تمامًا بعد لقائها "دانييليه": "انظرن، ها هو أبي وعمي "كارلو"!".

كان الأخوان جالسين إلى إحدى الطاولات الخارجية لبار "كاستيلُّو" مع رجلين آخرين يرتديان ملابس أنيقة ولهما مظهر مهذَّب ومحترم.

استقبلهنَّ "كارلو" قائلًا: "أوه، ها قد وصلتْ زوجتانا الرائعتان"، ثم سحب نفسًا من سيجاره.

نهض "أنطونيو" على الفور وذهب لاستحضار كراسي أخرى إضافية. وقال وهو يضعها حول الطاولة: "تفضَّلا". عندما مدَّ الكرسي لـ"أنَّا" قال لها بصوت منخفض: "ماذا عن شعركِ؟".

سألتْه مستاءة قليلًا: "ماذا؟ ألم يعجبك؟".

فأجاب هو: "لم أقل هذا".

قال أحد الرجلين في تلك اللحظة وهو ينهض عن كرسيه فيما حذا رفيقه حذوه: "جيد، سنترككما مع أسرتكما وسنكمل غدًا حديثنا".

صافح "كارلو" الرجلين وقال: "طبعًا"، فيما اكتفى "أنطونيو" بتحيتهما بإشارة صغيرة من ذقنه.

سألت "أنَّا": "عن أي حديث تتكلمون؟". نظر "كارلو" و"أنطونيو" إلى بعضهما، ثم تمتم "كارلو" وبريق يلتمع في عينيه قائلًا: "هل نخبرهنَّ؟".

فردَّ "أنطونيو": "سيعرفن آجلًا أو عاجلًا".

تدخلتْ "أنَّا" متسائلة: "ما الذي يجب أن تقولاه لنا؟".

أمسك "كارلو" السيجار بين أسنانه ثم بسط ذراعيه وصاح قائلًا: "انظرن إليّ!".

قالت "أنَّا" بنبرة مازحة: "هل تريد إخبارنا بأنك وسيم؟ حسنًا، ولكننا نعرف ذلك فعلًا".

ضحكتْ "چوفانَّا" ضحكةً خافتةً وغطَّت فمها بيدٍ واحدة.

قال "كارلو" وهو يداعب وجه زوجته: "شكرًا لكِ يا حبيبتي". ثم استطرد قائلًا: "لا الأمر ليس كذلك، انظرنَ إليَّ بشكل أفضل؛ فأمامكنَّ المرشح المستقبلي لمنصب عمدة ليتسانيلُّو".

ذُهِلَتْ "أنَّا" وسألت: "حقًا؟".

أجابها: "نعم".

سألته من جديد: "وكيف خطرتْ لك هذه الفكرة؟".

أجاب وهو يشير برأسه نحو الرجلين اللذين كانا يبتعدان: "اقترحا عليَّ المنصب وأخبراني بأنني يمكنني أن أنجح في شغل هذا المنصب، وسيصحباننني غدًا لمقابلة السكرتير الإقليمي لنتحدث أفضل عن كل شيء".

قالت "أجاتا" متهكِّمة: "إيه، حسنًا، منذ بدأتْ تجارتك مع الأمريكان، صرتَ شخصًا مهمًّا يُرشَّح للمناصب ويحصد أصوات الناخبين".

سألتْ "أنَّا" مستفسرةً: "عذرًا، لكنِ السكرتير الإقليمي لأي حزب؟".

رد "كارلو": "الحزب الديمقراطي المسيحي".

اكفهرَّ وجه "أنَّا" على الفور.

لم تتمكنْ "لورينسا" من منع نفسها عن ملاحقة نظرة أبيها الذي بدأ يحدِّق إلى العمة "أنَّا" بنظرات كانت تحمل أسئلة صامتة كـ"لماذا أحزنكِ هذا الخبر؟ هل أنتِ على ما يرام؟".

علقتْ "أجاتا" وهي ترمق سِلفتها بنظرة من عينيها: "إنه خبر جميل حقًّا".

ابتهج "كارلو" وقال: "إنه كذلك بالتأكيد!".

صاح "كارلو" وهو يدير إصبعه: "والآن سأذهب لجلب النبيذ لكل هؤلاء السيدات الجميلات".

عرض عليه "أنطونيو" وهو يجرُّ كرسيه إلى الخلف: "سآتي معك لمساعدتك في حمل الأكواب".

طلبتْ "چوفانَّا": "اجلبا لنا أيضًا كعك اللوز".

حرَّك "كارلو" الستارة ذات الأحبال فإذا به يرى "كارميلا" جالسةً إلى المَشْرب برفقة زوجها. تبدَّدتْ سعادته في ثانية واحدة.

تدخَّل حينها "أنطونيو" قائلًا: "ناندو"! أعطنا زجاجةً "دونَّا أنَّا" وستة أكواب من فضلك".

سألت "كارميلا" فيما تحدق إلى عينيْ "كارلو": "هل أنتم تحتفلون؟".

أجاب "أنطونيو" كي يرفع الحرج عن أخيه: "نشرب اليوم نخب سيدات بلدنا".

تمتم "نيكولا" بأنهنَّ يستحققن الاحتفال وأن ذلك اليوم هو عيدٌ لهنَّ جميعًا، ويجب بالتأكيد الاحتفال بهذا اليوم. ثم سأل "كارلو" مستفسرًا: "كيف حال السيد "تشيتشو"؟".

رفعت "كارميلا" كتفيها وقالت: "كما كان، لم يعدْ يتحرك من السرير. يقول إنه يشعر بسكاكين في ظهره".

رد "كارلو": "يؤسفني سماع هذا. احملي له تحياتي من فضلكِ".

قالت "كارميلا": "تحياتكَ دائمًا تسعده".

أومأ "كارلو" وأخذ يدق بأصابعه الطاولة. نظر "نيكولا" إلى الساعة وقال إن عليه أن يغادر هو وزوجته. أضاف وهو يرفع قبعته: "أتمنى لكم يومًا جميلًا". وانطلق نحو مخرج البار.

لحقت به "كارميلا" بخطى بطيئة، لكنْ حالما مرت بجانب "كارلو" لمستْ ذراعه بكتفها.



بعد ظهر يوم الأحد التالي وصلت "لورينسا" متأخرةً إلى سينما "أوليمبيا" ورأت "دانييليه" واقفًا ينتظرها. كان متكئًا إلى الحائط وضوء الشمس يضيء نصف وجهه. كان يعتمر قبعةً مسطحة تميل نحو أحد جانبيْ رأسه ويرتدي قميصًا ذا مربعات وبنطالًا داكنًا مثبتًا بزوج من الحمالات، انحبستْ أنفاس "لورينسا" لحظةً، فـ"چاكومو" أيضًا كان يرتدي دومًا قبعةً مسطحة وحمالتيِ البنطال وكان لديه القميص ذو المربعات ذاته.

ألقتْ "لورينسا" نظرةً على ملصق الفيلم المعروض في السينما الذي كان بعنوان "مُلمِّع الأحذية" لـ"ڤيتُّوريا ديه سيكا" ثم تقدَّمت نحوه وسألت وهي تبتسم ابتسامةً خافتة: "أعتذر لك عن تأخري، هل تنتظرني منذ وقت طويل؟".

أجاب "دانييليه": "لا، على الإطلاق، لا تقلقي".

دخلا إلى السينما ووقفا في الطابور الخاص بشباك التذاكر. سألتْه "لورينسا": "عن أي شيء يتكلم؟ أقصد الفيلم؟".

فأجابها "دانييليه": "لا أعرف الكثير عن قصة الفيلم. قرأتُ عنه شيئًا عابرًا في الجريدة فهو يحكي عن صبيين يعملان ملمعيْ أحذية في روما".

لوت "لورينسا" قسمات وجهها إذ كانت تفضِّل بشدة أن تشاهد قصةَ حب جميلة ومميزة. قال "دانييليه" فجأة: "أتعلمين؟ أنا متحمسٌ قليلًا لفكرة أنكِ سترين لاحقًا الفستان الذي حِكتُه لكِ".

أجابته "لورينسا" بإصرار: "لا يزال هذا الأمر يبدو لي غريبًا".

سأل هو بدوره فيما يُخرج محفظته من جيبه: "عن أي أمر تتحدثين؟".

قالت "لورينسا": "أمر تصميم الفساتين وحياكتها، "چاكومو" لم يخبرني بذلك".

شرح "دانييليه" بابتسامة عذبة: "لأنه حتى هو لم يكنْ يعرف شيئًا عن الأمر، لطالما كان هذا العمل يخصني أنا وحدي". ثم أضاف مستنكرًا: "لأنه في حال علمتْ أمي بالأمر...". ثم اتجه من جديد إلى بائع التذاكر وقال: "تذكرتين من فضلك".

تساءلت "لورينسا" مستفسرة: "ولماذا؟".

رفع "دانييليه" كتفيه وهو يأخذ التذكرتين، وقال وهو يتجه نحو صالة العرض: "هي تعتقد أن هذا العمل لا يناسب الرجال".

قالت هي في سخطٍ وامتعاضٍ: "ما هذا الهراء! ألهذا السبب لم تخبرْ حتى "چاكومو" بالأمر؟".

أجاب "دانييليه": "لا أعلم، ربما". ثم أزاح الستارة الحمراء وترك "لورينسا" تدخل أولًا.

بعد مرور ساعتين كانت "لورينسا" جالسةً على أريكة صغيرة في منزل "دانييليه" وتنظر في ما حولها. قالت وهي تتوجه نحو الغرفة المجاورة حيث ذهب "دانييليه" لإحضار الفستان من خزانة الملابس: "محل صغير، ولكنه مريح".

أجابها "دانييليه": "هكذا أعتقد أنا أيضًا". عاد "دانييليه" إلى المطبخ بعد دقيقة واحدة حاملًا مشجبًا عُلِّق عليه فستان أزرق بإضافات وتطريزات صفراء بلا أكمام، أما الجزء السفلي من الفستان فكان فضفاضًا، كما كانت دُرَزُ الفستان لا تزال مرئيةً وواضحةً، وهو ما جعل "دانييليه" يتعجَّل في شرح الأمر: "لا يزال ينقصه الكُمَّان كما يجب تقصير الجزء السفلي من الفستان قليلًا. لا بُدَّ أن يصل طوله حتى الركبتين، كما أريد بعد ذلك أن أضيف هنا على الصَّدرِيَّة بعض الأزرار المقببة وأضع حزامًا عند الخصر". قابلت "لورينسا" كلمات صديقها بابتسامة حنون. ثم أضاف قائلًا: "ولكنني بحاجة إلى أخذ المقاسات بشكلٍ دقيقٍ كي أنتهي من حياكته".

فأجابت "لورينسا" وهي تنهض على قدميها وتأخذ المشجبَ من بين يديه: "سأجربه إذن في الحال".

قال "دانييليه" وهو يشير برأسه: "اذهبي إلى الغرفة".

تجاوزتْ "لورينسا" البابَ ودخلتِ الغرفةَ دون أن تغلق بابها بالكامل. حرَّك "دانييليه" أحد كراسي الطاولة وجلس ينتظرها مسندًا مرفقيه إلى ركبتيه بينما ينقر بقدمه على الأرض. سألها "دانييليه" من مكانه، ولم تكنْ قد مرَّت دقيقة واحدة حتى على دخولها الغرفة: "هل كل شيء على ما يرام؟".

أجابت هي: "نعم، نعم. أنا فقط أخلع ملابسي".

أومأ "دانييليه" ثم ظل يميل بظهره إلى الخلف ببطء حتى تمكَّن من رؤية "لورينسا" من الفتحة التي تركتها في الباب؛ لمح "دانييليه" الخط المتعرج لوركيها والمنحنى الدائري لثدييها اللذين انسدل فوقهما شعرها النُّحاسي الطويل الناعم.

شعر "دانييليه" حينها باضطراب مفاجئ في معدته وانتابتْه رغبة غريزية في أن يمارس معها الحب. نهض من كرسيه فجأةً وملأ لنفسه كوبًا من المياه. ارتشف رشفةً من الكوب ثم شرب مرة أخرى وظلَّ يشرب بسرعة حتى أنهى الكوب كله كما لو أراد أن يجد لنفسه طريقةً يُطفئ بها تلك الرغبة التي اشتعلتْ داخله فجأة. قالت "لورينسا" بعدما فتحت الباب من جديد وظهرت مرتديةً الفستان: "معك حق، ربما هو طويلٌ قليلًا".

ازدرد "دانييليه" ريقه وأشار -وقد احمرَّت وجنتاه خجلًا- بالإيجاب وأخبرها بأن مقاسه هكذا أكبر من مقاسها هي بمقدار درجة واحدة على الأقل واختتم كلامه قائلًا: "سأضيِّقه لكِ في الحال".



14
نوفمبر 1946

دوَّى صوتُ مكبرِ الصوت المرفوع أعلى سيارة ماركة "فيات توبولينو" التي كانت تتجول دون توقف في كل أنحاء المدينة مرددًا: "صوِّتوا لـ"كارلو جريكو" في انتخابات البلدية! اختاروا حزب الديمقراطية المسيحية!". انتهت الحال بـ"أنَّا" التي كانت راكبةً دراجتها ماركة "بيانكي" وحقيبتها تتدلى من فوق كتفيها بمصادفة تلك السيارة في كل شارع تطأه قدماها، كأن هذين الرجلين اللذين يركبان السيارة يلاحقانها خصيصى. لم تنجحْ في الهروب من ذلك الضجيج حتى عندما سلكتِ الطرق الجانبية الضيقة، بل بدا لها على العكس كأن الصوت يرتدُّ خلال جدران المنازل المحيطة فيحدث صوتًا رنانًا ومزعجًا أكثر.

وعلى تلك الجدران، كان هناك عددٌ لا يحصى من الملصقات الانتخابية حيث برز اسم زوجها أعلى شعار حزب الديمقراطية المسيحية المتخذ شعارَ صليب. كُتِبَتْ على هذه الملصقات شعارات مثل: "بهذا التصويت تضمن الصالح لك" أو "صوِّت للأشخاص الصادقين والأكْفَاء لإدارة البلدية، صوِّت للديمقراطية المسيحية". وما زاد الطين بلة بالنسبة إليها أنها كلما توقفت لتسليم خطاب ما كان هناك دومًا من يخبرها: "تهانينا لزوجكِ أيتها السيدة ساعية البريد". و"أخبري "كارلو" أنني سأصوِّت له، لا تنسي!". و"سيفوز بها، أنا أشعر بذلك". وغيرها من تعليقات من هذا القبيل. كانت "أنَّا" تبذل مجهودًا كي تبتسم وتشكر المهنِّئين مع أنَّها كانت تودُّ لو هشمتْ مكبر الصوت ومزقتِ الملصقات واحدًا تلو الأخر. فكرت "أنَّا" حينئذٍ فيما يحتد غضبها "اللعنة، هل كان عليه حقًّا أن يترشح مع حزب الديمقراطية المسيحية؟".

"لن أرسمَ الصليب على صليب الحزب الديمقراطي المسيحي". كان هذا هو رد فعل "أنَّا" عندما أحضر "كارلو" إلى المنزل -وهو في قمة حماسته وسعادته كطفل- عددًا كبيرًا من المنشورات الانتخابية المطبوعة حديثًا. ردَّ "كارلو" بنبرة من يشك في أن هذا الحديث مجرد مزحة. أكدتْ "أنَّا": "انظر إليَّ فأنا جادة في ما أقول".

قال "كارلو": "ألن تمنحي صوتكِ لزوجكِ من أجل مسألة مبدأ غبية؟".

قالت "أنَّا" في اندفاع: "ليستْ فقط مسألة مبدأ، على جثتي أن أمنح صوتي للكاثوليك".

فأجاب "كارلو": "عليكِ أن تمنحي صوتكِ لي وليس للكاثوليك".

فقالت "أنَّا": "إذا كنتَ تريد مني أن أدلي لكَ بصوتي فعليك إذن أن تغير الحزب الذي تنتمي إليه".

فقال "كارلو": "هل أنتِ مدركةٌ ما تقولين؟ إذن من الذي ستصوتين له، دعيني أعرف".

قالت "أنَّا": "سأصوِّت لمصلحة الحزب الشيوعي! هل تعلم عدد الشيوعيين المنضمين إلى الاتحاد الإيطالي النسائي؟ وأنا واحدة منهم".

سأل "كارلو": "ومتى أصبحتِ جزءًا من الحزب الشيوعي؟ وكيف لي لم أنتبه لهذا؟ هل حدث هذا ليلًا فيما كنت نائمًا؟".

ردت "أنَّا": "يبدي الشيوعيون دعمًا صادقًا لحقوق النساء!".

قال "كارلو": "وهل تعتقدين أنني لا أهتم بحقوقكنَّ، هل أنتِ جادة في ما تقولين؟".

قالت "أنَّا": هأنت تقول "حقوقكنَّ" بتلك النبرة المتهكمة".

أجابها "كارلو" بسخرية فيما يرفع يديه إلى الأعلى: "أنا أعتذر بشدة كوني لستُ امرأة. أنا آسف لأنني قلتُ "حقوقكن".

قالت "أنَّا": "أنا أيضًا أعتذر يا "كارلو"، لن أغيِّر رأيي أبدًا".

قال "كارلو": "إذن فأنتِ لن تقدمي لي الدعم، هذا هو قرارك النهائي إذن".

قالت "أنَّا": "لن أفعل أي شيء يُلحق بكَ وبمسيرتكَ الانتخابية الأذى، لكنْ عليك أن تنسى أمر أن أمنحك صوتي".

ردَّ هو غاضبًا فيما يغادر الغرفة: "وأنتِ أيضًا عليكِ أن تنسي أن لديكِ زوجًا تنامين إلى جواره". وبدأ "كارلو" منذ ذلك المساء ينام على أريكة غرفة المعيشة.

حتى "روبرتو"، الذي ظل دائمًا وحتى ذلك الموقف بعيدًا عن المشاحنات التي تنشب بين والديه، انحاز إلى أبيه تلك المرة وتولى أمر الدفاع عنه وقال لأمه: "هل يبدو لكِ أمرًا عاديًّا ألا تدلي بصوتكِ لأبي؟".

فردَّت أمه: "عادي! كم يروقكم استخدام هذه الكلمة".

سألها "روبرتو": "وماذا عنكِ يا أمي؟ ألا تعجبكِ تلك الكلمة؟ تُرى ما الضرر الذي عاد عليكِ من فعلكِ الأمور العادية الطبيعية التي يفعلها غيركِ من الناس؟".

وقفت "أنَّا" في مواجهته ووضعتْ يديها على وسطها وسألته: "وهل أنت من تقرِّر ما هو العادي وغير العادي؟!".

وضع هو أيضًا يديه على وسطه كي يقلدها وقال: "يمكنني أيضًا أن أطرح عليكِ السؤال ذاته".

وعلى النقيض، فقد عمل "أنطونيو" و"أجاتا" جاهدين لدعم حملة "كارلو" الانتخابية، خاصةً في الأسابيع الأخيرة التي سبقت التصويت حيث رافق "أنطونيو" شقيقه من منزل إلى منزل، وشارك في اجتماعات الحزب، ووزَّع معه منشورات حملته الانتخابية. أما "أجاتا" فزارت صديقاتها ممن يؤدين معها صلاة المسبحة الوردية وجاراتها للتأكد من أنهن سيصوتن "بالطريقة الصحيحة".

حتى في مكتب البريد لم يكن هناك صوت يعلو حينها فوق صوت انتخابات البلدية وترشُّح "كارلو" الذي كان –وَفْقَ توقعاتهم– سيفوز بسهولة. علَّق "كارمينيه" على توقعاتهم تلك قائلًا: "يا للأسف سيفوز!". ثم أضاف فيما يشير بإصبعه تجاه "أنَّا": "لتعلمي أنني سأصوت لمصلحة الاشتراكيين وليس لزوجكِ!".

كانت "أنَّا" مضطرة إلى البقاء صامتة دون أن تعلق بأي شيء رغم أنها أرادتْ بشدة لو أيَّدت "كارمينيه" في ما يقول. أما "إيلينا" فقد عبَّرت منذ الوهلة الأولى عن دعمها وتحمسها الشديد لاختيار "كارلو". وروتْ "إيلينا" لـ"أنَّا" أن الكاهن الجديد السيد "لوتشيانو" كان يعظ المؤمنين ممن يرتادون الكنيسة قبل جملته المعتادة التي يختتم بها كل قداس "انتهى القداس، اذهبوا بسلام" بأنَّ من هو ديمقراطي ومسيحي هو وحده من يمكنه الدفاع عن حرية أبنائه ومستقبلهم. وكانت تختتم حديثها كل مرة بلا استثناء بـ"سوف تصبحين زوجة رئيس البلدية، ألا تفكرين في الأمر؟".

وحده الخبر الجلل الذي حملته "كيارا" إلى المكتب هو ما نجح في صرف انتباه الجميع قليلًا عن هذا الموضوع، إذ وصلت "كيارا" ذات صباح حاملةً صينية حلوى بدتْ أكبر حجمًا منها شخصيًّا وأعلنت للجميع بقليلٍ من الخجل، خطبتها إلى ذلك الطبيب، وأنهما حدَّدا موعد الزفاف ليكون في الربيع المقبل، ثم أضافتْ

أن هذا يعني أنها ستستمرُّ في العمل معهم بضعةَ أسابيع أي حتى عيد الميلاد ثم ستقدم استقالتها.

أسرعت "إيلينا" و"كارمينيه" و"تومَّازو" لتقديم التهاني لزميلتهم فيما بقيت "أنَّا" ترمقها بنظرة غامضة ولم تتحرك من مكانها. ثم وجَّهت إليها فجأة سؤالًا غرق في أعقابه المكتب بأكمله في صمتٍ تامٍ: "لماذا يجب للزواج أن يُمثِّل عقبةً في طريق استكمالكِ عملكِ؟".

انتاب "كيارا" الخجل كما اعتاد الجميع منها، لذا خفضت نظرها. ولكنها عدَّلت في ما بعد من وضع نظارتها فوق أنفها وأجابتها بنبرة لطيفة وحازمة في الآن ذاته: "أتدرين؟ لا أعتبر ألبتَّة أن تركي عملي يمثِّل تضحيةً. أنا أريد أن أكون زوجةً ناجحةً وهذا أمرٌ صعبٌ ويتطلب الكثير من الوقت"، ثم اختتمتْ حديثَها قائلةً بابتسامةٍ: "أنا سعيدة بقراري هذا، لا تقلقي بشأني".

تدخلتْ حينئذٍ "إيلينا" وهي تقضم واحدة من الحلوى التي جلبتها العروس المستقبلية قائلة: "إيه، لو كنتُ مكانها لفعلتُ أيضًا الشيءَ ذاته. ماذا تعتقدين؟ هل تعلمين كم من الوقت كان سيلزمني لمغادرة عملي هنا لو كنتُ حظيتُ برجلٍ يهتم لأمري ويعتني بي؟".

حدَّقت "أنَّا" إلى المرأتين وتهيَّأت للرد عليهما عندما تفتق ذهنها عن فكرة ما، فبمغادرة "كيارا" المكتب ستكون هناك حاجة إلى عاملة تلغراف جديدة. ومن أفضل من "لورينسا" لتشغل هذا المكان؟ فيمكن لهذا العمل الجديد أن يكون دفعةً لها ووسيلة لإخراجها من ذلك السبات الذي لبثت فيه فترةً طويلةً. قرَّرت "أنَّا" لحظتئذٍ أنها ستقترح عليها ذلك اليوم فرصة العمل تلك وطبعًا سيكون "أنطونيو" شاكرًا لهذا. انتابتها سعادة بالغة عندما خطرتْ هذه الفكرة على بالها.



قال "كارلو" فيما يقطع مكتب أخيه جيئةً وذَهَابًا بعصبية: "هل يمكن أن تتكلم معها من فضلك؟ أيمكنك أن تجعلها تعيد التفكير في الأمر؟".

أجابه أخوه الجالس على كرسيه: "أنت تعرف شخصية "أنَّا" هي لا تستمع لأحد".

أجابه "كارلو": "ستستمع إليك، هي دائمًا تستمع إليك. أقسم إنني لن أمررها لها هذه المرة".

قال "أنطونيو": "ولكنك تعلم أنه كلما ضغطتَ عليها، زاد الأمر سوءًا، يبدو لي كأنك لا تعرفها".

سأله "كارلو" في غضب: "هل توافق أن تتحدث إليها؟". ودون أن ينتظر ردًّا منه أجاب هو نفسَه قائلًا: "لا، أنت لا توافق على التحدث إليها!".

تنهد "أنطونيو" وقال: "لا أعرف يا "كارليتُّو"؛ على أيِّ حال صوَّتَتْ لك أو لم تُصوِّت، ماذا سيتغير؟ لديكَ فعلًا كل أصوات البلدة، ولن يصنع صوت "أنَّا" فارقًا في عدد الأصوات".

قال الآخر باندفاع فيما يضع كلتا يديه على المكتب: "ليستْ هذه هي الفكرة. إنها زوجتي، ويهمني صوتها أكثر من أصوات الجميع".

أجابه "أنطونيو": "لكنْ إذا كانت لا ترغب في الإدلاء بصوتها لمصلحة الحزب الديمقراطي المسيحي فلا يمكنك أبدًا أن تضغط عليها".

قال "كارلو" عابسًا: "أنطونيو"، هل أنت في صفِّي أم صفها؟".

أجابه: "أنا لستُ في صف أحد".

قال "كارلو": "فكِّر قليلًا، كنت أعتقد أن أخي سيكون إلى جانبي".

أجاب "أنطونيو": "هذا صحيح يا "كارليتُّو"، طبعًا أنا إلى جانبك".

قال "كارلو": "تحدَّث معها في الأمر إذن، ستساعدني، أليس كذلك؟".

استسلم "أنطونيو" رافعًا يديه وقال: "حسنًا، حسنًا، سأحاول". ولكنه فكر في الأثناء بينه وبين نفسه: "لماذا لا أقول أبدًا شيئًا كـ"حسنًا، لا، اتركاني وشأني هذه المرة، لماذا لا يمكنكما أن تحلَّا الأمر بنفسيكما؟".

وهكذا في اليوم التالي، وقف "أنطونيو" متربِّصًا خارج مكتب البريد في ذلك الوقت الذي تُنهي فيه "أنَّا" مناوبتها. حالما خرجت ورأت "أنطونيو" أمامها دُهِشَتْ وسألته: "أنطونيو"، ماذا تفعل هنا؟".

قال: "كنتُ في مكان قريب منكِ، فأردتُ أن أمرَّ لألقي التحية".

قالت "أنَّا": "حسنًا فعلتَ"، ثم أمسكت بمقود عجلتها "البيانكي" التي كانت مُتَّكئة على الحائط.

سألها "أنطونيو": "ما رأيكِ أن نتمشَّى معًا إلى البيت؟".

سألت بنظرة وقسمات وجهها كمن تساوره بعض الشكوك: "هل حدث شيءٌ ما؟".

فردَّ "أنطونيو": "لا، وما الذي يجب أن يحدث؟ قلتُ لكِ إنني كنتُ بالقرب من هنا فانتظرتكِ حتى تنهي عملكِ".

أمعنت "أنَّا" في النظر إلى "أنطونيو" ثم بدأتْ تتمشَّى وهي تجرُّ دراجتها بجانبها.

أسرع "أنطونيو" الخطى ليواكب مشيتها السريعة وتجاوزا معًا الميدان الرئيسي للبلدة الذي كان شبه خاوٍ، إذ كانت هذه الساعة هي ساعة غداء وقد عاد الناس إلى منازلهم لتناول الطعام. ظلَّ "أنطونيو" يلحق بها عندما انعطفتْ إلى ذلك الشارع الواقع على اليسار، ومرَّت بجوار متجر "ميكيليه" المغلق فعلًا. في تلك الأثناء راجع "أنطونيو" في ذهنه الحديث الذي أعدَّه بينه وبين نفسه ليقوله لها؛ كيف سيبدأ حديثه، وما الكلمات التي سيختارها كي يحاول إقناعها دون أن يثير غضبها كثيرًا، أعدَّ كذلك الأجوبة التي سيقولها ردًّا عليها في حال اعترضتْ.

توقَّفتْ "أنَّا" عن السير، إذ انتابها غضبٌ من ذلك الصمت الطويل الذي بقيتْ عليه وقبضتْ على ذراع "أنطونيو". ثم نظرتْ إليه مباشرة في عينيه ثم قالت باندفاع: "هيا، أخبرني بما عليكَ إخباري به".

تأفَّف "أنطونيو" وقال: "الأمر متعلق بـ"كارلو".

قالت "أنَّا": "كنت أعرف ذلك".

قال "أنطونيو": "لا يمكنه الاستسلام لقرارِكِ وتحمُّل وضعكما الحالي".

صاحت "أنَّا": "نعم، لقد أدركتُ ذلك". واستأنفتْ سيرها بسرعة فيما عجلتا الدراجة تنزلقان على الأرض المرصوفة بالحصى.

مشى "أنطونيو" خلفها وقال: "انتظري، لا تغضبي". ثم أضاف وهو يمسكها من يدها: "تعالي، لنجلس لحظةً من فضلك".

توقَّفتْ "أنَّا" واحمرَّ وجهَها وهي تحدق إلى يد "أنطونيو" التي تقبض على يدها. اقترح عليها "أنطونيو" وهو يترك يدها ويشير إلى العتبة الحجرية لأحد البيوت التي بدتْ أنها غير مأهولة في أحد الطرق الضيقة للغاية: "ها قد عثرنا على مكان، لنجلس هنا".

أسندتْ "أنَّا" دراجاتها إلى الحائط وجلستْ. ثم عقدتْ ذراعيها وحثَّته على المضي قدمًا، فقالت: "ماذا الآن إذن؟".

جلس "أنطونيو" إلى عتبة المنزل وتنهَّد تنهيدةً طويلةً وعميقةً ثم قال: "أتذكرين ذلك الشعور الذي سيطر عليكِ عندما اتخذتِ قرارِكِ بأن تعملي ساعيةَ بريد، وبالأحرى عندما لم يكنْ "كارلو" يفعل أيَّ شيء سوى انتقادكِ والاعتراض على تصرفاتكِ؟".

قاطعته "أنَّا" مستاءة: "أنا لا أنتقده أو أعترض على أفعاله".

قال هو فيما يغطي فمهما بيده: "ابقي صامتةً لحظةً واحدةً".

تلك الحركة جعلت عينيْ "أنَّا" تنفتحان على آخرهما ولم تتحركْ قيد أنملة. استأنف "أنطونيو" حديثه: "إنَّ ما أريد قوله هو أنكِ تعرفين جيدًا شعور المرء عندما يكون أقرب شخصٍ إليه لا يقدم له الدعم ولا ينحاز إلى صفه".

أبعدتْ هي يده عن فمها برقة وأكدتْ متمسكةً بوجهة نظرها: "ولكنني لم أمنعْه من فعل أي شيء".

طمأنها فيما يتحدث بنبرة أكثر رقة من ذي قبل: "أعرف ذلك يا "أنَّا" ولكنَّ موقفكِ هذا يُشعِره بالسوء. إن دعمكِ له أكثر أهمية بالنسبة إليه من أي شيء آخر ولا يمكنه الاستغناء عنه".

خفضتْ هي نظرتها وقالت: "وماذا عليَّ أن أفعل الآن؟ أن أتصرف بما يخالف مبادئي؟".

قال "أنطونيو": "نعم، مرةً واحدةً فقط".

صاحت "أنَّا" في استياء: "ولكنَّ هذا ليس صائبًا بالمرة، هل عليَّ أن أتظاهر بأنني شخصٌ غير ما أنا عليه؟ إنه شعورٌ يُشبه بأن تكون داخل قفص، هل لديكَ أدنى فكرة عمَّا يشعر به المرء حينما يكون داخل قفص؟".

نهض "أنطونيو" فجأة ودسَّ يديه في جيبي بنطاله ثم ركل إحدى الحصيات. بعد فترة صمت طويلة رفعتْ "أنَّا" نظرها نحوه، وقالت: "أعتذر لك. يؤسفني".

سأل هو بصوتٍ قاسٍ: "ما الذي تشعرين بالأسف حياله؟".

نهضتْ "أنَّا" واقتربت منه ووضعتْ يدها على خده ونظرتْ إليه بتركيز. أغمض "أنطونيو" عينيه ومال بخده ضاغطًا كفها ثم رفع يده وأمسك بيدها الموضوعة على خده.

وعندما فتح عينيه من جديد، التقتْ نظراتهما مرةً أخرى. ظلَّا يحدقان إلى بعضهما في صمتٍ مدةً طويلةً. ثم أفلتتْ "أنَّا" يدَها وركبتْ دراجتها وغادرتِ

المكانَ بسرعة. بقي "أنطونيو" يراقبها مذهولًا حتى رآها تنعطف يمينًا حيث شارع "بالاديني"، وحينها فقط تحرك هو أيضًا.

في ذلك المساء وبينما كانت "لورينسا" تُعِدُّ الطاولةَ وتتذوق "أجاتا" بملعقة خشبية ملأتها بالمرق الذي يتصاعد منه الدخان حَساء الفاصوليا كي تتأكد من نضجها، كان "أنطونيو" يغلق بوابةَ معصرة الزيتون وسار بخفة حتى بلغ سينما "أوليمبيا". وصل إلى السينما وهو يلهثُ قليلًا ودخل دون أن يلقي نظرة على ملصق الفيلم. أخبره الصبي الواقف في شباك التذاكر قائلًا: "مرحبًا، لقد بدأ الفيلم فعلًا منذ بعض الوقت".

أجاب "أنطونيو" وهو يسلِّمه بعض العملات المعدنية حق التذكرة: "لا يهم".

دخل "أنطونيو" إلى قاعة السينما المظلمة حيث كان يدور مشهد على الشاشة الكبيرة لـ"أنَّا مانياني" فيما تنزع دبابيس شعرها. بدت رائعة الجمال في ثوب نومها الذي يزيِّن الفراء أطرافه. جلس في الصف الأخير، على بعد مقعدين من "ميلينا"، وهي سيدة أحالتها الحرب لتصبح أرملة. هي امرأة ذات جسد نحيل يكاد يكون طفوليًّا، لها حاجبان كثيفان وشعر مموج حالك السواد. تُرِكَتْ تلك السيدة وحيدةً ومفلسةً لذا بدأت في امتهان البغاء. كان الجميع في البلدة يعلمون بعملها هذا، وحين يريد أحدهم أن يمارس معها البغاء يكتفي بالجلوس في الصف الأخير من السينما.

استدارتْ "ميلينا" نحو "أنطونيو" ثم حرَّكت رأسها ببطء وأومأتْ له إيجابًا.



كانت مئات من الزجاجات قد أُعِدَّتْ للتعبئة بنبيذ "دونَّا أنَّا" الفاخر الذي أُنتِجَ في العام نفسه، عام 1946. جزء من إنتاج هذا العام أيضًا سيُرسل إلى الولايات المتحدة الأمريكية، فالعلاقات التي نشأت وقت الحرب بين "ليتسانيلُّو وأمريكا وتحديدًا في خريف عام 1943 لم تنقطعْ من بعدها قطُّ. قرَّر "كارلو" لهذه الزجاجات تحديدًا أن تُطبع ملصقاتها باللغة الإنجليزية وهو ما لم يكن معهودًا على الإطلاق في تلك الأنحاء.

كان "كارلو" ذاهبًا فعلًا إلى "ليتشي" ليتسلَّم تلك الملصقات من المطبعة عندما أوقفه "روبرتو" وقال فيما كان مستلقيًا على السجادة وساقاه مرفوعين على الأريكة المقابلة: "هل يمكنني أن آتي معك يا أبي؟ لقد أنهيتُ واجباتي وأشعر بالملل".

صاح "كارلو" قائلًا: "ولمَ لا؟ هيا اصعدْ إلى السيارة، أسرعْ!".

كان الطريق المؤدي إلى "ليتشي" محاطًا من كلا الجانبين بجدران من الأحجار الجافة تمتدُّ في ما وراءها المزارع وأشجار الفاكهة وحقول الزيتون التي تنتشر فيها تلك الكهوف ذات الشكل الهرمي التي تُميِّز تلك المِنْطَقة عن غيرها والتي يخزن فيها المزارعون أدواتهم. كانت السماء في ذلك اليوم صافيةً وكانت رائحة الهندباء البرية المتنامية على طول الجدران نفَّاذة لدرجة أنها ملأت الجزء الداخلي للسيارة.

قاد "كارلو" سيارته إلى "بورتا سان بياچو"، أحد المداخل القديمة للمدينة وتوقَّف في المساحة المفتوحة أمام ذلك المدخل أسفل زوجين من الأعمدة الباروكية اللذين كانا يزينان البوابة، واللذين انتصبت فوقهما ذئبتان حجريتان وكذلك شعار النبالة الخاص بالملك "فيرديناندو" الرابع ملك مدينة "نابولي".

تقدَّما بالسيارة على الأرض المرصوفة بالحصى وتجاوزا بوابة المدينة وواصلا طريقهما حتى المطبعة التي توجد في شارع ضيق على يسار كنيسة "سان ماتِّيو". نظر "روبرتو" إلى الأعلى وأبدى ملاحظة تخصُّ تلك الكنيسة إذ قال: "انظر يا أبي، هذه الكنيسة غريبة بحق". ثم شرح له مشيرًا إليها: "هي محدبة من الأسفل ومقعرة من الأعلى".

توقف "كارلو" لحظةً ورفع ناظريه نحو الكنيسة ثم علَّق بنبرة ساخرة بعض الشيء: "فعلًا، هي غريبة بحق، كانت لتعجب هذه الكنيسة أمك". واستأنف طريقه فيما سار "روبرتو" خلفه وأخذ يستدير بين الحين والآخر ليلقي نظرة على الكنيسة مرة أخرى.

توقَّف "كارلو" أمام لافتة كُتِبَ عليها "المطبعة التِّجارية"، ودخل. كانت رائحة الحبر تفوح من المتجر الصغير ذي السقف المقنطر، وقد عُلِّقت على الجدران ملصقات كبيرة للأعمال الأوبرالية التي عُرِضَتْ في مسرح "بوليتياما". تسلَّم "كارلو" الملصقات الخاصة بنبيذه والتي غُلِّفَتْ بورق بني، ووضعها أسفل ذراعه. قال "كارلو" لابنه بعدما أخذ الملصقات: "تعالَ، لنتناول طبق "باستيتشوتُّو" في مقهى "ألڤينو" في ميدان "سانت أورنسو"، إنه المقهى الأطيب في المدينة".

سار "روبرتو" و"كارلو" الذي كان يضع يده على كتف ابنه حتى المقهى. وصلا بعد أقل من مائة متر إلى المقهى الذي كان كغيره من المتاجر الأخرى يطلُّ على الميدان المرصوف بالبازلت الذي يرتفع وسطه عمود شاهق الطول يعلوه تمثال لقديس المدينة. جلسا إلى واحدة من الطاولات الصغيرة الواقعة خارج المقهى أمام المدرج الروماني الذي عُثر على بقاياه قبل سنوات قليلة فقط وبالتحديد في عام 1940. فيما ينتصب من خلف المدرج مبنى مهيب برزت عليه هذه الكلمات: "المعهد الوطني الإيطالي للتأمين"، لقد كان "موسوليني" نفسه هو من افتتحه في عشرينيات القرن الماضي. علَّق "روبرتو" عندما رأى هذا المبنى قائلًا: "أمي لا تحب ذلك المبنى الكبير الواقع هناك على الإطلاق". لكنَّ "كارلو" لم يرد.

طلب "كارلو" طبقين من "الباستيتشوتُّو" وقهوة لنفسه و"تشيدراتا" من أجل "روبرتو". سأل "روبرتو" فيما يقضم واحدة من "الباستيتشوتُّو" ويلطخ شفتيه بكريمة الليمون: "متى تفكر أن تتصالح أنت وأمي؟".

أسند "كارلو" ظهره إلى الظهر الصلب للكرسي المعدني وأشعل سيجاره، وبعدما نفث دخان أول نفس منه قال: "آه، ألهذا السبب إذن تواصل ذكر أمك كثيرًا؟ حسنًا، دعني أخبرك أن الأمر بالتأكيد لا يعتمد على الشخص الجالس أمامك، لكنْ على أي حال لا تجعل الموضوع يثير قلقك؛ فالأمر لا يخصك".

أجابه "روبرتو" معترضًا: "بل يخصني، ما دمتُ أعيش في هذا البيت معكما، لم يعد بمقدوري أن أراكما عابسين طَوال الوقت، ألا يمكنكما ولو مرة واحدة أن تحلَّا الأمر معًا كشخصين كبيرين راشدين؟". قالها ثم مسح شفتيه بمنديل الطاولة.

نظر إليه "كارلو" نظرة يغلب عليها المرح وفكَّر أن "أنَّا" ربَّت هذا الولد وأنشأته ليكون صورة طبق الأصل منها، فهو مثلها يتحدَّث بصراحة ودون تنميق حتى إن هذه الصراحة في بعض الأحيان تكاد تكون وقاحة. لقد كبر "روبرتو" بشكلٍ مدهشٍ خلال عامٍ واحدٍ فقط كما لو كان قد انتظر نهاية الحرب كي يقرِّر أن يصبح كبيرًا. صار في طول أبيه نفسه تقريبًا كما اختفى ذلك الصوت الطفولي الرفيع الذي لازمه سنواتٍ. لا أحد يعرف أين انتهى الأمر بهذا الصوت وكيف اختفى.

قال "كارلو" مبتسمًا: "سنفعل ما بوسعنا لإرضائك". ركبا السيارة من جديد كي يعودا إلى البلدة، وعندما ولج "كارلو" إلى الشارع المفضي إلى البيت قال له "روبرتو": "لا، لن أعود إلى البيت، هيا، دعني أرافقك إلى القبو".

احتجَّ "كارلو" قائلًا: "ولكنكَ لم ترغب قطُّ من قبل في أن تأتي معي وكنت تقول إنك تشعر بالملل هناك".

ضحك "روبرتو" ضحكة مكتومة وقال: "حسنًا، إن شعرتُ بالملل فستحملني إلى البيت".

وصلا وترجَّلا من السيارة وفتح "كارلو" البوابة وهو لا يزال ممسكًا بملصقات زجاجاته أسفل ذراعه وحيَّا عمَّاله بحرارة. لحق به "روبرتو" مدهوشًا قليلًا من كل تلك الحركة المستمرة في القبو. وبينما كان "روبرتو" يتجوَّل في المكان أشار إلى آلة فلين النبيذ وقال: "تلك الآلة لم تكن هنا من قبل".

أكد "كارلو": "نعم، معك حق، تعالَ وسأريك إياها من قرب". سلَّم "كارلو" الملصقات لأحد العمال الذي كان يمرُّ من هناك واقترب من الآلة. في تلك اللحظة

صعد "دانييليه" من غرفة تخزين النبيذ معتَمِرًا قبعته المسطحة وواضعًا قلمَ رصاصٍ خلف أذنه. ثم قال: "صباح الخير سيد "كارلو".

استدار "كارلو" وشعر فجأة بساقيه ترتخيان، فهذه أول مرة يجتمع فيها ابناه معًا في غرفة واحد. لا شك أنهما رأيا بعضهما في ميدان البلدة الرئيسي أو في الكنيسة، ولكنهما لم يكونا زميليْ دراسة مثلًا ولم يلعبا معًا يومًا، وذلك لأن "دانييليه" لديه اثنان وعشرون عامًا فيما "روبرتو" كان فقط في الثالثة عشرة من عمره. كان "كارلو" على يقين من أنهما لم يتكلَّما معًا قطُّ من قبل، لا يمكنه أن التأكد من الأمر مائة بالمائة، ولكنه مجرد شعورٍ غريزيٍّ انتابه. ولكنهما الآن على وشك أن يفعلا ذلك كشخصين غريبين بالكامل. قال "كارلو" لــ"روبرتو": "آه، هذا هو "دانييليه"، مدير قبونا".

اقترب منه "دانييليه" مبتسمًا ومدَّ له يده ليصافحه وقال: "مرحبًا". فرد عليه "روبرتو": "مرحبًا، أنا "روبرتو".

تدخَّل أبوه في عجل قليلًا وقال: "فعلًا، هذا هو "روبرتو" ابني"، بدا أن الاثنين لم ينتبها إلى اضطراب أبيهما.

ثم سأل "روبرتو" "دانييليه" وهو يشير بإصبعه إلى آلة فلين النبيذ: "هل تعرف كيف تعمل هذه الآلة؟".

أجابه "دانييليه": "طبعًا، هل تريد أن أريك كيف تعمل؟". عقد "كارلو" ذراعيه أمام صدره، وظل يراقب ولديه وقلبه ينبض بقوة.

أخذ "دانييليه" واحدةً من الزجاجات الكثيرة الفارغة التي كانت مصطفَّةً في مكانٍ قريبٍ، والتي أُعِدَّتْ لنقلها إلى غرفة تخزين النبيذ، ووضعها في قاعدة آلة فلين النبيذ. أوضح "دانييليه" فيما كان "روبرتو" يحدق إليه باهتمام: "أترى؟" هنا تُركَّب سدادة الفلين، ومن خلال الضغط على هذه الرافعة، تُدخِلها داخل الزجاجة، وهذا ما يؤدي إلى تفريغ الهواء".

علَّق "روبرتو": "لا يبدو الأمر صعبًا. هل يمكنني أن أحاول؟".

سمح له "دانييليه": "نعم، لكنِ انتبه كي لا تؤذي نفسك، دعني أساعدك". وضع "دانييليه" ذراعيه برقة على ذراعي "روبرتو"، وقاد حركة يديه فوق الآلة حتى انسدَّت فوهة الزجاجة بالكامل بالغطاء الفليني. صاح حينها "دانييليه" قائلًا: "أرأيت؟ ها قد صرتَ ماهرًا". رفع "روبرتو" عينيه وابتسم له في رضا.

كان "كارلو" و"روبرتو" قد ركبا فعلًا سيارته "الفيات 1100" عندما قال "كارلو" لابنه إن عليه العودة إلى الداخل لأنه نسي فعلًا شيئًا ما. تأكَّد من عدم وجود أي عامل بالقرب منه ثم أزال الزجاجة الفارغة التي لم يُوضع عليها بعد أي ملصق من آلة فلين النبيذ؛ تلك الزجاجة التي سدَّ ولداه لتوهما فوهتها معًا وحملها معه إلى داخل غرفة مكتبه وأخفاها في الدرج الأخير من المكتب وعاد إلى سيارته.



نُظِّم التجمع الذي اختُتِمت به الحملة الانتخابية قبل يومين من بداية الانتخابات، أي في 22 نوفمبر. حيث أقيمت في وسط ميدان "كاستيلُّو" منصة صغيرة ارتفع فوقها علم يحمل شعار الحزب الديمقراطي المسيحي الذي كان يُرفرِف بفعل رياح "ترامونتان" الشمالية.

أعلن رجلٌ يرتدي معطفًا أسودَ طويلًا مفتوحًا عند بطنه الممتلئ وله شعرٌ خفيف شعَّثته الريح، خلال الميكروفون عن وصول "كارلو جريكو" الوشيك إلى هذا التجمع.

نظرتْ "أنَّا" في ما حولها متسائلة عن السبب الذي لم يصل بعد بسببه "أنطونيو" و"أجاتا". إلى جوارها كان "روبرتو" واقفًا عاقدًا ذراعيه ويحدق إلى المنصة الفارغة. افترضتْ "أنَّا" وهي لا تتوقف عن التجول بنظرها في الميدان المزدحم: "ربما هما هنا فعلًا، ولكن يصعب رؤيتهما". وعلى مسافة ليست بعيدة لمحت "أنَّا" "كيارا" تتأبط ذراع خطيبها الذي كان يفوقها طولًا ببضعة

سنتيمترات، رأتْ كذلك "إيلينا" بالقرب من بار "كاستيلُّو" تثرثر ضاحكة في أذن أختها. تأفَّفت "أنَّا" وهي تقول لنفسها: "اللعنة، أين ذهبا هذان".

قال "روبرتو": "سأذهب للبحث عنهما إذا أردتِ".

فردَّت قائلة: "اذهب طبعًا".

بينما كان الابن يبتعد لاحظت "أنَّا" وصول "كارميلا" التي كانت تفسح الطريق لنفسها كي تجلس أسفل المنصة بالضبط. فيما كان زوجها "نيكولا" وابنها يسيران خلفها. كانت "كارميلا" تضع شالًا من الفرو ألقته عمدًا على كتفها اليمنى ليبدو شبه ساقطٍ، وارتدتْ أسفله فستانًا صوفيًّا أحمرَ ضيِّقًا يصل كماه إلى رسغيها فيما يصل طول الفستان إلى ركبتيها، كما اعتمرتْ قبعةً صغيرةً ذات حافة ضئيلة مصنوعة من قماش الفستان نفسه، ووضعتْ أحمر شفاه من اللون نفسه كذلك. قالت "أنَّا" لنفسها: "تبدو ذاهبة إلى حفل استقبال وليس إلى تجمع انتخابي".

ألقت "كارميلا" نظرة عليها وحيَّتها بإشارة من ذقنها فبادلتها "أنَّا" التحية بلطف واحترام ثم نقلت نظرها من جديد نحو المنصة.

من يدري أكان "كارلو" قد اختار في النهاية البِذْلَة المقلمة التي اختارتها له. لقد تركتْه وغادرتِ المنزل فيما كان يحدق إلى البذلتين المستلقيتين على السرير؛ بِذْلَة مقلَّمة وأخرى بلون رمادي حديدي. كان "كارلو" مضطربًا؛ فقد انتبهتْ لذلك عندما رأته يواصل ترتيب شعره ويحدِّق إلى هاتين البذلتين ليختار بينهما كأن حياته كلها تتوقف على هذا الاختيار.

اقترحت عليه "أنَّا" -فقط في محاولة منها كي تخرجه من ذلك المأزق-: "ارتدِ تلك البِذْلَة المقلمة".

سألها "كارلو": "أتعتقدين أن هذه أفضل؟".

قالت "أنَّا": "طبعًا، فعلى أي حال يعتمد كل شيءٍ فقط على حديثك وما ستقوله في الاجتماع، أليس كذلك؟".

اعترف هو: "معكِ حق، فأنا أشعر بقلقٍ شديد".

ردَّت "أنَّا": "أرى ذلك، سأذهب أنا الآن، دعنا نتقابل هناك".

ارتدتِ المعطف وتهيَّأت للخروج من الغرفة عندما أوقفها زوجها وأمسكها من معصمها وتمتم قائلًا: "مهلًا، انتظري لحظة".

فسألته: "ماذا هناك؟".

قال لها: "كنتُ أريد أن أشكركِ مرة أخرى أنكِ غيَّرتِ رأيكِ؛ فأنا أعرف ماذا يعني هذا بالنسبة إليكِ، أنا شاكرٌ لكِ و...".

انتزعها صوت "روبرتو" من تلك الذكرى حين قال: "لقد وجدتهما يا أمي".

كان "أنطونيو" و"أجاتا" يقتربان منها ويتأبَّطان ذراع بعضهما أو بالأحرى تتشبث "أجاتا" بذراع زوجها بكلتا يديها. فاجأتها أناقة "أجاتا" بعض الشيء، فقد اعتادتْ رؤيتها دون أي أثر لمستحضرات التجميل، وشعرها مصفف بأفضل ما يمكنها، وترتدي فساتينَ منزليةً مزهرةً. أما في ذلك اليوم، فقد تبرَّجت بأحمر شفاه بنفسجي اللون، وصففتْ شعرها بطريقة متقنة مستعينة بعدد من دبابيس الشعر، وثبَّتت في معطفها البني، بروشًا مطليًّا بالذهب على شكل ساقٍ مُورقة تعلوها وردة متفتحة.

انضمت إليهما "لورينسا" بعد لحظة، وأخذتْ تنظر حولها كما لو كانت تبحث عن شخصٍ ما. ارتدتْ فستانًا باللونين الأزرق والأصفر بكمين طويلين، مشدودًا عند الخصر بحزام يفصل صدرية الفستان المزودة ببعض الأزرار عن الجزء السفلي الفضفاض الذي ينسدل حتى ركبتيها.

حيَّتها "أنَّا" بابتسامة حالما اقتربتْ منها وقالت: "كم تبدين جميلةً يا صغيرتي".

سألتها "أنَّا": "هل هو فستان جديد؟".

أجابتها "لورينسا": "لا، إنه لصديقتي "تشيتشيليا"، أهدتني إياه فهو لم يعدْ يناسبها، إذ زاد وزنها بعدما وضعت مولودها".

سألتها "أنَّا" بنبرة مرتبكة: "من هي "تشيتشيليا"؟".

أجابتها "أجاتا": "إنها زميلة دراسة قديمة تعيش في "ليتشي". كانت معها في المدرسة". تمتمت "أجاتا" وهي تحكم إغلاق معطفها: "هو جميلٌ على أي حال، ولكنها ستمرض، أخبرتها أن ترتدي ملابسَ ثقيلة تتناسب وهذه الرياح الشديدة".

احتجَّت "لورينسا" قائلة: "أنا لا أشعر بالبرد".

فكَّرت "أنَّا" وهي تَخفِض عينيها لتنظر إلى فستانها الصوفي الأخضر البسيط للغاية: "يبدو أنني أنا الوحيدة التي لم ترتدِ ملابسَ أنيقة تتناسب وهذا الحدث".

سأل "أنطونيو" موجهًا حديثه إلى "أنَّا" وهو يتجنب أن تلتقي أعينهما: "وكيف حال "كارلو"؟".

أجابته "أنَّا": "هو مضطربٌ قليلًا، ولكنه أمرٌ طبيعيٌ يمكن تفهمه".

قالت "أجاتا": سيترك انطباعًا جيدًا لدى الجميع". ثم أضافت في سعادة: "انظري إلى عدد الناس الذين أتوْا ليستمعوا لحديثه".

قالت "لورينسا" وقد تهلَّل وجهها: "ها هو!".

استدار الفريق الصغير على الفور نحو المنصة التي كانت لا تزال فارغة. تركت "لورينسا" أفراد أسرتها وذهبت نحو "دانييليه" الذي ركض بدوره تجاهها حالما رآها. قال ممسكًا بيديها: "لقد ارتديتِه أخيرًا، يبدو رائعًا عليكِ!".

أجابت "لورينسا": "لقد أحببتُه حقًّا حدَّ العشق".

قال لها برقة: "هو جميلٌ لأنك ترتدينه، سأحوك لكِ فساتين أخرى! كل الفساتين التي تريدينها".

قالت "لورينسا": "أعتقد أنني سأحتاج فعلًا إلى فساتين أخرى؛ فساتين رسمية في الحقيقة. فالأسبوع المقبل سأبدأ تدريبي عاملةَ تلغراف".

نظر إليها "دانييليه" بغرابة وقال: "عاملة تلغراف؟".

فسَّرت "لورينسا" فيما ترفع كتفيها مبتسمة: "كيارا" ستتزوج، فطلبت مني العمة "أنَّا" أن أذهب لأحلَّ محلها، لذا قررتُ أن أجرب".

سأل هو بدوره: "حسنًا، إنه خبرٌ جيدٌ، أليس كذلك؟".

ابتسمت "أجاتا" التي كانت تراقب المشهد بالكامل من بعيد. قال "روبرتو" في تلك اللحظة: "هذا هو الصبي الذي يعمل مع أبي، "دانييليه" مدير مصنع النبيذ".

سألته "أنَّا": "هل تعرفه؟".

قال "روبرتو": "تعرَّفتُه منذ أيام قليلة في القبو، إنه لطيف وودود".

سألت "أجاتا" زوجها الذي كان هو أيضًا منتبهًا لما يجري بين "لورينسا" و"دانييليه" لكنْ دون أن يبتسم على الإطلاق: "الجميع يقولون إنه صبي جيد وماهر في عمله، أليس كذلك يا "أنطو"؟". نادته "أجاتا": "أنطو"، هل تسمعني؟".

غمغم هو في شرود قائلًا: "نعم".

تابعت "أجاتا" حديثها وقد علتْ وجهها تعبيرات ماكرة: "سأكون سعيدة إذا هو و"لورينسا"، حسنًا، لقد فهمتم ما أقصده".

انفجر "أنطونيو" غاضبًا وقال: "لا تتفوهي بحماقات من فضلكِ".

تسمَّرت "أجاتا" في مكانها إذ صعقها رد فعل زوجها لذا سألته: "وما الخطأ في ما قلت؟".

رمقت "أنَّا" "أنطونيو" بنظرة متحيرة ثم فكرت بينها وبين نفسها: "هو ليس معتادًا الحديثَ بهذه الطريقة، ترى ماذا به؟".

في تلك اللحظة انطلق من الميدان هدير من التصفيق إذ صعد "كارلو" إلى المنصة مرتديًا بِذلته المقلمة. حيا الحشد المتجمع في الميدان ملوحًا بذراعيه ثم اقترب من مكبر الصوت. بدأ حديثه بصوتٍ متقطعٍ من فرط الانفعال والتأثر قائلًا: "أصدقائي وأبناء بلدتي، أنا سعيد حقًّا بهذا الحضور الضخم".

في صباح يوم 24 نوفمبر وداخل كابينة الاقتراع، أمسكتْ "أنَّا" بقلم الرصاص وفكَّرت مليًّا فيما تحدق إلى بطاقتها البريدية.

ثم رسمتْ صليبًا فوق شعار الحزب الشيوعي.

لن يعرف أحدٌ أبدًا بما فعلته "أنَّا"، سيظل هذا الأمر سرًّا تحتفظ به لنفسها. لقد فعلت ما أملاه عليها ضميرها وما لم يتعارضْ مع مبادئها ولن تشغل بالها بأي شيءٍ آخر.

في ذلك المساء عاد "كارلو" لينام إلى جوارها.

15
أبريل 1947

فوق طاولة عملها في محل الخياطة كانت مجلة "أوجي" (اليوم) مفتوحة على مقال يتحدث عن "الأخوات فونتانا". كانت "كارميلا" تجلس منحنية على الصفحة ومنهمكة في قراءة المقال ونظارتها مثبتة على أنفها. كانت تضع أحمر شفاه كما صففت شعرها الكثيف إلى أعلى بطريقة "الشِّينُون". أُرفقت بالمقال صورة للمبنى الروماني المكون من ثلاثة طوابق الذي اتخذنه الأخوات مقرًا جديدًا لبيت الأزياء الراقي خاصتهنَّ. لطالما داعب هذا الحلم "كارميلا"؛ هي أيضًا تحلم بأن تمتلك بيت أزياء حقيقي وواسع وليس تلك الغرفة الرطبة التي تبلغ مساحتها بضعة أمتار مربعة التي يتعين عليها العمل فيها حيث اضطُرَّت إلى اقتطاع جزءٍ من الإصطبل المجاور للمنزل لتحصل على هذا المشغل الضيق.

انتزعتها فجأة من أحلام اليقظة تلك طَرقتان خفيفتان متلاحقتان على باب مشغلها. صاحت قائلةً وهي تغلق المجلة متأففة: "هأنا آتية". فتحت الباب على

مصراعيه وتأهبت لتُلقي على القادم تحيةَ الصباح، ولكنها غُصَّت بجملة "صباح الخير" فلم تستطعْ أن تنطقها.

إذ ظهرت أمامها "أنَّا" وصديقتها "چوفانَّا".

سألت "أنَّا" بنبرة لطيفة: "مرحبًا "كارميلا"، هل يمكننا أن ندخل؟".

استجمعت "كارميلا" جام هدوئها ونجحتْ في أن تُتمتم قائلة: "ادخلا". ثم أشارت لهما كي تجلسا على الكرسيين اللذين خصصتهما للزبائن ثم سألتهما وهي تتَّكئ بكلتا يديها إلى الطاولة الواقعة خلفها: "اجلسا، كيف لي أن أساعدكما؟".

أوضحت "أنَّا": "نود أن تحوكي لنا بعض البناطيل". تدخلتْ "چوفانَّا" قائلة: "كذلك الذي ارتدته الممثلة".

سألتها "كارميلا": "أي ممثلة؟".

أجابت "أنَّا": "كاثرين هيبورن"، هل تعرفينها؟".

صاحت "كارميلا" وقد بدا عليها شيء من الاستياء: "أعرفها طبعًا".

قالت "أنَّا": "نريد البنطال ذاته".

زمَّت "كارميلا" شفتيها وضيَّقت عينيها حتى أصبحتا كشقَّين صغيرين ثم قالت: "انتظرا، أعتقد أنني أحتفظ بصورة له في مكان ما هنا". أخذتْ "كارميلا" تفتش وسط قصاصات الصحف والمجلات التي تحتفظ بها فوق أحد الرفوف ثم قالت بعد بضع لحظات: "ها هي، كانت هنا". اقتربت من السيدتين والورقة بين يديها وأرتهما صورة "هيبورن" التي كانت ترتدي فيها بنطالًا ذا خصر مرتفع وساقين واسعتين ارتدتْ فوقه قميصًا أسود شُمِّر كماه. سألت "كارميلا": "أتريدانه مثل هذا؟".

أكدت "أنَّا" وقد تهلل وجهها: "بالضبط!".

وضعت "كارميلا" القصاصة فوق الطاولة ثم شرحت في عجالة: "لا بُدَّ أن آخذ مقاساتكما، بمن أبدأ أولًا؟".

قالت "أنَّا" وقد نهضت في الحال وأنزلت السحاب الجانبي لتنورتها": "لأبدأ أنا".

اضطربتْ "چوفانَّا" وسألتْ: "لكنْ ماذا تفعلين؟".

توقفت "أنَّا" ثم قالت: "أخلع عني ثيابي".

سألت "چوفانَّا": "ولماذا؟".

تجهمت "كارميلا" وقالت: "وكيف لي أن آخذ مقاساتها إذن إن لم تنزع ملابسها؟".

احتجَّت "چوفانَّا" فيما تنهض من كرسيها وتشير إلى "كارميلا": "ولكنني لا أريد أن أتعرَّى أمامها".

اقتربتْ منها "أنَّا" ووضعت يدها على ذراع صديقتها وطمأنتها: "ماذا بكِ؟ لن يتطلب الأمر أكثر من بضع دقائق". ثم نظرت إلى "كارميلا" وسألتها: "أليس كذلك؟".

أجابت "كارميلا" وقد بدا في نبرة صوتها شيء من نفاد الصبر: "نعم وماذا سنحتاج أكثر؟" فكَّرت "كارميلا" فيما تهز رأسها: "كانت مجنونة ولا تزال، فعلًا، من شبَّ على شيء شاب عليه".

تابعت "أنَّا" وهي تضع يدها على وجه صديقتها: "اجلسي واهدأي".

نظرت إليها "چوفانَّا" بعينين دامعتين وأومأت لها، ثم جلست من جديد. انتهت "أنَّا" من إنزال سحَّابها وخلعتْ تنورتها أولًا ثم جوارب النايلون وبقت بسروالها الداخلي فقط.

لم تتمكن حينها "كارميلا" من أن تمنع نفسها عن التطلع إلى ساقيها الأبيضين الشفافين وفخذيها النحيلتين وكعبيها الرقيقين. فكَّرت "كارميلا" حينها: "لديها كعبان رفيعان ككعبي دجاجة". أمرتها "كارميلا": "اجلسي هنا" مشيرةً إلى وسط الغرفة وأمسكتْ بشريط القياس. رفعت لها سترتها قليلًا، وجعلتها تفتح ذراعيها وقاستْ خصرها أولًا ثم وركيها. دوَّنتِ المقاسات –ثمانية وستون سنتيمترًا للخصر وأربعة وتسعون سنتيمترًا لمحيط الحوض– في دفتر

مفتوح فوق الطاولة بجوار أحد أعداد مجلة "أودچي". ثم جلست القرفصاء لقياس محيط فخذها وساقها وكاحلها. وأخيرًا، وضعتْ شريط القياس بداية من ارتفاع خصرها ثم فردته إلى الأسفل حتى كعبها. وحالما كتبتْ هذه القياسات، قالت: "لقد انتهيتُ منكِ، يمكنكِ الآن ارتداء ملابسك".

صاحت "أنَّا" بابتسامة موجهة حديثها إلى صديقتها: "أرأيتِ؟ الأمر أبسط مما تخيلتِ".

عضَّت الأخرى على شفتيها ونهضتْ ببطء عن كرسيها، فيما تتفحصها "كارميلا" بمزيج من الكدر والغضب، ولكنها في النهاية نجحت في أخذ المقاسات الضرورية لـ"چوفانَّا" التي ظلت طَوال الوقت محمرَّة الخدين. وحالما أخذتِ المقاسات حتى اتفقتْ معهما على نوع القماش ولون البنطالْين، فكلتاهما يريدانهما من القطن الناعم ويفضل لو يكون باللون البيج الناصع.

أخبرتهما "كارميلا" فيما تصحبهما إلى الباب: "يلزمني عشرة أيام على الأقل؛ فأنا لديَّ فعلًا عمل آخر عليَّ أن أنهيه أولًا، وفي ما يخص الأموال فأحضراها معكما عندما تأتيان لتسلم البنطالين".

حالما أغلقت "كارميلا" الباب خلفهما، ضغطتْ بظهرها الباب وزفرت الهواء في تنهيدة، وأدركت حينها فقط أنها ظلت طَوال مدة زيارتهما المفاجئة تلك محبوسة الأنفاس.



سارت المرأتان مستمتعتين بدفء صباح ذلك اليوم الموافق بداية شهر أبريل حيث تأبَّطت "أنَّا" ذراع صديقتها "چوفانَّا" وقالت وهما تشقان طريقهما تجاه "كونترادا لا بيترا": "سأصطحبكِ إلى المنزل". ظلتا الاثنتان تسيران في صمت بعضَ الوقت إلى أن أخفقت "أنَّا" في النهاية في السيطرة على فضولها فسألتها: "لماذا تخجلين من أن تتعري؟"

خفضتْ "چوفانًّا" نظرتها وقالت: "من أجل "چوليو"، فهو يغضب إن رآني أحدٌ بملابس غير محتشمة".

صاحت "أنًّا" بدهشة متسائلة: "حتى إن كان هذا الشخص هو الخياطة؟".

قالت "چوفانًّا": "لا أعرف، أعتقد هذا. يقول دومًا إن جسدي ملك له هو فقط".

غضبتْ "أنًّا" واستغرقها الأمر بضع ثواني قبل أن ترد عليها: "حسنًا، الأمر ليس هكذا على الإطلاق. إن جسدك هو ملكِ أنتِ وحدكِ، وليس ملكًا لأي شخص آخر".

سألت "چوفانًّا": "ولا ملكًا حتى لــ"چوليو".

فأجابتها "أنًّا": "لا، ولا حتى لــ"چوليو".

قطعتا بضعة أمتار وهما تسيران معًا جنبًا إلى جنب في صمت ثم توقفتْ "أنًّا" منزعجة إذ انتابها حدس جعلها تستدير نحوها وتقول لها: "دعيني أطرح عليكِ الآن سؤالًا، لكنْ عليكِ أن تعديني أنكِ سوف تجيبينني بصراحة".

حدقت إليها "چوفانًّا" بنظرة بها شيء من خيبة الأمل وقالت لها: "أنا لم أكذب عليكِ قط من قبل".

قالت "أنًّا" محاولةً تهدئتها وقد أمسكت بيدها: "أنا أعرف ذلك". تنهدت "أنًّا" بعمق وتردَّدت قليلًا إلا أنها في النهاية اتخذت قرارها بأن تطرح عليها السؤال الذي أرادته: "لم يجبركِ "چوليو" من قبل على أن تفعلي شيئًا لا ترغبين فيه، أليس كذلك؟ أقصد شيئًا ما يتعلق بجسدكِ".

أجابتها "چوفانًّا": "أنا.. أنا لا.. لا أفهمكِ".

أوضحتْ "أنًّا" وقد قالتْ ما تريد هذه المرة مباشرة: "أقصد هل يوجد شيء ما تفعلانه معًا في أثناء ممارستكما الجنس يثير غضبكِ أو يسبب لكِ ألمًا؟".

همست "چوفانًّا": "لا".

سألتها "أنًّا": "هل تقولين الحقيقة؟".

عضَّتِ الأخرى على شفتيها وأومأت، ثم قالت لصديقتها: "يجب أن أعود إلى المنزل". سحبت يدها من يد "أنَّا" وقبَّلت خدها قبلة صغيرة ثم هربت. ظلت "أنَّا" واقفة مكانها بلا حَراك في منتصف الشارع تتطلع إليها وهي تبتعد وتفكر في ما حدث من قليل وانتابها شعورٌ بالمرارة. لقد كذبت "چوفانَّا" على "أنَّا" أول مرة.



قال "كارلو" بينما يرفع قبعة "بورسالينو" عن رأسه: "صباح الخير يا سيدة "چينا"، هل يمكن للسيد "تشيتشو" أن يستقبلني؟".

حيَّته "چينا" بشيء من الغلظة وقالت: "صباح الخير أيها السيد عمدة بلدتنا، لم نركَ منذ زمن طويل لدرجة أننا نسينا شكلك".

اعتذر هو بدوره فيما يضغط قبعته بكلتا يديه وقال: "معكِ حق يا سيدة "چينا"، لكنْ حقًّا لم يكنْ لديَّ وقت سوى الآن. لم يكنِ الأمر بيدي".

حدقتْ إليه بحذر ثم قالت أخيرًا: "ادخل".

أغلقتِ الباب وطلبتْ منه الانتظار عند مدخل المنزل وذهبت للتأكد أكان زوجها مستيقظًا أم لا. لاحظ "كارلو" وقد بدتْ عليه علامات الانزعاج والضيق أنه كلما أتى لزيارة هذا البيت وجده يعجُّ برائحة نفاذة. كانت تفوح منه هذه المرة رائحة تشبه رائحة الثوم المحروق. عادت "چينا" بعد دقيقتين وغمغمت قائلة: "يقول إن بإمكانه رؤيتك". ثم قادته خلال الممر المظلم للبيت وتوقفت أمام الباب الموارَب لغرفة نومه وقبل أن تفتحها أوصته قائلة: "لا ترهقه، لم تعدْ لديه القدرة حتى على النهوض من مكانه بسبب الألم". أومأ لها "كارلو" وأكَّد لها أنه أتى في زيارة قصيرة.

كانت الغرفة شبه مظلمة، إذ كان يدخلها ضوء خافت جدًّا من خلال مصاريع النافذة المغلقة جزئيًّا. أخذ "كارلو" يتقدم متحسسًا طريقه محاولًا ألا يصطدم ببعض الأثاث. استطاع تمييز الجزء الجانبي الحديدي من حافة السرير الأمامية ثم انتبه إلى البطانية المنتفخة إذ يرقد أسفلها السيد "تشيتشو".

توقف عند أقدام السرير وهمهم قائلًا: "صباح الخير يا سيد "تشيتشو"، أنا "كارلو"، كيف حالك؟".

أطلق الأخير حشرجة ثم أجاب: "نحمد الرب".

قال "كارلو": "أخبرتني زوجتك أنك لم تعدْ تنهض من سريرك".

ضحك الآخر بمرارة وقال: "وإلى أين سأذهب؟ لم يعدْ بإمكاني الآن المشي".

قال "كارلو": "يؤسفني هذا كثيرًا. لو بإمكاني أن أفعل شيئًا ما".

قاطعه السيد "تشيتشو" وقال في حزم: "ليس بإمكان أحدٍ أن يفعل أي شيء. دعك من هذا وأخبرني كيف حال كرم العنب خاصتك، وهل الأمور تسير جيدًا؟ ألا تزال تبيع نبيذك للأمريكان؟".

قال "كارلو": "طبعًا، كل شيء يسير نحو الأفضل حمدًا للرب. بل إنني بدأتُ أيضًا في زراعة عنب "كاليفورنيا"، كما اشتريتُ براميل من خشب البلوط وأعددت غرفةَ تخزين جديدة، أتمنى أن أذيقك إياه قريبًا، سيكون هذا أول نبيذ أحمر من إنتاج مصنعي".

بقي السيد "تشيتشو" صامتًا بضعَ ثوانٍ ثم قال: "يحتاج النبيذ الأحمر إلى كثيرٍ من الصبر".

ردَّ "كارلو" قائلًا: " وأنا لديَّ صبر".

سأله السيد "تشيتشو" ساخرًا: "هل أنت هنا إذن للحصول على مباركتي قبل أن تبدأ مشروعك الجديد؟"، وانفلتت منه حشرجة.

قال "كارلو" متمتمًا: "لا، في الحقيقة أنا هنا من أجل مسألة حساسة".

سأل "تشيتشو": وما هي؟".

ردَّ "كارلو": "عليَّ أن أتحدث إليك عن ابن...". توقف وصحح لنفسه: "عن حفيدك".

سأله "تشيتشو": هل ارتكب خطأً ما؟".

قال "كارلو": "لا، لا بالعكس. هو لم يفعل سوى كل خير".

فسأل "تشيتشو" من جديد: "ماذا إذن؟".

تردَّد "كارلو" وهو يمسك بالجزء الحديدي من مسند السرير وقال: "إن الأمر متعلق بحفيدك وبنت أخي "أنطونيو" فهما يلتقيان كثيرًا مؤخرًا ويقضيان معًا بعض الوقت".

همس "تشيتشو": "أكمل".

تابع "كارلو": "إن أخي يشعر بالقلق؛ فآخر شيء قد يرغب فيه هو أن يرى –عسى الرب ألا يقدر– ابنته متزوجةً..."، توقف "كارلو" للحظة ثم تابع: "ابنَ عمها".

سأل "تشيتشو": "وهل أخوك يعرف بالأمر؟".

قال بنبرة متذمرة: "هو فقط من أخبرتُه بالأمر".

قال "تشيتشو": "الكثير من الناس سيعرفون بالأمر إذن".

قال "كارلو": "أنا أثق بـ"أنطونيو" كيفما أثق بنفسي، يجب ألا تقلق منه، هو لم يتكلم حتى الآن ولن يتكلم أبدًا، أنا أعدك".

كرَّر السيد "تشيتشو": أكمل".

تابع "كارلو": "لذلك فكرتُ طويلًا لإيجاد طريقة لحل تلك المشكلة، وربما أكون قد عثرتُ على حلٍّ ما؛ فأنا على أيِّ حال أحتاج إلى شخصٍ ما يهتم بشؤون مصنع ومخزن النبيذ في "نيويورك". يمكن أن يكون هذا الشخص هو "دانييليه"، باختصار، أفكر في أن أبعده بعضَ الوقت، فقط الوقت الذي نحتاج إليه".

انفلتت من السيد "تشيتشو" ضحكة جشَّة أعقبتها نوبة سعال، ثم سأله بعدما هدأ السعال: "وهل يمكن لهذه الفكرة أن تكون حلًّا مناسبًا؟".

قال "كارلو": "الكل يعرف أن البعيد عن العين...".

قاطعه "تشيتشو": "فعلًا ومن يعرف ذلك أكثر منك".

اغتاظ "كارلو" من تلميح "تشيتشو" لكنه لم يرد، وبدلًا من الخوض في هذه الأمور القديمة سأله: "عليَّ فقط أولًا أن أعرف أكان لديك مانع في سفر الصبي".

سأله الأخير بدوره: "وإلى كم من الوقت سيبقى هناك؟".

قال "كارلو": "بضعة أشهر".

قال "تشيتشو": "هل أخبرتَ أمه بالأمر؟".

أجاب "كارلو": "لا، فضَّلت أن أتحدَّث معك أولًا".

صمتا فترةً طويلةً ثم اختتم "تشيتشو" كلامه: "حسنًا، في النهاية لن يمكنك أن تلحق به الأذى، هو سيسافر ويروِّح عن نفسه قليلًا وسيرى جانبًا آخر من العالم".

قال "كارلو": "إن كلماتك هذه تريحني كثيرًا يا سيد "تشيتشو"، لم يكن لديَّ شك في حكمتك ورجاحة عقلك".

قاطعه السيد "تشيتشو" وقال بقسوة: "لا تمنِّي نفسك أن خطتك هذه ستؤتي بثمارها"، ثم أضاف متنهدًا: "والآن عليك أن ترحل فأنا متعب وأريد أن أستريح".

حيَّاه "كارلو" وخرج إلى الممر. كانت "چينا" جالسة في المطبخ المجاور للغرفة أمام النافذة وبدا لـ"كارلو" أنها تمضي أيامًا بأكملها في جلستها هذه في انتظار أن يناديها زوجها أو يحتاج منها إلى شيء. حالما رأتْ "كارلو"، نهضت ورافقته إلى الباب دون أن تتفوه بكلمة.

حالما أغلقت الباب خلفه جاءها صوت السيد "تشيتشو" المهيب المتسلط، رغم ما حل به من مرض وضعف، يقول لها: "چينا"! استدعي "كارميلا"! لا بُدَّ أن أتكلم معها!".

تقدمتْ "كارميلا" بسرعة كالإعصار فيما تؤرجح حركتها السريعة حقيبة يدَها بإيقاعية، وفي الأثناء كانت الرياح الشمالية تهبُّ بلا هوادة وتُسقِط خصلات شعرها المربوط بشكل رديء على وجهها. لم تنظرْ حتى إلى المرآة ذلك الصباح؛ فهي لم تكنْ تهتم ذلك اليوم بمظهرها.

وصلتْ إلى مبنى مجلس البلدية ودخلتِ المكان وهي تركض تقريبًا. ركض خلفها حارس البوابة صارخًا: "يا سيدة "كارميلا" إلى أين أنتِ ذاهبة؟".

أجابت هي بحدة: "يجب أن أتحدث مع العمدة". واصلتْ طريقها دون أن تلتفت ونظرتها مثبتة أمامها مباشرة فيما ظلَّ الحارس يركض خلفها متوسلًا إياها: "لا أعرف أكان العمدة مشغولًا، دعيني أتأكد أولًا".

تصرفتْ "كارميلا" كأن هذا الرجل لم يكنْ موجودًا. وصلت أمام الباب الذي ثُبِّتت عليه بالمسامير اللوحة النُّحاسية التي كُتِبَ عليها "العمدة". أمسكتْ بمقبض الباب وفتحته على مصراعيه.

كان "كارلو" يجلس منحنيًا فوق كومة كبيرة من الأوراق ممسكًا بسيجار بين أصابعه. رفع "كارلو" رأسه فجأة فقال الحارس الذي وصل لتوِّه لاهثًا: "أعتذر سيدي العمدة، لكنَّ السيدة لم تمنحني الوقتَ لإخبارك بقدومها، قالت إنها تحتاج إلى الحديث إليك".

أضافتْ "كارميلا" وهي تضم حقيبتها إلى صدرها: "فعلًا، وعاجلًا".

قال "كارلو" وهو يشير بيده للحارس: "حسنًا يا "چوزيبِّيه"، دعِ السيدة "كارميلا" تدخل ولا تقلق".

اعتذر الحارسُ مرةً أخرى، ولكنه لم يرحلْ قبل أن يرمقَ "كارميلا" -التي لم تهتمْ بالتأكيد- بنظرة امتعاض وازدراء. سألها "كارلو" وهو ينهض من كرسيه: "والآن؟ ماذا حدث؟".

أجابت هي فيما تفتح يديها وتُريه أظفارها المطلية باللون الأحمر: "ما حدث أنني سأغرس هذه الأظفار في مؤخرتك".

جلس "كارلو" على حافة المكتب وهمهم قائلا: "حقًّا"، ثم سحب نفسًا من سيجاره.

اقتربتْ هي منه وعندما أصبح وجهه قريبًا جدًّا منها هدَّدته قائلة: "لا تمزحْ معي".

فسألها: "هل يمكن أن أعرف ماذا فعلت؟".

فأجابته: "دانييليه" لن يذهب إلى أمريكا، هل سمعتني؟".

تنهَّد "كارلو" قائلًا: "يبدو أنكِ تكلمتِ مع السيد "تشيتشو".

قالت هي باندفاع: "نعم تكلَّم معي في الأمر، ولذلك عليكما أن تنسيا أمر إرسال ابني إلى الجانب الآخر من العالم".

سألها "كارلو": "هل يمكننا أن نتناقش بهدوء؟".

قالت "كارميلا" وهي تضرب على صدرها: "الأمر لا يحتمل النقاش. ابني سيبقى حيث أكون أنا ولن يبتعد عني".

تنهَّد "كارلو" وذهب ليجلس من جديد خلف مكتبه وقال لها: "سيبقى هناك بضعة أشهر فقط. هو ليس ذاهبًا للحرب على أيِّ حال! فكري، إنها فرصة جيدة له هو أيضًا".

أوقفتْه "كارميلا" وقد وضعتْ إصبعها على فمها وقالت: "اصمت! لن تنجح في أن تسحرني بكلماتك هذه المرة. هذا الزمن قد ولى".

دافع "كارلو" عن نفسه وقال: "لم أكن أحاول أن أسحركِ، أودُّ فقط أن أجعلكِ تفهمين أن الأمر ليس مأساويًّا كما تظنين. إنها مجرد رحلة يا "كارميلا" رحلة ضرورية لإعادة الأمور إلى نصابها الصحيح".

فأجابت "كارميلا" بازدراء: "ضرورية لمن؟ هي ضرورية لأسرتكَ وليس لأسرتي. الذنب ليس ذنب "دانييليه" إذا كانت تلك الفتاة تنظر إليه بوَلَهٍ لتُوقِعه في حبها".

سعى "كارلو" للتحكم في أعصابه ثم قال: "اسمعي، لندعْ "دانييليه" يقررْ، إنه في الثانية والعشرين من عمره أي إنه ليس بحاجة إلى أن تمنحيه الإذن، هل نتراهن أنه سيكون سعيدًا بهذه الفرصة؟ أنا أعرفه جيدًا".

أجابته "كارميلا": "أنت تعرف ابني؟ أنت؟".

قال "كارلو" بجدية وهو ينظر إلى عينيها مباشرة: "أكثر مما تظنين".

قالت "كارميلا" متهكمةً وقد جُشَّ صوتها فجأة: "آه، حقًّا، يسعدني معرفة ذلك". ثم أشاحت بنظرها عنه وعقدتْ ذراعيها.

ظل "كارلو" يراقبها في صمت، فقد كان يعرف جيدًا أنها حين تعضُّ على شفتها السفلية بتلك الطريقة فهي تفعل ذلك كي تمنع دموعها من الانهمار، فـ"كارميلا" هي نفسها لم تتغير؛ تمنعها كبرياؤها من أن تُظهِر دموعها أمام أحد. إلا أن رؤيتها في هذه الحالة ولَّدت داخله فجأةً شعورًا بالحنان فقال بصوت أكثر رقة من ذي قبل: "اسمعيني، إرسال "دانييليه" إلى "نيويورك" ليس هدفه فقط إبعاده عن المشكلات والمصايب وإنما لأنه أيضًا صبي بارع، إنه بارع حقًّا في التعامل مع الناس. وأنا على يقين من أنه سيعقد هناك بعض الصفقات الجيدة، أنا أثق به".

عادت "كارميلا" تنظر إليه. تابع حينها "كارلو": "ثم ماذا تظنين؟ سأدفع له مبلغًا كبيرًا".

سألته "كارميلا": "وكم يكون هذا المبلغ الجيد؟".

قال "كارلو": "ما يستحقه".

فقالت "كارميلا": "إن ابني يستحق أعلى أجر".

قال "كارلو": "إذن سيكون له أعلى أجر".

استعادت "كارميلا" خلال لحظة واحدة نبرتها المتعالية وهمهمت قائلة: "إذا كان الأمر هكذا".



كانت "أنَّا" تنتظر "لورينسا" عند باب المنزل، ويداها ممسكتين بمقود دراجتها "البيانكي" وتلقي نظرات متواصلة على ساعتها. وعندما وصلت الفتاة أخيرًا، دفعت "أنَّا" دراجتها وانطلقت تجرها إلى جانبها، فيما أسرعت "لورينسا" للحاق بها. قالت الفتاة: "آسفة يا عمتي"، لقد تأخرت اليوم أيضًا".

أجابت "أنَّا": "لاحظت ذلك".

أردفت "لورينسا": "الأمر فقط أن أمي نسيتْ أن توقظني هذا الصباح".

قالت "أنَّا": "أنتِ في الثانية والعشرين من عمرك ولا تزالين غير قادرة على الاستيقاظ بمفردكِ؟".

قالت "لورينسا": "لن أتأخر غدًا، سترين".

هكذا كانت "أنَّا" تقابل كل صباح سلسلة من الأعذار السخيفة والوعود الواهية. لم تعدْ "أنَّا" متأكدة من أن عرض هذه الوظيفة على "لورينسا" كان بالفكرة الجيدة؛ فقد تبين لها أن هذه الفتاة خاملة على الدوام كأنَّها لا تولي اهتمامًا لأي شيءٍ على الإطلاق. لذا كثيرًا ما قالت لها "أنَّا": "أنتِ تعلمين أنكِ لستِ مجبرةً على أداء هذا العمل وأنه يمكنكِ البحث في أي وقت عن وظيفة أخرى، شيءٍ ما يعجبكِ حقًّا".

ولكنَّ "لورينسا" كانت تهز كتفيها وتجيبها: "أنا لا أعلم ما الذي قد يعجبني، فالعمل كله متشابه".

كان الوضع في مكتب البريد مخالفًا تمامًا لما كانت عليه "أنَّا"؛ فكان وصول "لورينسا" إلى العمل في المكتب بمنزلة عيد حقيقي. في اليوم الأول أتى الجميع للترحيب بها بصيحات احتفالية عالية وانهالوا عليها بقدر كبير من التهاني والإطراءات. حتى "كارمينيه" -ذلك المتذمر على الدوام- صاح قائلًا: "ها قد حان الوقت لتصل إلينا أخيرًا نسمة من الهواء النقي المنعش إلى هذا المكتب". في حين قالت "إيلينا" في شبه تأثُّر: "لا أزال أذكر ذلك اليوم حينما أتيتِ إلى هنا منذ سنوات عدَّة، هكذا كان طولكِ!"، وأطلقت ضحكة عذبة.

فكَّرت "أنَّا" وهي تواصل دفع دراجتها "لا، ربما لا تروقها هذه الوظيفة فعلًا، ولكنها لا تتمكن من الإفصاح عن الأمر، خاصة أن الجميع قد استقبلها بودٍّ وترحيبٍ". خاصةً "إيلينا" التي استلطفتها وأحبتها، إذ فهمت أنها سيمكنها الثرثرة والنميمة مع "لورينسا" بدلًا من "كيارا" التي كما قالت يومًا ما متأففة: "لا تنتبهين حتى أكانت حاضرةً في المكان أم غائبة". كثيرًا ما كانت "أنَّا" تراهما في بداية عمل "لورينسا" في المكتب منحنيتين على بعض المجلات، يعلقان على جمال هذا الممثل أو ذاك ثم مع الوقت

تولَّد لديهما شغف تجاه تلك المجلات الأسبوعية التي تنشر "روايات حب مصوَّرة" وكانتا تتبادلان التنهدات واللكز بالمرافق فيما تقرآنها.

إلا أنه كان هناك رد فعل متعلق بوصول "لورينسا" إلى المكتب أثار دهشتها بحق وهو رد فعل المدير. فبعد وصول "لورينسا" إلى المكتب للعمل بمدة قصيرة بدأ "تومَّازو" يستخدم كميةً معتبرةً من الكولونيا إلى درجة أنه كان يترك خلفه أثرًا عطريًّا قويًّا عند مروره بأي مكان، إلا أنه في الوقت ذاته توقف عن استخدام دهان تلميع الشعر وأخذ يتباهى بشعره الموج الناعم غير المرتب الذي يجعله يبدو أصغر من الأربعين عامًا الذي هو عمره.

من وقت إلى آخر كان ينهض من مكتبه ويذهب إلى المكتب المخصص للتلغراف ليسأل "لورينسا" بابتسامة: "هل كل شيء على ما يرام؟"، بل كان يحدث أيضًا أن يسبقها ليفتح لها الباب، بكياسة بالغة غير معهودة منه، وعندما كان يذهب بضعَ دقائق إلى بار "كاستيلُّو" لشراء شيءٍ ما كان يعرض عليها دومًا أن يحضر لها شيئًا معه فتراه يقول: "أتريدين كوبًا من القهوة؟ أو قطعةً حلوى؟"، فتجيبه "لورينسا" مبتسمةً: "نعم، أريد الاثنين، شكرًا لك". بل كان متسامحًا جدًّا مع أخطائها في العمل؛ ففتاة مشتتة الذهن مثلها كثيرًا ما كانت ترتكب خطأً في نسخ شيء ما أو تفويتها بعض الكلمات، فكلما لاحظت "إيلينا" خطأً كهذا وهي تفحص النص التلغرافي تقول: "ممم.. هناك شيء ما غير منطقي، أعتقد أنكِ تخطَّيتِ بعض الكلمات، أليس كذلك؟"، وتشير إليها عند نقطة بعينها وسط كلمتين.

في تلك المواقف لم يكنْ من النادر أن يصل على الفور "تومَّازو" من الغرفة الأخرى ليقول: "وما المشكلة، هيا، أضيفي أنتِ إذن واحدة نحتاج فقط إلى أن يكون المعنى مفهومًا". احمرَّ وجه "لورينسا" خجلًا فيما لم يكن على "إيلينا" أن تفعل أي شيء سوى أن تطيع أوامر مديرها، ولكنها فعلت ذلك بعدما رمقته

بنظرة فيها شيءٌ من الحيرة. إن المدير رجلٌ لطيفٌ ومتعاونٌ، لكنْ في ما يتعلق بالعمل فلم يكن مرنًا على الإطلاق، أو على الأقل حتى تلك اللحظة.

ذلك الصباح غادرت "أنَّا" المكتب بحقيبتها شبه الفارغة. ركبت دراجتها "البيانكي" ومرَّت من أمام عجوزين كانتا واقفتين عند النافورة لتملآ زجاجة كبيرة. سارت بمحاذاةِ الجدار المحيطي للقلعة ثم انعطفتْ إلى يمين البرج وسلكتْ منحدرًا مرصوفًا بالحصى. نهضتْ قليلًا عن مقعد الدراجة ودفعتها بدعسات حازمة وقوية على الدواسة، وظلت هكذا حتى استوى الطريق مرة أخرى بعد بضعة أمتار، فجلست حينها على المقعد من جديد. واصلتِ السير يسارًا خلال زقاق تُطِلُّ عليه شرفات صغيرة لها أسيجة حديدية صدئة وقد عُلِّقَتْ على واحدة من هذه الشرفات ملابس نسائية داخلية كي تجف. توقَّفت "أنَّا" وفتحت حقيبتها وأخرجتْ ظرفًا أبيضَ كُتب عليه: "ماريلينا كوكولياتو"، زقاق البرج، رقم 4 "ليتسانيلُّو" (ليتشي)". نظرتْ حولها باحثة عن رقم المنزل، ولكنها لم تجدْه. كانت هناك منازل تحمل الأرقامَ؛ واحدًا واثنين وثلاثة، وعندما تقدمتْ أكثر وجدتْ كذلك رقمَ خمسة وستة، هذا يعني أن رقم أربعة هو تحديدًا الرقم الناقص كأنَّ تخطيه متعمد. خرج رجل نحيف يرتدي منامة إلى إحدى الشرفات، وأشعل سيجارة، وقد بدت على وجهه علامات النعاس. نادته "أنَّا": "معذرة!". نفث الرجل دخان سيجارته ونظر إلى الأسفل حيث الشارع. تابعت "أنَّا": "هل يمكنك إخباري أين يوجد منزل رقم أربعة؟ أنا لا أجده".

أجاب الرجل مشيرًا إلى فتحة في الجدار المقابل ينبثق منها درج حجري لم ترَه "أنَّا" حتى: "أتبحثين عن محل العطور؟ هو هناك، في أعلى الدرج".

شكرتْ ساعية البريد الرجل وتركت دراجتها وصعدت الدرج.

صرخ الرجل خلفها وقال ضاحكًا: "سدي أنفكِ فرائحة تلك المرأة ستفقدكِ وعيكِ من فرط العطر الذي تضعه".

كان الممر ضيقًا فعلًا ومظلمًا وتفوح منه رائحة العفن. وصلت "أنَّا" بعدما صعدتْ نحو خمس عشرة درجة أمام باب صغير متهالك ومقوس الشكل وطرقتْ مرتين مقرعةَ الباب. فتحتِ امرأةٌ بدينةٌ، في عقدها الثامن، ترتدي ثوبًا فضفاضًا من الصوف الأزرق وتنبعث منها رائحة اللافندر الكحولية للغاية لدرجة أن دوارًا خفيفًا أصاب رأس "أنَّا". أما عن شعرها فكان رماديَّ اللون وكثيفًا ومرفوعًا على شكل ذيل حصان أسدلته على جانب وجهها المتلئ.

سألتها "أنَّا": "هل أنتِ "ماريلينا كوكولياتو"؟".

أومأت الأخيرة فسلمتها "أنَّا" الظرف وتأهبت على الفور للمغادرة فكانت تحتاج إلى بعض الهواء. ولكنَّ السيدة أوقفتها إذ قالت لها: "إنني أحسدكِ على نحافتكِ تلك، فأنا بالكاد أمر من هنا". وأشارتْ إلى الدرج. ارتسمتْ على وجه "أنَّا" ابتسامةً جامدةً وحاولت من جديد أن تغادر، ولكنَّ السيدة أوقفتها مرة أخرى وقالت مبتسمة: "أتريدين كوبًا من القهوة؟ لا أحد يأتي لزيارتي هنا في الأعلى".

تردَّدت "أنَّا" لكنْ تبادر إلى ذهنها أن حقيبتها ذلك اليوم لم تكن ممتلئة لذلك لم تكن في عجلة من أمرها.

ابتهجتْ "ماريلينا" كثيرًا، وبعدما دخلت ساعية البريد البيت أغلقتِ الباب خلفها. لم يكن المنزل من الداخل يمتُّ بأي صلة إلى المدخل المظلم الضيق للبيت إذ كانتْ كل جدران البيت مغطاةً بورق حائط وردي اللون، وثبتت عليها الكثير من اللوحات الصغيرة التي تصوِّر زهورًا من كل نوع. كما عجَّ البيت بمزهريات امتلأتْ بزهور طبيعية. كانت هناك مزهريات في كل مكانٍ تقريبًا؛ عند مدخل البيت فوق الخزانة ذات الأدراج، وعلى طاولة غرفة المعيشة، وفوق الخزانة المعلقة على الحائط. دعتْها "ماريلينا" لتجلس في الصالون الصغير بكراسيه المبطَّنة بالقطيفة الحمراء، ثم تركتْها وعادت في خلال دقائق قليلة ومعها صينية وضعتْ فوقها فنجانين من القهوة يتصاعد منهما البخار.

انتظرتْ "أنَّا" حتى تبرد القهوة قليلًا، وفي الأثناء رمقتِ السيدة التي كانت تُحدِّق إليها بدورها مبتسمة. ثم علقت كأنها أرادت فقط أن تقول شيئًا ما لتكسر به الصمت: "ألاحظ أنكِ تحبين الزهور".

نظرت "ماريلينا" حولها وهي تقبض بيديها على فنجانها وقالت: "أوه. تلك الزهور، إنها بمنزلة أصدقائي!". نظرتْ إليها "أنَّا" نظرةً تملأها الحيرة، فتابعتِ السيدة: "أتعرفين أن لا أحد يستمع لكِ كما تفعل الزهور؟ أنا أتحدث إليها كل يوم. أفضي إليها بذكريات الطفولة، ومخاوفي، ولحظاتي السعيدة القليلة، وما أشعر بالندم عليه". توقفتْ لحظةً ثم واصلت: "هي تُحسِن الاستماع خاصةً لتلك الأشياء التي أشعر بالندم عليها، وهذا ما يتوقعه المرء من الأصدقاء المخلصين، فالزهور لا تطلق عليكِ الأحكام أبدًا، ماذا عنكِ؟ هل لديكِ أصدقاء حقيقيون؟".

شربتْ "أنَّا" رشفةً من القهوة وقالت: "لديَّ صديقة عزيزة جدًّا على قلبي". وفكرتْ بينها وبين نفسها: "وهي صديقتي الوحيدة".

قالت السيدة: "تمسكي بها إذن، أتعرفين؟ أنا أيضًا كانت لديَّ صديقة جيدة منذ وقت طويل للغاية". ثم نهضتْ ببطء ووضعت الفنجانين على الصينية، وتنهدتْ ثم تابعت: "لكنْ بعد ذلك...".

أعلنت "أنَّا" فيما تنهض: "عليَّ أن أذهب الآن". شكرتْ "ماريلينا" على القهوة وانطلقتْ تجاهَ الباب.

نزلت "أنَّا" الدرجَ وخرجتْ إلى ضوء الشمس وركبتْ دراجتها. حينئذٍ كانت الشرفة التي أطلَّ منها الرجلُ قد أصبحت فارغة.



عندما علم "دانييليه" بالخبر كاد يسقط من فوق كرسيه من المفاجأة، وسأله: "حقًّا يا سيد "كارلو"، أنت لا تسخر مني أليس كذلك؟! هل سأذهب إلى أمريكا؟ هل "دانييليه كارلا" سيذهب إلى "نيويورك"؟". ظل "دانييليه" ينظر إلى

"كارلو" في دهشة طفل قُدِّمت إليه هدية ضخمة وغير منتظرة. إنها "نيويورك"، أي ناطحات السحاب والأضواء وكذلك الموضة التي قرأ عنها كثيرًا في المجلات. قَبِل "دانييليه" عرضَ السفر إلى أمريكا على الفور دون حتى أن يفكر ثانيةً واحدةً. أخبره "كارلو" أن عليه أن يجتذب عملاءَ جددًا لنبيذه إذ يجب أن يضرب الحديدَ وهو ساخن في ما يخص عمله الجديد في أمريكا. سيبدأ أولًا من البارات والمطاعم الإيطالية في تلك المِنْطَقة المسماة "Little Italy".

شرح له "كارلو": "وهذا الاسم يعني "إيطاليا الصغيرة"، وفي تلك المِنْطَقة لا يعيش سوى إيطاليين فقط". أردف "كارلو": "أي إنك لن تواجه أي مشكلة في التواصل، اطمئن".

ستصاحبه على سفينته العابرة إلى الأطلسي حمولة من "دونًّا أنًّا". أما عن الأموال، فمصاريف الرحلة بالكامل ستكون بالتأكيد على نفقة "كارلو" الخاصة، ثم إنه سيسلِّمه مبلغًا كبيرًا ومعتبرًا قبل أن يرحل، ثم سيرسل إليه المال بانتظام حالما يصل إلى أمريكا. إن جهَّز كل شيء وسارت الأمور على ما يرام فبإمكانه أن يرحل في نهاية الشهر. كانت سفينة "ساتورنيا" عابرة المحيط الأطلسي ستبحر في يوم 27 أبريل من ميناء "نابولي"، واتفق معه "كارلو" أنه سيتولى مهمة الحصول على ما يلزمه من وثائق للسفر قبل أن تنطلق رحلته. قال له "كارلو" وهو يغمز بعينيه: "إنهم مدينون لي بالكثير من الخِدْمَات".

أجاب "دانييليه" وهو يمدُّ له يده ليصافحه: "شكرًا لك يا سيد "كارلو" على ثقتك، لن أخذلك".

ابتسم له "كارلو" وشد على يده، ثم غريزيًّا جذبه نحوه وعانقه. احمرَّ وجه "دانييليه" وفتح عينيه على وسعيهما وقد تملَّكه حرج شديد. أجاب "كارلو": "أنا أعرف هذا، أنت لم تخذلني قطُّ".

لم يستطعْ "دانييليه" الانتظار ليخبر "لورينسا" بهذا الخبر. تخيَّل سعادتها بهذه الفرصة التي منحها إياه عمها، بهذه الرحلة الاستثنائية التي على وشك خوضها، وبكل الحكايات التي سيشاركها معها عند عودته.

ولكنه على العكس قُوبل بسيل من الغضب تركه مذهولًا.

صاحت "لورينسا" بنبرة باعثة على الحزن فيما تقطع بيت "دانييليه" الصغير جيئةً وذَهَابًا: "كنتُ أعرف أنك ستتركني أنت أيضًا، أنت لا تهتم بأمري مطلقًا، تفكر فقط في نفسك مثلك مثل الآخرين. اذهب، اذهب، ارحل من هنا، اذهب إلى الجانب الآخر من العالم". لم تنجحْ كل محاولاته في تهدئتها رغم أنه أقسم لها إنه يحبها وأنه سيعود قريبًا. أوضحت "لورينسا" وقد تركت نفسها تسقط على أريكته الصغيرة منهكة من الحزن والألم: "أنا لا أصدقك، لم أعد أصدق من يرحلون".

ركع "دانييليه" أمامها وأخذ يدها بين يديه، متوسلًا إياها أن ترى الأشياء على حقيقتها، وليس كما تخشى أن تكون، فقال لها: "انتظري". ثم انتزع من الأرض بقايا قماش وردي باهت، وقطع منه شريطًا صغيرًا بالمقص الطويل الحاد ولفَّه بين أصابعه حتى حصل على شكل يشبه الخاتم. ثم نظر إلى عيني "لورينسا"، ووضعه بلطف في بنصرها ثم سألها: "هل تصدقيني الآن؟". ارتسمت على محياها ابتسامة خفيفة، وأومأت بالإيجاب. هكذا وبعد مرور أربع سنوات على موت صديقه، نجح "دانييليه" أخيرًا في التخلص مما تبقى لديه من شعور بالذنب، وسمح لنفسه لأول مرة وبعد طول انتظار أن يقبِّل الفتاة التي أحبها.



تأمَّلت "أنَّا" صورتَها في المرآة، ثم أخذتْ تدندن بسعادة ورضا كلمات أغنية "La barchetta" (القارب الصغير) للمطربة الإيطالية "نيلَّا بيتسي" التي كان الراديو يبثُّها في تلك اللحظة فتقول الأغنية: "انظر هناك إلى عرض البحر، فها هو قارب يميل مع كل موجة كما لو كان على وشك الغرق..".

يليق بها البنطال ومقاسه مضبوط عليها. كان عليها أن تقرَّ بأن "كارميلا" قد عملتْ فعلًا عملًا جيدًا لذا عهدت إليها بمجموعة أخرى من البناطيل بألوان مختلفة. زرَّرت "أنَّا" آخر أزرار قميصها الأسود ذي الأكمام القصيرة، وأخرجتْ من صندوقِ الجواهرِ الخشبيِّ المرصَّع عقدَ اللؤلؤ الخاص بأمها. قصَّرت طوله إذ لفَّته مرتين في شكل دائري، ثم وضعته حول رقبتها لينسدل فوق قميصها الأسود بينما تُردِّد بصوت أعلى قليلًا جزءًا آخر من الأغنية": "على القارب الصغير الكائن في وسط البحر أن يذهب بعيدًا جدًّا، لكنَّ القبطان سيتولى مهمة إبحاره.."، فيما تستدير حول نفسها متكئة على قدم واحدة وهي تتطلع إلى صورتها في المرآة ببنطالها الجديد.

أطلَّ "روبرتو" من غرفة نومه مستندًا إلى إطار الباب ونظر إلى أمه بدهشة ثم صاح قائلًا: "كم تبدين جميلة يا أمي! ما هذا البنطال؟". استدارتْ أمه وابتسمتِ ابتسامةً عريضةً، ووضعتْ يديها على فخذيها واتخذتْ وضعية جعلتها أشبه بنجمة سينمائية.

ضحك حينها "روبرتو" بشدة وهو يرى والدته تتباهى بأناقتها بهذا البنطال الجديد الذي ترتديه أول مرة.

في اللحظة ذاتها -وعلى العكس تمامًا من تلك الأجواء الفرحة المبهِجة التي سيطرتْ على بيت "أنَّا"- كان السيد "چوليو" في مزرعة "كونترادا لا بيترا" يمسك بمقصٍّ كبيرٍ ويستعد لتمزيق بنطال "چوفانَّا"، فيما كانت الأخيرة مستلقيةً على السرير وقد غطتْ وجهها بيديها وتنتحب بقوة دون توقف. أما كلبها "تشيزاريه" فكان جالسًا على الأرض، ينظر إليها ويئنُّ بحزن.

قال السيد "چوليو" ببرود ولا مبالاة: "تلك البناطيل صُنِعَتْ للنساء سيئات السمعة". ثم بدأ يمزقه.

16
يوليو 1947

وقفتْ "كارميلا" أمام زوجها وسألته: "هل لديك المفاتيح؟".

قال "نيكولا" وهو يغوص بجسده في كرسي غرفة المعيشة: "مفاتيح ماذا؟".

قالت هي: "مفاتيح بيت والدتك".

غمغم هو: "نعم إنها بحوزتي، أعطاني إياها "دانييليه" قبل سفره. لماذا تسألين عنها؟".

أمرته "كارميلا" وقد مدَّت إليه يدها: "أعطني إياها، لا بُدَّ أن ننظفَ البيت وندعَ الهواء يدخل إليه؛ فهو مغلقٌ منذ أكثر من شهرين".

حاول زوجها طمأنتها قائلًا: "لقد اهتممتُ بالأمر فعلًا. أذهب كل حين وأفتح النوافذ وأكنس الشقةَ سريعًا وأغادر".

عقدت "كارميلا" ذراعيها أمام صدرها وقالت: "أنت؟ لم يحدثْ قطُّ طَوال حياتي أن رأيتك تمسك بمقشة، هيا، أعطني المفاتيح"، ومدتْ له كفها من جديد.

كرَّر "نيكولا": "ليس هناك حاجة حقًّا، سأهتم أنا بالأمر، إنه بيت أمي على أيِّ حال، أليس كذلك؟".

أجابت "كارميلا": "لقد صار الآن بيت "دانييليه"، وما يخص ابني، يخصني أنا أيضًا، فهل ستعطيني المفاتيح بنفسك أم عليَّ أن آخذها بالقوة؟".

أطلق "نيكولا" تنهيدةً طويلةً ثم تمسَّك بذراعي الكرسي ونهض بعناء حتى إن وجهه احمرَّ من المجهود الذي بذله كي يتمكَّن من النهوض. فكَّرت "كارميلا" وهي تتطلع إليه: "لقد أتمَّ عامه الثاني والستين منذ وقتٍ قليلٍ ولكنه يبدو أكبر من

سنه بعشرين عامًا على الأقل". فكل تلك الدهون التي طالما أثارتْ بشدة اشمئزازَ زوجته جعلت أبسط حركة يتحركها متعبةً وشديدةَ الصعوبة. بل إضافة إلى ذلك صار يُشخِّر ليلًا بصوتٍ عالٍ للغاية، وهذا ما جعلها ترسله إلى النوم في الغرفة الأخرى التي كانت في السابق غرفة "دانييليه".

توجَّه "نيكولا" نحو المشجب الذي تُعلِّق عليه المعاطفَ والواقع عند مدخل البيت، ثم فتَّش جيبَ معطفه وعثر في النهاية على سلسلة تحمل مفتاحين. أخرجها وشرح لها بنبرة رتيبة: "ها هما، هذا الصغير هو مفتاح البوابة، أما هذا فهو للباب الرئيس".

قالت "كارميلا" فيما تنتزع من يده سلسلةَ المفاتيح: "شكرًا، أرأيتَ؟ لم يكنِ الأمر صعبًا إلى هذه الدرجة"، ثم أخذت حقيبتها من مشجب المعاطف وقالت: "أنا ذاهبة".

عندما وصلتْ إلى المنزل، فتحت البوابة الخارجية جزئيًّا وعبرت الحديقة الصغيرة المؤدية إلى المدخل الفعلي للمنزل. تقدَّمت وسط عشب الحديقة الأشعث الذي يرتفع فيلامس ركبتيها وفكرت حينها: "كان عليه أن يرسل شخصًا ليشذب هذا العشب". أدارتِ المفتاح وفتحتِ الباب. كان الظلام دامسًا في الداخل كما كانت الرائحة النتنة التي تثيرها الرطوبة خانقةً. تركت "كارميلا" باب المنزل مفتوحًا وذهبت لتفتح النافذة المطلة على الحديقة على مصراعيها. استعانتْ بضوء النهار كي تتفحص الشقة؛ فرأت الملاءات البيضاء تغطي الأثاث، وفنجانًا متسخًا موضوعًا على حوض المطبخ، وإبريقَ القهوة متروكًا على الموقد؛ وأُسنِدت إلى الحائط مكنسة ومجرفة امتلأت بكرات من الغبار. فكرت حينها "كارميلا": "آه! يبدو أنه كان محقًا عندما قال إنه كنس المنزل! هو لم يفرغ حتى المجرفة في صندوق القُمامة". هزَّت رأسها اعتراضًا. وفي إحدى زوايا البيت رأت "كارميلا" الحذاءَ الجلديَّ الأسودَ الذي يرتديه "دانييليه" في أيام الأعياد. وضعتْ حقيبتها على حوض المطبخ، وشمَّرت كميْ فستانها، ونزعتِ الملاءة الأولى التي خلَّفت وراءها نفحة من

الغبار كاشفة عن أريكة بمقعدين وطاولة قصيرة. حملتِ الطاولة وذهبتْ بها إلى الحديقة كي تنفض عنها الغبار بشكلٍ أفضل، ثم عادت إلى الداخل وغطَّت من جديد الأريكة بالملاءة ذاتها بعدما نظَّفتها.

رفعتْ "كارميلا" بحرص الملاءة الثانية التي كانت تخفي شيئًا ما يتوسط الغرفة. لكنْ ما رأته أسفل الملاءة حبس أنفاسها من الدهشة.

فمن وسط سحابة الغبار التي غمرت المكان ظهرت ماكينة خياطة وطاولة عمل. تركتْ "كارميلا" الملاءة تسقط على الأرض واقتربتْ؛ تبيَّن لها أن هناك سلةً كبيرةً فوق الطاولة تحوي قصاصات من القماش، وخيوط ملونة، وكشتبانات، ووسادة حاملة إبر، وأخرى حاملة دبابيس، وشريطي قياس مطويين بعناية، بالإضافة إلى مسطرة خشبية.

جلست "كارميلا" مرتبكةً مشوَّشة الذهن وبدأت تقلِّب الأشياء التي وجدتها بين يديها، واحدًا تلو الآخر، كما لو كانت تمسك بمفاتيح البحث عن كنز ما. وقالت حينها لنفسها: "لهذا السبب إذن لم يردْ "نيكولا" أن يعطيني المفاتيح. هذا البائس! كان يعرف كل شيء".

نهضتْ فجأة وتوجَّهت إلى غرفة النوم. فتحت أولًا النافذة على مصراعيها، ثم دُرَف خزانة الملابس. في الجهة اليسرى من الخزانة، تعرفتْ "كارميلا" ملابسَ "دانييليه"، والبِذْلَة التي يرتديها أيام الآحاد، والقمصان، والبناطيل، والمعاطف؛ أما في الجانب الأيمن، فكانت هناك لفَّات من القماش مكدسة فوق بعضها وموضوعة في إحدى الجوانب. رأت كذلك فساتين نسائية معلقة على المشاجب.

أخرجتْ منه فستانًا وأخذت تتفحصه مدةً طويلةً؛ كان فستانًا من الصوف الأحمر يصل طوله حتى الركبتين ومزينًا بياقةٍ من الفرو مثبتةٍ ببروش دائري. وضعت الفستان على السرير ثم أخذت واحدًا آخر، هذه المرة كان فستانًا ربيعيًّا بمربعات بيضاء وسوداء مزودًا بحزامٍ حول الخصر كما ثُبِّتت بعض الأزرار على

صدريته. أخرجتها جميعًا، واحدًا تلو الأخر حتى تلك التي لم ينتهِ "دانييليه" بعد من حياكتها؛ تلك الفساتين التي ثُبِّتَتْ أكمامهما بعددٍ كبيرٍ من الدبابيس الملونة. ثم انتبهتْ في أسفل خزانة الملابس لوجود صندوق معدني بدا لها أنها تعرفه. إن هذا الصندوق هو صندوق "دانييليه" الذي كان لديه منذ كان صبيًّا والذي طالما احتفظ به في غرفته ولم تنجحْ يومًا في فتحه لأنه كان دومًا مغلقًا بالمفتاح. أمسكته وحاولت رفع غطائه وحالما فتحته رأت كومةً من دفاتر ذات غِلاف أسود كتلك الدفاتر التي تستخدمها هي لتخطَّ فيها رسومها وتصميماتها.

جلستْ على السرير وسط الفساتين المكدسة وبدأت تقلِّب في الدفاتر، صفحة تلو الأخرى، وهي تفتح عينيها على اتساعهما عند كل صفحة. كانت رسوم "دانييليه" جميلةً بشكلٍ مدهشٍ. فكرت بشيء من الاستياء أن تلك الرسوم أفضل حتى من تلك التي ترسمها هي. كان قد رسم فساتين سهرة وفساتين زفاف أنيقة وقطعًا فردية من الملابس النهارية بألوان زاهية، ناهيك بتصاميم معينة لم تَرَها "كارميلا" من قبل ولا حتى في مجلات الموضة الخاصة بها. شعرت بأنها تعرَّضت للخداع لأن ابنها وزوجها أخفيا عنها الأمر وفي الوقت ذاته شعرت بالغضب لأن "دانييليه" لم يستمعْ لها، بل إنه تصرف من تلقاء نفسه ونفَّذ ما أراد. لقد ظلَّ يخدعها طَوال ذلك الوقت وجعلها تصدِّق أنه نزع تلك الفكرة السخيفة من رأسه؛ فكرة أن يصمم الملابس ويحوك الفساتين كما لو كان أنثى. فكَّرت "كارميلا" فيما يسيطر عليها قدرٌ كبيرٌ من الاستياء والغضب: "هو حقًّا يجيد الكذب. ثم إن مَن شابه أباه فما ظلم. وهو يظل من أسرة "جريكو". أخذتْ الفساتين من جديد وعلَّقتها في خزانة الملابس وأغلقتها. ثم أعادتْ وضع الدفاتر في الصندوق وحملته أسفل ذراعها ووضعته في حقيبتها.

تذمَّرت "إيلينا" فيما تهوِّي لنفسها بحُزْمة من الأوراق: "إن هذا الحر يقتلني، يبدو المكان هنا كأنني داخل فرن حقيقي".

سألتها "لورينسا": "أتريدين بعض الماء؟".

أجابت "إيلينا" وقد بدتْ مرهقةً ومنهكةً من حرارة الجو: "نعم، أحضري لي الماء من فضلك".

قبل أن تخرج "لورينسا" من الغرفة رفع "تومَّازو" رأسه عن المكتب وسألها مبتسمًا: "هل تحتاجين إلى شيءٍ ما؟".

أجابت هي وقد توجَّهت نحو الرف الذي تعلوه زجاجة وإلى جوارها مجموعة من الأكواب المرصوصة بجانب بعضها: "سأحضر كأسًا من الماء لـ"إيلينا". لكنها سرعان ما انتبهت أن الزجاجة شبه فارغة، فالتفتت حينها نحو "تومَّازو" وأضافت: "أنا ذاهبة إلى النافورة، وسأعود في الحال".

أجاب "تومَّازو": "على رسلكِ".

حالما خرجت "لورينسا" من المكتب حتى شعرتْ بالاختناق بسبب حر الشارع. توجَّهت الفتاة مباشرة نحو النافورة الصغيرة الواقعة في ميدان "كاستيلُّو"، وبدأتْ تملأ الزجاجة فيما تسندها بيدها. وبينما كانت المياه العذبة النقية تتدفَّق من النافورة، ألقت نظرة شاردة على ما حولها. وحينما توقَّفت نظرتها عند بار "كاستيلُّو"، شاهدتهما.

رأت أباها والعمة "أنَّا" التي كانت قد خرجت قبل بضع دقائق من مكتب البريد. قدم "أنطونيو" كتابًا لـ"أنَّا" التي أخذته بعدما رفعت يدها عن مقود الدراجة وأمسكت به وحدَّقت ثوانيَ إلى الغِلاف الخارجي للكتاب، ثم رفعت عينيها نحو "أنطونيو"، وابتسمت له، وقالت له شيئًا ما لم تسمعه "لورينسا" طبعًا لبعد المسافة بينهم. كان "أنطونيو" ينظر إليها ورأسه مائل قليلًا إلى أحد الجانبين كما يفعل عندما يكون خائفًا من أن تنفلت منه كلمة أو تصرف ما أو يفضح شيئًا بالخطأ. ظلَّت

"لورينسا" تراقبهما وبعد أن تبادلا حوارًا قصيرًا معًا دسَّت الكتابَ في حقيبة عملها، وركبت الدراجة وانطلقت في طريقها تقود دراجتها ببطء. وحينها دسَّ "أنطونيو" يديه في جيبي بنطاله وبقي يراقبها حتى انعطفت يمينًا واختفت عن ناظريه.

وبَّخت امرأة كانت تمرُّ من عند النافورة "لورينسا" قائلة: "أتريدين أن تستنفدي مياه البلدة كلها؟".

خفضت "لورينسا" نظرها فجأة ورأت أن الزجاجة قد امتلأت فعلًا وتفيض منذ لا تعرف كم من الوقت. فأجابتها وهي تغلق الصنبور بسرعة: "المعذرة". هزَّت الأخرى رأسها وواصلت طريقها وهي تتمتم ببضع كلمات غير مسموعة.

قال "تومَّازو" حينما رآها تدخل إلى المكتب: "هل كل شيء على ما يرام؟ لم تعودي في الحال".

واصلت "لورينسا" طريقها مباشرة دون أن تلتفت وذهبت لتضع من جديد الزجاجة على الرف. ثم أجابت بحدة فيما تصبُّ المياه في إحدى الكؤوس: "نعم، طبعًا، أنا بخير".

تنهَّدت "إيلينا" فيما تأخذ الكوب من يديها: "أخيرًا، كنت على وشك الذوبان".

جلست "لورينسا" مرةً أخرى في مكانها، وغرق المكتب طَوال الساعتين التاليتين في صمتٍ ثقيلٍ أشبه بالثقل الذي تخلِّفه حرارة الجو ذلك اليوم. لم تنجح الفتاة في أن تمحو من رأسها صورة أبيها وهو يبتسم أعذب ابتسامة رأتها على وجهه حينما كان يتحدث مع زوجة عمها، "أنَّا". هي لم تره قطُّ يبتسم مثل تلك الابتسامة لأمها، وربما ولا حتى لها هي شخصيًّا. حاولت أن تُشتِّت ذهنها عن ذلك الأمر بالتفكير في "دانييليه"، ولكنَّ هذا لم يقُدها إلا إلى شعورٍ أقوى بالوَحْدَة. منذ غادر "دانييليه" لم يكتب لها إلا رسالة واحدة فقط يخبرها فيها –بأدق التفاصيل– عن الكثير من الأشياء، ولكنها لم تتمكن من فهم ما قرأته.

ترى كيف تبدو حقًّا ناطحات السحاب تلك التي تضيء المدينة الكبيرة في أثناء الليل؟ وكيف يكون السير فوق ذلك الجسر الذي يبلغ طوله كيلومترين؛ ذلك الجسر الرائع الذي يبدو كأنه معلَّقًا فوق الماء؟ وهل صحيح أنه يمكن للمرء أن يدخل إلى ذلك التمثال الكبير الذي على هيئة امرأة تحمل في يدها شعلة؟ أخبرها "دانييليه" في نهاية الخطاب أنهما يومًا ما سيذهبان معًا إلى "نيويورك" وأنها أيضًا سيمكنها أن ترى كل الأشياء الغريبة الموجودة على الجانب الآخر من المحيط.

إن تلك الرسالة المليئة بالحماسة والانبهار اللذين بديا في كلمات "دانييليه" في الحقيقة أغاظت "لورينسا" وجرحتْ شعورها. كانت تفضِّل لو قرأت في خطابه أنه مشتاقٌ إليها كثيرًا، وأن حنينه إليها وإلى البلدة يغمر قلبه، تمنَّت لو أخبرها أنه حزينٌ وخائب الرجاء من هذا العالم المختلف والبعيد للغاية عنها. قالت "إيلينا" فجأةً فانتزعت "لورينسا" من أفكارها: "ماذا بكِ؟ أنتِ اليوم صامتة".

أجابتها "لورينسا" بلهجة متبلدة متراخية: "لا شيء".

ابتسمت "إيلينا" ابتسامة سريعة ساخرة وأثارت انزعاج "لورينسا" حينما سألتها: "هل تفكرين في حبيبكِ؟"، فلم تجِبها "لورينسا"، بل نهضتْ فجأة وتوجهت نحو مكتب "تومَّازو"، وعرضت عليه: "هل نذهب معًا لتناول القهوة؟". نظر إليها "تومَّازو" في دهشة ثم ابتسم وأجاب: "بكل سرور، سأدفع أنا".

✉✉

توقَّفت "أنَّا"، وأسندت إحدى قدميها إلى الأرض، وأخرجت المنديل من جيب سترتها لتمسح جبهتها ورقبتها المبلَّلتين بالعرق. كانت الحرارة في ذلك الصباح مُنهِكة. كانت تتوق إلى العودة إلى المنزل حيث تضع رأسها تحت صنبور المياه البارد وتقرأ بعضَ الوقت. قبل قليل في بار "كاستيلُّو"، أعارها "أنطونيو" نسخته من رواية بعنوان "وقتٌ للقتل" لكاتب إيطالي لم تسمعْ به من قبل يُدعى "إينيو فلايانو"، وأوضح لها أن هذه الرواية فازت منذ مدة قصيرة بجائزة أدبية

مهمة. وأضاف: "أريدكِ أن تقرئيها". وأردف: "لقد وضعتُ خطوطًا أسفل بعض العبارات. إذا أردتِ، ضعي أنتِ أيضًا خطوطًا أسفل ما يروقكِ ويؤثر فيكِ من عبارات، ثم دعينا نتناقشْ حولها بعد أن تُنهي قراءتها".

ها قد أوصلتْ أخيرًا آخرَ خطاب لها لذلك الصباح. وهذا الخطاب كان فاتورةَ كهرباء لعجوز تسمع بأذن واحدة وكان على "أنَّا" أن تقرأ عليها كل بند في الفاتورة؛ معدل الاستهلاك، والضريبة الحكومية، وإيجار العداد، والدمغة، ثلاثَ مرات قبل أن تقتنع السيدة أخيرًا أنه لا يوجد أي خطأ. أغلقت حقيبتها الخالية، ثم ألقتْ نظرة إلى ساعتها وأدركت أنه لا يزال لديها وقتٌ للذَّهَاب في زيارة قصيرة إلى "كونترادا لا بيترا". لم تهتمَّ بما ستواجهه من حرارة الجو، إذ كان عليها أن تستغلَّ تلك الساعات التي يكون فيها السيد "چوليو" في الأبرشية وبعيدًا عن البيت. هي لم تقابل "چوفانَّا" منذ أسبوعين. وتظن "أنَّا" –وربما يكون اعتقادها هذا خاطئًا– أن صديقتها تحاول التهرب من رفقتها منذ بعض الوقت، فهي لم تعدْ تأتي لزيارتها في البلدة بشكلٍ متواصلٍ كالسابق، بل وكثيرًا ما كانت تذهب لزيارتها في البيت فلا تجدها. وفي تلك المرات القليلة التي كانتا تلتقيان فيها بدت لها "چوفانَّا" صامتةً وتشعر بالحرج كأنَّها لا تستطيع صبرًا على المغادرة. في المرة الأخيرة التي ذهبت فيها "أنَّا" لزيارتها، طرقتِ الباب ففتح لها "چوليو" وهذا ما فاجأ "أنَّا" إذ لم تكن تتوقع رؤيته هناك في منتصف وقت ما بعد الظهيرة. أطلَّ عليها حينها بوجهه القاسي وقال لها "إن "چوفانَّا" تأخذ قسطًا من الراحة". ولم يجعلها تلج إلى البيت حتى.

حينها رفعتْ "أنَّا" حاجبها وقالت: "نائمة في هذه الساعة؟".

قال "چوليو": "نعم، رأسها يؤلمها".

قالت "أنَّا": "حسنًا، ربما أعود لرؤيتها غدًا".

فأجابها هو: "لا تزعجي نفسكِ بالمجيء لزيارتنا من جديد". ثم ركز نظرته على البنطال الذي كانت ترتديه "أنَّا" وأضاف: "إذا أرادتْ هي رؤيتكِ فستتواصل معكِ". وأغلق الباب في وجهها.

وصلت "أنَّا" إلى "كونترادا" وعندما فتحتِ البوابة الصغيرة أطلقتْ صفارة كي تستدعي "تشيزاريه" ولكنه لم يكنْ موجودًا. واصلت طريقها وطرقت باب المنزل وسألت: "چوفانَّا" هل أنتِ هنا؟ هذه "أنَّا".

استغرق الأمر دقيقةً كاملة كي تقرر "چوفانَّا" أن تفتح الباب. صاحت "أنَّا" غاضبةً ومستاءةً: "أخيرًا، أنتِ إذن لا تزالين حيَّة". همستْ "چوفانَّا" بينما تدخل إلى البيت: "نعم، بالنسبة إليَّ أنا فنعم".

لحقت بها "أنَّا" ووضعت الحقيبة على الطاولة وسألتها: "ماذا تقصدين؟".

قالت "چوفانَّا": "أقصد "تشيزاريه".

سألت "أنَّا": "ومتى حدث هذا؟".

أجابت صديقتها: "منذ أسبوعين".

وضعت "أنَّا" يدها على وسطها ونظرت إليها بغضب ثم سألتها: "وأنتِ تخبرينني بهذا فقط الآن؟".

أجابت الأخرى: "أعتذر، لم أفكِّر في إخبارك. هل أعدُّ لكِ قهوة؟".

قالت "أنَّا": "دعكِ من القهوة الآن. هل يمكنكِ أن تخبريني ماذا بكِ؟ أنتِ مختفية ولم تخبريني بموت "تشيزاريه".

ردَّت "چوفانَّا" وهي تخفض نظرتها: "لم أختفِ، هأنا هنا".

أمرتها "أنَّا": "انظري إلى عينيَّ".

رفعت "چوفانَّا" رأسها ببطء وحينها أعادت "أنَّا" سؤالها: "سأسألك مرةً أخرى، ألن تقولي لي ماذا بكِ؟ هل فعلتُ شيئًا ما أغضبكِ مني؟".

حرَّكت "چوفانَّا" الكرسي وجلست، ثم أجابت: "لا".

تابعت "أنَّا" في إصرار: "أنا لا أصدقكِ، أعرف أن هناك شيئًا ما".

شبَّكت "چوفانَّا" يديها ثم ذهبت إلى الحوض وسكبت بعض المياه في كأس حافته مكسورة، ثم سألتها: "لماذا تحاولين إبعادي عن "چوليو"؟".

نظرتْ إليها "أنَّا" وقد بدتْ على ملامحها علامات الصدمة وعدم التصديق لذا أجابت: "أنا؟ ماذا تقولين؟".

فسَّرت "چوفانَّا": "ألستِ من أخبرتِني بهذا الأمر الخاص بالجسد، وأنه ليس ملكًا له، حتى إنكِ اتهمتِه بإيذائي".

ردَّت "أنَّا": "لمْ أتهم أحدًا إطلاقًا. كل ما فعلتُه حينها أنني سألتكِ سؤالًا. أما عن حقيقة أن جسدكِ ليس ملكًا له، فحسنًا، هذا صحيح ويمكنني أن أعيد الكلام ذاته الآن، لكنْ لا أفهم، ما الهدف من هذا كله؟".

قالت "چوفانَّا": "لقد تحدَّثت إلى "چوليو" في هذا الموضوع، وأوضح لي أن الأمر ليس كما تقولين، وأنكِ لا تستطيعين فهم ما يجري بيني وبينه، كما أخبرني بأنكِ تقولين ذلك فقط لأنكِ تريدين إبعاده عني. لكنْ لماذا؟ ألا تريدين لي أن أكون سعيدة؟".

سألتها "أنَّا" بدورها: "لكنْ لماذا أخبرتِه بالحديث الذي دار بيننا؟ لم يكن عليكِ أن تفعلي ذلك".

أجابت "چوفانَّا": "هو لا يريد أن تكون بيني وبينه أسرارٌ". أغمضتْ "أنَّا" عينيها لحظةً وفركت جبهتها بأصابعها كأنَّها أصيبتْ فجأة بصداعٍ قوي. تابعت "چوفانَّا" حديثها: "ثم إنه غضب بسبب البنطال الذي خِطته".

فتحتْ "أنَّا" عينيها من جديد وقالت: "وما عَلاقة البنطال الآن بما تقولين؟".

قالت "چوفانَّا" وهي تضغط بقوة الكوبَ الذي بين يديها: "هو يقول إن فكرة حياكة البنطال هذه هي فكرتكِ أنتِ، وإن فكرة كهذه لم تكن لتخطر على بالي".

سألتها "أنَّا": "ألهذا لم أركِ ترتدينه قطُّ؟ أهو مَن يرفض أن تلبسيه؟".

قالت "چوفانَّا": "لقد مزَّقه".

سألتها "أنَّا": "وهل سمحتِ له بأن يفعل هذا؟".

هزَّت الأخرى كتفيها وشربتْ آخر رشفة مياه ثم وضعت الكأس على الطاولة. غمغمت حينها "أنَّا" بينها وبين نفسها: "لا أصدق".

صاحت "چوفانَّا" بنبرة عدائية لم تُسمعْ منها من قبل: "ولكنَّ هذا صحيح! صحيح أنها كانت فكرتكِ، كنتِ من أخذتِني إلى الخياطة، لم أكن أريد حتى هذا البنطال".

قالت "أنَّا": "ماذا تقولين؟ أنتِ تعرفين أن هذا الكلام غير صحيح، لقد كنتِ سعيدة للغاية".

قالت "چوفانَّا" بنبرة أقرب إلى الصراخ: "أنتِ في النهاية تجبرينني على أن أفعل كل ما تفعلينه".

حدقتْ إليها "أنَّا" في ذهول ثم قالت بصوت منخفض: "لقد فهمتُ ما تقصدين".

أخذتْ حقيبتها وتوجهتْ نحو الباب وكانت تعرف أن صديقتها لن تلحق بها ولن توقفها، وأنها ستتركها ترحل دون أن تقول أي شيء. لم تكن تلك هي صديقتها "چوفانَّا" التي عرفتها. لقد أصابتها حالة من الاضطراب الشديد بسبب تلك السيطرة التي يمارسها عليها "چوليو"، والطريقة التي ينجح من خلالها في تزييف الحقيقة وتشويهها، وقدرته المرعبة على إقناعها بأحاديث وأفكار ليست لها. لذا تراها دائمًا تكرر عبارات مثل: "هو شرح لي أن.. هو قال لي إن..". قالت "أنَّا" قبل لحظة من أن تغلق الباب خلفها وتغادر: "يؤسفني كثيرًا موت "تشيزاريه".

قطعت طريق عودتها وهي تشعر باختناق وحزن لا يُحتمل يملأ قلبها.

✉✉

في نهاية ذلك الأسبوع شديد الحرارة قررت أسرة "جريكو" قضاء يوم الأحد على شاطئ البحر. لقد حزموا كل أمتعتهم من طعام، وشراب، وملابس السباحة، وملابس إضافية بديلة لتلك التي يرتدونها، وكتب، ومجلات، ومناشف، وكراسي قابلة للطي، وملأوا بها سيارتي "كارلو" و"أنطونيو" وغادروا "ليتسانيلُّو" في

الصباح الباكر. رافقهم أيضًا "تومَّازو" في هذه السَّفْرة. فعندما سمع "لورينسا" وزوجة عمها "أنَّا" تتحدثان عن البحر وكيف أنهما تتعجلان مجيء يوم الأحد كي تسافرا، علَّق من خلف مكتبه قائلًا: "هنيئًا لكما، كنت أودُّ أيضًا لو أذهب وأسبح في البحر". التفتتْ نحوه "لورينسا" وهزَّت كتفيها وقالت: "أتريد أن ترافقنا أنت أيضًا؟ سيسعدنا هذا، أليس كذلك يا عمة؟".

ونظرت إلى "أنَّا"، فأجابت "أنَّا" بتردد فيما ترمق الفتاة بنظرة استفهامية: "نعم، طبعًا".

تجاهلت "لورينسا" نظرات زوجة عمها ثم التفتتْ مجددًا نحو "تومَّازو" وقالت: "حسنًا، سنكون في انتظاركَ في الساعة الثامنة صباحًا أمام منزلي، أنت تعرف أين هو، أليس كذلك؟".

قال "كارلو" لأخيه مازحًا فيما يجلس خلف عجلة القيادة مرتديًا نظارته الشمسية وواضعًا سيجارًا بين أسنانه: "هل يمكنك أن تسير بسيارتك خلفي؟". ضحكتْ "أنَّا" التي تجلس إلى جانب زوجها، فيما كان يستلقي في المقعد الخلفي ابنهما "روبرتو" الذي يكره الاستيقاظ مبكرًا لذا كان عابسًا وأبقى عينيه مغمضتين.

قرَّب "أنطونيو" سيارته "الفيات 508" من سيارة أخيه وأجابه: "إذا تذكَّرت أن أنقل السيارة إلى الغيار الثاني فسأكون خلفك بالضبط".

انفجر "كارلو" ضاحكًا كما ضحكت أيضًا "أجاتا" الجالسة إلى جانب زوجها في السيارة، أما "لورينسا" و"تومَّازو" اللذان جلسا في المقاعد الخلفية للسيارة فنظرا إلى بعضهما وابتسما.

كان الوقت مبكرًا للغاية، لذا لم يكن شاطئ "سان فوكا" قد ازدحم بعد. وضعوا المناشف بالقرب من تلك المِنْطَقة من الشاطئ القريبة من البحر وفتحوا الكراسي الخشبية القابلة للطي وغمروا أرجلهم في الرمال. توجَّهت "أجاتا" و"أنَّا" و"لورينسا" نحو إحدى الكبائن وارتدين ملابس السباحة خاصتهنَّ ثم عدن إلى

بقية الأسرة. صاح حينها "كارلو" وقد نزع عنه سريعًا قميصه وبنطاله وبقي بزي السباحة الخاص به: "سأعدُّ إلى ثلاثة ويكون الجميع في البحر".

تذمر "روبرتو" المستلقي على المنشفة وقد غطى عينيه بذراعيه قائلًا: "أنا نعسان يا أبي"، فيما تمتمت "أنَّا" وقد استلقت مستندة بثقل جسدها إلى مرفقيها: "سأنتظر قليلًا هنا".

وضع "كارلو" يديه حول وسطه ونظر إليهما رافعًا حاجبه وقال: "آه، حقًّا؟"، ثم اندفع نحو "أنَّا" فجأة ورفعها بذراعه وركض بها نحو البحر فيما هي تتلوى وتتوسَّل له ضاحكة أن ينزلها ثم ألقى بها أخيرًا في البحر. صعدت هي بعد لحظات إلى سطح الماء وهي تسعل وتضحك في الوقت ذاته.

قال "كارلو": "والآن حان دور ابنكِ"، فيما يتجه نحو "روبرتو" الذي نهض بدوره فجأة وبدأ يركض. صرخ "كارلو" فيما يركض خلفه: "انظر كيف سأمسك بك!".

تدخلت "أجاتا" قائلة وهي تضحك ضحكةً خافتةً: "يا للمسكين! اتركه وشأنه".

إلَّا أن "كارلو" نجح في النهاية في الإمساك بابنه من وسطه، وحمله وألقى به في الماء وسط ضحكات الجميع. علَّق "تومَّازو" الذي كان جالسًا على منشفة بجوار "لورينسا" وقد أسند ذراعه إلى مرفقه: "لطيف عمكِ".

قالت "لورينسا": "نعم، لقد كان دومًا يصنع المقالب".

سألها "تومَّازو": "ألن تنزلي إلى البحر؟".

أجابت "لورينسا" فيما تخرج عددًا من مجلة أزياء تُدعى "بوليرو": "بعد قليل".

فيما نهض "تومَّازو" قائلًا: "أما أنا فأعتقد أنني سأنزل الآن".

فكَّ أزرار قميصه ذي الأكمام القصيرة ثم بنطاله وفانلته وبقي بسروالٍ قصيرٍ باللون الأزرق الداكن يغطِّي نصف فخذيه.

استرقتْ "لورينسا" النظر من أعلى المجلة ولم تستطع أن تخفي دهشتها؛ فقد كان لـ"تومَّازو" منكبان عريضان وقويان كما كانت تبرز عضلات ذراعيه، أما جسده فكان

رشيقًا ومستديرًا بشكل متناسق. باغتها "تومَّازو" وهي تحدق إليه وابتسم في خجل. احمرَّ حينها وجه "لورينسا"، فأخفتْ وجهها بين صفحات مجلة "بوليرو".

سار "أنطونيو" نحو البحر ثم توقَّف عند الشاطئ، وعقد ذراعيه وترك قدميه تُغمران في الرمال حتى غطتْ ساقيه.

خرج "روبرتو" من الماء واتجه نحو عمه. وقال وهو يرتجف: "الماء بارد جدًّا". أجاب "أنطونيو" وهو يُربِّت ظهره: "اذهب واستلقِ في الشمس"، ثم عاد لينظر أمامه مباشرة. في تلك اللحظة، غمر "كارلو" جسده في الماء وغطس وبدأ يسبح ضاربًا الماء بقوة بذراعيه.

قالت "أنَّا" في تلك اللحظة: "أتساءل أحيانًا من أين تأتيه كل تلك الطاقة". دفعه صوت "أنَّا" إلى الالتفات إذ وجدها فجأة إلى جانبه، ولم يستطع منع نفسه من التفكير في أن خُضرة عينيها في ذلك اليوم بدتْ أكثر عمقًا وإشراقًا حيث تحتضن قزحيتا عينيها تدرُّجات ألوان البحر كافة.

أجاب "أنطونيو": "خاصةً عندما أتذكر أنه كان يخاف في طفولته من الماء وأنني حاولتُ معه طويلًا كي أجعله يتجاوز خوفه هذا"، ثم أضاف بنبرة يملأها المرح: "وانظري إليه الآن إنه يسبح كالحورية".

قالت "أنَّا" فجأة: "أنا قلقة على "چوفانَّا".

جفل "أنطونيو" فجأة وحدَّق إليها بنظرة جادة للغاية ثم سألها: "ولماذا؟".

روتْ له "أنَّا" لقاءها بصديقتها الذي كان منذ أيام قليلة وعن حديثها القاسي معها، والبنطال الممزَّق، وكيف فرض "چوليو" سيطرته على رأسها وجسدها، والطريقة التي غادرتْ بها منزلها وهي مضطربة ومكتئبة.

اختتمت حديثها: "إن هذا الرجل خطِر. أود بشدة لو يغادر".

زمَّ "أنطونيو" شفتيه وقال: "الأمر ليس بهذه البساطة. هي تحبه، أليس كذلك؟".

هزَّت "أنَّا" رأسها وأجابت: "لا، هي لا تحبه، هي خاضعة له. الأمر مختلف. كيف لي ألا أنتبه لطبيعة هذا الرجل قبل ذلك؟ بل والأدهى من هذا أنني كنتُ أنا من شجعها". ركلتِ الشاطئَ ركلةً صغيرة فتحركتْ وارتفعتْ كومة صغيرة من الرمال.

قال "أنطونيو": "الذنب ليس ذنبكِ، كيف كان لكِ أن تتخيَّلي حدوث كل هذا؟".

أجابتْ متنهدة: "كان يمكنني أن...".

قال "أنطونيو": "لا أرى أنه كانت هناك طريقة لفعل هذا".

قالت "أنَّا": "كان يجب أن أفهم هذا منذ خطاباته الأولى.. كان كل شيء مكتوبًا بين السطور".

انفرجتْ شفتا "أنطونيو" عن ابتسامة وقال: "يحدث هذا كثيرًا، أليس كذلك؟ فالأمور المهمة حقًّا تكمن بين السطور، لكنْ لا يُحسن الجميع البحث عنها، أو ربما يفضلون ألا يفعلوا".

خفضتْ "أنَّا" نظرها ورسمت بقدمها دائرة على الرمال، ثم رفعت عينيها من جديد نحو "أنطونيو" وقالت: "لا أحد يعرف كيف حدث ذلك".

نظر إليها "أنطونيو" بارتباك، فتابعتْ "أنَّا": "مسرحية "بيراندِيلُّو" التي تحدثتَ عنها في خطابك، لقد قرأتُها في ذلك الوقت".

بُحَّ صوت "أنطونيو" وهو يقول: "لم تخبريني بذلك من قبل".

هزَّت "أنَّا" كتفيها وقالت: "هذه أيضًا كانت رسالة بين السطور". ورمقته بنظرة ثاقبة ومُعبِّرة.

حدق إليها "أنطونيو" ولكنه لم ينجحْ في أن يقول لها أي شيء، وذلك لأن "كارلو" قد خرج في تلك اللحظة إلى الشاطئ وانضم إليهما. قال "كارلو" لأخيه وهو يُمشِّط شعره إلى الوراء بيده: "المياه جميلة للغاية، فلتلقِ بنفسك في البحر يا أخي الكبير". ورشَّ عليه الماء ممازحًا إياه.

قال "أنطونيو" وهو يحمي نفسه بيده من رذاذ الماء: "سأذهب، سأذهب". تقدم بضع خطوات ثم اندفع ببساطة وغطس في البحر.

قال "كارلو" وهو يمدُّ شفتيه إلى الأمام بطريقة مضحكة: "إذن، هل ستعطيني قبلةً الآن؟".

أجابت "أنَّا" مبتسمة: "لا، كي تتعلم ألا تلقي بي في المياه غدرًا مرة أخرى!".

انضمَّا معًا إلى بقية المجموعة واستلقتْ "أنَّا" فوق المنشفة. سألت "أجاتا" فيما تقشر ثمرةَ خوخ بالسكين: "كيف هي المياه؟".

أجابت "أنَّا": باردة"، ثم أغمضت عينيها.

جلس "كارلو" إلى جوار "لورينسا" فيما يفرك جسده بفوطة. قالت "لورينسا محتجةً: "انظر يا عمي!، لقد بلَّلتني بالكامل!".

ضحكَ ضحكة خافتة وقال فيما يلقي نظرة خاطفة على المجلة التي بين يديها: "يبدو لي أن البطل في فيلم "ضوء وسط الظلام" لم يكن ليمنعه حزنه من النزول إلى البحر، فالسباحة لم تضره في شيء...". ربَّت كتفها بخفة ثم سألها: "أين هو "تومَّازو"؟".

أجابت "لورينسا" وهي تشير برأسها نحو البحر: "ها هو يسبح هناك".

قال "كارلو": "إنه عاشق ولهان، أليس كذلك؟".

صاحت هي وقد احمرَّ وجهها: "من تقصد؟".

أجاب "كارلو": "أحقًّا تسألينني من؟ أقصد مديرك الوسيم، أليس هو عاشقًا ولهانًا؟".

قالت "لورينسا": "هذه هي طبيعته، هو لطيفٌ مع الجميع".

ابتسم "كارلو" وقال: "أنتِ تمزحين أليس كذلك؟".

أضافت "لورينسا" وقد أصبحتْ نبرتها أكثر جدية: "حتى إن كان كذلك، لا يهمني الأمر".

قال "كارلو": "ولمَ لا؟ فهو رجلٌ قويٌّ ومحترمٌ وذو شخصية جيدة. ثم إنه ليس حتى قبيحَ الشكل".

أجابت "لورينسا" بنبرة حازمة قاطعة: "أنت تعلم أنني أنتظر شخصًا آخر".

لم يتمكنْ "كارلو" حينها من منع قسمات وجهه من الالتواء وهو يسألها: "أتقصدين "دانييليه"؟".

فقالت "لورينسا": "فعلًا".

نهض "كارلو" حينها ونفض الرمال عن ساقيه، ثم سألها وقد استجمع كل ما استطاع من هدوءٍ وارتياحٍ: "ألا يزال يكتب إليكِ؟".

أجابت "لورينسا": "لم يكتبْ لي سوى تلك المرة، هل كتب لكَ؟".

تردَّد "كارلو" لحظاتٍ ثم قرَّر أن يكذب عليها فقال: "نعم، نعم، كتب لي".

تفاجأت "لورينسا" وقالت: "آه، حقًّا؟ وماذا قال لكَ؟ كيف حاله؟".

أجاب "كارلو": "هو على ما يرام، يعمل بكدٍّ ويستمتع بجمال المدينة، ثم إنه يتعرَّف عددًا كبيرًا من الأشخاص الجدد".

عضَّت "لورينسا" على شفتها السفلى وسألته: "هل أرسل إليَّ تحياته معكَ؟".

قال متظاهرًا بالأسف: "في الحقيقة لا". وتفحص وجه ابنة أخيه علَّه يرى على الأقل أي أثر لخيبة أمل. إلا أنها قالت: "لا يهم". وعادت لتدفن وجهها بين صفحات مجلتها.

صاحت "أجاتا" مشيرة إلى "أنطونيو": "لكنْ أين يذهب؟".

كان "أنطونيو" قد شقَّ طريقه نحو عرض البحر وبدا حينئذٍ كبقعة صغيرة وسط مياه البحر الصافية الشفافة.

بدأت "أجاتا" تُقشِّر ثمرة خوخ أخرى فيما واصلت تحديقها إلى البحر. علَّقت "أجاتا" متذمرة: "الآن ستتشقق يداه وقدماه". كانت "أنَّا" مستلقية إلى جانب

"أجاتا" واضعةً ذراعها على وجهها كي تحمي نفسها من الشمس، التفتت "أنَّا" لتنظر إلى "أجاتا" التي سألتها: "أوه، هل كنتِ نائمة؟".

أجابتها "أنَّا" فيما تتثاءب: "نعم". نهضتِ الأخيرة وسألت "أجاتا" فيما تفرُك وجهها: "ماذا كنتِ تقولين؟".

فأجابت "أجاتا": "لا شيء، لا شيء".

فتَّشت "أنَّا" في حقيبتها وأخرجتْ كتابًا ووضعته على المنشفة، ثم أكملت بحثها ووجهها مندس في الحقيبة وقالت: "من يدري أين ذهب قلم الرصاص!".

ألقت "أجاتا" نظرة على غِلاف الكتاب ثم غمغمت: "إينيو فلايانو"، "وقتٌ للقتل". تطلَّب الأمر منها بضعَ ثوانٍ كي تتذكر ذلك الكتاب؛ إنه الكتاب ذاته الذي رأتْه في مكتب "أنطونيو" الأسبوع الماضي عندما دخلتْ لتنظف الغرفة من الغبار. نعم، إنه هو ذاته، ببقعة القهوة الصغيرة الموجودة في إحدى زوايا غِلاف الكتاب.

انتابت "أجاتا" نوبة من الغضب فقذفت بنواة الخوخ بعيدًا.

ألحَّت عليها ذكرى مؤلمة، فعندما كانت "أجاتا" تنتظر أن تضع "لورينسا"، أمرها طبيبها بقضاء شهور حملها الأخيرة في فراشها. كان "أنطونيو" وقتئذٍ يستلقي بجوارها وكي يمرَّ الوقت عليهما كان يقرأ عليها رواية ما. إلا أن زوجته في لحظة معينة اعترفتْ له بأنها لم تعد تطيق سماع المزيد من تلك القصص المختلقة عن أشخاص ليسوا حقيقيين بالمرة وأنها ترغب في أن يقصَّ عليها قصصًا واقعية عن أناس حقيقيين، وبالأحرى عن أناس تعرفهم هي معرفة مباشرة. قالت له حينها: "ارِوِ لي ما يحدث في البلدة. أخبرني؛ كيف انتهت تلك المسألة الخاصة بـ"ناندو"؟ وهل أعادته زوجته إلى المنزل؟ وماذا عن "مكيلينا" هل تزوجت أم لا؟ وهل وجد ابن "كوزيما" عملًا أم لا يزال عاطلًا يمكث في بيته؟".

نظر إليها "أنطونيو" وهزَّ رأسه؛ فهو لم يكن يعرف أيَّ شيءٍ عن أخبار أهل البلدة، لذا صاح قائلًا لها: "وما الفرق الذي يصنعه بالنسبة إليك معرفة ماذا

يحدث مع "ناندو" و"كوزيما"؟". تابع "أنطونيو": "هذه قصص أجمل بكثير وأكثر إقناعًا، بل أكثر صدقًا من القصص الحقيقية ذاتها! هذه الروايات تجعلكِ تفهمين الكثير من الأشياء، وتدفعكِ إلى التفكير".

استدارت "أجاتا"، واستلقتْ على جانبها، وأغمضتْ عينيها دون أن تردَّ عليه. تذكَّرت "أجاتا" ذلك اليوم بقدرٍ من المرارة وقالت لنفسها: "ومنذ ذلك الحين لم يحاولْ قط أن يقرأ لي كتابًا ولم أطلب أنا منه أن يفعل".

تذكَّرت "أجاتا" أن "أنَّا" أيضًا أخذت تقرأ لها رواية ما عندما كانت مريضة بعدما فقدتْ جنينها، إلا أن القراءة والروايات لم تقدم لها– ولا تلك المرة حتى– أي مساعدة تُذكر ولم تتحسَّن حالتها بفضلها. فكَّرت "أجاتا" بينها وبين نفسها: "إنهما يملآن رأسيهما بكلام الروايات لكنهما عندما يحتاجان إلى مواساة شخص ما لا يتمكنان من العثور على الكلمات المناسبة". ثم قالت بصوتٍ عالٍ وبنبرة فظة وقاسية: "حتى إنهما يحملان تلك الكتب معهما إلى البحر، يا لكما من شخصين مملَّين". ثم قضمتِ القطعة الأخيرة من ثمرة الخوخ واستلقت مطلقة تنهيدة.

رفعت "أنَّا" نظرها عن الكتاب وحدَّقت إليها في ارتباك: "عذرًا، هل كنتِ تتحدثين إليَّ؟".

أغمضت "أجاتا" عينيها ولم تجبْها.



17
نوفمبر – ديسمبر 1947

قالت "لورينسا": "أرأيتِ يا أمي؟ ها هما "إليزابيث" و"فيليب".

عبستْ "أجاتا" وسألتها: "من؟".

فأجابتها ابنتها: "إنها أميرة إنجلترا يا أمي، لقد تزوَّجت".

كانت "لورينسا" جالسةً إلى طاولة المطبخ لا تزال ترتدي قميصَ نومها وتتناول فطورها. كانت مجلة "أوچي" (اليوم) مفتوحة أمامها على مقال يصف حفلة زفاف "إليزابيث" من بيت "وندسور" و"فيليب" "دوق إدنبرة". صارت "لورينسا" تمرِّر إصبعها على الصور التي أُرفقت بالمقال وتنظر إليها بانبهار وإعجاب.

التُقِطَتْ تلك الصور للحشد الذي استقبل العروسين وهما يغادران دير "وستمنستر" كما أظهرتِ الصور التحية التي ألقاها العروسان على هذا الحشد من نافذة قصر "باكنجهام"، وكذلك فستان العروس الحريري عاجي اللون المطعَّم باللؤلؤ والكريستال، وذيل الفستان الذي بلغ طوله أربعة أمتار.

اقتربتْ "أجاتا" من الطاولة ممسكة بقطعة قماش بين يديها وانحنتْ نحو الأمام كي تلقي نظرةً، ثم سألت فيما تنظر إلى الصور بازدراء: "أهذه هي الأميرة؟".

قالت "لورينسا" بنبرة حالمة: "أريد في زفافي ذيلَ فستانٍ طويلًا كهذا".

قالت "أجاتا" ضاحكةً فيما تحمل الكأس الفارغة: "وماذا تكونين أنتِ؟ هل أنتِ أميرة؟"، ثم أضافت وهي تضع الفنجان في الحوض مع غيره من أوعية الإفطار المتسخة: "اذهبي وارتدي ملابسكِ وإلا ستتأخرين عن عملكِ"، ثم هزت رأسها.

قالت "لورينسا": "وما العَلاقة إن كنتُ أميرة أو لا، أريد فستانَ زفاف يظلُّ الجميع يتذكرونه".

قالت "أجاتا": "انتظري أولًا عرض الزواج، ثم فكري بعدها في شأن الفستان".

قالت "لورينسا": "حالما يعود يا أمي، لقد وعدني بذلك".

أشاحت "أجاتا" بيدها في الهواء كما لو أرادت أن تقول إن كل هذا مجرد كلام فارغ ووعود واهية.

غضبتْ "لورينسا" وقالت: "ماذا بكِ؟ ألا تصدقين ما أقول؟".

أجابتْ "أجاتا": "إن الوعود الذكورية كالرياح الشمالية، لا تدوم سوى ثلاثة أيام"، ورفعت ثلاثًا من أصابعها.

دافعت "لورينسا" عن حبيبها: "نظريتكِ هذه لا تنطبق على وعود "دانييليه".

وضعتْ "أجاتا" منشفةَ الأطباق فوق كتفها واستندت إلى الحوض كي تغسل المواعين ثم قالت: "آه، حقًّا؟ ولماذا لم يعدْ إذن؟ من يدري من قابل وعلى من تعرَّف في أمريكا. استمعي لما أقول يا ابنتي، عليكِ أن تنسي أمر ذلك الصبي. أنتِ لا تزالين حتى الآن في سن الزواج، ولكنكِ بعد وقتٍ قصيرٍ لن تكوني كذلك". وشددتْ على فكرتها بتحريكها سبابتها وإبهامها. ثم تابعتْ: "سيبدأ الذكور في الالتفات إلى الفتيات الأكثر شبابًا وتورُّدًا ولن يعود هناك حينها من يرغب في الزواج منكِ".

شعرتْ "لورينسا" بنبضات قلبها تتسارع شيئًا فشيئًا ثم أحسَّت في الحال كأن هناك غضبًا عارمًا بدا قادمًا من مكانٍ بعيدٍ للغاية قد غمرها وسيطر عليها. ثم همست فيما تدفع الكرسي إلى الخلف وتنهض: "بل أنتِ التي لم يعدْ أحدٌ يريدكِ". ثم أضافت وهي تنفخ قبل أن تغادر المطبخ: "ولا حتى أبي".

شعرتْ "أجاتا" كأنها تلقَّت لطمةً قوية، وهو ما تسبَّب لها في دُوار مفاجئ، لذا سحبتْ أحد الكراسي بعيدًا عن طاولة المطبخ وجلست عليه ببطء. بدا الأمر

كأنَّ سربًا ضخمًا من البراغيش قد بدأ يطنُّ أمام عينيها فحجب بصرها وسمعها. جاهدتْ "أجاتا" لتأخذ نفسًا عميقًا ثم ثانيًا وثالثًا.

تمتمتْ "أجاتا": "أنطونيو". لكنْ خبا الصوت في حلقها كما يخبو لهيب عود ثقاب بالٍ. لقد نسيت تمامًا في تلك اللحظة أن زوجها ليس موجودًا في البيت. فقبل نصف ساعة فقط كان "أنطونيو" قد شرب قهوته وودَّعها قبل أن يغادر المنزل مُقَبِّلًا خدها كما اعتاد أن يفعل دومًا. إنها القبلة الوحيدة التي يمنحها إياها طَوال اليوم؛ الاتصال الجسدي الوحيد الذي يُقدِم عليه "أنطونيو" تجاهها والذي تنتظره منه كل صباح. فهي حالما تستيقظ صباحًا تذهب إلى الحمام وتغسل وجهها بصابونة "بالمولايف"، ثم تنزل إلى الطابق السُّفلي وتعدُّ القهوة وتُجهِّز الطاولة حيث تضع الفناجين والملاعق الصغيرة، لذا فحين يقترب منها زوجها يجد وجهها ناعمًا ومعطرًا، وهو ما يجعله يعتقد أن رائحة جسد زوجته لا تزال لطيفة وجذابة بعد كل هذه السنوات.

حاولت "أجاتا" أن تنهض مستندةً إلى ظهر الكرسي، لكنْ دفعها الدُّوار الذي أصابها إلى الجلوس مرة أخرى. سمعتْ "لورينسا" تنزل الدرج وتفتح باب المنزل. وبقيت منتبهةً ثوانيَ في انتظار أن تودِّعها ابنتها قبل مغادرتها كما اعتادت، ولكنها ذلك الصباح لم تفعل.

✉✉

انطلقتْ "لورينسا" في طريقها سيرًا على الأقدام وقد امتلأ قلبها بالغضب والسخط بسبب حديث أمها، لكنْ في الوقت ذاته كان شعورٌ بالذنب يسيطر عليها. فهي تدرك تمامًا أن الكلمات التي ألقت بها في وجه أمها كانت كالنصال الحادة التي أصابتها بجرح غائر في صميم قلبها. حاولت أن تعود أدراجها كي تطلب من أمها أن تسامحها على ما قالته، ولكنَّ الاستياء الذي كانت تشعر به نتيجة الجرح الذي سببته لها كلمات أمها كانت له الكفة الراجحة وهو ما دفعها إلى مواصلة طريقها.

وبينما كانت تقطع الطريق إلى بيت عمها وزوجته، فكَّرت "لورينسا" أن كلام أمها صحيحٌ في ما يخص عودة "دانييليه"، ولكنه لم ينسها كما تظن أمها، ففي تلك الأشهر وبعد صمت عزاه إلى ضغط العمل وضيق الوقت كتب لها الكثير من الخطابات. لم يكنْ يروي لها دومًا إلا عن "نيويورك"، والأصدقاء الذين تعرَّفهم في مِنْطَقة "Little Italy" (إيطاليا الصغيرة)، والزبائن الجدد الذين تعاقد معهم، والعقود التي أبرمها والتي افتخر بها "كارلو" كثيرًا. كشف لها أن بيع "دونَّا أنَّا" لم يكن بالشيء الصعب مطلقًا، إذ كان يكفي تذوُّق كوب واحد منه ليحرص الجميع على شرائه. ما لم يخبر به أحدًا سوى "لورينسا" هو أنه التحق بورشة خياطة تقع في قبو في شارع "مولبيري"، كان يرتادها مساءً ثلاثَ مرات في الأسبوع. تدير الورشةَ سيدةٌ تُدعى "ماريزا" من إقليم "كامبانيا" وهي سيدة لطيفة لديها دومًا مُزحٌ جاهزة، تخيط بِذلات رجالية وتُورِّدها إلى متجر في شارع "الجادَّة الخامسة". وفي مرحلة معيَّنة أرسل إليها صورة له وهو مرتدٍ بِذْلَة أنيقة مقلَّمة لها سترة ضيقة عند الخصر بكتفين عريضتين مبطنتين، ويحمل منديلًا حريريًّا في جيب سترته، ويضع ربطة عنق ويعتمر قبعة، شرح لها في خطابه: "إنها تشبه قبعة "همفري بوجارت" في فيلم "كازابلانكا". وسألها في خطابه: "هل أعجبتكِ البِذْلَة؟ لقد صممتُها وحِكتُها بنفسي!"، ثم أخبرها في خطابه أنه حالما يُنهي ورشة الخياطة في ديسمبر سيعود. وأفضى لها كذلك بنيَّته التوقف عن العمل في مصنع ومخزن "جريكو" حال عودته إلى البلاد. هو شاكر كثيرًا للسيد "كارلو" وسيظل شاكرًا له إلى الأبد على ما قدَّمه له، لكنْ ها قد حان الوقت ليحقق أحلامه الخاصة. سيفتتح بيتَ أزياء خاصًّا به وحده في "ليتشي" حيث سينتقلان للعيش بعد عودته. هذا في حالة أنها لا تزال ترغب في مواصلة علاقتها معه. ودائمًا ما كان يختتم خطاباته بالعبارة ذاتها: "أنا أحبكِ يا صغيرتي "لورينسا". كان يكتب لها خطاباتٍ طويلةً تفيض بالكلمات، ولكنه لم يأتِ قطُّ على ذكر أكثر شيء مهم فعلًا بالنسبة إليها وهو "الزواج".

كانت "لورينسا" تودُّ أن تفهمه، وأن تكون سعيدةً بكل الأشياء الجيدة التي تحدث له، لكنَّ الحقيقة هي أنها لم يكنْ بوسعها إلا أن تغضب منه لأنه لم يختَرِ البقاء معها، لأنه لم يتخلَّ عن تلك الرحلة لأنه يفضل -بل يريد حقًّا- البقاء معها. ذكَّرتها فعلته هذه بأبيها، فهو فعل الشيء ذاته معها قبل سنوات عدَّة عندما غادر إلى إفريقيا، مع أنَّها توسَّلت إليه ألا يذهب.

أطالت "لورينسا" التفكير في ما يتعلَّق بسنِّها وفرصها في الزواج، فهي ستبلغ عامها الثالث والعشرين في غضون أشهر قليلة، وأنها الوحيدة من بين كل معارفها التي لم تتزوَّج بعد. لقد تزوَّجن جميعهن، بل هناك من هي حامل فعلًا في طفلها الثاني، لكنْ ماذا عنها هي؟ ما الشيء الحقيقي الملموس الذي تملكه، والذي يمكنها أن تتحسَّسه بين يديها؟ هي ما زالت تعيش مع والديها، في الغرفة ذاتها التي كانت تنام فيها مذ كانت طفلة، على الملاءات الوردية ذات الحواف المطرزة نفسها. متى سيكون لها بيتها الخاص الذي تهتم وتعتني به؟

كالعادة كانت "أنَّا" تنتظر "لورينسا" أمام باب منزلها مرتديةً سترةَ الزي الرسمي لعملها وبنطالًا في الأسفل؛ لقد صارت ترتدي البناطيل على الدوام خاصة بعدما أصبح لديها خمسة بناطيل بألوان وأنسجة مختلفة. سألتها "أنَّا" فيما تفرك جبينها: "ما هذا الوجه المتجهم، ما الذي حدث لكِ؟".

أجابت "لورينسا": "كنت أتناقش مع أمي في أمرٍ ما".

انطلقت "أنَّا" في طريقها دافعة العجلة إلى جوارها وسألتها: "ألا تريدين أن تتحدثي معي عن الأمر؟".

حاولت "لورينسا" أن تفصح لها عمَّا بداخلها وتنفس عن ضيقها، ولكنها فكرت في أمها وشعرت بشيءٍ من الشفقة نحوها. فهي دومًا تشعر بالمرارة، دومًا حزينة ووحيدة؛ تلك الوَحْدَة التي حصلت هي أيضًا في النهاية على نصيبها منها. لا، هي لا تريد أن تفصح لأي شخص عمَّا يثقل كاهلها وخاصة العمة "أنَّا". لذا

أجابتها دون أن تنظر إلى عينيها: "لا أريد أن أتحدث عن الأمر الآن"، ثم انطلقت مباشرة وتابعت طريقها.

حالما دخلت المرأتان إلى مكتب البريد –وكما يحدث كل صباح– تهلل وجه "تومَّازو" وأشرق من السعادة. ألقى تحية الصباح على "لورينسا" مبتسمًا لها ابتسامة عريضة، ثم تبعها بنظراته حتى فتحت باب مكتب التلغرافات. كان من المستحيل ألا تنتبه "لورينسا" لنظراته واهتمامه هذا، ولكنها فضلتْ حتى تلك اللحظة ألا تلقي بالًا لأفعاله تلك. أما في ذلك اليوم وبينما كانت تجلس إلى مكتبها فكرت في أن "تومَّازو" هو حقًّا عريس مثالي كما قالت أمها. هو لم يكنْ ولن يكونَ أبدًا كأبطال الروايات المصورة التي تحب قراءتها، لن يكون هذا الشخص ذا التصرفات الطائشة المندفعة ولن يكون كذلك الشخص الذي لا يمكن مقاومته. ولكنه في المقابل رجلٌ يمكن الاعتماد عليه من أجل حياة "بلا قلق"، وهذا أيضًا تعبير آخر كانت "أجاتا" تستخدمه كثيرًا وتقصد به أن تتزوج البنات مَن يعاملهن باحترام داخل البيت وخارجه، ويوفر لهنَّ حياةً كريمةً واستقرارًا ماديًّا بفضل وظيفة شريفة ومضمونة.

كانت "لورينسا" غارقةً في أفكارها وتأملاتها لذا لم تنتبهْ إلى "تومَّازو" حين اقترب منها وهو يحمل في يده جريدة وقال للجميع: "يُعرض فيلم "أنچلينا الموقرة" في السينما".

علقت "أنَّا" وقد تظاهرت بأنها مشغولة: "أتقصد ذلك الفيلم من بطولة "أنَّا مانياني"، لقد رأيتُ الملصق".

اقترح "تومَّازو" فيما يلقي نظرة على الزملاء من حوله: "لماذا لا نذهب لمشاهدته ذات مساء؟ أقصد أن نذهب جميعًا".

قالت "أنَّا" وهي تضع الحقيبة حول رقبتها: "نعم، إنها فكرة جيدة". ثم سألها قبل لحظة من مغادرتها المكتب: "هل نذهب يوم السبت؟".



باستثناء "كارمينيه" الذي رفض دعوة "تومَّازو" متذمرًا، ذهب ذلك السبت جميع موظفي مكتب البريد بالإضافة إلى أسرة "جريكو" بأكملها معًا إلى السينما. كانت صالة العرض مكتظةً بالمتفرجين، وأخذوا ينظرون حولهم بحثًا عن مقاعد شاغرة؛ تقدَّم "كارلو" و"روبرتو" ليجلسا في الصفوف الأمامية فيما كانت "إيلينا" تهمس إلى "أجاتا" مشيرةً إلى بعض الكراسي الشاغرة في الجانب الآخر من الصالة ومن ورائهما كان "تومَّازو" و"لورينسا" يسيران إلى جانب بعضهما على مهلٍ ودون عجلة. كان "أنطونيو" و"أنَّا" هما آخر من دخلا إلى صالة العرض، وحالما أصبحا بالداخل تلاقت نظرات "أنطونيو" ونظرات "ميلينا" بائعة الهوى التي كانت تجلس في مقعدها المعتاد في نهاية الصالة. كانت المرأة تلعب بخصلة من شعرها المجعَّد، وتديرها بين أصابعها. حيَّته "ميلينا" بابتسامة مصحوبة بغمزة من عينها. سألت "أنَّا" التي انتبهت لما فعلته المرأة: "هل تعرفها؟".

قال "أنطونيو" وقد احمرَّ وجهه خجلًا: "تقصدين من؟".

قالت "أنَّا" وهي تشير برأسها نحو "ميلينا": "كيف مَن؟ تلك المرأة التي ابتسمت لك".

لكنْ حينما نظر "أنطونيو" مرة أخرى نحو "ميلينا" كانت تنظر فعلًا في اتجاهٍ آخر.

تمتم "أنطونيو": "ربما تكونين مخطئةً؛ لم يبتسم لي أي شخص".

أجابت "أنَّا" على غير اقتناع: "ربما".

رفع "كارلو" يده وأشار لـ"أنطونيو" و"أنَّا" كي ينضمَّا إليه.

شغلت "أجاتا" و"إيلينا" مقعدين جانبيين ثم لوَّحت "إيلينا" بذراعها لتخبر "تومَّازو" و"لورينسا" بوجود مقعدين آخرين شاغرين؛ كان أحدهما في مقدمة الصف الذي تجلسان فيه هي و"أجاتا". حال وصولهما إلى ذلك الصف رمق

"تومَّازو" "إيلينا" بنظرةٍ فهمت منها على الفور ما انطوت عليه من رسالة صامتة أراد إيصالها إليها؛ لذا انتقلت لتجلس هي في المقعد الداخلي وبهذا تترك مقعدها المجاور لـ"لورينسا" ليجلس عليه "تومَّازو"، لكنْ دون أن تتمكن من منع ضحكة شبه مكتومة انفلتت منها. كان "تومَّازو" مضطربًا للغاية طَوال مدة عرض الفيلم لذا كان يجلس على كرسيه متململًا لدرجة أن شخصًا يجلس خلفه قال مندفعًا: "أيمكنكَ أن تبقى ساكنًا؟ لماذا تتحرك كثيرًا هكذا، هل لسعتك عقرب؟".

همستْ له "لورينسا": "ماذا هناك؟ ألستَ مرتاحًا؟".

أجاب هو بينما يلوح بيده: "لا، لا، إن كل شيء على ما يرام".

حينما انتهى الفيلم، وأُضيئَت الصالة من جديد وبدأت تفرغ من الناس، تأبَّطت "إيلينا" ذراع "أجاتا" وتوجهتا للانضمام إلى الآخرين قاصدة أن تتاح الفرصة لمديرها و"لورينسا" بأن يسيرا معًا بمفردهما حتى مخرج السينما. سألها "تومَّازو": "هل أعجبكِ الفيلم إذن؟".

أجابت "لورينسا": "كثيرًا"، وتابعت متمتمةً: "أتعرف؟ كنتُ أفكر أنَّها حقًّا تشبه العمة".

سأل "تومَّازو" مستفسرًا: "هي من؟ أتقصدين "أنَّا مانياني"؟".

أوضحتْ "لورينسا": "نعم، لكنْ لا أقصد أنها تشبهها في الشكل؛ أقصد أن شخصيتيهما متشابهتان. إن السيدات أمثالهما هنَّ مميزات بحق". ثم أضافت بنبرة حزينة وكئيبة: "هنَّ سيدات محارباتٍ؛ لا يخشين شيئًا أبدًا".

كانت "لورينسا" متأكدةً من أنه لو كانت العمة "أنَّا" مكان "أنَّا مانياني" لاحتجَّت أيضًا من أجل أن يحصل الفقراء على منازل ليعيشوا فيها.

قال "تومَّازو": "أنتِ أيضًا مميزة". هزت "لورينسا" رأسها في هدوء. أصرَّ هو: "أنا جاد في ما أقول".

ابتسمت "لورينسا" ابتسامةً مصطنعةً وقالت: "إنه للطف منك أن تقول هذا".

قال "تومَّازو": "منذ جئتِ إلى العمل معنا في المكتب وأنا أعتقد هذا. بدا الأمر كأنكِ أضأتِ حياتي. أعتذر منكِ". بعدما أنهى "تومَّازو" كلامه بلحظة واحدة، انتابه حرج شديد، فقال: "لستُ بارعًا في هذه الأمور، منذ وقتٍ طويل وأنا...".

قاطعتْه "لورينسا" فيما تضع إصبعها على شفتيها وتمتمت قائلة وقد أصبحت نظرتها أكثر رقة: "أنا أعرف ماذا تودُّ أن تقول". ثم أزاحت الستارة الحمراء الموجودة عند مخرج السينما وغادرا معًا.



في شهر نوفمبر من ذلك العام، وبمناسبة عيد ميلاده الرابع والأربعين، وهو أول عيد ميلاد له وهو عمدة، أقام "كارلو" حفلًا اتسم بكثير من الصَّخب ومَظاهِر الاحْتِفال والبَذَخ، وضج الحفل بالموسيقى والرقص كما توفَّرت فيه سِلال وفيرة من السيجار لتكون في المتناول في حالة احتاج أحدٌ إلى أن يدخن. استقدم "كارلو" أوركسترا صغيرةً من "ليتشي" مقابلَ أجرٍ باهظٍ؛ وتلك الفرقة الموسيقية ضمَّت عازفي بيانو، وبوق وساكسفون وكمان. في ذلك العام أصبح لزجاجات نبيذ "دونَّا أنَّا" ملصق جديد احتفالًا بمرور عشرة أعوام على إنتاجه. كُتبت على الزجاجة بجوار شعار "دونَّا أنَّا" الذي كان على هيئة وردة متفتحة عبارة "الذكرى العاشرة لـ"دونَّا أنَّا". وبهذه المناسبة طرأ تغيُّر بسيط في تركيبة نبيذ "دونَّا أنَّا" وكان هذا اقتراحًا قدَّمه مدير مصنع النبيذ الجديد الذي حلَّ محل "دانييليه" بعد سفره، فقد اقترح تقليل نسبة عنب "نيجرو أمارو" وزيادة نسبة عنب "ملفاسيا" في النبيذ. وكانت نتيجة ذلك الحصول على نبيذ طازج لا مثيل له ذي لون أحمر كرزي لامع وفريد ومزوَّد -على خلاف التركيبة السابقة- بعطر بتلات الورد. وقد قدَّم هذا الإصدار الجديد من النبيذ بكميات كبيرة لضيوفه بمناسبة عيد ميلاده.

في أثناء تجوُّلها في الصالون المكتظ بالناس، لم تستطع "أنَّا" إلا أن تلاحظ مدى اختلاف هذه الحفلة عن حفلات عيد ميلاد زوجها السابقة؛ فذات مرة، دعا "كارلو"

عامة الناس من سكان "ليتسانيلُّو"، من الفلاحين والعمال وتجار البلدة. لكنَّه هذه المرة أرسل يدعو أصدقاءه ومؤيدي حزبه، الذين وصل بعضهم من "ليتشي"، وكذلك إلى أعضاء المجلس البلدي الذين حضروا برفقة زوجاتهم وأطفالهم. وكان هناك أيضًا القس "لوتشيانو"، الذي حمل إلى "كارلو" اعتذاراتِ الأسقف، الذي منعه التزام سابق من الانضمام إلى الحفل. اعتقدتْ "أنَّا" أن الأمر أكثر من مجرَّد حفلة عيد ميلاد، بل نوع من الطقوس يؤكد به العمدة انفصاله عن أبناء بلدته.

جاب "كارلو" أرجاء الغرفة مبتسمًا ومبتهجًا ممسكًا بسيجار بين أصابعه وتوقَّف ليتحدث مع جميع المدعوين. كان "كارلو" من وقت إلى آخر يجر "أنطونيو" لهذه الأحاديث؛ إذ كان يفتش بعينيه عن أخيه وسط الناس وحالما يلمحه يناديه بصوتٍ عالٍ. ثم يقول وهو يضع يده على كتف أخيه: "أنتم تعرفون فعلًا أخي "أنطونيو"، أليس كذلك؟".

أما "أجاتا" فكانت جالسة على الأريكة، محنية الظهر ويداها متشابكتان في حجرها وتحدق إلى النار التي تطقطق داخل المدفأة، ومن حين إلى آخر ترفع عينيها لتراقب "لورينسا" و"تومَّازو" اللذين كانا جالسان بالقرب من بعضها على الأريكة المقابلة لها ويتحدثان بسرعة وبلا انقطاع.

وفجأة لوَّح "كارلو" بيديه مطالبًا الجميع بأن يصمتوا قليلًا. توقَّفت حينها الفرقة الصغيرة عن العزف فالتف الجميع حوله. صاح "كارلو" حينها قائلًا: "سيداتي وسادتي، أتمنى أن تكونوا مستمتعين بهذا الحفل، وبالنظر إلى كمية الزجاجات الفارغة فأعتقد أنكم كذلك فعلًا!".

صرخ حينها رجلٌ رافعًا كأسه قائلًا: "نخب عمدتنا!"، فتردَّد في كل أرجاء الغرفة عبارات من قبيل: "تهانينا!"، و"عيد ميلاد سعيد!"، و"ليعُد عليكم هذا اليوم بالفرح دومًا!".

فردَّ "كارلو": "شكرًا، شكرًا لكم جميعًا، أنا سعيدٌ للغاية لرؤيتكم هنا الليلة ومشاركتكم إياي احتفالي هذا، أما الآن"، سكت للحظات وهو يجول بنظره وسط الحشد الصغير ثم تابع: "أما الآن، فأريد أن أدعو زوجتي الرائعة لنفتتح معًا أولى رقصات هذه الأمسية". ورفع كأسه تجاهها مباشرة.

التفتتْ عشرات الأعين نحو "أنَّا" التي انفرجتْ شفتاها عن ابتسامة متكلفة لم تنجح في إخفاء ارتباكها، وقالت بينها وبين نفسها: "سحقًا له ولمفاجآته المدوية تلك!".

همس "كارلو" بشيءٍ ما في أذن عازف البيانو، فعجتِ الغرفة بأكملها بالألحان الأولى من أغنية "معشوقي" للمغنية الكندية "أنيتا إليس"، ثم اقترب من "أنَّا" وبابتسامته الآسرة التي تظهر الشقاوة التي تتمتع بها شخصيته أمسك بيدها وقادها نحو منتصف الغرفة حيث تنحَّى المدعوون جانبًا ليفسحا لهما المكان، وبينما يبتعد الحضور حوَّط "كارلو" خصر زوجته بذراعيه وبدأ يرقص وهو يحدق إلى عينيها.

سأل "تومَّازو" "لورينسا": "هل تودِّين الرقص أنتِ أيضًا؟".

سألته "لورينسا": "الآن؟".

قال "تومَّازو" مبتسمًا: "ومتى إذن إن لم يكن الآن؟".

أجابت "لورينسا" محاولةً ألا تبدو فظَّة: "أريد أن أرقص، لكنْ بعد قليل".

في تلك اللحظة تحديدًا وصلت "كارميلا" ممسكةً بذراع زوجها "نيكولا". تجمَّدت "لورينسا" في مكانها وابتعدتْ قليلًا عن "تومَّازو". وتساءلت لماذا عمها "كارلو" لم يخبرْها سابقًا أن والديْ "دانييليه" سيحضران حفل عيد ميلاده؟ تأهَّبت "لورينسا" لتحيتهما، ولكنها توقفت إذ انتابها شعورٌ بالاضطراب حينما رأت "كارميلا" وقد ارتدت فستانًا يشبه بدرجة كبيرة جدًّا أحد تصاميم "دانييليه". هي تذكر جيدًا تلك المرة التي أطلعها فيها على ذلك التصميم وكان في غاية الفخر. أخبرها حينها: "إنه فستان سهرة للمناسبات الخاصة". هو فستانٌ بصدَار ضيق مشدود عند الخصر، وتنورة تضيق من الخصر لتنساب واسعةً حتى أسفل ركبتيها.

لكنْ سرعان ما قالت "لورينسا" لنفسها: "مستحيل، أي حماقة هذه التي أفكر بها! لا بدَّ أنها مجرد مصادفة، فمن المؤكد أن "كارميلا" قد استلهمتْ هذا التصميم من إحدى مجلاتها".

انتهتِ الأغنية وانحنى "كارلو" انحناءة مضحكة ليشكر المدعوين على تصفيقهم المدوي، ثم أخذ بيد "أنَّا" واقترب من رجلين كانا واقفين برفقة زوجتيهما وبدآ يدردشان معهم.

انتفض "كارلو" حالما جاءه صوت "كارميلا" الرنَّان الذي أجبره على الالتفات نحوها: "تهانينا أيها السيد العمدة! أحمل لك تهاني أبي أيضًا، لقد تذوَّق النبيذ الجديد الذي أرسلتَ زجاجةً منه وأعجبه". ثم واصلتْ حديثها دون أن تهتم بأنها قاطعت محادثةً كانت قائمة فعلًا: "كما قال إنه سيخبرك شخصيًّا برأيه عندما تذهب لزيارته".

أجاب "كارلو": "أنا سعيدٌ لسماع ذلك، سأذهب إليه بالتأكيد خلال الأيام القادمة".

قالت زوجة أحد الرجلين لـ"كارميلا": "يا له من فستان جميل".

فردَّت "كارميلا": "هل أعجبكِ؟ إنه إحدى تصميماتي".

دُهِشَتِ السيدة وأثنتْ على عملها كما أعربتِ الزوجة الأخرى عن رغبتها في اقتناء فستانٍ مثله. علقت "أنَّا" حينئذٍ مؤيدةً كلامهما بعدما تفحَّصت الفستان بتركيز: "نعم، هو جميلٌ حقًّا".

ردَّت "كارميلا" مبتهجة: "شكرًا لكِ أيتها السيدة ساعية البريد".

تدخَّل "كارلو" حينها وقال: "أرجو المعذرة، لكنْ لا يزال عليَّ أن أقدم بعض الأشخاص لـ"أنَّا". وأمسك بيد زوجته وسحبها نحو رجلٍ وهمس لها في أذنها معرفًا إياه بأنه السكرتير الإقليمي لحزب الديمقراطية المسيحية، فمدَّت إليه "أنَّا" يدها وصافحته بفتور دون أن تبدي أي حماسٍ خاص. سأل الرجل "كارلو" عن

التقدم الذي يحرزه مشروع بناء المدرسة الجديدة، فأخبره "كارلو" بنبرة راضية بقبول المجلس للمشروع وأنه سيجري العمل به في أقرب وقت.

سأل السكرتير: "وماذا سيكون مصير المبنى القديم؟ ماذا ستفعلون به؟".

أجاب "كارلو": "هناك مقترحات كثيرة ومختلفة قيد الدراسة". ثم اختتم حديثه: "إنها جميعًا تقبع على مكتبي في انتظار فحصها والبت فيها. سأنظر فيها بعد الحفل".

بدت "أنَّا" فجأة متفكرةً وبقيت تنظر أمامها مباشرة بضعَ دقائق لدرجة أن الكلمات التي ظلَّ "كارلو" وذلك الرجل يتبادلانها معًا غدتْ بالنسبة إليها مجرد همهمة بعيدة ثم صاحت فجأة قائلة: "أنا أيضًا لدي اقتراح من شأنه منح حياة جديدة لذلك المبنى القديم".

حدَّق إليها الرجلان في شيءٍ من الدهشة ثم سألها "كارلو" بنبرة كشفت عن مزيج من الفضول والخوف: "وماذا يمكن لهذا الاقتراح أن يكون يا حبيبتي؟".

شرحت هي بدورها وقد أشرق وجهها فجأة: "شيء ما يمكن أن نسميه بيتًا للنساء، حيث البابُ مفتوحٌ دومًا للجميع، حيث يمكن لأي امرأة تعاني صعوبةً في حياتها أن تجد لنفسها ملجأً. أنا أفكر على سبيل المثال في الأمهات الشابات اللاتي بقين مع أطفالهنَّ بلا زوجٍ ولا عملٍ، والسيدات الوحيدات، وأولئك اللاتي لا يعرفن كيف يتخلصن من الرجال الذين يتعاملون معهنَّ بعنف...". توقفتْ لحظةً كما لو كانت تفكر ثم تابعت: "يمكننا مساعدتهنَّ بشكلٍ ملموسٍ وفعَّال، وحمايتهنَّ، وربما توفير فرصة لهنَّ لتلقي التعليم أو تعليمهنَّ حرفةً ما، أقصد باختصار أن نوفِّر لهنَّ كل ما يحتجْن إليه كي يقفن على أقدامهنَّ بمفردهنَّ".

لقد مرَّت أمام عينيها في ذلك الوقت، اللحظات التي عاشتها مع "چوفانَّا"؛ الصِّعاب التي واجهتها في تعلم القراءة، وعزلتها، والوصم الذي فرضته عليها البلدة بأكملها فترةً طويلةً. الألم الجسدي والعقلي الذي سببته لها علاقتها مع السيد

"چوليو"، بل كذلك عدم قدرتها على طلب المساعدة. لم يتحدثا ثانية مع بعضهما منذ صباح ذلك اليوم من شهر يوليو. لقد رأتها في البلدة عدة مرَّات؛ مرة في إحدى المتاجر وأخرى وهي تغادر المكتبة، ولكنَّ شيئًا ما في نظرتها، وفي طريقة مشيتها، وفي حركاتها منعها من الاقتراب منها. كانت تخشى أن يعرف "چوليو" بلقائهما فيعاقبها. لكنْ كم عدد النساء اللاتي يشبهن "چوفانَّا"؟ كم من القصص المليئة بالقسوة والمعاناة والهجر تختبئ خلف الواجهة الهادئة المسالمة لهذه البلدة؟

كرَّر الرجل كلامها: "بيت من أجل النساء..."، لكنْ لم يستطع أحدٌ أن يستشف أكان السكرتير قد اعتبر هذا الاقتراح مجرد فكرة مجنونة تمامًا أم شيئًا قابلًا للتحقيق.

قال "كارلو" بشيء من الحرج: "إن زوجتي لا تتوقف عن مفاجئتي، فهذا الاقتراح بشكلٍ عامٍ جديد بالكامل بالنسبة إليَّ".

قالت "أنَّا": "هو جديدٌ بالنسبة إليَّ أنا أيضًا، لم أفكِّر في الأمر سوى الآن فقط". ثم اختتمت حديثها قائلة بابتسامة: "لكنْ يمكنك أن تبقى واثقًا أنني سأقدم لكَ مشروعًا مقنع أيها السيد العمدة".

قالت "إيلينا" فيما تلقي نظرةً خاطفةً إلى خارج النافذة: "السماء اليوم تنذر بسقوط ثلج". كانت عاصفات الريح الشمالية تُحرِّك سعفات نخلة البلدة الضخمة بلا توقف.

تنهَّدت "أنَّا" فيما تضع الخطابات والبريد المسجَّل في حقيبة عملها وقالت: "ليت الثلج يتساقط، فأنا لم أره منذ..."، توقفتْ لحظة لتجري حسابًا ذهنيًّا سريعًا ثم تابعت: "منذ ثلاثة عشر عامًا".

قال "كارمينيه" معلنًا بنبرة حازمة: "ولن يسقط هذا العام حتى".

سخرتْ "إيلينا" من "كارمينيه" قائلة: "ها قد وصل خبير الأرصاد الجوية".

قال "تومَّازو": "لكنْ سيكون شيئًا رائعًا أن نقضي عيد الميلاد وسط الثلج".

صاحت "أنَّا" فيما تدير ظرفًا بنيًّا داكنًا يحمل شعار البريد الجوي للولايات المتحدة بين يديها قائلة: "لورينسا"، معي رسالة لكِ".

نهضتْ "لورينسا" على الفور من كرسيها الذي جرته إلى الخلف محدثًا جلبةً قوية وأسرعتْ نحو "أنَّا" وعيناها تلمعان من الفرحة. أخذتِ الظرفَ من بين يديها، ثم عادت مبتسمةً إلى الغرفة الخلفية، وأغلقت الباب خلفها. لم تلاحظْ "لورينسا" "تومَّازو" من خلفها وقد رفع عينيه عن مكتبه وظل يتابع بنظرة حزينة وبائسة المشهد بأكمله.

جلست "لورينسا" ومزَّقت الظرفَ من أحد جانبيه وأخرجتْ منه ورقةً مطويةً إلى قسمين. فردتِ الورقة وكان مجرد رؤيتها خطَّ يد "دانييليه" المستدير والمعوج قليلًا، كافيًا لجعل نبضات قلبها تتسارع.

استندت إلى ظهر الكرسي وبدأت تقرأ:

"الصغيرة "لورينسا". الصغيرة والجميلة للغاية "لورينسا".

كيف كان استيقاظكِ اليوم؟ هل تمكَّنتِ من الوصول إلى عملكِ في الموعد أم لا؟ جميلتي النائمة التي لا سبيل لإيقاظها.

كم هي رائعة الصورة التي أرسلتِها إليَّ، تبدين لطيفة للغاية. في كل مرة تبدين أكثر جمالًا من سابقتها. هل هناك حدودٌ للجمال أم مقدر لكِ أنتِ وحدكِ أن تتجاوزي هذه الحدود؟ أضع الصورة التي أرسلتِها إليَّ على الطاولة المجاورة لسريري وبهذا فأنتِ أول شخصٍ أراه صباح كل يوم حالما أستيقظ وآخر شخصٍ أتمنى له ليلةً سعيدةً قبل أن أخلد إلى النوم.

ما الجديد لديكِ؟ احكي لي عن أشياءَ جيدةٍ وقعتْ لكِ، أشياءَ جعلتكِ سعيدة. هل احتفلتم بعيد ميلاد "كارلو"؟ لقد هنَّأته بهذه المناسبة في خطاب أرسلتُه إليه، أرجو أن يكون قد وصل إليه في الوقت المحدد!

لديَّ خبران، أحدهما جيد والآخر ليس جيدًا بالقدر ذاته. تُرى بأيهما عليَّ أن أبدأ؟ دعيني أفكِّر. حسنًا، لأبدأ بالخبر الجيد.

لقد أطلعتُ "ماريزا" على رسومي الخاصة بالملابس الرجالية وراقتْ لها كثيرًا، فعرضتْها على مالك المتجر الذي تعمل معه؛ السيد "جيمس" و.. أيمكنك أن تخمني ما حدث؟ إنه يريد أن يعرض –ولو بعضها على الأقل– للبيع في متجره بعد أن أحوكها، وسيدفع لي مبلغًا جيدًا، قال لي: "Let's see how it goes"

يقصد: "دعنا نرَ كيف ستسير الأمور".

أنا أعرف ما الذي يدور في رأسكِ الصغير في هذه اللحظة وأنتِ تقرأين هذا الكلام. خذي نفسًا وتذكري أنني أحبكِ. وأنني أريد أن أكون معكِ، وأن كل ما أفعله هو من أجلنا نحن الاثنين، من أجل مستقبلنا.

هل أصبحتِ أفضل حالًا الآن؟

حسنًا.

والآن حان وقت الخبر الذي لا يُعدُّ جيدًا بالقدر ذاته؛ لن أستطيع العودة على الفور، أي في عيد الميلاد كما وعدتكِ. فإنجاز المجموعة الجديدة سيحتاج إلى المزيد من الوقت. لم يكنْ بإمكاني أن أرفض فرصةً مهمةً كهذه وأعرف أنكِ ستتفهمين موقفي.

لا تحزني أرجوكِ أو تنتابكِ خيبة أمل مما قلته، فحال التفكير في أن خبرًا كهذا سيحزنك يشعرني بالسوء. كل ما في الأمر أن موعد لقائنا قد أُجِّل قليلًا ليس أكثر، لا تخافي. أفهمتِ؟ لا تخافي. أنا أحبكِ، أحبكِ أنتِ لا غيركِ. لقد صمدنا بعيدين عن بعضنا ستةَ أشهر. يمكننا أن نصمد فترةً إضافيةً قصيرةً. أنا أعرف أن بمقدورنا فعل ذلك!

أجيبي على الفور خطابي من فضلكِ وأخبريني أن كل شيء على ما يرام".

وضعتْ "لورينسا" الخطاب على المكتب ولاحظتْ أن يديها ترتجفان كما كان قلبها لا يزال ينبض بسرعة، لكنْ ليس فرحًا كما كان قبل قراءتها الرسالة وإنما غضبًا وغيظًا. لقد أدركتْ بعد أن أنهت هذه الرسالة أن "دانييليه" لا يحبها بحقٍّ وأنه لن يعود. هو أيضًا كاذب مثله مثل الجميع ومثل أبيها.



18
فبراير 1948

غطَّت "أنَّا" كتفيْها بالشال الصوفي، وسكبتِ اللبن الدافئ في الفنجان، وذهبت لتجلس على المقعد في الحديقة. إن هذه اللحظات الأولى من الصباح -التي يميِّزها عن غيرها ما تمارسه "أنَّا" من طقوس بسيطة- هي لحظات يومها المفضلة. فهناك فقط، في مكانها الخاص هذا الخالي من أي ضوضاء، تنجح في الشعور بسلامٍ حقيقيٍّ وفي ترتيب أفكارها.

في اليوم السابق رأت "چوفانَّا" في البلدة، تسير مطأطئة الرأس وعلى وجهها علامات اكتئاب واستسلام، وبدا لها للحظة -وربما تكون مخطئةً في ظنها هذا- أن صديقتها قد رفعتْ عينيها وبحثت عنها.

انضم "روبرتو" فجأة إلى أمه في الحديقة حيث وقف خلف ظهرها وقال بالفرنسية: "صباح الخير يا أمي"، وانحنى ليُقَبِّل خدها.

قالت "أنَّا" بالفرنسية أيضًا مداعبة رأس ابنها: "صباح الخير يا عزيزي".

جلس "روبرتو" إلى جانب أمه على المقعد بشعره الأشعث وعينيه المنتفختين من أثر النوم. ضمَّ ركبتيه إلى صدره وأسند رأسه إلى كتفي أمه. لقد صار الآن في الخامسة عشرة من عمره، ولكنه على الرغم من ذلك يتصرف كما لو كان لا يزال طفلًا.

سألها "روبرتو" بصوتٍ ناعس: "فيمَ تفكرين؟ كنتِ مستغرقةً بالكامل بالتفكير في شيء ما".

لمستْ "أنَّا" بشفتيها حافة الفنجان وأخذت رشفةً من اللبن ثم أجابته: "كنتُ أفكر في "چوفانَّا".

سألها: "هل اشتقتِ إليها؟".

أجابته: "نعم، كثيرًا".

عدَّل "روبرتو" من وضع رأسه ونظر إليها وسألها: "ستخبرينها بهذا، أليس كذلك؟"، قالت "أنَّا": "هي تعرف هذا فعلًا، أو هكذا أتمنى".

رفع الولد حاجبه بالضبط كما تفعل هي عندما تكون منزعجة وسألها: "كيف لها أن تعرف ذلك إن لم تخبريها به أنتِ؟".

ابتسمتْ له "أنَّا" ابتسامةً فيها شيءٌ من المرارة وقالت: "الأمر ليس بهذه البساطة. إنه كما لو.. كيف لي أن أشرح لك؟ حسنًا، إن الأمر يبدو كأنَّ "چوفانَّا" ضحية تعويذة سحرية ما، وأنا لا أعرف أي طريقة لإبطال هذه التعويذة".

زمَّ "روبرتو" شفتيه وفكَّر بضعَ لحظات ثم قال: "حسنًا، ربما تكون هذه التعويذة من ذلك النوع الذي لا يُبطَل إلا بتعويذة أخرى أكثر قوة منها".

هزت "أنَّا" كتفها ثم قالت: "لا أعرف، لكنْ إن كان ما تقوله صحيحًا، فأنا لا أعلم بالضبط أي تعويذة تلك التي يمكنها أداء هذا الدور".

قال "روبرتو": "أعتقد أنه الحب الذي تكنِّيه لها. أقصد أن حبك لها هو تلك التعويذة السحرية المنشودة".

حدَّقت إليه "أنَّا" في لطف، ثم عبثتْ بشعره وبعثرته، وقالت: "كم أن ابني حكيم!".

نهض هو ومد ذراعيه وقال: "أعرف هذا". ثم اختتم كلامه بابتسامة أخرى قائلًا: "دائمًا ما يقول لي أبي الشيء ذاته؛ إنني حكيمٌ مثله"، إلا أن ابتسامته هذه المرة كانت بالضبط واحدةً من ابتسامات أبيه المشاغبة.

صاحت "أنَّا" فيما تنهض هي أيضًا: "أوه! اسمع إذن، إن أباك ذكيٌّ جدًّا بل وخبيثٌ كذلك". ثم تابعت فيما تدخل إلى البيت من جديد: "ولكنه ليس حكيمًا بالمرة".

في وقتٍ متأخر من اليوم ذاته وبينما كانت "أنَّا" تقود دراجتها "البيانكي" تحت سماء البلدة العاصفة والملبَّدة بالغيوم، أعادت التفكير في كلمات ابنها. ربما كان على حقٍّ

في ما قاله؛ عليها أن تذهب ببساطة إلى "چوفانَّا" وتخبرها بأنها تشتاق إليها وتذكِّرها بأنها تحبُّها، ولتفعل ذلك كل يوم إذا لزم الأمر. وخلصتْ في تفكيرها إلى: "ربما يكون صحيحًا أن بإمكان تعويذة طيبة أن تبطل على المدى الطويل أخرى شريرة".

كانت مستغرقةً في تفكيرٍ مفرطٍ وهي تقطع الطريق المؤدي إلى حدود البلدة من أجل آخر تسليم لذلك اليوم. توقَّفت أمام بيتٍ متهدِّم، جدرانه متشققة، وبابه خشبي تآكلت بعض أجزائه. فتح لها البابُ رجلٌ طويل القامة ذو بَشَرَة كهرمانية اللون وذراعان مفتولتي العضلات. في ما وراء باب المنزل لاحظت "أنَّا" هناك سجادة مكسوة بأوراق التبغ، كما كان في البيت سيدة وطفلان؛ فتى وفتاة، يفترش جميعهم الأرض مباعدين ما بين أرجلهم ومنهمكين بوضع أوراق التبغ التي نظفوها في صناديق مصنوعة من الورق المقوى. مدَّت ساعية البريد يدها للرجل ببرقية، أخذها الرجل ولوَّح لها بإشارة متعجلة ودَّعها بها وأغلق الباب.

ركبتْ "أنَّا" دراجتها كي تعود إلى وسط البلدة، ولكنها توقَّفت بعد أن قطعتْ بضعة أمتار ونظرت إلى ساعتها؛ كانت الساعة الواحدة ظهرًا أي إنه من المؤكد أن "چوليو" لا يزال في الأبرشية لذا استدارت على الفور واتجهت مباشرةً نحو "كونترادا لا بيترا" وهو الطريق المعاكس لاتجاه الرياح.

عندما فتحتْ "چوفانَّا" البابَ، لم تكنْ هناك حاجة إلى قول أي شيء. فحالما رأت صديقتها "أنَّا" امتلأت عيناها العسليتان الواسعتان بالدموع كما اهتز جسدها -الذي بدا نحيفًا وهزيلًا جدًّا- من فرط نحيبها.

تملك قلبَ "أنَّا" شعورٌ بالحنان. وما شعرت به تجاه صديقتها في هذه اللحظة بدا كأنها لم تشعر به من قبل تجاه أي شخصٍ آخر. لقد تذكَّرت للحظة صغيرتها "كلاوديا"؛ كانت مثل "چوفانَّا" في وضعها هذا؛ هشةً وعاجزةً.

اندفعتْ "أنَّا" نحو صديقتها وسارعت باحتضانها. قالت "چوفانَّا" وهي لا تزال تنتحب ومنكمشةً كطفلة بين ذراعي صديقتها: "أنا آسفة، لقد كنتِ على حق".

تمتمت "أنَّا": "لا عليكِ، لا عليكِ أنا هنا الآن، اهدئي". ربتت "أنَّا" رأسها، لكنها توقفتْ عندما أدركت أنها لمست مكانًا مكشوفًا من فروة رأسها، كما لو كان الشعر في تلك النقطة قد انتُزِعَ. تحركت "أنَّا" في قلقٍ وجعلتها تستدير كي تتأكد من الأمر. نعم، كانت هناك فعلًا مِنْطَقة منزوعة الشعر في رأس "چوفانَّا". همستْ "أنَّا" متسائلةً: "هل هو من فعل هذا؟".

استعطتْ "چوفانَّا" وأجابت: "لا، كنتُ أنا من فعل هذا".

في الليلة السابقة وبينما كانت "چوفانَّا" تجلس عارية على السرير وفي عينيها نظرة تائهة ضائعة بدأت تنزع شعرها خُصلة تلو الأخرى. لم تتوقف حتى عندما أمسك "چوليو" ذراعيها بقوة وصرخ في وجهها كي تتوقف. قبل ذلك بقليل كان "چوليو" قد دخل إلى غرفة النوم مرتديًا زيَّه الكهنوتي؛ غفَّارة وياقة تلتف حول عنقه، وأمرها بأن تتعرَّى. وبينما كانت "چوفانَّا" تنتزع ملابسها تجرَّد هو أيضًا من ملابسه ثم فجأة أمسك معصميها بقوة وربطهما بشريط فيما كانت "چوفانَّا" تحاول بلا جدوى أن تتحرَّر من قبضته ومن ذلك الشريط الذي يقيد يديها. ربط كاحليها أيضًا بالطريقة ذاتها ودفعها على السرير ومارس معها الجنس بطريقة عنيفة. أقسمتْ لها "چوفانَّا" وهي تبكي أن هذا لم يحدث قطُّ من قبل.

حدَّقت إليها "أنَّا" بنظرة جامدة ثم أمسكت بيدها ودخلا معًا إلى المنزل. سألتها "أنَّا": "هل لديكِ حقيبة؟".

نظرتْ "چوفانَّا" حولها بنظرة حائرة وأجابتها: "نعم، ربما توجد أسفل الحوض. لا أتذكر".

بدأت "أنَّا" تبحث عن الحقيبة في كل مكان؛ نظرتْ أسفل حوض المطبخ وأسفل السرير وفتحت جميع الدرف والأدراج لتعثر عليها في النهاية ملفوفة داخل خزانة في غرفة النوم. فتحتْها ووضعتها على السرير ثم توجَّهت نحو الدولاب وشرعتْ تضع فيها الملابس القليلة لصديقتها. وضعت المعطف وقمصان النوم والسراويل الداخلية.

سألت "چوفانَّا" بصوتٍ مرتعشٍ وهي تحيط جسدها بذراعيها: "ماذا تفعلين؟".

أجابتها "أنَّا" فيما تواصل تعبئة الحقيبة: "لن أتركِكِ هنا، ستأتين معي وستبقين في بيتي ولن أقبل أي نقاشٍ في هذا الأمر".

سارتا في صمت على طول الطريق المؤدي إلى البلدة. كانت "چوفانَّا" تتقدم مُطأطئة الرأس بخطواتٍ متثاقلة، تجفِّف باستمرار الدموع التي تتساقط على خدها بظهر يدها، فيما تسير "أنَّا" إلى جوارها وهي تجرُّ دراجتها إلى جانبها.

حالما وصلتا إلى البيت، فتحتْ "أنَّا" نوافذَ غرفة الضيوف لتهويتها ورتَّبت لها السريرَ واضعةً ملاءةً تفوح منها رائحة اللافندر ثم وضعتْ أغراض "چوفانَّا" في خزانة الملابس وأعطتْها قطعةً من صابون "مارسيليا" التي كانت لا تزال جديدة ومغلفة في ورقتها.

قالت لها "أنَّا": "استحمِّي بماءٍ ساخنٍ. ستجدين المناشف في الدرج الأول. على رسلك، أنا أنتظركِ في الطابق السفلي". اكتفتْ "چوفانَّا" التي كانت جالسةً على السرير وعيناها مثبتتين على الأرض بالإيماء.

حالما غادرتْ "أنَّا" الغرفةَ نهضتْ "چوفانَّا" واقتربتْ من الخزانة ذات الأدراج. وجدتِ المناشف الكتَّانية مطويةً بعناية ولم تكنْ بها أي ثنيات. كانت على وشك أن تُخرِج إحدى تلك المناشف عندما انتبهتْ إلى وجود شيءٍ ما في إحدى زوايا الدرج. قالت "چوفانَّا" لنفسها وهي تقلِّب هذا الشيء بين يديها: "أوه! إنها "بومو"، لم أرَ أيَّ واحدة منها منذ وقت طويل".

تذكرت أن أمها "روزالينا" أيضًا كانت لديها واحدة وكانت تضعها على طاولة المطبخ. كانت تقول لها دومًا عنها: "إنها تميمة حظ، الويل لكِ إن كسرتِها!". تحسَّست "چوفانَّا" "البومو"، وضمَّتها بين ذراعيها كما لو كانت تحمل طفلًا ثم وضعتها على الطاولة المجاورة للسرير.

في مساء ذلك اليوم وتحديدًا بعد العشاء، دخلت "أنَّا" غرفة النوم فوجدت "كارلو" واقفًا أمام المرآة يحلُّ عقدة رابطة عنقه.

روت له "أنَّا" بصوت منخفض ما حدث ظهر ذلك اليوم واختتمت حديثها قائلة: "چوفانَّا" ستبقى لدينا قليلًا. لا أعرف لكم من الوقت تحديدًا، لن يزعجك هذا الأمر، أليس كذلك؟".

أجاب "كارلو": "طبعًا لن يزعجني، يمكنها البقاء المدة التي تريدها".

خلع "كارلو" رابطة عنقه مُطلِقًا زفرة تحرُّر وبدأ يطويها. قالت "أنَّا" وهي تعقد ذراعيها: "أقسم لك إنني كنت لأخنقه بيدي لو رأيته هناك".

أجاب هو: "أعلم جيدًا يا حبيبتي أنكِ كنتِ ستفعلين ذلك". ثم تابع كأنه تذكَّر شيئًا ما فقط في تلك اللحظة: "آه، بالمناسبة، لقد اتخذنا قرارًا بالأمس بهدم المدرسة القديمة".

سألت "أنَّا": "وماذا ستستبدلون بها؟".

قال "كارلو": "سيحل سوق السبت محلها، ولكنه سيصبح ثابتًا حيث سيقام له سرادق خشبي متساوي الحجم، أي إنه سيكون أشبه بمعرضٍ دائم. إنه مشروع قدَّمه تجار البلدة مجتمعين وصوت المجلس لمصلحته بالإجماع".

انتاب "أنَّا" شعورٌ بخيبة الأمل لاح واضحًا على وجهها وقالت: "يا للأسف، كان مشروعي ليصبح أفضل بكثيرٍ من هذا فقط لو توفر لدينا مزيد من الوقت للحصول على كل هذا الكم الهائل من الوثائق".

قال "كارلو": "وهل أنتِ متفاجئة من هذا؟ إنها البيروقراطية المعتادة في بلادنا"، ثم نهض من السرير واقترب منها وسحبها نحوه بلطف وتمتم قائلًا: "أنا آسف بشأن فكرة "بيت النساء" الخاصة بكِ، لكنْ صدقيني، لقد تجنَّبتِ خيبة أمل حقيقية وبذل جُهْد مضنٍ بلا أي طائل. أنا أعرف رجال المجلس، لم يكونوا ليصوتوا لفكرة كهذه، أقصد بذلك فكرة عصرية وجديدة".

عبست "أنَّا" وتأهَّبت لسؤاله أكان هو أيضًا يفكِّر مثل هؤلاء الرجال، ولكن في تلك اللحظة تناهت إلى مسامعهما من الطابق السفلي طرقات قوية وغاضبة على باب المنزل. سأل "كارلو" مقطبًا ما بين حاجبيه: "من هذا القادم في هذه الساعة؟".

أجابته "أنَّا": "من برأيك؟".

نزلا إلى الأسفل وفتحا الباب ليجدا نفسيهما أمام السيد "چوليو" وقد بدا في قمة غضبه واستيائه. قالت "أنَّا": "ماذا تريد؟".

أجاب "چوليو": "چوفانَّا" هنا، أليس كذلك؟".

قالت "أنَّا": "هذا أمرٌ لا يخصك".

قال "كارلو": "من الأفضل أن تذهب من هنا".

صرخ "چوليو" محاولًا دخول البيت بالقوة": "چوفانَّا!".

أمسكه "كارلو" من ذراعيه ودفعه إلى الخارج وقال له: "اخرج من بيتي!".

واصل السيد "چوليو" صراخه: "چوفانَّا!".

قالت "أنَّا": "كارلو"، اطرده من هنا من فضلك".

حاول "كارلو" إغلاق الباب، ولكنَّ الأخير وضع قدمه وحال دون إغلاقه. قال "چوليو": "لن أغادر حتى تأتي وتتحدث معي".

ظهرت "چوفانَّا" على رأس الدرج مرتدية قميصَ نومها وحافية. صرخ السيد "چوليو": "هأنتِ ذا! كيف خطر على بالكِ أن تتركي المنزل؟ هيا أجيبيني!".

قالت "أنَّا": "چوفانَّا"، عودي إلى غرفتكِ من فضلكِ".

لم تنجحِ الأخيرة في أن تنطق ولو بكلمة واحدة. ظلَّت واقفة هناك منتصبةً ممسكةً بدرابزين الدرج. أمرها السيد "چوليو": "دعينا نعُد إلى البيت. هيا".

تراجعت "چوفانَّا" خطوة وهمست: "لا".

قال "كارلو": "هل سمعتَ؟ "چوفانَّا" ستبقى هنا، والآن عليكَ أن تغادر وإما سأرسلك إلى الخارج بركلة في مؤخرتك".

قال حينها "چوليو" دون أن يشيح بنظره عن "چوفانَّا": "لن أبرح بيتنا، هل فهمتِ؟".

قالت "أنَّا": "ذلك البيت ليس بيتك".

كرَّر "چوليو" كلامه مؤكدًا: "أنا أنتظركِ في البيت يا "چوفانَّا".

هددته "أنَّا" وهي تشير بإصبعها نحوه: "ستنتظر إذن إلى الأبد. وإذا حاولتَ أن تقترب منها مرة أخرى أقسم إنني سأشتكيك إلى السلطات، وستعرف حينها من هي "أنَّا".

قال "كارلو": "أسمعت؟".

أرخى السيد "چوليو" الياقة التي يرتديها حول عنقه ورمق "چوفانَّا" بنظرة مشمئزة وقال لها قبل مغادرته: "إنهم على حق في ما يقولون؛ أنتِ مجرد مجنونة مسكينة".

أحكمتْ "چوفانَّا" قبضتها على الدرابزين وخفضت نظرها.

✉✉

لم تجبْ "لورينسا" خطاب "دانييليه". كتب لها برقية بمناسبة عيد الميلاد. دوَّنت "إيلينا" البرقية بخط يدها الصغير الدقيق. هنَّأها فيها بالأعياد وتوسَّل إليها كي تكتب له ولو سطرين على الأقل. جعَّدت "لورينسا" البرقية وألقت بها في السلة المخصصة للقصاصات الورقية.

دفعها الغضب والتوق الشديد إلى الانتقام من "دانييليه" إلى دعوة "تومَّازو" إلى بيت عمها وزوجته ليتناول العشاء مع الأسرة عشية عيد الميلاد. في تلك المناسبة، تعاملت "لورينسا" مع "تومَّازو" بسلوكٍ قد يندرج تحت اسم المغازلة. جلست إلى جواره وهما يتناولان العشاء وضحكت من نكاته كما ابتسمت له ابتسامات تحمل بعض التلميحات ورمقته بنظرات طويلة وعميقة، بل إنها ابتاعت له هدية، قبعة من اللباد باللون الرمادي الداكن وذات حافة متوسطة الحجم. أخذ "تومَّازو" هديته من

أسفل شجرة التنوب الضخمة التي زينها "كارلو" و"روبرتو" كما يفعلان كل عيد ميلاد، ونزع عنها الغِلاف وكان سعيدًا ومتفاجئًا بتلك الهدية غير المتوقعة. أخرجت "لورينسا" القبعة من الصندوق وصاحت: "هيا، دعنا نجربها!".

وضعتها "لورينسا" على رأس "تومَّازو" ثم تراجعت خطوة إلى الوراء لتراها بشكلٍ أفضل، وفي النهاية قالت "لورينسا": "كنت أعرف. تبدو القبعات رائعة عليك. عِدني أنك سترتديها من اليوم فصاعدًا".

لم تكن "لورينسا" بحاجة إلى أن تستخلص منه هذا الوعد إذ ارتداها "تومَّازو" فعلًا كل يوم مذ أهدتها إليه.

بعد مرور بعض الوقت ومع اقتراب ليلة رأس السنة، اقترح عليها الذَّهَاب إلى السينما بعد ظهر يوم السبت لحضور فيلم "معجزة في شارع 34"، وخلال العرض لمست "لورينسا" عن قصد يد مديرها "تومَّازو" مرتين.

وفي صباح أحد أيام الأحد طلب "تومَّازو" من "أجاتا" أن يصحب "لورينسا" في جولة بسيارته "الفيات توبولينو"، وأنها يمكنها أن تكون مطمئنة عليها برفقته ووعدها أنه سيعيدها في موعد الغداء. وغني عن الذكر أن "أجاتا" وافقت على الفور على طلب "تومَّازو".

كان "تومَّازو" يروق لها ولم تخفِ ذلك، فلطالما رأته رجلًا صالحًا وأن شخصًا مثله يمكن حقًّا الوثوق به. وعليه وفي ذلك الصباح المشمس الذي غابت عنه الرياح ودَّعت "أجاتا" "تومَّازو" وابنتها بابتسامة عريضة، فيما كان "تومَّازو" يفتح باب السيارة لـ"لورينسا" ثم صعد هو أيضًا وانطلقا تجاه البحر. اشترى "تومَّازو" قنافذ البحر من أحد الصيادين الذي كان قد جمعها لتوِّه وأكلها هو و"لورينسا" معًا وهما جالسان على المقعد الكائن على شاطئ البحر. أخذا يجمعان لحمَ القنافذ بلباب الخبز ويأكلانه.

وفي أثناء عودتهما إلى البلدة نزع "تومَّازو" قبعته وباغتها بقبلة في السيارة بدت لــ"لورينسا" رطبةً أكثر قليلًا من اللازم وخانقة، إلا أنها وبالرغم كل شيءٍ بدتْ لها حلوة ولطيفة جدًّا. في اليوم التالي –يوم الإثنين– تبادل الاثنان في مكتب البريد نظرات طويلة خجلة، متعمدة وذات مغزى. بسطت "إيلينا" جسدها قليلًا على مكتب "لورينسا" ولكزتها فيما تضحك ضحكةً خافتةً ثم سألتها: "ماذا حدث بينكِ وبين المدير؟"، ورفعت حاجبيْها مرتين ثم أضافتْ: "لقد لاحظتُ ما يدور بينكما هنا، ألن تخبريني؟".

ابتسمتْ "لورينسا" وهي تهز رأسها وقالت: "فعلًا، لقد حدث شيءٌ ما".

سألتها "إيلينا": "وماذا عن حبيبكِ الأمريكي الوسيم؟ لا يكفُّ عن إرسال البرقيات إليكِ، يا له من مسكين! على الأقل ردي عليه".

عبست "لورينسا" فجأة وأجابتها: "بالنسبة إليَّ يمكنه الآن أن يبقى حيث هو".

في يوم الأحد التالي اصطحبها "تومَّازو" لتناول الغداء في أحد مطاعم مدينة "ليتشي" حيث أكلا الخبز المقلي مع الجبن وشربا زجاجة كاملة من "دونَّا أنَّا". سارا معًا حتى ساحة "سانت أورونزو"، وهناك وتحديدًا تحت عمود قديس المدينة أخرج "تومَّازو" من جيبه علبة صغيرة من المخمل الأحمر وركع أمام "لورينسا".

نظرت إليه "لورينسا" محبوسةَ الأنفاس ومعقودة اللسان. للحظة تملَّكها شعورٌ يحثها أن تُطلق ساقيها للريح، أن تهرب إلى أي مكانٍ آخر بعيدًا عن هذه الزاوية من الميدان وإلى زمان آخر غير هذه اللحظة التي توجد فيها هناك بصحبة "تومَّازو".

بالرغم من ذلك، فإنها عندما رأته راكعًا على ركبتيه بهذا الشكل أمامها ويحدِّق إليها بعينيه اللتين تنضحان بحبٍ كبيرٍ وقويٍّ، عينين تعدانها بالإخلاص والوفاء، عينين تقولان لها: "أنا لن أذهب أبدًا. لن أتركِ". كل هذا دفعها إلى أن تقول له "نعم"، بل واستسلمت لعناقه.

أصرَّ "تومَّازو" على جمع الأسرة على الفور في اليوم التالي ليعلمهم بهذا الخبر العظيم والمفاجئ. بدا "تومَّازو" غير قادرٍ على استيعاب فرحته بموافقة "لورينسا"، إلا أنه في الوقت ذاته، كان يشعر بقلقٍ وهشاشةٍ كما لو كان يخشى أن تتراجع "لورينسا" عن تلك "النعم"، وتعيد إليه الخاتم قائلة: "سامحني، لقد أخطأتُ بموافقتي، لستَ الشخص الذي أريده. لم أردكَ يومًا قطُّ". وهكذا استسلمتْ "لورينسا" لرغبة "تومَّازو" ودعت كل أسرتها إلى تناول العشاء في منزله، حتى إنها اختلقتْ عذرًا لهذه الدعوة قائلة: "يقول إنه يريد أن يشكرنا على دعوتنا له على عشاء ليلة عيد الميلاد".

كان "تومَّازو" لا يزال يعيش في إحدى شقق أسرة "چوليا"؛ فبعد وفاة زوجته "چوليا"، أصرَّ أهلها على عدم مغادرته المنزل. قالوا له وهم يعانقونه: "صرت الآن بمنزلة ابننا".

عندما وصلت "أجاتا" إلى بيت "تومَّازو"، نظرت حولها بفمٍ مفتوح؛ فقد كان المنزل كبيرًا جدًّا، وبالغ الجمال؛ غطى السجاد الفارسي الأرضية بأكملها في كل غرفة، كما كانت هناك أرائك من خشب الجوز والمخمل، وستائر من الستان، وطاولات من خشب الأبنوس لها أسطح رخامية، ولوحات بإطارات مذهبة.

علَّقت "أجاتا" وهي جالسة على أريكة غرفة المعيشة: "إنه منزل جميل حقًّا"، فيما جلس "أنطونيو" على كرسي بمسندين مصنوعين من الخشب المطعَّم وله مظهر غير مريح بالمرة.

ضحك "تومَّازو" ضحكة خافتة وقال: "ليس أنا من فرش ذلك البيت بالتأكيد"، ثم أضاف في خجل: "لقد فرش أهل زوجتي الشقة، أقصد أهل زوجتي القدامى"، ورمق "لورينسا" بنظرة من عينيه.

لم تقل له "لورينسا" أي شيء وارتسمت على شفتيها نصف ابتسامة وأخذت تتجوَّل بثقلٍ ولا مبالاة خلال غرفة المعيشة بينما تمرِّر يدها على الرخام وتتحسَّس التحف وأقمشة الأرائك، كما ألقت نظرة خاطفة إلى لوحات الأسرة المعلقة على الجدران.

اقترب منها "تومَّازو" وهمس لها في أذنها كأنه قد قرأ أفكارها: "إذا كان هناك شيءٌ ما لا يعجبكِ، فسيمكنكِ تغييره في ما بعد ليتناسب وذوقك الخاص؛ إن كل ما يهمني هو وجودكِ هنا فقط ليس إلا".

ابتسمتْ له "لورينسا" شاكرةً ومقدرة. في الحقيقة لم ينلْ أي شيءٍ إعجاب "لورينسا" بذلك البيت. لقد بدا كل شيءٍ بالنسبة إليها عتيقًا وكئيبًا ومغالى فيه. كما بدا أن المرء في ذلك المكان لا يمكنه العيش تقريبًا سوى وهو مرتدٍ ملابس سهرة. بعد دقائق قليلة وصلت أيضًا "أنَّا" و"كارلو" و"روبرتو" و"چوفانَّا". قالت "أنَّا" على الفور فيما تخلع عنها معطفها: "هذا البيت لا يشبهكِ تمامًا".

فردَّ "تومَّازو": "أعرف ذلك"، وأضاف قائلًا فيما ينظر إلى "لورينسا": "ولكني سأغيره قريبًا". ثم دعا الجميع إلى الانتقال إلى غرفة الطعام وقال: "أتمنى أن تكونوا جوعى، فقد ظللتُ أطبخ أربع ساعات".

صاحت "أجاتا": "يا لمهارتك!".

تأهبت "أجاتا" للنهوض من الأريكة فمدَّ "روبرتو" لها يده فأمسكت هي بها ونهضت ثم تابعت: "أيمكنك أيضًا أن تطبخ".

حالما جلس الجميع إلى الطاولة نزع مضيفهم السدادة عن زجاجتين من نبيذ أحمر بلا ملصق وسكبه في الكؤوس. أخذ منه "كارلو" رشفة ثم علَّق: "إنه طيب، هو مصنوع من عنب "كاليفورنيا"، أليس كذلك؟".

شرح "تومَّازو": "نعم، لقد اشتريتُه من الحانة". ثم سأل: "وماذا عن نبيذك الأحمر؟ متى سيمكننا تذوقه؟".

وضع "كارلو" الكأس على الطاولة وقال: "إيه، لا يزال أمامنا وقت طويل".

مضى العشاء قدمًا في جو احتفالي وهادئ. ولم تكن "أجاتا" تفعل أي شيء سوى أن تكرِّر بعد كل طبق تتذوقه أن الطعام كله: "طيبٌ للغاية". ولاحظت "لورينسا" أن "تومَّازو" لديه موهبة التحدث مع الجميع والاهتمام بما يهتم به الآخرون ويحبه الأشخاص من حوله. تبيَّن لها أنه عطوفٌ وحنونٌ، ويهتم بمن يعرفه دون أن يكون ثقيلًا ومملًا.

حينما حان وقت التحلية بعد الغداء، جلست "لورينسا" إلى جانبه ونظرت إليه. انحنى هو تجاهها وهمس في أذنها: "نعم، سأهتم أنا بالأمر، اطمئني". ثم ذهب إلى المطبخ وعاد حاملًا كعكة كبيرة مغطاة بالشوكولاتة ووضعها في منتصف الطاولة وقال للجميع: "إيه، أما هذه فلم أصنعها، أحضرتها مباشرة من محل الحَلْوَيَات".

وبينما يضع كل فردٍ من الحضور الحلوى لنفسه نهضت "لورينسا" وانضمتْ إلى "تومَّازو" الجالس على رأس الطاولة ووقفت إلى جواره. طوَّق "تومَّازو" خصرها بيديه وتطلع إليها بنظرة لطيفة جدًّا.

تململتْ "أجاتا" حينها في كرسيها وانفرجتْ حينها شفتاها عن ابتسامة تنمُّ عن عدم صبرها.

بدأ "تومَّازو" حديثه: "يسعدني أن أُنبِئكم بهذا الخبر، لا يمكنكم أن تعرفوا حقًّا كم أنا سعيد. أنا و"لورينسا" سنتزوج".

أطلقت "أجاتا" صرخة فرح صغيرة وصفقت وصاحت قائلة: "أوه، أيتها العذراء القديسة!". نهضت وركضتْ لتعانق أولًا ابنتها ثم "تومَّازو". نهض كذلك "أنطونيو" وصافح صهره المستقبلي وقال له: "أنا سعيد أنكَ ستكون زوجًا لابنتي". ثم اقترب من "لورينسا" وحدَّق إليها وقوَّس شفتيه ثم قال: "هكذا الأمر إذن؟".

أومأتْ هي له بابتسامة فجذبها "أنطونيو" لصدره وعانقها مُهدهِدًا إياها بين ذراعيه وهمس حينها في أذنها: "أنا سعيد من أجلكِ".

هنَّأ "كارلو" كليهما وقد بدا سعيدًا كأنه يوم عيدٍ، ثم سكب شرابًا للجميع وصرخ قائلًا: "في نخب العروسين!".

صافح "روبرتو" أيضًا ابنة عمِّه أولًا ثم "تومَّازو". وبعده تقدَّمت "چوفانَّا" التي اقتربت من "لورينسا" وعيناها تفيضان تأثرًا وهمهمت قائلة بصوتٍ متهدِّج: "لطالما أبكتني كثيرًا تلك الأمور المتعلقة بالزواج".

ووسط كل هذه الضحكات والصخب والعناق بقيت "أنَّا" متجمدة في مقعدها. وأرادت أن تسألها في الحال وأمام كل هذا الجمع، مقاطعةً فجأة هذا السيل المتدفق من المظاهر والتصرفات المعبرة عن الفرح والبهجة التي بدت لها متسرعة وغير عادلة: "وماذا عن "دانييليه"؟ ماذا حدث لقصة حبكما؟"، بحثتْ بإصرار عن عينيْ "لورينسا" لكنْ لم يتطلب الأمر منها وقتًا كبيرًا لتفهم أن الفتاة تتجنب عن قصد أن تتلاقى نظراتهما. وعلى مسافة قريبة من "أنَّا" كان "كارلو" و"أنطونيو" يحدقان إلى بعضهما، وقد حرَّكا أحد جانبي فميهما بابتسامة.

حالما رأتهما "أنَّا" على هذا النحو رفعت حاجبها وقالت لنفسها: "غريب".

بدا لـ"أنَّا" أن نظرة كليهما حملتْ شيئًا من الارتياح. لكنْ لا، من المؤكد أنها مخطئة.



في صباح اليوم التالي لذلك العشاء، وصلت "لورينسا" –متأخرة كالعادة– إلى "أنَّا" كي تذهبا إلى العمل. حيَّتها بنبرة لامبالية: "صباح الخير يا عمة".

أجابتها "أنَّا": "صباح الخير". وانطلقتا في طريقهما صامتتين.

وأخيرًا كسرتْ "أنَّا" الصمتَ وقالت: "لم أكنْ أطيق صبرًا منذ أمس للتحدث معكِ على انفراد".

أجابت "لورينسا" بفظاظة: "ولماذا؟ هل تريدين أن تعتذري على ما فعلتِه بالأمس؟".

قالت "أنَّا": "آسفة. أنتِ تعلمين أنني أواجه صعوبة في...".

قاطعتها "لورينسا": "نعم، كلنا نعلم ذلك، وهأنتِ قد رأيتِ أننا لم نعدْ نندهش من أفعالكِ هذه".

حدقت إليها "أنَّا" مقطبةً ما بين حاجبيها وسألتها: "لماذا أنتِ قاسية هكذا؟".

قالت "لورينسا": "هل تسألينني أنا هذا السؤال؟ كان يكفي أن تنهضي من ذلك الكرسي وأن تظهري قليلًا من السعادة من أجلنا".

قالت "أنَّا": "كنت سأبقى سعيدة إذا كنتِ حقًّا سعيدة".

سألتها: "ومن أخبركِ أنني لست سعيدة؟".

قالت "أنَّا" متنهدة بعمق: "لورينسا"، أنا أعرفكِ مذ كنتِ طفلة".

أجابت "لورينسا": "حسنًا، أنا كبرتُ وتغيَّرتُ إذا لم تلاحظي هذا".

توقَّفتْ "أنَّا" عن السير وقالت: "وماذا عن "دانييليه؟" هل تخليتِ عنه هكذا؟".

أجابت "لورينسا" فيما تفرد ذراعيها: "وأين هو؟ هل ترينه؟ هو طبعًا ليس هنا، ليس معي".

سألتها: "أنتِ تعلمين أنه سيعود. لماذا تريدين أن تحرمي نفسكِ من فرحة الزواج بالرجل الذي تحبينه؟".

أجابت "لورينسا": "أنتِ مخطئة. أنا لا أحبه. لم أعد أحبه".

نظرت إليها "أنَّا" نظرة لطيفة ورقيقة وقالت: "أنتِ كاذبة".

ردَّت "لورينسا" بصرامة وحزم: إن "تومَّازو" هو الرجل المناسب لي، هو رجلٌ طيبٌ وسيبقى معي دائمًا ولن يتركني أبدًا".

قاطعتها "أنَّا": "ولكنكِ لستِ مغرمةً به وأنتِ تعرفين ذلك جيدًا".

قالت باندفاع: "أنا أكنُّ له معزةً كبيرةً".

قالت "أنَّا": "هذا ليس سببًا كافيًا لتتزوجي أحدهم. أنا أيضًا أكنُّ لـ"تومَّازو" معزَّة. إنه صديقي. لكنْ لم أكن لأتزوجه من أجل هذا فقط".

مطتْ "لورينسا" شفتيها واستأنفت سيرها، ولكنَّ "أنَّا" أوقفتها وأمسكت بذراعها وقالت لها: "لا تتعجَّلي أرجوكِ. فكِّري جيدًا وخذي قرارك بقلبك لا بعقلك".

أفلتت "لورينسا" من قبضة "أنَّا" بفظاظة وأجابتها: "لقد قرَّرتُ فعلًا".

بعد مرور ساعة من حديثهما هذا، وفي مكتب التلغراف كتبت "لورينسا" نص البرقية التي سترسلها إلى "دانييليه".

"لم أعد أنتظركَ. أنا أحب شخصًا آخر. سأتزوج في مايو القادم. "لورينسا".

بعدما أرسلتِ البرقية، شعرت "لورينسا" فجأةً بحزنٍ وخواء. لقد أدركت لتوِّها أنها وافقت على عرض "تومَّازو" بالزواج فقط لأنها كانت تتوق إلى إخبار "دانييليه" بالأمر، كانت تتطلَّع بشدة إلى معرفة أنه يتعذَّب ويعاني بسبب فِقدانه إياها وأنه يدفع ثمن غيابه وابتعاده عنها. ولكنَّ إحساس الرضا والارتياح الذي توقَّعت أن تشعر به حال إخباره بالأمر تبدد واستحال فجأة إلى رماد.



19
مايو – يونيو 1948

تُوفِّي السيد "تشيتشو" في أثناء نومه في مساء يوم 28 أبريل، وأخذت كنيسة "سان لورينسو" تدقُّ أجراسها منذ منتصف الليل حدادًا على موته. أقيم طقس السهر عند جثة الميت قبل دفنها في غرفة نومه. جلست "چينا" بجوار تابوت زوجها، تذرف دموعًا صامتة وتداعب بلطف خديْ زوجها المليئين بالتجاعيد.

كان السيد "تشيتشو" مرتديًا زي الاحتفالات، وهو بدلته الرملية مع القميص الأزرق وربطة العنق الحمراء. وإلى جوار "چينا" جلس "نيكولا" زوج "كارميلا" وظلَّ ممسكًا بيدها.

أما "كارميلا"، فقضتْ تلك الليلة ذَهَابًا وإيابًا بين الغرفة والمطبخ لترحِّب بالأشخاص الذين جاءوا لتقديم التعازي. كانت تأخذ من أيديهم صواني الحلوى وعُلب القهوة التي أحضروها كهدايا. وتذهب لوضعها على طاولة المطبخ، حيث كانت أخوات "چينا"، اللاتي قدَّمن من بلدة مجاورة، يضعن إبريقيْ قهوةٍ بصورة متتالية على المواقد؛ يحمل الإبريقُ الكبيرُ مقدارَ اثني عشر فنجانًا أما الأصغر فيحمل مقدار ثلاثة فناجين، حتى تكون هناك دائمًا قهوة جاهزة للجميع في أي وقتٍ خلال تلك الليلة.

دخل "كارلو" المنزلَ المزدحمَ وخلع عنه قبَّعته. تقدَّم في الممر وسط الناس الذين أخذوا يحيونه وهم يهمسون: "صباح الخير أيها العمدة".

دخل إلى الغرفة واقترب من النعش وحدق إلى جثة السيد "تشيتشو" الذي بقي وجهه ملتويًا بتقطيبة تنمُّ عن الألم الذي كان يعانيه جراء مرضه. لم يخبر "كارلو" أحدًا قطُّ بحقيقة أنه لم يشعر بالألم والحزن لموت السيد "تشيتشو". بل على العكس انتابه شعورٌ غامض بالتحرر والارتياح بالرغم من أنه لم ينجحْ في تفسير سبب هذا الشعور.

رسم "كارلو" علامة الصليب وهو يتطلع إلى جثة المتوفى وقبَّل النعش.

صافح "كارلو" "نيكولا" ثم انحنى ليعانق "چينا" التي حالما رأته استعطت وجفَّفت دمعة سقطتْ من عينيها. همس "كارلو" لـ"نيكولا" متسائلًا: "أين هي "كارميلا"؟".

جال ببصره خلال الغرفة وأجابه: "جرِّب أن تبحث عنها في المطبخ".

وجدها "كارلو" هناك فعلًا، إذ كانت تحتسي فنجانًا من القهوة وهي مستندة إلى حوض المطبخ وقد بدا عليها التعب. تردَّد "كارلو" قليلًا ثم وضع يده على ذراعها ممسكًا به وقال لها: "أشاطركِ الأحزان. أخبريني كيف حالكِ؟".

شربتْ "كارميلا" آخر رشفة من قهوتها ووضعتِ الفنجان ثم استقامت في وقفتها ومسَّدت صدرية فستانها الأسود وأجابته: "هكذا على الأقل توقَّفت معاناته".

أومأ "كارلو" وقلَّب قبعته بين يديه وسألها: "هي يمكنني أن أقدِّم لكم أي مساعدة؟".

نظرت إليه "كارميلا" متفكرة وزمَّت شفتيها ثم قالت: "في الواقع يمكنك أن تفعل شيئًا ما، فأنا لا يمكنني أن أتحرك من البيت الآن".

قال "كارلو": "تفضلي، أخبريني بأي شيءٍ تريدينه".

فقالت: "عليك أن تخبر "دانييليه" بموت جده".

قال "كارلو": "نعم، طبعًا. سأفعل هذا في الحال".

وهكذا أعاد "كارلو" وضع قبعته وخرج ووصل إلى مكتب البريد. حيَّته "لورينسا" التي تفاجأت بمجيئه إلى المكتب وسألته: "عمي! ماذا تفعل هنا؟".

أجابها: "يجب أن أرسل برقية إلى "دانييليه" أخبره فيها بوفاة جده".

تجمَّد وجه "لورينسا" التي خفضتْ نظرتها وأمسكتْ بقلم وانتزعت ورقة صغيرة وطلبت منه أن يملي عليها ما يريد متظاهرة باللامبالاة: "أخبرني إذن".

دوَّنت نص البرقية باستخدام شفرة "مورس" وعندما أرسلتها اكتفت بقول: "تم".

إن المرة الأخيرة التي تواصلت فيها مع "دانييليه" تعود إلى بداية شهر مارس الماضي. فقد رد على برقيتها التي تخبره فيها بأمر زواجها ببرقية لم يقل لها فيها سوى:

"لماذا تفعلين هذا بي وبنفسكِ؟".

قرَّرت "لورينسا" أن تتجاهله وتركت الأيام تمرُّ في صمت كأنها أرادت أن تعاقبه بهذه الطريقة. ثم أرسل إليها برقية ثانية قال فيها: "لا ترتكبي حماقات. انتظري". ثم أتبعها ببرقية ثالثة: "لماذا لم تعودي تثقين بي؟". واصلت "لورينسا" تجاهلها إياه وما يرسله إليها حتى البرقية الأخيرة التي اكتفى فيها بقول: "لن أزعجكِ بعد الآن. تهانيَّ".

ردَّ "دانييليه" في الحال على برقية "كارلو"، شكره فيها على أنه أخبره بوفاة "تشيتشو"، ثم أرسل برقية أخرى إلى أمه. تعيَّن على "لورينسا" أن تدوِّن كليهما.

وهذا ما جاء في نص البرقية الثانية: "**خالص تعازيَّ لوفاة الجد. لا أعرف متى يمكنني العودة. سأفعل ما بوسعي. أعدكِ**".

حدَّقت "لورينسا" إلى تلك العبارات ولم تتمكن من ألا تحرك شفتاها بطريقة ساخرة متهكمة.

فكرتْ بينها وبين نفسها أنها حقًّا أحسنت التصرف عندما توقَّفت عن انتظاره، كما أدركتْ حينها أن أمها كانت على حق؛ فها قد تبين لها أن كلمات "دانييليه" كانت دومًا فعلًا كالرياح الشمالية لا تدوم أكثر من ثلاثة أيام.

✉✉

سألت "أجاتا": "ماذا إذن؟ هل رأيتما "الكولوسِّييو"؟ ماذا أكلتم؟ كيف كان الجو هناك؟ هل أعجبكما الفندق؟".

جلس "تومَّازو" و"لورينسا" إلى جانب بعضهما وأمسك "تومَّازو" بيد زوجته. نظَّمت "أجاتا" عشاءً دعت إليه كل أفراد الأسرة بمناسبة عودة "لورينسا" وزوجها من رحلة شهر العسل، وصنعتْ شطيرةَ اللحم التي تشتهر بها. وقفوا جميعًا حول العروسين، وتحدث "تومَّازو" بسرعة ودون توقف عن رحلتهما، وقد بدا مفتونًا بجمال العاصمة روما وعظمة آثارها والتاريخ الاستثنائي الذي تغرق فيه المدينة، فيما اكتفت "لورينسا" بالإيماء وقول: "نعم، فعلًا"، أو: "هذا صحيح".

أُقيم حفل الزفاف قبل ما يزيد قليلًا على أسبوع، أي في 4 مايو، في يومٍ غائم، احتجب فيه ضوء الشمس. فبعد ليلة قضتها "لورينسا" بلا نوم، إذ ظلَّت جالسة على سريرها تحدِّق إلى فستان زفافها المعلَّق على مشجب وضع على خزانة الملابس. إنه الفستان ذاته الذي ارتدته "أجاتا" يوم زفافها. قالت لها "أجاتا" يومئذٍ وهي تريها الفستان بصوتٍ مرتجف وعينين لامعتين: "ها قد حانت أخيرًا هذه اللحظة".

كان فستانًا ذا تنورة واسعة وذيل قصير، له صدرية مطرزة وكمَّان طويلان من الدانتيل وطرحة يصل طولها إلى الكتفين، ويمكن تثبيتها بمشط شعر

مزخرف ومرصَّع بالجواهر. كان هذا الفستان مختلفًا تمامًا عن فستان الأميرة "إليزابيث " الذي حلمتْ بأن يكون لها فستانٌ مثله ومختلفٌ كذلك عن فستان "دانييليه" الذي رسم له تصميمًا ذات يومٍ بعيدٍ في أحد دفاتره السوداء ووصفه لها بالتفصيل؛ إذ كان فستانًا له صدرية من الستان بتقويرة عنق على هيئة قلب وله كمَّان من الدانتيل الإنجليزي وأزرار مصنوعة من اللؤلؤ وله تنورة جرس يصل طولها حتى القدمين.

هزَّت "لورينسا" رأسها كما لو كانت تريد أن تتخلص من تلك الأفكار التي سيطرت على عقلها، وفي تلك اللحظة تحديدًا دخلت "أجاتا" الغرفة مع فريقٍ متحمسٍ وسعيدٍ من النساء اللاتي قدمن كي "يجهزن العروس". ساعدتها إحداهنَّ على تصفيف شعرها بطريقة الشِّينُون، فيما كانت أخرى تكوي ثنية في تنورة فستانها، في حين ركعت إحدى النساء لتلبسها حذاءها. ووسط هذا الحشد من النساء استسلمت "لورينسا" لكل هذه التجهيزات وجعلتهنَّ يلبسنها ويصففن شعرها ويزينَّ وجهها بمستحضرات التجميل كما لو كانت دمية. لقد أزحن عنها هذا العبء وأرحن بالها من التفكير والاهتمام بكل هذه الأمور كما قطعن بوجودهن حبل أفكارها التي ظلتْ تؤرقها طَوال الليل.

كانت "أنَّا" هي الوحيدة في الأسرة التي غابت عن حفل الزفاف. قالت "أنَّا" للعروس في الليلة السابقة لحفل الزفاف: "سأنتظركِ في الكنيسة". ثم أضافت: "إذا اضطُرِرْتِ إلى تغيير رأيكِ في اللحظة الأخيرة فلا تخافي. أفسدي كل شيء على الفور ولا تهتمي".

من ناحية، كل شيءٍ كان ليصبح أكثر سهولة بالنسبة إليها لولا النظرة اللائمة التي نظرت بها "أنَّا" إليها ذلك اليوم. لكنْ من ناحية أخرى كانت "أنَّا" هي الوحيدة من بين كل أفراد أسرتها التي فكَّرت أن تسألها أكانت حقًّا سعيدة بزواجها من "تومَّازو"، ولم يهتم أحد سواها منذ يوم إعلان خبر زواجهما ببيت

"تومَّازو" بالتأكد من هذا الأمر لا أمها ولا أبوها ولا حتى عمها "كارلو". لكنِ اعتقدت "لورينسا" أنه من الأفضل ألا يسألها أحدٌ هذا السؤال.

لكنْ ماذا الآن؟ ما الذي تشعر به الآن وقد توقَّفت أخيرًا عن النوم على هذه الملاءات وردية اللون ذات الحواف المطرزة؟ ما إحساسها وقد صار لديها زوج وبيت عليها أن تعتني بهما؟ هل تشعر حقًّا بالسعادة؟ بدا لها كأنها قد عبَّرت عن هذه الأفكار التي تعصف برأسها بصوتٍ عالٍ لدرجة أنها شعرتْ أن عينيْ "أنَّا" تتفحصانها وفيهما أسئلة كثيرة تريد أن تطرحها عليها.

شدتْ "لورينسا" حينها على يد "تومَّازو" الذي نظر إليها بدوره نظرة عاشقة فيما يقول: "أما اليوم الأخير فقضيناه ونحن نتجول ببساطة في وسط المدينة، لكنْ كم من الأشياء الجميلة التي لم نرَها! آه، على أي حال سنعود لزيارة روما مرة أخرى بكل تأكيدٍ، أليس كذلك يا "لورينسا"؟".

تدخَّلت "چوفانَّا" معلِّقة: "لا بُدَّ أنها جميلة، أتوق حقًّا إلى زيارة روما أنا أيضًا يومًا ما".

علقتْ "أنَّا": "ومن يمنعكِ؟ يمكننا أن نسافر معًا وقتما تحبين".

رمقتهما "أجاتا" بنظرة تتراوح ما بين الاستياء والصدمة والغيظ، ثم قالت فيما تنهض من مكانها: "من الأفضل أن نجلس الآن إلى طاولة الطعام"، وتحركتْ متجهة إلى غرفة الطعام.

نهض الجميع ولحقوا بها. أسند "كارلو" كلتا يديه على كتفيْ "روبرتو" ودفعه إلى الأمام بمرح وهو يصيح قائلًا فيما يتشمم الهواء الذي يعج برائحة الطعام: "أسمعت؟ إنه النداء الخاص بشطيرة العمة "أجاتا".

ضحك "أنطونيو" ضحكة خافتة وتأبَّط ذراع "تومَّازو"، وسار كلاهما مع بعض.

أما "أنَّا" فلم تتحرك من مكانها حتى خوت غرفة المعيشة من الجميع عداها هي و"لورينسا". اقتربت منها "أنَّا" وهمست لها أن عليها أن تتحدث معها ثم

قالت لــ"چوفانَّا" التي كانت تنتظرها كي تذهبا معًا إلى غرفة الطعام: "أنا قادمة إليكِ، اذهبي أنتِ أولًا".

عقدت "لورينسا" ذراعيها أمام صدرها وسألتها بطريقة جافة: "ماذا هناك؟".

تنحنحت "أنَّا" وقالت: "هناك شيءٌ ما عليكِ أن تعرفيه ومن الأفضل أن أخبركِ به الآن".

قطَّبت "لورينسا" ما بين حاجبيها وسألتها: "ماذا حدث؟". قالت "أنَّا": "اسمعي، بينما كنتِ في روما وصلت برقية أخرى من "دانييليه"، أرسلها إلى أمه".

قاطعتها "لورينسا" قائلة: "ولماذا تخبرينني بهذا؟ الأمر لا يعنيني".

تابعت "أنَّا": "بل أعتقد أن الأمر يهمكِ فعلًا".

أخرجت "أنَّا" ورقة صغيرة مطوية إلى قسمين من بين ثدييها ومدت إليها يدها بالورقة وقالت: "لقد نسختُ لكِ نصَّ البرقية، ولا تقلقي، لقد تمكَّنت "إيلينا" لمرة واحدة في حياتها من أن تكون كتومة، وستبقي الأمر سرًّا".

ظلَّت "لورينسا" تحدق طويلًا إلى "أنَّا" ثم أمسكتْ بالورقة وفتحتها. قرأت "أنَّا" البرقية في سرها، في الوقت ذاته الذي كانت "لورينسا" تقرأها فيه كونها قد حفظتها فعلًا عن ظهر قلب من كثرة ما قرأتها. قال "دانييليه" في برقيته:

"لقد تمكَّنت من تنسيق كل الأمور هنا. ابتعتُ التذكرةَ. سأصل إلى "نابولي" صباح يوم الخامس من يونيو. من فضلكِ اطلبي من "كارلو" أن يأتي ويأخذني بسيارته".

تسارعتْ أنفاس "لورينسا" حتى صارت أشبه باللهاث. فسألتها "أنَّا" واضعة يدها على ذراعها: "هل أنتِ بخير؟".

عضتِ الأخرى على شفتها السفلية بالقوة نفسها التي امتلأت بها عيناها بالدموع.

دخلت "أنَّا" غرفة النوم ورأتْ حقيبة السفر وقد وُضِعَتْ فوق سحارة الملابس، عند أقدام السرير وكانت مفتوحةً ولا تزال فارغةً. وجدتْ "كارلو" راكعًا يفتِّش أحد أدراج خزانة الملابس. سألته هي: "عمَّ تبحث؟".

أجابها "كارلو": "عن رابطة العنق المخططة باللون الأزرق. هل تعرفين أين هي؟".

رفعت "أنَّا" حاجبها وسألته: "ولمَ أنت بحاجة إلى رابطة العنق؟".

قال "كارلو": "ما هذا السؤال؟".

قالت "أنَّا": "هيا، تحرك من هنا". ثم فتشتْ داخل الدرج وقالت من جديد فيما تسحب ربطة العنق من الدرج: "ها هي، كانت أمام عينيك".

أخذها "كارلو" من بين يديها ووضعها على السرير. عقدت "أنَّا" ذراعيها وحدقت إليه وسألته: "تبدو عصبيًّا ومتوترًا. هل كل شيءٍ على ما يرام؟".

أخرج "كارلو" من الخزانة بدلة باللون البيج، تفحَّصها للحظة ثم أومأ برأسه ووضعها كذلك على السرير، ثم أجابها: "نعم، نعم. عليَّ أن أقود السيارة لساعات طويلة. ألا تظنين أنه من الطبيعي أن أكون قلقًا ومضطربًا بعض الشيء؟".

لم تجبه "أنَّا" واكتفت بالتحديق إليه بينما يعبِّئ حقيبته، وبعدما انتهى أغلقها ثم ذهب ووضعها في المقعد الخلفي لسيارته. سألته "أنَّا" بنبرة ساخرة تقريبًا: "هل أنت متأكد من أنك أخذت كل شيء؟".

أجابها "كارلو" بجدية شديدة: "أعتقد ذلك. على أيِّ حال سأبقى هناك لليلة واحدة فقط، وفي أسوأ الأحوال إن احتجتُ إلى شيءٍ ما سأشتريه من هناك". أغلق باب السيارة وسألها: "أين "روبرتو" ألن ينزل ليودِّعني؟".

قالت "أنَّا": "أعتقد أنه يستحم، إذ سيذهب هذا المساء حسب ما فهمتُ إلى السينما مع أصدقائه".

قال "كارلو" وهو يشعر بقليلٍ من خيبة الأمل: "حسنًا. أبلغيه سلامي إذن".

اقتربتْ منه "أنَّا" لتعدِّل ياقة سترته ومازحته: "ستراه مساء غد. أتظن أنكَ مسافر إلى خارج البلاد؟".

انفرجتْ أخيرًا أسارير "كارلو" وأجابها: "كنت لأصطحبكِ معي في هذه الحالة". منحها قبلة ثم ركب السيارة وغادر.

عادت "أنَّا" إلى داخل المنزل. في تلك الأثناء كانت "چوفانَّا" جالسةً على الأريكة تقرأ رواية "الجريمة والعقاب"، رفعتْ عينيها باتجاه "أنَّا" وهي عابسة بالكامل ثم صاحت قائلة: "كم هو صعب هذا الكتاب، لقد تسبَّب لي في صداع".

ابتسمتْ لها الأخرى ثم ذهبت وجلست إلى جوارها وقالت لها مفسِّرة: "لقد أهداه إليَّ "أنطونيو" منذ سنوات". ثم أضافتْ مشيرة إلى المكتبة القائمة خلف ظهرها: "لماذا اخترتِ هذا الكتاب بالذات؟ دعيني أؤكد لكِ وجود روايات أخرى كثيرة كانت لتعجبكِ أكثر من هذه".

قلَّبت "چوفانَّا" الكتاب بين يديها وأجابتها: "لقد اخترته من أجل الإهداء". فتحتُ الصفحة الأولى من الرواية وقرأت الإهداء:

"إن عظمة هذه الرواية تكمن في ما تريد أن تعلِّمه لنا من أن كل مذنب، حتى أكثرهم حقارة، يستحق الرحمة.

قراءة ممتعة".

"أنطونيو"

وضعتْ "چوفانَّا" الكتابَ على الأريكة وسألتها: "هل أنتِ أيضًا تعتقدين ذلك؟ هل تظنين أننا علينا أن ننظر بعين الرحمة والشفقة إلى المذنبين وأن نتعاطف معهم؟".

فردَّت "أنَّا" ذراعها على مسند الرأس الخاص بالأريكة وثنت ساقيها وأجابت بعد بضع ثوانٍ: "لا أعرف، أعتقد أن الرحمة هي شعورٌ يجب أن يسير جنبًا إلى

جنب مع الشعور بالندم، لا أظن أنني يمكنني أن أتعاطف مع مذنب لا يُظهِر ولو ذرة ندم على ما ارتكبه من ذنب".

أومأتْ "چوفانَّا" وبدتْ أنها تفكِّر في ما قالته صديقتها ثم قالت: "هل تعتقدين أن بإمكانك أن تشعري يومًا بأي رحمة تجاه "چوليو"؟ أقصد في حالة أنه شعر بالندم".

أجابتها "أنَّا" ساخرة متهكمة: "هو لا يحتاج إلى رحمتي، فهو يتمتع فعلًا برحمة الرب، أليس كذلك؟".

أصرَّت "چوفانَّا" على أن تستخلص من صديقتها إجابة لسؤالها فكرَّرت: "أنا أتكلم بجدية، إذا قال، أقصد، إذا اعترف لي بخطئه وأقرَّ بندمه على ما فعله".

قاطعتها "أنَّا": "وهل ستصدقينه إن أخبركِ بذلك؟".

قالت "چوفانَّا": "لا أعرف. أعتقد أني سأفعل".

قالت "أنَّا": "ستكونين قد ارتكبتِ خطأً حينها، فالأشخاص مثل "چوليو" لا يتغيرون بين ليلة وضحاها. بل أعتقد أنهم لا يتغيرون على الإطلاق".

زمَّت "چوفانَّا" شفتيها وقالت: "ربما لا يزال ينتظرني".

هزت "أنَّا" رأسها وأخذتْ يد "چوفانَّا" بين يديها وقالت: "لم يعدْ "چوليو" مرة أخرى إلى "كونترادا".

سألت "چوفانَّا": "وكيف لكِ أن تعرفي هذا؟".

قالت "أنَّا": "أذهب إلى هناك بين الحين والآخر لأتأكد أكان موجودًا، ولم أجد أي أثرٍ له".

عضتْ "چوفانَّا" على شفتيها، فقالت صديقتها: "لستِ مضطرة إلى العودة إلى بيتكِ إذا كنتِ لا ترغبين في ذلك"، وتابعتْ مطمئنةً إياها كأنَّها قد قرأت أفكارها: "يمكنكِ أن تعيشي هنا معنا إذا أردتِ".

هدأ وجه صديقتها على الفور وقالت: "هل أنتِ متأكدةٌ من أن "كارلو" لا يمانع بقائي معكم؟".

قالت "أنَّا": "طبعًا لا يمانع! هو أيضًا سعيدٌ بوجودكِ معنا".

وكان ما قالته "أنَّا" لصديقتها صحيحًا حقًّا، فوجود "چوفانَّا" في البيت لا يثير استياء أحدٍ، بل على العكس تمامًا، إذ كانت "چوفانَّا" خفيفة ولطيفة وكتومة كذلك، بل إنها كانت عطوفًا وحنونًا مع الجميع دون أن تبدو أبدًا متطفلة.

قالت "چوفانَّا": "لكنْ، إذا بدأ بقائي معكم يشكل عبئًا عليكِ أو "كارلو" أو "روبرتو" فعليكِ أن تخبريني على الفور".

أوقفتها "أنَّا" على الفور وقالت: "ما هذه الحماقات التي تتفوهين بها؟ أنتِ لا تمثلين عبئًا على أحد".

وكان هذا أيضًا حقيقيًّا؛ فقد اتفق "كارلو" و"أنَّا" على أن يتكفَّلا بـ"چوفانَّا" ماديًّا، وهذا ما فعلاه فعلًا بسلاسة ودون أي عناء.

بل إن "أنَّا" قد حاولت كذلك أن توفِّر لها فرصة عمل، ولكنها اكتشفت أنها مهمة شبه مستحيلة ومؤلمة لدرجة أنها لم تواتِها الشجاعة لتتحدث عنها إلى "چوفانَّا"، ولم تستطعْ أن تصف لها تفاصيل ما حدث وما قيل خشية أن تتسبب لصديقتها في ألمٍ ومعاناةٍ نفسيةٍ مما ستراويه لها.

ظلتْ "أنَّا" أسابيعَ تطرق أبواب متاجر البلدة لتسألهم أكانوا بحاجة إلى عمال ولم تجد ضالتها في أي مكان، وحتى القليلين ممن كانوا حقًّا بحاجة إلى عمال، تراجعوا على الفور عندما أخبرتهم "أنَّا" بأن هذا العمل سيكون لـ"چوفانَّا". قال لها بائع التبغ: "أيتها السيدة ساعية البريد، أنا أحترمكِ وأحترم زوجكِ "كارلو"، ولكني لا أكنُّ أيَّ احترامٍ لتلك المرأة". أما بائع الخردوات فقال: "افهميني من فضلكِ، إذا رأى الزبائن تلك المرأة هنا فلن يقربوا متجري". أما أحد البقالين فقد علق قائلًا: "نحن لا نمزح هنا. أنا لا أشغل عندي سوى أناسٍ محترمين".

كررتْ "أنَّا": "هل فهمتِ؟ لا تفكري مطلقًا أن وجودكِ هنا معنا يمثِّل عبئًا علينا".

همست "چوفانَّا": "شكرًا لكِ". ثم أضافت: "أنتِ أفضل صديقة في العالم". واقتربتْ لتعانقها. ابتسمت "أنَّا" وقبَّلت خدها. ثم نهضت عن الأريكة وقالت: "هيا، دعينا نذهب لإعداد العشاء، سنحتفل أنا وأنتِ اليوم".

وعليه بينما كانت "چوفانَّا" تقطع الثوم نزلت "أنَّا" إلى الغرفة الواقعة تحت الأرض التي يحتفظ فيها "كارلو" بمجموعته الصغيرة من زجاجات النبيذ. تمتمت "أنَّا" فيما تبحث بين زجاجات النبيذ الفرنسي: "نحتاج إلى شمبانيا". وبعدما ألقت نظرة على ملصقات الزجاجات بدأت تفكِّر أيًّا منها ستختار، فصارت تكرر بشكل متواصل: "ممم.. ليس هذا، ولا حتى هذا".

وقبل أن تعثر "أنَّا" على الشمبانيا التي تبحث عنها صادفت زجاجة بدت في غير موضعها، كان يبدو عليها أنها هي نفسها زجاجة نبيذ "دونَّا أنَّا" ولكنها فارغة وليس مثبتًا عليها أي ملصق كأنَّها لم تعبَّأ من الأساس مع أنَّها كانت مغلقة بقوة بسدادة الفلين، فكَّرت حينها "أنَّا" بينها وبين نفسها: "يا له من أمرٍ غريب"، ثم هزَّت كتفيها وأعادتها حيث وجدتها.

حالما خرج "روبرتو" ليقابل أصدقاءه، نزعتْ "أنَّا" غطاء زجاجة الشمبانيا وقالت: "أنا متأكدة من أن "كارلو" لن ينزعج لأنني أخذت هذه الزجاجة، أو هكذا أتمنى".

سكبتْ كوبين وجلست هي وصديقتها حفاةً على السجادة وظلتا تشربان حتى انتهى بهما الأمر أن شربتا الزجاجة بأكملها. وضعتْ "أنَّا" أسطوانة أغنية "الحياة الوردية" لـ"أديث بياف" على الجرامافون، ومدت يدها كأنها تدعو "چوفانَّا" إلى الرقص، قبلت الأخرى الدعوة وقد بدا المرح على ملامحها وأخذتا تتعثران وتتحركان بشكلٍ أخرق طَوال الأغنية، أو على الأقل حتى قامت "أنَّا" مع نهاية الأغنية بإحدى حركات "التانجو"، إذ طوقت خصر "چوفانَّا" بذراعها وأمسكت يدها ورفعت ذراعهما جاعلة "چوفانَّا" تميل بجذعها إلى الوراء، وهو

ما جعلهما تسقطان على الأرض بجانب بعضهما. تمددتا على أرضية الغرفة ونظرا إلى بعضهما لحظةً واحدةً، ثم انفجرتا في الضحك معًا حتى البكاء.



في صباح يوم 5 يونيو، خرج "كارلو" من الفندق الذي نزل فيه والكائن في ميدان "أوريفيتشي" الذي يقع بدوره بالقرب من ميناء "نابولي"، وذهب ليأخذ سيارته "الفيات 1100" التي أوقفها في شارع جانبي ضيِّق. كان الجو حارًّا لدرجة أنه خلع سترته وشمَّر كميْ قميصه متأففًا. وصل بسيارته إلى الميناء ثم نزل منها وأكمل الطريق على قدميه، حتى بلغ رصيف "مولو أنچوينو" البحري الذي كان من المتوقع أن ترسو عليه السفينة "ساتورنيا".

عثر على مقعدٍ وجلس عليه، ثم أخرج من جيبه سيجارًا. جفَّف بيده جبهته التي كانت تتصبب عرقًا وحلَّ قليلًا عقدة رابطة العنق المخططة باللون الأزرق. وقال لرجلٍ يجلس على مقربة منه بنبرة متألمة: "سحقًا! ما هذا الجو هذا الصباح ليست به أي نسمة هواء".

ثم أشعل سيجارًا، وحالما سحب أول نفس منه بدأ يسعل. وعندما رأى الرجل الذي يجلس بجواره أن السعال لا يعطي أي مؤشرٍ على أنه سيهدأ ويتوقف، اقترب منه وقدَّم له رشفة ماء من زجاجته. أخذ "كارلو" الزجاجة وشربها دفعة واحدة، ثم قال وهو يعيد إليه زجاجته: "شكرًا لك".

سأله الرجل: "هل مرَّت الغصة؟".

فقال "كارلو": "نعم، نعم. أشكرك مرة أخرى".

في منتصف النهار تقريبًا وصلت السفينة "ساتورنيا" الضخمة المهيبة إلى الميناء.

انضم "كارلو" إلى المجموعة الضخمة التي احتشدت لتشهد عمليات الإرساء. وعندما بدأ الركاب أخيرًا في النزول، وقف "كارلو" على أطراف أصابع قدميه لينظر إلى ما يحدث في ما وراء هذا العدد الهائل من الرؤوس التي تظهر أمامه. تعيَّن عليه

أن ينتظر أكثر من نصف ساعة قبل أن يرى "دانييليه" يظهر على قمة الدرج الخاص بالسفينة. شقَّ "كارلو" طريقه وسط هذا الحشد دافعًا الناس من حوله بمرفقيه كي يقترب أكثر، وقد تسارعتْ نبضات قلبه. انتبه "دانييليه" إلى وجوده فأشار إليه. فكَّر "كارلو" بينه وبين نفسه فيما يتقدم نحوه: "اللعنة! لقد تغيَّر شكله"، لكنْ على العكس نظرته لم تتبدل قطُّ؛ ما زالت هي نفسها حنونًا ساحرةً وجذابةً. كان سلوكه وطريقة مشيته هما ما تغيرا؛ إذ بدا واثقًا من نفسه بشدة، وحازمًا بشدة، كما بدا أن كل الأشياء الجديدة التي رآها وعاشها في أمريكا قد سكنته وتملكت منه بالكامل، حتى إنه جاء يحملها معه أيضًا إلى وطنه.

استقبله "كارلو" فاتحًا ذراعيه له وقال: "هأنت ذا يا صبيُّ".

أجاب "دانييليه" مبتسمًا: "مرحبًا يا "كارلو"!".

ووضع الحقيبة على الأرض وعانقه.



20
يوليو – سبتمبر 1948

طرقت "أنَّا" طرقتين خفيفتين بمفصل إصبعها على باب مكتب "أنطونيو" المفتوح فعلًا قائلة بمرح وبهجة: "توك – توك".

أجاب "أنطونيو" متفاجئًا فيما يعيد حافظة مستندات من الورق المقوى إلى الرف: "مرحبًا!".

دخلت "أنَّا" وأغلقت الباب خلفها. قالت حينها وهي تفتح حقيبتها: "حملتُ إليك الكتاب الذي أعرتني إياه". أخرجتْه وأعطته إياه. كان الكتاب بعنوان "امرأة من روما" للكاتب الإيطالي "ألبرتو موراڤيا".

سألها "أنطونيو": "وماذا إذن؟ هل أعجبتكِ الرواية؟".

جلستْ "أنَّا" على الكرسي المجاور للنافذة وقالت: "أنت تعلم أن لديَّ تحيُّزًا ضد الرجال الذين يعتقدون أنهم على معرفة بما تفكر فيه وبما تشعر به المرأة، بل ومقتنعون كذلك بأن باستطاعتهم الحديث والتعبير عنه".

قال "أنطونيو" على الفور وهو يجلس على الكرسي المقابل لها: "ممم، عليَّ إذن أن أستشفَّ من كلامكِ هذا أنها لم تعجبكِ".

صاحت "أنَّا": "لم أنهِ كلامي بعد".

اعتذر "أنطونيو" رافعًا يديه وقال: "معكِ حق، المعذرة. أكملي من فضلك".

فتابعت "أنَّا": "كنت أقول إن "موراڤيا" استطاع في هذه الرواية أن يعبِّر عن أفكار المرأة وشعورها ببراعة مدهشة حقًّا. لقد وضعتُ خطوطًا أكثر بكثير هذه المرة أسفل ما راقني من جمل وعبارات".

ابتسم "أنطونيو" وبدأ يتصفح الكتاب حتى توقف عند صفحة بعينها حيث وضعت "أنَّا" بالقلم الرصاص خطين وليس واحدًا فقط على عكس العادة أسفل عبارة محددة. قرَّب حينها الكتاب من وجهه وقرأ: "إذا كنتَ تحتقرني وتشعر باشمئزاز تجاهي فهذا خطؤك أنتَ لا خطأي أنا".

أومأ "أنطونيو" وعلق فيما يواصل التطلع إلى الصفحة: "فعلًا".

قالت "أنَّا": "هناك أيضًا الكثير من تلك الخطوط التي ستجد إلى جانبها ملاحظاتي المعتادة".

رفع "أنطونيو" نظره إليها وقال مبتسمًا فيما يغلق الكتاب: "إذن سيكون لديَّ الليلة ما أستمتع به".

سألت "أنَّا": "وماذا الآن؟ ماذا سنقرأ بعد هذه الرواية؟".

قال "أنطونيو": "الكتاب القادم ستختارينه أنتِ".

فردَّت قائلة: "اتفقنا، اعتبِر الأمر منتهيًا". ثم ألقتْ نظرة إلى الساعة وقالت: "أوه، تأخر الوقت كثيرًا". نهضتْ وسارتْ نحو الباب ثم التفتت مرة أخرى وقالت: "آه، هناك شيء آخر. هل تحدثتَ إلى "لورينسا" مؤخرًا؟".

سألها "أنطونيو": "ولماذا؟ هل حدث شيء ما لا أعرفه؟".

قالت "أنَّا" مشيحة بيدها: "لا، لا كل ما في الأمر أنني أردت أن أعرف كيف بدتْ لك الفتاة إن كنتَ قد قابلتها مؤخرًا. أقصد بعد عودة "دانييليه" من أمريكا".

قال "أنطونيو" في حيرة وارتباك: "ولماذا نتكلم عن ذلك الأمر الآن؟ إن قصتها مع "دانييليه" مرتْ وانتهتْ وهي الآن امرأة متزوجة".

رفعتْ "أنَّا" حاجبها وقالت: "وهل أنت مقتنعٌ بهذا؟ هل حقًّا لم تنتبه إلى الأمر؟ أنت يا من تلاحظ دومًا كل شيء؟".

سأل "أنطونيو": "وما الذي كان عليَّ أن ألاحظه ولم أفعل؟".

أجابته "أنَّا": "إنها حزينة يا "أنطونيو"، حزينة بشدة، أيعقل حقًّا أنك لم ترَ أي علامات لهذا الحزن؟ إن "لورينسا" تعلم جيدًا أنها ارتكبت حماقة عظيمة. لقد تصرَّفتْ باندفاع وتهور. دفعها الغيظ إلى أن تحكم على نفسها بالتعاسة. لقد حاولتُ أن أحذرها".

نهض "أنطونيو" فجأةً من الكرسي وهمس قائلًا: "دانييليه" ليس الشخص المناسب لابنتي، لقد سارتِ الأمور كما كان يجب أن تسير".

قالت: "كما كان يجب أن تسير؟ هل يمكنك أن تشرح لي ما الذي تضمره لذلك الفتى؟ هذه ليست أول مرة أجد منك ردَّ فعل غريبًا عندما يُذكر اسمه أمامك. تصرفتَ كذلك بغرابة وغضب عندما حدَّثتكَ عنه زوجتكَ في ذلك اليوم الذي كان عاقدًا فيه "كارلو" تجمعه الانتخابي. هل هناك شيء ما عليَّ أن أعرفه؟".

اتسعتْ عينا "أنطونيو"، لكنْ سرعان ما استردَّ رباطة جأشه وتمتم وهو يجلس خلف مكتبه: "لا، طبعًا لا". أسند "أنطونيو" مرفقيه إلى المكتب وشبك

يديه في بعضهما وقال: "كل ما في الأمر أنني أعتقد أنه من الأفضل لشخصية "لورينسا" المضطربة التي تحتاج إلى عطفٍ وحنانٍ أن تكون برفقة رجلٍ أكثر نضجًا من "دانييليه"، رجلٍ أكثر قوة ويمكنه أن يمنحها ما يلزمها من أمان".

رمقته "أنَّا" بنظرة متفحصة وقالت: "يا لها من سخافات".

ولكنَّ "أنطونيو" لم يردَّ، ففتحت الباب وغادرتِ المكتب وهي تلوِّح بيدها بتحية سريعة.

غادرتْ "أنَّا" معصرةَ الزيتون وهي تستشيط غضبًا لأن "أنطونيو" لم يرغب في الاقتناع بما قالته له. استأنفت بعدها جولة تسليم خطابتها، وكانت المحطة التالية، عند منزل "تامبوريني"، التي كانت تقع فعلًا على بُعد بضع مئات من الأمتار من معصرة الزيتون. صعدتْ "أنَّا" إلى ما هو أشبه بتلة تغمرها الخضرة، ثم ترجَّلت من دراجتها وواصلت الطريق سيرًا على الأقدام.

كان منزل "تامبوريني" قصرًا قديمًا ذا شرفة حجرية تمتد عرضًا، ونوافذ كبيرة بستائر مخملية، ودرج مزدوج يؤدي إلى الباب الرئيسي للقصر. وفي الحديقة المحيطة بالمنزل، كان هناك رجلٌ مُنحنٍ فوق الشجيرات وممسكٌ بمقص تقليم، ويعتمر قبعة من القش. صعدت "أنَّا" الدرج وطرقت الباب مستعينة بمطرقة الباب، وأخرجتْ من حقيبتها ظرفًا مغلقًا بالختم. قالت "أنَّا" في نفسها فيما تقلب الظرف بين يديها: "ستكون دعوة أخرى من تلك الدعوات –التي لا يعرف أحد عددها– لحضور واحدة من حفلاتهم فاحشة الثراء".

فُتِحَ الباب في تلك اللحظة وظهرتْ من خلفه صبية صغيرة شعرها مصفوف على هيئة كعكة، وترتدي مئزرًا أبيض صغيرًا فوق فستان أسود له تنورة واسعة نظرت إليها بنظرة شديدة الجدية تكاد تكون مخيفة.

لم تكن "أنَّا" تعرفها، وهو شيء لم تُدهش منه، إذ بدا لها أن الخادمات اللاتي يعملن في منزل "تامبوريني" لا يدمن طويلًا وأن هناك دومًا فتاة أخرى متأهِّبة

لتحلَّ محل تلك التي.. هل هن من يغادرن من تلقاء أنفسهن؟ أم يُطردن؟ فكَّرت حينها "أنَّا" حالما رأتها أمامها: "ولكنَّ هذه الفتاة صغيرة جدًّا حقًّا! ترى كم يمكن أن يكون عمرها؟ اثني عشر عامًا؟ أم ثلاثة عشر عامًا؟ كان من المفترض أن تكون الآن في المدرسة وليست هنا تلمع الفضيات".

دوى صوت نسائي من الداخل يتساءل: "من هناك؟".

جفلت الصبية وأجابت بينما تستدير قليلًا: "إنه البريد يا سيدتي".

أمرتها المرأة: "أحضريه إليَّ على الفور!".

انحنتِ الصبية وتمتمت: "شكرًا أيتها السيدة ساعية البريد، أتمنى لكِ يومًا سعيدًا". وأسرعتْ بإغلاق الباب مرة أخرى.

لبضع ثوانٍ وقفت "أنَّا" ساكنة كالصنم أمام الباب المغلق وقد انتابها شعورٌ لم تتمكَّن من الوهلة الأولى تحديد ماهيته، ربما كان شعورًا بعدم الارتياح أو ربما الاضطراب.

✉✉

منذ وطأت قدما "دانييليه" أرض "ليتسانيلُّو" مرة أخرى بدتْ كل الأشياء في عينيه ضئيلة الحجم. أخذ يسأل نفسه فيما يتجوَّل خلال البلدة ويعيد تقييمها بنظرة مختلفة؛ هل كانت المباني منخفضة جدًّا هكذا؟ وهل كانت الشوارع دومًا ضيقة بهذا القدر؟ احتاج إلى بعض الوقت كي يتعود من جديد على مشهد البلدة وكي يستعيد ألفته تلك الأماكن.

ربما كان "دانييليه" ليشعر بالغربة ذاتها بين أحضان "لورينسا" لو كانت احتفظتْ بالوعد الذي قطعتْه له وانتظرته. حاول في الأسابيع القليلة الأولى بعد عودته من أمريكا الابتعاد عن الميدان، وعن المِنْطَقة المحيطة بمكتب البريد، وعن الشارع الذي تعيش فيه الآن "لورينسا" مع رجلٍ آخر. لقد قضى "دانييليه" الكثير من الوقت في منزله، مستلقيًا على السرير، مُحَدِّقًا إلى السقف ويداه متشابكتان فوق صدره.

كان يذهب من وقتٍ إلى آخر إلى مصنع ومخزن نبيذ "جريكو" لإلقاء التحية وتقديم المساعدة. اقترح عليه "كارلو" أن يكون له دورٌ جديدٌ في المصنع، دورٌ ابتكره خصيصى له؛ إذ أراد منه أن يصبح المسؤول التِّجاري لمصنع النبيذ، نظرًا إلى النتائج الممتازة التي حققها في "نيويورك". لقد تحدث إليه عن ذلك في رحلة عودتهما من "نابولي" فقال له: "أنت تعرف كيف تبيع يا بني، يبدو أنك ولدْتَ من أجل هذا، والآن احصل على قسطٍ من الراحة لبضعة أيام. وعندما تشعر أنك مستعد للعودة إلى العمل، سيكون المصنع في انتظارك، فاتحًا لك ذراعيه".

في ذلك الوقت لم تكنْ لدى "دانييليه" الشجاعة الكافية كي يعترف لـ"كارلو" بأنه أصبحتْ لديه الآن خططًا أخرى كليًّا؛ فهو لم يخبر أحدًا قطُّ بالنجاح الذي حصدتْه بدلاته الرجالية التي صممها في أمريكا وبالحماس الذي سيطر على صاحب المتجر الواقع في الشارع الخامس تجاه أعماله وتصميماته، ولم يخبر أحدًا كذلك بما اقترحه عليه مالك المحل من تعاونٍ طويل الأمد رفضه هو بدوره. لم يخبره بأيٍّ من تلك الأشياء لأن ما كان يبدو عاديًّا جدًّا وصائبًا للغاية في أمريكا صار الآن من جديد شيئًا يجب إخفاؤه ويستوجب الخجل منه. حال عودته إلى البلدة عادت كلمات أمه تطنُّ من جديد في أذنيه: "الخياطة ليست عملًا يمتهنه الذكور".

ذهب "دانييليه" لزيارة والديه مرة واحدة فقط منذ عودته، إذ تناول معهما العشاء اليوم التالي لعودته من أمريكا. وقد وجدهما على حالهما، عالقين بإصرار وتعنت في الأدوار التي طالما اتخذاها لنفسيهما في الحياة؛ فأمه لا تزال تتَّخذ دور الجلاد وتتَّبع طرقها الوقحة المتغطرسة نفسها، فيما لا يزال أبوه يمارس دوره كضحية فتراه ذليلًا وخانعًا ومستسلمًا.

بعدما أنهى "دانييليه" طعامه وبينما كانت "كارميلا" تعد القهوة في المطبخ، مال نحو أبيه وسأله بصوتٍ منخفض: "هل رتبتَ خزانة ملابسي يا أبي؟ لا

يمكنني إيجاد صندوقي المعدني؛ ذلك الصندوق الذي أحتفظ فيه بدفاتري، هل نقلته عن طريق الخطأ إلى أي مكانٍ آخر؟".

فتح "نيكولا" عينيه على اتساعهما ثم تلعثم قائلًا بأنه لا يعرف أي شيء، وأنه لم يمس أي شيء على الإطلاق. قالت "كارميلا" حينئذٍ وهي عائدة إلى غرفة الطعام حاملة في يدها صينية وضعت عليها فناجين كان يتصاعد منهما البخار: "إن صندوقك الثمين بحوزتي".

نهض "دانييليه" عن كرسيه فجأة وقال: "هل فتشتِ في أشيائي؟".

قالت "كارميلا" بهدوء وهي تجلس: "لا تثُر! لقد انكشف سرك الآن".

استدار "دانييليه" نحو "نيكولا" الذي أبقى عينيه مخفضتين وقال له: "لقد طلبتُ منكَ شيئًا واحدًا يا أبي. واحدًا فقط! لماذا تركتها تدخل شقتي؟".

ولكنَّ "نيكولا" لم يجبْه. كانت "كارميلا" هي من تدخلت وقالت: "يجب أن أعترف أنك بارعٌ في رواية الأكاذيب"، ثم أخذتْ بعدها رشفة من قهوتها.

حدق إليها "دانييليه" عابسًا وقال لها: "أعيدي إليَّ في الحال رسومي وتصميماتي!".

وضعتْ "كارميلا" فنجانها وتمطقتْ وتابعتْ: "لقد تأخَّر الوقت كثيرًا. لقد نفَّذتُ فعلًا كل تصميماتك".

لم يستطعْ "دانييليه" أن يصدق ما قالته أمه فسألها: "ماذا فعلتِ؟".

ردَّت عليه رافعةً صوتها: "فعلتُ بكَ معروفًا! هذا هو ما فعلتُه، ألا ترى أنك تبدو سخيفًا؟ أتريد أن يقول الناس عنك أنك مخنث؟ كن كبيرًا وناضجًا وضع حدًّا لهذا الموضوع، لديك الآن فعلًا عملٌ رجوليٌّ، وهذا بفضل جدك وروحه الطيبة"، ثم تابعتْ مشيرة إلى "نيكولا" لاوية قسمات وجهها: "فإن كنت تنتظره أن..."، واختتمت حديثها وهي تنقر بإصبعها الطاولة: "لذلك فأنت من الآن وصاعدًا ستتصرف كشخصٍ جادٍّ ولن تفكر أو تهتم إلا بعملك في المصنع".

ألقى "دانييليه" نظرة بائسة وحزينة على أبيه الذي ظلَّ محتفظًا بعينيه منخفضتين، ثم ثبت عينيه مرة أخرى على أمه وهمهم بصوتٍ متقطع: "أنا لا أجد حتى الكلمات المناسبة لوصفكِ"، ثم توجه بعدها نحو الباب مباشرة، وفتحه، وغادر، ولم يعدْ بعدها إلى بيت والديه.

في حين أنه يرتاد منزل جدته "چينا" كل يوم تقريبًا وفي أغلب الأحيان كان يذهب لتناول الغداء معها. كانت تقول له جدته فيما تمدُّ إليه يدها المغطاة بالتجاعيد خلال الطاولة: "كم هو رائعٌ أن أراك هنا من جديد، لقد افتقدناك كثيرًا، وكان جدك هو أكثر من اشتاق إليك مع أنَّه لم يكن بطبيعته يعبر عن شعوره بسهولة".

أمسك "دانييليه" بيدها وابتسم لها قائلًا: "أنا هنا الآن يا جدتي".

طلبتْ منه جدته في أحد هذه الصباحات التي كان يذهب فيها إليها: "هل يمكن أن تذهب من فضلكَ لتشتري لي سلةً من الكرز؟". أمسكتْ بمروحة ورقية وبدأت تهوي لنفسها، وأضافت: "لا أشعر أنني على ما يرام اليوم. لا لا، لن أستطع أن أخرج من البيت فالجو حارٌّ جدًّا حقًّا".

تردَّد "دانييليه" بضعَ لحظات ثم قال: "طبعًا يا جدتي، سأهتم أنا بالأمر".

وكان ذلك هو الصباح ذاته الذي فيما يشكر "دانييليه" زوجة بائع الفاكهة ويبتعد ممسكًا بكيسٍ صغيرٍ بين يديه، رأى "لورينسا". كانت قد غادرتْ لتوِّها مكتب البريد وبعد خروجها بلحظة واحدة لحق بها "تومَّازو" وأحاط كتفيها بذراعه. قبض "دانييليه" بقوة على الكيس الذي بين يديه وبقي مكانه دون حَراك يتطلع إليها فيما تعبر الميدان متجهة نحو البار. بدا له –ولم تكن تلك أول مرة– أنها صارت أكثر جمالًا مما كانت عليه المرة الأخيرة التي رآها فيها، مع أنَّه لم يتمكن من تجاهل ما لاحظه عندما انتبه إلى أن وجهها يحمل شيئًا من الحزن والكآبة، وهو ذلك الشعور الذي بدا أنها تجرُّه خلفها –باستسلامٍ تقريبًا– أينما ذهبتْ كأنه ثقل لا

سبيل إلى التخلص منه، وذلك على العكس تمامًا من زوجها الذي كان يسير إلى جوارها بوجهٍ مشعٍّ كأنه يشعر بأنه أوفر الرجال حظًا في العالم.

في الفضاء المفتوح أمام البار ابتسم "تومَّازو" لأحد الرجال وتوجَّه نحوه. بدأ الاثنان يتحدثان عن شيءٍ ما بدا واضحًا أنه لا يثير اهتمام "لورينسا"، إذ ظلَّت تنظر حولها في ضجر، وبينما تجول بعينيها خلال المكان انتبهت إلى "دانييليه" الذي كان واقفًا يحدق إليها.

تجمَّدت "لورينسا" في مكانها وفتحت فاها قليلًا وأخذتْ تحدق إليه هي أيضًا بدورها. ظلا ينظران إلى بعضهما لحظاتٍ بدت لا نهائية، لكنْ لم يبادر أيٌّ منهما برفع يده لتحية الآخر، ولم يتحركْ أيٌّ منهما ولو خطوة واحدة تجاه الآخر. بقي كلاهما بلا حَراك محبوسي الأنفاس حتى أنهى "تومَّازو" حديثه وودَّع محدِّثه. أسند ذراعه من جديد إلى كتف زوجته وهو ما جعلها تجفل قليلًا، فخفضت نظرها وابتعدا معًا.

✉✉

فتح "روبرتو" خزانة صغيرة من الخشب ناصع اللون وسحب منها أسطوانة أخرجها من حافظتها الورقية ووضعها على دوَّارة الأسطوانات التي اشتراها لتوِّه بالمال الذي ادخره من مصروفه. كانت تلك الدوَّارة من أحدث طرازٍ موجودٍ في السوق. بعد بضع لحظات عجَّت غرفة المعيشة بألحان موسيقى "السوينج" الراقصة، وبدأ "روبرتو" بالرقص بعينين مغمضتين. سأل "كارلو" وهو جالسٌ على كرسيه بجانب المدفأة يقرأ الجريدة: "ما هذا؟".

فتح "روبرتو" عينيه دون أن يتوقف عن الحركة وأجاب: "إنها أغنية "ساحر السوينج" لـ"ألدو دونا".

حدق إليه "كارلو" بمرحٍ وقال وهو يرفع صوته كي يكون أعلى من صوت الموسيقى فيصير مسموعًا: "أنت تتحرك جيدًا، لقد تعلَّمت هذا مني".

دخلتْ "أنَّا" الغرفة في تلك اللحظة وهي تتأبَّط الملاءات التي حملتها لتوِّها من الشرفة. اقترب منها "روبرتو" وأمسكها من يدها وسحبها إلى منتصف الغرفة فانتهى الحال بالملاءات النظيفة بأن سقطتْ على الأرض.

أبدتْ أمه اعتراضها الذي تبعته بابتسامة تنفي شعورها باستياءٍ حقيقيٍّ قائلة: "خطر على بالك الآن بالذات أن نرقص وأنا لديَّ فعلًا الكثير لأفعله؟".

حثها "روبرتو": "اصمتي وارقصي فقط يا أمي".

وقفت "أنَّا" أمامه وبدأت تقلِّده. قال فجأة وهو يحمل إحدى ساقيه إلى الخلف ويدور -متكئًا على الساق الأخرى- حول نفسه ملقيًا بثقل جسده كله على جانبٍ واحدٍ فقط: "والآن، افعلي هكذا".

ضحكتْ "أنَّا" وألقت نظرة خاطفة على "كارلو" وحاولت أن تكرر الحركة ذاتها. صاح "روبرتو": "بارعة للغاية! أليس كذلك يا أبي؟ أليست بارعة بحق؟".

أومأ له "كارلو" مبتسمًا وقال: "بل الأفضل على الإطلاق".

عندما توقفتِ الأسطوانة عن بث الموسيقى انحنى "روبرتو" لأمه التي قالت لاهثة ويديها في وسطها: "شغِّلها من جديد، هيا". ووجهتْ لـ"كارلو" نظرةً خبيثة قائلة: "أريد أن أرقص عليها مع أبيك".

تمسَّك "كارلو" بذراعي الكرسي ونهض لاهثًا قليلًا. سخرتْ منه "أنَّا" قائلة: "هيا أيها المسن تعالَ إلى هنا".

قال "كارلو" مازحًا وهو يرفع حاجبه: "لمن تقولين مسنًّا أيتها الفاسقة!". أمسكها من خصرها وضمَّها إليه وبدآ يرقصان، فيما وقف "روبرتو" بجانب دوَّارة الأسطوانات ينظر إليهما بابتسامة مليئة بالحنان والحب فيما يفرقع أصابعه تماشيًا مع الإيقاع.

بعد عددٍ لا يُحصى من اللفات اضطُرَّ "كارلو" إلى التوقف فجأة وبدأ يسعل بقوة لدرجة أنه مال إلى الأمام وواصل السعال وهو يسند يديه على فخذيه. رفع

"روبرتو" إبرة دوَّارة الأسطوانات فتوقفتِ الأسطوانة محدثةً صوتَ صريرٍ خفيف. قالت "أنَّا": "سأذهب لأجلب لك ماءً"، وأسرعتْ نحو المطبخ.

اقترب "روبرتو" من أبيه وأسنده ممسكًا إياه من كتفيه، ولكنَّ "كارلو" واصل السعال بقوة حتى تحوَّل لون وجهه إلى اللون الأرجواني، وتغضَّنت عيناه بشعيرات دموية متكسِّرة. سأل "روبرتو" بنبرة قلقة: "أبي؟ هل أنت بخير؟".

وصلتْ "أنَّا" إلى الغرفة حاملةً كوبًا ممتلئًا بالماء، قرَّبته من فم زوجها وساعدته ليشرب. شرب "كارلو" رشفات قليلة، ثم –بإشارة من يده– جعل زوجته تبعد الكوب عن فمه كما لو أراد أن يخبرها بأنه اكتفى، ثم همهم في النهاية متنهدًا: "زالتِ الغصة".

قالت "أنَّا" كي تُخفِّف من وطأة الاضطراب الذي غمر الغرفة وسيطر عليهم: "لديَّ حق إذن حين قلتُ عنكَ إنكَ مسن".

بالكاد تمكن "كارلو" من أن يبتسم لها ابتسامة خفيفة، ثم توجه من جديد إلى كرسيه وترك جسده يسقط عليه، وحالما استقر في كرسيه أخرج سيجارًا من علبة معدنية صغيرة موضوعة على الطاولة الصغيرة الكائنة إلى جواره، وأشعلها رغم أنه كان لا يزال يعاني ضيقًا في النَّفَس.

منذ عصر ذلك اليوم صار هذا السعال بمنزلة خلفية مستمرة لحياة "كارلو" في ما تلاه من الأسابيع الصيفية الحارة، كما لو كان أسطوانة تدور بلا توقف فوق سطح دوَّارة الأسطوانات. سعل يوم الأحد عندما ذهب إلى البحر، وعندما همَّ بنزول البحر انتابتْه نوبة السعال ذاتها، فاضطُرَّ فجأة إلى العودة إلى الشاطئ كونه شعر بضيقٍ في النَّفَس. انتابته تلك النوبة مرتين خلال اجتماعات البلدية، وفي بعض الأحيان يكون سعاله قويًّا بالقدر الذي يدفعه إلى النهوض ومغادرة الغرفة. كان يسعل حتى فيما يمارس الحب مع "أنَّا". جاءته تلك النوبة مرتين

فاضطُرَّ إلى الابتعاد عن أحضان "أنَّا" والتوقف قائلًا بصوتٍ خافتٍ للغاية: "أعتذر منكِ لا يمكنني المتابعة".

ثم، في أحد الأيام استدعى العمال المشتغلين في كرم "جريكو" "كارلو" لمناقشة الأمر المتعلِّق بأن ذلك العام وبسبب حرارة الجو قد يكون من الأفضل تقديم موعد الحصاد. ذهب "كارلو" إلى الكرم، ولكنه لم ينجح إلا في قول بضع كلمات قبل أن يصاب بنوبة سعالٍ عنيفة للغاية لم يشهدْ مثلها من قبل حتى بدا أنها لن تنتهي أبدًا.

من حسن الحظ كان "دانييليه" موجودًا هناك؛ إذ كان مشغولًا بجمع بضع زجاجات من نبيذ "دونَّا أنَّا" ليبعث بها كهدية إلى السيد "جيمس" –مالك متجر الملابس في "نيويورك"– فعرض حينها على الفور أن يقود هو سيارة "كارلو" ويصطحبه إلى المنزل.

غاص "كارلو" في الكرسي المجاور لكرسي السائق منهكًا من كثرة السعال وأنزل نافذة السيارة. سأله "دانييليه" في قلق: "ماذا بك؟".

أجاب "كارلو": "لا شيء، إن الرطوبة هي السبب في كل هذا".

سأل "دانييليه" من جديد: "وهل ذهبتَ إلى الطبيب؟".

صاح الآخر: "دعكَ من الطبيب فالأمر لا يستحق. المهم، أخبرني هل فكرتَ في العرض الذي عرضتُه عليكَ من قبل؟"، ثم عاد يسعل مرة أخرى.

تردَّد "دانييليه" قبل أن يقرر أن يكذب عليه إذ قال: "نعم، فكَّرتُ في الأمر، ولكنني في الحقيقة لم أتخذ قراري بعد، دعني أخبرك أنني في بعض الأحيان أسأل نفسي أكان هذا العمل هو حقًّا ما أريد الاستمرار فيه".

جالت على وجه "كارلو" علامات الإحباط وخيبة الأمل فتنهَّد وأصيب بنوبة سعالٍ أخرى، وقال: "آه من الشباب".

لطالما أنهكتْ نوباتُ السعال تلك "كارلو"، وجعلته يشعر طَوال الوقت بالتعب والرغبة في النوم. فبعد الغداء كثيرًا ما كان يُخفق في البقاء مستيقظًا،

فيُضْطَرُّ إلى الحصول على قيلولة. أما في المساء فتجده يسقط على الأريكة عقب تناوله العشاء، وكان يتعين على "أنَّا" أن توقظه بعد أن تغلق كل أضواء غرفة المعيشة. وتهمس له: "انهض يا "كارلو"، تعالَ لتنام في غرفة النوم، هيا".

أصرَّت عليه "أنَّا" صباح أحد أيام شهر أغسطس فيما كانا ممددين على بطنيهما على السرير والستائر مسدلة وهذا ما أضفى ظلامًا لطيفًا على الغرفة: "عليك أن تذهب لزيارة الطبيب".

تمتم "كارلو" فيما يداعب بإصبعه منحنى ظهرها قائلًا: "قد يكون الهواء هو السبب؛ أقصد تلك الرياح الحارة التي تصعب عملية التنفس".

قالت "أنَّا": "إن كان هذا هو السبب حقًّا فسيخبرك به الطبيب".

تأفَّف "كارلو" قائلًا: "أنتِ تقلقين بشدة، سيذهب ذلك السعال من تلقاء نفسه بالضبط كما جاء".

صاحت "أنَّا" منزعجة من ذلك العناد والتعنت: "كارلو!".

غمغم "كارلو" ردًّا عليها: "حسنًا، حسنًا سأذهب".

ألحت "أنَّا": "متى؟".

أجاب "كارلو": "في غضون أسبوع".

قالت هي: "لا. غدًا ستذهب".

قرب "كارلو" يده من جبينه وأدَّى التحية العسكرية بجدية، ثم قال ضاحكًا بخفوت: "أجل، أجل يا سيدي، تحت أمرك".

قالت "أنَّا" مبتسمة: "أحمق، أنت حقًّا أحمق".



كان الطبيب رجلًا أصلع له وجهٌ هادئٌ ومريحٌ يبعث على الاطمئنان. جعل "كارلو" يجلس –دون قميص– على سرير الكشف وطلب منه أن يأخذ أنفاسًا عميقةً بفمه فقط. وكلما أخرج "كارلو" نفسًا قال له الطبيب واضعًا سماعته

الطبية في أذنيه: "خذ نفسًا آخر"، وهكذا حتى همهم أخيرًا قائلًا: "ممم"، وأمر "كارلو" بأن يرتدي ملابسه.

جلس إلى مكتبه ووضع نظارته وبدأ يكتب شيئًا ما على ورقة ثم قال وهو يمد له يده بالورقة: "إليك هذه".

أخذها "كارلو" وألقى عليها نظرة سريعة.

شرح له الطبيب: "كتبتُ لك فحصًا بالأشعة السينية عليك أن تخضع له كي نُزيل أي شكوك. اذهب إلى الطبيب "كالوو"، إنه أفضل أطباء "ليتشي". لديه معملٌ ومركزٌ للأشعة في المستشفى الخاصة به، سيستقبلك هناك".

في صباح اليوم التالي خرج "كارلو" من البيت مبكرًا جدًّا.

سألته "أنَّا" قبل أن يغادر فيما تأخذ رشفة من لبنها الدافئ وهي جالسة على مقعدها في الحديقة: "هل أنت متأكد من أنك لا تريدني أن أرافقك؟".

أجاب هو: "لا تقلقي، سأنجز الأمر بسرعة وأعود". وودعها مُقبِّلًا جبينها.

ركب سيارته "الـ1100" وقطع المسافة القصيرة التي تفصله عن بيت أخيه "أنطونيو". ترجَّل من السيارة دون أن يطفئ المحرك تاركًا باب السيارة مفتوحًا، وتوجَّه نحو الباب وطرقه. فتح "أنطونيو" الباب في الحال تقريبًا وكان يرتدي بنطالًا وفانلة بيضاء. قال له "كارلو": "أتتذكر ما قلته لك بالأمس؟ لقد غيَّرتُ رأيي، لا أريد أن أذهب بمفردي".

رد "أنطونيو": "لا، لا طبعًا لا تذهب بمفردك. امنحني فقط دقيقة حيثما أنتهي من ارتداء ملابسي".

في المستشفى، وبعد أن أنهى "كارلو" فحصَ الأشعة السينية، جلس هو وأخوه في غرفة الانتظار. ألقى "كارلو" نظرات متوتِّرة في ما حوله؛ على لون الجدران الأخضر الباهت، وعلى بلاط الأرضية المتكسر، وعلى زجاج النوافذ الكبيرة المعتم، ثم صاح قائلًا: "لطالما بغضتُ المستشفيات، لم ترقْ لي قط". وأضاف وقد

رفع أنفه في ازدراء مُتشمِّمًا رائحة ما: "ثم إن رائحة المطهرات هذه قوية لدرجة أنني أشعر كأنها تصعد إلى رأسي مباشرة".

قال "أنطونيو": "أعتقد أن لا أحدَ يحبها يا "كارليتُّو".

همهم "كارلو" وهو يواصل النظر حوله: "فعلًا". ثم أضاف: "اسمع يا "أنطونيو" ستكتشف بعد قليل أنني لا أعاني أيَّ مرض. سيصف لي الطبيبُ دواءً ما، ربما شرابًا قويًّا، وتنتهي القصة".

ابتسم "أنطونيو" ابتسامةً خفيفةً وردَّ قائلًا: "أنا متأكد من هذا".

أطلَّ الطبيب "كالوو" من باب غرفة الكشف، وكان رجلًا هزيلًا له كتفين محدبتين بعض الشيء ووجه شديد النحول بارز العظام، لكنْ في الوقت ذاته لديه عينان مفعمتان بالنشاط والحيوية، وقال: "هل السيد "كارلو" هنا؟".

نهض "كارلو" و"أنطونيو" معًا في اللحظة ذاتها فابتسم الرجل متسائلًا: "من منكما؟".

أجاب "كارلو" رافعًا يده: "أنا".

قال الطبيب: "حسنًا، تفضَّل. اجلس في الداخل".

قال "أنطونيو": "أريد أن أدخل معه إن أمكن، أنا أخوه الأكبر".

قال الطبيب: "في حالة أن المريض لا يمانع فأنا ليست لديَّ أيُّ مشكلة".

دخل الطبيب في صلب الموضوع مباشرة وأشار إلى نقطة في الأشعة السينية موضحًا له أن لديه بقعة في رئته اليسرى. أمسك "أنطونيو" بإحكام بذراع أخيه الذي ظل محدقًا إلى صورة الأشعة بنظرة لا يمكن تفسيرها.

طمأنه الطبيب قائلًا: "لا تخفْ يا سيد "كارلو"، سنبدأ على الفور بالعلاج الإشعاعي. ليس هناك أي مبرر لاعتقادك بأنك لن تُشفَى".

ركب "كارلو" وأخوه السيارة وبقيا صامتين حتى وصلا إلى "ليتسانيلُّو"،

لكنْ حالما وصلا إلى بوابات البلدة ضغط "كارلو" على دواسة الوقود وانعطف خلال الطريق المؤدي إلى "بيزينيانو".

سأله "أنطونيو": "إلى أين نحن ذاهبان؟".

فقال "كارلو" وعيناه مثبتتان على الطريق ويداه ممسكتان بقوة بعجلة القيادة: "إلى شجرة بلوط "جراندیه ليتشو".

عندما انفتح أمام أعينهما الريف الذي تمتد على جانبيه الجدران الحجرية المرتفعة والذي تبرز وسطه بشكل مهيب شجرة البلوط الضخمة أوقف "كارلو" سيارته على الطريق.

جلس كلاهما على العشب المحترق بفعل حرارة الشمس وأسندا ظهريهما إلى جذع الشجرة الضخم. أغمض "أنطونيو" عينيه وأمسك بيد "كارلو". بقيا صامتين فترةً قصيرةً يداعبهما حفيف أوراق شجرة بلوط "جراندیه ليتشو" التي تُحرِّكها بلطف رياح خفيفة.

فتح "أنطونيو" عينيه من جديد ونظر إلى أعلى، نحو ما شكَّلته فروع الشجرة من نسيجٍ كثيف، فطرح حينها على "كارلو" سؤالًا مبتسمًا ابتسامة صغيرة: "هل تتذكر "نينو"؟".

أجاب "كارلو": "طبعًا أتذكره".

ضحك "أنطونيو" ضحكة مكتومة وقال: "تذكرتُ الآن حينما جئنا به إلى هنا وجعلناه يصعد الشجرة حتى وصل إلى قمتها".

قال "كارلو": "كدت أكسر رقبتي وأنا أحاول استعادته خوفًا من أن أتعرض للضرب على يد أبي".

قال "أنطونيو": "كانت لك أنت وهذا القط الشخصية ذاتها؛ كان "نينو" شقيًّا ومرحًا وحنونًا مثلك. لقد كنتَ في الواقع الشخص المفضل لديه".

قال "كارلو": "هذا ليس صحيحًا، كان يحبنا نحن الاثنين بالقدر ذاته".

قال "أنطونيو": "أجل، ولكنه كان يفضل النوم بجوارك ليلًا".

قال "كارلو": "لأنك تشخر، كنت تشخر فعلًا مذ كنت طفلًا"، ثم ضحك ضحكة مكتومة.

تظاهر "أنطونيو" بالغضب ومازحًا دفع "كارلو" بعيدًا. تمتم "كارلو" مبتسمًا وهو يحدق إلى الأمام مباشرة: "نينو"، ما هذه الأمور التي خطر لك أن تذكرني بها؟".

بقيا صامتيْن بضعَ ثوانٍ وغرق كلٌّ منهما في ذكرياته الخاصة عن ذلك القط المحبوب للغاية وعن تلك الحِقبة التي لم يكونا يفكران خلالها في أي شيء ألبتَّة، وعن تلك السعادة التي كانا ينعمان بها والتي بدت أبديَّة. عاد "كارلو" إلى جدِّيته وسأل أخاه: "سأتعافى يا "أنطونيو"، أليس كذلك؟".

قال "أنطونيو": "طبعًا ستتعافى".

فقال "كارلو": "أنت تقول هذا فقط كي تجعلني أشعر بتحسن".

استدار "أنطونيو" لينظر إليه وقال محاولًا ممازحته: "أنا لا أريد أن أشعر باستسلامك. فالاستسلام لا يناسبك وليس من خصالك، بالعكس كنت لتجد هذا الاستسلام مني أنا"، إلا أن عينيْ "كارلو" ترقرقتا فجأة بالدموع، فصاح "أنطونيو" حالما لاحظ ذلك فيما يهز ذراع أخيه: "أوه! يا للهول!".

أغمض "كارلو" عينيه وترك دمعة تسقط ببطءٍ على وجهه. طوَّق "أنطونيو" بذراعه كتفي "كارلو" وجذبه نحوه ثم قال: "اهدأ!، سنتجاوز الأمر معًا يا "كارليتُّو"، سنتجاوزه معًا".



تعامَلت "أنَّا" –وكما هو متوقع– مع خبر مرض زوجها بطريقتها الخاصة. تماسكتْ ولم تبدُ منزعجةً ولو بقدرٍ قليلٍ حتى أمام "كارلو" بل إنها حالما علمت بالأمر حدقت إلى عينيْ زوجها بنظرة واثقة وقالت: "سيؤتي العلاج بثماره وستكون بخير". ثم شمَّرتْ كميْ فستانها ودخلت المطبخ حيث قَضَت الساعات

المتبقِّية من وقت ما بعد الظهر تصنع الشيء الوحيد الذي لطالما كان وحده قادرًا على تهدِئتها ألا وهو "البيستو". عندما دخلت "چوفانَّا" المطبخ وجدتها منحنية إلى الطاولة تسحق مكونات "البيستو" داخل الهاون بغضبٍ وعنفٍ بالغ. حرَّكت "چوفانَّا" بهدوءٍ وببطءٍ أحد الكراسي، ثم جَلَسَت وبقيت بضعَ ثوانٍ تُراقب وجه "أنَّا" المتوتر وشفتيها المزمومتين وعينيها الحمراوين المبلَّلتين بالدموع.

ثم، ودون أن تتفوه بأي كلمة، أخذت علبة الصنوبر ومرَّرتها لها.



عادت "لورينسا" في بداية شهر سبتمبر من الإجازة التي قضتها برفقة زوجها "تومَّازو" في بلدة "أوترانتو" في واحدة من المساكن الصيفية التي يملِكُها أصهار "تومَّازو" السابقين، وهو البيت نفسه الذي ظل لسنوات يقضي فيه الصيف مع زوجته المتوفاة "چوليا".

ظهرتْ "لورينسا" أمام الباب المفتوح لمكتب أبيها "أنطونيو" مرتديةً طاقمًا نسائيًّا يصل طول تنورَته إلى ركبتيها وربطت شعرها على هيئة كعكة. كان وجهها شاحبًا ووجنتاها غائرتين كأنَّها لم تذهب إلى البحر ولو يومًا واحدًا حتى. رحَّب بها "أنطونيو" معانقًا إياها وقال: "لورينسا!"، لم أكن أعلم أنكِ عدتِ". وأشار إلى الكرسي، وقال: "تعالي، اجلسي هنا". ثم سألها بعدما جلس في الكرسي المقابل: "كيف سارت الإجازة؟".

جلست "لورينسا" وأخذت تنظُر حولها وتمتمت قائلة: "لم آتِ إلى هنا منذ زمن طويل". ثم سألت مشيرة إلى مصباحٍ موجودٍ فوق المكتب: "هل هذا جديد؟".

استدار "أنطونيو" وأجابها: "ليس جديدًا كثيرًا"، وعاد لينظر إلى ابنته. وضع ساقًا على الأخرى وشبك يديه ودعاها إلى التحدث قائلًا بابتسامة: "هيا، احكي لي كيف وجدتِ "أوترانتو".

حدقت "لورينسا" إلى أبيها وقالت: "أنا حاملٌ يا أبي. أنت أول شخصٍ أُخبره بالأمر".

نظر إليها "أنطونيو" في دهشة ثم اندفع معانقًا إياها وقال: "يا له من خبر رائع!".

بقيت "لورينسا" جامدةً بلا حَراك ولم تبادله العناق، فتحرك أبوها مبتعدًا عنها وسألها: "ماذا هناك؟ لا تبدين سعيدة".

قالت "لورينسا": "نعم، لا، أقصد نعم أنا سعيدة".

سألها الآخر: "لماذا إذن هذا الوجه العابس؟".

أجابت "لورينسا": "لا شيء يا أبي. كل شيءٍ على ما يرام، أنا فقط متعبة قليلًا".

صاح "أنطونيو" وهو يعاود الجلوس على كرسيه: "ستُجنُّ "أجاتا" من السعادة عندما تعلم بهذا الخبر".

قالت "لورينسا": "أتخيل ذلك فعلًا".

ابتسمتْ "لورينسا" نصف ابتسامة تفتقر إلى أي علامة تدل على السعادة. علقتْ فيما تنهض من الكرسي: "نعم، هي تستحق القليل من السعادة".

سألها أبوها متعجبًا قليلًا: "هل ستغادرين في الحال؟ لقد وصلتِ لتوكِ".

قالت "لورينسا": "سأذهب لأخبر أمي بالأمر".

قال "أنطونيو": "انتظري، سأرافقكِ. سنخبرها معًا".

قالت "لورينسا": "لا، شكرًا يا أبي. أريد أن أخبرها بهذا الأمر وحدي".

خرجت "لورينسا" من معصرة الزيتون ووصلت إلى التقاطع الذي كان عليها أن تنعَطِف منه يمينًا، ثم تواصل سيرها خلال شارع "چوزيبيه جاريبالدي" وهو بدوره الشارع الذي حالما يلتقي التقاطعَ يصبح شارع "بالاديني"، وهو الشارع الذي يقع فيه بيت والديها. نظرت "لورينسا" إلى اليمين دقيقةً، ثم سلكت الشارع الواقع على اليسار الذي يؤدي إلى بيت "دانييليه".



21
أبريل – مايو 1949

في ذلك اليوم فتح "دانييليه" الباب وظلَّ ينظرُ بمزيجٍ من الدهشة والانزعاج إلى "لورينسا" التي وقفتْ على عتبته. لم يتجرَّأ "دانييليه" خلال كل تلك الشهور منذ عودته من أمريكا على الاقتراب منها كونه أجبر نفسه على ألا يتدخَّل في حياتها، وأن يحترم حالتها الاجتماعية ووضعها الجديد كونها امرأة متزوجة "يحظر لمسها" أو الاقتراب منها. فكَّر حينها أن "لورينسا" اختارت طريقها وأنه لم يعد بإمكانه أن يفعل أي شيءٍ حيال الأمر. حتى في تلك اللحظة التي وجدها فيها أخيرًا أمامه، تَقِف على بعد شبرٍ منه، تراجع خطوة كما لو كان خائفًا. سألته "لورينسا" بصوتٍ مشروخ: "ألن تدعني أدخل؟".

أجاب هو: "لا أعرف. يجب ألا تكوني هنا".

قالت "لورينسا" متوسِّلة: "من فضلك"، ثم انفجرت بعدها بلحظة في البكاء وغطَّت وجهها بيديها.

هكذا تركها "دانييليه" تدخل إلى بيته وجعلها تجلس على الأريكة وأحضر لها كوبًا من الماء. تمتم لها قائلًا: "هيا، أهدئي". ثم جلس على ذراع الأريكة باذلًا جُهْده كي يحافظ على مسافة بينهما. حالما وضعتْ "لورينسا" الكوب الفارغ على الطاولة سألها "دانييليه" أخيرًا: "هل تشعرين أنكِ أفضل حالًا الآن؟". أومأت "لورينسا" بوهنٍ ثم رفعت نظرها وأخذت تحدق إليه بعينيها المنتفختين من فرط البكاء. سألها "دانييليه": "ما الذي أتى بكِ إلى هنا؟".

اقتربتْ منه "لورينسا" ووضعت يدها على خده مداعبة إياه وبعدها على الفور قبَّلته. لم يحاول "دانييليه" أن يوقفها أو يبتعد عنها، بل ردَّ لها القبلة مستسلمًا لرغبتيهما ونسي فجأة في تلك اللحظة كل شيءٍ سوى "لورينسا". خلع كلٌّ منهما ملابس الآخر دون أن يتوقَّفا عن تبادل القبلات. تمدَّد "دانييليه" بجسده العاري فوق "لورينسا" ومارسا الحب لأول مرة على الأريكة ذاتها التي كانا جالسان عليها. وبعدما ظلا متعانقين وهما عاريان مدةً طويلةً يغمرهما شعورٌ بالسعادة، ولأنهما لم يكونا قد ارتضيا أو اكتفيا بعد من المرة الأولى مارسا الحب مرة أخرى. وعندما انتهيا هَمَس لها "دانييليه" فيما يُمسِّد شعرها: "هكذا كان يجب للأمور أن تسير لو كنتِ فقط وثقتِ بي".

قالت "لورينسا": "كنت غاضبةً للغاية، وانتابني خوف. خوفٌ من أن أبقى وحدي إلى الأبد، خوفٌ من ألا تعود أبدًا".

وضع "دانييليه" شفتيه على جبين "لورينسا" وقال لها: "أعلم ذلك".

أضافتْ "لورينسا" بنبرة بها شيءٌ من المرارة: "أتدري ما المضحك في الأمر؟ إنني لم أشعر من قبل بتلك الوَحْدَة التي أشعر بها منذ تزوَّجت، الذنب ليس ذنب "تومَّازو"؛ فهو رجلٌ حنونٌ جدًّا ومُحَبٌّ جدًّا، ولكنه حين يلمسني أشعر برغبة في الصراخ". ثم اعترفتْ له بعد ذلك على الفور بأنها تنتظر مولودًا وأضافت أن هذا هو أسوأ شيءٍ يمكن أن يحدث لها.

أبعدها "دانييليه" عنه واعتدل جالسًا على الأريكة مشعث الشعر ويداه متشابكتان في بعضهما وقد ركَّز نظره على الأرض.

خفضت "لورينسا" هي الأخرى عينيها وسألته متنهدة: "هل أنت غاضب؟".

مرَّر "دانييليه" يده بين شعره ونهض فجأة. ملأ كوبًا من الماء وشرِبَه فيما هو متكئٌ على حوض المطبخ، في حين كانت "لورينسا" تحدِّق إليه. أجاب "دانييليه" في النهاية بصوتٍ خافتٍ: "لا، أنا لست غاضبًا، بل أشعر بالأسف من أجلك ومن أجل هذه التعاسة التي تشعرين بها".

منذ ذلك اليوم لم يتوقَّف "دانييليه" و"لورينسا" عن الالتقاء سرًّا وفي الخفاء. وعندما حلَّ الخريف بدأ "دانييليه" يَبحَث عن شقة صغيرة في "ليتشي"؛ تكون مناسبة ليؤسِّس مشغله الخاص وحيث يمكنه أخيرًا أن يلتقي "لورينسا" بعيدًا عن أعين سكان البلدة. لم يَكُن من السهل بالنسبة إليه العثور على مبتغاه، فالشقق التي رآها إما لم تَكُن تتوفَّر فيها الإضاءة المناسبة لطبيعة عمله، أو كانت رطبة للغاية، أو متداعية بشدة لدرجة أنها ستحتاج إلى تجديدٍ شاملٍ، وهو لم يكن لديه من المال ما يسمح له بذلك. في النهاية، عثر "دانييليه" مصادفة على منزلٍ صغيرٍ غير مأهول، مكوَّن من ثلاث غرف ونوافذ كبيرة، في شارع "سانتا ماريا ديل باراديسو"، وهو زُقاق يقع في مِنْطَقة "ليه چيرافولتيه"، على بعد خطوات قليلة من "بورتا روديايي".

شرح له شابٌّ في مثل عمره تقريبًا قائلًا: "كان أجدادي يعيشون هنا، أنا طبعًا لا أستخدم هذا البيت إذ لدي فعلًا مكانٌ آخر لأسكن فيه". وهكذا اتفق الاثنان – على الأقل في الوقت الراهن– على توقيع عقدٍ بإيجارٍ سنوي ثابت.

عندما كان "تومَّازو" يقضي أوقات ما بعد الظهيرة في مكتب البريد، كانت "لورينسا" تتسلل إلى الخارج وتستقل الحافلة المتجهة إلى "ليتشي". فمع أنَّ الحمل أخذ بعض قوتها، فإنها أرادت مساعدة "دانييليه" وأن تكون جزءًا من حلمه منذ اللحظات الأولى لمولده. لذا تولَّت "لورينسا" تنظيف أرضية الشقة وإزالة الشحوم من زجاج النوافذ وتلميع الأبواب. وعندما أحضَرَ "دانييليه" بفضل شاحنة صغيرة يملِكُها أحد أصدقائه ماكينة "سينجر" للخياطة وما سيحتاج إليه من أنسجة وكل الأدوات اللازمة للعمل، اهتمت هي بالأمر ورتَّبت كل شيء ووضعته في مكانه الصحيح.

سألته "لورينسا" فيما كانت تُرتِّب الأقمشة في طبقات مقسِّمة إياها حسب درجات الألوان: "وماذا عن الصندوق الذي تحتفظ فيه بدفاترك؟".

أجابها هو: "لم يعدْ موجودًا". وحكى لها حينئذٍ عن النقاش الذي دار بينه وبين أمه بشأن التصميمات التي سرقتها ونفَّذتها، وكيف كان شعوره عندما علم بأمر اغتصابها حقوقه وتعديها على خصوصيته عندما علم بالأمر، وعن قدرة "كارميلا" في أن تكون شخصية لئيمة ووضيعة. ثم قال بحزن: "لقد اعتدتُ مثل هذه الأمور، فهي لن تتغير أبدًا". ثم أضاف بعدها وهو يهزُّ رأسه: "ولكنني لم أعد أرغب في التفكير فيها وفي ما فعلته، أقصد أنني أعتزم تصميم خطٍّ جديدٍّ من الموضة، سيكون أكثر حداثة، وسأكون قادرًا على إنتاج ما يلبِّي أذواق السيدات واحتياجاتهم في "نيويورك".

أومأت له "لورينسا" وقد بَدَت آسفة لما قاله أولًا، ثم علَّقت بقدرٍ مبالغٍ فيه من الحماس قائلة: "هدفٌ رائعٌ ذلك الذي تسعى لتحقيقه، وأنا متأكدة من أنك ستُدهش الجميع".

في الحقيقة شعرت "لورينسا" فجأة بالذنب إذ تذكرت ذلك المساء يوم عيد ميلاد عمها "كارلو"، وأدركت أن ظنها كان في محله عندما بدا لها أن الفستان الذي ارتدته "كارميلا" في الحفل كان واحدًا من تصميمات "دانييليه"، إلا أنها حينئذٍ أبعدت ذلك الشك عن رأسها ولم تحقق في الأمر أكثر من ذلك في ما بعد.

فكَّرت "لورينسا" أنها ربما تعيَّن عليها أن تفعل ذلك؛ كان عليها أن تذهب مباشرة إلى "كارميلا" وتستفسر منها عن الأمر، لكنْ على أي حال ما الفائدة من الخوض في تلك المحادثة الآن؟ بل والأهم من ذلك لماذا تحكي لـ"دانييليه" عن الأمر بعد كل هذا الوقت، وخاصة الآن بعدما عادت علاقتهما لسابق عهدها؟

لا فائدة حقًّا من هذا، ولذلك قررت "لورينسا" أن تصمت وألا تخبره بأي شيء. قال "دانييليه" فيما ينظر إلى الشقة من حوله: "تنقصني الطاولة والمرآة وبعض الأرائك الصغيرة ومشجب لتعليق الشماعات".

أضافت هي: "يجب أن توصي أحدهم بأن ينفِّذ لك لافتة للمشغل. في الحقيقة يسعدني أن أهديكَ إياها، لذا سأهتم أنا بأمر اللافتة".

نظر إليها مبتسمًا وقال: "شكرًا لكِ، أنتِ أغلى إنسان في حياتي".

اقتربتْ منه وداعبتْ رأسه أولًا ثم بطنها وقالت: "أتدري ماذا كانت لتكون أعظم أمنياتي؟ أن يكون هذا هو ابنك أنت".

عانقها "دانييليه" بقوة وهمس في أذنها قائلًا: "كنت لأرغب أنا أيضًا في ذلك".



وضعت "لورينسا" مولودتها "چادا" في المنزل يوم 18 أبريل بعد مرحلة مخاض دامت أربع عشرة ساعة، فيما كانت أسرتها تنتظرها خلف باب الغرفة، باستثناء "أجاتا" التي ظلت بجوار ابنتها طَوال الوقت، ممسكة بيدها، في حين تأمر القابلة "لورينسا" أن تحاول الدفع. كان "تومَّازو" يجلس وينهض باستمرار إذ لم يكن قادرًا على البقاء ساكنًا، وكان "أنطونيو" يضع يده على كتفه ويكرِّر له قائلًا: "كل شيءٍ سيسير على ما يرام، سترى. من الأفضل أن تتناول شيئًا ما".

أما "أنَّا" و"چوفانَّا" فكانتا في المطبخ مشغولتين ما بين إعداد خبز "الفريزيلَّا " المحمص بالطماطم والبردقوش، وتلبية طلبات القابلة التي كانت تحتاج إلى المزيد من المناشف النظيفة والماء المغلي.

في لحظة ما وصل "كارلو" أيضًا، ولكنه لم يبقَ إلا بضع دقائق قبل أن يقول بنبرة اعتذار وقد كان وجهه الممتلئ بهالات مائلة للحمرة بدا عليه التعب: "يجب أن أذهب لأستريح". فرافقه "روبرتو" إلى البيت مسندًا إياه من ذراعه.

صاح "تومَّازو" حينها بعينين تنضحان بالفرحة والبهجة قائلًا: "إنها بنت!"، ثم أضاف وهو يلمس اليدين الصغيرتين لابنته: "كنت أتمنى بشدة أن تكون أنثى. ها هي أميرتي الصغيرة".

نامت "لورينسا" مرهقةً بعدما أنهكتها ساعات المخاض الطويلة. أخرجت "أجاتا" الجميع من الغرفة ووضعتِ الطفلة في المهد، ثم أغلقتِ الستائر وجلست بجوار سرير "لورينسا". من حين إلى آخر كانت تمسح جبين ابنتها الذي يتصبَّب

عرقًا بالمنديل، وتُرطِّب شفتيها بقليلٍ من الماء، أو تنهض لإلقاء نظرة خاطفة على الفتاة الصغيرة محاولة ألا تثير أي ضجيجٍ.

عندما استيقظتْ "چادا" وبدأت تئنُّ من الجوع حملتها "أجاتا" بين ذراعيها وهدهدتها بضعَ لحظات وهمست مبتسمة: "حبيبة جدتها". فتحت "أجاتا" بعدها الستائر قليلًا، ثم انحنت فوق "لورينسا" وقالت: "الطفلة يجب أن تأكل".

عبست "لورينسا" وتذمَّرت قائلة بعينين مغمضتين: "أحتاج إلى النوم قليلًا".

فقالت "أجاتا": "أرضعيها أولًا ثم عودي إلى النوم".

اعتدلتْ "لورينسا" جالسة على السرير متأفِّفة، ومرَّرت لها "أجاتا" الطفلة. تبيَّن لها أن المرة الأولى في الرضاعة بمنزلة عذابٍ حقيقيٍّ، لذا لم تكن "لورينسا" تفعل شيئًا سوى أنها تشتكي متألمة بوجهٍ ملتوٍ ومتشنجٍ مكررة: "آه".

فقالت لها أمها التي جلست إلى جوارها على السرير مطمئنة إياها: "تحلي بالصبر! المرة الأولى فقط تسير على هذا النحو، ثم يكون الأمر سهلًا في ما بعد ويزول الألم".

أصرت "لورينسا": "ولكنه مؤلم"، وأبعدت الطفلة عنها. لم يتحسَّن الأمر في الأيام التالية، بل ازداد سوءًا. لم تكن "چادا" تفعل أي شيءٍ سوى البكاء والصراخ صباحًا ومساءً. كانت "لورينسا" تحملها غاضبة بين ذراعيها وتهدهدها بقوة، لكنْ يبدو أن هذا كان يجعلها تتعذَّب وتعاني أكثر.

كانت "لورينسا" تكرر على مسامع زوجها وهي على مشارف البكاء: "لا أعرف كيف أجعلها تكفُّ عن البكاء. إنها تقودني إلى الجنون".

كان "تومَّازو" وقتئذٍ ينهض من السرير ويقول لها: "أعطني إياها، سأحاول أن أهدئها".

فتقول "لورينسا" باندفاع: "كيف لك أن تُهدِّئها؟"، ثم تتابع أرجحتها بغضب. فيجيبها "تومَّازو" مكررًا بهدوء: "دعيني أحاول".

في كل مرة وحالما يحملها "تومَّازو" بين ذراعيه تتوقف فجأة عن البكاء، فتتنفس "لورينسا" الصُّعداء وتقول متنهدة: "نحمد الرب".

وبَّختها أمها "أجاتا" ذات يوم قائلة: "لكنْ لا يمكن للأمر أن يسير على هذا النحو يا ابنتي". كانت تصل مبكرًا كل صباح لتريح "تومَّازو" وتحمل عنه الطفلة. واصلت "أجاتا" حديثها لابنتها: "إن الأطفال يشعرون.. يشعرون بكل ما بداخلك، وأنتِ لا تحملين بداخلكِ الآن سوى ما يسمِّم حياتك وحياتها".

لم ترَ "لورينسا" "دانييليه" منذ اليوم السابق لولادتها، وهو ما يجعلها تشعر بأنها ستُجن. كانت تنظر إلى طفلتها ولا تتمكَّن من أن تشعر تجاهها ولا حتى بقدرٍ قليلٍ من الحب أو الحنان، بل إن الطفلة -وبدلًا من ذلك- كانت تجسِّد الألم المصاحب لكل مرةٍ تُرضِعها فيها، ولليالي الطوال التي تقضيها بسببها بلا نوم، وللتعب الأزلي الناجم عن كل هذا، وللبكاء الحاد الذي يجعلها ترغب في الهروب.

لمن يمكنها أن تقول هذا؟ لا أحد سيفهمها، سيشعر الجميع باستياء مما تقوله، سيحكمون عليها بالجنون، سيقولون إن بداخلها خللًا ما.

كانت "أنَّا" تذهب يوميًّا لزيارتها حالما تأخذ راحة من عملها. تداعب وجه الطفلة الصغيرة، وتُبعد عن جبينها خصلات الشعر القصيرة، ثم تجلس بالقرب من "لورينسا". قالت لها "أنَّا" يومًا: "وجهك يشي بأنكِ لستِ في حالٍ جيدةٍ يا صغيرتي".

أجابتها "لورينسا" بفظاظة وجفاف: "شكرًا، أرى ذلك فعلًا".

سألتها "أنَّا": "هل تريدين أن تتحدثي قليلًا؟"

قالت "لورينسا" بتهكم: "وعمَّ تريدين مني أن أتحدث؟ كما ترين، ليس لدي مؤخرًا الكثير لأتحدث عنه".

استدارت "أنَّا" ببطءٍ نحو المهد ونظرت إلى الطفلة التي كانت نائمة بهدوء وقالت: "حسنًا، لا يبدو لي الأمر كذلك".

فقالت "لورينسا": "الحقيقة أنني أخطأتُ في كل شيءٍ يا عمة".

فعلقت "أنَّا": "لديكِ طفلة رائعة تتمتع بصحة جيدة، لا يبدو لي أنكِ أخطأت في كل شيءٍ كما تقولين، ألا تعتقدين ذلك؟".

لاح على وجه "لورينسا" حينئذٍ تعبيرٌ غاضبٌ، وحاولت أن تتكلم: "أنا..." ولكنها توقفت ولم تكمل. حثتها "أنَّا" على المتابعة فقالت: "أنتِ ماذا؟ أكملي من فضلكِ".

تنهدت "لورينسا" ونهضتْ من سريرها وذهبت لتتطلع من النافذة وقالت دون أن تستدير ناحية "أنَّا": "أنا لا أستطيع أن أحبها، أتطلع إليها ولا أشعر نحوها بأي شيء. في بعض الأحيان" توقفت لحظةً ثم تابعت: "في بعض الأحيان أتمنى لو لم تكن موجودة، كنت لأكون حرة حينها".

نزلتْ دمعة من عينها وسالت على خدها. تأهَّبت "أنَّا" لتنهض من كرسيها ولتقترب منها، ولكنَّ هناك شيئًا ما منعها. مسحت "لورينسا" وجهها براحتها ثم استدارت نحو "أنَّا" وقالت: "لا تقولي شيئًا. أنا أعرف أنكِ تعتقدين أنني وحش".

نظرتْ إليها الأخرى بحزن وتساءلت في نفسها: "أين ذهبتْ تلك الصبية الصغيرة السعيدة المفعمة بالحياة التي كانت تركض نحوها حالما تراها؛ تلك الصبية الطيبة اللطيفة التي كانت تتصرف بحماسة طَوال الوقت؟". أجابتها "أنَّا" بصوت أجش: "لم أفكِّر في ذلك مطلقًا، بل كنت أتذكركِ عندما كنتِ طفلة".

قاطعتها "لورينسا": "لم أعد طفلة منذ بعض الوقت".

قالت "أنَّا": "نعم، أعرف هذا".

ابتعدت "لورينسا" عن النافذة وذهبت ببطءٍ لتجلس مرة أخرى في مواجهة زوجة عمها وهمهمت قائلة: "لم أقابل "دانييليه" منذ أسبوعين".

اتسعتْ عينا "أنَّا" وحاولت أن تقول شيئًا ما، لكنَّ "لورينسا" أوقفتها من جديد وقالت هي عوضًا: "نعم، أعرف أنكِ أخبرتِني بذلك، أنكِ حذرتِني. لقد سارتِ الأمور كما توقَّعتِ لها أن تكون. هل أنتِ سعيدة هكذا؟".

همست "أنَّا": "لا، أبدًا".

رفعت "لورينسا" نظرها نحوها ومدَّت لها يدها وقالت: "أعتذر منكِ يا عمة. أنا متعبة"، ثم أضافت: "أنا آسفة. فالذنب ليس ذنبكِ".

مدت إليها "أنَّا" يدها بدورها وصافحتها. لقد آلمتها حقًّا رؤيتها في تلك الحالة؛ وقد صارت ضحية نفسها وخِياراتها السيئة. شعرت نحوها بقدرٍ كبيرٍ من الشفقة عندما تخيَّلتها وهي تنام كل ليلة في السرير ذاته إلى جوار رجلٍ لا تحبه، وشعرت بأسفٍ شديدٍ عندما عرفتْ أنها لا تشعر بسعادة حقيقية إلا في الساعات القليلة التي تسرقها من حياتها مع زوجها وابنتها، لتقضيها في حبها غير المشروع لـ"دانييليه". قالت "أنَّا" حينئذٍ: "يوجد شيءٌ ما يمكنني فعله من أجلكِ إذا أردتِ. سأجعله يأتي في ما بعد ظهر الغد إلى بيتي. هكذا يمكنكما البقاء معًا بعضَ الوقت دون أن تتعرَّضا لأي إزعاج من أحد، ثم إن بإمكانك العودة من هناك في غضون دقائق قليلة إذا احتاجت إليكِ طفلتكِ. على أي حال ستكون "أجاتا" برفقة الطفلة في ذلك الوقت من اليوم، أليس كذلك؟ سأبتكر حجةً حتى تأتي إلى بيتي وأخبر بها أمكِ، لا تقلقي! سأخبرها بأنكِ بحاجة إلى أن تسترخي ساعتين، أو أنني يجب أن أقصَّ لكِ شعركِ أو أي شيءٍ من هذا القبيل. وبالنسبة إلى عمكِ فلن يكون في البيت طَوال وقت ما بعد الظهيرة"، ثم أشارت بعدم اكتراث قائلة: "إذ يجب أن يفتتح تلك المِنْطَقة التِّجارية الجديدة". أضافت كذلك: "أما "روبرتو" فسيرافق أباه ولن يتبقَّى في البيت سوى "چوفانَّا" وأنتِ تعرفين أنه يمكنكِ الوثوق بها".

اندفعت "لورينسا" لمعانقتها وقالت وقد تورَّد وجهها فجأة: "يا إلهي! هل حقًّا ستفعلين هذا من أجلي يا عمة؟".

مسَّدت "أنَّا" شعرها وقالت: "إن كان هذا سيجعلكِ تبتسمين بهذه الطريقة فنعم يا صغيرتي سأفعله".



بعد ظهر اليوم التالي، وصل "دانييليه" إلى منزل "أنَّا" تسيطر عليه أقصى درجات التوتر. طرق الباب وقلبه ينبض بسرعة ويعاني ضيقًا في التنفس.

فتحت له "أنَّا" واستقبلته بابتسامة وقالت: "تعالَ! استرحْ في الصالون، ستصل "لورينسا" في غضون دقائق. هل أحضر لك فنجانًا من القهوة أو كوبًا من الماء؟ أخبرني بأي شيء تحتاج إليه".

تقدَّم "دانييليه" في حرج وجلس على الأريكة التي أشارت "أنَّا" إليها ثم همهم: "نعم، ربما قليل من الماء، شكرًا لكِ".

ابتعدت "أنَّا" صوب المطبخ وظلَّ "دانييليه" ينظر حوله حيث المدفأة الكبيرة واللوحات المعلقة على الجدران والخزانة الصغيرة التي يعلوها الراديو ودوارة الأسطوانات. أذهله خلو البيت من الحليات الصغيرة والتحف زهيدة القيمة والزخارف التي تعج بها في العادة بقية البيوت، ثم قال لنفسه عندما لاحظ دمية من الورق المعجن موضوعة على رف الموقد: "لا لا هناك شيء ما". نهض "دانييليه" واقترب من الدمية كي يراها بشكل أفضل. تبيَّن له أنها سيدة ترتدي فستانًا أبيض، وتقبض على سلة من التفاح الأحمر الغَضِّ، ولديها تشقق صغير في أحد جانبي وجهها.

عادت "أنَّا" حاملةً كوب الماء بين يديها وسألته مشيرة إلى الدمية: "جميلة، أليس كذلك؟"، وتابعت مفسِّرة: "لقد اشتريتها بعد شهرين من وصولي إلى البلدة. كان الصبي المسؤول عن البيع في الكشك الذي اشتريتها منه يخبِّئها خلف صفوفٍ من الدمى وهذا الشق في وجه الدمية هو فقط ما كان يميِّزها عن غيرها. لم أخشَ يومًا أن أبدو مختلفة عن الآخرين، لذا فأنا لا أزال أحتفظ بهذه الدمية هنا بعد كل هذه السنوات".

ابتسم "دانييليه" نصف ابتسامة. قدَّمت له "أنَّا" الكوب وقالت: "تفضل". أخذها منها "دانييليه" وشربها كلها دفعة واحدة.

جلست "أنَّا" على الأريكة وربَّتت مرتين المكانَ الخاليَ بجوارها وقالت له: "تعالَ!". جلس "دانييليه" بالقرب منها وظلَّ ممسكًا بالكوب الفارغ بين يديه. أضافت هي:

"أتدري أنني سعيدة بأنك هنا؟ فمنذ وقت طويل وأنا أريد تعرُّفك والتحدُّث معكَ قليلًا. غريبٌ هذا، أليس كذلك؟ "كارلو" و"لورينسا"، أقصد أن بيننا شخصين مشتركين يمثِّلان لكلينا أهمية كبيرة جدًّا، إلا أننا لم تسنح لنا الفرصة قطُّ لنتكلم ونُثرثِر معًا".

بدا أن وجه "دانييليه" قد استرخى على الفور حالما استمع لكلمات "أنَّا"، وابتسم وهو يضع الكوب على الطاولة الصغيرة وقال: "هذا غريبٌ فعلًا". ثم أضاف ضاحكًا ضحكةً خافتةً: "لقد ذكرتُ اسمكِ في حياتي أكثر مما ذكرتُ اسمي أنا شخصيًا؛ فكلمتيْ "دونَّا أنَّا"، هما أكثر كَلِمتين نطقتُ بهما طَوال حياتي". ضحكتْ "أنَّا" هي الأخرى. تابع "دانييليه" قائلًا: "لا أعرف كيف أشكركِ على استقبالكِ إياي اليوم، عندما جئتِ إلى منزلي بالأمس، حسنًا، دعيني أخبركِ أنني انتابني خوفٌ شديدٌ من أنكِ تريدين توبيخي. أنا.. أقصد، لم أكن لأرغب في أن تكون لديكِ فكرة سيئة عني. أنا أحب "لورينسا" حقًّا وهي أيضًا تحبني و...".

توقف "دانييليه" وخفض نظره فتابعت "أنَّا" بلطف: "وأنك كنت تحبها قبل أن يتعرَّفها "تومَّازو" ويتزوجها، أليس هذا ما كنت تود أن تقوله؟".

رفع "دانييليه" عينيه ونظر إليها بتقدير وقال: "نعم، شيءٌ من هذا القبيل".

في تلك اللحظة سُمِعَ طرق على الباب.

قالت "أنَّا": "ها هي ذي"، وذهبت لتفتح الباب. نهض "دانييليه" مثبِّتًا عينيه على مدخل البيت. دخلت "لورينسا" لاهثة وفي عينيها نظرة جزعة. ركضت ناحية "دانييليه" وعانقته. ضمَّها هو بقوة ودس رأسه بين شعرها.

توجَّهت "أنَّا" إلى المطبخ وأغلقت الباب بهدوء ولحقت بـ"چوفانَّا" التي حالما عرفت بوصول "دانييليه" انسحبتْ إلى الحديقة.

وبعد نصف ساعة من وصول "لورينسا" سُمع صوت مفتاح يدور في قفل الباب الرئيسي للبيت. أسرعت "أنَّا" وفتحت باب المطبخ ولحقت بها "چوفانَّا" كما نهض "دانييليه" و"لورينسا" عن الأريكة وقد بدا عليهما القلق.

عند الباب وجدوا جميعًا "روبرتو" يحمل "كارلو" من ذراعه. ركضت نحوهما "أنَّا" متسائلة: "ماذا حدث؟"، وساعدت "روبرتو" على حمل أبيه الذي كان واضحًا أنه لا يستطيع الوقوف على قدميه بمفرده.

ذهب "دانييليه" ليقدِّم العون لكليهما، وجعلوه ثلاثتهم يستلقي على الأريكة. لاح على وجه "كارلو" قدرًا من المعاناة العميقة. لم تره "أنَّا" على هذه الحال من قبل، فانحنت فوقه ونادته: "كارلو، ماذا بك؟ ماذا حدث لك؟".

سعل "كارلو" وانزوى على أحد جانبيه. شرح "روبرتو" بصوتٍ يملأه الخوف: "شعر فجأة أنه ليس على ما يرام".

ركع "دانييليه" بجانب الأريكة. فتح "كارلو" عينيه على اتساعهما كأنَّه قد انتبه لوجود "دانييليه" فقط في تلك اللحظة، وهمس قائلًا: "وابني..."، ثم نقل نظره نحو "لورينسا" التي بقيت بلا حَراك غير قادرة على أن تفعل أو تقول أي شيء. أغمض "كارلو" عينيه فجأة ولوى قسمات وجهه في غمٍّ وكآبة ينتميان إلى شخصٍ أدرك فعلًا ما يجري حوله.

شرح "روبرتو" أنه أُصيب بنوبة سعالٍ أقوي من كل ما سبقها. كان على وشك أن يقصَّ الشريط ليفتتح مِنْطَقة السوق التِّجاري عندما شحب وجهه فجأة كالليمون ونالت منه نوبة سعال عميقة ومؤلمة لم يسبق لها مثيل من قبل؛ التفَّ جميع الحضور حوله، هناك من أسنده وآخر سدَّد له عدة ضربات على ظهره وآخر أخذ يصرخ قائلًا: "هو لا يتنفس!"، وظل "كارلو" متشبثًا بابنه حتى بصق –مع السعلة التي لا يعرف أحد عددها– كتلة ضخمة من الدماء.

قالت "أنَّا" لابنها: "اذهب واستدعِ عمك "أنطونيو"، سنحمله على الفور إلى المستشفى".

عرضت "لورينسا": "سأذهب أنا إلى أبي"، لكن قبل أن تغادر نظرت إلى "دانييليه" بعينين محبطتين مليئتين بالرغبة، وأومأت برأسها وكأنها تقول له: "هل لنا أن نلتقي غدًا؟".

ساعدت "أنَّا" و"أنطونيو" "كارلو" على الجلوس في المقعد الخلفي لسيارة "فيات 508"، ثم قاد "أنطونيو" السيارة واتجه مباشرة إلى المستشفى.



ظلَّ الدكتور "كالوو" يفحص "كارلو" أكثرَ من ساعة.

لم يكنْ بوسع "أنَّا" و"أنطونيو" فعل أي شيءٍ سوى الانتظار، والجلوس على الكراسي غير المريحة في غرفة الانتظار. كانت "أنَّا" تسند رأسها إلى الحائط من خلفها، فيما كان "أنطونيو" منحنيًا إلى الأمام، ساندًا مرفقيه على ركبتيه.

ألقت "أنَّا" نظرة إلى ساعتها وسألته: "كم من الوقت سيستغرق الفحص؟".

نظر "أنطونيو" إليها وأجاب: "لا أعرف، أنا حقًّا لا أعرف".

تابعت "أنَّا" قائلة: "لم ينزف من قبل قط". أومأ أنطونيو برأسه، ثم عاد لينظر أمامه مباشرة وبدأ ينقر بمقدمة حذائه الأرضَ.

مرَّرت "أنَّا" يديها بين شعرها وهي تتنهَّد بصوتٍ عالٍ، ثم قالت: "أنا خائفة يا "أنطونيو". وأضافت بصوتٍ مرتجفٍ: "أكاد أموت هلعًا".

تردد "أنطونيو" قبل أن يضع يده على ساقها فأمسكت هي بيده بقوة إلى درجة أن أظفارها التي غرزتها في يده تركت أثرًا واضحًا، فتمتم هو قائلًا: "وأنا أيضًا".

فُتح باب العيادة وخرج "كارلو" أولًا يليه الطبيب وقد اعتلى وجه كليهما كآبة وحزن من يحمل أخبارًا سيئة. انتصب "أنطونيو" و"أنَّا" واقفين على أقدامهما فور خروج الاثنين. حدق إليهما "كارلو" بأكثر نظرة محبطة رأياها في عينيه طَوال حياته، ثم تقدم بضع خطوات ودون أن ينبس ببنت شفة فتح ذراعيه وضمهما إليه.



في بداية شهر مايو أخرجت "أنَّا" ملابسها وملابس "كارلو" الربيعية والصيفية من سحَّارة الملابس، ثم أفرغت الخزانات من الملابس الشَّتْوية ووضعتها في السحَّارة مكان الملابس الربيعية. وجمعت في النهاية كل معاطف "كارلو" الخفيفة وبناطيله القطنية الجديدة وقمصانه ووضعتها في حقيبة كبيرة.

ألقت نظرة على حجرة النوم لتتأكد من أن "كارلو" لا يزال نائمًا، وعندما سمعته يشخر أغلقت الباب، وانطلقت نحو الدرج، وقالت لابنها "روبرتو": "أنا ذاهبة إلى الخيَّاطة. هل تبقى أنت مع أبيك؟".

رفع "روبرتو" عينيه عن نسخة بالية من مسرحية "روميو وچولييت" إذ اختير ليؤدي دور "روميو" في المسرحية التي ستُعرض في نهاية العام الدراسي، لذلك كان يوميًّا وحالما يُنهي واجباته المدرسية يقضي ساعاتٍ وساعاتٍ في قراءة المشاهد الخاصة به وحفظها. وفي بعض الأحيان كان يصعد إلى غرفة والديه ويستلقي على السرير بجوار "كارلو"، ويبقى معه ليؤنسه وفي الأثناء يقرأ عليه الجمل التي سيقولها في المسرحية.

أجاب "روبرتو": "نعم، طبعًا، لا تقلقي".

وضعت "أنَّا" الحقيبة على كتفيها وسلكت الطريق المؤدي إلى محل الخياطة.

عندما فتحت "كارميلا" الباب، حدقتِ المرأتان إلى بعضهما بضعَ ثوانٍ. أدركتْ "أنَّا" من النظرة الحزينة التي رمقتها بها الخياطة أنها علمت كل شيءٍ عن أمر "كارلو"، فكالعادة كان من المستحيل إخفاء أي شيءٍ عن سكان البلدة، وحصول "كارلو" على فترة راحة من عمله عمدةً ومن مصنع النبيذ كذلك أكد ما سمعوه من شائعات.

دعتها "كارميلا" إلى الدخول وقالت: "تفضلي". وضعت "أنَّا" الحقيبة على الطاولة وشرحت للخياطة بصوت حازم أن الحقيبة تحوي ملابس "كارلو" وأنها

أتت بها إليها لأنها بحاجة إلى التضييق، وأوضحت أنها -وعلى وجه الدقة- صارت أوسع بمقاسين على الأقل.

فتحت "كارميلا" الحقيبة وبدأت تُخرج منها الملابس بعناية قطعة تلو الأخرى، وتضعها تدريجيًا على الطاولة. كانت "أنَّا" قد ثبَّتت فعلًا دبابيس في مواضع القياسات الجديدة حيث يجب أن تُضيِّق قطع الملابس أو تُقصر.

قالت "أنَّا": "أعلم أنني أكلِّفكِ بعملٍ كثيرٍ، ولكنني أرجو منكِ أن تنجزيه في أقرب وقتٍ ممكنٍ وسأدفع لكِ الضعف إذا لزم الأمر".

هزت "كارميلا" رأسها وقالت: "أرأيتِ؟ يدرك الناس على الفور أنكِ أجنبية بسبب كلماتكِ هذه وستظلين دومًا بالنسبة إلينا امرأة أجنبية".

عبست "أنَّا" وسألتها: "وماذا قلت أنا؟".

ثبَّتت "كارميلا" عينيها على عينيْ "أنَّا" مباشرة وقالت بحدة: "عندما يمرض أحدنا في هذه الأنحاء لا يفكِّر أحدٌ أبدًا في أن يجعله يدفع أي شيء مقابل ما يتلقاه هو وأسرته من خِدْمَات خلال فترة مرضه". ثم أضافت قبل أن تودِّعها: "عودي إليَّ خلال خمسة أيام وستجدينها جاهزة".

أغلقت "كارميلا" الباب وهي منزعجة ومستاءة، وعادت لتجلس من جديد إلى الطاولة. وضعتْ نظارتها الطبية واستأنفت ما كانت قد بدأته من عملٍ قبل وصول "أنَّا"، ولكنها توقفت. ثم نقلت نظرها إلى ملابس "كارلو"، وظلت تحدق إليها طويلًا. انتزعت من كومة الملابس قميصًا سماويَّ اللون له أزرار مصنوعة من عرق اللؤلؤ، وهو القميص ذاته الذي ارتداه عندما ظهر يومًا وبعد سنوات طويلة أمام باب متجرها متسائلًا: "هل أزعجكِ؟"، وهي كالحمقاء تركته يدخل.

حملتِ القميص وقرَّبته من وجهها وتشمَّمته بعينين مغمضتين. إنها رائحة "كارلو" ذلك المزيج من دخان عشبي وعطر ما بعد الحلاقة المحتوي على مِنتول، كانت لتتعرَّف رائحته هذه من بين آلاف الروائح.

22
يونيو 1949

"إني أتشح بسترة الليل البهيم لأختفي، إن لم تكوني قد هويتني فليعثروا عليَّ ها هنا. ما أفضَل الموت السريع من يد الكراهية على الموت البطيء إن حُرمت من هواكِ".

كان "روبرتو" واقفًا على قمة سلم خشبيٍّ صغيرٍ يكرِّر الجمل التي سيلقيها في المسرحية، فيما كان "كارلو" جالسًا على كرسيه وساقاه مغطاتين ببطانية على شكل مربعات، ويبذل أقصى جُهْده كي يُتابِع النص بعينيه. تسبَّب العلاج الإشعاعي في تساقط شعره بالكامل، فلم يعد برأسه ولا شعرة واحدة.

سأله "روبرتو": "هل قلتها جيدًا؟".

أكد له "كارلو" بصوتٍ خافتٍ: "نعم، نعم. سأقاطعك إن قلتَ شيئًا خاطئًا"، ثم أطلق سعالًا.

حينها قال "روبرتو" وهو ينزل السلم: "أنت متعب، دعنا نأخذ قسطًا من الراحة".

أجاب "كارلو": "نعم امنحني لحظة فقط". وأسند الكتاب الخاص بالمسرحية إلى الطاولة الصغيرة.

ذهب "روبرتو" وجلس على السجادة عند قدميْ أبيه، وأسند رأسه على ساقيه وقال: "أبي، يجب أن أسألك عن شيءٍ ما".

فقال "كارلو": "قل لي".

فسأل "روبرتو": "ما الذي شعرت به حين تعرَّفت أمي؟ أقصد كيف فهمت أنك تحبها؟".

فكَّر "كارلو" بضعَ لحظاتٍ، ثم أجاب: "أظن أنني شعرت.. شعرت أنني في بيتي، أن بإمكاني أن أُظهر ذلك الجانب الأكثر ضعفًا وهشاشة مني أمامها، وأنا على يقين أنها ستنتبه إلى هذا الجانب، وستقبله، وستعتني به، ولن تستغله ضدي قطُّ، أفهمت ما أقصده؟".

أومأ "روبرتو" وقال: "أعتقد أنني فهمت".

سأله "كارلو": "لماذا تسألني هذا السؤال؟ هل هناك فتاة تعجبك؟".

فردَّ "روبرتو" متنهدًا: "تعجبني كثيرًا يا أبي، المشكلة فقط أنني لا أعرف أكنتُ أيضًا أروق لها أم لا".

ابتسم "كارلو" وسأله من جديد: "وما اسمها؟".

فأجاب ابنه: "ماريا"، هي تدعى "ماريا"، هي الفتاة ذاتها التي ستؤدي دور "چولييت" في المسرحية".

ضحك "كارلو" ضحكةً خافتةً مصحوبةً بسعال، وقال: "آه، حسنًا. إنه القدر إذن". وأضاف ممازحًا إياه: "لكنْ دعني أعدك أن لا أنا ولا أمك سنقف في طريق حبكما".

كرَّر "روبرتو" بعد لحظات من الصمت: "أبي".

فأجابه "كارلو": "ماذا؟".

قال "روبرتو": "أعتقد أنني واقعٌ في الحب، فأنا أيضًا عندما أكون معها أشعر أنني في بيتي".

✉✉

لم يعد "كارلو" يخرج تمامًا من البيت. كان الطبيب "كالوو" واضحًا عندما أوصاه بالراحة التامة وأن يتجنَّب ممارسة أي مجهود من شأنه أن يزيد الأمر سوءًا بالنسبة إلى جسده المنهك فعلًا. لقد كان الطبيب صادقًا بشدة وصلت إلى حد الفظاظة في ما يتعلق بحالته، إذ أخبره بأن الورم قد اتسعت رقعته بشكلٍ غير متوقع.

سأله "كارلو" في نهاية الزيارة الأخيرة له: "كم تبقى لي من الوقت؟".

اكفهرَّ وجه الطبيب ثم شبك يديه فوق المكتب واقتصر جوابه على: "لا يمكنني أن أخبرك بذلك. كل ما عليك فعله هو أن تواصل الاعتناء بنفسك وبصحتك".

خلال تلك الأسابيع لم تتركه "أنَّا" وحده ولو لحظةً واحدةً. أخذت إجازة من عملها للمرة الأولى منذ أربعة عشر عامًا كي تتمكن من أن تبقى قريبة منه. كانت "أنَّا" تكرِّر له: "اللعنة! الأطباء أيضًا يُخطئون. هم بشرٌ على أي حال. أنا أعلم أنك ستتعافى".

لقد رفضتْ "أنَّا" أن تتقبل احتمالية ألا ينجح "كارلو" في التعافي، وكانت مقتنعةً أن رغبته وحبه للحياة ستتغلب على مرضه. كم مرة أراد "كارلو" أن يخبرها بأنها لا تساعده على الإطلاق وهي تتصرف معه بهذه الطريقة، فهو لا يريد أن ينخدع بكلماتها التي تُحفِّز الأمل داخله. لم يكن يرغب في أن ينكر الواقع ويتبع السراب. سيكون الأمر بالنسبة إليه أسوأ بكثير إذا اقتنع حقًّا أن بإمكانه أن يظل حيًّا مدةً أطول مما هو متوقعٌ له، فحينها ستكون بالتأكيد لحظة الوداع أقل تقبُّلًا وأكثر إيلامًا.

كان يريد أن يقول لها: "اخرسي، كفى، لا تتحدثي معي بعد الآن عن كل الأشياء التي لا يزال علينا فعلها معًا، لا تتحدثي معي بعد الآن عن المستقبل. إن هذا يُشعرني بالسوء، ألا تفهمين أن هذا يؤلمني حقًّا؟".

مع ذلك، لم يتمكن "كارلو" قطُّ من إيقافها ومقاطعة أحاديثها، لم يستطعْ إخبارها بحقيقة ما يشعر به. كان قلبه يُعتَصر كلما فكَّر أنها تحاول هي أيضًا، بطريقتها الخاصة، حماية نفسها من الألم، وتسعى لتأجيله أطولَ مدة ممكنة. ظلَّ "كارلو" يسعل دمًا واستمرت معاناته من ضيق التنفس، إذ كان يشعر دومًا بوجود صخرة ثابتة تجثم باستمرار فوق صدره. كان مدركًا أن حالته تزداد سوءًا. وهو الشيء ذاته الذي كانت تراه "أنَّا" أيضًا.

وفي أحد الأيام طلب منها "كارلو" أن تدعو كاتب العدل ليحضر إلى البيت. اكفهرَّ وجه "أنَّا" حينها، وعقدتْ ذراعيها فوق صدرها، وقالت له: "أنت تتصرف كما لو كنتَ حقًّا على وشك الموت. توقف عن فعل هذا!".

حاول "كارلو" أن يعتدل ويجلس في السرير، لكنْ دون جدوى. توسَّل إلى زوجته قائلًا بصوت متحشرج: "أرجوكِ يا "أنَّا"، نفذي ما أطلبه منك".

في النهاية، كان على "أنطونيو" الذَّهَاب لاستدعاء كاتب العدل وهو رجلٌ ضئيل الحجم قصير القامة وأنيقٌ للغاية. جاء حاملًا في يده حقيبةً جلديةً سوداء وبدا أنه قد حلق ذقنه توًّا، وهو ما يتَّضح من الجرح الصغير الموجود على خده الأيسر.

فتحتْ له "أنَّا" الباب وحيَّته على مضض، ثم توجهتْ إلى المطبخ، وأغلقت الباب بعنفٍ خلفها. قال له "أنطونيو" وقد انتابه شعور بالحرج من تصرف زوجة أخيه: "أعتذر منك"، وقاده إلى أعلى الدرج حتى وصلا إلى غرفة نوم "كارلو" الذي أبلغ كاتبَ العدل أن شقيقه سيكون حاضرًا وهو يملي عليه وصيته. لذا أغلق "أنطونيو" باب الغرفة بالمفتاح، ثم جلس على الكرسي واضعًا ساقًا فوق الأخرى وشبك يديه ببعضهما وأسندهما على ساقيه.

ربما كانت تلك هي أصعب لحظة تمرُّ عليه في حياته، ومع ذلك فقد أجبر نفسه على أن يظهر بمظهرٍ قويٍّ وعلى أن يكون الصخرة التي لطالما كان "كارلو" يرتكز عليها، وعلى ألا يجعل الأسي والألم الذي يشعر به يتسرب إلى من حوله، ويظهر جليًّا على ملامحه، وينعكس في تصرفاته. كان "أنطونيو" يكرر على نفسه: "يجب أولًا أن أهتم لأمره وأعتني به" كي يمنح نفسه الشجاعة الكافية وكيلا يستسلم لحزنه وضعفه. كان يعرف أخاه ويعرف جيِّدًا ما الذي يحتاج إليه، لذا أدرك أن التظاهر بأن ما من شيءٍ يحدث لم يكن ليساعده ألبتَّة ولو بنسبة قليلة، بل على العكس كان ليفاقم ما يشعر به فعلًا من خوفٍ ووَحْدَة.

ظلَّ "أنطونيو" يستمع في صمت لما يمليه "كارلو" على كاتب العدل الذي أخذ يكتب الوصية على ورقة موضوعة داخل حافظة أوراق. وصَّى "كارلو" بانتقال ملكية الفيلا الكائنة في شارع "بالاديني" وكذلك كل الأموال السائلة إلى "أنَّا". أما "روبرتو" فسيرث سبعين بالمائة من كرم العنب ومصنع ومخزن النبيذ،

وفيما يخص الثلاثين بالمائة الباقيين فهم من نصيب "دانييليه كارلا" مسوِّغًا قراره قائلًا: "لقد حاز الصبي ثقتي التامة وغير المشروطة لتفانيه الذي لم يزعزعه أي شيءٍ قطُّ في العمل، وللأرباح الطائلة التي حقَّقها للمصنع، وللخبرة الثمينة المتراكمة التي يتمتَّع بها والتي لا تضاهيها خبرة أي شخص آخر يعمل بالمصنع، وأنا على يقينٍ تامٍّ بأنه سيُواصِل العمل كي يحقِّق مزيدًا من الرخاء والازدهار للمصنع". وأضاف أنه يرغب في أن تتكاتف جهود "روبرتو" و"دانييليه" و"يديرا المصنع والمخزن معًا في تعاونٍ هادئٍ ومثمرٍ يليق بأكثر صبيين ذكاءً وبراعةً عرفتهما في حياتي".

اتسعتْ عينا "أنطونيو" وتململ في كرسيه عند سماعه الجزء الخاص بـ"دانييليه" في الوصية، وتأهَّب لقول شيء ما، إلا أن "كارلو" أشار له كما لو أراد أن يقول إن لا شيء يمكنه أن يغير ذلك، لقد اتخذ قراره فعلًا وانتهى الأمر.

لكنْ بعد مغادرة كاتب العدل أغلق "أنطونيو" الباب من جديد ولم يستطع ألا يتحدث عن الأمر، فسأله واضطراب حقيقي قوي يسيطر عليه: "وكيف ستفسر الأمر لـ"أنَّا"؟ هل فكَّرت في رد فعل "روبرتو" على قرارك هذا؟ لا يمكنك أن تباغتهما بهذه المفاجأة. وماذا لو بدآ يشُكَّان في الأمر؟ لا يمكنكَ أن تتركهما يفهمان الأمر بهذه الطريقة عندما..."، تنهد "أنطونيو" بعمق ثم تابع: "عندما لن يكون بإمكانك أن تقدم أي تفسيرات. لا يمكنك أن تفعل هذا يا "كارلو" لا بُدَّ أن تخبرهما في الحال، بل الآن".

أدار "كارلو" رأسه إلى الجانب الآخر من الوسادة، ولكنَّ "أنطونيو" أضاف: "أو غيِّر من فضلك هذه الوصية قبل أن يفوت الأوان. لتفعل هذا بحق السماء".

أجاب "كارلو" بصوتٍ ضعيفٍ: "أنت تبالغ في قلقك. سيفكِّران حينها أنني اتخذتُ هذا القرار لأنني كنت قلقًا بشأن أعمالي وتجارتي فحسب، وأنني تصرَّفت

بما هو لمصلحة المصنع ولمصلحة مستقبلهما". واختتم "كارلو" كلامه قائلًا بحزن: "أنا أعرف "أنَّا" وأعرف ابني".

حاول "أنطونيو" أن يرد معارضًا إياه: "وماذا لو كنت على خطأ".

قاطعه "كارلو" في الحال وقال: "لا أريد التحدث عن هذا الأمر أكثر من هذا". تنهَّد "أنطونيو" في حزن، ووضع يديه على مسند السرير، وسكت.



ذهب كثيرون لزيارة "كارلو" في البيت من عمال مصنع ومخزن النبيذ، وموظفي البلدية، ورفاق حزبه، وأعضاء المجلس البلدي. تمنَّى له الجميع أن يتعافى ويقف على قدميه من جديد، وألا يترك المرض يهزمه. سمع منهم عبارات من قبيل: "نحن نفتقدك"، و"لا تقلق، كل شيء يسير كالمعتاد في مصنع النبيذ"، و"هيا لا تمزح، نحن في انتظارك"، و"حال عودتك إلى العمل، علينا أن نعيد دراسة ذلك المشروع"، و"عندما تقف على قدميك من جديد، سنتحدث عن الأمر".

في نهاية تلك الزيارات، شعر "كارلو" بإرهاقٍ وإنهاكٍ شديدين، فقد أمطره الزوار بعددٍ لا نهائي من الكلمات الفارغة، والوعود السخيفة. لذلك، وفي مرحلة معينة، طلب من زوجته عدم السماح بعد ذلك لأي شخص بالدخول عليه. لذا كان عليها أن ترسلهم بعيدًا دون أن يقابلوه متعذرةً بأنه يستريح ولا يستطيع استقبالهم. لم يعد "كارلو" يريد أن يرى أي شخصٍ باستثناء أفراد أسرته. وأضاف لـ"أنَّا" بعدما أوصاها بألا تسمح لأحد بزيارته، وقبل أن تخرج وتغلق باب غرفة النوم خلفها: "آه، لكنْ إذا جاء "دانييليه" لرؤيتي فاسمحي له، هو لا يتسبب في إزعاجي، لذا يمكنه الدخول".

منذ تدهورت حالة "كارلو" الصحية قرَّر "دانييليه" أن يؤجل افتتاح بيت الأزياء خاصته كي يعود إلى الاهتمام بمصنع ومخزن النبيذ. شرح حينها لـ"لورينسا": "أنا مدينٌ له بكل هذا الذي أنا فيه الآن". باختصار، وجد "دانييليه" نفسه يحل محل "كارلو" في كل شيء وتولَّى أداء جميع مهامه إذ أصبح مسؤولًا

عن توزيع الأجور، ومناقشة العمال، وإعطاء التوجيهات، وفحص الشِّحنات، والحفاظ على السجلات مرتبة ومنظمة، والتأكد من عدم وجود أي تأخير في أي شيء. كان يذهب مرة واحدة في الأسبوع -على الأغلب في أيام السبت- إلى "كارلو" ليقدِّم له تقريرًا مفصلًا عن مجريات العمل في المصنع.

كان "كارلو" يستمع لما يقوله "دانييليه" ويومئ برأسه في رضا. وفي كل مرة كان يعلِّق قائلًا: "رائع. أنت تعمل عملًا ممتازًا".

وخلال واحدة من تلك الصباحات قرَّر "كارلو" أن يتحدث معه عن الوصية ونسبة الثلاثين بالمائة التي خصَّصها له. وبعدما أخبره بكل شيءٍ اختتم كلامه قائلًا: "وها قد صرت مستعدًّا لهذا".

ظلَّ "دانييليه" ثابتًا في مكانه كالصنم حالما أطلعه بالأمر، ثم سأله فيما يحدق إليه: "لا أعرف ما أقول.. أنا.. أنا لم أكن أتوقع هذا.. لماذا كتبت وصية؟ أنا أريدك أن تتعافى يا "كارلو" و...". تحشرج صوته من شدة التأثر ولم يكمل كلامه.

قال له "كارلو" فيما يُربِّت السرير تربيتتيْن صغيرتيْن ليجلس بجانبه: "اقترب يا بنيَّ!". خضع "دانييليه" لطلبه وجلس إلى جواره فقال له "كارلو": "أنا لا أعرف أكنت سأتعافى أم لا"، انتابته نوبة سعال جعلته يقطع كلامه ثم تابع وهو يلهث قليلًا: "أردت أن أضع الأمور في نصابها الصحيح قبل أن يفوت الوقت، أنت تفهمني، أليس كذلك؟".

استَعَطَ "دانييليه" وفرك عينيه اللتين ابتلتا بالدموع وتمتم وهو يهز رأسه: "لا أريد أن أفكر في الأمر".

أطبق "كارلو" شفتيه ووضع يده على يد "دانييليه" الذي تابع متسائلًا: "لماذا أنا بالذات؟ هل يعرف ابنك بالأمر؟ وماذا أيضًا عن "أنَّا"؟".

حدَّق إليه "كارلو" بقوة مدة طويلة فيما يفكر أن الرب وحده يعلم كم كان يرغب في الاعتراف له بكل شيء، في كشف الحقيقة له، في أن ينظر إليه "دانييليه"

ولو مرةً واحدةً فقط –مرة واحدة، لا يرجو أكثر من ذلك– بعيني الابن. وعلى الرغم من ذلك لم يتمكَّن من أن يتفوه له بكلمة واحدة مما يريد؛ بدا كأن الكلمات قد ماتت في فمه وخدشت حلقه فقال له عوضًا عما أراد أن يقوله حقًّا: "لأنك استحققت هذا يا بني"، ثم كرر: "لقد استحققت ذلك. وهذا قراري أنا، أنا وحدي". ثم أضاف: "يجب ألا تقلق بشأن "أنَّا" و"روبرتو"، ثم وقبل أن يغادر "دانييليه" الغرفة بقليل طلب منه "كارلو" أن يعدْهُ بشيء ما.

أجابه: "سأعدك بأي شيء تريده".

تنهد "كارلو" وقال: "لورينسا". تجمَّد "دانييليه" على الفور في مكانه، فتابع "كارلو": "لتعلم أنني فهمتُ ما يحدث بينكما وهذا لا يجوز يا ولدي. هي امرأة متزوجة الآن ولديها ابنة وعلاقتكما هذه لن تسبب للجميع سوى المصايب، ثم إن أخي سيعاني الويلات إن علم بالأمر. دعها وشأنها وفكِّر في نفسك، ستقابل بالتأكيد فتاةً أخرى وتحبها".

أشاح "دانييليه" بعينيه بعيدًا عنه وقال فيما ينهض ببطء عن السرير: "من الأفضل أن أغادر. لا تفكر في شيءٍ من فضلك سوى راحتك".

بينما يتطلَّع إليه "كارلو" وهو يغادر لم يتمكن سوى من تذكُّر ما قاله السيد "تشيتشو" ذلك اليوم حينما زاره في غرفة نومه المظلمة: "لا تمني نفسكَ أن تحل هذه السفرة المشكلة". وكان على حق.



خرج "دانييليه" من بيت "كارلو" مرتبكًا ومذهولًا وتوجَّه مباشرة –دون أن يعرف السبب الذي دفعه إلى ذلك خاصة أنه لم يسامحها بعد– إلى بيت أمه. فتح باب المشغل ووجدها جالسة إلى ماكينة "سينجر" واضعةً نظارتها على أنفها وقد علَّقتها حول عنقها بسلسلة ذهبية. استقبلته "كارميلا" بنبرة متهكمة وقالت: "ابني هنا.. يا للمعجزة...".

حياها "دانييليه" ببرود مكتفيًا بـ"مرحبًا". قالت له: "لم نرك منذ زمنٍ بعيد".

لم يجب "دانييليه" وترك نفسه يسقط على أحد الكراسي متنهِّدًا. نهضت "كارميلا" عن الماكينة، وذهبت لتجلس في الكرسي المقابل له. خلعتْ نظارتها، وجعلتها تنسدِل على صدرها، وسألته: "أتريد قهوة؟".

هز "دانييليه" رأسه نفيًا وقال: "لقد شربتها لدى "كارلو" منذ قليل".

وضعت ساقًا فوق الأخرى ووضعتْ يديها على مسندي الكرسي. سألته "كارميلا": "وكيف حاله؟".

هزَّ "دانييليه" كتفيه في حزن دون أن يقول شيئًا. ازدردت "كارميلا" ريقها وسألته: "لكنْ ماذا يقول الطبيب؟".

غمغم هو قائلًا: "لا أعرف، لكنْ أعتقد أنه لم يقل شيئًا يبشِّر بالخير، لأن "كارلو" قد كتب فعلًا وصية".

اعتدلتْ "كارميلا" في جلستها وقالت في دهشة: "آه حقًّا؟ وكيف عرفت هذا؟ هذه أمور خاصة وأُسرية". ثم سألته بنبرة ازدراء: "هل أخبرتكَ زوجته بالأمر؟".

أجاب "دانييليه" في انزعاج: "لا، هو من أخبرني بنفسه". ثم نهض من كرسيِّه. سألته أمه مستفسرة: "ولماذا أخبركَ أنت بالذات بهذا؟ ما شأنك أنت؟".

أجاب "دانييليه": "لا أعرف ما دخلي أنا بالأمر، وهأنا أسأل نفسي عن مسوِّغ لتصرفه الغريب هذا".

شعرت "كارميلا" حينها بدقات قلبها تتسارع: "لا أفهم ما الذي تود قوله".

استند "دانييليه" إلى الطاولة وقال لأمه: "لقد ترك لي ثلاثين بالمائة من كرم العنب ومصنع ومخزن النبيذ، شيء لا يمكن تصديقه. إنها فعلة ليس لها أي معنى أو مُسوِّغ، لماذا أنا بالذات الذي يفعل معي شيئًا كهذا؟".

ظلت "كارميلا" تحدق إليه وهي ثابتة في مكانها كالصنم، فيما احتشدت في رأسها الأفكار وتراكمت في ذهنها الذكريات. فخلال لحظات قليلة استرجعت

صورتها حين كانت لا تزال فتاة عندما جُنَّ "كارلو" بحبها وأرادها بأي ثمن، وعندما مارسا الحب لأول مرة، وعندما انهمرتْ الدموع من عينيها حين هجرها بخطابٍ تافه، وعندما وضعت "دانييليه". تذكرت الغضب الذي ظلت تخفيه بداخلها طَوال السنوات التي بقي فيها بعيدًا عن البلدة، ونبضات قلبها المتسارعة حين رأته من جديد بعد كل ذلك الوقت، والعواطف التي اجتاحتها عندما قرَّر هو أن يعيد ما كان بينهما ووجدت نفسها بين ذراعيه من جديد، والحقد والاستياء الأعمى الذي سيطر عليها عندما هجرها للمرة الثانية، لكنْ كانت كلمات أبيها السيد "تشيتشو" هي أكثر ما ألحَّ على ذاكرتها، إذ تذكرتْ حين قال لها: "سيترك له في النهاية شيئًا ما، وهو ما لن يكون جزءًا صغيرًا أبدًا، ثقي بما أقوله لكِ، أنا أعرف كيف تجري هذه الأمور. روابط الدم تنتصر دائمًا".

انتابتها رجفة بسيطة تكاد تكون غير ملحوظة من السعادة الخالصة حالما أخبرها "دانييليه" بهذا الأمر، ثم نهضتْ من كرسيها واقتربتْ منه وأخذتْ وجهه بين يديها وحدقتْ إليه وهي تنظر إلى عينيه مباشرة وقالت له: "يجب ألا تسأل أبدًا مرة أخرى لماذا أنت بالذات. هل فهمت؟ لا تسأل هذا السؤال مرة أخرى. أنت عملتَ بجدٍّ وبذلت أقصى جُهْدك وما حصلتَ عليه هو نظير عملك ومجهودك. لم يُهدِك أحدٌ أيَّ شيء". ثم كررتْ قائلة: "لا أحد".

في مساء يوم 21 يونيو أعدَّت "أنَّا" عشاءها هي و"كارلو" ووضعته بعناية على صينية خشبية وصعدت بها إلى غرفة النوم. دخلت "أنَّا" إلى الغرفة وصاحت قائلة: "خبز وطماطم مع كثيرٍ من الزيت، بالضبط كما يروقك".

أجابها "كارلو" متأوِّهًا دون أن يفتح عينيه. وضعت "أنَّا" الصينية على الطاولة المجاورة للسرير ثم جلست إلى جانب "كارلو" وقالت: "هيا يا "كارلو"، دعنا نتناول شيئًا ما معًا".

فأجابها "كارلو": "لا يمكنني أن أتناول أي شيء، أشعر بالغثيان".
قالت "أنَّا": "لو سمحتَ، خذ بضعَ لقيمات على الأقل".
هز "كارلو" رأسه نفيًا وفتح عينيه وقال بلطف: "لا أستطيع".
فقالت "أنَّا": "إذن دعنا ننتظر، ربما تشعر بالجوع بعد قليل".
قال "كارلو" واضعًا يده على الجزء الخالي من السرير: "استلقي هنا".
خلعت "أنَّا" حذاءها وانزلقت أسفل الملاءة وتكوَّرت على نفسها إلى جواره.
سأل "كارلو": "أين هو "روبرتو؟".
فأجابت "أنَّا": "ذهب إلى السينما".
سألها "كارلو": "مع تلك الفتاة؟".
صاحت "أنَّا" رافعة رأسها وسألته: "أي فتاة؟".
انفرجتْ عن شفتي "كارلو" ابتسامة ضئيلة وأجابها: "إنها فتاة تروقه".
سألته "أنَّا": "ولماذا لستُ على علمٍ بهذا؟".
مازحها "كارلو" قائلًا: "لأنكِ غيور، وسوف تجبرينها على الهروب والابتعاد عن الصبي".
قالت "أنَّا": "أنا غيور؟ متى كنت كذلك!".
ضحك "كارلو" ضحكة واهنة ثم أغمض عينيه من جديد وقال لها: "واصلي حديثك معي يا "أنَّا". ماذا ذهب ليشاهد في السينما؟".
أجابت وقد شعرت بغصة في حلقها: "لا أعرف. لم يخبرني".
سألها "كارلو": "أهو فيلم من بطولة بطلكِ المفضل "كلارك جيبل"؟".
أجابته فيما تحاول أن تجعله يبتسم: "لو كان سيشاهد فيلمًا له لكنت ذهبتُ معه أنا أيضًا وتركتك هنا بمفردك".
صاح "كارلو" فيما يلعق شفتيه وقال: "حسنًا، هل هو أكثر وسامة مني؟ هل كنتِ لتتركيني من أجل "كلارك جيبل"؟".

تكورتْ "أنَّا" بين ذراعيه وضمَّته إليها بقوة وأجابته: "لا، لا أحد يروقني أكثر منك".

ابتسم "كارلو" ابتسامةً خفيفةً وقال: "هكذا يجب أن يكون الأمر يا حبيبتي"، وأخذ يداعب وجهها بأنامله ثم فتح عينيه ونظر إليها بعمقٍ فسألته "أنَّا" مبتسمة: "ماذا هناك؟".

أجابها "كارلو": "أعرف السؤال الذي كنتِ على وشك أن تطرحيه عليَّ ذلك اليوم".

أجابته هي بنبرة مرحة: "متى؟".

قال "كارلو": "كنتِ تودين أن تعرفي أكنتُ أيضًا أنظر إلى فكرتكِ الخاصة بـ"بيت النساء" مثلما نظر إليها رجال المجلس".

فتحت "أنَّا" فاها لكنْ دون أن تنجح في قول أي شيءٍ لأن "كارلو" تابع حديثه: "هل فكَّرتُ حينها أنها فكرة أكثر تقدمًا وحداثة من أن تُطبَّق في البلدة؟ نعم فعلتُ. هل أعتقد أنكِ يجب أن تنفِّذي مشروعكِ هذا رغم كل شيء؟ نعم وألف نعم". ابتسمت له "أنَّا" بحنان ومسَّدت خده. أضاف هو: "يؤسفني أننا لم نتحدثْ بعدها عن الأمر، لكنْ عديني أنكِ لن تتخلي عن هذا المشروع".

قالت "أنَّا": "لن أستسلم. ربما أنفذه حقًّا آجلًا أو عاجلًا. كل ما في الأمر أنه لم يعد الآن على رأس أولوياتي وأفكاري".

أوصاها "كارلو": "استخدمي أموالنا وأسِّسي بيتًا خاصًّا يخدم هذا الغرض دون أن تطلبي أيَّ شيء من أي شخص". كان "كارلو" يريد أن يتابع حوارهما، ولكنَّ نوبة السعال منعته، وأجبرته أن يقطع حديثه.

قالت هي: "شششش، كفى كلامًا. حاول أن تنام قليلًا". أغمض الاثنان أعينهما وفي غضون دقائق قليلة ناما وهما متعانقان وأيديهما متشابكة ببعضها وبقيت صينية الطعام كما هي في موضعها ولم يلمسها أحد. في صباح اليوم التالي عندما فتحت "أنَّا" عينيها كان "كارلو" قد فارق الحياة.

الجزء الثالث
نوفمبر 1950 – مايو 1952



23
نوفمبر – ديسمبر 1950

في غرفة النوم المعتمة، فتحت "أنَّا" باب خزانة ملابس "كارلو" ومرَّرتْ يدها بلطف على السترات المعلقة في صفٍّ واحد، ثم ضمَّتها برفقٍ بين ذراعيها ودسَّت أنفها فيها، وأخذت تتشمَّم بعمقٍ عطر ما بعد الحلاقة المحتوي على "مِنتول والذي صارت رائحته تتلاشى تدريجيًّا من الملابس. أغلقتِ الباب ونزلت إلى الصالون. وعلى إحدى الطاولات الصغيرة، كان هناك الصندوق المعدني الصغير الذي كان يحتفظ فيه "كارلو" بسيجاره. رفعت "أنَّا" الغطاء ولم يكن متبقيًا سوى سيجارين فقط. أخرجتْ واحدًا وقرَّبته من منخارها، وتشمَّمته بعينين مغمضتين ثم أشعلته مستخدمةً عود ثقاب، وأخذتْ منه بضعة أنفاسٍ فسعلت، ثم أسندته أخيرًا على منفضة السجائر، وتركته يحترق فيما تغمر رائحة الأعشاب القوية الموجودة في السيجار جميع أنحاء الغرفة.

جلستْ على الأريكة وضمتْ ركبتيْها إلى صدرها متفكرةً؛ فلو كان زوجها وحبيبها "كارلو" لا يزال حيًّا لكان أتمَّ في اليوم التالي عامه السابع والأربعين، وهو ما جعلها

تفكر بينها وبين نفسها: "كان "كارلو" سيقيم واحدةً من حفلاته التي لا تُنسى". ثم نظرتْ حولها في غرفة الصالون التي يغمُرها الصمت، وتخيَّلت المشهد الذي كان يتكرر في أعياد ميلاده حيث الصواني التي تفيض بالطعام، والكؤوس الكريستالية المملوءة حتى حافتها بنبيذ "دونَّا أنَّا"، والخلفية الموسيقية القادمة من دوَّارة الأسطوانات، وثرثرات الضيوف الطويلة والمزعجة وابتساماتهم، والبذلات وفساتين السهرة التي يرتدونها المدعوون، ولكنَّ الأهم من ذلك كله "كارلو" نفسه الذي كان يظهر في غاية الأناقة بابتسامته الطاغية التي يتردَّد صداها في المكان من حوله. لو أغمضتْ عينيها لبدا لها أنها تسمع تلك الضحكة. لطالما كرهتْ تلك الحفلات وفيضان البشر الذي يملأ بيتها، والفوضى التي يخلفونها وراءهم بعد مغادرتهم، إلا أنها فكرت في تلك اللحظة أنها كانت ستدفع كلَّ كنوز العالم من أجل أن تحتفل مرة أخرى بعيد ميلاد "كارلو"، وأن تسمعه يقول في نهاية الأمسية، عندما يبقيان أخيرًا وحدهما، وعندما تبدأ في جمع الأطباق والأكواب: "ولكنها كانت حفلة جميلة، أليس كذلك؟".

تنهَّدت "أنَّا" بعمقٍ محاولة أن تتخلَّص من الغصة العالقة في حلقها. نهضتْ من الأريكة، واتجهت نحو "حديقتها السرية" حيث "چوفانَّا" وهي تحاول أن تحافظ على توازنها فوق سلمٍ خشبيٍّ صغيرٍ وقفت عليه لتقطف ثمار الرمان الأخيرة لذلك الموسم، وتضعها واحدة تلو الأخرى في سلة كبيرة من الخوص كانت تحملها في ساعدها.

عقدتْ "أنَّا" ذراعيها إلى صدرها، وانضمتْ إليها، وقالت مشيرة إلى السلة: "أعتقد أنه أصبح لدينا ما يكفي".

أجابت "چوفانَّا" مبتسمة: "ما زالت هناك واحدة أخرى". وقطفتْ آخر ثمرة رمان كانت حمراء وناضجة.

دخلت الاثنتان إلى المطبخ وجلستا إلى الطاولة في مواجهة بعضهما تتوسطهما سلة الرمان. أخذتا تقشِّران الثمار وتجمعان الحبات وتضعانها في برطمان

ليصنعا منها عصير الرمان. من حين إلى آخر كانت "چوفانًّا" تدس –خفية تقريبًا– حَفنة صغيرة من حبات الرمان في فمها.

لم تعدْ "چوفانًّا" مرة أخرى إلى بيت المزرعة الكائن في "كونترادا لا بيترا". وقد وصلت إليها من شخصٍ ما لديه بعض الأقارب في "فرنولي" أخبار عن "چوليو"، إذ سمع أنه أصبح الآن كاهن أبرشية المدينة، وأنه "يساعد" امرأة شابة بائسة ذات عينين زرقاوين.

بعد وفاة "كارلو" كان وجود "چوفانًّا" يمثل لـ"أنًّا" نعمةً حقيقيةً. لقد فهمت "چوفانًّا" على الفور الطريقة الوحيدة التي عليها اتباعها كي تظل قريبة من صديقتها في تلك المرحلة العصيبة؛ وتلك الطريقة تمثَّلت في تقديم بعض المحفزات اليومية التي قد تكون صغيرة وبسيطة، ولكنها متواصلة ومستمرة؛ إذ ظلت في الأوقات الصباحية من اليوم ولعدة أسابيع تعدُّ لها الحليب الدافئ وتُحضره إليها في سريرها ثم بدأت تدعوها بنبرة هادئة إلى النهوض والاستحمام وارتداء ملابسها وتمشيط شعرها. في البداية لم تكنْ "أنًّا" تستجيب تمامًا لدعوات صديقتها، ولم تكنْ تبدي حتى أي رد فعل، ولذلك كانت "چوفانًّا" تغادر الغرفةَ وتتركها وحدها في الظلام. ثم، ومع مرور الوقت، بدأتْ "أنًّا" تنفذ ما تطلبه منها صديقتها أوتوماتيكيًّا كما لو كانت إنسانًا آليًّا. ساعدتها "چوفانًّا" في بعض الأحيان لارتداء أحد فساتينها، أو لتمشيط شعرها، لكنْ دون أن تجبرها قطُّ. ثم بعد مرور بعض الوقت بدأتْ تطرح عليها بخجل بعض الاقتراحات مثل: "هل نذهب للتسوق لأن خزانة المؤن أصبحتْ فارغة؟"، أو "هل تريدين الذَّهَاب في نزهة سيرًا على الأقدام في هذه الشمس الجميلة؟"، أو حتى "هل نصنع "البيستو" معًا هذا الصباح؟". حاولت "چوفانًّا" أن تخفف عن صديقتها ألم وفاة زوجها بمنحها ما كانت "أنًّا" في أمس الحاجة إليه، وهو الصمت الذي يُمكنه أن يهدِّئ من قوة الذكريات وعنفوانها.

على هذا النحو سارت العَلاقة بين "أنَّا" و"چوفانَّا" خلال تلك الفترة، بالضبط كما كان يحدث في تلك اللحظة عندما جلستا معًا -ودون حديث أو تخطيط- تفصصان ثمار الرمان.

عندما امتلأ البرطمان، نهضت "أنَّا" وبسطت قطعةَ قماش قطنية على الطاولة وأخذت تملأ مقدار ما تسعه قبضة يدها بحفنات من الرمان وتنقلها إلى القطعة القماشية التي ضمتها بين يديها وأخذت تعصرها بقوة حتى يترشح العصير من بين أنسجة القماش ويستقر داخل إبريق.

وصل إليهما حينئذٍ من مدخل الباب صوت "روبرتو" الرنان قائلًا: "أمي! لقد عدتُ".

فأجابته "أنَّا": "ها نحن هنا".

ظهر "روبرتو" في المطبخ، وحيَّاهما بابتسامة، وصاح فيما يحمل الإبريق ويسكب لنفسه كوبًا من ذلك السائل ذي اللون الأحمر الزاهي قائلًا: "ها قد وصلتُ بالضبط في موعد صنع العصير".

سألته "أنَّا" وهي تعاود الجلوس: "أين كنت؟".

نظر إليها "روبرتو" وقد لوى قسمات وجهه بتعبيرٍ خبيثٍ تطابق والتعبيرات التي كانت تظهر على وجه "كارلو"، فأخذ قلبها ينبض بقوة إذ تذكَّرت في تلك اللحظة زوجها.

شرب "روبرتو" الرشفة الأخيرة من العصير ولَعِق شفتيه ثم وضع الكوب واعترف أخيرًا: "كنتُ مع "ماريا"، ثم في الحال –وكما لو كان ينبغي له طلب السماح من أمه على فعلته– انحنى وقبَّل خدها، ثم أخرى على خد "چوفانَّا" التي احمرَّت خجلًا، وعضت شفتها السفلى.

واصلت "أنَّا" أسئلتها: "هل أنهيت واجباتكَ للغد؟".

أجابها "روبرتو": "ما زالت أمامي فقط ترجمة اللغة اللاتينية".

قالت "أنَّا": "إذن هيا، اذهب إلى غرفتك لتدرس؛ وأنا سأصعد بعد قليل لنراجعها معًا".

ضحك "روبرتو" وقال: "أجل، أجل يا سيدتي، تحت أمرك".

هزَّت "أنَّا" رأسها في مرحٍ، وظلَّت تُتابع ابنها بنظراتها. كانت راضية أن "روبرتو" ورغم كل شيء مرَّا به مؤخرًا لا يزال يبتسم، وفكرت أن "كارلو" كان ليفخر بأن لديه ابنًا بهذا القدر من الشجاعة.

ملأت "چوفانَّا" كوبيْن من العصير، وأخذت واحدًا ومررتْ الآخر لـ"أنَّا" الذي رفعتْه فيما تتمتم قائلةً: "نخبك!"، وبقيتا تشربان العصير فيما كانت تصل إليهما رائحة السيجار الذي يحترق في غرفة الصالون.

✉✉

في صباح يوم 29 نوفمبر كانتِ الأمطار تنهمر بقوة لدرجة أن "أنَّا" استيقظتْ من نومها على ضجيج سقوط قطرات الماء على دُرَف النافذة. رفعتْ قناع العين حتى جبهتها واعتدلتْ جالسةً في سريرها مستندة إلى مرفقيها. وبقيت محدقة لحظاتٍ إلى السماء الرمادية التي تمكَّنت من أن تلمحها من وراء الزجاج الغائم بسبب الأمطار الكثيفة العاصفة. انتابتها حينئذٍ وخزة حادة عابرة من الأسى والحزن حاولت على الفور التخلص منها، لذا رفعتِ البطانية عن جسدها وحرَّكتها جانبًا ووضعتْ قدميها في خُفِّها. ارتدتْ ثوب نومها الحريري الأزرق، ونزلت إلى المطبخ الذي كان مظلمًا بسبب ذلك الجو السيئ الذي حجب ضوء الشمس. وبينما كانت تنتظر أن يدفأ الحليب، حاولت أن تأخذ نفسًا عميقًا، لكنَ الهواء –كما كان يحدث لها في بعض الأحيان– انحبس داخل رئتيها.

شعرتْ فجأة أن قلبها ينبض بشكلٍ أسرع، لذا وبغريزيَّة وضعتْ يدها على صدرها. منذ رحيل "كارلو" وهي تمرُّ عليها لحظات تشعر فيها أنها لا تستطيع التنفس بعمقٍ كأنَّ الهواء عالقٌ في مكانٍ ما بداخلها. فتحت بعدئذٍ فمها على

اتساعه وحاولت إدخال أكبر قدرٍ ممكنٍ من الهواء، لكنْ لم تنجح محاولتها هذه في كل مرة، وهو ما كان يتركها في حالةٍ من القلق والاضطراب الشديدين، حتى إنه كان يجتاحها شعورٌ مؤكدٌ بأنها ستسقط مختنقة على الأرض. لكنْ على العكس، فبعد بضع دقائق يعود كل شيءٍ إلى ما كان عليه، وتعود إلى حالتها الطبيعية، إلا أنها كانت في كل مرة تشعر بالإرهاق والإنهاك والخوف من فكرة أن ذلك قد يحدث لها من جديدٍ مرة أخرى ثم أخرى.

أطفأت عودَ الثقاب، وسكبتِ الحليب الدافئ في الفنجان. ضربت الريح فجأة المصراع فاصطدم بباب النافذة مُحدِثًا ضجيجًا عاليًا جعلها تجفل. أمسكتْ جيدًا بالفنجان بين يديها واقتربت من زجاج النافذة، وبينما تنظر إلى الحديقة التي غمرتها مياه المطر شربتْ أول رشفة من الحليب. حاولتْ أن تتنفس بعمقٍ مرة أخرى، لكنْ بدا لها أن الهواء يتدفَّق بسلاسة هذه المرة ودون أي عوائق، ثم وضعت يدها على صدرها من جديد وأحسَّت أن قلبها يستعيد إيقاعه المنتظم، وهو ما جعلها تهدأ ولو قليلًا على الأقل. ظلَّت تحدِّق من خلف النافذة إلى المطر الذي بدأ ينحسر فجأة وهمستْ: "عيد ميلاد سعيد".

بعد أن ارتدتْ ملابسها، أعدَّت الطاولة من أجل إفطار "روبرتو" و"چوفانَّا" ثم تركتْ ملاحظة بين الفنجانين اللذين وضعتهما لهما قالت فيها: "لقد خرجتُ مبكرًا، لا تقلقا". كانت ساعتها تشير إلى السابعة تقريبًا. ارتدتْ معطفًا فوق سترة زيها الرسمي ووضعتْ قبَّعتها على رأسها وخرجت إلى فناء البيت وركبت دراجتها "البيانكي" ولم تكن لديها أدنى فكرة عن المكان الذي ستذهب إليه، ولكنها لم تتمكنْ من البقاء في البيت لحظةً واحدةً أكثر. ليس في يوم عيد ميلاد "كارلو"، وليس من دونه.

لم يكنْ هناك أحدٌ في الشارع في ذلك الوقت، وكان الهواء ترابيًّا له رائحة نفاذة. أما سيارة "الفيات 1100" التي بقيت في مكانها حيث أوقفها "كارلو" في المرة الأخيرة التي قادها فيها، فقد غمرتها مياه المطر لتحيلها نظيفة ولامعة. ألقت

"أنَّا" نظرة سريعة على ما تبقى من النعي المعلَّق على الجدار المجاور لباب المنزل. لم يكنْ قد تبقَّى منه سوى شرائط ورقية صغيرة ممزَّقة وباهتة اللون، ولم يعد من الممكن تمييز الكلام المكتوب عليها؛ إذ لم يعد يُرى من اسم "كارلو" سوى حرفي "ك" و"ل" فقط، ونجى كذلك من عوامل الجو والوقت الصليب الأسود الذي كان مرسومًا في الزاوية العلوية اليمنى من النعي، كما لا تزال كلمة "تُوفِّي" مقروءة بشكلٍ واضحٍ في أسفل النعي كما لو كانت تحذيرًا.

بدأتْ "أنَّا" تقود دراجتها ببطءٍ فيما قطرات المطر الخفيف تضرب وجهها. مرَّت من أمام بيت "أنطونيو" وتوقَّفت؛ إذ رأتِ النور مضاءً في ما وراء ستارة غرفة المكتب حيث ينام "أنطونيو". ظلَّت تحدق إلى النافذة حتى انتبهت لصورة "أنطونيو" الظلِّية في مواجهة الضوء. لذلك ترجَّلتْ من دراجتها، وأسندتها إلى الحائط، والتقطت حصاة صغيرة من الأرض، وألقت بها مباشرة على نافذة مكتب "أنطونيو" الذي سرعان ما سحب الستارة ورأى "أنَّا" تلوِّح له من وراء النافذة. نظر إليها بلطفٍ وأشار إليها كي تنتظره. ثم سرعان ما فتح "أنطونيو" الباب وسار تجاهها وهو يغلق المعطف الذي ارتداه فوق بيجامته، في حين امتلأ خفُّه بالماء. سألها "أنطونيو": "ماذا تفعلين بالخارج في هذه الساعة؟".

أجابت "أنَّا": "لقد أيقظني المطر".

نظر إليها "أنطونيو" وهو يزمُّ شفتيه. صارت الهالات السوداء أسفل عينيّ "أنَّا" خلال ذلك العام الأخير أكثر عُمقًا كما لو كان الألم قد تجمَّع بكثافة حول عينيها.

تمتم "أنطونيو": "فعلًا، لقد أيقظني المطر أيضًا".

طلبتْ "أنَّا" منه فجأة: "هل لك أن تعانقني من فضلك؟".

أومأ "أنطونيو" وضمَّها ببطءٍ بين ذراعيه. أسندت "أنَّا" رأسها على صدره وأغمضت عينيها ثم قالت: "اليوم لا أعرف أكنت سأستطيع التحمُّل".

أراح ذقنه على رأسها وأجاب وبحلقه غصة جشت صوته: "أعلم ذلك". ثم كرر: "أعلم ذلك". قال "أنطونيو" حينها بينه وبين نفسه: "عزيزي "كارليتُّو" لم يعد هنا". لم يكن باستطاعة "أنطونيو" أن يُحصي عدد المرات التي صاغ هذه الجملة داخل رأسه منذ وفاة أخيه، مئات بل ربما آلاف المرات، فقد كانت هذه هي طريقته الوحيدة كي يقنع نفسه بأن هذا حدث فعلًا، وكي يُذعنَ للأمر الواقع.

لم يصدقْ أنه تُوفِّي حتى عندما لاحظ "أجاتا" فيما كان جالسًا في أحد الأركان وهي تُلبِّس جثمان أخيه –وقد بدا عليها الهدوء والثقة– البدلة التي كان يرتديها "كارلو" في أيام الأحد، ولا حتى عندما تعيَّن عليه أن يحمل نعش أخيه على كتِفه ويسير به من الكنيسة وحتى المقبرة. لقد عاش تلك اللحظات في ذهول كما لو كانت حلمًا.

أول مرة أدرك فيها أن "كارلو" قد رحل إلى الأبد كانت في صباح اليوم التالي للجنازة، عندما فتح عينيه وفكَّر بينه وبين نفسه: "عزيزي "كارليتّو" لم يعد هنا"، وهو ما تسبَّب له في صدمة كانت أشبه بمن تلقَّى لكمةً مؤلمةً وقاسيةً. لقد استيقظ للتو في عالم لم يعد شقيقه موجودًا فيه.

تمتمتْ "أنَّا" دون أن تبتعد عن ذراعيْ "أنطونيو": "لم أستطعِ التنفس هذا الصباح".

تنهَّد أنطونيو وأخذ يداعب ظهرَها، ثم قال: "امنحيني بعض الوقت حالما أرتدي ملابسي، سأصطحبكِ إلى مكانٍ ما". دخل إلى المنزل ثم عاد بعد دقائق قليلة.

جلستْ "أنَّا" تنتظره على درجة السلم. كان المطر حينئذٍ قد توقَّف تمامًا وبدأ شعاعُ شمسٍ ضعيفٌ للغاية يشقُّ طريقه خلال السحب. ابتسم "أنطونيو" ابتسامة خافتة وقال: "دعينا نركب السيارة".

سألته: "إلى أين سنذهب؟".

قال لها "أنطونيو": "لا أسئلة. إنها مفاجأة".

ركبا السيارة "فيات 508" وانطلقا في الطريق المؤدي إلى "بيزينيانو". قطعا كل هذا الطريق صامتين فيما كانت "أنَّا" تنظر إلى السماء من نافذة السيارة حيث ظهر قوس قزحٍ باهت. سار "أنطونيو" بسيارته بمحاذاة جدار حجري جاف برزت من خلفه شجرة بلوط "جراندیه ليتشو".

سألته "أنَّا" وهي تنحني إلى الأمام: "ما هذا المكان؟".

فأجابها بعدما أوقف السيارة وخرج منها: "تعالي!".

أخذها بالقرب من الشجرة ووضع يده على جذعها الرطب ثم رفع نظره نحو أوراقها الكثيفة والملفوفة التي تتساقط منها حبَّات المطر الخفيفة. لحقتْ به "أنَّا" وهي تحدِّق إليه وفي عينيها نظرة متسائلة ومستفسرة، فشرح لها قائلًا: "هذه هي "جراندیه ليتشو"، كان هذا المكان الخاص بي أنا و"كارلو".

عبست "أنَّا" وسألته: "ولماذا لا أعرف أنا أي شيءٍ عن هذا المكان؟".

فأوضح لها: "لم نخبرْ أحدًا عنه، ولم يعرفْ أي شخصٍ به، كنَّا نريده أن يبقى مكاننا نحن الاثنين فقط، أتدرين؟ عندما أشعر بأنني لا يمكنني تحمُّل غيابه وأنني أشتاق إليه بشدة آتي إلى هنا، وفي كل مرة آتي إلى هنا أجلس على الأرض وأبدأ في الحديث كما لو كان جالسًا إلى جواري".

استندتْ "أنَّا" إلى جذع الشجرة وعقدت ذراعيها على صدرها وسألته: "وهل هذا يجدي نفعًا؟".

أجابها "أنطونيو": "لمدة وجيزة"، ثم تابع بعد لحظات: "أعتقد أن عليكِ العثور على مكانٍ ما أنتِ أيضًا. مكان يمكنكِ فيه البقاء مع "كارلو"، أن تجدي بقعةً ما يمكنها أن تمنحكِ هذا السلام الذي يمنحني إياه هذا المكان".

هزت "أنَّا" رأسها وأجابت بصرامة وحزم: "ليس لديَّ مكانٌ كهذا؛ فما من مكانٍ ذهبتُ فيه برفقة "كارلو" يمكنه أن يمنحني السلام. حيثما ذهبتُ من دونه لا أشعر إلا بفراغٍ دائم".

قال "أنطونيو": "لتملئي أنتِ إذن هذا الفراغ".

أجابته "أنَّا" فيما تركل كومةً صغيرةً من التراب الرطب التصقت بحذائها: "طوبى لمن يعرف كيف يفعل هذا".

فقال "أنطونيو": "يمكن أن نفعل هذا باستعادة الذكريات الأكثر سعادة، أنا مُقتنِعٌ أن "كارلو" كان ليريدنا أن نتذكره بسعادة وبهجة، كان ليريد أن يرانا ونحن نفتح إحدى زجاجات نبيذه ونشرب نخبه، نخب حياته".

خفضت "أنَّا" نظرها ونزلت دمعة على خدها. أسند "أنطونيو" جبهته إلى جبهتها وقال لها: "أنا أعلم أن اليوم هو أكثر صعوبة مما سبقه"، ثم جفف وجهها بإحدى أصابعه. قالت "أنَّا" حينها بصوتٍ مشروخ: "أتعلم أنني في كل مرة كنت أبحث عن إجابة لشيءٍ ما كنت أعرف أنني سأجدها في الكتب، وهذا ما كان يحدث على الدوام، لكنْ هذه المرة فعلى العكس".

فتابع هو: "هذه المرة لم تجِدي الإجابة التي تنشدينها".

فعلقت "أنَّا": "فعلًا".

قال "أنطونيو": "أفهمكِ، فأنا لم يعد بإمكاني أن أقرأ ولا صفحة واحدة حتى. كما لو كنت أعرف فعلًا أنني لن أجد ما يواسيني ويريحني في الكتب، إلا أن هناك كُتابًا غمروا أيديهم في الألم واستطاعوا أن يرووا عنه بصدق تام".

تركت "أنَّا" عينيها المبللتين بالدموع تتجوَّلان على أوراق الشجرة الضخمة ثم قالت: "غريب هذا، أليس كذلك؟ أنكِ وجدت الراحة هنا وسط هذا الصمت، وفي غياب الكلمات".

قال "أنطونيو": "أوه، لا، الكلمات موجودة بالتأكيد، ولكنها كلماتي أنا فقط".

قالت "أنَّا": "تلك التي تقولها لـ"كارلو".

تمتم "أنطونيو": "نعم، تلك التي أقولها له".

أخذت "أنَّا" نفسًا وأخرجت الهواء من فمها. ثم تطلَّعت بنظرة متعبة إلى الساعة وقالت: "يجب أن أذهب إلى العمل، مع أنَّني أُفضِّل البقاء هنا طَوال اليوم".

ابتسم لها "أنطونيو" وقال وهو يحوط خصرها بيده: "أنا أيضًا أريد ذلك. هيا دعينا نذهب، سأرافقكِ".



حال عودته إلى المنزل، سمع "أنطونيو" صوت قعقعة الصحون الذي كان ينبعث من المطبخ. خلع معطفه وعلَّقه على المشجب الخاص بالمعاطف. كانت "أجاتا" التي لا تزال ترتدي ثوبَ نومها واقفةً تغسل أطباق الليلة السابقة. التفتت ونظرتْ إليه بعينين لا تزالان منتفختين من آثار النوم وسألته بنبرة ما بين الحيرة والاستياء: "أين كنت؟ السيارة لم تكن في الخارج ورأيت كذلك الدراجة في الخارج"، ثم جففت يديها بالمنشفة.

جلس "أنطونيو" وقال: "نعم، جاءت "أنَّا".

سألته "أجاتا": "وماذا كانت تريد في هذه الساعة المبكرة؟".

سألها "أنطونيو" في المقابل بنبرة منزعجة: "هل نسيتِ ما هو تاريخ اليوم؟".

لم ترد عليه "أجاتا". أدارت ظهرها له وبدأت في فك إبريق القهوة. ثم أجابت أخيرًا: "أعرف ما هو تاريخ اليوم".

نظَّفت الجزء السفلي القديم من آلة صنع القهوة، وسكبت الماء في الإبريق ثم ملأت الفلتر بمسحوق القهوة. وثب "أنطونيو" واقفًا على قدميه واتجه نحو باب المنزل وقال لها: "إذن لا أعتقد وجود أي داعٍ إلى إثارة هذه الضجة، أليس كذلك؟".

صاحت "أجاتا" متسائلة: "أين ستذهب؟ أنا أعد القهوة".

أجابها فيما يغادر: "سأشربها في البار".

ظلت "أجاتا" تنظر إليه وهو يغادر وقد وضعت إحدى يديها على وسطها واليد الأخرى ممسكة بالحوض. هزَّت رأسها متنهِّدة، ثم أعادت تركيب آلة صنع القهوة ووضعتها على النار.

جلست وأخذت تنقر بأصابعها الطاولة. فقد صار كل حديث زوجها يدور حول سِلفتها: "أنَّا" هنا"، و"أنَّا" هناك". كان يقول لها وهو يغادر البيت في الصباح الباكر: "سأذهب لأرى أكانت "أنَّا" تحتاج إلى شيء ما". وعندما يعود وقت العشاء يخبرها بارتياح: "تبدو "أنَّا" اليوم أفضل حالًا". أو يقول: "أراها فقدت بعد الوزن. هي لا تأكل جيدًا، يجب أن ندعوها إلى تناول العشاء معنا في بيتنا".

لقد بذلتْ "أجاتا" في الأسابيع التي أعقبتِ الجنازة جُهدًا مُضنيًا إذ كانت تُعدُّ الطعام بصورة مستمرة لسلفتها ولـ"روبرتو"، بل وكانت تطبخ كذلك لـ"تلك المرأة التي تُدعى "چوفانَّا"، كما نظَّفت بيتهما قبل ليلة "السهر على الجثمان" وبعدها. كانت تَذهب لزيارتهما يوميًّا وتعرض عليهما أن تعمل أي نوعٍ من الأعمال والمهام نيابةً عنهما، إلا أن كل هذا بدا غير كافٍ أبدًا بالنسبة إلى زوجها، هذا على افتراض أنه لاحظ أصلًا ما تفعله من أجلهما.

لقد مرَّ أكثر من عام على وفاة "كارلو" ولم يُفكِّر أحد ألبتَّة أن يسألها عمَّا تشعر به حيال موته. كانت هي أيضًا تُكِنُّ لصهرها محبة حقيقية، فقد كان يعاملها بلطفٍ دومًا وكثيرًا ما كان يجعلها تضحك بدعاباته ومزحاته المستمرة، لقد ذرفت "أجاتا" دموع حزنٍ وألمٍ صادقة على وفاة "كارلو"، ومع ذلك بدا حدادها غير مرئيٍّ لعينيْ "أنطونيو" و"أنَّا"، فهما وحدهما من عانيا موته، وهما وحدهما من احتاجا إلى التفهُّم والمواساة، وهما وحدهما من فقدا "كارلو" حقًّا. اندفعتْ "أجاتا" قائلة حالما سمعت صوت قرقرة ماكينة القهوة: "سحقًا، فليذهَب كلاهما إلى الجحيم!".

نهضتْ وأطفأتْ النار وسكَبَتِ القهوة في الفنجان وشربتها على عجلٍ وهي واقفة على قدميها، ثم صعدتْ إلى غرفة النوم كي ترتدي ملابسها. ستذهب ككل صباحٍ لتبقى برفقة حفيدتها "چادا" حتى تُنهي "لورينسا" وزوجها "تومَّازو" عملهما. فكَّرت بينها وبين نفسها وهي تستند إلى درابزين السلم: "حمدًا لله على وجود هذه الطفلة".

قال "كارمينيه" وهو يتَّقد حماسًا: "يجب أن يحصلوا على الأرض بالقوة". كان متكئًا إلى باب الغرفة الخلفية ويشرح لـ"إيلينا" السبب الذي يجعل من "الصواب"، بل "من الحتمي" أن يتوجَّه العمالُ الزراعيون إلى الاستيلاء على أراضي ريف "أرنيو"، وهو مِنْطَقة شاسعة من أراضي الإقطاع تبلغ مساحتها عشرات الآلاف من الفدادين، تقع ما بين بلدية "ناردو" ومقاطعة "تارانتو" التي يملكها "بارون" كان قد تركها دون أن يولِّيها أي اهتمام منذ انضمامه إلى الاتحاد العام للعمل الإيطالي "CGIL".

كان "كارمينيه" قد بدأ في مساندة قضية العمال الزراعيين والدفاع عنها ومناصرتهم، ولم يعدْ يتحدث عن أي شيءٍ سواها، بل إن "أنَّا" قالت بينها وبين نفسها عندما دخلت إلى المكتب في منتصف ما بدا خطابًا حماسيًّا يحمل طابعًا سياسيًّا أو نقابيًّا: "بل في الحقيقة هو لم يتكلم عن أي شيء بهذا القدر والاهتمام منذ عرفته".

عندما أُقِرَّت الإصلاحات الزراعية في أكتوبر، وصل "كارمينيه" إلى المكتب وقد أعماه الغضب، وأخذ يوجِّه انتقادات لاذعة إلى الحكومة التي استبعدتْ بالكامل مِنْطَقة "ليتشي" من قانون التسوية ومن عملية مصادرة الأراضي غير المزروعة. منذ ذلك الحين لم يفعلْ شيئًا سوى التأكيد، يوميًّا ودون كلل، على أنه من الضروري تعبئة العمال الزراعيين، ودفعهم إلى النضال لإجبار الحكومة على إدراج مِنْطَقة "سالينتو" أيضًا في المرحلة الوشيكة من عملية توزيع الأراضي. استدار "كارمينيه" نحو "أنَّا" وسألها: "أليس كذلك، يا ساعية البريد؟".

ربما تكون هذه أول مرة خلال سنوات كثيرة التي يتَّفقان فيها على أمر ما. فحقيقة أن "أنَّا" قد شاركته الرأي في ما يتعلَّق بحقوق العمال الزراعيين غيَّرت فجأة من طبيعة علاقتهما. إذ كان يعاملها طَوالَ الوقت بلا مبالاة، بل وأحيانًا بفظاظة وجفاء. أما الآن فهو يُظهر لها بوضوح نوعًا من التعاطف الممزوج بالود. أومأت "أنَّا" برأسها وأجابته فيما تضع الحقيبة على الطاولة: "أنت على حق، لكنْ أرجو ألا يكون الأمر متعلقًا هذه المرة أيضًا برشوة لتهدئة العمال وليس أكثر".

أثنى "كارمينيه" على حديثها وقال: "بالضبط".

تمتمتْ "إيلينا": "سحقًا، أنا لا أفهم منطق هؤلاء العمال؛ إن الأمر يشبه أن تأتي إلى منزلي وتخبرني أن هذا المنزل من اليوم فصاعدًا أصبح لك، بأي حق بربِّك؟!".

صاح "كارمينيه" بغضب مستأنفًا على الفور خطابه الحماسي: "يبدو أنكِ لا تريدين أن تفهمي أبدًا".

بقيت "أنَّا" تراقبهما بعضَ الوقت وهما يتجادلان، ثم خفضت رأسها وقد لاحت على شفتيها ابتسامة صغيرة، وأخذتْ تفرز الخطابات الجديدة التي عليها إيصالها.

وصل "تومَّازو" و"لورينسا" معًا بعد ذلك بقليل؛ حيَّا "تومَّازو" الجميع مبتسمًا كعادته. لاحظت "أنَّا" أن "تومَّازو" توقَّف فعلًا منذ عدة أيام عن ارتداء القبعة التي أهدته إياها "لورينسا" في عيد الميلاد، والتي لم ينزعها قطُّ منذ ذلك الحين.

مرَّت "لورينسا" من أمامها، وتوجهتْ مباشرة نحو مكتب التلغراف. نادتها "أنَّا": "صباح الخير، أم ماذا؟".

استدارت "لورينسا" وكانت مكفهرةَ الوجه وتمتمت: "نعم، المعذرة يا عمة! صباح الخير"، ثم عبرتِ الباب مفسحة لنفسها طريقًا بين "كارمينيه" وإطار الباب المستند إليه.

كان "كارمينيه" حينئذٍ يقول: "لا بُدَّ من توجيه ضربة موجعة وحاسمة إلى نظام الإقطاع".

تذمرتْ "لورينسا": "يا إلهي، إنها الأحاديث ذاتها من جديد. كفى بربكم".

وبخها "كارمينيه" قائلًا: "عليكِ أن تستمعي أنتِ أيضًا لهذه الأحاديث أيتها الفتاة الصغيرة".

قالت "لورينسا" في اندفاع: "لمن تقول فتاة صغيرة؟".

تدخَّل حينها "تومَّازو" محاولًا تهدئة الأجواء التي توتَّرت فجأة في المكتب: "هيا، هيا، ليذهب كلٌّ منكم إلى عمله في الحال". ثم جلس إلى مكتبه.

بينما كانت "أنَّا" تضع حقيبتها على كتفها تفرَّست في وجهه الذي بخلاف ما لاح عليه من تعبٍ وإرهاقٍ شديدين، كانت قد ظهرت فيه بعض التجاعيد التي تركَّزت في جبهته وحول عينيه، وجعلته يبدو أكبر سنًا من عمره الذي لم يتجاوز الثالثة والأربعين، وحالما لاحظت ذلك حتى شعرت بوخزة في قلبها يعود مصدرها إلى إحساسٍ غامضٍ بالذنب، ولكنها سرعان ما تخلصت منه في الحال.

انتبه "تومَّازو" حينئذٍ أن أحدًا يراقبه، فرفع رأسه ونظر إلى "أنَّا"، فخفضت عينيها في الحال وقالت: "أنا ذاهبة، إلى اللقاء". وانطلقت مغادرة المكتب.

كانت قد وصلت عند الباب عندما انضمت إليها "لورينسا"، وقالت: "انتظري يا عمة! هل يمكنني أن أتحدث إليكِ لحظةً واحدةً؟".

رفع "تومَّازو" عينيه لحظةً من جديد ونظر إليها، فيما أجابتها "أنَّا": "نعم، طبعًا، لكنْ أسرعي. يمكنكِ إخباري بما تريدين فيما ترافقينني إلى دراجتي". سألتها "أنَّا" حالما خرجتا من المكتب: "ماذا هناك؟".

قالت "لورينسا": "أريد أن أترك "چادا" عندكِ بعد ظهر اليوم لمدة ساعتين؟ من الثالثة وحتى الخامسة على الأكثر".

رفعتْ "أنَّا" حاجبها وسألتها: "هل ستذهبين من جديد إلى "ليتشي"؟ ستذهبين إليه؟".

أومأتْ "لورينسا" ثم سألتها: "فماذا إذن، هل يمكنكِ الاعتناء بها في تلك الأثناء أم لا؟".

أجابتها "أنَّا": "طبعًا، أنتِ تعلمين أنني أحب الجلوس معها".

تهلَّل وجه "لورينسا" بابتسامة عريضة وصاحت فيما تعانقها: "شكرًا، شكرًا، شكرًا". ثم عادت إلى الداخل بالابتسامة ذاتها وجلست إلى مكتبها دون أن تتكلَّف عناءَ أن تلقي نظرة على "تومَّازو".

استدارتْ نحو "إيلينا" وقد بدتْ سعيدة للغاية ومبتهجة، وقالت لها: "انظري إلى وجهك! كم هو متورِّد اليوم! تبدين بحالة جيدة حقًّا!".

رمقتها الأخيرة بنظرة حائرة وقالت: "عن أي حالة جيدة تتحدثين؟ لم يغمضْ لي جَفْن طَوال الليل"، وبدأتْ على الفور للمرة التي لا يعرف أحدٌ عددها في شرح كيف جافاها النوم، وكيف أفسدت عليها الحرب نومَها. لم تستمع "لورينسا" ولو لكلمة واحدة من حديث "إيلينا"؛ فهي لم تكن تفكر سوى أنها تفصلها بضع ساعات عن أن تكون بين ذراعي "دانييليه"، فهي لم تره منذ ستة أيام بدتْ لها أيامًا طويلة للغاية.



في منتصف شهر ديسمبر، كانت الشِّحنة المتجهة إلى "نيويورك" والمحملة بزجاجات نبيذ "دونَّا أنَّا" التي أنتجها مصنع ومخزن "جريكو" من حصاد عام 1950 جاهزة لمغادرة المصنع. اعتنى "دانييليه" بالشِّحنة حتى أدق التفاصيل، مضيفًا رسالة شكر مكتوبة بخط يده إلى كل صندوق، هذا بالإضافة إلى زجاجة هدية من نبيذ "دون كارلو"، أول نبيذ أحمر من إنتاج مصنع "جريكو" والذي تمت تعبئته خلال الأشهر الأولى لذلك العام، والذي يا للأسف لم يتسنَّ لـ"كارلو" الوقت الكافي لرؤيته. كان "دانييليه" هو من اقترح اسم هذا المنتج الجديد، وعندما عرضه على "أنَّا" و"روبرتو" أمسكت "أنَّا" يده بكلتا يديها وقالت في تأثر: "كان سيعجبه جدًّا".

ترقرقتْ كذلك عينا "روبرتو" بالدموع، وطلب منه أن يتذوَّق كوبًا منه. وهكذا ملأ "دانييليه" كأسين واحدة له والأخرى لـ"روبرتو"، وقدمه له وهو يشرح كيف عليه أن يختبر مذاق هذا النبيذ، إذ كان عليه أولًا أن يدير النبيذ داخل الكأس، وفسَّر هذا قائلًا: "أترى؟ هكذا. فهذا يساعد على إطلاق المركَّبات العطرية التي يحويها النبيذ، ثم أوضح له كيف عليه أن يميل الكوبَ ويرفعه حتى أنفه كي يتمكن من استنشاق رائحة النبيذ بعمق. وفي النهاية سأله: "ما الذي تشمه؟".

دسَّ "روبرتو" أنفه داخل الكوب، ثم أبعده وبدتْ عليه الحيرة والتشكك، ثم أجاب وهو محرجٌ قليلًا: "له رائحة نبيذ".

ضحك "دانييليه" و"أنَّا" ثم دعاه ليجرِّب رشفةً أخرى وسأله: "ألا تستطيع أن تشم رائحة الكرز على سبيل المثال أو العليق الأسود؟".

تشمم "روبرتو" رائحة النبيذ من جديد. ثم استطرد "دانييليه": "عليك أن تشتم أيضًا رائحة الفلفل".

أجاب "روبرتو" مترددًا: "نعم، ولكني تشمَّمتُ تلك الروائح فقط الآن بعدما أخبرتني".

طمأنه "دانييليه" بابتسامة: "أنت بحاجة إلى أن يتحسَّن أداء أنفك، تلزمك فقط بعض التمارين". قال "دانييليه": "والآن اختبار التذوق".

تناول "دانييليه" رشفةً صغيرةً من النبيذ واحتفظ بها داخل فمه مدةً ثم ابتلعها، فسأل "روبرتو": "ألا تشعر بالطعم الناعم المخملي الذي يتبقى في فمك؟". حذا "روبرتو" حذوه، ثم أومأ برأسه، ولكنه لم يبدُ مقتنعًا كثيرًا بما يقوله الآخر.

قال له "دانييليه" وهو يُربِّت كتفه مختتمًا تلك التَّجْرِبة: "سترى مع الوقت كيف ستشم وتتذوق كل هذه الأشياء".

كانت الأيام التي تلت وفاة "كارلو" في غاية الصعوبة بالنسبة إلى "دانييليه"، ليس فقط بسبب الألم الذي سبَّبه له عدم وجود الرجل الذي غيَّر حياته إلى جانبه، وإنما أيضًا لأنه في الواقع كان مقتنعًا بأن ما أملاه "كارلو" في وصيَّته سيثير حالة من الفوضى والارتباك ستعقبها شجارات وسوء فهم. ظنَّ "دانييليه" أن تلك الوصية ستُدمِّر علاقته بأسرة "جريكو" –أسرة حبيبته "لورينسا"– بطريقة لا يمكن إصلاحها. كان على يقينٍ من أنه لو كانت أمه "كارميلا" مكان "أنَّا" وابنها، واكتشفتْ شيئًا كهذا، كان جنونها سيجن، وستقف لهذه الوصية بالمرصاد، وتحول بكل الطرق دون تنفيذها. بل إن قلقه من الأمر دفعه إلى أن يفكِّر جديًّا،

وهو في طريقه إلى كاتب العدل لفتح الوصية وقراءتها، في النزول عن نسبة الثلاثين بالمائة حتى لا يُحرِّك المياهَ الراكدة، وكي تبقى الأمور على ما هي عليه. دخل "دانييليه" مكتبَ كاتب العدل على أطراف أصابع قدميه تقريبًا، وقد بدت على وجهه تعبيرات من يودُّ تقديم اعتذارٍ على فِعلة ما.

حالما وصل إلى المكتب حيَّا "أنَّا" و"روبرتو" اللذين جلسا بالقرب من بعضهما مصافحًا إياهما، ثم جلس في الكرسي الذي تُرِكَ شاغرًا له. طَوال مدة قراءة الوصية، ظلَّ "دانييليه" ينظر إليهما، وهو يفرك يديه بعصبية، خوفًا من اللحظة التي سيذكُر فيها كاتب العدل اسمه. إلا أنهما -وعلى العكس من توقعاته وتخيُّلاته- فاجآه برد فعلٍ مغايرٍ تمامًا لم يكن مستعدًّا له ولم يكن يحسب له حسابًا، إذ بقيا كلاهما ساكنين وهادئين وصامتين مكتفيين بالإيماء برأسيهما بين الحين والآخر. علقت "أنَّا" مطمئنةً إياه حالما خرجا من مكتب كاتب العدل: "إذا قرَّر "كارلو" هذا، فلا بُدَّ أن هناك أسبابًا وجيهة دفعته إلى اتخاذ هذا القرار، ومن المؤكد أنه سيصبُّ في صالح المصنع، وإذا كان تفكيره في مصلحة العمل هو سبب كتابته هذه الوصية، فهذا يُعدُّ كافيًا بالنسبة إلينا"، ثم أوضحت: "على "روبرتو" أن يُنهي دراسته الثانوية أولًا ولذلك سيتعيَّن عليك أن تهتم وحدك بأمور الكرم والمصنع حتى يُنهي دراسته".

علق "روبرتو" على كل هذا فيما يعبث بيده في شعره بطريقة مضحكة: "سيكون عليكَ أولًا أن تعلِّمني كل شيء؛ فأنا لا أفقه شيئًا عن النبيذ".

أغلق "دانييليه" الصندوقَ الأخيرَ ثم قال لرئيس العمال ومدير المصنع الذي كان قد حلَّ محله عندما سافر إلى "نيويورك": "لقد أنهينا عملنا لهذا الصباح" ثم ربَّت بودٍّ كتفه.

ألقى نظرة على الساعة واعتقد أنه ربما لا يزال لديه الوقت الكافي كي يركب الحافلة المتجهة إلى "ليتشي" التي ستغادر في الثانية عشرة والنصف ظهرًا؛ وفكر

أن بإمكانه أن يقضي بضع ساعات في الرسم، ثم يعود بعد الظهر إلى المصنع. كان يتطلَّع بشغفٍ وبعدم صبر إلى إنهاء التصميم الذي بدأه قبل بضعة أيام. كان ينجح في ذلك الوقت في الذَّهَاب إلى مشغله مرَّتين فقط في الأسبوع على الأكثر، إذ ظلَّ عمله في المصنع على مدار العام والنصف الماضيين –أي منذ وفاة "كارلو"– يستنفد كل طاقته وجُهْده. واصل "دانييليه" العمل في مصنع ومخزن النبيذ فقط من منطلق المحبة التي طالما كنَّها لـ"كارلو"، وتقديرًا واحترامًا للثقة التي منحه إياها، وعلى الرغم من ذلك ظلَّ يدفع إيجار بيت الأزياء خاصته على أمل أن يتمكن من القيام بالأمرين معًا. إلا أنه بعد مرور بعض الوقت اضطُرَّ إلى الاعتراف باستحالة قيامه بهذا، ولذلك كان يرسم فقط عندما يمكنه ذلك في أوقات فراغه وفي الوقت الذي يقتطعه من عمله بالمصنع وكرم العنب في انتظار أن يُنهي "روبرتو" دراسته ويتسلَّم زمام أمور المصنع. كان مشغَل "دانييليه" حتى ذلك الوقت هو المكان حيث يمكنه هو و"لورينسا" مواصلة لقاءاتهما دون قلقٍ أو إزعاجٍ من أي أحدٍ بعد ظهر يوم الأربعاء من كل أسبوع.

كان "دانييليه" قد رَكِب دراجته السوداء من طراز "لاوتال تاوروس" عندما رأى سيارة "أنطونيو" "الفيات 508" تصل إلى المصنع محاطة بسحابة من الغبار. ترجَّل حينها من دراجته، وأسندها من جديد إلى الحائط وتوجَّه ناحيته.

قال "دانييليه" وهو ينحني وينظر إليه خلال نافذة السيارة المفتوحة: "صباح الخير يا "أنطونيو".

سأله الأخير: "هل كنت مغادرًا؟".

أجاب "دانييليه": "نعم، لكنْ لا تقلق يمكنني البقاء بعضَ الوقت. تعالَ! دعْنا ندخلْ".

ترجَّل "أنطونيو" من سيارته وتبعه حتى المكتب الذي كان في السابق مكتب "كارلو". أغلق "دانييليه" الباب ودعاه ليجلس. ثم أخذ ملفًّا كبيرًا جدًّا من فوق المكتب وقدَّمه له وأخبره: "أدرجتُ فيه كل ما طرأ على المصنع من إحداثيات حتى أمس".

ابتسم له "أنطونيو" نصف ابتسامة، ثم فتح الملف وقلَّب فيه حتى وصل إلى الصفحات الأخيرة كما يفعل كل أسبوع. ألقى نظرة على السجلَّات، وفحص الحسابات، إذ كان يصر على معاملة "دانييليه" مثل أي موظف آخر. رفع "أنطونيو" نظره إليه وسأله: "لماذا زاد البند الخاص بالرواتب مقارنة بالأسبوع الماضي؟".

أوضح له "دانييليه": "لقد منحتُ العمالَ زيادةً صغيرةً في رواتبهم".

زمَّ "أنطونيو" شفتيه في انزعاج واستند إلى ظهر الكرسي وقال: "احذر من إرضائهم طَوال الوقت. إذا زوَّدت أجورهم في كل مرة يتذمرون فيها فستفقد كل سلطتك عليهم، وستفقد مكانتك ونفوذك في أعينهم. تعامل معهم بتفهُّم، لكنْ بحزم وصرامة، خاصة وأنت تبدي رفضك بشأن الأمور التي تحتاج إلى الرفض".

أراد بشدة أن يرد عليه ويقول إن هذه الهبات تبدو له أكثر من منصفة وإنه في العموم يميل بالكامل إلى صفوف العمال الزراعيين ويؤيد مطالبتهم بحقوقهم، مع أنَّ أراضي كرم عنب "جريكو" لم تكن محل نزاعٍ من الأساس. كان هو أيضًا واحدًا من العمال عندما كان صبيًّا، ولقد عرف جيدًا مقدار الجُهْد والتعب الذي يبذله العمال، واعتقد في كثيرٍ من المرات أن المرتب الذي يتقاضونه قليلٌ جدًّا مقارنة بالعمل الشاق الذي يؤدونه. صحيحٌ أن "كارلو" لم يكن قطُّ مالكًا متعجرفًا ومستبدًّا مثل كثيرين آخرين. في الواقع، لقد أظهَر دائمًا استعداده للاستماع لآراء العمال والفلاحين، إذ كان يطلب نصيحتهم، ويستمع لهم إذا كانت لديهم أي شكاوَى، ولم تَكُن لديه أي مشكلات في منح الأذون والإجازات. لكنَّ "كارلو" على أي حال لم يكنْ واحدًا منهم، ومع أنَّه حاول، فإنه لم يتمكن قطُّ من فهمهم كما يجب، أما "دانييليه" فكان واحدًا منهم، لذلك هو يفهمهم بكل تأكيد. كان يعرف أنه واحد منهم وهو الشيء ذاته الذي أدركه أيضًا عمال الكرم. أراد أن يخبره

بكل هذا، لكنه امتنع، فلطالما بدت له علاقته بـ"أنطونيو" على المحك، وأن أدنى شيء وأتفهه كافٍ لتدميرها. صحيح أنه كان لطيفًا معه، ولكنَّ هذا اللطف امتزج في الوقت ذاته بقدر من التحفظ. كان يعامله بتهذيبٍ لا يخلو على الدوام من الحذر. في بعض الأحيان كان "أنطونيو" يحدق إليه بتجهُّم، فترتعد فرائصه ويسأل نفسه أكان قد فهم كل شيءٍ عن علاقته بابنته. ماذا سيحدث إذا تعقَّب "لورينسا" ذات يوم وباغتها بالدخول إلى مشغله؟ لم يكن "دانييليه" يريد حتى مجرد التفكير في الأمر.

تمتم "دانييليه" قائلًا في النهاية تعليقًا على نصيحة "أنطونيو" وهو يدس يده في جيبه: "حسنًا، سأتذكَّر كلامك هذا وأنتبه إليه".

بقي "أنطونيو" نحو عشرين دقيقة إضافية بحث خلالها السجلات بدقة، وأعاد إجراء بعض الحسابات المختلفة، وطلب حساب هذا أو ذاك. ألقى "دانييليه" نظرةً سريعةً على ساعته، وأدرك بقدرٍ من الاستياء أن الحافلة في ذلك الوقت قد فاتته فعلًا.

في النهاية قال "أنطونيو" فيما يغلق الملف: "حسنًا، أعتقد أن كل شيءٍ الآن على ما يرام". وأضاف قائلًا فيما يغلق الملف: "من الأفضل أن أتعجَّل في المغادرة فجميعنا اليوم مدعوُّون لدى "لورينسا" و"تومَّازو". ثم رمقه خُلْسَة بمؤخرة عينيه منتظرًا أن يبدو على وجهه تعبيرًا ما.

أجابه "دانييليه" وهو يبذل جُهْدًا ضخمًا ليبتسم له: "حسنًا، استمتعْ إذن بغداءٍ طيب". ورافقه إلى مخرج المصنع.



كان متبقيًا أسبوعٌ واحد بالضبط على عشية عيد الميلاد وأصرَّت "چوفانَّا" بشدة بعد ظهر ذلك اليوم على أن تحمل معها "أنَّا" إلى "ليتشي". طلبتْ منها بنبرة تكاد تكون طفولية كما لو كانت طفلة شقيَّة متقلبة المزاج: "دعينا نذهب إلى معرض عيد الميلاد من فضلكِ، سمعت أنه معرضٌ جميلٌ للغاية، هيا، هيا أرجوكِ".

تأففتْ "أنَّا" في البداية ثم وافقتْ على مضضٍ في النهاية، ولكنها فعلتْ هذا فقط كي تُسعِد "چوفانَّا"، أما هي فلم تكن في مزاجٍ جيدٍ يسمح لها على الإطلاق برؤية الترتر وأدوات التزيين الخاصة بالأعياد، أو الانغماس في الحشد الصاخب الذي تعجُّ به تلك المعارض. في العام السابق، رفضتِ الاحتفال بعيد الميلاد، وعقدتِ العزم على عدم الاحتفال به ذلك العام أيضًا. لقد أقسمتْ لنفسها: "لن أفعل هذا بعد أبدًا دون "كارلو". لقد أثار ذلك المعرض غضبها كما توقعت؛ إذ كان يعجُّ بالأنوار والناس والابتسامات. كانت "أنَّا" تلاحظ كل زوجين يمُرَّان بالقرب منها خاصة الأزواج الذين كانوا يسيرون ممسكين بأيدي بعضهم، والذين بدوْا سعداءَ ومتحابين. فيما بدت "چوفانَّا" لا ترى أمامها سوى الأكشاك خاصة أكشاك الحلوى. أرادت أن تتذوق كل الحلوى الموجودة: حلوى اللوز و"الموستاتسُّولي"، و"الكوبيتا" و"البورتشيدّروتزي".

سألتها "أنَّا" بإصرار: "هل يمكننا أن نذهب الآن؟".

أجابتْ "چوفانَّا": "دعينا نبقَ مدةً أطولَ قليلًا". ثم سرعان ما تشتَّت انتباهها وقالت: "انظري! تلك القطارات الخشبية الصغيرة! لطالما أعجبتني"، ثم أمسكتها من يدها وجذبتها نحو الكشك الذي يبيع القطارات.

ركبتا الحافلةَ الأخيرةَ لذلك المساء ولم تعودا إلى البيت إلا في موعد العشاء وكانتا منهكتين وأرجلهما تؤلمانهما. حالما فتحت "أنَّا" باب المنزل ظهر "روبرتو" و"أنطونيو" أمامها مباشرة مبتسمين، ثم انضمت إليهما "چوفانَّا" وصاح ثلاثتهم قائلين: "مفاجأة!".

نقلت "أنَّا" نظرتها عنهم، وانتبهتْ لشجرة تنوب كبيرة تتوسَّط غرفة المعيشة، وقد زُيِّنت بالطريقة ذاتها التي كان يتبعها "كارلو". تقدمت ببطءٍ نحو الشجرة دون أن تتفوَّه بكلمة واحدة فسألها "روبرتو" وهو يفرك يديه: "هل أعجبتكِ يا أمي؟ لقد قضينا أنا وعمي "أنطونيو" وقت ما بعد الظهيرة بالكامل في تركيبها وتزيينها".

أوضح "أنطونيو" مبتسمًا: "لقد اهتمَّ هو بكل شيء، اقتصر دوري على تقديم المساعدة له".

أخذت "أنَّا" تمثالًا خشبيًّا على هيئة ملاكٍ صغير تنقصه بعض الأجنحة، وهو ذلك التمثال الذي أصرَّ "كارلو" على ألا يتخلَّص منه أبدًا. فمع أنَّه قد تعرَّض للكسر منذ سنوات، ومع أنَّ "أنَّا" قد أكَّدت له مرارًا وتَكْرارًا أن له مظهرًا بشعًا حقًّا، فإنه كان يعترض على كلامها في كل مرة قائلًا: "لا يهم كيف يبدو، إنه ذكرى، والذكريات لا يُتخلَّص منها".

كرَّر "روبرتو" متسائلًا: "أمي؟ ماذا إذن؟ هل أعجبكِ؟".

اقتربتْ منها "چوفانَّا" ووضعتْ يدها على كتفها.

قالت: "كنا نريد فقط أن نراكِ سعيدة".

استعطتْ "أنَّا"، وجفَّفتْ دمعة تساقطتْ على خدها، ثم قالت دون أن تتطلع إلى وجه أيٍّ منهم: "فُكُّوها في الحال من فضلكم". سارت تجاه الدرج، ولكنها عندما مرت بـ"أنطونيو" توقَّفت ورفعت نظرها نحوه وسألته بحدة: "كيف خطر لك أن تفعل هذا؟"، ولاحت في عينيها المبلَّلتين بالدموع نظرة امتزج فيها الألم بالتوبيخ.

نظر إليها "أنطونيو" في المقابل بحيرة وارتباك وتمتم: "أنا لم...".

ولَّته "أنَّا" ظهرها، وصعدت راكضة الدرج. حاول "أنطونيو" إيقافها: "أنَّا"، انتظري"، ولكنها لم تُجِبه، وساد بعدها الصمت في غرفة المعيشة، ثم اقترب "أنطونيو" من الشجرة بخطوات بطيئة وتمتم بصوتٍ خافت: "هيا، ساعدوني في فكِّ الشجرة".

24
أبريل – مايو 1951

ظلت "أنَّا" تلقي نظرات جزعة لا تحصى على ساعة معصمها التي كانت عقاربها لا تزال تشير إلى الساعة الثانية عشرة وخمسة وعشرين دقيقة وهو التوقيت ذاته الذي كانت عليه الساعة قبل بضع دقائق عندما نظرت إليها "أنَّا" آخر مرة.

لذا سألت "تومَّازو" عن الساعة فأجابها بعد أن ألقَى نظرة سريعة على ساعته: "إنها الواحدة إلا الربع".

ففكت "أنَّا" الإبزيم وخلعت ساعتها وأدارت تاج الساعة فتحرَّكت العقارب لتشير إلى الوقت الصحيح.

كانت قد عادت فعلًا من جولة تسليم البريد منذ قليل، إلا أنها لم تُقرِّر بعد المغادرة والعودة إلى بيتها، إذ كانت تنتَظِر بقلقٍ عودة "كارمينيه" الذي طَلَب يومئذٍ –والموافق 24 من أبريل– من المدير إذن ببضع ساعات كي يتمكَّن من حضور جلسة الاستماع الختامية للمحاكمة، والتي كان سيَصدُر فيها الحكم بشأن تلك الدعوة التي أُقيمت ضد من استولوا على ريف "أرنيو"، إذ وجَّهت المحكمة إلى ستين شخصًا كان من بينهم عمال زراعيون، ومديرو "الاتحاد العام للعمل الإيطالي"، وبعض أعضاء الحزب الشيوعي تهمةَ "الاستيلاء غير الشرعي على أراضي الغير".

تعود عملية الاستيلاء هذه إلى شهر ديسمبر من العام الماضي عندما رَكِب ألفا عاملٍ من المِنْطَقة دراجاتهم الهوائية، حاملين أدوات عملهم على أكتافهم، رافعين عددًا لا يُحصَى من الأعلام الحمراء وانطلقوا يهتفون: "الأرض حق من يعمل بها!".

استمرتْ حركة العمال تلك أسبوعًا فقط، أي حتى يوم 3 يناير؛ ففي ذلك اليوم طردتِ الشرطةُ العمالَ أولًا من الأرض ثم أحرَقت جميع دراجات العمال مثيرةً بذلك نيرانًا ضخمة، ومن بين تلك الدراجات دراجة "أنَّا" "البيانكي سوبريما"، التي كانت قد أعارتها إلى زوجة أحد عمال بلدة "كوبرتينو"، وهي بلدة تقع على بعد نحو عشرين كيلومترًا من "ليتسانيلُّو".

تُدعَى تلك السيدة "ماريزا"، متزوجة من "دوناتو" وهو أحد إخوة "كارمينيه". كان "كارمينيه" قد ذهب إلى منزل "أنَّا" في صباح عيد القديس "ستيفانو" وطلب منها أن تُعيرَه دراجتها "من أجل القتال"، أو بالأحرى أراد أن يستعيرها من أجل "ماريزا" التي كانت مصممة على أن تلحق بزوجها حتى ريف "أرنيو". أوضح لها: "ولكنها ليست لديها عجلة نسائية، فلقد احتاجوا إلى مبلغٍ كبيرٍ فعلًا لشراء عجلة "دوناتو" خاصة مع هذا الراتب الزهيد الذي يتقاضاه. ألا يمكنكِ أن تعيريها دراجتكِ؟ ماذا قلتِ يا ساعية البريد؟ سأهتم أنا بإعادتها إليك سليمة تمامًا".

لم تفكر "أنَّا" في الأمر ولو لحظةً. لقد أخذت دراجتها "البيانكي" المتوقِّفة في الفناء ممسكة إياها من مقودها، وسلمتها إلى يديْ "كارمينيه"، وقالت مازحة: "هذا يعني أنني سأعود بعضَ الوقت إلى تسليم البريد على قدميَّ كالأيام الخوالي".

حيَّاها هو بينما يغادر، وقد خالجه شعورٌ بالرضا والسعادة، وقال: "أشكركِ من قلبي يا رفيقتي "أنَّا"!".

عندما جاء "كارمينيه" وعلى وجهه علامات الأسف ليخبرها بالنيران التي ابتلعت دراجتها عرض عليها على الفور أن يشتري لها دراجة جديدة، ولكنَّ "أنَّا" رفضت، وطمأنته قائلة وهي تربت ذراعه: "لا تقلق. سأشتري أنا واحدة بنفسي".

تمتم هو مؤكدًا أنه ليس من العدل أن تتكلَّف ثمن دراجة جديدة، وأنه هو من يتعيَّن عليه تعويضها، لكنها أجابته: "هذا ليس ذنبك، إذا كان هناك أيُّ شخصٍ عليه أن يدفع لي فهي الشرطة".

لذا ذهبتْ في اليوم التالي إلى بائع الدراجات الذي باع لها قبل ذلك دراجتها "البيانكي سوبريما" وطلبت منه أن يبيع لها دراجة أخرى مثلها، وأوضحتْ له أنها لا تمانع أن تشتري دراجة مستعملة. وفعلًا نجح الرجل الذي كان قصيرَ القامة، وفي غاية النحافة، وفي الخمسينيات من عمره، ويعتمر قبعةً مسطحةً وبنطالًا أكبر بدرجة واحدة من مقاسه في أن يُوفِّر لها دراجة مماثلة لتلك التي أحرقتها الشرطة، لكنْ بنصف ثمنها الأصلي.

استقبلها بائع الدراجات عند باب متجرة محيِّيًا إياها وقال لها قبل أن يعد الأموال التي كانت قد سلَّمته إياها "أنَّا" في ظرفٍ مغلق: "لقد أنجزتِ صفقةً رابحةً أيتها السيدة ساعية البريد!".

وصل "كارمينيه" أخيرًا وهو يعرج قليلًا، واتجه مباشرةً نحو مكتبه. لاحت في عينيه نظرة غريبة بدت متفكِّرة ومشغولة في الآن ذاته. قالت "أنَّا" فيما تنهض من كرسيها "هأنت ذا قد وصلتَ أخيرًا! أخبرنا إذن ماذا حدث؟".

أجابها "كارمينيه" بطريقة أشبه بالهمهمة. دفع الفضول "إيلينا" إلى الانضمام إليهما، كما وضع "تومَّازو" القلمَ على مكتبه، وعقد ذراعيه حول صدره، وأعد نفسَه للاستماع لما سيقوله "كارمينيه"، وقد ألقى نظرةً سريعةً إلى غرفة مكتب التلغراف حيث تعمل "لورينسا"، ولكنه وجدَها جالسةً على كرسيها ولم تبدِ اهتمامًا لما يشغلْ بقية أفراد المكتب.

بدأ "كارمينيه" حديثه وهو يجلس على كرسيه قائلًا: "كانت الأمور ستسير بشكلٍ أفضل، أدانوا خمسةً وعشرين من أصل ستين، وأطلقوا على هذا الحكم اسم "العقاب الرمزي". ربما يكون رمزيًّا، ولكنه يظلُّ عقابًا على أي حال. كان يجب أن يخرجوا جميعًا من هذه القضية دون أن توجَّه إلى أيٍّ منهم أيُّ تهمة تُذكر فهم في الحقيقة غير مذنبين فعلًا".

سأل "تومَّازو": "وماذا يعني هذا؟ ما العقوبة التي وقعت عليهم؟".

أجاب "كارمينيه" متجهِّمًا: "السجن شهرًا مع غرامة قدرها ستة آلاف ليرة".

علَّقت "أنَّا" قائلة: "اللعنة! العزاء الوحيد هو أنه على الأقل ما فعلوه لم يذهب بالكامل سدى".

تنهَّد "كارمينيه" وقال وهو يميل إلى الخلف ويستند إلى ظهر الكرسي: "فعلًا".

كان لأمر الاستيلاء على ريف "أرنيو" صدى واسع في الصِّحافة القومية إذ تناولتْ جرائد مثل "إيل بائيزيه – Il paese" و"لونيتَّا – L'Unità" ذلك الحدث بتغطيات موسَّعة ومقالات مطولة، ولم تفوِّت "أنَّا" أيَّ مقال كُتِب عن هذه القضية.

وصفتِ الجرائد من استولوا على ريف "أرنيو" بالأبطال، "**رجال بائسون يرتدون ملابس ممزقة يحرِّكهم هدفٌ نبيلٌ، وهو زراعة أراضي المِنْطَقة، شنوا هجومًا على الإقطاعيات**".

فكَّرت "أنَّا" حينها أنه في النهاية، وبفضل نضال هؤلاء العمال، أُدرجت أخيرًا أراضي مقاطعة "ليتشي" ضمن مشروع الإصلاح الزراعي، ولكنَّ "أنَّا" اعتقدت أن هذا يُعدُّ تعويضًا بسيطًا للغاية، فمن بين 266 ألف فدان صالحة للمصادرة، لم يُدرَج في قانون التسوية سوى 55 ألف فدان فقط.

قالت "أنَّا" لـ"كارمينيه": "هذا العدد من الأراضي ليس كافيًا ألبتَّة. ليس كافيًا على الإطلاق. بل إنك سترى كمَّ التوترات التي ستتولَّد بين العمال؛ بين أولئك الذين أدرج قانون الأراضي التي يعملون بها تلك الأراضي، وأولئك الذين اِستُثنيت الأراضي التي يشتغلون بها من قرار المصادرة، كيف لحركة واحدة أن تظلَّ مُتَّحدة عندما تخلق حالة كهذه من عدم المساواة بين أفرادها؟".

وافقها "كارمينيه" الرأي؛ بل إن كلام "أنَّا" جعله يزدادُ حماسًا، وأجاب بنبرة جعلته يبدو كأنه عضوٌ في أحد التنظيمات النقابية، وهو يضرب بقبضته على راحته: "في الواقع، لا يمكن اعتبار المعركة قد انتهت بعد عند هذا الحد".

نظرتْ "أنَّا" إلى ساعتها من جديد فوجدتْ أن العقارب لم تتحرَّك تمامًا منذ ضبطتها قبل وصول "كارمينيه"، فصاحت وهي تستشيط غضبًا: "ولكن كيف هذا؟".

سألها "تومَّازو": "ماذا هناك؟".

أجابت هي مشيرة إلى ساعتها: "الساعة لم تعد تعمل".

هز "تومَّازو" كتفيه وقال بابتسامة صغيرة: "اشتري إذن واحدة جديدة".

عندما خرجتْ من المكتب، وبينما تركب دراجتها قرَّرت "أنَّا" أن تذهب على الفور لإصلاح الساعة. لم تكنْ لديها أدنى نية لاستبدالها، إذ لم تستخدم سوى تلك الساعة لمدة ستة عشر عامًا. إنها الساعة التي أهداها إياها "أنطونيو" منذ زمنٍ بعيدٍ، ولا تريد أي ساعة أخرى غيرها.



في كرم العنب كان "روبرتو" و"دانييليه" يسيران جنبًا إلى جنب. رفع "دانييليه" كُمَّيْ قميصه حتى مرفقيه، وقد ارتدى حمالات البنطال التي لا يستغني عنها والبنطال الخاص بالعمل. فيما كان "روبرتو" يرتدي بدلة المدرسة الزرقاء التي هي قميصٍ وسترة. كان المزارعون منحنين على عنب الكرمة النبيذية مُنهمِكين في عملهم، وبين الحين والآخر يرفع بعضهم أعينهم ليتطلعوا إلى "روبرتو". أمسك "روبرتو" بمقبض حقيبته بكلتا يديه وظلَّ يستمع بانتباهٍ شديدٍ لشرح "دانييليه" الذي أوضح له أن العمال يُمَشِّطون الكرم؛ "وهذا يعني تقليم "البراعم الجانبية"، وهي بعض الفروع الزائدة التي تنمو في النبات على الرغم من خضوعه لعمليات التقليم. تُمتص هذه البراعم الجانبية، وهي براعم عقيمة النسغ من النبات لذا لا بُدَّ من إزالتها والتخلص منها كيلا تضعف النبات".

تنهَّد "روبرتو" محبطًا بعض الشيء وقال: "هناك الكثير من الأشياء التي عليَّ أن أعرفها".

جلس على صخرة صغيرة، ووضع حقيبته المدرسية على الأرض. كان "روبرتو" حينها قد بدأ يذهب بصورة شبه يومية إلى مصنع النبيذ بعد أن ينهي يومه الدراسي فبعد أن يترجَّل من الحافلة التي تقوده من "ليتشي" إلى "ليتسانيلُّو"، يُكمل الطريق المؤدي إلى المصنع سيرًا على الأقدام، حيث يبقى هناك لساعتين. كان على وشك أن يُنهي دراسته الثانوية؛ إذ تبقَّى له فقط بضعة أسابيع وبعدها –فحسب ما قرر– سيتفرَّغ تمامًا لمصنع ومخزن النبيذ.

ابتسم له "دانييليه" وجلس أمامه على الأرض، ثم ثنى ركبتيه إلى صدره وهدَّأه: "لا تقلق، لا تقلق. سترى كيف ستتعلم كل شيءٍ بسرعة كما فعلتُ. فعندما جِئت إلى هنا صبيًّا لم أكنْ أعرف أيَّ شيء عن أي شيء"، وشدَّد على كلامه بحركة واضحة وصارمة من يده.

شعر "روبرتو" بقدرٍ من الارتياح بعد هذا الكلام، ثم نقل ثِقَل جسده إلى يديه، إذ أسند راحتيْه إلى الصخرة واضعًا إياهما خلف ظهره. ثم سأل "دانييليه" فجأة: "ألا تشتاق إلى "نيويورك"؟".

أجاب "دانييليه": "أشتاق إليها بين الحين والآخر فتلك المدينة.. بديعة حقًّا".

طلب منه "روبرتو": "احكِ لي عنها، أنا أيضًا أريد زيارتها يومًا ما".

قال "دانييليه" مبتسمًا وهو يسند ساعديه إلى ركبتيه: "ماذا تريد أن تعرف؟".

أجابه "روبرتو" وهو يغمز بعينيه: "حسنًا، كل شيء. أخبرني عن الفتيات على سبيل المثال، هل هنَّ مختلفات عن فتياتنا؟ ثم ماذا عن ناطحات السحاب؟ كيف تبدو بالنظر إليها من الأسفل؟ ألا تصابُ بالدوار؟ هل حدث وركبت واحدة من عربات التاكسي الصفراء؟ وهل صعدتَ إلى قمة تمثال الحرية؟".

قاطعه "دانييليه" في مرح وقال: "انتظر، أنا لم أَعُد أتذكر السؤال الأول".

قال "روبرتو": "كان عن الفتيات!".

قال "دانييليه": "نعم الفتيات، لا أعرف حقًّا؛ فأنا لم أنظر إليهنَّ كثيرًا".

رمقه "روبرتو" بنظرة خاطفة خبيثة لمن لا يصدق ما يقال له تمامًا.

ضحك "دانييليه" قائلًا: "أقسم لك إنني أقول الحقيقة، لم أفكرْ حقًّا في أمر الفتيات"، ثم خفض نظره وبدا عليه الخجل قليلًا.

تفرَّس "روبرتو" في وجهه بِضعَ لحظاتٍ، ثم قال له: "إيه! إن الأمر شديد الوضوح لدرجة أنه يبدو مكتوبًا على وجهك".

سأله "دانييليه": "ما هذا؟".

قال "روبرتو": "إنك لا تزال مولعًا بابنة عمي".

فَرَدَ "دانييليه" ظهره فجأةً بطريقة جِدِّية، واستند إلى يده ليرفع جسده، وحالما نهض على قدميه فرك يديه معًا لتنظيفهما من أوساخ الأرض، ثم صاح فيما يعبث بشعر "روبرتو" قائلًا: "أيها الثرثار، هيا! دعنا نعُد إلى المصنع، ما زال علينا أن نطَّلع على المقترحات الخاصة بتصميم الزجاجات الجديدة".

فصاح "روبرتو": "أجل يا سيدي، أجل".

ثم بينما كانا يسيران في الكرم لكزه بمرفقه، فضحك "دانييليه" ضحكة خافتة وسأله: "ماذا هناك؟".

فقال "روبرتو": "لم تخبرْني بعد عن ناطحات السحاب".

فقال "دانييليه" وهو يهزُّ كتفيه: "آه، فعلًا. ناطحات السحاب. ماذا عليَّ أن أقول لك.. تعتادها بعد مدة قصيرة".



جرَّ "روبرتو" و"ماريا" معًا -ومثلما يحدث مساء كل خميس- الخزانة الصغيرة التي يوضع فوقها الراديو، ووضعوها في وسط غرفة المعيشة بين الأرائك، إذ سيذاع على قناة "ريتيه روسَّا" (الشبكة الحمراء) في تمام الساعة الـ8:58 مساءً برنامج "أحمر وأسود" وهو برنامج منوعات لا تفوِّت "أنَّا" و"چوفانَّا" حلقة واحدة

منه، وخاصة "أنَّا" التي كانت تضحك كلما نطقتِ الممثلة "فرانكا ڤاليري" والتي تؤدي دورَ "الآنسة سنوب" -بطلة البرنامج- حرف الراء بلثغتها المميزة.

لهذه المناسبة، كانت "أنَّا" تعدُّ "البيستو" كل خميسٍ من أجل العشاء. ومع الوقت، انضمتْ بقية الأسرة إلى هذا اللقاء الأسبوعي في بيت "أنَّا". كانوا جميعًا يتناولون العشاء معًا، وبعد ذلك، وحالما يبدأ بث البرنامج يُسرع كلٌّ منهم باتخاذ مكان له فوق الأرائك.

صرخت "أنَّا" من المطبخ متسائلة: "هلا أخبرني أحدكم كم الساعة؟"، ثم تمتمت قائلة: "لو لا تزال ساعتي بحوزتي!".

كانت "أنَّا" قد ذهبتْ إلى بائع الساعات الذي حالما فحص الساعة رفع عينيه بنظرة مُحبَطة ومُخيِّبة للآمال وقال لها: "هذه انتهى أمرها. اشتري واحدة جديدة. أتريدين أن أعرض عليكِ بعض النماذج النسائية التي وصلت إليَّ للتو؟".

أجابته "أنَّا" بجفاء: "لا، شكرًا". ثم عادت إلى المنزل، وعلى مضض، وضعتِ الساعة في درج الطاولة الصغيرة المجاورة للسرير.

منذ ذلك الحين لم تقررْ بعد أن تستبدلها بأي ساعة أخرى. صاح "روبرتو" من الغرفة المجاورة مجيبًا: "إنها السابعة". قالت "أنَّا" لنفسها حينها: "في الوقت المناسب تمامًا". وبدأتْ تفرك ورق الريحان بقطعة قماش مبللة.

أما "چوفانَّا" فكانت جالسةً إلى الطاولة منهمكة بالكامل في حياكة سلاسل الكروشيه والغرز المنفردة والمزدوجة. كان قد انتابها شغفٌ كبيرٌ بالكروشيه منذ بعض الوقت وكانت جارة "أنَّا"، السيدة المسنة التي تكنس الرصيف كل صباح، هي التي تُعلِّمها في الوقت الذي تَكُون فيه "أنَّا" في عملها. ظلَّت "چوفانَّا" تتدرَّب ساعاتٍ يوميًّا، إذ بدأتْ بحياكة بعض القطع القماشية البسيطة المستخدَمة لحمل الأواني الساخنة في المطبخ –وكان هناك فعلًا في المطبخ قطعتان مخططتان باللونين الأزرق والأصفر من تلك الخيوط التي حاكتها هي بنفسها– ثم جرَّبت أن تصنع جرابًا صغيرًا للعملات المعدنية، وكذلك بعض المفارش الصغيرة لغرفة

النوم، وتدريجيًّا بدأتْ تحاول تنفيذ نماذج أكثر صعوبة وتعقيدًا. وكانت تُعلِّق دائمًا على هذه الهواية الجديدة قائلة: "إنه يريحني كثيرًا، عندما أشتغل بالكروشيه، لا أفكر في أي شيءٍ آخر. إنه هكذا مريحٌ، ليس أكثر".

نادت "أنَّا": "روبرتو"! ابدآ بإعداد الطاولة". ذهب "روبرتو" ممسكًا بيد "ماريا" إلى المطبخ حيث كانت "أنَّا" تُعدُّ الطعام، وقال وهو يضع يده على جبهته: "تحت أمركِ".

فقالت "أنَّا" لنفسها وقد انتابتها وخزة حزن قوية: "إنها الحركة ذاتها التي كان يفعلها "كارلو"، عندما كان يريد أن يسخر مني".

اقتربا من صِوَانُ السفرة وأنزل "روبرتو" ثمانية أطباق خزفية عميقة لها حواف مُزخرَفة بزهور زرقاء، فيما فتحت "ماريا" الدرج المخصص لأدوات المائدة وأخرجتْ شُوَك الطعام.

كانت "أنَّا" بين الحين والآخر ترمقهما خُلْسَة بنظراتٍ غير ملحوظة. لم تكنْ "أنَّا" تعرف بعد أكانت تحبُّ تلك الفتاة أم لا. طبعًا لم يكنْ من الصعب عليها أن تفهم سرَّ تعلُّق قلب ابنها بهذه الفتاة، فقد كان لها شعرٌ طويلٌ متعرِّج كستنائي اللون تثبته بطوق شعر، ووجه صغير ذو ملامح لطيفة حلوة، ووجنتان متوردتان بشدة، وجسد صغير ومتناسق. كانت أكثر الكلمات التي سمعتها منها منذ تعرَّفتها هي: "شكرًا"، و"المعذرة"، و"إذا كنت لا تمانع".

كانت تلك الفتاة "رائعة" بشهادة الجميع. ولكنَّ هذا اللطف والاحترام الدائمين كانا بالنسبة إلى "أنَّا" علامة على افتقار تلك الفتاة إلى شخصية قوية وعلى انقياد شديد وخضوع مبالغ فيه من جانبها.

لقد بقيتْ "أنَّا" في حيرةٍ من أمرها، مثلًا عندما أعلنت "ماريا" أنها لن تذهب إلى الجامعة في حالة قرر "روبرتو" عدم الالتحاق بالجامعة. وقالت بابتسامة ساحرة فيما تنظر إلى "روبرتو" بعينين تنضحان بالعشق: "يمكنني أن أعمل كسكرتيرة لمصنع ومخزن النبيذ، أهم شيء بالنسبة إليَّ أن أبقى إلى جواره".

بدتْ تلك الفتاة حينها لـ"أنَّا" أنها لا ترغب في أي شيء سوى أن تتشكَّل حسبما يرغب ابنها، كما لو كانت قطعةً من الصلصال. وفي المرة الوحيدة التي تطرَّقت "أنَّا" إلى هذا الموضوع وصرَّحت لابنها بشكوكها حول فتاته احتجَّ قائلًا: "أنتِ مخطئة. "ماريا" ليست هذا الشخص الذي تعتقدينه. إنها فتاة أكثر قوة وتماسكًا مما تظنين. هي لديها هذا النوع من القوة التي تكتسبها من الهدوء واللطف اللذين تتمتع بهما. أريدكِ أن تمنحي نفسكِ فرصة تعرُّفها. لتفعلي هذا من أجلي إذا سمحتِ".

لذلك، وفقط من أجل خاطر ابنها، اضطُرَّت "أنَّا" منذ ذلك الحين ليس فقط ألا تُفصح عن أي رأيٍ سلبيٍّ يخص "ماريا" لابنها أو لأي شخصٍ آخر، بل أيضًا أن تُركِّز على ملاحظة كل شيءٍ جميلٍ وطيبٍ قد تكون هذه الفتاة تتمتع به. وعلى أي حال إذا كان "روبرتو" قد أحبها فلا بُدَّ أن لديها الكثير من الخصال الطيبة.

تأهبت لوضع الصنوبر في الهاون عندما سمعتْ بعض الأصوات القادمة من خارج المطبخ. وصلت "أجاتا" و"أنطونيو"، وقالت "أجاتا" لـ"روبرتو": "لا، لا تغلق الباب فـ"تومَّازو" في الخارج، يصفُّ عربته وسيلحق بنا".

ذهب "أنطونيو" إلى المطبخ وحيَّا "أنَّا" و"چوفانَّا" وكان مبتهجًا بشدة ثم سأل "چوفانَّا" بفضول وهو يجلس إلى جوارها: "ماذا تفعلين؟".

أجابت "چوفانَّا": "أحوك شالًا صيفيًّا من القطن".

فقال:" أنتِ بارعة للغاية!".

تدخلت "أنَّا" في حوارهما وعلقت بفخر بالغ: "تزداد براعتها يومًا بعد يوم".

أُغلِق باب البيت، وبعد ذلك مباشرة سُمِعَتِ المناغاة المرحة للصغيرة "چادا"، مصحوبةً بصيحات جميع الموجودين. قالت "ماريا": "يا له من فستانٍ صغيرٍ أنيق".

فقالت "أجاتا": "جميل، أليس كذلك؟ كنت أنا من اشتريتُه لها". وأضاف "تومَّازو": "أيعجبكِ فستان الجدة يا حبيبة أبيكِ؟".

ابتسمتْ "چوفانَّا"، ثم وضعت خطَّاف الكروشيه والقطن على الطاولة، وذهبت إلى الطفلة. قال "أنطونيو" فيما يدس إصبعه داخل الهاون: "يا للرائحة الطيبة اللذيذة!".

احتجت "أنَّا" قائلة: "إياك! إذا حاولت مجددًا، فسأطحن تلك الإصبع!".

ضحك "أنطونيو" ضحكةً مكتومةً ووضع إصبعه في فمه وقال: "لذيذ جدًّا، كالمعتاد في الواقع". ثم شبك يديه على الطاولة وظل يحدق إلى "أنَّا". استغرق الأمر بضع ثوانٍ ليدرك أنها لم تَعُدْ ترتدي الساعة التي أهداها إياها منذ سنوات، فسألها عاقدًا ما بين حاجبيه وهو يشير إلى معصمها: "لماذا نزعتِها؟".

توقفت "أنَّا" عمَّا كانت تفعله وقالت: "أوه، لقد توقفتْ عن العمل. ذلك الساعاتي المحتال لم يعرفْ كيف يُصلحها. يجب أن أقرر شراء واحدة جديدة، لكني أريد ساعتي تلك".

قاطعتها "چوفانَّا" فيما تَلِج إلى المطبخ حاملةً "چادا" بين ذراعيها وقالت: "هناك طفلة تريد إلقاءَ التحية على العمة "أنَّا".

ابتسمت "أنَّا" وقالت فيما تواصل عملها: "هأنتِ هنا!".

دخلتْ "أجاتا" إلى المطبخ فجأة وسألت بقلق: "هل غلى الماء؟".

أجابتها "أنَّا" دون أن ترفع عينيها عن "چادا": "لم أضعْها على النار بعد".

تنهدتْ "أجاتا" وقالت بنبرة من يشعر بأن عليه أن يفكِّر في كل شيء ويهتم بكل الأمور: "فهمتُ. سأفعل ذلك بنفسي". ووقفتْ على أطراف أصابعها لتُنزِل القِدْر الكبيرة من فوق الرف.

جلسوا جميعًا إلى الطاولة في الثامنة مساءً؛ وضعتْ "أنَّا" في وسط المائدة وعاءً يتصاعد منه البخار يحوي مكرونة "التروفيا" بصوص "البيستو"، فيما ملأ "أنطونيو" الكؤوس بنبيذ "دون كارلو".

كان "روبرتو" و"ماريا" جالسَين جنبًا إلى جنب، يواصلان تبادل القبلات الصغيرة الخاطفة. أما "چادا" فأجلسوها على كرسي الأطفال بجانب "أجاتا"،

التي كانت تطعمها بملعقة. على الجانب الآخر من كرسي الأطفال، جلس "تومَّازو" الذي لم يتوقَّف عن التطلع إلى ابنته بنظرة ساحرة. وإلى جانبه جلس حموه "أنطونيو"، فيما جلست "لورينسا" في مقابلة زوجها. كانت "أنَّا" و"چوفانَّا" هما آخر من جلستا. استحوذت "چادا" كالمعتاد على اهتمام هذا التجمع الأُسري وتركيزه، وأثارت ضحك الجميع بكلماتها المُبتكرة. كانت تصيح قائلةً فيما تُشير إلى السكين: "تاليابابا!"، ثم عندما وضعتْ "أجاتا" أول شوكة من "التروفيا" في فمها قالت: "صلصة خصراء!".

كان الجميع يضحكون ما عدا "لورينسا" التي بدت تلك الليلة أكثر كآبة وحزنًا من المعتاد. لم تمسَّ "لورينسا" الطعام تقريبًا؛ أخذت تنظر حولها، كما لو كانت تستمع للأحاديث المختلفة للجالسين حول الطاولة، ولكنَّ كل هذه الأحاديث كانت تبدو لها في الواقع مجرد غمغمة مختلطة ومشوَّشة، فهي لم تستطعْ أن تنزع من رأسها ذلك النقاش الذي دار بينها وبين "دانييليه" في اليوم السابق، إذ كان ذلك أول شجارٍ حقيقيٍّ يدور بينهما.

تركت "لورينسا" –وكما يحدث بعد ظهر يوم الأربعاء من كل أسبوع– ابنتها "چادا" لدى "أنَّا"، وركبَت حافلة الساعة الثالثة التي حملتها إلى "ليتشي". حالما وصلت إلى مشغل "دانييليه" وجدته جالسًا على ماكينة الخياطة، لكنْ حالما دخلت ورآها "دانييليه" ركض نحوها، وفي لمح البصر التقيا في قبلة كانت بقوة جميع القبل المكبوتة منذ آخر لقاءٍ لهما. نزعا ملابسهما بسرعة وبعنف، ثم رفعها "دانييليه" وأحاط خصرها بذراعيه وأسندها إلى الحائط. لفَّت ساقيها حول جسده وأغمضتْ عينيها.

عند الساعة الخامسة، أي قبل ربع ساعة من مغادرة الحافلة المتجهة إلى "ليتسانيلُّو" –إذ اعتادا أن تركب "لورينسا" حافلة الساعة الخامسة وينتظر "دانييليه" ليأخذ الحافلة التالية حتى لا يثيرا أي شكوكٍ حولهما– قالت

"لورينسا" بنبرة متحمسة: "اسمعْ، لقد قضيتُ أسبوعًا وأنا أفكِّر في هذا الأمر دعنا نذهب إلى نيويورك. أنا وأنت".

حدَّق إليها "دانييليه" مشدوهًا ومتعجبًا، ثم بدأ يرتدي ملابسه. صاحتْ بدورها في دهشة وغضبت متسائلة: "لماذا تتصرف بهذا الشكل؟".

ارتدى قميصه ثم اقترب منها. أحاط وجهها بكلتا يديه وقال بصوتٍ منخفضٍ: "كيف لي أن أفعل ذلك؟ هل أترك المصنع ومشغل الخياطة وأرحل؟ وماذا عن ابنتكِ؟".

أجابته قائلة: "لا يهمني شيء سوى أن أكون معك".

أنزل "دانييليه" يديه عن وجهها وقال: "لا يمكنكِ أن تكوني جادة في هذا. أعني قرارك بترك ابنتكِ "چادا".

أجابته قائلة: "هذا خِياري أنا، الأمر لا يخصكَ على الإطلاق".

تعجَّب "دانييليه": "كيف يمكنكِ أن تقولي إن الأمر لا يخصني!".

بدأت "لورينسا" تصرخ: "أنت لا تحبني، هذه هي الحقيقة! ولهذا السبب لا تريد أن ترحل معي. لذا فالمصنع ومشغل الخياطة وابنتي ليسوا سوى أعذار واهية. لو كنتَ تريدني حقًّا، لكنت وافقت في الحال، دون حتى أن تفكِّر في الأمر".

اتخذ "دانييليه" خطوة إلى الوراء، ووضع يديه حول وسطه وحدق إليها وسألها: "هل تعتقدين حقًّا أنني لا أحبكِ؟ هل أنتِ جادة في ما تقولين؟".

ردَّت قائلة: "هأنتَ تثبت لي ذلك الآن بكلامكَ هذا".

قال: "كل هذا فقط لأنني أدعوكِ لتكوني أكثر عقلانية في تفكيركِ؟ ألأنني أطلب منكِ أن تفكري في ابنتكِ أصبحتُ لا أحبكِ؟".

ردت: "سحقًا، لتذهب دعواتك ونصائحك تلك إلى الجحيم! أتدري؟ أنت تهتم بي فقط عندما تودُّ أن تضاجعني".

قال "دانييليه": "إنه لمن الدناءة والحقارة أن تقولي ذلك".

أجابت: "أنا أقول الحقيقة فقط".

ظلَّ "دانييليه" صامتًا لحظةً بدت طويلة جدًّا، ثم غمغم قائلًا: "ستفوتك الحافلة. غادري الآن، من فضلك".

قالت "لورينسا" لنفسها وهي جالسة إلى طاولة الطعام: "عليَّ أن أراه قبل يوم الأربعاء"، ثم بدأتْ تُفكِّر مليًّا في كيفية مقابلته. لن تكون هناك أي مشكلة إذا ذهبتْ في اليوم التالي إلى المصنع، فيُمكنها فقط أن تقول لمن يستفسر عن سبب وجودها هناك أنها ذهبت لتتحدث إلى "روبرتو" عن شيءٍ ما.

مدَّت "چادا" يدها الصغيرة نحو أمها وقالت: "ماما! ماما!".

حملها "تومَّازو" من كرسي الأطفال وأحضرها إلى "لورينسا"، ثم قال وهو يضعها بين ذراعيها: "ها هي ماما".

أجلسَتها "لورينسا" على ساقيها وانحنتْ مستندةً إلى ظهر الكرسي. طلبتْ "چادا": "ماء، ماما".

لم تتحركْ "لورينسا"، فكررتْ "چادا": "ماء، ماما".

تدخَّل "تومَّازو" حينئِذٍ وقال بصوتٍ أكثر علوًّا قليلًا: "عزيزتي، الطفلة تطلب منكِ الماء".

تمتمت "لورينسا": "أجل، المعذرة". وقالت لصغيرتها فيما تمسك بإبريق الماء: "الآن ستعطيكِ ماما الماء".

قال "روبرتو" مُعلنًا وهو ينظر إلى الساعة الكائنة فوق المدفأة: "يا جماعة، ها نحن ذا، لقد حان الوقت. تبقَّى فقط ثلاث دقائق"، ثم ذهب ليُشغِّل الراديو، وبدأ كل أفراد الأسرة يتَّخذون لأنفسهم مكانًا على الأرائك. فيما بقي الكرسي المجاور للمدفأة الذي كان يجلس عليه "كارلو" على الدوام خاويًا ولم يجلس عليه أحد، إذ لم تكن "أنَّا" تسمح لأي شخصٍ بأن يجلس عليه قطُّ. في تلك اللحظة سُمِعَ صوت الممثل الإيطالي "ماريو كاروتينوتو" وهو يلقي على مستمعي الراديو تحية المساء.



قالت "أنَّا" للجميع بوضوح وصرامة إنها لا تريد مفاجآت، أو حفلات عشاء، أو احتفالات من أي نوع بمناسبة عيد ميلادها. وأنها تُفضِّل بشدة قضاء ذلك اليوم بمفردها. ودَعَتِ الجميع إلى تجاهل الأمر إذ نصحتهم قائلة: "بل، حاولوا أن تنسوا أمر عيد الميلاد هذا تمامًا إن استطعتم".

استرختْ "أنَّا" ولم تُرهِق نفسها بأي شكل يوم عيد ميلادها الرابع والأربعين، خاصة أنه صادف ذلك العام أن يكون يوم أحد، لذا فلم تنهض "أنَّا" من سريرها إلا في وقتٍ متأخرٍ من الصباح، بعدما أيقظتها رائحة صلصة الطماطم والبصل المقلي التي وصلت إليها من المطبخ. كانت "چوفانَّا" تُضيف دائمًا كميةً كبيرةً من البصل والطماطم كلما طبخت صلصة اللحم "الراجو" الخاص بيوم الأحد.

نزعتْ "أنَّا" قناعَ النوم الحريري، وارتدتْ خُفَّها وروبَها، وحالما فتحتِ الباب، كادتْ تتعثر بوردة حمراء وُضِعَتْ على الأرض وإلى جانبها كان هناك ظرفٌ أبيض صغيرٌ كُتِبَ عليه "أمي". وعندما فتحتِ الظرف وجدت بطاقةً كُتِبَ فيها:

عيد ميلاد سعيد لأكثر أم مزعجة في العالم. أحبكِ.

"روبرتو"

أطبقت "أنَّا" شفتيها وقرَّبت البطاقة من قلبها، ثم التقطَتْ كذلك الوردة من الأرض ونزلت إلى الطابق السفلي. توقَّفتْ بالقرب من طاولة صغيرة تعلوها مزهرية بها بعض أزهار الأقحوان، التي جمعتها هي و"چوفانَّا" قبل بضعة أيام، ووضعتْ فيها وردةَ "روبرتو".

دخلتِ المطبخ، وبعد أن حيَّت "چوفانَّا"، أخذتْ من الرف الوعاء المعدني وفنجان الحليب خاصتها ثم سألت صديقتها: "هل خرج "روبرتو"؟".

فأجابتها: "نعم، منذ ساعتين، قال إن عليه أن يمرَّ على المصنع".

فسألت "أنَّا" مدهوشة فيما تصبُّ الحليب في الوعاء: "المصنع في يوم الأحد؟".

فردَّت "چوفانَّا" وهي تهز كتفيها: "كان لديه بعض ما يفعله مع "دانييليه"، ثم نظرت إليها في تردد، وقالت أخيرًا بصوتٍ منخفضٍ: "هل يمكنني على الأقل أن أتمنَّى لكِ عيدَ ميلادٍ سعيدًا؟".

استدارت "أنَّا" وانفجرتْ ضاحكة ثم قالت لها: "طبعًا، طبعًا يمكنكِ ذلك".

كان يومًا مشمسًا ودافئًا، ولم يكنْ في المساء أي أثرٍ لغيمة واحدة حتى. وبينما كانت "أنَّا" جالسة على مقعدها في الحديقة تحتسي حليبها الدافئ ومستمتعة بالشمس التي تُدفئ وجهها، فكرت أن الشيء الوحيد الذي ترغب في فعله في ذلك اليوم هو أن تركب دراجتها، وتتجول وحدها في صمت، وبلا هدف، ودون وجهة محددة.

ربما يمكنها أن تصل بدراجتها حتى البحر.

عادت حينها من الحديقة وأخبرت "چوفانَّا" أن ذلك الأحد ستتناول هي و"روبرتو" الغداء بمفردهما وأضافت مفسِّرة: "أريد أن أخرج، لكنْ لا أعلم متى سأعود بالضبط. هل يزعجكِ هذا؟".

فأجابتها "چوفانَّا": "سيزعجني هذا فقط إذا لم تقضي يومًا جميلًا. اذهبي إذن واستمتعي بيومكِ!".

طَبَعَت "أنَّا" قبلة على جبينها وهمست قائلة: "شكرًا لكِ".

في غضون نصف ساعة خرجت "أنَّا" وركبت دراجتها "البيانكي"، وبدأت تقود ببطء. حيَّتها ملوِّحة بيدها تلك العجوز ضئيلة الجسد التي كانت تتلقَّى كل أسبوع رسالة من ابنها الذي كان رحل إلى مدينة "تورينو" ليصبح عاملًا قائلة: "صباح الخير يا ساعية البريد!"، وقال أحد الرجال وهو يرفع قبعته: "يوم أحد سعيد، يا سيدة "جريكو"، فيما صاحت امرأتان كانتا تتحدثان مع بعضهما عند مدخل أحد المنازل: "مرحبًا يا "أنَّا"، فيما مازحتها امرأة بدينة كانت جالسة على الرصيف تُقشِّر البازلاء قائلة: "مرحبًا، أليس هناك بريد اليوم؟".

ردَّت "أنَّا" على كل تحية بابتسامة بدتْ متكلَّفة نوعًا ما، وعندما وصلت أخيرًا إلى الطريق المؤدي إلى البحر، تنفَّست الصُّعداء. ففي تلك اللحظة، التي لم تكن ترغب خلالها في أي شيءٍ سوى أن تبقى وحدها، وتنعم ببعض الهدوء والسلام، وأن يتركها الآخرون وشأنها، شعرت بحنينٍ إلى الأيام الأولى لها في هذه البلدة، عندما كانت لا تزال غريبة لا يعرفها أحد، ولا يتحدث إليها أي شخص. أما الآن، فلم يعد بإمكانها أن تخطو خطوة دون أن يلقي أحدهم عليها التحية، بل إنه يحدث أحيانًا أن يوقفها شخصٌ ما مباشرة ودون سابق إنذار ليتجاذب معها أطراف الحديث. فكَّرت "أنَّا" حينها: "في بعض الأحيان يكون الأمر متعبًا جدًّا".

مرَّت "أنَّا" بدراجتها بجانب بساتين زيتون وأراضٍ محروثة حديثًا من أجل زراعتها تحدُّها جدران حجرية عالية، وهناك عثرت "أنَّا" أخيرًا على الصمت الذي كانت تبحث عنه منذ الصباح، وأصبح الصمت يحوطها كما لو كان عباءة حريرية. وصلَت "أنَّا" بعد نحو خمسة عشر كيلومترًا إلى مفترق طرق ومن هناك واصلت السير على طول طريقٍ ترابيٍّ غير مرصوف.

تغيَّرت المناظر الطبيعية من حولها، واشتمَّت "أنَّا" على الفور إحدى الروائح العزيزة على قلبها، وهي رائحة أشجار الصنوبر. ذكَّرتها تلك الرائحة بغابة الصنوبر المحببة إليها والموجودة في "بورديجيرا"، حيث الجبال المطلة على البحر، والقيلولات التي كانت تأخذها هناك عندما كانت شابة وهي مستلقية على وسادة محشوَّة بإبر الصنوبر، وقتما تكون الشمس حارقة والطريقة الوحيدة للهروب منها كانت بالبحث عن ملجأ وسط أشجار الصنوبر. واصلت السير مسافةً قصيرةً، ثم ظهرت أمامها غابة الصنوبر ولافتة تحمل سهمًا مكتوبًا عليه "البحر". ترجَّلت من دراجتها، وجرَّتها إلى جانبها، واندفعت بين الأشجار وهي تستنشق الهواء بعمق.

ظهرتْ أمامها فجأة الرمال البيضاء والرقعة الزرقاء المتسعة للبحر. أسندتْ "أنَّا" مبتسمةً الدراجة إلى جذع إحدى أشجار الصنوبر وتركتها وركضت حتى

وصلت إلى الشاطئ. وبسرعة خلعت حذاءها وبنطالها المصنوع من الكتان وفكتْ أزرار قميصها الأبيض، وغطست في الماء الهادئ الخالي من الأمواج، ولم تكن مرتدية سوى حمالة صدرها وسروالها الداخلي.

استلقتْ على ظهرها، وفردت ذراعيها وأغمضت عينيها. أدركت "أنَّا" أنها أول مرة تستحم فيها بمفردها تمامًا في البحر. ففي الأصياف التي قضتها في "بورديجيرا" في أثناء طفولتها، كانت دائمًا برفقة بنات عمِّها اللواتي كُنَّ يتبعنها أينما ذهبت؛ أما بعد أن تزوَّجت فكان يرافقها دومًا "كارلو". شعرت "أنَّا" فجأة –وككل مرة تتذكر فيها زوجها– بوخزة في قلبها كأن شيئًا ثقيلًا يجثم على صدرها. مرَّ ما يقارب السنتين على وفاة "كارلو"، ولم تكن تَعرِف ما الذي يؤلمها أكثر؛ أهو رؤية العالم يمضي قدمًا رغم غيابه، أم شعورها بأنها مع مرور الأيام بدأت تتعوَّد حقيقة أنه لم يعد موجودًا. في كل مرة تنتبه فيها لمرور ساعةٍ كاملةٍ دون أن تُفكِّر خلالها في زوجها المتوفى أو إذا أضحكها شيءٌ ما، كانت تشعر على الفور بِشعورٍ مؤلمٍ بالذنب، يصاحبه وخزة في القلب. سألت "أنَّا" نفسها: "بعد كم من الوقت من فِقدان الحب يحق للإنسان أن يضحك مرة أخرى؟". غطَّستْ رأسَها في الماء وحبستْ أنفاسها بضعَ ثوانٍ.

عندما عادت إلى السطح وخرجت إلى الشاطئ لم تكنْ لديها أدنى فكرة عن مدة الوقت الذي قضتْه في البحر. ارتدتْ ملابسها في الحال وأسرعت نحو الدراجة. قطعت طريق العودة وهي مبتلة بالكامل، فيما كانت حرارة الشمس تُدفئ جلد ذراعيها ووجهها الذي كان يلسعها بسبب ملوحة البحر.

وصلت "أنَّا" إلى أبواب "ليتسانيلُّو" عندما أصبح ضوء شمس وقت ما بعد الظهيرة خافتًا. لكنَّها توقَّفت قبل أن تسلك الطريق المؤدي إلى المنزل، إذ فكرت وهي تنظر إلى يمينها: "أنا قريبة للغاية من "كونترادا لا بيترا"، ربما يجدر بي إلقاء نظرة على بيت المزرعة، من يدري أي حالةٍ صار عليها البيت الآن. لم أذهبْ إلى هناك منذ وقت طويل".

هكذا، قادتْ دراجتها على طول تلك الطريق التي تعرفها ككفها ووصلت أمام المنزل. دفعتِ البوابة الخشبية التي تآكلت بفعل المطر وتلاشى لونها الأصلي بفعل أشعة الشمس، ووصلت إلى باب المنزل الداخلي الذي لم يكن مُقفلًا. سدَّدت له دفعةً كي تفتحه، وحالما دخلت غمرتها رائحة قوية من الرطوبة والعطن الناجم عن غلقه فترةً طويلةً دون تهوية. كان كل شيءٍ في مكانه، كما لو كان قد تحجَّر. تجوَّلت في غرف المنزل، فانتبهتْ إلى شِباك العنكبوت التي غَزَت زوايا الجدران، وطبقات الغبار التي تراكمت على الأثاث، والعفن الذي انتشر على الجدران. فقالت "أنَّا" في نفسها: "يجب أن أعود لأنظِّفه بقدرٍ بسيطٍ على الأقل، سأطلب الليلة من "چوفانَّا" إذا كانت...".

في تلك اللحظة تحديدًا، تفتَّق ذهنها عن فكرة تهلَّل لها وجهها ولمعت لها عيناها. نظرت حولها ببطء فتجسَّد أمامها بوضوحٍ تامٍّ كل ما يدور في خيالها؛ فهناك حيث غرفة المعيشة يُمكِن تجهيز فصلٍ دراسيٍّ وبعض المقاعد وسَبُّورة؛ أما على الجدار الكبير الذي تستند إليه الأريكة، فهناك مساحة كافية لإقامة مكتبة؛ وفي المطبخ، سيكون من السهل إزالة الخِوان وبعض الأثاث بحيث تكون هناك مساحة كافية لإقامة بعض ورش الحرف اليدوية به؛ وفي الطابق العلوي، فليس من الصعب إفراغ محتويات غرفة النوم الصغيرة ناهيك بالحديقة، التي يمكن أن تستوعب حديقة خضراوات شاسعة جدًّا. قالت "أنَّا" لنفسها حينها: "اللعنة، لماذا لم أفكر في هذا من قبل؟"، وبينما كانت كل هذه الأفكار تتبلوَر أمام عينيها، تردَّد في عقلها صوت "كارلو" عندما قال لها: "عِديني ألا تتخلَّيْ عن الأمر. استعيني بأموالنا الخاصة دون أن تطلبي شيئًا من أحد". شعرت بغصة في حلقها إذ أدركت أن حبيبها "كارلو" وكما هي الحال دائمًا، كان على حق.

ركبتْ دراجتها من جديد ووصلت إلى المنزل. حالما فتحت الباب، أحاطت بها على الفور رائحة "الراجو" التي كانت قد غمرت غرف البيت كلها. نادت بصوتٍ

عالٍ "چوفانًّا"، لكنها لم تتلقَّ أي رد، ففكرت: "ربما ذهبت إلى منزل "چادا". حسنًا، لا داعي إلى العجلة، سنتحدث في الأمر صباح الغد".

غاص جسدها في الأريكة التي جلست عليها بملابسها التي لا تزال مبللة وشعرها الذي صار أشعثَ بسبب الماء المالح. جالت بنظرها خلال غرفة المعيشة، وفي اللحظة التي وقع فيها بصرها على الطاولة الصغيرة الكائنة أمامها، لاحظتْ علبةً صغيرةً مُغلَّفة بورقٍ ذهبيِّ اللون ومربوطةً بشريطٍ أحمر. انحنت إلى الأمام لتلتقطها، ظلَّت تتفحصها بضعَ لحظات، وهي تقلِّبها بين يديها، ثم فتحتها، فاكتشفت أنها علبة صغيرة من المخمل الأزرق كان بداخلها ساعة رائعة ذات قرصٍ مستطيل، وحافة ذهبية، وسوار من الجلد الأخضر. فتحتْ عينيها على اتساعهما، ثم أخذتها وحدقت إليها طويلًا، وعندما قلَّبت الساعة، لاحظت وجود عبارة منقوشة على ظهر القرص. قرَّبت الساعة إلى عينيها وقرأت بصوتٍ عالٍ فيما قلبها ينبض بسرعة:

إلى "أنَّا" من "أنطونيو".

من أجل كل الأوقات القادمة.



25
صيف 1951

"وماذا يكون إذن؟"

"لا أعرف، يقولون إنه شيءٌ ما أشبه بالمدرسة".

"لا ليست مدرسة، يُقال إنه سيكون منزلًا".

"أليس هو منزلًا فعلًا؟"

"بلى، ولكنه سيكون منزلًا مختلفًا عما هو الآن. سيكون منزلًا للنساء".

"وماذا عنا نحن الرجال، ألن يكون هناك وجود للرجال في هذا البيت؟".

"لكنْ ماذا يعني أنه سيكون فقط "من أجل النساء؟".

"يعني هذا أنهنَّ سيمارسن فيه بعض الأشياء. أشياء تخص النساء".

"لقد سمعتُ أنها مدرسة".

"لا، أقول لك إنها ليست مدرسة".

خلف الستارة المصنوعة من الحبال في بار "كاستيلو"، كان "أنطونيو" يحتسي فنجانًا من القهوة، ولم يستطع إلا أن يستمع للحوار الذي يدور بين هؤلاء الرجال الذين كانوا يلعبون "البريسكولا" معًا.

تدخَّل رجلٌ ذو شعر مجعد كثيف، يجلس إلى الطاولة المجاورة معلقًا على حديث هؤلاء الرجال: "طلبتْ ساعية البريد من زوجتي أن تُعلِّم النساء الأخريات كيف تُصنَع الألحفة عندما يُصبح هذا البيت جاهزًا". فاندفع اللاعب الأول قائلًا: "أرأيت إذن أنني على حق؟ إنها مدرسة. ولكنها مدرسة تهتم بتلك الأشياء الخاصة بالنساء". قال آخر وهو يمرِّر يده على شاربه الطويل: "سمعتُ أن النساء سيتعلمن أيضًا في هذا المنزل القراءة والكتابة، ثم التاريخ والجغرافيا والرياضيات". كرَّر اللاعب الأول مؤكدًا: "هذا ما قلتُه. إنها مدرسة". احتجَّ اللاعب الثاني قائلًا: "ربما، لكنني لا أفهم الأمر أبدًا. على أيِّ حال هي إحدى تلك الأشياء الغريبة التي تبتكرها هذه المرأة الأجنبية. ألا تعلم هذه المرأة أن لدينا مدارسَ فعلًا؟".

ضحك "أنطونيو" ضحكةً مكتومةً؛ فلم تكن هذه أول مرة يسمع فيها مثل هذه الأحاديث حول منزل "أنَّا" للنساء. كان يبدو أن ما من أحدٍ في هذه البلدة قد فهم الكثير عن هذا الأمر. الشيء الوحيد المؤكد هو أن ساعية البريد كانت على وشك "فعل شيءٍ ما" ببيت المزرعة الذي تمتلكه "چوفانَّا" المجنونة. قال بعضهم إن "أنَّا" اشترته من صديقتها مقابل مبلغ زهيد، فيما اعتقد آخرون أن "چوفانَّا" أعطته إياها كي تسدد دينًا عليها، فيما عابهما بعضهم من ورائهما قائلين: "وكيف لها

ألا تفعل هذا فهي تعيش وتأكل وتشرب على حسابها"، وأضاف آخرون: "فعلًا، وحتى من قبل هذا كان "كارلو" –لروحه السلام–يكفلها ويتكفل بمصاريفها".

وضع "أنطونيو" فنجانه على الطاولة وخرج، وحالما رآه الرجال صمتوا جميعهم فجأة. انحنى اللاعب الأول نحو اللاعب الآخر وهمس له: "هل تعتقد أنه سمع شيئًا مما كنا نقوله؟". فأجابه الآخر وهو يهز كتفيه: "وما الخطأ في ما قلناه؟".

حيَّاهم "أنطونيو" بابتسامة: "صباح الخير أيها السادة"، فردُّوا عليه في صوتٍ واحد: "صباح الخير يا "أنطونيو"، ثم قال أحدهم: "لقد جئتَ في الوقت المناسب. كنا نتحدَّث للتو عن زوجة أخيك".

رد "أنطونيو" وهو يدس يديه في جيبيْ بنطاله: "سمعتكم، سمعتكم".

فقال الرجل ذو الشعر المجعد: "حسنًا إذن، فلتشرحْ لنا، ما هذا.. هذا الشيء التي تريد أرملة أخيك أن تفعله، حتى زوجتي لم تفهم جيدًا ما قالته لها".

همهم "أنطونيو" وهو يفرك أنفه: "حسنًا، أعتقد أنكم جميعًا على حق إلى حدٍّ ما. هذا المكان سيكون أكثر من مجرد "شيء"، لكنْ عمومًا دعوني أؤكد لكم أنه سيكون مخصَّصًا للنساء فقط. سيكون مدرسةً لمن لم تتلقَّ تعليمًا، ولكنه سيكون أيضًا ورشةً لتعلُّم بعض الحرف، وملجأً للنساء اللاتي يعشن ظروفًا صعبة".

تبادل الرجال نظرات متحيرة.

اختتم "أنطونيو" حديثه قائلًا: "هو باختصار مكانٌ لتقديم المساعدة للناس. لا أكثر ولا أقل"، ثم انصرف، لكنه سمع أحدهم يهمس من خلفه قائلًا: "حسنًا، كنت أفهم الأمر أكثر قبل شرحه هذا".

كانت "أنَّا" قد أثلجت صدر "أنطونيو" عندما تحدَّثت إليه عن فكرة "منزل النساء" هذه قبل نحو شهرين، وذلك لأنه لاحظ تلك النبرة الحماسية التي غمرتْ كلامها، ورأى أخيرًا في عينيها تلك الومضة التي يعرفها جيدًا والتي يحبها فيها أكثر من أي شيءٍ آخر. كان ذلك الوميض هو نفسه الذي رآه في عينيها عندما

قرَّرت التقدم إلى مسابقة سعاة البريد، وعندما بدأت في جمع التوقيعات كي تحصل المرأة على حقها في التصويت.

كانت تلك الشرارة في عينيها بمنزلة تحدٍّ للعالم.

منذ أُصيب "كارلو" بالمرض، لم تعُد عينا "أنَّا" تلمعان بتلك الطريقة، لذلك كان من المريح حقًّا رؤيتها، وقد صارت –بين ليلة وضحاها– مفعمةً بالحياة ومتحمِّسة لمشروع جديد. وبينما كانت "أنَّا" تصف لـ"أنطونيو" كيف سيكون المنزل، انتابه كذلك شعور بالفخر، فهي وحدها من يمكن لفكرة كهذه أن تخطر لها، شيءٌ جديدٌ لم يسبق له مثيل، وفي الوقت ذاته يُمكن أن يكون مفيدًا جدًّا للنساء، لذلك قال لها: "دعيني أساعدك"، وفعلًا لم يتوانَ عن مساعدتها؛ إذ في غضون بضعة أسابيع، أخلى هو و"أنَّا" المنزلَ الريفيَّ ممَّا به من أثاث قديم، وحملاه على العربات التي استحضرها "أنطونيو" من معصرة الزيتون بمساعدة اثنين من أقوى موظفيه.

استبدلا البوابة المهترئة، وأعادا طلاء الأبواب والنوافذ، ثم اقتلعا الأعشاب الضارة من الحديقة وأحاطا المساحات التي خصَّصاها لتكون حدائق خضراء بأسوار خشبية، وأصلحا كذلك ثقوب السقف. بين الحين والآخر، وفي أثناء قيامهما بكل هذه الأعمال في المنزل، كان "أنطونيو" و"أنَّا" يتبادلان نظرات متفاهمة ويبتسمان لبعضهما.

كانت "أنَّا" تتوقَّف أحيانًا عن العمل وتجُول بنظرها في المكان من حولها ثم تقول: "يمكنني الآن أن أرى المشروع بوضوح أكبر".

كانت "أجاتا" تغمغم متذمرةً عندما يعود زوجها مساءً لتناول العشاء قائلة: "ماذا لو بذلتَ كل هذا الجُهْد في منزلنا أيضًا، لا تستطيع فعل هذا، أليس كذلك؟"، وتضيف قائلة: "كم مرَّةً طلبتُ منكَ شراء أثاث جديد، ألم يحدث هذا؟ وكم مرةً طلبتُ منك إزالة ورق الحائط القبيح الذي وضعتْه والدتك، لروحها السلام؟".

عندما كانت "أجاتا" تبدأ في التفوُّه بتلك التُّرَّهات، كان "أنطونيو" يتركها تتحدث وتنفِّس عن نفسها، مقتنعًا بأنها ستتوقَّف عاجلًا أو آجلًا، ولكنَّ "أجاتا"

كانت على العكس تواصل الحديث: "ما من أحدٍ في البلدة يفهم شيئًا عن الأمر، وأنا أقلُّهم فهمًا. ماذا يعني "بيت للنساء"؟ سحقًا لها ولأفكارها الغريبة! لماذا تقحمكَ دائمًا معها في أمورها الغريبة هذه؟".

كانت هذه هي الأسئلة ذاتها التي وجَّهتها إليها صديقاتها ممَّن يؤدين معها صلاة المسبحة الوردية في آخر سبت التقين فيه لتأدية صلاتهنَّ. وذلك الموقف ومواقف أخرى شبيهة كانت تدفعها إلى الشجار المستمر مع زوجها "أنطونيو".

حالما وصلت "أجاتا" ذلك اليوم إلى بيت جارتها وجلست على إحدى الكراسي، حتى عمَّ الصمت فجأة على المكان، وبدأتِ النساءُ الجالساتُ في دائرة يتبادلن النظرات.

سألت "أجاتا" متجهمةً: "ماذا هناك؟ لماذا لا تتابعن حديثكنَّ؟".

نظرت إحدى جاراتها، وهي امرأة نحيلة للغاية، وترتدي ملابس سوداء، ولها بَشَرَة وردية وزغب واضح على شفتها العليا، إلى رفيقاتها الأخريات، ثم وجدت في النهاية الشجاعة الكافية لتجيبها: "لا، كل ما في الأمر أننا كنا نتساءل عن حالك، ونتساءل كذلك أكانت كل هذه القصة تغضبكِ بعض الشيء".

قاطعتها "أجاتا" وهي تشعر بالاضطراب: "عن أي قصة تتحدثين؟".

فأجابت المرأة: "أقصد قصة زوجك وسِلفتك".

تحرَّكت "أجاتا" في كرسيها وسألتها: "عمَّ تتحدثين؟".

فتدخلت أخرى، وكانت امرأة بدينة ضخمة الجثة لها شعر حالك السواد، وأجابتها قائلة: "لا تسيئي فهمنا، أرجوكِ، ولكنَّ الجميع يعرف أن "أنطونيو" يساعد سِلفتكِ ليلًا ونهارًا من أجل "بيت النساء" هذا الذي لا نفهم ماهيته".

تدخلت عجوز لها حاجبان أشيبان وصوت أجش قائلة: "كان والدي يقول دائمًا إنه عندما يوجد أمر لا يفهمه أحد، فهذا يعني أنه أمر خطأ".

ردَّت "أجاتا": "آه حقًّا؟ أصبح يساعدها ليلًا ونهارًا! أنتنَّ تبالغن دائمًا! هو يخصِّص لهذا البيت ساعتين يوميًّا على الأكثر ولا يتجاوزهما أبدًا".

نظرت النساء إلى بعضهنَّ مرَّة أخرى، ثم سألتها جارتها: "لكن لماذا أقحمتِ زوجكِ على وجه الخصوص في هذا الأمر؟"، فعلقتْ أخرى: "بالضبط. إذا كان هذا شيئًا يخصُّ النساء، فما دخله هو؟". قالت العجوز: "كان يساعدها حتى في جمع التوقيعات، هل تتذكرن؟".

فردَّتْ "أجاتا" قائلة: "يبدو أنَّكنَّ نسيتُنَّ أنه شقيق "كارلو"، لروحه السلام"، وأشارت بعلامة الصليب فحذت الأخريات حذوها.

لكنَّ جارتها أصرَّت قائلة: "وماذا يعني ذلك؟ هل عليه الآن أن يتحمَّل مسؤوليتها هي أيضًا؟".

قالت "أجاتا" لنفسها مطلقةً تنهيدة "فعلًا. هنَّ لسنَ مخطئات على الإطلاق". لقد صار "أنطونيو" الآن يعتني بأسرتين، أسرته وأسرة شقيقه. بعد وفاة "كارلو"، لم يفعل زوجها شيئًا سوى الركض إلى بيت "أنَّا" كلما احتاجت إلى شيء ما. فكرت "أجاتا" بينها وبين نفسها مرارًا بسبب شعورها بالغيرة: "سحقًا، لتذهب إلى الجحيم، فلتدبر أمرها وحدها! اللعنة عليها وعلى اليوم الذي قدمت فيه إلينا!".

على الرغم من ذلك أجابت "أجاتا" مؤكِّدة: "أنتنَّ تعرفن طبيعة زوجي "أنطونيو"، إنه طيبٌ جدًّا وكريم، لكنني فخورٌ جدًّا به وبكل ما يفعله من أجل سِلفتي وابنها". قالت ذلك آملةً أن تُنهي تمامًا الحديث في هذا الموضوع.

تدخَّلت المرأة الضخمة لتُخرج "أجاتا" من هذا المأزق الذي وجدت نفسها فيه، فقالت: "هو طيبٌ جدًّا طبعًا! لقد كان دائمًا كذلك، منذ كان طفلًا". تبادلن النساء الأخريات نظرات مُحرَجة ولم يجرؤنَ على التحدث بعد ذلك في هذا الأمر.

بعد لحظات، بدأت الجارة في ترديد صلاة "السلام الملائكي"، وكرَّرت وراءها النساء الأخريات بصوت جماعي واحد. كانت "أجاتا" تردد الصلوات طَوال الوقت برأسٍ منحنٍ وعينين مغمضتين، لكنْ بين كل "يا أم الله" و"صلِّ من أجلنا نحن الخاطئين"، كانت "أجاتا" تكتم ما تشعر به من غضب وإذلال وتتجرعه في صمت وألم.



في ذلك الصباح شديد الحرارة من شهر يوليو، لم يبدُ أن أحدًا في مكتب البريد لديه رغبة في الحديث والثرثرة. حتى إنه لم يكن يُسمع في الخلفية سوى صوت النقر على التلغراف وصوت القلم الذي ينقر به "تومَّازو" المستنداتِ التي كان يقرأها. بدا على "كارمينيه" أنه يفكر بعمقٍ في شيء ما، وكان يلمس باستمرار لحيته التي غزاها الشيب؛ لقد تركها تنمو في الأشهر الأخيرة أكثر من اللازم، فأصبحتْ كثةً ولها مظهر همجي. حتى "إيلينا"، التي لا تتوقَّف عادة عن الثرثرة، كانتْ مشغولة ذلك اليوم بنفسها، كأن شيئًا ما يضايقها ويزعجها. أما "لورينسا" فلم تكن بالتأكيد أقل تذمرًا مما اعتادت أن تكون عليه كل صباح. فيما شُغِلَتْ "أنَّا" بفرز البريد، ولكنها كانت تفعل هذا بذهنٍ شاردٍ، إذ كانت تفكر أنها بحاجة إلى تدبير أشياء أخرى إضافةً إلى السَّبُّورة، تحتاج أيضًا بعض التُّخَتْ والكراسي، أشياء لا يمكن العثور عليها بسهولة في المتاجر القريبة. كل ما تبقَّى لن يكون من الصعب شراؤه؛ الأسرَّة والملابس والمفروشات والبذور التي ستُزرَع في حدائق الخضراوات وأدوات البستنة، والدفاتر والأقلام وكل ما قد تحتَجن إليه النساء في ورش الحرف اليدوية، لكنْ في أي مكان لعين يُمكنها أن تجد الأثاث اللازم لتجهيز فصل دراسي؟

بالإضافة إلى ذلك كان هناك شيء آخر يُقلقها ويزعجها، وهو أن "چوفانَّا" لم ترغب في المشاركة بأي شكل في مشروعها. ردَّت "چوفانَّا" على طلب "أنَّا" وهي منهمكة في خياطة الشال القطني الذي كانت على وشك إنجازه قائلة: "ما زلتُ أشعر أنني غير قادرة على الذَّهَاب مرة أخرى إلى "كونترادا"، ولكنني سعيدة من أجلكِ. إن مشروعكِ هذا رائعٌ حقًّا"، فقالت لها "أنَّا" بأسفٍ: "كنت أودُّه أن يصير مشروعنا نحن الاثنتين".

كانت "أنَّا" تتفهم قرار "چوفانَّا" وتقبله، لكنْ في الوقت ذاته انتابها غضب شديد حين أدركت أن السيد "چوليو" لا يزال له مثل هذا التأثير البالغ في اختيارات "چوفانَّا" وقراراتها، وهذا طبعًا ليس مُنصِفًا على الإطلاق.

بعدما فرزتِ البريد ربطتْ "أنَّا" الخطابات الموجَّهة إلى مصنع ومخزن نبيذ "جريكو" في حُزْمة صغيرة، ثم وضعتها جانبًا كي تسلمها إلى "روبرتو" لاحقًا، في المنزل، هذا إذا عاد لتناول الغداء. فمنذ أنهى ابنها المدرسة الثانوية، كرَّس جلَّ وقته لإدارة المصنع وكرم العنب، كما وعد، وهذا ما دلَّ على تمتعه بحسٍّ عالٍ بالمسؤولية. قالت "أنَّا" لنفسها فيما تبتسم ابتسامةً ضيقةً "إنه حقًّا ابني".

وضعتْ حقيبتها حول رقبتها، وتوجَّهت إلى مكتب التلغراف، وسألت: "هل هناك برقيات من تلك التي تصلكنَّ في اللحظة الأخيرة قبل رحيلي؟".

استدارت "إيلينا" لتنظر إليها، ثم هزت رأسها بالنفي مطبقةً شفتيها في عدم ارتياحٍ دون أن تنطق بكلمة واحدة.

بدا وجهها متعبًا، وعيناها محاطتين بهالات حُمر. أرقها لم يكن شيئًا جديدًا عليها، لكنْ بدا أنه ازداد سوءًا في المدة الأخيرة.

أجابتها "لورينسا": "لا، يا عمَّة، لا جديد". هي أيضًا لم تبدُ بحالة جيدة ذلك الصباح، وكان ذلك واضحًا على وجهها، واعتقدتْ "أنَّا" أنها ربما تشاجرت مرَّة أخرى مع "تومَّازو". كان جوٌّ من الكآبة يخيم على منزلهما مؤخرًا جعله أشبه بالسماء حين تتلبد بها غيمة كثيفة. توجَّهت "أنَّا" نحو "لورينسا" وقالت لها: "ما زالت لديَّ بضع دقائق قبل أن أبدأ جولتي، هل ترغبين في تناول فنجان قهوة سريع في البار؟". أجابت "لورينسا" وهي تدفع الكرسي إلى الخلف وتنهض: "نعم، أنا بحاجة ماسة إلى ذلك".

كانت الأجواء في ميدان البلدة الرئيس في هذه الساعة من اليوم هادئة كأنَّ الحياة به قد توقفت مؤقتًا، فقد كانت سعفات النخلة الكبيرة ساكنة إلى درجة أنها بدت كأنها مرسومة على خلفية السماء؛ وأغلقت جميع المحلَّات التِّجارية

أبوابها لمنع دخول الحرارة إليها؛ وبدا على الشيخين ضئِيلي الجسد الجالسيْن على مقعد الميدان والرجال الأربعة الذين يرتدون سترات تحتيَّة بيضاء ويلعبون الورق فوق طاولة البار الإرهاق بسبب حرارة الجو كأنهم على وشك الذوبان.

أسندت "أنَّا" دراجتها إلى الجدار وجلست إلى إحدى طاولات البار الخارجية فيما ذهبت "لورينسا" لتجلب لهما القهوة.

قالت "أنَّا" وهي تُحرِّك الملعقة في فنجان القهوة: بدا لي "تومَّازو" متوترًا هذا الصباح".

فردت "لورينسا": "لو فقط يهدأ قليلًا، إنه مُهوَّس بتلك الطفلة؛ يقلق عليها من كل شيء، حتى عندما لا يوجد مُسوِّغ لذلك القلق. هذا بخلاف أنه يرى أنني مخطئة في كل شيءٍ تفعله أو يقع لها، إذا بكت الطفلة، أو لم تنلْ قسطًا كافيًا من النوم، أو تشاقت".

شعرتْ "أنَّا" بوجود سبب آخر، لكنها التزمت الصمت وتركتها تواصل حديثها، فتابعت "لورينسا": "ناهيكِ بقصة "أوترانتو" هذه. لا أفهم لماذا علينا كل صيفٍ الذَّهَاب إلى هناك".

رفعتْ "أنَّا" حاجبها، وقالت لنفسها: "ها هو إذن السبب الحقيقي".

استطردتْ "لورينسا" قائلةً: "لقد قلتُ له بوضوح إنني لا أريد الذَّهَاب إلى هناك هذا العام، أتعرفين ماذا كان جوابه؟ قال إنني غريبة الأطوار وجاحدة. أنا كذلك! لكنْ من طلب منه فعل أي شيء؟ كان هو دائمًا من يقرر أين نذهب لقضاء الإجازة، ولم يحدثْ أن سألني مرة واحدة عن رأيي".

تنحنحت "أنَّا" قائلة: "أنتِ لا تريدين الابتعاد كثيرًا عن "دانييليه" أليس هذا هو السبب؟".

أغمضت "لورينسا" عينيها قليلًا ونقلت نظرها إلى القلعة. تمتمت بعدها "أنَّا" قائلة: "ستستغرق هذه الإجازة أسبوعين فقط، لتفعلي ذلك فقط من أجل "چادا"، أنتِ تعلمين كم تشعر بمتعة كبيرة حين تذهب إلى البحر".

فانفجرت "لورينسا" قائلة: "البحر موجودٌ هنا أيضًا، بالقرب منا".

فقالت "أنَّا": "نعم، ولكنكما لديكما فعلًا منزل هناك، وليس من الطبيعي أن يبقى مغلقًا. ماذا سيكلفكِ الأمر؟ إنهما أسبوعان يا "لورينسا". فقط أسبوعان".

صاحت "لورينسا" التي ازدادت غضبًا وتوترًا: "سيكلِّفني هذا الكثير! توجد أشياء لا تعلمينها، أشياء حدثت بيننا، لا أستطيع الابتعاد عنه الآن". كرَّرت وهي تهز رأسها: "لا أستطيع".

فقالت "أنَّا": "يبدو أنكِ تخافين شيئًا ما".

أجابت "لورينسا": "طبعًا أخاف. قد يجد فتاةً أخرى ويتزوجها. ماذا تظنين؟ أتعتقدين أنه سيبقى وحيدًا إلى الأبد؟ ألن يملَّ من العيش هكذا؟".

فسألتها "أنَّا" بسخرية: "إذن فأنتِ تعتقدين أنه سيجدها تحديدًا خلال الأسبوعين اللذين ستقضينهما هناك برفقة أسرتكِ؟".

فأجابت "لورينسا": "أنا لا أريده أن يجدها أبدًا".

فقالت "أنَّا": "لا يمكنكِ أن تقولي ذلك. أنتِ تعلمين أن...".

قاطعتها "لورينسا" قائلة: "كان يمكن لكل شيءٍ أن يكون بسيطًا جدًّا لو أننا فقط ذهبنا من هنا. لو أننا ابتعدنا عن كل شيء وكل شخص. كان بوسعنا أن نكون سعيدين جدًّا".

كانت هذه أول مرة تسمع فيها "أنَّا" "لورينسا" تقول شيئًا كهذا، ولذلك أثارت فيها كلماتها هذه قلقًا شديدًا، فردَّت بعد لحظة من الصمت متسائلة: "مثل "آنا كارنينا" والكونت "فرونسكي"؟".

فهمست "لورينسا" مجيبة: "نعم، بالضبط مثلهما".

تأففت "أنَّا"، ثم فتَّشت في حقيبة عملها، وأخرجتْ بعض العملات المعدنية ووضعتها على الطاولة، ثم قالت: "عليَّ الذَّهَاب الآن، لكنْ تذكري شيئًا واحدًا "آنا كارنينا" دفعتْ ثمن اختيارها غاليًا. فكِّري في الأمر جيدًا". ثم ابتعدتْ.

اتَّكأت "لورينسا" على ظهر الكرسي. كانت تعرف قصة "آنا كارنينا" جيدًا، فقد قرأت الرواية عندما كانت فتاةً مراهقةً، وتذكَّرت أن تلك البطلة الرومانسية أثارت إعجابها بشدة، وذلك لأنها امتلكتِ الشجاعة لتتبع قلبها، حتى لو كان ذلك يعني خسارتها كل شيء. والآن، وبعد كل هذه السنوات، وكما كانت الحال آنذاك، لم تستطعْ أن ترى في فعلتها هذه أي خطأ يذكر.



في يوم الأربعاء التالي، وفي موعد لقائها "دانييليه"، أحضرت "لورينسا" طفلتها معها. على متن الحافلة، لم تتوقَّف الطفلة عن البكاء بسبب حرارة الجو، وكانت تفرك بيديها الصغيرتين عينيها المغرورقتين بالدموع.

كانت "لورينسا" تكرِّر لها: "كوني هادئةً وأحسني التصرف. نحن ذاهبتان إلى مكان جميل لمقابلة صديقٍ عزيز على أمكِ". عندما وصلتا، كان "دانييليه" منحنيًا إلى طاولة العمل ومشغولًا بالرسم.

صاحت "لورينسا" بابتسامة متكلَّفة حالما وصلتا إلى مشغله: "ها نحن أولاء". نظر "دانييليه" إليهما ووثب واقفًا على قدميه، ناقلًا نظره من الطفلة إلى "لورينسا".

توقَّفت "چادا" عند المدخل ولم تتقدَّم، وبدأتْ تحدق إلى "دانييليه" بعينيها اللتين ما زالتا مبلَّلتين بالدموع. حثَّتها "لورينسا" على الدخول: "هيا، تعالي إلى أمكِ".

ألقى "دانييليه" عليهما نظرةً مرتبكةً، ثم اقترب من "چادا" وجثا أمامها مبتسمًا وقال لها وهو يمد لها يده ليصافحها: "تشرَّفت بمعرفتكِ، اسمي "دانييليه". وضعت "چادا" بعد لحظة يدها الصغيرة في يد "دانييليه".

واصل حديثه فيما كان يداعب أصابعها الصغيرة: "هل تعلمين أنكِ جميلة جدًّا؟ أقسم إنني لم أرَ طفلةً أجمل منكِ في حياتي".

وضعتِ الطفلة إصبعها في فمها، ودون أن تشيح بنظرها عنه، ابتسمت ابتسامةً ضيقةً، وتقدمت خطوة صغيرة. رافقتها "لورينسا" إلى الداخل دافعةً

إياها من كتفيها، ثم أغلقت الباب متنهدةً. سأل "دانييليه" الطفلة: "اسمكِ "چادا"، أليس كذلك؟".

أومأت الطفلة برأسها. فسألها من جديد: "هل تعلمين أن اسمكِ هو اسم حجرٍ كريمٍ ذي لون رائع؟".

هزَّت الطفلة رأسها نفيًا في مرح. فنهض وقال لها: "تعالي، سأريكِ"، وأمسكَ بيد الطفلة، وأخذها إلى تلك الزاوية التي يحتفظ فيها بلفائف القماش. ثم أخرج واحدة منها لها لون أخضر لامع وقال لها: "ها هو لون حجر "چادا". مدَّت الطفلة يدها ولمست القماش. فسألها: "هل أعجبكِ؟".

فصاحت في سعادة: "نعم".

فاستطرد "دانييليه": "هل تعلمين ماذا سنفعل الآن؟ سنخيط لكِ فستانًا جميلًا"، ثم ربَّت بلطف خدها. كانت "لورينسا" تراقبهما طَوال الوقت وعلى وجهها ابتسامة رضا وسعادة.

وطَوال الساعتين التاليتين قضى ثلاثتهم وقتًا هادئًا وسعيدًا معًا. أخذ "دانييليه" بمساعدة "لورينسا" قياسات الطفلة، إذ أقنعاها بأنهما يلعبان معها لعبة، وجعلاها تدور حول نفسها كأنها أميرة، وبهذا نجحا في أخذ القياسات، ثم قصَّا القماش؛ واستخدم "دانييليه" بعض القصاصات التي استخرجها من إحدى السلال، وصنع بها أشرطة للشعر ربط واحدة منها على رأس "لورينسا"، وأخرى على رأس الطفلة الصغيرة، وفي النهاية ربط واحدة على رأسه، وهذا ما جعل الطفلة تطلق واحدة من ضحكاتها الرنانة.

بعدئذٍ جلست "چادا" في زاوية من المشغل لتلعب ببعض قطع القماش الصغيرة. سألت "لورينسا" "دانييليه" مشيرةً برأسها إلى ماكينة الخياطة "سينجر": "هل تستطيع أن تعمل هذه الأيام؟".

أجابها "دانييليه": "أحاول ذلك. منذ تولى ابن عمكِ العمل في المصنع والمخزن، أصبح بإمكاني المجيء إلى هنا، بمعدَّل أكبر على الأقل من ذي قبل".

طلبتْ منه "لورينسا": "أودُّ كثيرًا إلقاءَ نظرة على الرسوم الجديدة. هل يمكنني هذا؟".

احمرَّ وجه "دانييليه" وأجابها: "إنها لا تزال مجرَّد مُسوَّدات". ثم مال نحوها وأزاح برفق خصلة متمرِّدة انفلتت من شعرها واضعًا إياها خلف أذنها وأضاف: "لكن عندما أنتهي منها، فستكونين أول من يراها".

أجابت "لورينسا": "لا أستطيع الانتظار"، قالتها وأغمضت عينيها متنهدة، ثم ابتسمتْ قائلة: "ليت كل أوقات ما بعد الظهيرة مثل هذه".

ابتسم "دانييليه" بدوره وهمس قائلًا: "إن "چادا" طفلة رائعة حقًّا".

خفضت "لورينسا" صوتها وهي تسأله: "هل فكرت يومًا أنه يمكن للأمر أن يسير دومًا بهذا الشكل؟".

فسألها "دانييليه" مستفهمًا: "بهذا الشكل كيف؟".

فأوضحت "لورينسا": "أنا وأنت و"چادا".

حدَّق إليها "دانييليه" كأنه لم يكنْ متأكدًا مما فهمه. فتابعت "لورينسا": "لقد قلتَ إنكَ لن تسمح لي أبدًا بتركها، حسنًا، إذن دعنا نأخذها معنا. هل ستوافق في هذه الحالة أن نرحل ثلاثتنا ونترك البلدة والبلد بأكملها؟".

اتسعتْ عينا "دانييليه"، ثم تنحنح واستدار نحو "چادا" وأجابها في النهاية: "أنتِ لا تدرين ما تقولين".

همست "لورينسا": "أنت من قال إن "چادا" هي المشكلة"، ثم تابعت وقد رفعت صوتها هذه المرة: "أنا أعرض عليك حلًّا!".

توقفتِ الطفلة فجأة عن اللعب، ورفعتْ رأسها.

ردَّ "دانييليه: "والحل هو أن تأخذيها بعيدًا عن والدها؟ وعن جدَّيْها؟ هل هذا هو الحل الذي تقترحينه؟".

ردتْ "لورينسا" في غضب وتذمر: "على الأقل أحاول إيجاد حلٍّ".

وفجأة بدأت "چادا" تنتحب، ثم أمسكتْ ببعض قطع القماش التي كانت تلعب بها وألقتها بعيدًا، فسألها "دانييليه" على الفور: "ما الأمر يا صغيرتي؟ أتبكين لأن أمكِ تبدو غاضبة؟ انظري، هي فقط تمزح! لقد أخبرتني للتو أنها سعيدة جدًّا بأنها ستسافر إلى البحر برفقتكِ أنتِ وأبيكِ يوم السبت".

فتحتْ "لورينسا" فمها لتتحدث، لكنَّ نظرة "دانييليه" القاسية كانت كافية لتردعها. فختم "دانييليه" حديثه للطفلة قائلًا: "أليس كذلك، يا "لورينسا؟".

توقفت "چادا" عن البكاء وحدَّقت إلى والدتها. نظرت "لورينسا" إلى "دانييليه" بنظرة امتزج فيها الألم بالغضب، ثم قالت بصوت مرتجف: "بلى، سعيدة جدًّا". ثم تقدمت بسرعة نحو ابنتها، ورفعتها حاملة إياها بين ذراعيها وتوجهت نحو الباب. توسل إليها "دانييليه": "لورينسا"، عودي إلى هنا"، لكنها لم تلتفت إليه حتى.



انتعلت "أنَّا" حذاءها على عجل، إذ كان "أنطونيو" سيمرُّ عليها ليأخذها في أي لحظة. قال لها في اليوم السابق: "احرصي على أن تكوني جاهزة غدًا في الساعة العاشرة صباحًا"، وهي تعلم أنه لطالما كان شديد الدقة في مواعيده.

في ذلك اليوم –وهو اليوم الأول من إجازة "أنَّا" التي تستمر أسبوعين– كانا سيذهبان إلى شخصٍ يعيش في الريف ويمكن أن يُطلق عليه أنه بائع تحف. وكان هذا الرجل –حسب ما علم "أنطونيو"– يمتلك سَبُّورة قديمة من تلك التي تستخدم في المدارس.

سألت "أنَّا" "چوفانَّا" قبل أن تغادر: "هل أنتِ متأكدة أنك لا تريدين أن تأتي معي؟".

فردَّت "چوفانَّا": " لا، شكرًا". كانت وقتئذٍ جالسةً إلى طاولة المطبخ، تمسك بيدها إبرة الكروشيه وأمامها كرة من الصوف الوردي، ومنهمكة في حياكة جوارب كروشيه نسائية، ثم أضافت قائلة: "أفضِّل البقاء هنا. ثم إن الجوَّ حار جدًّا للخروج".

ارتسمت على وجه "أنَّا" علامات خيبة أمل وقالت: "كما تشائين".

في تلك اللحظة سمعت صوت آلة تنبيه سيارة "فيات 508". صاحت "أنَّا" قائلة: "ها قد وصل"، ثم أضافتْ وهي تخرج من البيت: "وداعًا، سأعود على الغداء!".

كان "أنطونيو" ينتظرها وقد فتح نافذة سيارته وأسند ذراعه إلى الباب. قالت "أنَّا" ممازحة إياه: "أنت أكثر شخصٍ دقيقٍ في المواعيد عرفته في حياتي، دقيق بشكل وقح".

فردَّ عليها بابتسامة: "الدقة في المواعيد هي فضيلة الكرماء".

حالما انطلقا بالسيارة، دخلتْ نسمة هواء خفيفة من النافذة وبعثرت شعر "أنَّا"، ناشرةً رائحةً طيبةً داخل السيارة. سألها "أنطونيو": "هل أنتِ سعيدة بالإجازة؟".

فردَّت عليه: "في الحقيقة، أنا سعيدة بأنه أصبح لديَّ وقت أكثر لأخصصه لبيت النساء". ثم أضافت: "أتعلم؟ كنت أفكر في الأمر الليلة الماضية. أودُّ أن يكون البيت جاهزًا بحلول نهاية سبتمبر. إذا عملتُ بجدٍّ خلال هذين الأسبوعين، فأعتقد أنني سأتمكَّن من تحقيق ذلك".

تعجب "أنطونيو" قائلًا: "آه حقًّا. ألم تقرري أن يكون الافتتاح في نوفمبر؟ لماذا غيَّرتِ رأيكِ؟".

هزَّت "أنَّا" كتفيها وأجابته: "لا يوجد سبب محدد، لكنْ كلما كان البيت جاهزًا في وقتٍ أبكر، كان ذلك أفضل".

قال "أنطونيو": "نعم، لكنَّ نهاية سبتمبر ستكون بعد ما يزيد على شهرٍ بقليل، ولن أكون هنا خلال الأيام العشرة القادمة. يُزعجني أنك ستُضطَرِّين إلى الاهتمام بالأمر بمفردك. يمكنكِ الانتظار، أليس كذلك؟ لمَ العجلة؟".

كان "أنطونيو" في اليوم التالي، سيسافر إلى زوجته وابنته إلى "أوترانتو". كانتا هناك فعلًا منذ بضعة أيام، برفقة "تومَّازو" والطفلة. كانت "أجاتا" قد عرضتْ على "لورينسا" وزوجها أن تعتني بـ"چادا"، فقالت لـ"لورينسا" دون أن يخلو صوتها من نبرة توبيخ وتأنيب: "وبهذا يُتاح لكِ قليلٌ من الوقت كي تبقي مع زوجكِ بمفرديكما".

كان "أنطونيو" قد وعد بالانضمام إليهم بعد أن يتدبَّر بعض الأمور في معصرة الزيتون. وحينها أجابته "أجاتا" بضحكة فيها شيء من المرارة: "في المعصرة؟ نعم، بالتأكيد ولمَ لا؟ ومنذ متى أصبحت معصرة الزيتون "للنساء"؟ شيء غريب، أليس كذلك؟".

وضعتْ "أنَّا" يدها على يد "أنطونيو" التي كانت تمسك بمقبض ناقل السرعة وقالت مطمئنةً إياه: "إنه للطف منك أن تهتم بي وبمشروعي، لكنْ لا تقلق بشأني، أعتقد أنني أستطيع تدبر الأمر بنفسي".

بدا "أنطونيو" متفكرًا وهو ينقل السيارة إلى الغيار الثالث. سحبت "أنَّا" يدها ثم قال "أنطونيو": "يُمكنني حقًّا ألا أسافر وأبقى هنا إذا كنتِ بحاجة إلى وجودي".

نظرت إليه "أنَّا" وقالت بلطف: "لا تقلْ هراءً".

قطعا خمسة كيلومترات بالسيارة خلال طريق يمرُّ بمحاذاة الحقول، متجهيْن نحو "ليتشي". تمتم "أنطونيو": "حسب ما أخبروني يجب أن يكون هنا، على اليمين من بعد البئر"، وحاد بسيارته تجاه طريق جانبي، ثم سرعان ما ظهر أمامهما بيت ريفيٌّ كبير مصنوع من الطُّفْ، ومحاط ببستان من أشجار اللوز والبرتقال.

مالت "أنَّا" بجسدها إلى الأمام وقالت: "أعتقد أن هذا هو البيت". صفَّ "أنطونيو" سيارته بجوار جدار حجري جاف وأطفأ المحرك.

ترجَّلا من السيارة وعبرا البستان. توقَّف "أنطونيو" في نقطة محدَّدة وقطف ثمرتين من اللوز من أعلى الشجرة، كسر القشرة الخارجية بضروسه وقدَّم اللوزة المقشرة إلى "أنَّا".

حكى لها "أنطونيو" بعدئذٍ فيما يكسر قشرة الثمرة الثانية ويدسُّ حبة اللوز في فمه: "في مثل هذا الوقت من العام، كنت أنا و"كارلو" في صغرنا نذهب إلى البساتين لسرقة اللوز، ونأكل منه بكميات هائلة. وفي إحدى المرَّات رآنا أحد ملاك تلك البساتين، وكشف أمرنا فبدأ يطاردنا ممسكًا بفأسه وهو يصرخ: "أيها الأوغاد!" فيما نحن نواصل الركض كالمجانين. استدار لحظتها "كارلو" وأشار له بحركة بذيئة أثارت غضب الرجل إلى درجة أنه ظلَّ يطاردنا حتى المنزل".

ضحك "أنطونيو" حينما تذكر تلك الحادثة فيما ابتسمت "أنَّا" وهي تتخيل المشهد، ثم قالت: "كنت أودُّ حقًّا لو تعرَّفتكما عندما كنتما طفلين".

ابتسم لها "أنطونيو" في المقابل، ثم استأنفا السير.

كان باب المنزل الريفي الخشبي مفتوحًا قليلًا، أدخل "أنطونيو" رأسه خلال الجزء المفتوح من الباب، وسأل: "هل من أحد هنا؟"، ولكنه لم يتلقَّ أي رد. فصاحت "أنَّا" بدورها: "مرحبًا!"، ولكنها لم تسمعْ سوى الصمت. تبادلا للحظة نظراتٍ مرتابة، ثم دخلا.

وجدا نفسيهما أمام ما بدا سوقًا ضخمًا ضربه إعصار. كانت هناك قطع أثاث قديمة ومهترئة مكدَّسة بإهمال في كل مكان، ومصابيح نفطية وأباريق من البرونز المذهَّب، وشمعدانات من الحديد المطاوع، وتماثيل للقديسين، وفناجين كبيرة وصغيرة، وأباريق شاي، وساعات حائط، ومراوح، وكتب، ولوحات، ومقاعد، وطاولات جانبية للسرير، وسحَّارات ملابس.

صاحت "أنَّا": "هذا المكان رائع. أتساءل أكان لديه أحد أطقم الحمام التي كانت تستخدمها جدتي".

سألها "أنطونيو" وهو يقترب منها: "وكيف كانت هذه الأطقم؟".

أوضحت "أنَّا" قائلة: "كانت مصنوعة من الفضة، بمقابض مزيَّنة بنقوش بارزة. كانت هناك أيضًا فرشاة للشعر، وفرشاة للملابس، ومرآة صغيرة. في طفولتي كنت ألعب بالفرش والمرآة بضعَ ساعات يوميًّا في وقت ما بعد الظهيرة. كانت تتمثَّل لعبتي في أن أهتم بمظهري كما تفعل جدتي".

تمتم "أنطونيو" وهو ينظر حوله: "أعتقد أنكِ لم تكوني تُضطَرِّين إلى بذل جُهْد كبير".

وفجأة سمعا صوتًا من خلفهما يقول: "من هناك؟".

استدار "أنطونيو" و"أنَّا" في اللحظة ذاتها، فوجدا رجلًا هزيلًا في الستين من عمره، له لحية طويلة شيباء ومتشابكة، واقفًا عند الباب ويمسك في يده غليونًا.

اعتذرتْ "أنَّا" قائلة: "نرجو المعذرة. كنا فقط نتفقد المكان".

قال "أنطونيو" وهو يتقدم نحوه مُصافِحًا: "لا بُدَّ أنك السيد "برونو".

ردَّ الرجل وهو يصافحه: "نعم، إنه أنا".

فقال "أنطونيو": تشرَّفت بمعرفتك، أنا "أنطونيو جريكو". وهذه زوجة أخي "أنَّا".

أوضحت "أنَّا": "أنَّا ألاڤينا"، ثم قالت بابتسامة عريضة: "هذا المكان رائع".

ابتسم لها "برونو" في المقابل برضا وسعادة ثم سألهما: "عمَّ تبحثان؟".

أوضح له "أنطونيو": "قالوا لنا إن لديك سَبُّورة قديمة، ونحن فعلًا نبحث عن واحدة فقط".

فردَّ "برونو": "صحيح ما أخبروكِ به، لديَّ واحدة فعلًا". وقال لهما فيما يتحرك من مكانه: "تعاليا معي"، وقادهما إلى غرفة كبيرة مجاورة حيث كانت هناك -بين خزانات ملابس ومكاتب وآلة طباعة ومحراث ودلو رخامي- سَبُّورة بإطار من الخشب المصمت من تلك التي تعلَّق على الحائط، فقال الرجل وهو يُطلق سحابة من الدخان: "إنها هنا".

انحنتْ "أنَّا" لتتفحصها بشكلٍ أفضل، ولمستْ سطحها الناعم المصنوع من "الأردواز". سألها "أنطونيو" وهو يجثو إلى جوارها: "ما رأيكِ؟ تبدو جيدة، أليس كذلك؟".

أجابت هي: "رائعة جدًّا!"، ثم التفتتْ إلى "برونو" وقالت له: "سنأخذها!".

أخرج "أنطونيو" حبلًا من صندوق السيارة واستخدماه لربط السَّبُّورة فوق سطح السيارة؛ حيث مرَّرا الحبل عدة مرات من السقف إلى داخل السيارة خلال النوافذ المفتوحة. وقف "برونو" يُراقبهما بفضول، متَّكئًا على عضادة باب هذا المكان عاقدًا ذراعيه، ومن حين إلى آخر، كان يقرِّب الغليون من فمه ويسحب منه أنفاسًا عميقة.

سأل "أنطونيو" وهو يطل برأسه من فوق السقف: "هل الحبل مربوطٌ جيدًا من تلك الجهة؟".

أجابت "أنَّا" وهي تختبر قوة تماسكه ساحبة إياه إلى ناحيتها: "يبدو كذلك".

عادا إلى السيارة وحالما كادا يخرجان من الطريق الضيق المؤدي إلى بيت "برونو" الريفي وسلكا الطريق الرئيس، سمعا صوت ارتطام.

استدارا كلاهما في اللحظة نفسها ورأيا السَّبُّورة ملقاة على الأرض في منتصف الطريق. فتح "أنطونيو" عينيه على اتساعهما، ثم نظر مرة أخرى إلى "أنَّا" وسألها: "ألم تربطي العقدة؟".

تساءلت "أنَّا": "أي عقدة؟".

ظلَّا يحدقان إلى بعضهما بضعَ ثوانٍ، ثم انفجرا ضاحكين. ظلَّ جسد "أنَّا" يهتز من شدة الضحك حتى عندما فتح "أنطونيو" باب السيارة وحاول إعادة السَّبُّورة على السقف. قال لها بنبرة مرحة: "هيا، توقَّفي عن الضحك، وتعالي لتساعديني".

لكنَّ ضحكة "أنَّا" العالية الرنَّانة ظلَّ صداها يتردَّد بين أشجار الزيتون وامتدَّ في المكان من حولهما كرائحة السماد. أدركت "أنَّا" حينها أن هذه كانت أول ضحكة حقيقية لها بعد وفاة "كارلو". الأولى التي لم يرافقها شعورُ الذنب الذي

اعتادت أن يصاحب كل ضحكاتها. إنها أول مرة تضحك فيها دون أن تسأل نفسها أكان من الصواب الضحك بعد أن فقدتْ حب حياتها.

عندما وصلا إلى "كونترادا لا بيترا"، ثبَّتا السَّبُّورة على الحائط بمسامير طويلة وسميكة. في حين أصبح وقتئذٍ على الحائط المقابل من الغرفة ذاتها مكتبة كبيرة وعريضة؛ وهي المكتبة التي كانت قبل أسبوعين فقط، تحمل بين رفوفها ملفَّات الأرشيف الخاصة بفواتير معصرة الزيتون. قال لها "أنطونيو" عندما أهداها إياها: "سأجد مكانًا آخر لكل هذه الملفات الضخمة، لا تقلقي".

وضعا في أول رفَّين من المكتبة كل كتب المدرسة الخاصة بـ"روبرتو"، بدءًا من الكتب التي درسها عندما كان لا يزال طفلًا في المرحلة الابتدائية. وقريبًا، كانت التُّخَت والكراسي ستصل أيضًا. قالت "أنَّا" لنفسها: "وستبدو الغرفة حينها فصلًا دراسيًّا حقيقيًّا".

كان "چيجيتُّو" النجار، قد عرض عليها أن يبيعها عشر تُخَتٍ وعشرة كراسي، وكذلك الأسرَّة ذات الطابقين التي كانت ستضعها في الطابق العلوي مقابل سعرٍ ممتازٍ. وقال لها مطمئنًا إياها: "لا تقلقي، يا ساعية البريد. سيكون كل شيءٍ جاهزًا مع نهاية الصيف"، ثم أضاف: "إذا كنتِ بحاجة إلى مراتب أيضًا، فسأوصلكِ بأحد أصدقائي وسأطلب منه أن يعاملكِ جيدًا وألا يكلِّفكِ مبلغًا ضخمًا".

قال لها "أنطونيو" بعدما انتهيا من تثبيت السَّبُّورة: "أعتقد أننا نستحق الآن فنجانًا من القهوة، ألا تظنين ذلك؟".

أجابت "أنَّا": "نعم، بالتأكيد!".

لم يكنْ هناك أي شخصٍ في الميدان في تلك الساعة. بدا في ذلك الوقت من الصباح كأن كل سكان البلدة قد اختفوْا دفعةً واحدة بسبب الحرارة الشديدة للجو. داخل مقهى "كاستيلُّو"، الذي كان هو الآخر خاليًا تمامًا من الزبائن، كان "ناندو" يُجفِّف بعض الأكواب بقطعة قماش، فيما كانت إحدى محطات الراديو الموجود على المنضدة

تذيع أغنية "شكرًا لك على الأزهار" لـ"نيلَّا بيتسي"، وهي الأغنية التي فازت ذلك العام بأول نسخة من مِهْرَجان الأغنية الإيطالية "سانريمو".

وضع "ناندو" فنجاني القهوة أمامهما، ثم قال متردِّدًا بعض الشيء: "إذا سمحتما لي جرِّبا أن تضيفا شرابَ اللوز هذا إلى القهوة بدلًا من السكر". ودون أن ينتظر ردهما، أخذ زجاجة وسكب منها بضع قطرات في الفنجانين الصغيرين اللذين يتصاعد منهما البخار. قال "ناندو": "لقد صَنَعَته زوجتي البارحة فقط، إنه طيب للغاية. هذا بالتأكيد على حساب البار!".

شرب "أنطونيو" رشفة من القهوة وقال: "إنه لذيذ يا "ناندو"! أرسل تهانيَّ إلى زوجتك".

أومأ الآخر بفخر الشديد. في حين كانت "أنَّا" على وشك أن تقول إنه أكثر حلاوة بقليلٍ من مقدار السكر الذي اعتادت أن تضعه في قهوتها، عندما بدأ "أنطونيو" يُدندن بصوتٍ منخفضٍ مع صوت "نيلَّا بيتسي" القادم من الراديو قائلًا: "وسط تلك الورود هناك الكثير من الأشواك والذكريات المؤلمة لمن وقعوا في الحب. إنها صفحات أُغلقت فعلًا ووُضعت لها كلمة النهاية".

توقفت "أنَّا" عن شرب القهوة، وظلَّت ممسكةً بالفنجان الذي بقي معلقًا في منتصف الهواء، محدِّقة إلى شفتي "أنطونيو" اللتين كانتا تتحركان بهدوء، وتهمسان بكلمات الأغنية. في تلك اللحظة تحديدًا، شعرت "أنَّا" –في نقطة ما من صدرها، وبالضبط حيث يوجد قلبها– بما يشبه الرجفة. سألها "أنطونيو" مبتسمًا، حالما أدرك أنها تُراقِبه: "ما الأمر؟".

فحولت "أنَّا" نظرها عنه على الفور، وأجابت بسرعة وهي تشعر بخديها يحترقان خجلًا: "لا شيء". ثم أخذت آخر رشفة من قهوتها.

في يوم 22 من شهر أغسطس، بدأ حصاد عام 1951 في كرم "جريكو".

في الخامسة صباحًا، وصل "دانييليه" أمام منزل "روبرتو" ودقَّ جرس دراجته "اللاوتال تاوروس". كان قد أخبره في الليلة السابقة: "لا أريدك أن تقطع الطريق سيرًا على قدميك في تلك الساعة، عندما يظلُّ الظلام دامسًا، أُفضِّل أن أمرَّ عليك لآخذك".

وهكذا، عندما فتح "روبرتو" الباب، وهو لا يزال نصف نائم، حيَّاه "دانييليه" الذي كان مفعمًا في تلك الساعة بنشاطٍ وحيوية، وأجلسه على الأنبوب العلوي للدراجة. سأله "روبرتو" بعد أن استقر في مكانه: "هل أنت متأكد من أنه بإمكانك رؤية الطريق وأنا أجلس أمامك هكذا؟".

رد "دانييليه": "أراه، أراه". من حين إلى آخر –خلال رحلتيهما من المنزل إلى كرم العنب– كان يكفي لـ"روبرتو" أن يتحرك قليلًا لتنحرف الدراجة يمينًا أو يسارًا.

صاح "روبرتو" بخوفٍ وهو يُثبِّت جسده فوق الأنبوب محاولًا الحفاظ على توازنه كيلا يقع: "أووووه!".

ضحك "دانييليه" ضحكة مكتومة وقال: "انتبه، يجب أن تبقى ثابتًا!".

بدأ العمال يصلون إلى الكرم على دفعات. أتى البعض مشيًا على الأقدام، وبعض آخر راكبًا الدراجات، وآخرون بعربات تجرُّها الحمير. عندما أصبحت الساعة السادسة وبضع دقائق، سطعت الشمس أخيرًا وسط صفوف العنب وأضاءت الكرم بأكمله فتفرق المزارعون وبدأوا عملهم بنشاط. أخذوا يقطفون عناقيد العنب الناضجة ويملؤون بها السلال الموضوعة على الأرض. أمسك "دانييليه" بزوجين من المقصات وأعطى واحدًا منها لـ"روبرتو". وقال له وهو يضع يده على كتفه: "تعالَ معي"، ثم قاده إلى وسط أحد صفوف العنب.

في المناسبات النادرة التي أخذه فيها "كارلو" لحضور الحصاد عندما كان طفلًا، لم يرَ "روبرتو" أباه يختلط بالعمال، ناهيك بمشاركتهم عملهم. كان أبوه يمسكه بيده ويتجوَّل بين صفوف الكرم ووسط السلال المليئة بعناقيد العنب، ليتأكد من أن

كل شيءٍ يسير بسلاسة وعلى ما يرام. سمح له مرة واحدة فقط بالدخول إلى الأحواض وسحق حبات العنب بقدميه الحافيتين مع الأطفال الآخرين.

قال "دانييليه" لـ"روبرتو" وهو يقطف عنقودًا من أعلاه بضربة واحدة من مقصه: "انظر إليَّ وافعل كما أفعل".

كان من الواضح أن "دانييليه" ينضم في أوقات الحصاد وفي غيرها من الأوقات إلى الفلاحين ويعمل معهم بجدٍّ دون أن يدخر جُهْدًا. لم يكن "روبرتو" يعرف مع أي نهجٍ من الاثنين يتفق أكثر؛ هل يتَّبع مع العمال النهج الطيب الودود لكنِ المتباعد وغير الوثيق لأبيه، أم النهج المتواضع الذي يتَّبعه "دانييليه". كان يثق بأنه سيكتشف ذلك بنفسه، عاجلًا أو آجلًا.

وفجأة، بدأ أحد الفلاحين الذي يعمل في صفوف الكرم الأمامية ينشد أغنية شعبية، فامتد صوته العالي العذب في كل أنحاء الكرم:

"ويا زهرة كل الزهور.."

ثم تبعته أصوات العمال الآخرين من بقية صفوف الكرم في جوقة واحدة:

"يا زهرة الفلفل،

جفَّت كل النافورات،

وحبيبي المسكين يموت عطشًا".

ثم أنشد الرجل الأول بمفرده الجملة الأولى من المقطع الثاني للأغنية:

"كنت صغيرًا عندما ماتت أمي..

ثم تبعه الآخرون:

"بقي لديَّ حنين إلى ثديي أمي

لذا كل امرأة أراها أدعوها أمي".

واصلوا ترديد الأناشيد والأغاني الشعبية حتى الساعة التاسعة عندما دعا "دانييليه" الجميع ليأخذوا قسطًا من الراحة.

تمتم "روبرتو" وهو يلمس معدته: "أنا جائع".

فقال "دانييليه: "تعالَ، دعنا نذهب إلى المصنع لنحضر بعض النبيذ للجميع ثم نأكل نحن أيضًا".

عادا ومعهما دمجانتين من نبيذ "دون كارلو". أخذ العمال يمررونهما إلى بعضهم ويشرب كلٌّ منهم جرعات كبيرة من النبيذ.

أفسح "دانييليه" و"روبرتو" لنفسيهما مكانين في واحدة من المجموعات الصغيرة الكثيرة التي جلس فيها العمال على الأرض على هيئة دوائر لتناول الطعام. قام شاب في عمر "روبرتو" نفسه تقريبًا بتليين قطعتين من خبز "الفريزيلَّا" مُبلِّلًا إياهما بالماء، ثم قطع ثمرتيْ طماطم وعصر واحدةً فوق كل قطعة منهما ثم غطاهما بكمية وفيرة من زيت الزيتون. قال وهو يقدم واحدة لــ"دانييليه" وأخرى لــ"روبرتو": "تفضلا".

سأله "روبرتو": "وماذا عن الشِّوك؟".

قُوبِلَ طلبه بضحكة صاخبة. صاح واحدٌ من العمال وهو يمضغ طعامه بفمٍ مفتوح: "يا رفاق، السيد الصغير هنا يريد شوكة".

حدَّق إليه "دانييليه" وهو يضحك كالبقية. فسأل "روبرتو" متعجبًا: "ما الذي قلته لتضحكوا هكذا؟".

سأله "دانييليه" وهو يقطع جزءًا من "الفريزيلَّا" المدهونة بزيت الزيتون بيده ويأكلها: "دعني أفهم. هل تأكل "الفريزيلَّا" بالشوكة والسكين؟".

أجاب "روبرتو" بلهجة من يعتقد أنه يقول شيئًا بديهيًّا: "وكيف تُأكل إذن؟ لطالما جعلتنا أمي نأكلها بالشوكة".

فقال له "دانييليه" وهو يغمز بعينه: "جرِّب أن تأكلها بيديك، سترى أنها ألذ بمائة ألف مرة".

وهكذا ضمَّ "روبرتو" أصابعه وحاول أن يقطع جزءًا من "الفريزيلَّا". فكر "روبرتو" بينه وبين نفسه في مرح: "لو رأتني أمي آكل بهذا الشكل لقطعت يديَّ". كان على وشك أن يضع القطعة في فمه عندما وصل رجلٌ يركب دراجة، وكان لاهثًا يتصبَّب عرقًا وأخذ يصرخ قائلًا: "دانييليه"!، "دانييليه كارلا"! دانييليه"!".

نهض حينها أحد العمال، فيما رفع آخر رأسه، فيما واصل آخر الأكل كأن شيئًا لم يكن. هبَّ "دانييليه" واقفًا وصرخ قائلًا: "أنا هنا! ماذا يحدث؟".

توقَّف الرجل بدرَّاجته أمامه مباشرةً، وكان يتنفس بصعوبة كبيرة فقال له أحد العمال وهو يناوله دمجانة النبيذ: "اشرب حالًا وإلا ستموت".

أخذ الرجل رشفة طويلة ثم مسح شفتيه بمعصمه وقال بوجهٍ متوتِّرٍ وكان لا يزال يلهث: "أرسلتني أمكَ. عليكَ أن تعود إلى المنزل على الفور".

حدق إليه "دانييليه" في ارتباك. فتابع الرجل: "إنه أبوك. أصيب بنوبة قلبية".



26
أكتوبر – ديسمبر 1951

ركب "دانييليه" الدراجة على عجلٍ، وظل يُبدِّل بسرعة حتى وصل إلى منزل والديه. لكن عندما فتحت له جدته "چينا" الباب وهي تنتحب في منديلها، أدرك أنه قد وصل متأخرًا جدًّا. لم ينتظره أبوه.

في غضون ساعات قليلة، امتلأ المنزل برائحة الأقحوان وكذلك عطر الياسمين الخاص بـ"كارميلا" التي ارتدت ثوبًا أسودَ يصل طوله إلى سمانة قدميها، فيما كان وجهها مخفيًّا وراء حجابٍ مصنوع من الأوركنزا. ظلت "كارميلا" جالسة طَوال ليلة السهر على الجثمان ولم تتحرك من مكانها، فيما كان يمرُّ أمامها صفٌّ

طويلٌ من الناس الذين جاءوا لتقديم التعازي. كانت مثالية في دور الأرملة الحزينة المكلومة على موت زوجها، مع أنَّ ما من أحدٍ رآها تذرف دمعة واحدة، لا في أثناء ليلة العزاء، ولا في الجنازة، ولا حتى في اللحظة التي دُفن فيها "نيكولا".

أما فيما يخصُّ تعاملها مع "دانييليه" فربما كانت أكثر برودًا ولا مبالاة من المعتاد، إذ لم تعانقه ولم تقل له كلمة عزاء واحدة تُذكر، بل إنها لم تتحدث إليه مطلقًا، على الأقل حتى صباح يوم الجنازة، عندما ذهب "دانييليه" إلى المطبخ، فوجد أمه وجدَّته تشربان القهوة. قالت حينها "كارميلا" بنبرة ازدراء: "كلَّفني التابوت مبلغًا أكبر من ذلك الذي دفعتُه للكنيسة. كان قد أصبح قبل موته بدينًا بحجم خنزيرين مجتمعين".

قبض "دانييليه" يديه، ثم صرخ بصوت يرتجف من شدة الغضب: "كفى!"، وخرج بعدها من المنزل مسرعًا وركب الدراجة وأخذ يُبدِّل بطريقة جنونية، مُجفِّفًا وجهه الذي تسيل منه بالدموع براحته.

لم يَعُد يحتمل تلك الإهانة المتكررة التي نالت من أبيه عددًا لا يُحصى من المرات، فقد رأى بعينيه على مدار سنواتٍ طويلة كيف كان يتجرَّع الإهانة بصمتٍ، عاجزًا عن الدفاع عن نفسه أمام أساليب "كارميلا" القاسية، وقلة احترامها الدائم، ونظراتها المشبَّعة بالاحتقار. وكلما تجرأ "دانييليه" على أن يتدخَّل ويدافع عن أبيه، كان "نيكولا" يُوقفه بلطف، واضعًا يده على ذراعه، ويقول: "أمكَ على حق، أنا المخطئ. لقد أغضبتُها".

كم شعر بالعجز والإحباط في طفولته، وهو يشاهد ذلك الرجل ينكمش على نفسه يومًا بعد يوم ويُهمَّش دوره رجلًا وأبًا. أراد أن يقول له ألف مرة: "قاوم! ارفع صوتك! اغضب ولو مرة! هي المخطئة، وليس أنت! أنت رجلٌ طيبٌ يا أبي".

في أثناء القداس في الكنيسة، لم يُكلِّف نفسه عناء أن يلقي على أمه ولو نظرة واحدة حتى، مع أنها تأبَّطتْ ذراعه وأسندت رأسها إلى كتفه، وظلَّت تتصرف وكأن الشجار الذي وقع بينهما ذلك الصباح في المطبخ لم يكنْ، فيما بقي "دانييليه" يحدق إلى تابوت

أبيه، مسترجعًا جلَّ المرات التي لم يَزُر فيها أباه، وكل الوجبات التي لم يتشاركاها معًا، والمحادثات التي ضاعت بين الأب والابن قبل أن تبدأ. إن تدهور علاقته بأمه وقلة زياراته إياها أدَّت تدريجيًّا إلى تلاشي العَلاقة مع أبيه أيضًا. لقد بذل "دانييليه" كل جُهْده ليُهمِّش بقدر الإمكان وجود "كارميلا" في حياته؛ بأن يجعل تدخُّلها في شؤونه الخاصة بقدرٍ محدودٍ بما لا يتسبَّب له في عواقب وخيمة أو يُلحق به أي أذى أو إزعاج، لكنَّ اتباعه هذا النهج مع أمه أدى في النهاية إلى إقصاء أبيه أيضًا عن حياته.

شعر "دانييليه" في تلك اللحظات الحزينة بحاجة ماسَّة إلى وجود "لورينسا"، وأحس بأنه يفتقدها بشدة. نَدِم على معاملته القاسية لها قبل بضعة أيام عندما التقيا بعد ظهيرة ذلك اليوم في مشغله، وما لحق هذا من سفرها إلى "أوترانتو" برفقة أسرتها، كونها كانت لا تزال غاضبة ومجروحة بحق بسبب تصرفاته معها. في ذلك الوقت الحزين والمؤلم كانت "لورينسا" وحدها التي رغب في أن يعانقها، وحدها من أراد أن يمسك بيدها.

شعر "دانييليه" كأن صخرة ضخمة من الحزن قد سحقتْه وأنه بقي وحده في هذا العالم، مع أن الكنيسة كانت مكتظةً بالناس الذين شاركوا في القداس والذين أخذوا جميعًا يقبِّلونه ويواسونه ويعانقونه، وكان من بينهم "روبرتو"، الذي تطوَّع بحمل التابوت ونقله من الكنيسة إلى المقبرة. ربَّت حينها "روبرتو" ذراع "دانييليه" بحنوٍّ ومحبة وقال له بنبرة مفعمة بحزنٍ وأسى صادقين: "أنا أعرف حقًّا ما تشعر به".

كانت "أنَّا" حاضرة مع أسرة "دانييليه" منذ ليلة السهر على الجثمان، لكنها لم تقتربْ من "دانييليه" إلا بعد انتهاء مراسم الدفن، إذ أخذته بعيدًا عن الناس وقالت له: "ترك لي "أنطونيو" عنوانهم في "أوترانتو" لأرسل إليه في حالة وقع أي حادثٍ لنا"، ثم أضافت: "يمكنني أن أخبرها إذا أردت. سأفعل ذلك بحذر".

حدق إليها "دانييليه" وقد لاح في عينيه بريق أملٍ، وأجابها وهو يستعِط: "سأكون شاكرًا جدًّا لكِ إن فعلتِ ذلك".



وصلتْ برقية "أنَّا" إلى "أوترانتو" في صباح يومٍ قائظ، فيما كانت الأسرة بأكملها على الشاطئ ما عدا "أنطونيو" الذي بقي وحده يقرأ في شرفة المنزل رواية "ألبرتو موراڤيا" الجديدة بعنوان "الممتثل"؛ وهي الرواية التي اختارها هو و"أنَّا" للقراءة الصيفية، وتعاهدا على مناقشتها معًا عند عودته من العطلة. عندما أطلق ساعي البريد صفيرًا من خلف بوابة المنزل، نهض "أنطونيو" على الفور من كرسي الاستلقاء وتوجَّه نحوه. قال له الرجل وهو يُسلِّمه ظرفًا أصفر: **"برقية إلى "أنطونيو جريكو".**

قلَّب "أنطونيو" الظرفَ بين يديه، وحالما قرأ اسم المرسل –"أنَّا ألَّاڤينا–مزَّق الظرفَ بسرعة وقرأ:

"توفي والد "دانييليه" إثر نوبة قلبية. أُقيمت الجنازة اليوم. أرسلت إكليلًا من الزهور باسمكم جميعًا".

فضَّل "أنطونيو" الاحتفاظ بالخبر لنفسه، وفكَّر أنه لا داعي إلى إفساد يوم الجميع منذ الصباح بخبرٍ كهذا، ورأى أنه ربما يَجِد في المساء اللحظة المناسبة لإخبارهم بالأمر. عاد بقية أفراد الأسرة من الشاطئ في موعد الغداء، وتناولوا الطعام في الشرفة وهم لا يزالون بملابس السباحة وأجسادهم مغطاة بملح البحر. بعد الظهيرة أخذتْ "چادا" قيلولتها على سريرها الصغير بجانب جدتها، فيما بدأ "تومَّازو" و"لورينسا" يلعبان الورقَ بعدما أزاحا الأطباق المتَّسخة في أحد جوانب الطاولة. كان يُعلِّمها لعبة "تريستي" موضِّحًا لها أن ورقة الثلاثة هي الأعلى قيمة، تليها ورقة الاثنين، ثم "الآس"، فالملك وهكذا. من حينٍ إلى آخر، كان "أنطونيو" يرفع عينيه عن الكتاب ويراقبهما وقد بدت له ابنته هادئة على غير المعتاد؛ بل حتى إنها ضحكتْ في أثناء الغداء من نكتة ألقاها زوجها.

عند الغروب، اقترح "تومَّازو" على "لورينسا" التنزه على ممشى البحر، فوافقت. راقبهما "أنطونيو" وهما يسيران جنبًا إلى جنب حتى ابتعدا، وتأكَّد حينها أن خبر وفاة والد "دانييليه" سيُطِيح فجأة –كما ينهار قصرٌ من الرمال– بذلك التوافُق البسيط الذي بدأ يعود بين ابنته وزوجها. لذلك انتظر حتى ذهب الجميع إلى النوم، ثم خرج إلى الشرفة عازمًا على التخلص من البرقية، والتظاهر بأنها لم تصلْ من الأساس إلى وجهتها. ظهرت حينها "لورينسا" فجأة في الشرفة مبعثرة الشعر مرتديةً قميصَ نومها وسألت أباها: "ماذا لديك هناك؟".

أجاب "أنطونيو" وهو يدسُّ البرقية في جيبه: "لا شيء".

فسألته "لورينسا" بدورها: "إذا كان لا شيء، فلماذا تخفيه؟".

سألها أبوها: "ألا تستطيعين النوم؟".

احتجَّت "لورينسا" في عبوس: "لا تُغيِّر الموضوع. ما هذا الظرف؟".

أجاب "أنطونيو": "إنه إشعار من معصرة الزيتون، ليس هناك شيء مهم".

عقدتْ ابنته ذراعيها على صدرها واقتربت منه قائلة: "أتعتقد أنني لا أزال في العاشرة من عمري؟ أخبرني باختصار ما الذي تخفيه؟".

تنهَّد أبوها وأخرج الظرف من جيبه ببطءٍ وأعطاها إياه، وقال بصوتٍ منخفضٍ مُسوِّغًا موقفه: "لم أكن أريد أن أفسد عطلتنا بخبرٍ سيئ".

رمقته "لورينسا" بنظرة لائمة ثم أخرجت البرقية من الظرف. حالما قرأت "لورينسا" البرقية استشاطتْ غضبًا وجُنَّ جنونها وأصرَّت على أن يعيدها "أنطونيو" إلى "ليتسانيلُّو" في الحال.

قال "أنطونيو": "أصبح الوقت متأخرًا، إلى أين سنذهب الآن؟ حاولي أن تفكِّري بعقلانية!".

صرخت "لورينسا": "لا يهمني إن كان ليلًا! لا بُدَّ أن أذهب إليه في الحال، هو بحاجة إليَّ".

أمسكها "أنطونيو" من ذراعها وهمس لها بنبرة قاطعة: "إن زوجكِ هو من يجب أن تذهبي إليه. إنه هو من يحتاج إليكِ".

فتحت "لورينسا" عينيها على اتساعهما مدهوشةً من صرامة أبيها. أضاف "أنطونيو" قائلًا: "عودي إلى النوم يا "لورينسا" ولا تجعليني أغضب الآن".

تحرَّرت "لورينسا" فجأة من قبضة أبيها وقالت: "إما أن تأخذني على الفور وإما سأذهب وحدي. سأرحل الآن، حتى لو اضطُرِرْت إلى الذَّهَاب إلى "ليتسانيلُّو" سيرًا على الأقدام".

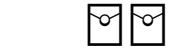
أيقظ صوت الصخب والشجار "تومَّازو" و"أجاتا"، اللذين هُرِعا إلى الطابق السفلي وقد سيطَرت عليهما حالة من القلق. سألت "أجاتا" وهي تضع يدها على صدرها: "ماذا يحدث؟"، فيما قال "تومَّازو" وهو يضع يده على ظهر زوجته: "هل أنتِ بخير يا "لورينسا"؟".

حدَّقت "لورينسا" إلى أبيها بعينين مُشتَعِلتين، متوقعة منه أن يُقدِّم لهما تفسيرًا معقولًا ومنطقيًّا، لكنَّ "أنطونيو" طمأنهما قائلًا: "لا شيء، لا تقلقا". ثم لوَّح لحظةً بالظرف الأصفر وقال: "بعض المشكلات في المعصرة. سأذهب غدًا صباحًا إلى "ليتسانيلُّو"، لكنْ سأحاول العودةَ في المساء".

تنهَّدت "أجاتا" بعمق وقالت: "ستقتلونني بسكتة قلبية!".

فسأل "تومَّازو" زوجته: "هل غضبتِ من أجل هذا؟ لقد قال إنه سيعود غدًا، لا تقلقي، لن يرحل عنا". ثم رفع عينيه نحو "أنطونيو" مبتسمًا كما لو أراد أن يقول له إنهم قد اعتادوا الآن جميعًا نوبات غضب "لورينسا" وما من جديد في الأمر.

أجابت "لورينسا": "أُفضِّل أن أرافقه للتأكد من أنه سيعود"، ثم استدارتْ نحو زوجها وأضافت: "هل فهمتَ؟ سأذهب غدًا برفقة أبي".



علَّقت "أنَّا" وهي تضع يديها في وسطها وتلقي نظرة أخرى على المكان من حولها: "لا أصدق، لقد أوشكنا أن ننتهي". ففي غضون بضعة أشهر فقط، تحوَّل منزل "چوفانَّا" الريفي –حتى في أدق التفاصيل– إلى ما تصوَّرته "أنَّا" في البداية. عُلِّقت على باب المدخل لافتة خشبية كُتِبت عليها بخطٍّ مائلٍ وبحبرٍ أسود عبارة: "بيت النساء". وكانت "أنَّا" هي من خطَّت تلك العبارة بخط يدها الواضح والمموَّج.

في الداخل، كانت الجدران التي نُظِّفت وأُعيد طلاؤها باللون الأبيض تمنح المكان بأكملِه مظهرًا جديدًا ونظيفًا. ومن المطبخ القديم، الواقع على يمين الباب الرئيسي، لم يتبقَّ سوى الموقد المسطح والحوض، وخزانة معلَّقة وبعض الرفوف. أما المساحة المتبقية، فقد استُغِلَّتْ على أكمل وجه، إذ وُضِعَتْ فيها طاولة كبيرة مستطيلة ومحاطة ببعض الكراسي، وتتوسطها مزهرية بها بعض الزهور. كما أُسنِدَتْ إلى جدار آخر ماكينة خياطة وخزانة عالية بلا دُرَف، تحتوي على لوازم الخياطة وأدوات متنوِّعة للعمل في الورق المعجون والخزف.

كانت "أنَّا" قد أوضحت لـ"أنطونيو" في وقتٍ سابق أن البيت سيكون أيضًا ورشة للحرف اليدوية، وسيتمكَّن الناس من شراء المنتجات من البيت نفسه مباشرةً أو من السوق، إذ ستحمل هذه المنتجات العلامة التِّجارية لـ"بيت النساء"، وكل ليرة سيدفعها الزبائن لشراء تلك المنتجات ستذهب مباشرة إلى جيوب النساء اللواتي صنعنها.

أما الغرفة الواقعة على اليسار والتي كانت سابقًا غرفة المعيشة، أصبحت الآن فصلًا لتلقِّي الدروس إذ صارت تضم سَبُّورة، وتختًا، وكراسيَّ. أما وسط المكتبة، وبخلاف كتب "روبرتو" الدراسية، كانت روايات "أنَّا" المفضَّلة بدءًا من "مدام بوفاري" وحتى "مرتفعات ويذرنج" –التي نقلتها من بيتها– تَبرُز متألقةً، إذ اختارت لها "أنَّا" موضِعًا مميَّزًا ولافتًا للانتباه في المكتبة.

في الطابق العلوي، صارتْ غرفتا النوم تستضيفان مهجعًا يضم عشرة أسرَّة، ستة في غرفة وأربعة في الغرفة الأخرى. كما عثرت "أنَّا" على مهدين للأطفال ونقلتهما إلى المهجع.

قررت "أنَّا" في النهاية أن يُفتَتَح بعد شهرٍ من ذلك التاريخ، وبالتحديد في يوم عيد ميلاد "كارلو"، أي في 29 نوفمبر، إذ أدركتِ استحالة أن تَنتهي بقية التجهيزات ويتمكن البيت من فتح أبوابه للنساء قبل ذلك الموعد.

بوجهٍ مغموم ومكروبٍ تنهد "أنطونيو" وهو يجلس إلى جوارها، وقال: "كدنا ننتهي فعلًا".

سألته "أنَّا": "ماذا بك اليوم؟ تبدو شارد الذهن".

ردَّ "أنطونيو": "معذرة".

ثم أضافت: "تبدو أنك.. لا أعلم. أقصد تبدو حزينًا".

أجاب "أنطونيو" وهو يهزُّ كتفيه: "تجول في رأسي بعض الأفكار، هذا كل ما في الأمر".

فسألته: "وهل يمكنني أن أعرف ما تلك الأفكار؟".

صمت "أنطونيو" بضعَ ثوانٍ، ثم اقترح عليها وهو يمدُّ لها يده: "تعالي، دعينا نخرج في الهواء قليلًا".

فأمسكتْ "أنَّا" به وخرجا معًا إلى الحديقة. جلس "أنطونيو" على الأرض، وجذبها لتجلس بجانبه. كرَّرت "أنَّا" في إصرار وهي تعقد ساقيها: "هل ستخبرني الآن إذن؟".

قال بعد بضع لحظات: "أنا قلقٌ على "لورينسا"، كنتُ آمل أن تكون قصتها مع "دانييليه" قد انتهت، لكن بدلًا من ذلك...".

ازدردت "أنَّا" ريقها، لكنها بقيت صامتة. أضاف "أنطونيو": "لقد راقبتُها من كثب خلال هذه الأشهر، بل وتَبِعتُها أيضًا".

سألته "أنَّا": "ماذا فعلت؟!".

أجابها "أنطونيو" بإصرار: "فعلتْ ما كان عليَّ فعله". سألها "أنطونيو": "هل تعلمين أين تذهب كل أربعاء بعد أن تترك "چادا" عندكِ؟".

هزَّت "أنَّا" كتفيها، ثم صرفتْ نظرها عنه، وبدأتْ تلمس ورق العشب بلطف. ثم كذبتْ عليه قائلة: "أعرف أنها تذهب كل أسبوع إلى "ليتشي" لزيارة صديقتها من المدرسة الثانوية".

قال "أنطونيو": "حسنًا، إذا قالت لكِ هذا، فهذا يعني أنها كذبتْ عليكِ كذبةً كبيرةً ومُحكمةً".

سألته هي بدورها: "وأين تذهب إذن؟".

أجابها "أنطونيو" وهو يتنهَّد بعصبية: "هي تذهب إليه. يلتقيان في "ليتشي" كل أربعاء، في مكانٍ قريبٍ من "بورتا روديايِ".

قالت "أنَّا": "لا أستطيع أن أصدق أنك تجسستَ عليها".

قال "أنطونيو": "ألم تسمعي ما قلته للتو؟!".

فأجابت: "سمعتُ".

تفرَّس "أنطونيو" وجهَها متسائلًا: "لماذا لا تبدين مدهوشةً؟".

حدقت إليه هي أيضًا في المقابل وقالت: "لأنني كنت أعرف منذ البداية أن هذا ما سيحدث. لقد أخبرتكَ بذلك فعلًا، ألا تتذكر؟".

قال "أنطونيو" في النهاية: "يجب أن تساعديني يا "أنَّا". يجب أن تتحدَّثي مع "لورينسا". إنها تستمع إليكِ. عليكِ أن تجعليها تتعقَّل وتدرك أن كل ما تفعله هذا خطأ، أوقفيها قبل أن تتسبَّب بأفعالها هذه في مصايب حقيقية للجميع، قبل أن.. لا أريد حتى أن أفكر في الأمر". أمسك "أنطونيو" برأسه بين يديه.

قالت له "أنَّا" وهي تمرِّر أصابعها في شعره: "اهدأ".

رفع رأسه وقد ابتلت عيناه بالدموع ثم زفر الهواء. كان قلبها يتمزَّق وهي تراه في هذه الحالة، لذا طمأنته وهي تواصل مداعبة شعره: "اتفقنا، سأحاول التحدث معها".

أومأ لها "أنطونيو" ثم أمسك يدها الأخرى بكلتا يديه، ورفعها إلى فمه ولمسها برفق ولطفٍ بشفتيه. شعرت "أنَّا" بالاحمرار يعلو وجنتيها، فيما اجتاحت ارتعاشة سريعة جسدها وسرت خلال عمودها الفقري. قال لها "أنطونيو": "شكرًا".



تبقَّت أقل من ساعة على الافتتاح، لذا كانت "أنَّا" تقطع المنزل جيئةً وذَهَابًا بلا توقف وهي تفرك يديها بقلقٍ وعصبية. ارتدتْ "أنَّا" بدلةً من الصوف والحرير بلون القشدة، مكوَّنة من سترة ضيقة من عند الخصر وتنورة يصل طولها إلى ما أسفل الركبة، كانت قد اشترتها خصوصًا لهذه المناسبة. احتفظت "أنَّا" في جيب سترتها بورقة صغيرة دوَّنت فيها باختصار وعلى عجلٍ شيئًا أشبه بخطاب الترحيب.

كانت تتوقَّف من حينٍ إلى آخر، وتنظر إلى "أنطونيو" وتقول له: "ماذا لو لم يأتِ أحد؟"، وكان هو بدوره يجيبها مطمئنًا إياها: "سيأتون، سيأتون".

في تلك المساحة التي أقامت فيها ورشةَ الحرف اليدوية، أعدَّت "أنَّا" بوفيهًا صغيرًا حوى وجبات خفيفة ومرطِّبات، بالإضافة إلى زجاجات من نبيذ "دونَّا أنَّا" و"دون كارلو" التي حمَّلها "روبرتو" و"أنطونيو" على سيارة "الفيات 508" وأحضراها إلى "بيت النساء" منذ الصباح، فيما كانت هي تجوب البلدة لتوزيع البريد.

تأفَّفت "أنَّا" فيما تجلس على إحدى التُّخَت: "لستُ جيدة في تنظيم الحفلات أو أمورٍ كهذه، ليستْ لديَّ أفكار إبداعية في هذا الشأن".

ابتسم "أنطونيو" ابتسامةً صغيرةً، ثم اقترب وجلس على التَّخْتة المقابلة لها وقال: "إنه "كارليتُّو" هو من كان ماهرًا في هذه الأشياء". وأضاف: "هل يمكنكِ أن تتخيَّلي ماذا كان سيفعل لو كان هنا الآن وشهد هذا الافتتاح؟".

ردَّت "أنَّا" مازحة: "كان سيدعو القسَّ أيضًا".

أجاب "أنطونيو" بابتسامة حزينة: "بالتأكيد".

لكنَّ "أنَّا" –وعلى العكس من ذلك– لم ترغب في دعوة أيٍّ من رجال الكنيسة. فقبل عدة أيام، وفي أثناء خروجها صباحًا من مقهى "كاستيلُّو"، صادفت القس "لوتشيانو" الذي اقترب منها مادًّا إليها ذراعيه وقال لها: "صباح الخير، يا ساعية البريد. كنت آمل أن ألتقيكِ وإلا كنتُ سأذهب لأبحث عنكِ في مكتب البريد".

رفعت حاجبها في دهشة وأجابته مستفسرة: "تبحث عني أنا؟ ولماذا؟".

فأجاب هو: "حسنًا، كنت أبحث عنكِ من أجل البركة طبعًا. علينا أن نُحدِّد موعدًا. متى يجب أن آتي؟ ألن يكون الخميس هو موعد الافتتاح؟".

نظرت إليه "أنَّا" بتعجب وقالت: "عن أي بركة تتحدث؟".

ضحك السيد "لوتشيانو" ضحكةً مكتومةً وقال: "كيف تسألين؟! بركة من أجل بيت النساء الخاص بكِ، هل فهمتِ الآن؟".

صاحت "أنَّا" بحزم: "لا أنا ولا البيت بحاجة إلى أي بركة!".

تراجع القس خطوة، وقد بدا عليه الارتباك. رفع كذلك رجلان كانا يجلسان إلى طاولة قريبة، نظريهما عن الأوراق الثلاثة التي كانا يمسكان بها وحدقا إليها. أكَّد السيد "لوتشيانو" بنبرة واثقة: "كل مشروعٍ جديدٍ يحتاج إلى بركة من الرب".

مطَّت "أنَّا" شفتيها وركبت دراجتها. ثم رفعت كتفيها في لامبالاة وأجابته: "إلا مشروعي، أعتذر منكَ". وغادرتْ تاركةً القس خلفها فجأة ودون وداع.

نظرت "أنَّا" مجدَّدًا إلى الساعة فوجدتْ أنه لم يتبقَّ إلا بضع دقائق على الخامسة عصرًا، وهو الوقت الذي من المقرر أن يتوافد فيه الناس على البيت للاحتفال. اقترح "أنطونيو" حينها على "أنَّا": "ما رأيكِ في أن نشرب في هذه الأثناء كأسًا أنا وأنتِ فقط؟".

قالت وهي تصفق بيديها: "أرى أنها فكرة رائعة!".

اقتربا من طاولة المأكولات والمشروبات، وأخذ "أنطونيو" زجاجة من نبيذ "دونَّا أنَّا"، ثم اجتهد ليفتح السدادة الفلينية. في تلك الأثناء، أمسكت "أنَّا" بكأسين وقدَّمتهما إليه وهي مبتسمة. ملأهما "أنطونيو" وأخذ منهما واحدة. رفع كأسه نحو "أنَّا" قائلًا: "لنشرب نخب بيت النساء".

أضافت "أنَّا" وهي تطرق كأسه بكأسها: "لنشرب نخبنا نحن كوننا نجحنا في إتمام مشروعنا. في صحتنا!".

فردَّ "أنطونيو" مبتسمًا: "في صحتنا!".

وصل أول الضيوف في تمام الخامسة، وكانا "روبرتو" و"ماريا". اقترب "روبرتو" من أمه مُقَبِّلًا خدها قائلًا: "المعذرة يا أمي، كنا نريد أن نَصِل مبكرًا لنساعدكِ، لكنْ وقعت مشكلة ما في المصنع".

بادرتْ "ماريا" بالاعتذار، وقالت: "كان ذنبي أنا، لقد أخطأتُ في إرسال إحدى الطلبيات".

ثم نظرت بعدئذٍ على الفور فيما حولها وفي عينيها نظرة الدهشة نفسها، بدا كأن كل ما هو جديد حولها يُقدِّم سببًا لإثارة قدرٍ عظيمٍ من الانبهار والافتنان بداخلها. انفرجتْ عن شفتي "أنَّا" ابتسامة مصطنعة ووضعت الكأس بهدوء على الطاولة ثم دعت "ماريا" وهي تشير لها برأسها: "هيا، تعالي. سأريكِ البيت".

بعد وصول "ماريا" و"روبرتو" بقليل وصلت أيضًا "لورينسا" و"تومَّازو"، تتبعهما "أجاتا" حاملةً حفيدتها الصغيرة بين ذراعيها. سألت "لورينسا": "أين العمة؟".

أجابها "روبرتو": "في الطابق العلوي مع "ماريا". ثم سأل الجميع: "من يرغب في بعض النبيذ؟".

أجاب "تومَّازو": "أنا، بكل سرور". وأضافت "أجاتا": "وأنا أيضًا، أريد القليل فقط".

في تلك اللحظة دخلت "أنَّا" الغرفة واستقبلتهم بترحيب: "شرفتم".

لحقت بها "ماريا" مشبكةً ما بين يديها، ثم وقفتْ مباشرة إلى جانب "روبرتو" الذي أحاط خصرها بذراعه.

أصبحتِ الساعة السادسة إلا الربع، ولم يصلْ أحدٌ من أهل البلدة بعد.

سيطر النعاس على "چادا"، فبدأتْ تنتحب وتفرك عينيها بقبضتيها الصغيرتين. قالت "أجاتا" وهي تُهدهدها بحنانٍ بين ذراعيها: "على الصغيرة أن تنام". ثم التفتتْ إلى "تومَّازو" وسألته: "أليس من الأفضل أن نعود بها إلى المنزل؟". ثم أضافتْ بنبرة حادة: "على أي حال لا يبدو وجود ما يستحق البقاء هنا أكثر من ذلك".

رد "تومَّازو" فيما ينهض من كرسيه قائلًا: "نعم، ربما من الأفضل أن نغادر، هل ستعودين معنا يا "لورينسا"؟".

سألت "لورينسا" "أنَّا": "هل ترغبين أن أبقى معكِ؟".

مع أنَّ الظلام كان قد حل فعلًا، فإن "أنَّا" بقيت واقفة أمام النافذة عاقدة ذراعيها فوق صدرها، تحدق إلى الحقول الممتدة أمام بيت المزرعة السابق. استدارت لحظةً، وردَّت على "لورينسا" بهدوءٍ قائلةً: "لا، يا صغيرتي اذهبي".

اقترب "أنطونيو" من "أجاتا" وهمس قائلًا: "سأبقى هنا بعضَ الوقت". لكنَّ "أجاتا" لم تجبْه.

في اللحظة التي تأهبت فيها "لورينسا" للخروج من المنزل، حدَّق إليها "أنطونيو" بوجهٍ صارمٍ وقاسٍ، فحدَّقت إليه بدورها بثبات وقالت: "إلى اللقاء، يا أبي".

ردَّ عليها ببرود: "إلى اللقاء". ثم أغلق الباب خلفها وتوجَّه نحو "أنَّا" التي تمتمتْ قائلةً: "أخبرتكَ أن ما من أحدٍ سيأتي".

نظر إليها "أنطونيو" بحزنٍ، وربَّت كتفها ثم ردَّ عليها قائلًا: "أشعر بأسفٍ شديد من أجلكِ، لا أفهم لماذا حدث هذا. لا بُدَّ أن هناك تفسيرًا ما".

تحولتْ نظرةُ "أنَّا" وأصبحتْ أكثر قسوة ثم ردَّت بحزم: "أنت تعلم ما الذي يعنيه لي حقًّا هذا المشروع. سأمضي قُدُمًا على أي حال. هل تظن أنني سأدع هذه الحَفنة من الجهلة تثبط عزيمتي؟".



في صباح اليوم التالي، في مكتب البريد، لم تكنْ "إيلينا" تعرف كيف تعتذر لــ"أنَّا"، فقالت لها: " أقسم لكِ إنني كنت أريد المجيء بالأمس، لكنْ أخبريني، كيف كنتُ سأصل إلى هناك بهاتين القدمين المتورِّمتين اللتين تشبهان النقانق؟".

أجابتها "أنَّا" دون أن ترفع عينيها عن المراسلات الموضوع على الطاولة: "لا بأس".

حتى "كارمينيه"، حال وصوله إلى المكتب، سارع ليعبِّر لها عمَّا يشعر به من أسفٍ شديدٍ كونه لم يستطعْ حضورَ الافتتاح، وأوضح لها أنه دُعِيَ إلى اجتماع طارئ في النقابة، فماذا كان بإمكانه أن يفعل؟

كل شخص التقته "أنَّا" في ذلك الصباح بدا مستعدًّا ليمنحها عذرًا لعدم حضوره. وعندما كان يقدم لها "ناندو" قهوة "الكوريتُّو" بـ"الجرابَّا" قال لها إنه كان يرغب بشدة في حضور الافتتاح، حتى إنه أغلق البار في وقتٍ مبكرٍ خصوصًا لهذا الغرض، ولكنَّ زوجته فاجأته بواحدٍ من طلباتها المعتادة، إذ أجبرته على ترتيب العلية وقال موضحًا: "عندما تُقرِّر أن شيئًا ما يجب فعله، فلا بُدَّ من تنفيذ أوامرها بلا نقاش، وبالطريقة التي تحددها وفي الوقت الذي تحدده هي".

ردَّت "أنَّا": "لا تقلق، يا "ناندو". ستجد طريقة ما لزيارة البيت في وقتٍ لاحقٍ إذا أردتَ".

لكنَّ ما جرحها وآلمها أكثر من أي شيءٍ آخر كان غياب "چوفانَّا" عن هذه المناسبة. ظلَّت حتى اللحظة الأخيرة تأمل أن تُغيِّر رأيها وتلحق بها إلى بيت "كونترادا"، لكنْ ذهبتْ آمالها سدى. وعندما عادت في موعد العشاء وسألتها "چوفانَّا" باهتمام صادق وحقيقي: "كيف سارت الأمور؟".

قالت "أنَّا" باندفاع: "هل يهمكِ حقًّا أن تعرفي؟".

سألتها "چوفانَّا" بدهشة: "لماذا تقولين ذلك؟!".

ردَّت "أنَّا": "أحقًّا تسألين؟! اليوم كنت بحاجة إلى وجودكِ، أردتُ أن تكوني بجانبي. ولكنكِ لم تكوني هناك. وما سبب عدم مجيئكِ؟! أو بالأحرى من سبب عدم مجيئك؟! إلى متى ستظلين خاضعة ومستسلمة لذلك الرجل؟". ثم صعدت إلى غرفتها وأغلقت الباب بقوة.

بعد بضع ساعات، وبينما "أنَّا" مستلقية في سريرها تقرأ على ضوء المصباح الموضوع على الطاولة المجاورة للسرير، طرقتْ "چوفانَّا" الباب برفق وسألت: "هل يمكنني الدخول؟ يجب أن أخبركِ بشيء ما". ثم دخلت الغرفة مطأطئة الرأس، وهي تعض على شفتيها وقالت: "أنتِ على حق. أنا أعلم أنني أخطأت، لكن عليكِ أن تفهمي أنني لست قوية مثلكِ".

قاطعتها "أنَّا" وهي تعتدل لتجلس على السرير: "بل أنتِ قوية".

هزَّت "چوفانَّا" رأسها نفيًا وكرَّرت معترضة: "لا، لستُ كذلك". ثم جلست على حافة السرير ويداها متشابكتان في حجرها واستطردت هامسة: "الحقيقة أنني ما زلت خائفةً".

فسألتها "أنَّا" "خائفة ممَّن؟ من ذلك الأحمق؟!".

فأجابت "چوفانَّا": "لا، ليس منه. أنا خائفة من نفسي، من الشعور الذي قد ينتابني إن ذهبت إلى هناك، مما قد أشعر به، لست مستعدةً بعد، هذا كل ما في الأمر".

تنهَّدت "أنَّا" في يأسٍ وحزن، ثم نظرت إليها بعطفٍ وقالت: "أنتِ مستعدة، لكنكِ لم تدركي ذلك بعد".

فقالت "چوفانَّا": "ربما، لا أعلم، لكنْ بينما أحاول أن أدرك ذلك بنفسي، لا تلقي عليَّ باللوم ولا تتعاملي مع عدم قدرتي على تجاوز الأمر على أنه ذنب أرتكبه".

قالت "أنَّا": "حسنًا، معكِ حق، لن أفعل ذلك بعد الآن. أنا أيضًا أعتذر منكِ حقًّا". ثم مدت "أنَّا" يدها فوق غطاء السرير لتلمس يد "چوفانَّا" التي مدَّت يدها بدورها ووضعتها فوق يد "أنَّا"، وكأنها تقول إن كل شيءٍ بينهما قد عاد إلى طبيعته.



أحضر "دانييليه" لجدته "چينا" كما يفعل كل عامٍ في الأيام الأولى من شهر ديسمبر، واحدة من أولى زجاجات الموسم الجديد من نبيذ "دونَّا أنَّا". بدا أن حصاد عام 1951 كان من أفضل ما أخرجه الكرم على الإطلاق، وذلك بفضل الصيف المشمس غير الحار، وبعض الأمطار التي عادت أيضًا بالنفع على النباتات إذ أنعشت الأيام الأكثر حرارة. طرق الباب ثم قال صارخًا: "جدتي، أنا "دانييليه". فقد كان يعلم أن "چينا" لم تَعُد تسمع جيدًا كما في السابق.

كانت "كارميلا" هي من فتحت له الباب، حيَّته قائلة: "انظروا من الذي جاء لزيارتنا!". كانت أمه ترتدي ثوبها الأسود الذي يرمز إلى استمرار حدادها كأرملة.

تسمَّر "دانييليه" في مكانه فجأة كالصنم وسألها: "أليست الجدة هنا؟".

ردت كارميلا وهي تفتح الباب على مصراعيه: "طبعًا هي هنا، وأين يمكن أن تذهب؟ تفضَّل بالدخول".

ولج "دانييليه" إلى المطبخ وانحنى ليقبِّل بدفءٍ خد جدته المليء بالتجاعيد. قال وهو يضع زجاجة النبيذ على الطاولة: "هاك إياها". ابتهجت "چينا" وقالت: "أوه، يا للروعة! افتحها من فضلك، أريد أن أتذوقه في الحال".

ابتسم "دانييليه" وأخرج فتَّاحة الزجاجات من الدرج. لم تفقد الجدة قطُّ رغم سنوات عمرها التي تجاوزت السبعين، رغبتها في تناول جُرْعة صغيرة من النبيذ بين الحين والآخر.

قالت "كارميلا": "سأجلب الكؤوس، أريد أنا أيضًا أن أتذوَّقه".

ملأ "دانييليه" لهما الكؤوس، ثم قدَّم كأسًا إلى جدته ودعاها إلى استنشاق رائحته أولًا ثم سألها: "ما رأيكِ؟".

استنشقت "چينا" النبيذ بعمق، ثم قالت مبتسمة: "رائحته طيبة كما عهدته".

أما "كارميلا" فشربتْ كأسها دفعة واحدة. وبَّختها الجدة قائلة: "تمهَّلي يا ابنتي، ألم يعلمكِ أبوكِ شيئًا؟ لا بُدَّ أن يُحتسى النبيذ ببطء!".

تلمَّظت "كارميلا" ولعقت شفتيها وقالت: "إنه لذيذ"، ثم صبَّت المزيد في كأسها.

أعلن "دانييليه" حينئذٍ وهو يمرر يده بلطف وحنان على شعر جدته الأشيب الأشعث: "من الأفضل أن أغادر الآن".

قالت "كارميلا" بعبوس: "تغادر الآن؟ لقد وصلت للتو!". ثم تناولتْ رشفة أخرى من كأسها.

أجاب دون أن ينظر إليها: "نعم، عليَّ العودة إلى المصنع".

همست "كارميلا" متسائلة: "وماذا يفعل "روبرتو" هناك؟ يبدو أنك تعمل أكثر منه!".

دافع "دانييليه" عنه قائلًا: "هذا ليس صحيحًا. كل ما في الأمر أن كلًا منا حاليًّا يتولى مسؤوليات مختلفة عن الآخر في المصنع، إنه ما زال يتعلم، ولكنه يطوِّر من عمله بسرعة".

مطتْ "كارميلا" شفتيها في ازدراء وقالت: "سنرى"، ثم شربت آخر رشفة من النبيذ بقيت في كأسها. مدَّت يدها بعدئذٍ إلى الزجاجة وأدارتها ناحيتها وقرأت ببطء: "دونَّا أنَّا". قالت "كارميلا": "أريد أن أرى الآن، بعدما أصبحتَ أنت أيضًا مالكًا للمصنع، متى ستصنع نبيذًا باسم أمك: "دونَّا كارميلا". يبدو اسمًا رائعًا، أليس كذلك؟".

تنهَّد "دانييليه" بنفاد صبرٍ وضيقٍ، ثم التفت إلى جدته وقال لها إنه عليه حقًّا أن يذهب. فقاطعته "كارميلا" وقالت باندفاع وغضب: "ألن ترد؟ ما الأمر؟ ألا أستحق أنا أيضًا أن يُطلق اسمي على إحدى إنتاجات مصنع ومخزن "جريكو"؟".

رمقها ابنها بنظرة صارمة، وقال: "لا، لا أعتقد ذلك".

قالت "چينا" محاولة تهدئة الأجواء بينهما: "اذهب الآن يا عزيزي".

لكنَّ "كارميلا" لم تهدأ، وقالت: "لن يذهب إلى أي مكان قبل أن يقول لي بصراحة وبكل وضوح، وهو ينظر إلى عينيَّ ما الذي يعتقده بالضبط".

قال "دانييليه" وهو يشير برأسه: "انسي الأمر"، وهمَّ بالمغادرة.

أجابت "كارميلا" وهو تشيح بيدها: "آه، هل ستغادر إذن؟ حسنًا اذهب، اذهب. أنت صورة طبق الأصل من أبيك، لم يكنْ يجيد شيئًا أفضل من الهروب".

تدخَّلت "چينا" من جديد وبصعوبة شديدة حاولت النهوض لترافقه إلى الباب، ولكنَّها كانت متوترةً بشدة ومضطربة، فلم يسعفها جسدها ولم تستطع الوقوف على قدميها.

أوقف "دانييليه" جدته، دون أن يُبعد عينيه عن أمه قائلًا: "لا، انتظري. لم أفهم ما قلتِه للتو، ومتى بالضبط هرَبَ أبي وتركك؟ هو لم يفعل شيئًا سوى أنَّه ظلَّ يتحملكِ طَوال حياته".

ردَّت "كارميلا" بضحكة بها شيء من المرارة: "أجل طبعًا! لم يَهرُب طَوال حياته!".

همست "چينا" بصوتٍ مرتعشٍ وهي تمسك بيد حفيدها: "عزيزي، من الأفضل أن تذهب الآن". لكنه لم يتحرك، بل أضاف: "لا لن أذهب". وقال مواصلًا حديثه مع أمه: "حتى وهو ميت، لا يمكنكِ أن تتركيه وشأنه. لا يمكنكِ فعل هذا طبعًا! أتعرفين ما الأمر؟ أتريدين أن تعرفي حقًّا ما رأيي في ما قلتِه؟ حسنًا، سأخبركِ الآن".

نظرت إليه "كارميلا" بتحدٍّ وقالت: "هأنا أستمع إليك".

قال "دانييليه": "هل تعرفين لماذا لن أطلق اسمكِ أبدًا على أي نبيذٍ ننتجه؟ لأنني لا أستطيع أن أكنَّ ولو ذرة احترام لامرأة مثلك".

تقدَّمت "كارميلا" بضع خطوات، وأطبقت جفنيها قليلًا، ثم قالت بصوتٍ منخفضٍ: "لكنكَ على العكس تُكنُّ احترامًا لتلك التي تُدعى "أنَّا"، أليس كذلك؟".

رد "دانييليه": "بلى، هل لديكِ اعتراض؟".

اقتربت منه أكثر حتى صار وجهها قريبًا جدًّا من وجهه، تفرَّسته لحظةً ثم غمغمت وهي تكزُّ أسنانها: "كنتُ على حق إذن، أنت نسخة طبق الأصل من أبيك".

فصاحت حينها "چينا" في ابنتها قائلة: "اصمتي!".

صاحت "كارميلا" بدورها قائلة: "أعتقد أنني سأتكلم أخيرًا".

بذلت "چينا" جُهْدًا عظيمًا كي تلقى بجسدها على ابنتها محاولةً سحبها إلى الوراء وصرخت فيها قائلة: "اصمتي، أيتها اللعينة!".

قال "دانييليه" بقلق: "اهدئي يا جدتي".

قالت "كارميلا" ما أرادته في نَفَسٍ واحدٍ: "أنتم يا أسرة "جريكو" لديكم هوَسٌ بهذه المرأة، وكأنها مرضٌ حلَّ بكم جميعًا".

استدار "دانييليه"، محدقًا إلى أمه في عجبٍ وذهول فيما خارت قوى "چينا" وسقطتْ منهارةً على الكرسي وأغمضت عينيها، واضعةً يدها على قلبها. فقال "دانييليه": "ماذا تقولين؟ لا أفهم".

غرقت الغرفة لحظتئذٍ في صمت تام.

احتاج "دانييليه" إلى بضع لحظات كي يَربِط الأحداث ويستوعب ما قصدته أمه بحديثها. ثم أدرك فجأة وقد سيطرت عليه الصدمة مرادها.



كانت "أنَّا" تذهب في وقت ما بعد الظهيرة يوميًّا بعد أن تُنهي عملها إلى "بيت النساء" وتقضي هناك ساعاتٍ طويلة دون أن تفقد ثقتها أو يتزعزع صمودها. وفي أغلب الأحيان، كان "أنطونيو" يذهب ليبقى برفقتها. كان يقول لها: "لا أحبُّ أن تبقَي هنا وحدكِ تمامًا هكذا"، فيما كانت ترد هي بلامبالاة: "وماذا يمكن أن يحدث لي؟"، فيجيبها: "لا أعلم، لكنْ مجرد التفكير في أنكِ هنا وحدكِ يثير القلق في نفسي ويبقيني متوترًا".

لذلك، كان "أنطونيو" يغادِر معصرةَ الزيتون أبكر بكثير من المعتاد لينضمَّ إليها. وكان يختلق دومًا عملًا صغيرًا يؤديه ليبقى أطول وقتٍ ممكنٍ برفقتها كأن يُرتِّب بعض الكتب الجديدة في المكتبة، أو يسقي الحدائق، أو يصلح رفًّا يراه غير مستقرٍّ قليلًا في موضعه. كان يبقى هناك حتى حلول الظلام ويقول حينها لـ"أنَّا": "لقد تأخَّر الوقت. دعينا نذهب، سأوصلكِ إلى المنزل". رافقها حتى بيتها حيث سارت هي أمامه بدراجتها، وهو من خلفها يضيء لها الطريق بفوانيس سيارته.

في الساعات الأولى من ظهر أحد أيام منتصف شهر ديسمبر، أي بعد أسبوعين من الافتتاح، سَمِعت "أنَّا" طرقًا على الباب فذهبت لتفتح، معتقدةً أنه "أنطونيو". لكنها عندما فتحت الباب، وجدت أمامها امرأة نحيفة ضئيلة الجسد، بدت كأنها لم تأكل منذ بعض الوقت. كان لديها حاجبان كثيفان وداكنان، وشعرٌ كثيفٌ مجعدٌ أسود اللون تتخلَّله بعض الخصلات المصبوغة بلونٍ يميل إلى الرمادي. كانت تحمل على كتفها حقيبة مهترئة وممتلئة، ربما تحتوي على كل ما تملكه في حياتها. قالت المرأة: "قالوا لي إنكِ تستطيعين مساعدتي".

لاحظتْ "أنَّا" أن جانب فمها بدا كأرخبيل، إذ كان مغطًّى بمجموعة من البثور الجلدية الصغيرة. تمتمت "أنَّا" غير مصدقة قليلًا أن هناك من لجأ أخيرًا إلى مشروعها: "طبعًا، ادخلي واجلسي. سأعدُّ لكِ قهوة".

قالت المرأة إن اسمها "ميلينا"، وأضافت على الفور: "أنا أمارس الدعارة"، ثم حدقت في الحال إلى "أنَّا" كما لو كانت تنتظر أن تُبدِي أي رد فعل أو تؤدي ولو حركة بسيطة يَصعُب ملاحظتها حتى تحمل شيئًا من الامتعاض والازدراء.

أعدَّت "أنَّا" القهوة في هدوءٍ، وحثَّت "ميلينا" على أن تتحدث.

هكذا بدأت المرأة تروي كيف فقدت زوجها في الحرب، وكيف قضت أيامًا كاملة وهي تعاني ألمٍ في معدتها بسبب الجوع لأنه لم يكن لديها شيءٌ تأكله. قالت "ميلينا": "إذا غاب الرجل، غاب الخبز أيضًا".

فردَّت "أنَّا" قائلة: "هذا ما يريدوننا أن نعتقده".

تابعت "ميلينا": "لم أذهب إلى المدرسة، ولا أعرف حتى كيف أكتب اسمي"، وأضافتْ وهي تفتح ذراعيها: "لا أجيد فعل أي شيء. كل ما أملكه في هذه الدنيا هو هذا الجسد، وهو ما منحني ما أعانني على العيش حتى الآن". استندتْ بظهرها إلى الكرسي ثم تنهدتْ ومالت إلى الأمام وتابعت قائلة: "لكنَّ هذا الجسد أصبح الآن خاويًا بلا روح، ومترهِّلًا، ولم يعد الرجال يجدون فيه المتعة التي يبحثون عنها. أنا بحاجة إلى أن أجد عملًا، ولا أحد في البلدة يريد أن يمنحني فرصة. أحتاج إلى مساعدتكِ. يمكنني أن أتعلَّم أي شيء. صحيح أنني عاهرة، لكني لست غبية".

نظرت إليها "أنَّا" للحظات، ثم ابتسمتْ قائلة فيما تنهض: "حسنًا، أعتقد أنكِ جئتِ إلى المكان الصحيح".

تابعت "ميلينا" وهي لا تزال جالسة: "هناك شيء آخر أريد أن أحدِّثكِ عنه. لديَّ صديقة. وضَعَها شخصٌ حقيرٌ، لا أعرف من هو، في ورطة، والآن هي حامل. طردتْها أمها من المنزل ولم يعدْ لديها مكانٌ تعيش فيه. هل يمكنها المجيء إلى هنا حتى وهي تحمل في بطنها طفلًا؟".

عندما وصل "أنطونيو" بعد ساعتين، فتحتْ له "أنَّا" الباب بوجهٍ مشرق. فسألها مبتسمًا: "ما الأمر؟".

أحاطت "أنَّا" وجهه بأصابع يديها وطبعتْ قبلةً رنانة على وجنته. فكرَّر سؤاله، لكنْ هذه المرة بنبرة قلقة ومضطربةً بعض الشيء: "ما الأمر؟".

أوضحتْ "أنَّا" مفسِّرة تلك السعادة المفاجئة قائلة: "هناك امرأة بالداخل، وغدًا ستأتي واحدة أخرى".

أمسك "أنطونيو" بيدها ونظر إلى عينيها وقال: "كنت أعلم أن هذا سيحدث". ثم أضاف: "كان علينا فقط أن ننتظر".

أجابت "أنَّا": "نعم. معك حق، شكرًا لأنك انتظرت معي"، وضغطتْ على يده بقوة أكبر.

في تلك اللحظة، ظهرتْ "ميلينا" من خلف "أنَّا". حيَّت "أنطونيو" قائلة: "مرحبًا". ردَّ "أنطونيو" في حرج، متظاهرًا أنه لم يَرَها قطُّ من قبل. صاحت "أنَّا": "ها هي. "ميلينا"، أُقدِّم لكِ صهري "أنطونيو"، "أنطونيو"، هذه "ميلينا"، أول ساكنة لبيت النساء".

قالت المرأة وهي تضع يدها في وسطها: "تشرَّفت بمعرفتك".

قال "أنطونيو": "الشرف لي".

في صباح اليوم التالي، وقبل أن تذهب إلى مكتب البريد، توجَّهت "أنَّا" إلى المشتل الكبير الذي يقع على بعد مسافةٍ قصيرةٍ من البلدة. تقدَّمت داخل السقيفة وهي تنظر حولها حيث أشجار الليمون، واللوز، والحمضيات، والرمان.

فاجأها صوت رجلٍ قادمًا عن يمينها متسائلًا: "كيف يمكنني مساعدتكِ؟". كان رجلًا طويل القامة ضخم الجثة، ويمسح يديه المتسختين بالتراب بقطعة قماش بدت كأنها لم ترَ الماء والصابون منذ وقتٍ لا يعرف أحد مقداره.

أجابت "أنَّا": "أريد شجرة عيد ميلاد، أطول شجرة لديك".

27
فبراير 1952

رنَّ الهاتف مدةً طويلةً قبل أن تردَّ عليه "أنَّا". لم تعتدْ بعد ذلك الرنين المزعج والمستمر الذي يفزعها في كل مرة. كان "روبرتو" قد أهداها إياه بمناسبة عيد الميلاد. أخرَج حينها من صندوق هدايا ذلك الجهاز الأسود القبيح المصنوع من

الباكالايت، والمكون من قرصٍ وسماعة، ثم سألها بحماس شديد: "هل أعجبكِ يا أمي؟ لقد اشتريتُ واحدًا أيضًا للمصنع!".

قالت "أنَّا" بحدَّة وفظاظة وهي ترفع السماعة: "من المتصل؟".

على الجانب الآخر من الخط سَمِعت صوت ابنها يضحك عليها متهكِّمًا، فقالت: "روبرتو"! لماذا تضحك؟".

فأجابها: "هل من المعقول أن تتركي الهاتف يرن كل هذا الوقت قبل أن تقرِّري الرد عليه؟ ثم إن الناس لا يقولون "من المتصل؟" حالما يرفعون السماعة، بل يقولون "آلو".

سألت "أنَّا": "ومن الذي قرَّر أن هذا ما يجب قوله عند الرد على الهاتف؟".

أجابها ابنها: "لا أعلم، ولكنها الطريقة المتَّبعة في الرد على الهواتف".

ردَّت "أنَّا": "لا يهم، أشعر أنني سخيفة حين أرد قائلة "آلو".

أجاب "روبرتو" بنبرة مرحة: "كما تشائين يا أمي. ماذا تفعلين الآن؟".

أجابت قائلة: "وماذا تريدني أن أفعل؟ أنا في عجلة من أمري كالعادة؛ عدْتُ للتوِّ من العمل ولا يزال عليَّ إعداد الغداء، والنساء ينتظرنني في الساعة الثانية في "البيت" من أجل الدرس".

قال "روبرتو": "لهذا هاتفتكِ. لن أتمكَّن من العودة إلى البيت على موعد الغداء؛ سأتناول شيئًا خفيفًا في المصنع. لذا لا تُتعبي نفسكِ في الطهي. لنلتقِ في المساء. آه! "ماريا" ستتناول العشاء معنا اليوم، هل تذكرين هذا؟".

سجَّلت "أنَّا" المعلومة وتمتمت: "أممم.. أممم"، ثم أغلقت الهاتف دون أن تقول حتى "وداعًا".

سألتها "چوفانَّا"، وهي تلج إلى غرفة المعيشة: "من كان على الهاتف؟".

كانت "چوفانَّا" تضع على كتفيها الشال الذي صنعته بنفسها والذي لم يُفارقها يومًا منذ انتهت من حياكته.

قالت "أنَّا" مازحة: "ومن تظنِّين سيتصل بنا؟ إنه واحدٌ من الشخصين الوحيدين اللذين لديهما رقم هاتفنا". ثم أضافت: "هل نُعدُّ سريعًا بعض المكرونة؟ عليَّ أن أغادر في غضون أقل من ساعة".

أومأت "چوفانَّا"، ثم تأهبت للتحدث لكنها بدتْ مترددة. سألتها "أنَّا": "ما الأمر؟ كنتِ على وشك أن تقولي شيئًا؟".

تنحنحت صديقتها ثم قالت بصوتٍ منخفضٍ: "كنت أفكر، كنت أفكر ماذا لو ذهبتُ معكِ اليوم إلى "كونترادا"؟".

تهلَّل وجه "أنَّا" من شدة السعادة عند سماعها نيةَ صديقتها. ثم أوضحت "چوفانَّا": "لكنْ إذا شعرتُ.. إذا شعرتُ بغربة تجاه المكان، أقصد عند رؤية المنزل، فسأرغب حينها في مغادرة المكان على الفور".

أجابت "أنَّا": "حسنًا، اتفقنا"، ثم كررت هامسة: "اتفقنا".

✉✉

أغلق "روبرتو" الخط وهو يهزُّ رأسه، إذ كانت محادثاته الهاتفية مع أمه تنتهي دائمًا بالطريقة نفسها، فهي تُقرِّر فجأة أنه قد حانَ الوقت لتُنزل السماعة وبذلك تُنهي المكالمة ببساطة ودون وداع.

قال "روبرتو" وهو يمرُّ من أمام مكتب "ماريا" المكتظ بالأوراق: "سأعود إلى مخزن النبيذ". كانت "ماريا" منهمكةً بالكامل في العمل، لذا تمتمت بصوت مشتت: "حسنًا".

نزل "روبرتو" إلى الطابق السفلي، حيث براميل الخشب الكبيرة الممتلئة بنبيذ "دون كارلو" الذي لا يزال في مرحلة النضج. كان النبيذ الأحمر الخاص بمصنع ومخزن "جريكو" يحتاج إلى ثمانية عشر شهرًا كاملين من التخزين كي ينضج تمامًا ويكون جاهزًا للتعبئة. في نهاية ذلك الشهر، كانوا سيبدأون بتعبئة النبيذ المصنوع من محصول عِنَب عام 1950. لم يتبقَّ حينها الكثير من الوقت على بداية

عملية التعبئة، لذا كان المصنع في تلك الأيام الموافقة منتصف شهر فبراير يسير على قدمٍ وساقٍ ولا يتوقَّف أحدٌ عن العمل. كانت مدةً ضاغطةً للغاية على جميع العاملين في مصنعٍ ومخزن النبيذ بمن فيهم "روبرتو" الذي كان يعمل ست عشرة ساعة يوميًّا، إذ صار يصل إلى المصنع مع بزوغ أول ضوء للصباح ويبقى هناك حتى المساء. كان هناك سبب آخر وراء بقائه في المصنع كلَّ هذا الوقت، إذ لم يعد "دانييليه" يأتي لمساعدته إلا نادرًا، فقد كانت تنقضي أيامٌ كاملة دون أن يمرَّ عليه في المصنع، وحتى عندما يذهب إليه، لا يبقى أكثر من ساعة واحدة.

لاحظ "روبرتو" منذ بعض الوقت وجود تغيير ما طرأ على "دانييليه" في المدة الأخيرة وجعله يبدو شخصًا مختلفًا. لكنه لم يستطعْ أن يعرف ما الذي تغيَّر فيه على وجه التحديد ولا سبب هذا التغيُّر. بدا مضْطربًا، أو ربما حزينًا. خلال إحدى زياراته النادرة إلى المصنع، حاول "روبرتو" أن يسأله أكان شيء قد حدث، لكنَّ "دانييليه" اكتفى بابتسامة متكلَّفة مصحوبة بإجابة لا تُفسِّر أي شيء إذ قال له: "لا تقلق عليَّ، كل شيء يسير على ما يرام، لا تقلق حقًّا".

لم يصدقْه "روبرتو"، لكنه لم يُرِد أن يلحَّ عليه. وعلى الرغم من ذلك، تفتَّق ذهن "روبرتو" في الحقيقة عن ظنٍّ ما كان مفاده أن تلك الحالة السيئة التي صار عليها "دانييليه" فجأة قد تكون مرتبطة بطريقة أو بأخرى بابنة عمه "لورينسا".

بدأ يشك في ذلك عندما رآها، قبل نحو شهر، في وقتٍ متأخرٍ من ظهر يوم أربعاء، تصل إلى المصنع. ربما كانت تلك المرة الثانية أو الثالثة التي تطأ فيها قدم ابنة عمه المكان، على الأقل منذ بدأ هو العمل به. حيَّاها "روبرتو" حينها قائلًا: "ابنة عمي، أي ريحٍ طيبة أتت بكِ إلى هنا؟ هل شعرتِ برغبة في تناول كأسٍ من النبيذ؟".

أجابت مغمغمةً وهي تفرك يديها ببعضهما في اضطراب: "في الواقع، أحتاج فعلًا إلى بعض النبيذ".

فدعاها قائلًا: "تعالي معي".

خلال تلك المسافة القصيرة التي قطعاها من المدخل إلى مكتبه، كانت "لورينسا" تنظر حولها باستمرار، بل وجفلت فعلًا مرَّتين، واستدارت بسرعة عندما سمعت وقع خطوات بعض العمال وهم يصعدون من غرفة تخزين النبيذ أو يدخلون من الباب الرئيسي. استغرق الأمر بضع دقائق وبعض النبيذ الذي يحمل اسم "ذكرى إنتاج دونَّا أنَّا" الذي ظل "روبرتو" يحتفظ بزجاجة منه على مكتبه، لتكشف له ابنة عمِّه عن السبب الحقيقي لمجيئها إلى المصنع. إذ سألته قائلة: "دانييليه" ليس هنا، أليس كذلك؟".

أجاب "روبرتو": "رأيته لوهلة هذا الصباح، لكنه لم يبقَ طويلًا".

سألته "لورينسا": "وهل عاد اليوم مجددًا؟".

أجاب "روبرتو": "لا".

واصلت "لورينسا" أسئلتها: "هل ربما أخبرك مصادفة أنه صارت لديه مؤخرًا أي التزامات ينجزها في وقت ما بعد الظهيرة؟".

تغيرت قسمات وجه "روبرتو" كما لو أراد أن يقول إنه ليست لديه أدنى فكرة عن أي شيءٍ يخصُّ "دانييليه".

غمغمت "لورينسا" قائلة: "فهمتُ". ثم نهضتْ فجأة، وودَّعته، واتجهتْ نحو مخرج المصنع، ولكنها التفتت إلى الوراء للحظة وقالت أخيرًا: "شكرًا على النبيذ".



كانت "أنَّا" تقود دراجتها بسرعة كالسهم، حتى إن "چوفانَّا" وجدت صعوبة في اللحاق بها، مع أنها هي أيضًا تقود دراجتها وتُبدِّل بأقصى سرعة لديها. أهداها جميع أفراد أسرة "جريكو" هذه الدراجة في عيد الميلاد. عندما رأتها "چوفانَّا"، بذلك الشريط الأحمر الذي كان مربوطًا على المقود، شعرت بحرجٍ شديد، إذ أدركت كم ستبدو الهدايا الصغيرة التي صنعتها لكلٍ منهم من الكروشيه بسيطة ووضيعة مقارنةً بهذه الهدية.

ولجتْ "أنَّا" لاهثةً إلى شارع "كونترادا لا بيترا" فأبطأت أخيرًا من سرعتها. وعندما وصلتا أمام بوابة البيت، توقَّفتا وترجلتا عن دراجتيهما.

عندما وجدت "چوفانَّا" نفسها أمام منزلها القديم مرة أخرى، لم تشعر بالغربة كما كانت تخشى، بل شعرت بدفءٍ يغمر قلبها. اعتقدت "چوفانَّا" حينها أن ما أحسَّت به عند رؤيتها بيتها هو ربما الشعور ذاته الذي ينتاب المرء عند رؤيته شخصًا يحبه بعد غياب. لم تستطع تفسير سبب اختيارها هذا اليوم بالتحديد للعودة إلى "كونترادا" بعد كل هذه السنوات التي تجنبتْ خلالها الاقتراب منه وفضلت البقاء بعيدًا تمامًا عنه. لماذا الآن بالذات رغم أنها ما زالت تشعر بالخوف ذاته الذي لازمها سنواتٍ؟ ربما يكون السبب هو الوَحْدَة الدائمة التي بدأت تعيشها في المنزل، إذ لم تَعُد "أنَّا" تبقى في البيت قطُّ تقريبًا بعدما صار يومها مقسَّمًا ما بين عملها في مكتب البريد والوقت الذي تقضيه في "بيت النساء". أو ربما، كما قالت لها "أنَّا" سابقًا؛ إنها كانت مستعدة فعلًا لاتخاذ هذه الخطوة ومواجهة مخاوفها، لكنها لم تكن تُدرك ذلك.

ظلت "چوفانَّا" تنظُر طويلًا مبتسمة إلى الواجهة الجديدة للبيت الريفي، والباب وخصاص النوافذ المطليَّة باللون الأزرق الأشبه بلون البحر، وكل المزهريات الموضوعة على حافة كل نافذة والمليئة بزهورٍ ذات ألوانٍ زاهية. ثم تقدَّمت ببطءٍ نحو الباب الرئيسي، وهي لا تزال تنظر حولها بانبهار، رأت كيف لم تعدِ الحديقة الآن مهملة، وكيف بدتْ حصص الحدائق بديعةً، بتلك الخضراوات الغضة الملوَّنة. قرأت "چوفانَّا" على اللافتة المُعلَّقة على باب المدخل "بيت النساء"، فابتسمت مرة أخرى.

دفعت "أنَّا" الباب، ولكنها توقفت فجأة لتسأل صديقتها في قلقٍ واضح: "كيف تشعرين؟".

أجابت "چوفانَّا" بهدوء: "أشعر أنني على ما يرام".

سألتها "أنَّا": "حقًا؟".

أكَّدت "چوفانَّا" باقتناع: "نعم، نعم".

صاحت "أنَّا" حينها قائلة: "حسنًا، دعينا ندخل إذن".

أذهل الجزء الداخلي من المنزل "چوفانَّا" وتركها في حالة انبهار شديدة؛ فمع أنَّها كانت قد علمت فعلًا من حكايات "أنَّا" المفصَّلة عن التغييرات الكثيرة والعظيمة التي طرأت على البيت، ومع إدراكها حينها أنها قد تتعرف بالكاد منزلَها القديمَ، فإن رؤية كل هذه التغييرات أمام عينيها كانت بمنزلة مفاجأة كبيرة لها. لقد وَجدَت نفسها في مكانٍ جديدٍ ومميَّزٍ تمامًا، يجمع بين كونه منزلًا ومدرسةً وورشة؛ مكان دافئ يغمره الضوء. بدا كأن هذا المكان لم يكن يومًا شاهدًا على بعض مظاهر البشاعة والقبح.

أخذتها "أنَّا" من يدها وسحبتها من غرفة إلى أخرى وهي تُمطرها بأسئلة من قبيل: "ما رأيك إذن؟"، و"هل يعجبك هذا؟"، و"ماذا عن ذلك؟". ثم قدَّمت لها النساء الأربع اللواتي جئن ليعشن في البيت، الأولى كانت "ميلينا"، وشعرت "چوفانَّا" أنها رأتها فعلًا من قبل في مكانٍ ما، مع أنها لم تستطع أن تتذكر بالضبط أين قابلتها أو متى. ثم قدَّمت لها "إليزا" و"ميكيلا"، وهما شقيقتان تبلغان من العمر أربعة عشر وستة عشر عامًا، يتيمتا الأم ولم تعرفا أباهما قطُّ. كانتا تعملان خادمتين لدى أسرة "تامبوريني"، حتى اضطُرَّتا إلى ترك العمل قبل أسبوعين فقط، إذ لاحظت السيدة "تامبوريني" بعض النظرات من زوجها –السيد "المحترم للغاية" "تامبوريني"– إلى الفتاتين لذا طردتهما في الحال، وهكذا بقيتا دون منزل أو عمل. أما الأخيرة، فكانت "ألڤيرا" التي تبلغ من العمر اثنين وعشرين عامًا، لها عينان زرقاوان واسعتان. كانت حاملًا، ومن المتوقع أن تَلِد في شهر مايو وَفْقَ تقديراتها. أوضحتْ تلك المرأة أنها ليست من "ليتسانيلُّو"؛ فهي وُلدت وعاشت في بلدية "فرنولي". عند سماع "چوفانَّا" اسم القرية التي كان السيد "چوليو" كاهنها، انتابتْها جفلة انتبهت لها المرأة و"أنَّا"، لذا سألتها "ألڤيرا" بفضول: "هل تعرفين أحدًا من هناك؟".

فأجابت "چوفانًّا": "لا، لا أحد".

دعتْ "أنًّا" "چوفانًّا" إلى الجلوس إلى إحدى تُخَت الفصل، فقد حان وقت بدء الدرس. جلست "چوفانًّا" في آخر تختة في الخلف، وأسندتْ خدها إلى كفها وظلتْ تستمع إلى "أنًّا" وهي تشرح وتكتب على السَّبُّورة، فيما كانت النساء الأربع، وخاصةً الشقيقتين اللتين بدتا الأكثر انتباهًا، تُدوِّنان بعض الملاحظات في دفاترهنَّ. في ذلك الدرس، تحدَّثت "أنًّا" في ذلك اليوم عن الأفعال، وشرحت أنها يمكن أن تكون تامة أو غير تامة، وأن لكلٍّ نوعٍ منهما أزمنته البسيطة والمركَّبة. دُهِشَتْ "چوفانًّا" من تذكرها التام شرحَ هذا الدرس؛ فقد كان هو نفسه الشرح الذي قدَّمته لها "أنًّا" عن الأفعال منذ سنواتٍ طويلة، في الغرفة ذاتها التي تجلس فيها الآن، عندما قرأتا معًا رواية "كبرياء وتحامل".

في نهاية الدرس، بينما كانت "أنًّا" توزع ما عليهنَّ فعله من واجبات لليوم التالي، وصلت سيدة ذات يدين مليئتين بالتجاعيد تفوح منها رائحة اللافندر. قالت "أنًّا" لـ"چوفانًّا" إن مهمة تلك المرأة هي تعليم نساء "البيت" كيفية حياكة ألحفة بالتريكو، وأضافت قائلة: "التريكو فنٌّ قديم وذو قيمة، هل تعلمين هذا؟".

فأجابت "چوفانًّا": "نعم، جدتي أيضًا تصنع تلك الألحفة لتبيعها، كانت جميعها ملوَّنة ورائعة الشكل. كم تمنيتُ دائمًا أن أتعلَّم صناعتها، لكنها لم تكن تمتلك الوقت ولا الرغبة لتعلِّمني إياها. وعلَّقت قائلة: "كانت تقول لي: "اذهبي بعيدًا، أيتها الطفلة، ولا تزعجيني".

في تلك الأثناء، كانت ميلينا و"ألڤيرا" قد جلستا أمام السيِّدة التي تُدعى "بينا"، وبدأتا في إخراج كرات الصوف وإبر التريكو التي كانت لا تزال مُتَّصلة بالعمل الذي بدأتا فعلًا في حياكته. سحبتْ "چوفانًّا" ببطء كرسيًّا وجلست بجانبهنَّ. قالت "ميلينا" وهي تشير إلى السلة الممتلئة بكرات الصوف: "اختاري الألوان الثلاثة التي تعجبك أكثر".

انحنت "چوفانَّا" وبدأت تبحث داخل السلة، واختارتْ كرة صوف بلون أصفر زاهٍ، وواحدة ذات لون فيروزي، وأخرى برتقالية اللون. قالت السيدة "بينا" بابتسامة صغيرة وهي تمدُّ إليها يدها بالإبر: "إليكِ إبركِ".

قالت "چوفانَّا" بسعادة طفلة: "شكرًا".

ثم تابعت "بينا" قائلة: "الآن سأريكِ كيف تشكِّلين الغرز".

أما الأختان، اللتان لم تكونا مهتمتين على الإطلاق بصنع الألحفة، فكانتا تلقيان نظرات فضولية سريعة على الروايات الموجودة في المكتبة. فيما كانت "أنَّا" تقف بجانبهما وتقودهما لاختيار كتابٍ مناسب. قالت وهي تسحب من يد "إليزا" نسخةً من رواية "الجريمة والعقاب": "ربما يمكنكِ أن تقرئي هذه لاحقًا". رفعتْ "چوفانَّا" عينيها ونظرت إليهنَّ لحظةً. كانت تتذكر ذلك الكتاب؛ إنها النسخة التي أهداها "أنطونيو" إلى "أنَّا"، تلك التي تحمل الإهداء الذي يقول: إن المذنبين أيضًا يستحقون الشفقة.

ثم قالت "أنَّا" وهي تعطي "إليزا" كتابًا آخر وتقول: "خذي هذه الرواية بدلًا من تلك". تعرَّفت "چوفانَّا" على الفور تلكَ الرواية؛ إنها "كبرياء وتحامل". ابتسمت وفكرت في نفسها: "ترى هل ستتمنَّى تلك الفتاة الصغيرة أيضًا طَوال مدة قراءتها هذا الكتاب –كما تمنيتُ منذ سنوات– أن تكون "إليزابيث"؟".

لم تغادر "أنَّا" و"چوفانَّا" "البيتَ" إلا قُرب المساء، فيما كانت النساء الأربع المقيمات في المنزل يهممن بإعداد العشاء. بدأتِ الأختان في إعداد الطاولة، فيما أحضرت "ميلينا" بصلةً وحُزْمة من السبانخ قطفتهما من الحديقة، في حين كانت "ألڤيرا" تقطع الخبز.

ودَّعتهم "أنَّا" قائلة: "إلى اللقاء غدًا". ثم استدارت وأضافت: "آه، "ألڤيرا"، يمكننا أن نذهب غدًا بعد الدرس لإلقاء نظرة على ملابس المولود ولوازمه".

أومأت "ألفيرا" موافقةً، وأضافت: "أقسم إنه إذا كانت المولودة فتاة، فسأسميها "أنَّا" على اسمكِ"، فتدخَّلت "ميلينا"، وهي تُنظِّف السبانخ، قائلة: "صلِّي أن يكون المولود ذكرًا، استمعي إليَّ".

بينما كنَّ يستعددن لركوب دراجتيهما، سألت "چوفانَّا" صديقتها أكان هناك درسُ صناعة الألحفة في اليوم التالي. فردَّت "أنَّا": "لا، "بينا" ستعود يوم الجمعة القادم"، ثم أضافت: "غدًا سيأتي لأول مرة صديقٌ لـ"كارمينيه"، وهو حرفي يشتغل بصناعة الورق المعجون".

استدارت "چوفانَّا" وحدقت إلى "البيت" بضعَ لحظات، وهي تفكِّر كم كان رائعًا حقًّا قضاء وقت ما بعد الظهيرة به. بل إنها تطلع فعلًا بفارغ الصبر إلى قدوم يوم الجمعة.



كانت طاولة العمل في مشغل "دانييليه" بشارع "سانتا ماريا ديل باراديسو" قد صارت فارغة الآن، فأدوات الخياطة والدفاتر ذات الأغلفة السوداء، وقصاصات الأقمشة، ووسائد الدبابيس، والأمتار، والمسطرة الخشبية، والمقصات، والطباشير والكشتبانات مُكدَّسة كلها في صندوقٍ من الكرتون. كما وُضِعَتْ على الأرض أيضًا إلى جانب الصندوق ماكينة الخياطة "سنجر"، والمكواة، ولفائف الأقمشة، وتمثال خشبي بلا رأس ولا أذرع.

ألقى "دانييليه" نظرة أخيرة على المكان من حوله ليتأكَّد من أنه لم ينسَ أي شيء، ثم فتح الباب وبدأ في تحميل الأشياء في الصندوق الكبير لدراجة "تروسيكل" من طراز "آبيه" التي استعارها من مالك بار "ديل دوومو" القريب من الكاتدرائية، وهو من القلائل الذين يمتلكون "تروسيكلًا". طمأنه "دانييليه" قائلًا: "سأعيده إليك صباح الغد".

قال له الرجل إنه لا توجد مشكلة ويمكنه أن يعيدها على رسله وقتما يشاء. ثم سأله: "إذن لن نراك مجددًا في هذه الأنحاء؟ يا للأسف!".

غطَّى "دانييليه" كل شيءٍ بقطعة قماش بيضاء ثقيلة ثم ثبَّتها بحبل.

دخل بعدها إلى المنزل من جديد، وأخرج مفتاحَ الشقة من جيب بنطاله ووضعه على الطاولة حيث إن الشاب الذي أجَّر له المنزل سيأتي –حسب ما اتفقا الاثنان– لاحقًا لاستعادته. توجَّه إلى الباب وخرج وأغلقه خلفه، متجنِّبًا أن يستدير ويُلقِي نظرة أخيرة على المنزل الذي كان مشغله.

كان ترك الأتيليه هو مجرد الخطوة الأولى في خُطَّة "دانييليه"، إذ ما زال عليه التحدُّث إلى "روبرتو" وتسوية الأمور في المصنع والمخزن، ولكنَّ الأهم من كل ذلك هو إخبار "لورينسا"، الشيء الذي كان "دانييليه" يعلم تمامًا مدى صعوبته. لقد نضج قرار الرحيل عن إيطاليا في رأسه ببطءٍ خلال الأسابيع الأخيرة، واقتنع في النهاية أنه الخِيار الوحيد الممكن. لم يكنِ البقاء والتظاهر بعدم حدوث شيءٍ خِيارًا ممكنًا بالنسبة إليه، بل إنه لم يأخذه على الإطلاق بعين الاعتبار.

كان يعرف نفسه جيدًا، وكان متأكدًا من أنه لن يستطيع أبدًا النظر إلى عينيْ "روبرتو" كل يومٍ دون إخباره بالحقيقة. ثم إنه لم يَعُد بإمكانه النظر إلى "لورينسا" والتعامل معها بالطريقة نفسها التي اعتاد أن يعاملها بها. منذ ذلك اليوم اللعين في مطبخ جدته، عندما كشفتْ له أمه عن هُويَّته الحقيقية، بتلك الطريقة الجبانة، غَرِق "دانييليه" في حزنٍ عميق. انعزل في منزله وما عاد يرغب في رؤية أي أحد. قضى عيد الميلاد وحيدًا في شقته الصغيرة، فاقدًا الشهية وتتملكه رغبة في الاختفاء.

حاولت "كارميلا" مرارًا إخراجه من عزلته إذ كانت تذهب وتطرق بابه، متوسلةً إليه أن يسامحها؛ تظلُّ تبكي وتتوسل إليه كي يفتح لها الباب ويتحدث معها. كان عليها أن تشرح له كيف سارت الأمور حقًّا، لكنَّ "دانييليه" لم يفتح لها الباب قطُّ. وبلغ اليأس بها ذات مرة أن قالت له: "جدتك ستموت من الحزن إن لم

تذهب وتتحدث معها". لكنه استمر في تجاهلها. مرةً واحدةً فقط اقترب من الباب وتحدَّث إليها من ورائه إذ سألها قائلًا: "من أيضًا كان يعرف بالأمر؟".

ردَّت "كارميلا" بصوتٍ مرتجف: "وما أهمية ذلك؟"، توسلتْ إليه من جديد: "افتح يا بني، أرجوك". لكنه أصر أن يعرف: "لا، أجيبي عن سؤالي". سمع أمه تتنهَّد وانتظر بصمت وعناد حتى أجابته.

هكذا اكتشف "دانييليه" أن جديه لأمه كانا يعلمان بالأمر، وأن "كارلو" عرف به أيضًا، لكنْ ليس من بدايته. لقد علم بالأمر قبل أن يشتغل "دانييليه" مباشرةً عاملًا في كرم "جريكو". وأنها كانت فكرة جده أيضًا أن يرسله للعمل هناك، وأنه هو نفسه من "تولَّى حل المسألة" عندما حملتْ أمه حملًا غير شرعيٍّ. ثم سألها: "هل كان أبي متواطئًا معكم في فعلتكم هذه؟".

فأقسمت له "كارميلا" إن "نيكولا" لم يعلم شيئًا قطُّ، وأنها متأكدة من أنه لم يشكَّ في الأمر قطُّ طَوال حياته. فكانت آخر الكلمات التي وجهها إليها في هذا الشأن هي: "عليكم جميعًا أن تشعروا بالعار ممَّا فعلتموه".

كان اليوم الأول من عام 1952 حيث تساقَط البَرَدُ من السماء هو اليوم الذي عرف فيه "دانييليه" الحقيقة كاملة.

قضى "دانييليه" الأيامَ التاليةَ مستلقيًا على سريره، يفكِّر بشكلٍ مُهوَّسٍ ودون توقف في "كارلو" والعَلاقة التي ربطته به لسنوات. حاول أن يسترجع كل اللحظات التي قضياها معًا، نظراته إليه، وتلك العادة التي كانت لديه في معانقته بلا سبب، والطريقة التي كان يدعوه بها "يا بُنَيَّ"، وذلك اليوم الذي أخبره فيه أنه سيرسله إلى "نيويورك"، واللحظة التي رآه فيها مجددًا في "نابولي" بعد نزوله من السفينة، والمرة الأخيرة التي تحدَّثا فيها معًا قبل وفاته، واكتشافه ذلك الجزء من الميراث الذي أراد "كارلو" أن يتركه له. بات حينها كل شيءٍ واضحًا بالنسبة إليه. ثم تولَّدت لديه قناعة بأن "أنطونيو" أيضًا كان يعرف كل شيءٍ، وهذا يُبرِّر

تلك الطريقة الغريبة التي كان يتصرف بها معه. اتضح له أن "أنطونيو" كان خائفًا، مجرد خوفٍ لا أكثر.

ثم فكَّر في "روبرتو"، فانسابت على خده دمعة صامتة. كرَّر بينه وبين نفسه: "لديَّ أخ، أخ! من دمي!". كثيرًا ما طلب من "كارميلا" في طفولته أن "تُنجِب له أخًا صغيرًا"، وحينها لن يعود يلعب وحده. كان ينتحب متذمرًا: "كل أصدقائي لديهم إخوة وأخوات، لماذا أنا ليس لديَّ أخوة؟". فكانت أمه في كل مرة تنهي الحديث عن هذا الموضوع وتَجعله يتوقف قائلة: "تعلَّم أن تكتفي بنفسك". والآن، أصبح لديه أخٌ فعلًا، وكل الأشخاص الكبار الناضجين الذين وَثِق بهم في حياته أخفوا ذلك عنه. شعر بالغضب تجاه كل واحدٍ منهم؛ تجاه جدَّيه وأمه، الذين حركوا حياته وحياة "نيكولا" كما لو كانا دميتين، مستغلين طيبة الأخير؛ وتجاه "كارلو"، لأنه لم يَجِد الشجاعة -حتى في لحظات حياته الأخيرة- ليُوقف دائرة الأكاذيب تلك.

ثم عليه أن يفكِّر أيضًا في "لورينسا"، حبيبته "لورينسا"، قال لنفسه: "ابنة عمي" وهو يهزُّ رأسه، وكأنه لا يزال غير قادرٍ على تصديق ذلك. تذكَّر تلك العاطفة المفاجئة التي سرعان ما أحسَّ بها نحوها حالما تحدَّث معها أول مرة منذ سنوات عدَّة. شعر بودٍّ غريزيٍّ وتلقائيٍّ نحوها منذ البداية. ثم تحوَّل ذلك الود إلى حب، ربما أحبها فعلًا منذ اللحظة الأولى، لكنه أدرك ذلك فقط لاحقًا.

تساءل بينه وبين نفسه: "وماذا الآن؟ ماذا سيحدث بيننا الآن؟". كان الاعتراف لها بالحقيقة أمرًا مستحيلًا بالنسبة إليه، فقد عرف "لورينسا" جيدًا، عرف اندفاعها وطبيعتها المهتاجة والمتهورة، وكان يعلم أنها لو سمعت بشيءٍ كهذا فستذهب حينها مباشرة إلى "أنَّا"، ثم إلى "روبرتو"، لتُدمِّر حياتهما بهذه الحقيقة، وحينها ستنهار كل القناعات التي كانا يؤمنان بها حتى ذلك الوقت. لذا قال لنفسه لا، ثم لا، لن يسمح بحدوث ذلك أبدًا. "أنَّا" و"روبرتو" لا يستحقان هذا. أخوه لا يستحق هذا.

في الأسابيع التالية، لم يَعُد قادرًا على لمس "لورينسا" كالسابق. فعندما قابلها "دانييليه" أول مرَّة بعد أن عرف حقيقته، واقتربتْ منه لتقبيله، ابتعد عنها فجأة تقريبًا، فسألته: "ما بك؟".

أجابها: "آسف يا "لورينسا"، لا أشعر أنني بخيرٍ اليوم"، كيف يمكنه أن يمارس الحب معها الآن بعدما عرف كل شيء؟

وهكذا، أخذ يتظاهر بالغياب، إذ لم يعد يذهب عمدًا إلى مشغله بعد ظهيرة يوم الأربعاء كما كان يفعل، وأخذ يتوارَى عن الأنظار ويخفي أي أثرٍ له. كان الأمر مؤلمًا ومأسويًّا بالنسبة إليه. أدرك كذلك أن تصرُّفاته هذه وتجنُّبه التقاءها سيجعلها تتألم، وشعر بذنبٍ شديدٍ حيال ذلك. لكنه لم يَعُدْ يستطيع أن يتعامل معها كحبيب. ليس بعد كل ما عرفه. لهذا، بدا له أن الرحيل هو الخِيار الوحيد الممكن. سيكون الأمر مؤلمًا لكليهما، وسيظل مؤلمًا فترةً طويلةً، لكنه شعر أن هذا القرار هو الوحيد الذي من شأنه إنقاذ حياة الجميع. وهذا بالضبط ما كان يهمه أكثر من أي شيءٍ أخر.

سيبدأ من جديد في "نيويورك" برسومه وتصميماته.

عندما وصل إلى المنزل بـ"التروسيكل" موديل "آبيه"، أوقفه بالقرب من الرصيف وترجَّل منه، وقال لنفسه: "من الأفضل أن أُنزِل كل شيءٍ قبل أن يهبط الظلام"، وبينما كان يفكُّ عقد الحبل، سمع صوت "لورينسا" يأتيه من خلف ظهره: "هأنت ذا أخيرًا".

استدار "دانييليه" فسألها: "منذ متى وأنتِ هنا؟".

أجابت "لورينسا": "لقد بحثتُ عنك في كل مكان".

ردَّ "دانييليه" قائلًا: "معذرة، كنت أُنجز بعض الأمور".

سألته "لورينسا": "هل ستخبرني بما يجري معك؟ إن كنت لا تريد رؤيتي بعد الآن، فقلها بصراحة. لكنْ لا تعاملني بهذه الطريقة. لا تفعلْ ذلك".

كرَّر "دانييليه": "معذرةً، كل ما في الأمر أن...".

قاطعته "لورينسا" وهي تشير إلى صندوق "التروسيكل": "ماذا لديك هناك؟". ودون أن تنتظر منه إجابة، اقتربتْ من الصندوق، وأزاحت الغطاء عنه بحركة واحدة من يدها.

وحالما رأتْ كل محتويات المشغل مكدَّسةً في الصندوق حتى بدأت تمطر "دانييليه" بسيلٍ من الأسئلة، التي سرعان ما تحوَّلت إلى توبيخات ثم اتهامات.

قالت له: "أنت تهرب إذن؟ ومتى كنت تنوي إخباري بقرارك هذا؟ لقد رتَّبت لكل شيء وأنهيت كل الأمور من وراء ظهري. هل تعرَّفت فتاة أخرى؟ هذا هو السبب، أليس كذلك؟ هناك فتاة أخرى طبعًا. يا لك من جبان، لم تكن لديك الشجاعة لتخبرني بالحقيقة، أليس كذلك؟ تركتني أكتشف ذلك بنفسي. من هي؟ هل تتخلص مني الآن بعدما لم تعد بحاجة إليَّ؟".

تركها "دانييليه" تتكلَّم وتُفرِغ كل ما في داخلها، لكن في لحظة ما فقد صبره، لذا قال: "كفى! لا توجد أي فتاة أخرى! توقفي!". ومرَّر يده بإنهاكٍ بين شعره. صمتتْ "لورينسا" فجأةً إذ كانت هذه أول مرة يصرخ فيها "دانييليه" في وجهها.

ثم تمتم بعد لحظة قائلًا: "آسف، أعتذر منكِ لأنني رفعت صوتي". ثم أضاف: "تعالي من فضلك. علينا أن نتحدث".

دخلت "لورينسا" إلى منزل "دانييليه" الذي تبعها وهو يقول لنفسه: "هذه آخر مرة أراها، آخر مرة أتحدث إليها. لكنْ ليس لديَّ خِيارٌ آخر".

جلستْ على الأريكة وعقَدت ذراعيها فوق صدرها، وقالت بحدة: "هأنا أسمعك".

أخذ "دانييليه" كرسيًّا من كراسي الطاولة ووضعه أمامها. جلس ومال بجسده إلى الأمام، ونظر إليها مباشرةً في عينيها، ثم بدأ حديثه قائلًا: "لقد اتَّخذتُ قرارًا. فكَّرت فيه مليًّا...".

قاطعته متسائلة: "هل قررت أن تتركني؟".

قال: "يجب أن تدعيني أتحدث"، ثم أخذ نفسًا عميقًا وتابع قائلًا: "الوضع الذي أصبحَتْ عليه حياتي وحياتك كارثي وفوضوي. أنتِ تدمرين أسرتكِ بيدكِ، وطفلتكِ "چادا" تَكبُر في كنف أمٍّ تعسة وغاضبة طَوال الوقت وأنا.. حسنًا، إذا استمررنا بهذا الشكل فلن تكون لديَّ أسرة أبدًا. أريد أن.. أن أنهي علاقتنا عند هذا الحد".

انفجرت "لورينسا" قائلة: "لا يمكنكَ، لن أسمح لك بفعل هذا. أنا لديَّ حلٌّ وأنت تعرفه...".

أوقفها "دانييليه" قائلًا: "لورينسا" أنا سأرحل".

فقالت "لورينسا": "ماذا تعني؟ سترحل؟ ماذا تقول؟".

فأجابها بصوت أجش: "سأعود إلى "نيويورك". سأغادر خلال أسبوع. هكذا أفضل للجميع".

هبَّت "لورينسا" واقفة بغضب: "لا يمكنك".

فقال "دانييليه": "لستِ أنتِ من تقرِّرين ما يمكنني فعله وما لا يمكنني".

صرختْ "لورينسا" قائلة: "لا، سأذهب معك، وهذا أمرٌ مفروغٌ منه".

فردَّ "دانييليه": "لا، ستبقين هنا ولن تذهبي إلى أي مكان، ستبقين مع ابنتكِ وأسرتكِ".

فقالت "لورينسا": "سأذهب أينما تذهب! لن تذهب إلى "نيويورك" من دوني".

نهض "دانييليه" وبدأ يتحرك بخطواتٍ عصبية خلال الغرفة، ثم توقَّف وقرَّر أن يقول لها الشيء الوحيد الذي سيجعلها تتوقَّف. كانت كذبة، كذبة أخرى، كذبة ضمن مجموعة لا حصر لها من الأكاذيب التي عاشها، لكنها كانت ضرورية. قال لها وهو يتطلَّع إلى عينيها مباشرة: "أنا لم أعد أحبكِ".

أجابت هي على الفور بصوتٍ مرتجف: "ليس صحيحًا".

فكرَّر هو قائلًا: "لم أعد أحبكِ".

وشعر بقلبه يتمزَّق إرْبًا إرْبًا.



قالت "أنَّا": "إنها ذكية وتتعلم بسرعة".

فردَّ "أنطونيو": "لا أعلم. كيف ستتعلَّم كل هذا في مدة قصيرة؟ أحتاج إليها في غضون أقل من شهر، وليس بعد عام".

قالت "أنَّا": "أنا أعرف أنها بإمكانها فعل هذا. ثق بي".

كانت "أنييزيه"، سكرتيرة "أنطونيو"، على وشك التقاعد، وقد اقترحتْ عليه "أنَّا" توظيف "ميكيلا" بدلًا منها. صحيح أن "ميكيلا" تبلغ من العمر ستة عشر عامًا فقط، ولكنَّ "أنَّا" لاحظتها جيِّدًا خلال الأسابيع الماضية، ورأت فيها ذكاءً حادًّا وفطنة غير عادية بالنسبة إلى فتاة في مثل سنها. كانت تجتهد دائمًا خلال الدروس، وفي كل مرة تُنهِي "أنَّا" الدرس تُخبرها الفتاة بأنها تريد فعل "المزيد". لذا كانت "أنَّا" تُكلِّفها كل مرة ببعض التمارين الإضافية وتقترح عليها قراءة كتب أكثر تعقيدًا.

قال "أنطونيو": "لا أشك في أنها ذكية كما تقولين، لكنْ أن تتعلَّم في شهر ما كانت "أنييزيه" تفعله طَوال ما يقرب من عشرين عامًا.. حسنًا، لا أرى الأمر منطقيًّا. أنا أحتاج إلى سكرتيرة لديها خبرة".

أجابت "أنَّا" قائلة باقتناع: "ستصبح كذلك. دَعْها تَعمَلْ على الفور إلى جانب "أنييزيه"، لنقل ابتداءً من الغد. وستخبرك "أنييزيه" بنفسها أكانت تتعلَّم وإلى أي مدى".

أخذ "أنطونيو" يهزُّ كرسيه يمينًا ويسارًا فيما يُفكِّر في الأمر، ثم توقَّف وقال وقد وافق أخيرًا على اقتراحها: "حسنًا، فليكن. دعينا نجربْ".

صَفَّقَت "أنَّا" بيديها مرَّتين في سعادة، فيما واصل "أنطونيو" كلامه وهو يُلوِّح بإصبعه قائلًا: "لكنْ عليكِ أن تردي لي الجميل".

ردَّت "أنَّا" على الفور قائلة: "سأدفع لك ثمنَ تذكرة السينما الليلة".

فسألها "أنطونيو": "هل تدعينني إلى السينما، أيتها السيدة؟".

ضَحِكت "أنَّا" قائلة: "يا لك من أحمق. على أي حال، نعم أدعوك".

سألها "أنطونيو": "وما الفيلم الذي يُعرض في السينما؟".

أجابت "أنَّا": "أومبرتو دي"، هو فيلم من إخراج "ڤيتُّوريو دي سيكا". كانوا يستبدلون الملصقات هذا الصباح عندما مررتُ بالسينما".

فقال أنطونيو: "اتفقنا إذن".

في تلك اللحظة سمعا صوت وقعِ خُطوات كعب حذاء في الممر. ظلَّ صوت النقر يزداد اقترابًا حتى توقَّف فجأة، وفُتِح باب مكتب "أنطونيو" بعنف. صاح "أنطونيو" مدهوشًا: "لورينسا!".

حيَّتها "أنَّا" قائلة: "مرحبًا يا صغيرتي".

لكنْ سرعان ما بدا لها جليًّا أن الفتاة كانت في حالة غضبٍ عارمة، لذا تلاشتِ ابتسامتها على الفور، فيما صرخت "لورينسا" وهي تتوجه ناحية أبيها قائلة: "لقد كنتَ أنت، أليس كذلك؟".

سأل أنطونيو بحيرة: "ماذا فعلتُ؟".

تابعت "لورينسا" متسائلة: "ماذا قلتَ له؟ هل هددتَه؟".

حاولت "أنَّا" تهدِئتها فيما اقتربت منها قائلة: "لورينسا"، اهدئي!".

سأل "أنطونيو": "عمَّن تتحدثين؟".

فأجابت ابنته: "أنت تعرف جيدًا عمَّن أتحدث! لا تُحاوِل التظاهر بأنك لا تعرف شيئًا، لا تحاول أن تفعل هذا!".

قال "أنطونيو" وهو ينهض من كرسيِّه: "لا تثيري غضبي، يا "لورينسا"، لا أسمح لكِ بالتحدث إليَّ بهذه اللهجة".

تدخَّلت "أنَّا" وهي تُربِّت ذراعها قائلة: "يجب أن تهدئي، يا صغيرتي، أبوكِ ليستْ لديه أي فكرة عمَّا تتحدثين عنه، هل يمكنكِ أن تشرحي له الأمر، من فضلكِ؟".

نظرت "لورينسا" إلى أبيها ثم إلى زوجة عمها، ثم شرعتْ في البكاء. تمتمتْ "لورينسا" وهي تنظر إلى "أنَّا": "سيرحل، "دانييليه" سيرحل. سيعود إلى "نيويورك".

قال "أنطونيو" في الحال: "لا أعلم شيئًا عن هذا الأمر! أُقسِم لكِ، يا "لورينسا" إنني لم أسمع بهذا الخبر سوى الآن".

حدَّقت إليه "لورينسا" لحظةً بعينيها المغرورقتين بالدموع، ثم غطَّت وجهها بيديها وبدأت تنتحِب بحُرقة. ثم تمتمت أخيرًا: "يا عمة!"، وارتمتْ بين أحضان "أنَّا".

قالت "أنَّا" وهي تُربِّت رأسها: "ششش". ثم نظرت إلى "أنطونيو" الذي ظل واقفًا بلا حَراك خلف مكتبه، لكنه أشاح بنظره عنها وخفض عينيه.

✉✉

قال "روبرتو" فيما كان يُراقِب أول دفعة من زجاجات "دون كارلو" وهي تُنقَل إلى قسم لصق العلامات: "الأمر ليس كذلك. لكنني كنت أفضل أن أسمع هذا منك مباشرة بدلًا من أن أعرِفه من أمي. لقد شعرتُ بخيبة أمل بعض الشيء، هذا كل ما في الأمر".

تردَّد "دانييليه" قليلًا ثم تمتم أخيرًا: "أنت على حق، كان عليَّ أن آتي إليك وأخبرك بالأمر قبل أي شخصٍ آخر. كان من المفترض أن أتوقَّع أن "أنَّا" ستنقل إليك الخبر على الفور، معذرة".

أمر "روبرتو" الرجلين اللذين كانا يجرَّان بطريقة خرقاء وعشوائية بعض الشيء اللوحَ المتحركَ المُحمَّل بزجاجات النبيذ: "كونا حذرين!". ثم استدار من جديد وعاد للحديث إلى "دانييليه" قائلًا وهو يلوي قسمات وجهه قليلًا: "حسنًا، لا بأس، دعكَ من هذا الأمر".

اقترح "دانييليه": "ما رأيك أن نتمشى معًا حتى الكرم؟".

سارا تجاه مخرج المصنع، ثم انطلقا خلال الطريق المؤدي إلى الكرم. ظلَّا صامتين في البداية، يمشي "دانييليه" واضعًا يديه في جيبيه، فيما يسير "روبرتو" مُطأطئ الرأس، لكنه رفع رأسه بين الحين والآخر لينظر في ما حوله. كانت الرياح

الشمالية تهبُّ بقوة في صباح ذلك اليوم من أواخر شهر فبراير، فيما تتمايل أوراق الأشجار المُمتدة على طول الطريق دون توقُّف. سأله "روبرتو" قاطعًا حالة الصمت التي كانا عليها: "هل ستغادر بسبب ابنة عمي؟".

فأجابه "دانييليه": "نعم، لكنْ ليس هذا السبب الوحيد. أنا بحاجة إلى الانتقال إلى مكانٍ جديدٍ وإلى تغيير نمط حياتي، خاصة أنني أعرف منذ البداية أن هذا ليس هو العمل الذي أريد مزاولته طَوال حياتي. فعلتُ ذلك من أجل "كارلو"، ومن أجلكَ أيضًا". قالها وهو يشعر بقلبه ينبض بقوة.

سأله "روبرتو": "لقد فهمتُ ما كان بينك وبين "لورينسا". لكنْ لماذا تظاهَرْتَ عندما سألتُكَ عن الأمر كأنه لا يوجد ما يجمعكما؟".

أجاب "دانييليه": "لا أعلم، ربما لحمايتها".

قال "روبرتو" بنبرة تطغى عليها خيبة الأمل: "أنت لم تَثِق بي لتخبرني بالأمر".

توقَّف "دانييليه" عن السير، وقال: "لا، ليس الأمر كذلك. عليكَ أن تصدقني. المسألة أنني لم أكن أعرف كيف ستتعامل مع الأمر".

قال "روبرتو": "وكيف كان من المفترض أن أتعامل معه؟ أنت صديقي...".

شعر حينها "دانييليه" بوخزة في معدته. فتابع "روبرتو": "ويمكنك دائمًا التحدث معي عن كل شيء. لن أحكم عليك؛ فأنا لا أحكم على أحدٍ أبدًا".

علَّق "دانييليه" بابتسامة صغيرة: "نعم، هذا صحيح".

ثم استأنفا سيرهما. وواصل "روبرتو" حديثه قائلًا: "ولكنني سأفتقدك".

حوَّط "دانييليه" كتف "روبرتو" بذراعه وقال: "وأنا أيضًا. سأفتقدك كثيرًا".

سأله "روبرتو": "ومتى ستعود؟".

فأجابه "دانييليه": "لا أعلم، ربما سأعود لأتذوَّق إنتاج الموسم القادم من نبيذ "دون كارلو".

غمغم "روبرتو" كأنه أدرك أن هذه ليست سوى كذبة: "هممم.. أعتقد أنك لن تعود مرة أخرى. لكنْ كيف سأتصرف من دونك؟".

فأجاب "دانييليه": "أنت تتحدَّث كأنني لن أعود. وعلى أي حال لقد نجحتَ في إدارة المصنع والمخزن بمفردك تقريبًا خلال الشهرين الماضيين، إذن...".

قاطعه "روبرتو" متسائلًا: "وماذا إذا احتجتُ إلى أن أطلب منك نصيحة؟".

ردَّ "دانييليه": "ستتصل بي. أليس لأغراضٍ كهذه اشتريتَ الهاتف؟". ثم ابتسم له.

غمغم "روبرتو" مرة أخرى ورأسه مُطأطأ: "هممم..."، ثم حدق إلى "دانييليه" وسأله: "هل أنت متأكد أنك ستكون سعيدًا هناك؟".

لم يردَّ "دانييليه" على الفور، ثم هز كتفيه وقال: "لا أعرف. لكنْ أعدك أنني سأحاول أن أكون سعيدًا".

أضاف "روبرتو" بنبرة توبيخ زائفة: "إياك إذن ألا تنجح في محاولاتك!".

وصلا أخيرًا إلى الكرم، حيث كانت صفوفه ساكنة تمامًا، عارية من الأوراق وخالية من الألوان.

على اللوحة الخشبية المُعلَّقة عند مدخل الكرم شحب مع الوقت لون الكتابة البيضاء "كرم جريكو" وأصبحتْ رمادية، وفقدتْ بريقها الذي كانت عليه قبل سنوات، عندما وطأتْ قدما "دانييليه" ذلك المكان أولَ مرة. للحظة، تذكَّر نفسه حين كان صبيًّا، في المكان نفسه، يعتمر قبعة مُسطَّحة على رأسه ويرتدي حمالات تحمل بنطالًا أكبر من حجمه بمقاسٍ واحد. تذكَّر نفسه عندما كان ذلك الصبي الذي يرفع عينيه عن الكرم فيرى سيارة "الفيات 508" مُتوقِّفة بالقرب من اللوحة، فيحيِّي السيد "كارلو" في كل مرة وهو يرفع قبعته قائلًا: "صباح الخير، يا سيد "كارلو".

اقترب "دانييليه" من اللافتة ولمس الحروف واحدًا تلو الآخر. ثم قال لأخيه: "علينا حقًّا أن نعيد طلاءها".

28
أبريل – مايو 1952

عندما نزل "أنطونيو" إلى المطبخ لتناول الفطور، وجد "أجاتا" منهمكة للغاية ووجهها ملطخ بالدقيق. لا بُدَّ أنها استيقظت مبكرًا جدًّا، إذ كانت الكعكة تُخبَز فعلًا في الفرن. قال وهو ينحني نحو الفرن ليسترق النظر إلى الكعكة بداخله: "يا لها من رائحة زكية"، لم تُعدِّ كعكة الشوكولاتة الخاصة بكِ منذ مدة".

ردَّت "أجاتا" مبتسمة: "هذا ما أرادته "چادا" لعيد ميلادها، لذا أعددتُّها لها".

سكب "أنطونيو" القهوة من إبريق "الموكا" الذي كان جاهزًا فعلًا على الطاولة وجلس. سألته "أجاتا": "هل تريد أن تُنهي ما تبقَّى من الخليط الذي صنعتُ به الكعكة قبل أن أغسل الوعاء؟".

أجاب: "وهل يحتاج هذا إلى سؤال؟! أعطني إياه طبعًا". أخذ القليل من كريمة الكاكاو المتبقية في الوعاء بإصبعه ووضعه في فمه، ثم قال مستمتعًا: "ممم، لذيذ جدًّا".

علَّقت "أجاتا" بارتياح ورضا: "حمدًا لله".

شرب "أنطونيو" رشفةً من القهوة التي أصبحتْ فاترةً. فلا بُدَّ أن "أجاتا" قد أعدَّتها منذ أكثر من ساعة على الأقل. قال مبتسمًا: "كانت "لورينسا" أيضًا في طفولتها تطلب دائمًا كعكة الشوكولاتة في عيد ميلادها".

لم تجبْه "أجاتا"، واكتفتْ بأن لوت قسمات وجهها، ثم أخذتِ الوعاء من زوجها ووضعتْه في الحوض فوق كومة من الأواني المتسخة. ثم تنهَّدت قائلة: "نأمل أن تكون قد استيقظت بحالة جيدة هذا الصباح، وألا تفسد الحفلة للصغيرة".

تمتم أنطونيو قائلًا: "فعلًا، نأمل ذلك".

منذ رحل "دانييليه" في أوائل شهر مارس، صارت "لورينسا" شخصًا عصبيًّا جدًّا، كما أصبح لها وجهٌ نحيلٌ بوجنتين غائرتين وذراعين هزيلتين. كانت تقول في كل مرة يجتمعون فيها على العشاء: "لستُ جائعة"، دافعةً طبق الطعام بعيدًا.

كما لم تعد تتحدث إلى "تومَّازو" منذ رحيل "دانييليه" إلا عند الضرورة فقط وبنبرة تبدو كأنها زمجرة. في إحدى المرات انفجرتْ "لورينسا" غاضبةً لمجرد أنَّ زوجها نسي إحضارَ الزيتِ إلى المائدة، وهذا ما اضطُرَّ "أنطونيو" إلى التدخل، إذ قال لها: "لورينسا"! أنتِ تبالغين في ردة فعلكِ!". فنهضتْ حينها من المائدة بسرعة وذهبت إلى غرفة النوم، وأغلقتِ الباب بصفقة قوية. كانت "أجاتا" على وشك اللحاق بها، لكنَّ "تومَّازو" أوقفها قائلًا: "اتركيها. على الأقل سنتناول طعامنا بهدوء". حالما تفوه "تومَّازو" بهذه العبارة، أدرك "أنطونيو" مدى الضجر والملل الذي يشعر به "تومَّازو" في حياته مع ابنته. فكَّر أنه ربما فقد صبره، أو ربما لم يعدْ يهمه ما تفعله أو ما لا تفعله "لورينسا".

حاول "أنطونيو" عدة مرات التحدُّث إلى ابنته. عرض عليها أن يذهبا في نزهة معًا، هما الاثنان فقط، اقترح عليها أن يدعوها إلى العشاء، أو إلى السينما حتى إنه ذهب لزيارتها في مكتب البريد، لكنَّها كانت دومًا ما ترفض دعواته ومحاولاته، وتصرُّ بعناد على أن تبقى في تلك العزلة التي تتَّخذ طابعًا عدائيًّا والتي يطغى عليها صمتٌ شبه تام. في إحدى المرات قالت له: "أنت سعيد لأنه رحل، هذا ما كنت تنتظره".

خفض "أنطونيو" بصره إذ لم يكن قادرًا على الإنكار. وكيف كان له أن ينكر تلك الحقيقة؟ فحال رحيل "دانييليه"، تنفَّس "أنطونيو" الصُّعداء، واعتقد أن ربما ستنسى ابنته أخيرًا "دانييليه"، ومع الوقت ستستعيد حياتها مع زوجها وابنتها ما كانت عليه في البداية من هدوء وسلام.

بدأ الاحتفال الصغير بعيد ميلاد "چادا" في وقت ما بعد الظهيرة، في منزل جدَّيها. كانت كعكة الشوكولاتة المغطاة بسكر البودرة موضوعةً في نقطة بارزة

من طاولة غرفة المعيشة كأنها وُضعت للعرض فقط، وإلى جانبها كانت هناك الأطباق الصغيرة المخصَّصة للحَلْوَيَات من طقم التقديم الفاخر الخاص بالضيوف متراصَّة فوق بعضها، وكذلك الملاعق الفضية ذات المقابض المنقوشة التي كانت "أجاتا" تستخدمها فقط عندما توجد مناسبات خاصة.

وصلتِ الطفلة محمولةً بين ذراعي أبيها، وكانت ترتدي فستانًا ورديًّا بتنورة من "الأوركنزا"، ورَبطت شعرها المقصوص على شكل "كاريه" بشرائط من الساتان الأبيض. سألت "أجاتا" حفيدتها وهي تمسك بيديها الصغيرتين: "عيد ميلاد من اليوم؟".

فأجابت الطفلة بسعادة مفرطة: "عيد ميلاد "چادا"!". ثم أضافت الجدة متسائلة: "هيا قولي لجدتكِ كم أصبح عمركِ الآن؟".

تمتمت "لورينسا" وهي تخلع معطفها معلِّقة على حديث أمها مع طفلتها: "هل هذا العرض الهزلي ضروري حقًّا؟!".

قال "تومَّازو" وهو ينزل الطفلة على الأرض: "هيا أري الجدة كم عمركِ".

فرفعت "چادا" ثلاث أصابع من يدها. صفَّقت لها "أجاتا" قائلة: "بارعة جدًّا!"، ثم عانقتها.

قال "أنطونيو" وهو يُربِّت رأسها بلطف: "أرأيتِ كيف صنعتْ لكِ الجدة كعكة الشوكولاتة التي أردتِها؟".

في غضون دقائق قليلة، انضم أيضًا إلى الحفل "روبرتو" و"ماريا". دخلت "ماريا" وهي تحمل صندوقًا مربوطًا بشريطٍ كبير أحمر. سألت "أجاتا" الطفلة: "أووووه! لمن هذه الهدية؟".

هزَّت "لورينسا" –التي جلست على الأريكة بعيدةً عن الجميع– رأسها متأففة، كأنها أرادت أن تقول إنها لم تعدْ تحتمل تلك الأسئلة السخيفة الحمقاء التي تسألها أمها للصغيرة. بدأت الطفلة بمساعدة "ماريا" بفتح الهدية.

التفتَ "أنطونيو" لحظةً تجاه ابنته، ورمقها بنظرة صارمة مطالبًا إياها بالانضمام إليهم. صاحت "چادا" وهي تفتح عينيها بدهشة على اتساعهما: "دمية!". أهدتها "ماريا" دميةً من الخزف ذات شعرٍ أشقر وفم ملوَّن باللون الأحمر، وترتدي فستانًا ريفيًّا بمربعات بيضاء وزرقاء. اقتربت "لورينسا" في تلك اللحظة، ومدَّت عنقها قليلًا لتلقي نظرة سريعة على الدمية، ثم عادت لتجلس على الأريكة.

قال "روبرتو" لزوجة عمه: "تلك الكعكة تبدو لذيذة يا عمة".

فردَّت "أجاتا" قائلة: "إذا أسرعتْ أمك في الوصول، فسنتمكَّن أيضًا من تناولها!".

تدخَّل "أنطونيو" قائلًا: "قالت إنها ستتأخر قليلًا. إنها تعطي درسًا في "البيت"، لكنني متأكدٌ من أنها ستكون هنا خلال دقائق".

قالت "أجاتا" بنبرة تشي بخيبة أمل: "نأمل ذلك".

وصلت "أنَّا" بعد نحو عشر دقائق، واعتذرتْ عن التأخير. سألها "أنطونيو" وهو يغلق الباب: "أين "چوفانَّا"؟".

أجابت "أنَّا" مبتسمة: "بقيتْ هناك. اليوم لديها درس ضمن دورتها المفضلة في حياكة الألحفة". ثم صاحت وهي تمدُّ ذراعيها نحو "چادا" التي ركضتْ نحوها قائلة: "لكنْ دعوني أهنِّئْ أجمل طفلة في العالم". ثم قالت في النهاية وهي تُخرج علبة صغيرة من جيب بنطالها: "لديَّ هنا هدية لكِ".

كانت هدية "أنَّا" دلَّايةً دائريةً مصنوعة من الذهب، تحمل حرفَ "چ" بارزًا؛ الحرف الأول من اسم "چادا". قالت للطفلة وهي تُعطيها هديتها: "جعلتُ أحدهم يصنعها خصوصًا لكِ".

قال "تومَّازو"، وهو يشعر ببعض الإحراج: "شكرًا جزيلًا يا "أنَّا". هذا كثيرٌ جدًّا حقًّا".

دعتهم "أجاتا"، وهي تصفِّق بيديها قائلة: "والآن دعونا نقطع الكعكة!".

غرس "أنطونيو" ثلاث شمعات في العجينة الطرية للكعكة وأشعلهم، ثم بدأ الجميع يغنون للصغيرة: "عيد ميلاد سعيد". تأهَّبت "چادا" لتنفخ في الشموع، لكنَّ "ماريا" أوقفتها وقالت: "انتظري، عليكِ أن تتمني أمنية".

ثم أضاف "روبرتو": "لكنْ تمني تلك الأمنية في داخلك، وإلا فلن تتحقق".

فكَّرت الطفلة بضعَ لحظات، ثم وقعت عيناها على "لورينسا" التي كانت تجلس في مواجهتها على الطرف الآخر من الطاولة، ثبَّتت عينيها عليها، ثم قالت، وهي تنظر من جديد إلى "ماريا": "أعرف ما هي الأمنية". وبعدها نفخت في الشموع وأطفأتهم والجميع متحمِّس.

أخذت "أنَّا" قطعتين من الكعكة واقتربت من "لورينسا" التي عادت لتجلس على الأريكة. قالت وهي تمدُّ إليها بيدها الطبق: "تفضلي يا صغيرتي".

فقالت "لورينسا": "لا، يا عمة. لا أريد". أصرَّت "أنَّا" وهي تجلس إلى جوارها وتأخذ قضمة من الكعكة قائلة: "إنها لذيذة جدًّا".

هزَّت "لورينسا" رأسها وقالت: "أشعر بالغثيان حال النظر إليها".

بينما كانت "أنَّا" تمضغ قطعة من الكعكة، قالت: "كنت أفكر، لماذا لا تأتين في وقت ما بعد الظهيرة يوميًّا لمساعدتي في "البيت"؟، أتدرين؟ لقد جاءت أيضًا فتاة أخرى، اسمها "چوليا" في عمركِ نفسه".

أومأت "لورينسا"، بطريقة من لا يكترث في الحقيقة لأي شيءٍ ألبتَّة. حثَّتها "أنَّا" على الموافقة وهي تضع الطبق الفارغ على الطاولة: "هل ستأتين إذن؟".

سألتها "لورينسا": "ماذا سأفعل هناك، يا عمة؟".

أجابتها "أنَّا": "ستساعدينني. أعتقد أن ذلك سيكون أيضًا جيدًا لكِ".

أجابت "لورينسا" بابتسامة صغيرة ساخرة: "نعم، طبعًا!"، ثم بدأت تحكُّ يدها من فوق كم قميصها. لكنْ لثقل قماشه فحكُّ الجلد من فوق الكم لم يخففْ

شعورها بالحِكَّة، فاضطُرَّت إلى رفع كمها، كاشفةً عن ندبة في ذراعها، لم تستطع "أنَّا" ألا تلاحظها.

بدت الندبة كأنها لجرح قطعي. سألتها "أنَّا": "ماذا فعلتِ بنفسكِ؟".

سارعت "لورينسا" بالرد عليها وهي تُنزل الكم في الحال: "لا شيء، كنت في المطبخ وشردت قليلًا". واختتمت كلامها وهي تهزُّ كتفيها بلا مبالاة: "أمور كهذه تحدث كثيرًا".



لم تُفكِّر "أنَّا" في هذا الجرح مرة أخرى إلا بعد مرور بضعة أيام. كان يومًا هادئًا في مكتب البريد، لدرجة أنها بحلول الحادية عشرة والنصف كانت قد أنهت جولة إيصال الرسائل، وعادت إلى المكتب من جديد. فاستغلَّتِ الفرصة لفعل شيءٍ كانت تفكر فيه منذ مدة، إذ قرَّرت فتح دفتر توفير بريدي باسم "بيت النساء"، وستُودِع فيه مبلغًا كل شهر، كي تتمكَّن المقيمات في "البيت" من استخدامه بحرِّية لشراء الطعام والملابس والصابون والمنظفات، وكل ما يحتجن إليه، دون الحاجة إلى طلب المال منها في كل مرة.

سألها "تومَّازو" عندما علم برغبتها متمتمًا: "هل أنتِ متأكدة مما ستفعلينه؟ أليس من الأفضل وجود صندوق تديرينه بنفسكِ كي تتمكني من مراقبة الإيرادات والمصروفات؟".

أجابته "أنَّا" معترضة وهي ترفع حاجبها: "هنَّ لسن أطفالًا، وأنا لستُ أمهنَّ، لا يحتجن إلى مراقبة. ما يحتجن إليه هو الثقة، وأن يشعرن بأنهنَّ مسؤولات عن حياتهنَّ ومصيرهنَّ".

سألها "تومَّازو": دعينا نفترض مثلًا أن المرأة التي ستفوِّضينها للتعامل مع الدفتر خدعتكِ وسحبت كل الأموال، ثم ولَّت هاربة واختفتْ ولم تعرفي مكانها؟".

قالت "أنَّا": "لا أعتقد أن أي واحدة منهنَّ ستفعل ذلك".

فسألها "تومَّازو": "وكيف تكونين واثقة من هذا؟".

أجابت "أنَّا" قائلة: "أنا واثقة فحسب".

استسلم "تومَّازو" وقال: "كما تريدين، كنت أرغب فقط أن أدعوكِ لتوخِّي الحذر، لكنْ على أي حال المال مالكِ، لذا...".

قاطعته "أنَّا" قائلة: "وأنا أشكركَ، ولكني أعرف ماذا أفعل".

قاطعتهما "إيلينا" وهي تطل من الغرفة الخلفية: "توجد شائعات تدور في البلدة".

سألتها "أنَّا" وهي تلتفت نحوها: "شائعات عن ماذا؟ ماذا تقصدين؟".

قالت "إيلينا": "يتحدثون عن تلك المرأة التي تُدعى "ميلينا". هي إحدى المقيمات في "البيت، أليس كذلك؟".

أجابت "أنَّا" قائلة: "نعم، وماذا في ذلك؟".

فسألتها "إيلينا": "أتعرفين ماذا تشتغل؟".

فأجابت "أنَّا" باستياء: "بل ماذا كانت تشتغل، على أي حال نعم، أعرف ماذا كانت تعمل في السابق. ما الأمر إذن؟".

قالت زميلتها: "إذن من الطبيعي أن يتكلَّم الناس. يُقال إنه أصبح بيتًا للنساء سيئات السمعة".

سألتها "أنَّا" في غضب: "ومن الذي يقول ذلك؟".

أجابت "إيلينا": "السيد "لوتشيانو"، على سبيل المثال. لكنه ليس وحده من يتكلم".

ضحكتْ "أنَّا" ضحكةً مكتومةً ثم قالت: "السيد "لوتشيانو"! حسنًا، لا أتعجب من ذلك".

تدخَّل "كارمينيه" الذي لم يفوِّت كلمة واحدة من هذا الحوار منذ بدايته قائلًا: "ذلك الرجل يعرف العاهرات أفضل من أي شخص آخر".

وبَّخته "إيلينا" قائلة: "يا لكَ من سليط اللسان!".

فردَّ "كارمينيه": "يبدو أنكِ لستِ على علمٍ بهذا".

ثم أوضحت "أنَّا" قائلة: "على أي حال، لا يهمني ما يقوله الناس، وخصوصًا ذلك الرجل الذي يدعى السيد "لوتشيانو".

فتمتمت "إيلينا" قائلة: "آه، حسنًا، إن كان الأمر لا يُثير استياءك، فهذا أفضل كثيرًا". لتترك "بيتها" يصبح ملجأً للنساء سيئات السمعة.

قالت "أنَّا" بعد بضع دقائق، وكأنها تفكِّر في الأمر وتدرسه: "بل تعرفون في ما أفكِّر أيضًا؟ أفكِّر فعليًّا في أن أذهب إليه وأقول له ذلك في وجهه!"، واندفعت مغادرة المكتب ثم عبرتِ الميدان المزدحم، مُتَّجهة مباشرة نحو الأبرشية.

من خلفها صرخ رجلٌ كان جالسًا على مقعد الميدان متسائلًا: "هل أنتِ في عجلة من أمركِ يا ساعية البريد؟". كان ذلك هو الرجل ذو الذراعين مفتولَي العضلات الذي يتاجر في التبغ، ويسكن ذلك المنزل المتهالك الواقع على أطراف البلدة.

لم تجبْه "أنَّا" وواصلت سيرها بثباتٍ وشجاعة. وجدتِ السيد "لوتشيانو" واقفًا في فِناء الكنيسة، ويقف خلفه خادم المذبح؛ كان يتحدَّث إلى مجموعة صغيرة من المصلين، الذين بقوا بعد قدَّاس الساعة الحادية عشرة.

تقدَّمت "أنَّا" نحو الفناء، وعندما اقتربتْ من السيد "لوتشيانو"، خبطتْ بيدها كتفه، فصمتَ المصلون على الفور ثم قالت "أنَّا": "هل تسمح لي بكلمة؟".

فأجابها بلطف "صباح الخير، أيتها السيدة ساعية البريد، كيف يمكنني مساعدتكِ؟".

قالت "أنَّا": "حسنًا، يمكنك أن تساعدني بأن تتوقف عن نشر الشائعات الكاذبة والخبيثة عن "بيت النساء".

تبادَل المصلون النظرات في ما بينهم، كأنهم يقولون: "ومن الذي يُفوِّت على نفسه فرصة حضور مشهدٍ كهذا؟".

قال السيد "لوتشيانو": "علَّمتني التَّجْرِبة أنه عندما تصبح الشائعات صاخبة وقوية، فدائمًا تقريبًا ما يكون لها أساسٌ من الصحة".

كانت "أنَّا" تودُّ بشدة لو لطمته في تلك اللحظة. ولكنها اكتفت بأن تردَّ عليه قائلة: "توجد شائعات تدورُ أيضًا حولك أنت شخصيًّا. فعلينا إذن وَفْقَ منطقك، أن نُصدِّق أن ما يقولونه صحيح. أو دائمًا تقريبًا –على حد قولك– له أساس من الصحة".

في تلك الأثناء، اقترب بعض الأشخاص الذين كانوا موجودين لحظتئذٍ في الميدان. ألقى السيد "لوتشيانو" نظرة على كل هؤلاء الناس، ثم عاد لينظر إلى "أنَّا"، وتابع قائلًا: "لقد كنتِ متهورةً برفضكِ الحصول على البركة من أجل مشروعكِ الجديد. لو كنتِ استمعتِ إليَّ، لما وجدتِ نفسكِ الآن محاطة بنساء غير محترماتٍ، وما كانت هذه الشائعات لتنتشر".

ردَّت "أنَّا" قائلة: "ومن الذي يُعتبَر "محترمًا" إذن؟ أنت؟ الذي يبشِّر الناس برحمة الرب ولطفه، ثم يُغلق الباب في وجه نساء مثل "ميلينا"؟ ألسنا جميعًا أبناء الرب؟ يبدو في الحقيقة أنك تُريد أن تدلِّل بكلامك وأفعالك هذه أنك تعتبر أن هناك بعضًا يستحقون أن يكونوا أبناء الرب أكثر من الآخرين".

احتجَّ السيد "لوتشيانو" قائلًا: "ليس هذا ما قلتُه على الإطلاق"، وعاد لينظر إلى المصلين ثم تابع قائلًا: "لكنَّ الخطايا تظل خطايا. ولستُ أنا من أقرر أن أغفرها، بل الرب".

فقالت "أنَّا": "حسنًا، إذن أتمنَّى أن يغفر لك ربك خطاياك أنت أيضًا. والتي حسب ما يُقال، ليستْ قليلة. أتمنَّى لك حظًا سعيدًا عندما تقف أمامه". ثم انصرفتْ، محاطةً بهمهمة ارتفعت في كل مكان من حولها، حتى صارت أشبه بطنين سربٍ من النحل سُمع فيها بعض تعليقات الحضور كـ"لا تغضب يا سيد "لوتشيانو"، و"آه، لو كان "كارلو" –لروحه السلام– لا يزال حيًّا"، و"لطالما اعتقدتْ تلك الغريبة نفسها أفضل من الجميع".

كانت "إيلينا" و"كارمينيه" يُطلَّان من باب مكتب البريد وكان من الواضح أنهما لم يفوِّتا ولا لحظة واحدة من المشهد الذي جمع زميلتهما بالسيد "لوتشيانو". سألها "كارمينيه" بنبرة مَرِحة عندما عادت إلى المكتب: "لقنتِه درسًا، أليس كذلك؟".

أجابت "أنَّا": "ليس بما فيه الكفاية". دخلتِ المكتب من جديد فقط لتأخذ معطفها وحقيبتها، ثم غادرت، وكانت لا تزال تستشيط غضبًا ولم يتوقَّف قلبها عن الخفقان بقوة. رَكِبت دراجتها وأخذت نفسين عميقين، محاولةً التخلص من التوتر. ثم تمتمتْ بينها وبين نفسها: "يا له من أحمق".

واصلت "أنَّا" التبديل بدراجتها حتى أدركت أنها سلكت طريقًا خاطئًا كونها كانت غارقة في التفكير. وجدتْ نفسها بالقرب من منزل "تومَّازو" و"لورينسا"، فقرَّرت زيارة "لورينسا" التي لم تحضر إلى المكتب منذ يومين. وعندما سألت زوجها عنها قال لها دون أن يرفع نظره عن أوراقه: "إنها تعاني فقط من نزلة برد بسيطة".

دقَّت الجرس مرتين قبل أن تصل "لورينسا" لتفتح الباب. وعندما ظهرت أخيرًا أمامها، كانت نظرة واحدة من "أنَّا" كافية لتُدرك أن سبب غياب "لورينسا" لم يكن الإنفلونزا، فقد كانت شاحبة للغاية، ولديها هالات عميقة بنفسجية أسفل عينيها، كما كانت هناك ضمادتان ملتفتان حول مرفقيها.

قالت "لورينسا" بنبرة متعجرفة عندما رأت علامات الصدمة والذعر على وجه "أنَّا": "اطمئني، يا عمَّة. لم أحاول الانتحار، إن كان هذا ما تفكرين فيه". ثم أضافت: "ادخلي، لكنْ بهدوء؛ فلقد نامت "چادا" للتو".

دخلت "أنَّا" وهي تشعر بعدم اتزان. ثم قالت وهي تجلس على الأريكة: "أظن أنني بحاجة إلى بعض الماء". ثم أضافت، وهي تمسك بيدٍ مرتجفة بعض الشيء الكوب الذي أحضرته لها "لورينسا": "قال "تومَّازو" إنكِ مصابة بنزلة برد".

شرحت لها "لورينسا" قائلة: "أنا من طلبتُ منه أن يقول ذلك. لمن في المكتب، ولأمي، وللجميع".

شربتْ "أنَّا" الماء دفعةً واحدةً وقبضتْ بشدة على الكوب الفارغ. ثم همستْ وهي تحدِّق إلى "لورينسا": "ستخبرينني الآن بما يحدث معكِ، لن أغادر حتى تتكلَّمي وتقولي كل شيء وإلا سأذهب إلى "تومَّازو" وأسأله وأنتِ تعرفين أنني سأفعل ذلك".

تنهَّدت "لورينسا" وجلست على الأريكة، دون أن تنظر إلى "أنَّا"، وقالت: "إنها مجرد جروح صغيرة، جروح غير مؤذية".

قاطعتها "أنَّا" غير مصدقة ما تسمعه: "غير مؤذية؟! هل تمزحين؟".

ردَّت "لورينسا": "نعم طبعًا، وماذا إذن يمكنني أن أقول؟ تجعلني أشعر بتحسن، لكنني لم أكن أعلم أن إحداث جرح صغير في مرفقيَّ يمكن أن يتسبَّب في نزيفٍ غزيرٍ هكذا، هذا فقط كل ما الأمر".

كرَّرت "أنَّا": "هذا كل ما في الأمر؟! هل تريدين أن تخبريني الآن أنكِ ترين هذا فعلًا طبيعيًّا؟!".

تمتمت "لورينسا" قائلة: "طبيعي!"، كما لو كانت تلك الكلمة غريبة عليها ولم تسمعها من قبل. ثم أدارت رأسها نحو "أنَّا" وقالت بحماس وقوة أكبر: "هل تعلمين ما الشيء غير الطبيعي حقًّا؟ أن "دانييليه" اختفى تمامًا ولا أعرف كيف لي أن أقتفي أثره، وأنني باقية هنا فيما هو في الجانب الآخر من العالم، هذا هو ما ليس طبيعيًّا يا عمة".

قالت "أنَّا" وهي تشير إلى الجروح في يدها: "هذا بالتأكيد ليس سببًا وجيهًا لتفعلي.. لتفعلي ما تفعلينه".

فردَّت "لورينسا": " لقد أخبرتكِ فعلًا أن هذا يجعلني أشعر أنني أفضل حالًا، على الأقل لبعض الوقت".

قالت "أنَّا": "لكنَّ ما تقولينه هذا لا معنى له يا "لورينسا"، ألا تدركين هذا؟ يجب لأحدٍ أن يساعدكِ. لا يمكنك المواصلة هكذا".

أجابت "لورينسا" وهي تحدق إلى السقف: "نعم، يساعدني، طبعًا!".

قالت "أنَّا" وهي تُربِّت يدها: "دعيني أساعدكِ".

عدَّلتْ "لورينسا" من وضع رأسِها وأجابت قائلة: "آه حقًّا؟ هل تريدين حقًّا أن تساعديني؟ إذن أخبريني أين هو، أين يسكن؟".

قالت "أنَّا": "وما أدراني".

فأجابتها "لورينسا": "حاولي أن تكتشفي مكان إقامته. "روبرتو" أيضًا يقول إنه لا يعرف، يظنني غبية. أنا أعرف أنهما على اتصال ببعضهما".

فقالت "أنَّا": "وإذا حدث وعرفتِ مكانه، فماذا ستفعلين؟ هل يمكنكِ أن تقولي لي؟".

أجابت "لورينسا" وهي تهزُّ كتفيها كما لو كانت إجابة هذا السؤال واضحة وبديهية: "سأهاتفه، سأكتب له، سأقنعه بالعودة إليَّ".

سألتها "أنَّا": "وهل سيساعدك هذا على أن يتحسَّن حالكِ؟ أقصد إن وجدتِ طريقة للتحدث إليه فهل ستصبحين أفضل حالًا؟".

قالت "لورينسا" وهي تلوي قسمات وجهها: "أوه، نعم".

فكَّرتْ "أنَّا" قليلًا في الأمر ثم وعدتها قائلة: "حسنًا، سأساعدكِ"، ثم أضافت بصوتٍ متهدِّجٍ فيما تشير إلى الضمادات: "لكنْ عليكِ أن تتوقَّفي عن فعل هذا على الفور!".

لكنَّ "لورينسا" لم ترد عليها.



كان فجر أحد الأيام الأولى من شهر مايو قد انبلج فعلًا منذ وقتٍ قصيرٍ عندما طرق "تومَّازو" باب منزل أهل زوجته، حاملًا طفلته "چادا" التي كانت نائمة على كتفه. فتحت له "أجاتا"، مرتديةً روبًا وشعرها مغطًّى بطاقية النوم، وعندما دخل "تومَّازو"، قال لها بصوتٍ منخفضٍ: "خذي "چادا" إلى الطابق العلوي، من فضلكِ".

حدَّقت إليه "أجاتا" بحيرة وحاولت أن تقول: "لكن ماذا..."، لكنَّ "تومَّازو" أوقفها، وأشار لها بما جعلها تفهم أنهما سيتكلَّمان، ولكن ليس في حضور الطفلة.

وبينما كانت "أجاتا" تأخذ حفيدتها إلى غرفة النوم، خرج "أنطونيو" من مكتبه وهو يربط رداءه حول خصره وسأل مقطِّبًا ما بين حاجبيه: "تومَّازو"، ما الأمر؟".

أجابه "تومَّازو" قائلًا: "دعنا ننتظر "أجاتا". جلسوا ثلاثتهم حول طاولة المطبخ ثم أخرج "تومَّازو" من جيبه ورقة مربعات مطوية إلى نصفين وسلَّمها إلى والديْ "لورينسا". أخذ "أنطونيو" الورقة وفتحها. مالت نحوه "أجاتا" لتقرأ معه ما جاء في الورقة التي لم يكن مكتوبًا فيها سوى": "أنا بخير. لا تبحثوا عني". كانت الكتابة بخط يد "لورينسا"؛ الضيِّق الحاد.

رفع كلاهما أعينهما نحو "تومَّازو" ثم سأله "أنطونيو": "ماذا يعني هذا؟".

شرح "تومَّازو" أنه وجد تلك الرسالة قبل دقائق قليلة فقط على طاولة غرفة المعيشة عندما استيقظ ونزل إلى الطابق السفلي. لم يكنْ يعرف شيئًا آخر، إلا أن "لورينسا" وكما هو واضح قد خرجتْ من المنزل فيما كان نائمًا.

نهض "أنطونيو" وبدأ يقطع المطبخ ذَهَابًا وإيابًا، فيما يفرك وجهه. سألته "أجاتا" كي تستفسر وتتحقَّق من الأمر: "هل تشاجرتما الليلة الماضية؟ هل غضبت بسبب شيء ما؟".

همس "تومَّازو" قائلًا: "لا".

انفجر "أنطونيو" غاضبًا وقال: "كيف لم تسمع أو تشعر بأي شيء؟ امرأة تغادر المنزل بهذه الطريقة في منتصف الليل".

قالت "أجاتا" وهي تُربِّت ذراعه: "اهدأ يا "أنطونيو".

أسند "تومَّازو" مرفقيه إلى الطاولة وأحاط رأسه بكلتا يديه. قالت "أجاتا" محاولة تهدئتهما: "لا بُدَّ أنه واحدٌ من تصرفاتها الطائشة. أنتما تعرفان طبعها، ستعود".

رفع "تومَّازو" نظره واقترح: "ربما ذهبتْ إلى تلك الصديقة في "ليتشي".

توقَّف "أنطونيو" عن الحركة وأمسك ظهر الكرسي بكلتا يديه. كيف بإمكانه في تلك اللحظة أن يكشف للجميع، أن تلك الصديقة ليست موجودة ولم تكن موجودة قطُّ؟ لذا اكتفى بأن هزَّ رأسه في حزم وقال: "لا، هي ليست هناك".

قالت "أجاتا": "لا يمكن أن تكون قد ذهبت بعيدًا".

اعترض "تومَّازو" قائلًا: "قد تكون قد ركبتِ الحافلة، لكنني لا أستطيع البقاء هنا دون أن أفعل أي شيء". نظر إلى "أنطونيو" وسأله: "هل نذهب للبحث عنها في الحقول المحيطة بالبلدة؟".

قال "أنطونيو" غير مقتنعٍ كُليًّا: "حسنًا، دعنا نحاول هذه المحاولة".

انطلق كلٌّ منهما بسيارته سالكين اتجاهين مختلفين. فتَّش "أنطونيو" كل الأكواخ المبنية من القش من "ليتسانيلُّو" إلى "بيزينيانو"، ثم عاد أدراجه واتَّجه جنوبًا نحو الحقول المحيطة ببلدة "كاستري". تمتم وهو ينظر حوله: "أين يمكن أن تكوني قد ذهبتِ؟". وبعدما تجوَّل بلا طائل أكثرَ من ساعتين، قرَّر العودة إلى المنزل.

سألته "أجاتا" وهي تستقبله عند الباب: "ألم تعثر عليها؟".

أجاب "أنطونيو"، وهو يُلقي بمفتاح السيارة على الطاولة: "بحثتُ في كل مكان".

تمتمت "أجاتا" وهي تفرك يديها ببعضهما: "ربما وجدها "تومَّازو".

وبعد قليلٍ وصل "تومَّازو" وحكى لهما أنه ذهب حتى "ليتشي" دون أن يعرف حتى أين عليه أن يبحث بالضبط. حينها فقط أدرك أنه نسي أن يُبلغ موظفي المكتب بغيابه. لقد غاب حتى عن ذهنه تمامًا أن لديه عملًا يعمله.

قال "أنطونيو": "أجل، لم أخبر أيضًا أيَّ أحدٍ في معصرة الزيتون بغيابي، ربما اعتبروني مفقودًا في ظروفٍ غامضة".

تدخَّلت "أجاتا" قائلة: "اذهبا إلى عمليكما، فعلى أي حال لا يمكنكما الآن فعل أي شيءٍ آخر".

اقترح "أنطونيو": "عندما تستيقظ الطفلة من الأفضل أن تذهبي إلى بيت "تومَّازو" لتكوني هناك في حال عادت "لورينسا". ثم أضاف قائلًا: "سننضم إليكِ لاحقًا".

أومأت "أجاتا"، وأوصت الرجلان قبل أن يغادرا: "ليظل هذا الأمر بيننا الآن، ربما تعود الليلة، وحينها سنكون قد أثرنا ضجةً بلا داعي. قل لزملائكما في العمل إنها ليست على ما يرام لذلك لم تذهب معك إلى المكتب، حتى "أنَّا" أخبرها بالشيء ذاته".

كانت شجرة الوِسْتارية الواقعة عند مدخل بيت "تومَّازو" و"لورينسا" في أوج تفتُّحها. لطالما أحبَّت "أجاتا" رائحة تلك الزهور، لذا توقَّفت بجانبها قبل أن تفتح الباب، وأخذتْ نفسًا عميقًا.

قالت للطفلة التي كانت بين ذراعيها بوجهها الذي يغلب عليه النعاس: "استنشقي، يا صغيرتي، ما أطيب هذه الرائحة". وبينما كانت تضع المفتاح في القفل، فكَّرت في أنها كانت ستود أن تستخدم عطرًا برائحة الوِسْتارية فقط.

أعدَّت القليل من الحليب للطفلة، وأخرجت بعض البسكويت وقالت لها أن تبدأ في الأكل، ثم قالت لها وهي تُربِّتها بحنان: "ستصعد الجدة إلى الأعلى لدقيقة، لكنها ستعود على الفور".

صعدتْ إلى غرفة النوم إذ سيطرت على عقلها –فيما كانت تنتظر عودة "تومَّازو" و"أنطونيو"– فكرة رهيبة ومخيفة. توجهت –بقلبٍ مضطربٍ، وهي تتمنى من أعماقها أن يكون ما جال بخاطرها ليس صحيحًا– نحو خزانة الأدراج، ثم فتحت أحد الأدراج ومدَّت يدها إلى داخله، متجاوزة المناشف المطوية حتى وصلت إلى الصندوق الخشبي ذي اللون الناصع الذي كانت "لورينسا" تحتفظ فيه بجواهرها والذي كان لا يزال في مكانه. فتحته "أجاتا" بيدين مرتجفتين، فإذا هو فارغ. لم يكن هناك أي أثرٍ للخواتم أو الأساور أو القلائد الصغيرة. كل شيءٍ كان مفقودًا، حتى دلَّاية "چادا" التي تحمل حرف "چ" تلك التي أهدتها "أنَّا" إلى الطفلة في عيد ميلادها. سقطتْ "أجاتا" منهارةً على السرير، وهي تحاول جاهدةً كبح دموعها.

في تلك الليلة، لم يكنْ لدى أحد شهية لتناول العشاء، فيما لم تتوقف "چادا" عن تَكْرار السؤال ذاته: "أين أمي؟".

فكانت "أجاتا" تردُّ عليها في كل مرة قائلة: "ذهبت لتعدَّ مفاجأة من أجلكِ، سترين كيف ستعود ومعها هدية جميلة لكِ".

لكنَّ الطفلة ظلَّت تعول وهي تفرك عينيها وتقول: "لكني لا أريد الهدية، أريد أمي".

في النهاية، حملت "أجاتا" الطفلة على ذراعها وصعدت بها إلى الطابق العلوي، وبقيت بجانبها حتى نامت.

أما في الطابق السفلي، فكان "أنطونيو" يتجوَّل في أنحاء الغرفة، فيما كان "تومَّازو" غاصًّا في الأريكة، يحدق إلى اللاشيء. همس "تومَّازو" قائلًا: "لن تعود أبدًا".

توقَّف "أنطونيو" هنيهةً عن الحركة، ورفع بصره نحوه ثم قال: "يجب أن أتحدَّث إلى "أنَّا".

استدار نحوه "تومَّازو" وردَّ قائلًا: لا تريد "أجاتا" لأحدٍ أن يعرف بالأمر، دعنا ننتظر مزيدًا من الوقت".

قاطعه "أنطونيو" بحزم وهو يتَّجه نحو الباب قائلًا: "لا".



كانت جميع أضواء منزل "أنَّا" مطفأة، باستثناء ضوء غرفة نومها.

طرق "أنطونيو" الباب بهدوء، ولكنَّ أكثر من مرة، حتى رأى الضوء يشتعل في غرفة المعيشة وسمع خطوات "أنَّا" البطيئة والواثقة –التي كان بإمكانه تمييزها من بين ألف– وهي تقترب من الباب.

فتحتْ له "أنَّا" البابَ وكانت ترتدي رداءً أزرق من الحرير، وكان وجهها لامعًا بسبب الكريم الذي دهنته على بشرتها. سألته "أنَّا": "أنطونيو"؟ ماذا هناك؟".

فأجابها: "معذرة، هل كنتِ نائمة؟".

فردَّت: "لا ليس بعد، كنت على وشك النوم. تعالَ، أدخل".

سألها: "هل أيقظتُ أحدًا؟".

أجابت وهي تغلق الباب خلفه: "لا، لا تقلق. أنا وحدي في البيت؛ "چوفانَّا" بقيت للنوم في "كونترادا" مع الفتيات"، ثم تمتمتْ وهي ترفع حاجبها: "أما "روبرتو" فيتناول العشاء مع أسرة "ماريا"؛ إنه عيد ميلاد أبيها، أو أمها، لا أتذكر".

حدق "أنطونيو" إليها ثم اندفع ليعانقها، ودفن رأسه في تجويف عنقها.

سألت "أنَّا" في اضطراب وقلق وقد رفعت ذراعها ووضعته على كتفه: "ماذا بك؟".

أجابها "أنطونيو" بصوتٍ مختنق: "لقد رحلتْ".

سألته "أنَّا": "من؟ من التي رحلت؟".

سحبته من يده وأجلسته على الأريكة، وبينما كانت "أنَّا" تمسك بيده، روى لها "أنطونيو" ما حدث له في أطول يومٍ قضاه في حياته.

استمعت إليه بأنفاس محبوسة وعينين مفتوحتين على اتساعهما. تخيَّلت "لورينسا" وهي تكتب: "أنا بخير. لا تبحثوا عني"، ثم تتسلل إلى خارج المنزل في نصف الليل، لتنطلق خلال طريق مظلم خالٍ من البشر. سألها "أنطونيو": "ساعديني، أين يمكن أن نبحث عنها؟ هل لا يزال هناك مكان آخر لم نبحث فيه بعد؟".

نزعت "أنَّا" يدها ببطء من يد "أنطونيو" وبالبطء والهدوء نفسهما نهضت وتحرَّكت بضع خطوات، وهي تغطي فمها بيدها، ثم توقَّفت وعادت لتنظر إليه وقالت: "أنا أعرف أين ذهبت".

نهض "أنطونيو" بسرعة واقترب منها وسألها: "أين؟".

ترقرقت الدموع في عينيها. سألها وهو يضع يديه على ذراعيها: "ما بكِ؟ لماذا تبكين هكذا؟".

أجابته قائلة: "لقد فعلَت شيئًا.. شيئًا غبيًّا".

أبعد "أنطونيو" يديه عنها وأخذ خطوة إلى الخلف. فتابعت "أنَّا" قائلة: "أعطيتُها عنوانَ "دانييليه".. عنوانَه في "نيويورك". كانت تريد أن تكتب إليه، وأن تتحدث معه، كانت في حالة سيئة جدًّا".

ارتسم على وجه "أنطونيو" تعبيرٌ امتزج فيه الغضب بالذهول، ثم سألها بصوتٍ منخفضٍ، لكنْ بنبرة حادة: "لماذا فعلتِ ذلك؟! لماذا؟ لقد طلبتُ من "روبرتو" ألَّا يخبرها بأي شيء. ألَّا يخبرها أبدًا".

ردَّت هي: "روبرتو" ليست له عَلاقة ألبتَّة. لقد اكتشفتُ الأمر بمفردي، أنا من فعلتُ ذلك".

سألها بدوره: "لماذا؟ لماذا فعلتِ شيئًا كهذا، يا "أنَّا"؟".

أجابته قائلة: "أنت لم ترَ الجروح".

اندفع "أنطونيو" متسائلًا: "جروح؟ أي جروح؟".

أجابت وهي تشير إلى باطن مرفقها: "تلك الجروح على ذراعها، قالت لي إنها كانت تُشعِرها بتحسن".

قال "أنطونيو" وهو يصرخ تقريبًا: "ما هذه الكذبة اللعينة التي تخبرينني بها؟!".

توسَّلت إليه "أنَّا" قائلة: "أعلم أن ما أقوله يبدو سخيفًا وحتى أنا لا أفهم جيدًا ما الذي كانت تفعله وكيف يجعلها في حالٍ أفضل، لكنْ عليك أن تصدقني يا "أنطونيو"، كل ما في الأمر أن "لورينسا" كانت في حالة سيئة، سيئة للغاية، فخفتُ عليها".

خفض صوته حتى صار همسًا: "وماذا حدث بعد ذلك؟".

تابعت "أنَّا": "كانت بحاجة إلى التحدث مع "دانييليه". كنت أريد فقط أن تتحسن حالتها، لم أكن أعتقد أن...".

كرَّر "أنطونيو" بقسوة وبنبرة حادة بعدما تحرَّك بضع خطواتٍ غاضبة خلال الغرفة: "لم تكوني تعتقدين هذا، ولم تظني ذلك، وما النتيجة إذن!". ثم صرخ وهو يفرد ذراعيه قائلًا: "تلك الفتاة تبحر الآن فعلًا في عرض البحر! أين عليَّ الآن أن أذهب لأعيدها؟ أين؟".

وضعتْ "أنَّا" يديها على فمها وتمتمت: "أنا آسفة".

أكمل "أنطونيو" أسئلته وهو يضرب جبهته بقبضة يده: "ولكن كيف لم تفكري في أنها قد تفعل هذا؟".

فكرَّرت هي بصوتٍ منخفض: "كنت فقط أريدها أن تتحسن".

صرخ باهتياج: "كان عليكِ أن تهتمي بأمورِكِ الخاصة ولا تتدخلي!". ثم خفض صوته حتى صار مجرد همهمة وأضاف قائلًا: "هي ليست ابنتكِ! "لورينسا" ليست "كلاوديا".

شعرت "أنَّا" حينها كأنها تلقَّت طعنة في ظهرها فقالت: "ماذا قلتَ؟".

فأجابها: "لا شيء".

قالت وهي تقترب منه: "سمعتكَ، كن شجاعًا وكرِّر ما قلته".

أشار بيده كأنه يقول لها أن تنسى الأمر، وأدار لها ظهره. همست له بنبرة حادة وهي تُجبره على الاستدارة بضربة من يدها: "كرِّر ما قلته".

فقال لها "أنطونيو" بدلًا من ذلك الذي أرادته: "كان عليكِ أن تبقي بعيدًا عن هذا الأمر. طلبتُ منكِ مساعدتي لتجعليها تتعقَّل وتتراجع عما تفعله، وليس لكي تضعي في يدها تذكرة للسفر إلى الجانب الآخر من العالم".

أجابت "أنَّا": "لم أضعْ في يدها أيَّ شيء! كنت أحاول مساعدتها، كما كنتُ أفعل دائمًا".

ضيَّق "أنطونيو" عينيه وقال: "كنتِ تعرفين كل شيءٍ سابقًا، أليس كذلك؟".

سألته "أنَّا" مستفسرة: "ماذا تقصد؟".

قال "أنطونيو": "كنت تعتنين بـ"چادا" كل يوم أربعاء، وأنت تعلمين أين تذهب أمها في تلك الأثناء".

أشاحت "أنَّا" بنظرها وحاولت الابتعاد عنه، لكنَّ "أنطونيو" أمسك بذراعها وقال: "وكنتِ تعلمين أيضًا أنها سترحل، وتسرَّتِ عليها وربما ما زلتِ تتسرَّين عليها، أليس كذلك؟".

صرخت "أنَّا" قائلة: "لا!".

قال "أنطونيو": "اعترفي!".

حاولت أن تفلت من قبضته، لكنه شدَّ عليها أكثر، ثم أضاف بنبرة صارمة ونظرة يملأها الغضب: "أنتِ كاذبة. لم أعدْ أثق بكِ، ولن أثق بكِ أبدًا بعد الآن".

حينئذٍ لمع في عيني "أنَّا" بريقٌ من الألم ثم صرخت هي بدورها قائلة: "وماذا عنكَ؟ كم عدد الأكاذيب التي قلتَها؟ بل منذ متى وأنت تقول الحقيقة أصلًا؟! متى قلت الحقيقة لـ"كارلو"؟ بل متى امتلكت الشجاعة...".

ترك "أنطونيو" ذراعها فجأة وهمهم وقد انتابتْه حالة من الذهول: "ما عَلاقة "كارلو" بما نتحدث عنه الآن".

أجابت وهي تواصل التحديق إليه: "أنت تعرف ما الذي أقصده". طَوال حياتها لم تنتابها مثل تلك الحالة من الغضب العارم الذي عجزت عن السيطرة عليه. شعرت كأن هذا الغضب سيجتاحهما معًا، وأنه على وشك أن يستحيل إلى حُمَمٍ من تلك التي لا تُخلِّف أي شيءٍ حيٍّ وراءها، ومع ذلك لم تتوقف. تابعت متسائلة: "قل لي كيف تشعر وأنت تتظاهر بأنك شخصٌ آخر غير ما أنت عليه. تتظاهر بأنك "أنطونيو" الأخ الكبير، "أنطونيو" الصادق المخلص".

همس بغضب قائلًا: "توقفي!".

لكنها واصلت: "هل تعرف ما الحقيقة؟ ربما كان لدى "كارلو" العديد من العيوب، لكنه كان على الأقل صادقًا. لم يختبئ قطُّ خلف قناع الفضيلة والإخلاص. كان أفضل منك، ولطالما عرفتَ ذلك".

عبس "أنطونيو" وفتح فمه كي يرد عليها، لكنه تراجع وأغلقه في الحال دون أن ينبسَ ببنت شفة، ثم توجَّه بخطوات سريعة نحو الباب. صاحت "أنَّا" قائلة: "كم تشعر الآن بالراحة بعدما لم يعد "كارلو" موجودًا؟ يمكنك الآن أخيرًا أن تستحل المشهد بأكمله، وأن تنال مرادك، أليس كذلك؟".

أدركتْ "أنَّا" حينها أن ما قالته كان بمنزلة سكِّين غرزته في صدر "أنطونيو" الذي توقَّف وتسمَّر في مكانه عند الباب، وقبل أن يفتحه بلحظة استدار وسار

نحوها مباشرة، ولطمها بكل ما أوتي من قوة وقال بصوتٍ مرتجف: "جرِّبي أن تكرري ما قلتِه وسأقتلكِ بيديَّ".

وضعتْ "أنَّا" يدها على خدها وحدَّقت إليه، مذعورةً وغير مصدِّقة ما فعله. قبض "أنطونيو" يديه وانطلق نحو الباب مجددًا. كان قد فتحه فعلًا عندما همست "أنَّا" قائلة: "لن أسامحكَ أبدًا على ما فعلته للتو".

التفتَ لحظةً وردَّ قائلًا: "ولا أنا سأسامحكِ"، ثم خرج وترك الباب مفتوحًا.



خاتمة
13 أغسطس 1961

قالت "چادا" بصوتِها الرنَّان وهي تفتح باب مكتب "أنطونيو" على مصراعيه: "لقد حان موعد الدواء يا جدي". ثم أضافت مبتسمة: "تخبرك الجدة أن تذهب إلى هناك؛ فقد جهَّزته لك".

استدار "أنطونيو" نحوها فجأة وهو جالس إلى مكتبه. عندما كانت "چادا" تبتسم بتلك الطريقة، كانت تشبه أمها إلى حدٍّ مذهل. في بعض الأحيان –خاصة في المدة الأخيرة– كان "أنطونيو" يخلط بينهما وينادي "چادا" باسم "لورينسا".

لم يرَ "أنطونيو" ابنته منذ ذلك اليوم من شهر مايو عام 1952. لكنْ كانت هناك بطاقة تهنئة تصل إليهم في كل عيد ميلاد من "نيويورك"، ولم يكن مكتوبًا فيها سوى الكثير من علامات التعجب وتوقيع "لورينسا".

أجابها جدها: "سآتي الآن، يا صغيرتي". ثم أضاف قائلًا: "أغلقي الباب وراءكِ من فضلكِ".

انتظر حتى غادرت "چادا" الغرفة، ثم أخرج الرسالة مجددًا من درج مكتبه بيدين مرتجفتين. كان ابنُ أخيه "روبرتو" قد أحضرها إليه قبل بضع ساعات في ظرفٍ أبيض لم يكنْ مكتوبًا عليها سوى كلمة واحدة "أنطونيو". تعرَّف "أنطونيو" على الفور ذلك الخط الدقيق والمموج؛ الذي لم يكن سوى خط "أنَّا".

كان "روبرتو" قد قال لعمِّه قبل أن يغادر: "لا أعرف محتوى هذه الرسالة، ولكنني آمل أن أراكَ في الجنازة لاحقًا".

مرَّر "أنطونيو" يده بحنانٍ على الرسالة وقرأها مرة أخرى:

"هل تتذكر تلك الرواية التي كنتُ أقرأها في "جالِّيبولي"؟ أعتقد أن ذلك كان في صيف عام 1937، عندما قضينا جميعًا الإجازة الصيفية معًا في تلك الفيلا الصغيرة الجميلة التي استأجرها "كارلو". كانت تلك الرواية بعنوان "التجاذب الاختياري" لـ"جوته". أثارت تلك الرواية فضولي لأنها طرحت السؤال ذاته الذي كنتُ أطرحه على نفسي في ذلك الوقت: ماذا يحدث لعَلاقة بين عنصرين إذا تداخَل بينهما عنصر ثالث؟ كنت آمل حينها –وكما كان يحدث معي دومًا– أن أجد إجابة لسؤالي بين صفحات الكتاب. لكنْ في تلك المرة، لم أعثر على الإجابة التي أردتها. أوتعرف ما السبب؟ لأن الإجابة كانت أمام عينيَّ طَوال الوقت. كنتَ أنت من قدَّم لي هذه الإجابة، حين كنتَ تستيقظ كل صباح من ذلك الصيف حالما تسمع وقع خطواتي في الممر (هل كنت تظن حقًّا أنني لم ألاحظ هذا؟)، وتلحق بي إلى الشرفة لتجلس على الكرسي المقابل لكرسيِّي، لتقرأ معي. فقط كي تكون بالقرب مني.

حسنًا، سأعترف لك بشيء. لقد ظللتُ طَوال هذه السنوات التي دام فيها الصمت والقطيعة بيننا، أضع الخطوط أسفل الجمل التي تعجبني في كل كتابٍ أقرأه، وأكتب إليك ملاحظاتي في هامشٍ جانبيٍّ كما اعتدتُ أن أفعل، رغم علمي أنك لن تقرأها أبدًا. أعلم أنكَ كرهتني، بل وكرهتني كثيرًا أيضًا، ولم تُفوِّت فرصةً دون أن تُظهِر لي هذا الكره، سواء من خلال تحيَّاتك الباردة المتحفظة عندما كنا نلتقي مصادفة في البلدة، أم من خلال تلك النظرات الحاقدة التي كنت ترمقني بها من بعيد، أم عندما كنت أُضطَرُّ في كل مرة آتي إليك في معصرة الزيتون كي أُحضِر لك البريد إلى التوقف عند الباب وعدم تجاوزه فأترك الرسائل مع السكرتيرة. هذا بالإضافة إلى أنك لم تأتِ حتى لترَى المقر الجديد لـ"بيت النساء" في "ليتشي". كم بذَلتَ من جُهْدٍ في كراهيتي؟ الكثير، أعلم هذا. ربما القدر

نفسه الذي بذلتَه أنا كي أكرهكَ، ولتعلم أنني لم أغفرْ لك تلك اللطمة. لكنْ لتعلم أيضًا أنني لم أغفر لنفسي تلك الكلمات المسمومة التي قلتها لك في تلك الليلة. ومع ذلك، لم أفكِّر قطُّ في المجيء للاعتذار إليك.

السبب الذي منعني من ذلك اتضح لي مؤخرًا فقط؛ فالمرض كما تعرف، أشبه بمفتاح القفل.

الحقيقة، يا عزيزي "أنطونيو"، هي أننا طَوال هذا الوقت كنَّا بحاجة إلى أن نكره بعضنا.

كان ذلك هو سبيلنا الوحيد كيلا نخون "كارلو".

إن الحقيقة –وكما قلت لي ذات مرة– تكمُن بين السطور.

وهل تعلم ما الحقيقة التي كانت تكمن بين سطوري؟ أنني كدتُ أحبك أكثر ممَّا أحببتُ "كارلو". ولم أكن لأسمح بهذا قطُّ. فـ"كارلو" لم يكن يستحق مني ذلك.

هأنت الآن تعرف الحقيقة كاملة.

لقد جرتِ الأمور كيفما كان يجب لها أن تجري.

أو على الأقل هذا ما أظنُّه".

"أنَّا"

وصلتْ فجأة، من وراء النافذة، صوت غمغمة مختلطة خفيفة غير مزعجة تلاها صوت الكاهن الجَهْوَري وهو يبدأ في تلاوة صلاة "الراحة الأبدية"، ليطغى صوته على صوت همسات الحضور. أمسك "أنطونيو" بمسندي الكرسي ونهض بصعوبة وبخطواتٍ بطيئة ومترددة، اقترب من النافذة وأزاح الستارة برفقٍ بإصبعين من يده.

مرَّ النعش أمام عينيه، محمولًا على أكتاف "روبرتو"، و"كارمينيه"، و"ناندو"، وعلى كتف رجلٍ آخر لم يكن "أنطونيو" يعرفه، يتبعه موكبٌ من الناس الذين تدثَّروا بملابس سوداء وساروا وراء النعش مطأطئين رؤوسهم.

ضيَّق "أنطونيو" عينيه وهو يتفحَّص الموكب، فتعرَّف "ماريا" زوجة "روبرتو"، ثم "چوفانَّا"، و"إيلينا"، و"كيارا" التي كانت ممسكةً بذراع زوجها، ثم "ميلينا"، و"ميكيلا"، التي كانت سكرتيرته بضعةَ أشهر، والعديد من النساء اللواتي لم يسبقْ له أن رآهن من قبل.

وفوق النعش لم يكن هناك إكليل الزهور المعتاد، بل قبَّعة "أنَّا"، تلك التي نُقِشَ عليها شعار النبالة الخاص بهيئات البريد الإيطالية.

وفي لمح البصر، عاد "أنطونيو" بذاكرته إلى صيف عام 1934، في ما بعد ظهيرة ذلك اليوم من شهر يونيو، حيث كانت رياح شديدة الحرارة تهبُّ على الميدان الخالي من المارة. كان يشعر يومها بالسعادة لأن شقيقه "كارلو" عاد أخيرًا إلى وطنه. ترجَّلت أيضًا من الحافلة الزرقاء التي أعادت شقيقه إلى جنوب إيطاليا، أجمل امرأة رآها في حياته. كانت لها عينان خضراوان بلون أوراق الزيتون، عينان لم يستطع التوقف عن التحديق إليهما؛ وربما لاحظت هي ذلك، إذ احمرَّ وجهها خجلًا مثل فتاة مراهقة.

هبَّت فجأة ريح قوية وسريعة جعلت القبعة تتطاير من فوق النعش وتسقط على الأرض، على بعد خطوةٍ واحدةٍ من باب بيته.

جفل "أنطونيو" حينها ثم أغلق الستارة في الحال.

شكر

أودُّ أن أوجِّه شكري الأول إلى "ليلا" و"بابوو"، لوجودهما الدائم بجانبي في كل كلمةٍ كتبتها وفي كل نقرةٍ نقرتها على لوحة المفاتيح، إذ كانا دائمًا مستلقيين على ساقيَّ في الشتاء أو جاثمين عند قدمي في الصيف. أما في الأوقات التي كنت أعاني فيها فتورًا في الإلهام، أو عندما يؤرقني مشهد أكثر تعقيدًا قليلًا من المعتاد، كان مجرَّد التنزه برفقتهما وسط صمت حقول "سالنتو" كافيًا لأجد الإجابات التي أبحث عنها.

كما أتوجَّه بشكرٍ خاصٍّ إلى أختي "إليزابيتَّا"، توأمة روحي، التي أهديتُ إليها روايتي "ساعية البريد". كانت "إليزابيتَّا" تقرأ بشغفٍ كل ما أكتبه في الرواية منذُ المسوَّدة الأولى، وأعلم أنها تُحبُّ شخصياتي بقدر ما أحبها أنا. يحدث أحيانًا أن تقول لي: "هل تتخيَّلين ماذا كان ليقول "كارلو" في هذا الموقف؟" أو "كان هذا ليستحق حقًّا أحد ردود "أنَّا".

كما أشكُر أمي "كلاوديا" لاحتفاظها –بكل حب ووفاء– بذكريات جدتها "أنَّا". فـ"ساعية البريد" الحقيقية كانت قد سلَّمتها –كونها كانت حفيدتها المفضلة– صورًا وبطاقات عمل وهاون ومدقة وكل شيءٍ عزيزٍ عليها، من بين ذلك وصفتها الثمينة لـ"البيستو" عمَّا يصنعه أهل مدينة "ليجوريا".

وأشكر أبي "فرانكو" على ثقته الثابتة التي لا تتزعزع أبدًا في كل مشاريعي، ودعمه المستمر الذي لا يتوقَّف لأحلامي.

404 الكتاب غير موجود...

أشكر كذلك "إيلاريا جاسباري"، التي شجَّعتني بحماسها الجارف على مواصلة الكتابة عندما كانت الرواية مجرَّد فكرة، مجرَّد حبكة عامة كتبتها في ثلاث صفحات فقط.

وأودُّ أن أمنح عناقًا مليئًا بالشكر والمودة لمحرِّرتي "كريستينا براسُّو"، فبفضلها وَجدَت "ساعية البريد" بيتًا لها. أشكرها على كل الحب الذي أولته لهذه القصة، وعلى الاهتمام الذي منحته إياها، وعلى دقتها الشديدة، ولأنها رأت ما ستصبح عليه الرواية قبل أن أراه أنا. كان العمل معها شرفًا حقيقيًّا لي بخلاف كونه رحلة رائعة وشيِّقة أشعر الآن حقًّا بالحنين إليها.

شكرًا من أعماق قلبي لفريق دار نشر "نورد" كله على الدفء والترحيب الحار الذي استقبلوا به "ساعية البريد"، وعلى دعمهم المستمر الذي جعلها تشعر بأنها في أيدٍ أمينة.

كما أوجِّه شكرًا خاصًّا لمصنع ومخزن نبيذ "ليونيه ديه كاستريس" على ما قدَّموه لي من استشارات فنية خلال مدة كتابتي للرواية. وذكري نبيذ "دونَّا أنَّا" في روايتي ما هو إلا تكريم رقيق ومحبٌّ لنبيذ "فايف روزيز" وتاريخه الاستثنائي. لقد تذوَّقت على مر السنين، أكثر من نوع نبيذ، ومع ذلك، يظلُّ "فايف روزيز" هو المفضَّل لدي. لا يمكن أن يحلَّ محله أي نوعٍ آخر.

قبل أن أختتم كلامي في هذا الصدد، أودُّ أن أقدِّم للقارئ بعض التوضيحات الضرورية؛ فالقرية التي وُصفت في هذه الصفحات باسم "ليتسانيلُّو" هي في الحقيقة مجموعة من عدة قرى صغيرة واقعة في مِنْطَقة "سالينتو". كنت أستعير منظرًا من كل قرية من تلك القرى لكي أنقِل للقارئ المناظر الطبيعية والأجواء المحلِّية لتلك المِنْطَقة بأفضل ما أستطيع. أمَّا سكان القرية الذين جئت على ذكرهم في الرواية فَهُم جميعًا من وحي خيالي ولا يمتُّون إلى الواقع بصِلة، وأي تشابه

بينهم وبين أشخاصٍ حقيقيين هو محض مصادفة وغير مقصودٍ تمامًا؛ وأخيرًا، يجب التنويه بأن الأحداث التي مرَّت بها أسرة "جريكو" خضعت لتعديلاتٍ كبيرة وإعادة صياغة واسعة النطاق كي تتنَاسب ومتطلبات السرد، فالقصة التي أرويها هنا ليست قصتهم الحقيقية.

وفي النهاية، أريد أن يكون شكري الأكبر من نصيب "أنَّا"، لأنها جاءت تبحث عني. كانت كلماتها الأخيرة قبل وفاتها، والتي أفضَت بها تلك أيضًا إلى أمي، هي: "لا أريد أن أُنسى".

لن تُنسَي أبدًا. أعدكِ بذلك.

404
الكتاب غير موجود..



قائمة الإصدارات كاملة